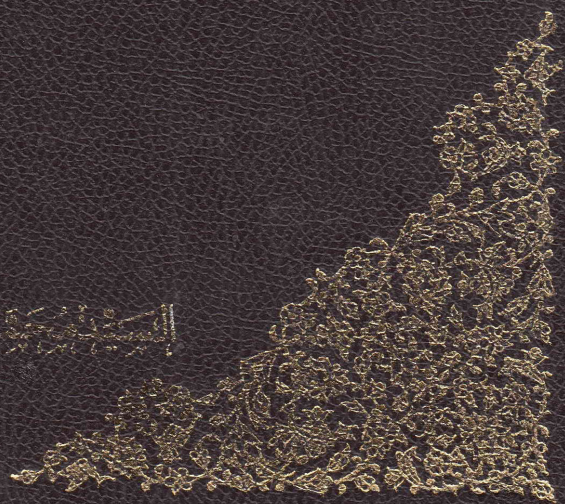


صِيَاةُ الْفَرَقَانِ
فِي تَقْرِيرِ الْقَارِئِ

الْبَيْهَقِيُّ

الْبَيْهَقِيُّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



ضياء الفرقان
فى
تفسير القرآن
مجلد ۱۱

لِمُؤَلِّفِهِ سِيدِ مُحَمَّدِ تَقَى النُّقْوَى

سرشناسه
عنوان و نام پدیدآور : ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن / لمؤلفه محمد تقی نقوی قاننی.
مشخصات نشر : تهران: قانن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری : ج. ۱۸.
شابک : 978-964-8981-24-24 و 978-964-8981-55-11؛ ج. ۱۱.
وضعیت فهرست نویسی : فیبا.
یادداشت : عربی.
موضوع : تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع : Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره : ۱۳۹۵ ض ۹۷/ن ۹۸ BP
رده‌بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی : ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الحادی عشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قاننی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الأولى

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسيق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قانن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

تفصیح الحقوق محفوظة للمؤلف

شابک: ۱ - ۵۵ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

٧	الجزء السادس عشر
٩	سورة الكهف
٥٣	سورة مريم
١٦٥	سورة طه
٣٤٣	الجزء السابع عشر
٣٤٥	سورة الأنبياء
٥٠٤	سورة الحج
٦١٩	الفهرست

الجزء

السادس عشر

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
 (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا
 تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦)
 فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا
 فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ
 يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا
 (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ
 بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا
 السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ
 فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ
 كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ
 مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠)
 فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَ
 أَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ
 يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ
 أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ
 يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ
 عَنْ أَمْرِ ذَلِكِ فَأُوَيْلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
 صَبْرًا (٨٢)

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا

أي قال الخضر لموسى ألم أقول، لك مراراً إنك لن تستطيع معي صبراً و هذا الكلام منه تحقيق ما قال له أولاً لا تويخاً له لأنه جار مجرى الذم و هو لا يجوز على الأنبياء فقال له موسى في الجواب عن ذلك إن سألتك عن شيء تعمله بعد هذا فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً، وهذا إقرار من موسى بأن صاحبه قد قدم إليه ما يوجب القدر عنده فلا يلزمه ما أنكره و قرأ الجمهور فلا تصاحبني و قرأ عيسى و يعقوب فلا تصحبني بصيغة المضارع مضارع سحب و قري بضم التاء و كسر الحاء مضارع، أصحب و معنى قد بلغت من لدني عذراً، أي قد اعتذرت إلي و بلغت لي العذر من، لدني، بإدغام نون، لدن، في نون الوقاية التي إتصلت بياء المتكلم و قرأ نافع و عاصم بتخفيف التون و هي نون، لدن، إتصلت بياء المتكلم و هو القياس لأن أصل الأسماء إذا أضيفت إلى ياء المتكلم لم تلحق نون الوقاية نحو غلامي و فرسي.

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا

فإنطلقا أي مشياً حتى إذا أتيا قرية، قيل و القرية التي أتيا أهلها أنطاكية أو الأبله أو بجزيرة الأندلس و هي الجزيرة الخضراء أو ناصرة من أرض الروم و الأقوال فيها كثيرة مختلفة و الكل لا دليل عليه و الله أعلم بحقيقة ذلك فالمعنى أنهما مضيا حتى أتيا قرية إستطعما أهلها أي طلبا منهم ما يأكلانه فإمتنع أهل القرية من تضييفهما، فوجدا، أي موسى و الخضر، فيها، في القرية جداراً يريد أن ينقض أي وجدا حائطاً قارب أن ينقض أي يسقط أو يتفتت فيصير حصاة، فأقامه، أي فأقام الخضر الجدار لئلا يسقط فظاهر الكلام يدل

على أَنَّ الخضر لم يهدم الجدار بل بناه كما هو المستفاد من قوله فأقامه، قَالَ لَوْ شِئْتُ، أي قال موسى لخضر لو شئت لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا لِأَنَّ بناه بعد هدمه يستحقُّ عليه أَجْرًا.

و قال ابن جبير مسحه بيده و أقامه فقام و قيل أقامه بعمودٍ و عمدته به. قال بعض المفسرين لما أقام الجدار لم يتمالك موسى بعد أن رأى الحرمان و مساس الحاجة إن قال الخضر لو شئت لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا و طلبت على عملك جعلاً حتّى تنتعش به و تستدفع الضرورة.

و قال ابن عطية قوله، لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا، و أن لم يكن سؤالاً ففي ضمنه الإنكار لفعل الخضر من إقامته الجدار بلا عوض ففيه تخطئة ترك الأجر لقوم أبو أن يضيفوهما و الحاصل أَنَّ في كلامه هذا إنكار لما فعله خضر من إقامة الجدار بلا عوضٍ ضمناً و لذلك قال الخضر في جواب موسى ما حكى الله عنه.

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا
أي قال الخضر لموسى هذا فراق بيني و بينك، و الظاهر أَنَّ، هذا، إشارة الى قوله: لَوْ شِئْتُ لا الى جميع جواز الإنكار أي هذا الإعراض سبب الفراق بيننا على حسب ما سبق من الميعاد و هو قوله إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، و هذه الجملة و أن لم تكن سؤالاً ظاهراً إلا أنها تتضمنه إذا المعنى ألم تكن تتخذ عليه أجراً لإحتياجنا إليه ثم قال الخضر لموسى، سأنبئك، أي سأخبرك بتأويل قولي لك أنك لن تستطيع معي صبراً، من خرق السفينة و قتل الغلام و إقامة الجدار بما آل إليه الأمر فيما كان ظاهره أن لا يكون.

قال بعض المحققين في هذه الأمثلة التي وقعت بين موسى و الخضر حجة على موسى و إعجاله و ذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودي يا موسى أين كان تدبيرك هذا و أنت في التابوت مطروحاً في اليم، فلما أنكر قتل الغلام قيل له

أين إنكارك هذا من وكز القبطي و قضائك عليه، فلما أنكر إقامة الجدار نودي
أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجرة سأنبتك في معاني هذا
معك و لا أفارقك حتى أوضح لك ما إستبهم عليك فقال:

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَ
كَانَ رَأْيَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا، قِيلَ أَنْ مُوسَى لَمَّا عَزَمَ الْخَضِرُ
عَلَى مَفَارِقَتِهِ أَخَذَ بَنِيَابِهِ وَقَالَ لَا أَفَارِقُكَ حَتَّى تَخْبِرَنِي بِمِ أَبَاحِ لَكَ فَعَلَّ مَا
فَعَلْتَ فَلَمَّا إلتَمَسَ ذَلِكَ أَخَذَ الْخَضِرُ فِي الْبَيَانِ وَ التَّفْصِيلِ فَقَالَ لِمُوسَى
أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ بِدَأْ بِقِصَّةِ مَا وَقَعَ لَهُ أَوَّلًا.
قِيلَ أَنَّهَا كَانَتْ لِعَشْرَةِ إِخْوَةٍ زَمَنِي وَ خَمْسَةِ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ وَ قِيلَ كَانُوا
جَرَاءً فَنَسَبَتْ إِلَيْهِمُ لِلإِخْتِصَاصِ وَ كَيْفَ كَانَ فَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِّلسَّفِينَةِ كَانَتْ
لِقَوْمٍ ضَعْفَاءٍ يَنْبَغِي أَنْ يَشْفَقَ عَلَيْهِمْ وَ إِحْتِجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْمَسْكِينِ هُوَ
الَّذِي لَهُ بَلْغَةٌ مِنَ الْعَيْشِ كَالسَّفِينَةِ لَهُؤُلَاءِ وَ أَنَّهُ أَجْصَلُ حَالًا مِنَ الْفَقِيرِ، فَأَرَدْتُ
أَنْ أَعِيبَهَا، وَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ وَرَائِهِمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا، هَذَا
الْكَلَامُ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَلِكَ كَانَ يَأْخُذُ السَّفِينَةَ الصَّحِيحَةَ وَ لَا يَأْخُذُهَا إِذَا كَانَتْ
مَعِيبةً وَ هَذَا هُوَ السَّرُّ فِي خَرَقِ السَّفِينَةِ.

وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَ كُفْرًا
قِيلَ فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ وَ تَقْدِيرُهُ وَ كَانَ كَافِرًا وَ كَذَا وَ جَدَّ فِي مِصْحَفِ، أَبِي، وَ
قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَ كَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ قِيلَ وَ نَصَّ فِي
الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا مِطْبُوعًا عَلَى الْكُفْرِ وَ يَرَادُ بِأَبَوَيْهِ أَبُوهُ وَ أُمُّهُ ثَنِي
تَقْلِيبًا مِنْ بَابِ الْقَمَرَيْنِ فِي الْقَمَرِ وَ الشَّمْسِ، فَخَشِينَا فَخَشِينَا، أَي خَفْنَا، أَنْ
يُرْهِقَهُمَا، أَي أَوْقِعَهُمَا، طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فَيَكُونُ ذَلِكَ مِفسِدَةً فَأَمَرَ اللَّهُ بِقَتْلِهِ لِذَلِكَ
كَمَا لَوْ أَمَاتَهُ.

فَقَارَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا أَي أَرْدْنَا مِنْ قَتْلِ الْغُلَامِ أَنْ يُبَدِّلَ اللَّهُ لِأَبُوَيْهِ خَيْرًا مِنْ هَذَا الْغُلَامِ زَكَاةً، أَي صَلَاحًا وَطَهَارَةً، وَ أَقْرَبَ رُحْمًا، أَي أَتْرَبُ بَوَالِدِيهِ مِنَ الْمَقْتُولِ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ أَقْرَبُ أَنْ يَرْحَمَاهُ بِهِ ثُمَّ أَخْبَرَ الْخَضِرُ عَنِ مَالِ الْجِدَارِ فَقَالَ:

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا

قال الخضر، و أما الجدار فكان، ملكاً، لغلّامين يتيمين، صغيرين إذا لا يتم بعد البلوغ قيل إسمهما أحرم و حريم و إسم أبيهما كاشح و إسم أمهما دهنًا، و كان تحته، أي تحت الجدار، كنز لهما، أي لليتين الصغيرين و الكنز مالٌ مدفون تحت الأرض، و كان أبوهما صالحاً، يعني أبا اليتين، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما، يعني كما لهما من الإحتلام و العقل، و يستخرجا كنزهما رحمةً من ربك أي نعمةً عن أمري، أي ما فعلت ذلك من قبل نفسي بل فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى، ذلك، الذي قتلته لك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً هذا ما ذكره المفسرون في تفسير الآية بقي في المقام أبحاث حول الآية لا بد لنا من التنبية عليها إجمالاً.

البحث الأول: أنّ موسى المذكور في الآية هل هو موسى بن عمران المرسل إلى بني إسرائيل أو غيره فقال قومٌ أنّ المذكور في الآية هو موسى بن ميثا بن يوسف أو موسى بن أفراثيم بن يوسف و الجمهور على خلافه.

قال محمّد بن إسحاق يقول أهل الكتاب أنّ موسى الذي طلب الخضر هو موسى بن ميثا بن يوسف و كان نبياً في بني إسرائيل قبل موسى بن عمران إلاّ أنّ الذي عليه الجمهور أنّه موسى بن عمران إنتهى.

وقال في قوله تعالى: **فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا الْجُمُهورِ عَلَىٰ أَنَّهُ الْخَضِرُ** و إسمه بليا بن ملكان و قيل اليسع و قيل الياس **أَتَيْنِيهِ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا هِيَ الْوَحْيِ وَ النَّبُوةِ وَ الْفَتَى فِي الْآيَةِ** يوشع بن نون هذا هو المشهور عند المفسرين من العامة و الخاصة و يؤيده أن الله تعالى لم يذكر في كتابه موسى غير موسى بن عمران.

البحث الثاني: أن موسى بن عمران كان من أعظم الأنبياء و قد عدّ من أولي العزم فكيف يجوز أن يتبع غيره و يتعلم منه و عندنا أن النبي لا يجوز أن يفتقر إلى غيره ثم كيف يجوز أن يقول له الخضر أنك لن تستطيع معي صبراً، و الإستطاعة هي القدرة فكيف يمكن أن لا يكون موسى قادراً على الصبر هذا أولاً. ثم كيف قال موسى ستجدني إنشاء الله صابراً أو لا أعصي لك أمراً فاستثنى المشيئة في الصبر و أطلق فيما ضمنه من طاعته و إجتناح معصيته و كيف قال موسى لقد جئت شيئاً إمراً أو شيئاً نكراً و ما أتى الخضر منكراً على الحقيقة و ما معنى قوله لا تؤاخذني بما نسيت و قد ثبت أن الأنبياء لا يجوز عليهم النسيان و لم نعت موسى النفس بأنها زكية و لم يكن كذلك على الحقيقة و لم قال فخشياً فإن كان الذي خشيه هو الله تعالى على ما ظنه قوم لا يجوز عليه تعالى و أن كان هو الخضر فكيف يستبيح دم الغلام لأجل الخشية فهذه الأمور كلها ينافي مقام النبوة و هذا هو الذي صار باعثاً على القول بأن موسى المذكور في الآية ليس موسى بن عمران.

نقول في الجواب أن هذه الأمور لا تنافي مذهب الجمهور و لا مقام النبوة. أمّا العالم الذي نعته الله في هذه الآيات فلا يجوز إلا أن يكون نبياً فاضلاً و قد قيل أنه الخضر و ليس يمتنع أن يكون الله تعالى قد أعلم هذا العالم ما لم يعلمه موسى و أرشد موسى ليتعلم منه و أنما الممتنع أن يحتاج النبي في العلم إلى بعض رعيته ممن أرسل إليهم إذ عليه يلزم تقديم المفضل على الفاضل و هو قبيح عقلاً.

و أما ما تعلمه النبي من عالم آخر غير ما ذكرناه فليس تعلمه منه إلا كتعلمه من الملك الذي يهبط إليه بالوحي و ليس في هذا دلالة على أنه كان أفضل من النبي و إلا يلزم أن يكون جبرئيل مثلاً أفضل من رسول الله و غيره من الأنبياء هذا أولاً.

أما ثانياً: فنقول كون عالم أفضل من عالم آخر في بعض العلوم لا يدل على الأفضلية مطلقاً إذا عرفت هذا فنقول:

العالم الذي تعلم منه موسى و هو الخضر على الأشهر لم يكن ممن أرسل إليه موسى و لم يكن أعلم و أفضل من موسى في جميع العلوم بل كان أعلم في علم خاص أو علوم خاصة من علم الغيب كما قال تعالى: وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا أَي نوعاً من العلم و أما في غير هذا النوع من العلوم فلم تثبت أفضليته بل الأمر بالعكس و إذا كان كذلك فهو أفضل من موسى في بعض العلوم الذي يتعلق بالباطن و موسى أفضل منه في العلوم الظاهرية و الباطنية من حيث المجموع فموسى أفضل منه بقولٍ مطلقٍ و هو المطلوب.

و أما نفي إستطاعته فأنما أراد بها أن الصبر لا يخف عليك و أنه يتحمل على طبيعتك و ذلك كما يقول أحدنا لغيره أنك لن تستطيع أن تنظر إلي و كما يقول للمريض الذي يجهد الصوم و أن كان قادراً عليه أنك لن تستطيع الصيام تطبيقه فليس معنى هذا الكلام سلب الإستطاعة مطلقاً و ما نحن فيه من هذا القبيل و بالجملة أن الصبر على ما تكره النفس ثقيل عليها و لا فرق في ذلك بين النبي و غيره إلا أن النبي يصبر عليه مع ثقله على النفس و غيره لا يصبر لقلة إيمانه فقوله: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ليس فيه نفي ماهية القدرة و الإستطاعة هذا كله مضافاً إلى أنه ربما يعبر بالإستطاعة عن الفعل نفسه كما قال تعالى حكاية عن الحواريين هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَاءً بَدِيدًا مِنْ السَّمَاءِ^(١) أي هل نفعل ذلك فعلى هذا الوجه كأنه قال لموسى أنك لن تصبر و

لن يقع منك الصبر بمقتضى طبيعتك و الحاصل أن المنفي في المقام هو الصبر دون الإستطاعة و الدليل على ذلك هو قول موسى في الجواب ستجدني إنشاء الله صابراً حيث لم يقل مستطيعاً ولو كان المنفي هو الإستطاعة لقال ستجدني إنشاء الله مستطيعاً.

و أما قوله و لا أعصي لك أمراً فهو أيضاً مشروط بالمشيئة و ليس بمطلق فكأنه قال ستجدني صابراً و لا أعصي لك أمراً إنشاء الله و تعليق الفعل على المشيئة مما لا إشكال فيه.

و أما قوله لقد جئت شيئاً إمرأ فقد قيل أنه أراد شيئاً عجباً أو منكرأ بعضهم أن الأمر هو الداهية فكأنه قال جئت داهية و على هذا فمعنى الكلام أن ظاهر ما، يتيه المنكر و من يشاهده ينكره قبل أن يعرف علته و يحتمل أن يكون من حذف الشرط فكأنه أراد أن كنت قبلته ظالماً لقد جئت شيئاً نكراً، أو يكون المراد أنك أتيت أمراً بديلاً غريباً و أمثال ذلك من الإحتمالات و محصل الكلام أنك أتيت أمراً عجبياً أو منكرأ ظاهراً و هذا لا ينافي أن يكون اعتقاده بحسب الواقع أنه غير منكر.

و أما قوله: **لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ، فِيمَكُنْ أَنْ يَرَادَ بِالنَّسْيَانِ التَّرْكَ** كما في قوله تعالى: **وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ^(١)** أي ترك و عليه فالمعنى لا تؤاخذني بما تركت من عهدك، و يمكن أن يقال أنه أراد لا تؤاخذني بما فعلته مما يشبه النسيان فسماه نسياناً للمشابهة كما قال المؤذن لإخوة يوسف أنك لسارقون، أي أنكم تشبهون السراق و كما يتأول الخبر الذي رواه أبو هريرة عن النبي أنه قال كذب إبراهيم ثلاث كذبات، في قوله سارة أختي، و في قوله بل فعله كبيرهم و في قوله: **إِنِّي سَقِيمٌ** و المراد بذلك أن كان الخبر صحيحاً أن إبراهيم فعل ما ظاهره الكذب و إذا حملنا هذه اللفظة، بلى غير النسيان الحقيقي فلا سؤال فيها أصلاً.

و أما إذا حملناه على النسيان الحقيقي فعلى مذهب العامة لا إشكال فيه لأنهم يجوزون السهو والنسيان على الأنبياء وأما على مذهبنا فإنه لا يجوز على النبي النسيان فيما يؤدبه أو في شرعه أو في أمر يقتضي التنفير عنه وأما فيما هو خارج عما ذكرناه فلا مانع من النسيان بمقتضى الطبع البشري كما إذا نسى أو سهى في مأكله أو مشربه على وجه لا يستمر ولا يتصل فأذن ذلك غير ممنوع هكذا قيل وفيه نظر والحق أن النسيان بمعنى الترك كما مر فلا سؤال جواب.

البحث الثالث: في قوله: **أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**، حيث وصف موسى النفس بأنها زكية ولم تكن كذلك واقعاً فكيف خفي على موسى ذلك.

والجواب أن الكلام خرج مخرج الإستفهام لا على سبيل الأخبار وإذا كان إستفهاماً فلا سؤال ولا جواب في هذا الموضوع وقد اختلف المفسرون في هذه النفس فقال أكثرهم أنه كان صبيّاً لم يبلغ الحلم وعلى هذا يجب أن يحمل قوله: **زَكِيَّةً**، على أنه من الزكاة الذي هو الزيادة والنماء لا من الطهارة في الدين وذهب قوم إلى أنه كان رجلاً بالغاً كافراً ولم يكن موسى يعلم بإستحقاقه القتل فإستفهم عن حاله.

و أما قوله: **فَحَشِينًا** أن يرهقهما طغياناً وكفراً فالظاهر أن الخشية هي من العالم لا منه تعالى والخشية هنا بمعنى العلم كما:

قال الله تعالى: **وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْثِهَا نُسُورًا** ^(١).

قال الله تعالى: **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً** ^(٢).

و أمثال ذلك فأذن الخشية فيها بمعنى العلم وعلى هذا فالمعنى أنني علمت بإعلام الله لي أن هذا الغلام متى بقي كفر أبواه ومتى قتل بقيا على إيمانهما فصارت تبقيته مفسدة ووجب إحترامه ولا فرق بين أن يميته الله تعالى وبين

أن يأمر بقتله وأن قلنا أنّ الخشية هاهنا بمعنى الخوف الذي لا يكون معه يقين ولا قطع فهذا يطابق جواب من قال أنّ الغلام كان كافراً مستحقاً للقتل لكفره. وأما مسألة الجدار والسّفينة فلا كلام لأحدٍ فيها ومحصّل الكلام في الكلّ هو أنّ العالم أعني به الخضر كان له علم خاصّ ممّا علمه الله تعالى وقد يعبر عنه بعلم الباطن ولم يكن هو من أمة موسى وهذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً وشرعاً فإنّ النبيّ ينبغي أن لا يحتاج في علمه إلى أمته وأما إلى غير الأمة فلا دليل عليه مضافاً إلى أن يكون الغير في علم خاصّ أعلم من النبيّ لا يلزم منه أن يكون أعلم منه في جميع العلوم وذلك لأنّ علوم الأنبياء ليست من العلوم الكسبيّة بل هي الدّنية أفاض الله عليهم والإفاضات الربانيّة بحسب الإستعدادات والقابليّات والمصالح التي لا يعلمها إلا هو ولهذا قال تعالى: **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**^(١) وهذا على القول بأنّ الخضر كان من الأنبياء واضح لا خفاء فيه إذ لازم ذلك أن يكون نبياً أعلم من نبيّ آخر محذور فيه.

البّحث الزّابع: أنّ الاستفادة من الآية أنّه لا ينبغي لأحدٍ من المخلوقات أن يعجب بنفسه في علمه وذلك لأنّ فوق كل ذي علم عليم والذي أحاط علمه بكلّ الأشياء ظاهرها وباطنها هو الله تعالى وأما ما سواه كائناتاً ما كان فهو محتاج إلى التّعلّم إلى آخر عمره نبياً كان أو غيره إلا أنّ الأنبياء يتعلّمون من الله تعالى بالوحي والإلهام وأما غيرهم فيتعلّمون منه بواسطة العلماء وإن شئت قلت علوم الأنبياء ليست كسبيّة.

وأما القول بأنّ النبيّ وإن كان من أعظم الأنبياء يعلم جميع الأشياء ولا يحتاج إلى التّعلّم ولو من الله تعالى فلم يقل به أحد وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمره الله أن يقول ربّ زدني علماً، والأصل فيما ذكرناه هو قوله تعالى: **وَ مَا**

أَوْ تَنْبِئُكُمْ مِنْ أَلْعَلِمِ إِلَّا قَلِيلًا^(١) فالمخلوق فقيرٌ محتاج في جميع شئونه في علمه وقدرته وحياته وبالجملة في ذاته وصفاته والغني المطلق ليس إلا الله تعالى وهذا بحمد الله واضح لا خفاء فيه.

البحث الخامس: روى المجلسي رحمته عن الصدوق بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال لما لقي موسى العالم وكلمه وسأله نظر إلى خطاف تصغي و ترتفع في الماء و تسفل في البحر فقال العالم لموسى أتدري ما تقول هذه الخطاف قال و ما تقول قال تقول و ربّ السموات و الأرض و ربّ البحر ما علمكما من علم الله إلا قدر ما أخذت بمنقاري من هذا البحر و أكثر و لما فارقه موسى قال موسى أوصني فقال الخضر لزم ما لا يضرك معه شيء كما لا ينفعك مع غيره شيء و إياك و اللجاجة و المشي إلى غير حاج و الضحك في غير تعجب بابن عمران لا تعيرن أهدأ بخطيئته و أبك على خطيئتك إنتهى.

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان وصي موسى يوشع بن نون و هو فتاه الذي ذكره الله في كتابه إنتهى.

و بأسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: كان موسى أعلم من الخضر إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكوةً و أقرب رحماً، قال ولدت لهما جارية فولدت غلاماً فكان نبياً إنتهى.

و في حديث آخر ولدت سبعين نبياً،

و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: و كم من إنسان له حق لا يعلم به قال قلت و ماذا يا بن رسول الله قال عليه السلام: أن صاحبي الجدار كان لهما كنز تحته أما أنه لم يكن ذهب و لا فضة قال قلت فأيتهما كان أحق به فقال الأكبر كذلك نقول إنتهى.

و عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله قال: سألته عن قول الله و أمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة و كان تحته كنزٌ فقال عليه السلام أمّا أنّه ما كان ذهباً و لا فضّةً و أمّا كان أربع كلمات، أنّي أنا الله لا إله إلا أنا، من أيقن بالموت لم يضحك سنّه و من أقر بالحساب لم يفرح قلبه و من آمن بالقدر لم يخش إلا ربّه إنتهى.

وفي حديثٍ آخر و عجت لمن أيقن بالقدر كيف يستبطن الله في رزقه و عجت لمن يرى النشأة الأولى كيف ينكر النشأة الآخرة إنتهى ^(١).



وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ
 مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتَيْنَاهُ
 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا
 بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
 وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ
 تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَا
 مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ
 عَذَابًا نُكَرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ
 جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)
 ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ
 وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا
 سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)
 ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ
 وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا
 (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَ مَا جُوجَ
 مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ
 أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي
 فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ
 بَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) أَتُونِي زَبْرًا أَلْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا
 سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ
 نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا
 اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي
 جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا
 بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
 فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
 لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي
 غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا
 (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي
 مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
 نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا
 (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
 يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥)
 ذَلِكَ جَزَاءُ وَهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي
 وَرُسُلِي هُزُؤًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧)
 خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ
 كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ
 أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)
 قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ
 إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
 عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

◀ اللغة

عَيْنَ حِمِيَّةٍ: أي ماء ذات حمأة.
 رَدْمًا: الرَّدْمُ أشدُّ الحجاب.
 زُبْرُ الْحَدِيدِ: الزُّبْرُ بضم الزاء الجملة المجتمعة من الحديد والصفرو
 نحوهما وأصله الإجماع.
 بَيْنَ الصَّدْفَيْنِ: الصدفان الجبلان.
 قَطْرًا: القطر النَّماس.
 دَكَّاءَ: بفتح الدال أي مذكوكاً مستويًا بالأرض.
 هَزْؤًا: أي سخريّة وإستهزاء.

◀ الإعراب

فَأَتَّبَعَ يروى بوصل الهمزة و التّشديد و سببًا مفعوله و يقرأ بقطع الهمزة و التّخفيف و هو متعلد إلى إثنين أي أتبع سبباً سبباً حِمِيَّةٍ صفة عينٍ إمّا أَنْ تُعَدَّبَ أَنْ في وضع رفع بالابتداء والخبر محذوف أي أمّا العذاب واقع منك بهم جَزَاءً الْحُسْنَى مصدر في موضع الحال أي مجزيًا بها و قيل هو مصدر على المعنى أي يجزي بها جزاء و قيل تمييز و يقرأ بالنّصب من غير تنوين مَطْلِعِ الشَّمْسِ يجوز أن يكون مكاناً و أن يكون مصدرًا و المضاف محذوف أي مكان طلوع الشمس كذَلِكَ أي الأمر كذلك بَيْنَ السَّدَّيْنِ بين هاهنا مفعول به و السّد بالفتح مصدر سدّ و هو بمعنى المسدود و بالضّمّ إسم له يَأْجُوجَ وَ مَا أَجُوجَ هما إسمان أعجميان لم ينصرفا للعجمة و التصريف ما مَكَّنِي ما، بمعنى، الذي و هو مبتدأ و (خَيْرٌ) خبره و (قَطْرًا) مفعول أتوني و مفعول، أفرغ، محذوف أي أفرغه الَّذِينَ كَانَتْ في موضع جرّ صفة للكافرين أو نصب بإضمار أعني أو رفع بإضمار، هم أَعْمَالًا تمييز و زُنًا تمييز أو حال ذَلِكَ مبتدأ و جَزَأَوْهُمْ مبتدأ ثانٍ و جَهَنَّمَ خبره و الجملة خبر الأوّل و العائد محذوف أي

جزاؤهم به لا يَبْعُونَ حَال من الضمير في خالد بن مَدَدًا تمييزاً أَنَّمَا إِلَهُكُمْ هَاهُنَا مصدرية ولا يمنع من ذلك دخول ما، العامة عليها.

◀ التفسير

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا

الضمير في يسألونك عائذ على قريش أو على اليهود والمشهور أن السائلين قريش حين دسّتها اليهود على سؤاله عن الروح وفتيته ذهبوا في الدهر ليقع إمتحانه بذلك و ذو القرنين هو الإسكندر اليوناني على قول ابن إسحاق وقال وهب هو رومي وهل هو نبي أو عبد صالح ليس بنبي قولان، قيل ملك الدنيا مؤمنان سليمان و ذو القرنين و كافران، نمرود و بخت نصر و كان بعد نمرود و نقلت العامة في تفاسيرهم عن علي عليه السلام أنه قال كان عبداً صالحاً ليس بملك و لا نبي ضرب على قرنه الأيمن فمات في طاعة الله ثم بعته الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعته الله فسمي ذو القرنين.

وقيل سمّي به لأنه طاف قرني الدنيا يعني جابها شرقها و غربها.

وقيل كان له قرنان صغيرتان و الأقوال فيه كثيرة.

و قد روي أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله يسألونك عن ذي القرنين الآية، قال عليه السلام أن ذا القرنين بعته الله إلى قومه فضرب على قرنه الأيمن فأماته الله خمس مائة عام ثم بعته الله إليهم بعد ذلك فضرب على قرنه الأيسر فأماته الله خمس مائة عام ثم بعته إليهم بعد ذلك فملكه مشارق الأرض و مغاربها من حيث تطلع الشمس إلى حيث تغرب الحديث، و سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن ذي القرنين أنبيأ كان أم ملكاً فقال لا نبياً و لا ملكاً بل كان عبداً أحبّ الله فأحبّه الله و نصح لله فنصح له فبعته الله إلى قومه فضربوه على قرنه الأيمن فغاب عنهم ما شاء الله أن

يَغِيبُ ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ الثَّانِيَةَ فَضْرِبُوهُ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْسَرَ فَعَابَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ الثَّلَاثَةَ فَمَكَنَ اللَّهُ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَفِيكُمْ مِثْلَهُ يَعْنِي نَفْسَهُ الْحَدِيثُ (١).

أَقُولُ يَظْهَرُ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ وَأَمْثَالِهِ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ كَانَ نَبِيًّا بَدِيلًا لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ ثُمَّ مَكَنَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ النَّبُوءَةِ فَصَارَ مَلِكًا وَعَلَى هَذَا فَهُوَ مِثْلُ سَلِيمَانَ النَّبِيِّ مَلِكِ الْأَرْضِ شَرْقَهَا وَغَرْبَهَا مَعَ النَّبُوءَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ مَا يَعْجِبُنِي ذَكَرَهُ وَنَسَبَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ شَابًا مِنْ الرُّومِ فَجَاءَ بِنِي مَدِينَةَ مِصْرَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ فَلَمَّا فَرَّغَ جَاءَهُ مَلِكٌ فَعَلَّابَهُ فِي السَّمَاءِ فَقَالَ لَهُ مَا تَرَى فَقَالَ أَرَى مَدِينَتِي وَمَدَائِنَ ثُمَّ عَلَّابَهُ فَقَالَ مَا تَرَى قَالَ أَرَى مَدِينَتِي ثُمَّ عَلَّابَهُ فَقَالَ مَا تَرَى قَالَ أَرَى الْأَرْضَ قَالَ فَهَذَا الْيَمِّ مُحِيطٌ بِالدُّنْيَا أُنَّ اللَّهُ بَعَثَنِي إِلَيْكَ تَعَلَّمَ الْجَاهِلُ وَتَثِيبُ الْعَالَمِ فَأَتَى بِهِ السُّدَّ وَهُوَ جَبْلَانِ لَيْثَانِ يَزْلِقُ عَنْهُمَا كُلُّ شَيْءٍ ثُمَّ مَضَى بِهِ حَتَّى جَاوَزَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ثُمَّ مَضَى بِهِ إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى وَجُوهَهُمْ وَجُوهُ الْكَلَابِ يَفْقَاتُلُونَ مَأْجُوجَ وَيَأْجُوجَ ثُمَّ مَضَى بِهِ حَتَّى قَطَعَ بِهِ أُمَّةً أُخْرَى يَفْقَاتُلُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجُوهَهُمْ وَجُوهُ الْكَلَابِ ثُمَّ مَضَى بِهِ حَتَّى قَطَعَ بِهِ هَؤُلَاءِ إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى قَدْ سَمَّاهُمْ إِنْتَهَى.

أَقُولُ أَنْظُرُوا يَا أَهْلَ الْإِنصَافِ إِلَى هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ الْبَاطِلَةِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي هِيَ بِكَلَامِ الشَّيَاطِينِ أَشْبَهَ مِنْهُ بِكَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْعَجَبُ أَنَّهُ وَأَمْثَالُهُ بِهِذِهِ الْمَوْصُوفَاتِ يَفْسِرُونَ كَلَامَ اللَّهِ وَإِذَا كَانَ الطَّبْرِيُّ وَهُوَ يَقُولُ فِي تَفْسِيرِهِ أَمْثَالَ هَذِهِ الْأَرَاجِيفِ فَمَا ظَنُّكَ بِأَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ وَهُمْ أَكْثَرُهُمْ لَوْلَا جَمْعُهُمْ وَأَنْتِ أَيُّهَا الْقَارِئُ مَا تَفْهَمُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الْمَوْضُوعِ وَنَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي كِتَابِهِ.

وقد روي جابر بن عبد الله الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول أنّ ذا القرنين كان عبداً صالحاً جعله الله عزّ وجلّ حجةً على عباده فدعا قومه إلى الله و أمرهم بتقواه فضربوه على قرنه فغاب عنهم زماناً حتى قيل مات أو هلك بأيّ وادٍ سلك ثمّ ظهر و رجع إلى قومه فضربوه على قرنه الآخر و فيكم من هو على سنته الحديث.

و عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: أنّ الله لم يبعث أنبياء ملوكاً في الأرض إلاّ أربعة بعد نوح، أولهم ذو القرنين و اسمه عياش و داود و سليمان و يوسف.

و عن كتاب الخصال بأسناده، ملك الأرض كلّها أربعة مؤمنان و كافران فأما المؤمنان فسليمان بن داود و ذي القرنين و أما الكافران، نمرود و بخت نصر و إسم ذي القرنين عبد الله بن ضحاك بن معدٍ إنتهى^(١).

إذا عرفت هذا فنقول يظهر من بعض الأخبار أنّ الخضر كان مع ذي القرنين.

فقد روي المجلسي في البحار عن الصدوق بالأسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال: أنّ ذي القرنين كان عبداً صالحاً لم يكن له قرن من ذهبٍ و لا فضّةٍ بعثه الله في قومه فضربوه على قرنه الأيمن فغاب عنهم ثمّ عاد إليهم فدعاهم فضربوه على قرنه الأيسر و فيكم مثله قالها ثلاث مراتٍ و كان قد وصف له عين الحياة و قيل له من شرب منها شربة لم يمّت حتى يسمع الصّيحة و أنّه خرج في طلبها حتى أتى موضعاً كان فيه ثلاث مائة و ستون عيناً و كان الخضر على

مَقْدَمَتَهُ وَكَانَ مِنْ أَتَوَا أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ فِدْعَاهُ وَأَعْطَاهُ وَأَعْطَى قَوْمًا
 مِنْ أَصْحَابِهِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَوْتًا مَمْلُوحًا ثُمَّ قَالَ إِنِّظْلِقُوا إِلَى هَذِهِ
 الْمَوَاضِعِ فَيُغْسَلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حَوْتَهُ وَ أَنَّ الْخَضِرَ إِنْتَهَى إِلَى عَيْنٍ
 مِنْ تِلْكَ الْعَيُونِ فَلَمَّا غَسِمَ الْحَوْتَ وَ وَجَدَ رِيحَ الْمَاءِ حَيًّا وَأَنْسَابَ
 فِي الْمَاءِ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْخَضِرَ رَمَى بِثِيَابِهِ وَ سَقَطَ فِي الْمَاءِ فَجَعَلَ
 يَرْتَمِسُ فِي الْمَاءِ وَ يَشْرَبُ رَبَاءً أَنْ يَصِيبَهَا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجَعَ وَ
 رَجَعَ أَصْحَابُهُ فَأَمْرَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِقَبْضِ السَّمَكِ فَقَالَ أَنْظِرُوا فَقَدْ
 تَخَلَّفَتْ سَمَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالُوا الْخَضِرُ صَاحِبُهَا فِدْعَاهُ وَ قَالَ مَا فَعَلْتَ
 بِسَمَكَتِكَ فَأَخْبَرَهُ الْخَبِيرُ فَقَالَ مَاذَا صَنَعْتَ قَالَ سَقَطْتُ فِيهَا أُغْوِصُ وَ
 أَطْلُبُهَا فَلَمْ أَجِدْهَا قَالَ عَنِ الْمَاءِ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَطَلَبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ الْعَيْنَ
 فَلَمْ يَجِدْهَا فَقَالَ لِلْخَضِرِ أَنْتَ صَاحِبُهَا وَ أَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَ لِهَذِهِ الْعَيْنِ
 وَ كَانَ إِسْمُ ذِي الْقَرْنَيْنِ عِيَاشًا وَ كَانَ أَوَّلَ الْمَلُوكِ بَعْدَ نُوحٍ مَلِكِ مَا
 بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ إِنْتَهَى^(١).

أَقُولُ وَ يَعْلَمُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَ امثاله وَجِهَ الرِّبْطِ بَيْنَ الْقِصَّتَيْنِ أَعْنِي بِهَا
 قِصَّةَ الْخَضِرِ مَعَ مُوسَى وَ قِصَّتَهُ مَعَ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَ لَعَلَّهُ هُوَ الْوَجْهَ فِي ذِكْرِ قِصَّةِ
 ذِي الْقَرْنَيْنِ عَقِيبَ قِصَّةِ الْخَضِرِ وَ مُوسَى وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَ لِنَرْجِعَ إِلَى
 تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَ يَسْأَلُونَكَ الصَّمِيرَ عَائِدَ عَلَى قَرِيشٍ وَ قِيلَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ
 الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ فِي ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ يَا مُحَمَّدُ سَأَلْتُمَا عَلَيْنَا مِنْهُ ذِكْرًا أَيَّ
 مِنْ أَخْبَارِهِ وَ سِيرَتِهِ.

بِأَنَّ الْقُرْآنَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ



المجلد الحادي عشر

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ اتَّيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا
 وَ الْمَعْنَى إِنَّا بَسَطْنَا يَدَهُ وَ قَدَّرْنَا فِي الْأَرْضِ عِلْمًا وَ عَمَلًا وَ فِي قَوْلِهِ: مِنْ
 كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهُ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَرَادِهِ وَ قِيلَ

المراد بالسبب العلم أي أتيناه علماً يتسبب به إلى ما يريد و أنما أشار تعالى إلى السبب لأن الدنيا دار الأسباب بمعنى أنه تعالى جعل لكل شيء سبباً و أبي أن يجري الأمور إلا بأسبابها و أن كانت الأسباب أيضاً تحت قدرته و قد ورد في الآثار أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً هياً له أسبابه فإنه مسبب الأسباب و لكن جرت سنته في عالم الكون و الفساد على ذلك فالمرضى لا بد له من مراجعة الطبيب و شرب الدواء و الجاهل لا بد له من مراجعة العالم و تعلم العلم منه و هكذا و في قوله: **أَتَيْنِيهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**، إشارة إلى نقطة أخرى و هي أن ذا القرنين كان من عباد الله الصالحين و هو كان كذلك كما عرفت **فَاتَّبَعَ سَبَبًا** قرأ ابن عامر و أهل الكوفة بقطع الهمزة و فتحها و تخفيف التاء و سكونها و قرأ الباقر بوصل الهمزة و تشديد التاء و فتحها من قولهم أتبع إتباعاً و التخفيف أشهر و عليه المصاحف و كيف كان فالمعنى أنه أتبع طريقاً إلى ما أريد منه و بعبارة أخرى أنه تمسك بالأسباب للوصول إلى المسببات فكان يستعين بالأسباب على الملوك و فتح الفتوح و قتل الأعداء في الحروب و الفاء في قوله فأتبع للتفريع أي لما آتيناه من كل شيء سبباً فأتبع ذلك السبب في الوصول إلى المقصد فإذا أراد بلوغ المغرب فأتبع سبباً يوصله إليه حتى بلغ وكذلك إذا أراد بلوغ المشرق أو بلوغ السدين وبالجملة أنه لم يتخلف عن قانون الطبيعة و السنة الجارية للوصول إلى مقاصده بل كان يتبعها.

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَهَا عِنْدَهَا قَوْمًا

في هذه الآية إشارة بل دلالة على أن ذا القرنين سار حتى بلغ مغرب الشمس و فيها أبحاث:

الأول: أنه كيف بلغ إلى مغرب الشمس أقول قد ذكر الله تعالى أنه مكّنه في الأرض و أعطاه العلم بالأسباب و أنه أتبع السبب.

قد روي الصّدوق في كتاب كمال الدّين و اتمام النّعمة بأسناده عن رجلٍ من بني أسد قال: سألت رجلاً عليّاً عليه السلام رأيتُ ذا القرنين كيف استطاع أن بلغ الشّرق و الغرب، قال عليه السلام: سحرّ الله له السّحاب و مدّ له في الأسباب و بسط له النّور فكان اللّيل و النّهار عليه سواء. و في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: أنّ ذا القرنين خيّر بين السّحاب الصّعب و السّحاب الدّلّول فركب فاختار الدّلّول فركب الدّلّول فكان إذا إنتهى إلى قومٍ كان رسول نفسه إليهم لكي لا يكذب الرّسل إنتهى.

و عن حارث بن حبيب قال: أتى رجل عليّاً فقال له عليه السلام أخبرني عن ذي القرنين فقال عليه السلام: سحرّ له السّحاب و قربت له الأسباب و بسط له في النّور فقال له الرّجل كيف بسط له في النّور فقال عليه السلام: كان يضيء بالليل كما يضيء بالنّهار ثمّ قال عليه السلام للرجل أزيدك فسكت إنتهى.

البحث الثّاني: ما المراد بمغرب الشّمس و غروبها في عين حمئة، على قراءة المشهور و عين حامية على قراءة الكسائي و حمزة و ابن عامر عن عاصم بالألف من غير همزة أي حازة.

نقول أمّا على القراءة الأولى و هي المشهور فالمعنى أنّها تغرب في ماءٍ و طينٍ فإنّ الحمئة ما فيه ماءٌ و حماة سوداء، و أمّا على القراءة الثّانية فالمعنى أنّها تغرب في ماءٍ حارٍّ فإنّ الحامية هي الحازة و الحقّ أنّ المعنى فيهما واحد إذ يجوز أن تكون العين جامعة للوصفين.

نقل الرّازي في تفسيره عن أبي ذر قال: كنت رديف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على جملٍ فرأى الشّمس حين غابت فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: أتدري يا أبا ذر أين تغرب هذه قلت الله و رسوله أعلم قال فأنتها تغرب في

عينٍ حاميةٍ قال الرّازي و إتفق أنّ ابن عبّاس كان عند معاوية فقراً
معاوية حامية بألف فقال ابن عبّاس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن
عمر كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين عليّاً.

ثمّ وجه أبي كعب الأخبار و قال كيف تجد الشّمس تغرب قال في ماءٍ و
طينٍ كذلك نجده في التّوراة و الحمئة ما فيه ماء و حماة سوداء إنتهى و قلنا لا
منافاة بين القراءتين في المعنى لجواز أن تكون العين جامعة للموصفين.

البحث الثالث: أنّ غروب الشّمس في عينٍ حمئةٍ أو حامية غير معقول
بحسب الظّاهر و ذلك لأنّ العين الحمئة أو حامية تكون في الأرض لا محالة و
قد ثبت أنّ الشّمس أكبر من الأرض بمراتب كثيرة فكيف يعقل غروبها في
نقطةٍ من الأرض و إنّما قلنا في نقطةٍ من الأرض لأنّ العين لا تطلق على كلّ
الكرة فلا محالة تكون واقعة في بعضها و إذا كان الأمر على هذا المنوال يلزم
دخول الكثير في القليل و هو كما ترى و لنعم ما قيل بالفارسية.

أوصاف خدا به گفتگو ممکن نیست گنجایش بحر در سبو ممکن نیست
و قد أجاب عند الرّازي بعد ذكره الإشكال الذي ذكرناه بوجوه:

الأول: أنّ ذي القرنين لمّا بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من
العمارات وجد الشّمس كأنّها تغرب في عينٍ و هذه مظلمة و أن لم تكن كذلك
في الحقيقة كما أنّ راكب البحر يرى الشّمس كأنّها تغرب في البحر إذا لم ير
الشّط و هي في الحقيقة تغيب وراء البحر هذا هو التّأويل الذي ذكره أبو عليّ
الجبائي في تفسيره.

الثاني: أنّ للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها فالناظر الى
الشّمس يتخيّل كأنّها تغيب في تلك البحار الغربية قويّة السّخونة فهي حامية و
هي أيضاً حمئة لكثرة ما فيها من الحمئة السوداء و الماء فقوله تغرب في عينٍ
حمئة إشارة الى أنّ الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر و هو موضع
شديد السّخونة.

الثالث: قال أهل الأخبار أن الشمس تغيب في عين كثيرة الماء والحمئة وهذا في غاية البعد وذلك لأن إذا رصد ناكسوناً قمرياً فإذا اعتبرناه و رأينا أن المشرقين قالوا حصل في أول النهار فعلمنا أن أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثاني عند أهل المشرق بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر في بلدٍ و وقت الظهر في بلدٍ آخر و وقت الضحوة في بلدٍ مالت و وقت طلوع الشمس في بلدٍ رابع و نصف الليل من بلدٍ خامس كانت هذه الأحوال معلومة بعد الإستقراء و الإعتبار و علمنا أن الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الأوقات كان الذي يقال أنها تغيب في الطين و الحمأة كلاماً على خلاف اليقين و كلام الله مبرء عن هذه التهمة فلم يبق إلا أن يضار الى التأويل الذي ذكرناه إنتهى كلام الرّازي.

أقول ما ذكره في الجواب عن الإشكال لا بأس به ظاهراً إلا أن أصل الإشكال محلّ نظرٍ و تأويل و ذلك لأن ظاهر الآية أن الشمس تغرب في عين حمئة أو عامية و أما أن تلك العين أين تكون في الأرض لا دليل و من أين ثبت أن العين واقعة في الأرض حتى يقال كيف تغرب الشمس في عينٍ من عيون الأرض مع أن الشمس أكبر من كل الأرض بمرات و لمّا لم يبيّن في الآية موضع العين التي تغرب الشمس فيها فالسكوت أولى لقوله **عَلَيْهَا**: **أَسْكُتُوا مِمَّا سَكَتَ اللَّهُ عَنْهُ** فأَنَّ الوقوف عند الشبهة خير من الإقتحام في الهلكة و لعل أن يكون الله تعالى عين حمئة لا نعلم موضعها و الشمس تغرب فيها و أن يكون المراد بغروبها هو إستئثارها فيها و أما كيفية القضية و العلم بها تفصيلاً فهو موقوفة على تعقلها و تصوورها فأَنَّ التصديق بشئٍ موقوف على تصووره أن تصور العين الحمئة غير ممكنٍ لنا في المقام ما لعلم بها خارج عن خطيئة أدراكنا فلا نقول إلا ما قال الله تعالى و إنّنا بعد الفحص التام في الأخبار و الآثار لم نجد ما يفيد القطع و اليقين فنقول الله أعلم بحقيقة كلامه.

البحث الرابع: ووجد عندها قوماً، الضمير في عندها، يعود على الشمس و يكون التانيث لها و قيل يعود إلى العين الحامية فعلى الأول معنى الكلام أن ذا القرنين وجد عند الشمس قوماً و حيث أن جلوس قوم في قرب الشمس غير معقول فيصير المعنى أنه لما تخيل أن الشمس تغرب هناك كان سكان هذا الموضوع كأنهم سكنوا بالقرب منها و على الثاني يصير المعنى أنه وجد عند العين قوماً هكذا فسر الزاوي الكلام و الذي عندنا في معنى الكلام هو أنه وجد في جهة المغرب و سمته سكاناً و هذا مما لا إستبعاد فيه فأن البلاد في المغرب و المشرق أي في جهتهما موجودة الآن يقال بلاد الشرق و بلاد الغرب فالقوم الذين وجدهم كانوا من سكان البلاد في جهة المغرب قلنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قال بعض المفسرين أن هذه الآية تدل على أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة يدل على أنه كان نبياً و حمل اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على السنة بعض أنبيائه عدول عن الظاهر.

أقول لا استفاد من قوله: قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة و أية دلالة فيه على التكلم معه بلا واسطة:
قال الله تعالى: فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ^(١)
قال الله تعالى: قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ^(٢) و أمثال ذلك من الآيات.

نعم لو قال و أوحينا إليه أو كلمه الله لكان ما ذكره حقاً مع أن في أوحينا أيضاً كلام لقوله تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى النَّحْلِ الْآيَةَ وَ الْحَاصِلُ أَنَّ النَّبُوَّةَ لَا تَثْبُتُ بِهِذِهِ الْإِحْتِمَالَاتِ وَ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ قَلْنَا لَهُ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ، هُوَ لِأَنَّ الْقَوْمَ لِإِقَامَتِهِمْ عَلَى الشُّرْكَ وَ الْكُفْرِ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا، بَأَنَّ تَأْسِرَهُمْ فَتَعَلَّمَهُمُ الْهُدَى وَ تَسْتَقْدَمُ مِنَ الْعَمَى وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ وَ إِمَّا أَنْ

ترشدهم إلى الهدى فيسلموا على يديك ويظهر من الآية أنهم كانوا على الشرك وكانوا عبدة الشمس هكذا قيل و عندنا أن الآية لا تدل عليه فلا يستفاد منها ما فسروها به بل الآية تدل على أنه وجد عندها قوماً إما أنهم كانوا مشركين لا يستفاد منها اللهم إلا أن يقال أن الأصل يقتضي الكفر ولا سيما بالنسبة إلى قوم لم يبعث إليهم نبي قط و القوم كانوا كذلك و الأحسن أن يقال لم يكن لهم دين أصلاً فما كانوا عبدة الشمس و لا عبدة الله تعالى فأمر الله تعالى ذا القرنين أن يدعوهم إلى التوحيد فيعذبهم في صورة الإنكار بعد ظهور الحق أو يتخذ فيهم حسناً في صورة الإطاعة و الإنقياد و هذا هو المستفاد من ظاهر الآية و أما قولهم إما تعذبهم بالقتل لإقامتهم على الشرك، فلا دليل عليه و الله أعلم فتدبر فيها (قال أما من ظلم) أي ظلم نفسه بعدم الإيمان (فسوف نعذبه) في الدنيا و ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً، يوم القيامة، أي عذاباً منكرأ أنكره النفس من جهة الطبع و هو عذاب النار صح.

وَأَمَّا مَنْ أَمِنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا

و هذه الآية دليل على ما ذكرناه، أي أدعهم إلى الإيمان و أقم لهم البراهين و الحجج عليه ففي صورة الإنكار و العناد عذبهم لأنهم مستحقون له و أما من قبل الدعوة و أمن بالله و عمل صالحاً فله جزاء الحسنی و هو جزاء الطاعة و قيل جزاء الحسنی الجنة، قرأ بعضهم جزاء الحسنی بالرفع و الآخرون بالنصب فعلى الرفع معناه ما ذكرناه أي فله جزاء الطاعة و هى الحسنی و أما على القول بالنصب فيحتمل أن يكون نصباً على المصدر في موضع الحال أي فلهم الجنة يجزون بها جزاءً و قيل نصب على التمييز و هو ضعيف لأن التمييز يصح تقديمه و تفصيل البحث فيه في النحو.

وقوله ستقول له من أمرنا يسراً، قيل أي قولاً جميلاً وقيل معناه لا تأمره بالصَّعب الشَّاق ولكن بالسَّهل الميسر من الزَّكاة والخراج وغيرهما وتقديره إذا يسر كقوله قولاً ميسوراً والصَّمير في، له، عائد على من، في قوله وأما من آمن.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا

أي أتبع طريقاً إلى مقصده الذي يسر له وقيل طريقاً ومسلكاً لجهاد الكفار.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ
أي الموضع الذي تطلع منه.

وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا
أي لم يكن بتلك الأرض جبل ولا شجر ولا بناء فكانوا إذا طلعت الشمس عليهم يغورون في المياه والأسراب وإذا غربت تصرفوا في أمورهم.
قال قتادة هي الزَّنج (كذلك وقد أخطنا بما لديه خبراً) أي كذلك علمناهم وعلمناه أو المعنى كذلك أتبع سبباً إلى مطلع الشمس كما أتبعه إلى مغربها.

حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
قَوْلًا

المراد بالسَّدَّين الجبلان اللذان جعل الرَّدَم بينهما في قول ابن عباس و قتادة والسَّد وضع ما يتنفي به الخرق وقيل السَّد الحاجز بينك وبين الشيء.
قال الكسائي الضَّم والفتح في السَّد بمعنى واحد وقال أبو عبيدة و عكرمة السَّد بالضَّم من فعل الله وبالفتح من فعل الآدميين.

وقال الخليل وسيبويه بالضَّم الإسم وبالفتح المصدر قال وهب السَّدان جبلان منيفان في السماء من ورائهما ومن أمامهما البلدان وهما بمنقطع أرض

التُّرْكُ وَ ذَكَرَ الْهَرَوِي أَنَّهُمَا جِبْلَانِ مِنْ وَرَاءِ بِلَادِ التُّرْكِ وَ قِيلَ هُمَا جِبْلَانِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ لَيْسَتَانِ أَمْلَسَانِ يَزْلِقُ عَلَيْهِمَا كُلُّ شَيْءٍ وَ سَمِيَ الْجِبْلَانِ سَدِّينَ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سَدٌّ فَجَاجِ الْأَرْضِ وَ كَانَتْ بَيْنَهُمَا فَجْوَةٌ يَدْخُلُ مِنْهَا يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ الْأَقْوَالُ فِيهِمَا كَثِيرَةٌ لَا فَائِدَةَ فِي ذِكْرِهَا إِذْ لَا دَلِيلَ مِنَ الْعَقْلِ وَ النَّقْلِ عَلَى صِحَّتِهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا مَعْنَاهُ وَجَدَ ذَوَالْقَرْنَيْنِ مِنْ دُونَ السَّدِّينِ قَوْمًا يَعِيشُونَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، لِإِخْتِلَافِ لُغَتِهِمْ عَنِ سَائِرِ اللُّغَاتِ وَ أَمَّا قَالَ تَعَالَى لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا وَ لَمْ يَقُلْ لَا يَعْلَمُونَ قَوْلًا لِأَنَّهُمْ فَهَمُوا بَعْضَ الشَّيْءِ عَنْهُمْ وَ أَنْ كَانَ بَعْدَ شِدَّةٍ وَ عَسْرَةٍ وَ بِذَلِكَ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ.

قَالُوا يَا ذَا الْقُرْآنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا

وَ الضَّمِيرُ فِي قَالُوا، عَائِدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ أَنْ مَأْجُوجُ وَ يَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فِي تَخْرِيبِ الدِّيَارِ وَ قَطْعِ الطَّرِيقِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا، أَيِ أَجْرًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا، يَمْنَعُ عَنْ دُخُولِهِمُ الْأَرْضَ وَ الْإِفْسَادَ فِيهَا وَ أَمَّا قَالُوا لَهُ ذَلِكَ وَ طَلَبُوا فِيهِ مَا طَلَبُوا لِأَنَّهُمْ رَجَوْا عِنْدَهُ مَا يَنْفَعُهُمْ لِكُونِهِ مَلِكِ الْأَرْضِ وَ دَوَّخَ الْمَلُوكِ وَ بَلَغَ إِلَيْهِمْ وَ لَمْ يَبْلُغْ أَرْضَهُمْ مَلِكٌ قَبْلَهُ وَ إِخْتَلَفُوا فِي يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ، فَقَالَ قَوْمُ أَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ آدَمَ قَبِيلَتَانِ، وَ قِيلَ مِنْ وَلَدِ يَافِثِ بْنِ نُوحٍ، وَ قِيلَ أَنَّهُمْ مِنَ التُّرْكِ وَ قِيلَ يَأْجُوجُ مِنَ التُّرْكِ وَ مَأْجُوجُ مِنَ الْجَيْلِ وَ الدَّيْلِمِ.

وَ قَالَ قِتَادَةُ وَ السُّدِّيُّ بَنَى السَّدَّ عَلَى أَحَدِ وَ عَشْرِينَ قَبِيلَةً وَ بَقِيَتْ مِنْهُمْ قَبِيلَةٌ وَاحِدَةٌ دُونَ السَّدِّ فَهَمُ التُّرْكِ وَ إِخْتَلَفَ فِي عَدَدِهِمْ وَ صِفَاتِهِمْ وَ الْحَقُّ أَنَّ كُلَّ مَا ذَكَرُوهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَ أَنَّهُمَا لَمْ يَعْرِفَا إِلَى الْآنِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
الرَّدْم، أشد الحجاب في قول ابن عباس ومنه قول الشاعر:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
يقال رَدَمٌ ثوبه ترديماً إذا أكثر الرِّقَاع فيه وقيل الرَّدْم السد المتراكب مكني،
بنونٍ واحدةٍ قراءة المشهور وقرأ ابن كثير، مكني، بنونين فمن شدد أدغم كراهية
المثلين، ومن لم يدغم قال لأنهما من كلمتين لأنَّ التَّوْنِ الثَّانِيَةَ للفاعل والياء
للمتكلم وهو مفعول به وقلنا للقراءة المشهورة، مكني بنون واحدة مشدودة
يعني قال ذو القرنين في جوابهم ما مكني، أي أقدرني فيه خيرٌ أي أني لا
أحتاج إلى أجركم فإنَّ الله أغناني عمَّا سواه، ولكن أعينوني أي أعينوني
برجالٍ لا بمالٍ، أجعل بينكم وبينهم وهم مأجوج وياجوج، ردماً، أي حاجزاً
حصيناً مؤتقاً.

قال في التبيان وترك الهمزة في ياجوج وياجوج هو الإختيار لأنَّ الأسماء
الأعجمية لا تهزم مثل طالوت وجالوت وماروت وهاروت، ومن همز قال
لأنه مأخوذٌ من أحجَّ النار ومن الملح الأجاج فيكون مفعولاً فيه في قول من
جعله عربياً وترك صرفه للتعريف والتأنيث لأنه إسم قبيلة ولو قال لو كان عربياً
لكان هذا اشتقاقه ولكنه أعجمي فلا يشقُّ لكان أصوب قال روبة:

لو أن ياجوج وياجوج معاً و عاد عاد و إستجاشوا تبعاً

فترك الصِّرف في الشعر كما هو في التَّنْزِيل و جمع ياجوج وياجوج بأجج
مثل يعقوب و يعاقب و من جمع جعل ياجوج و ما جوج، فاعولاً جمعه
يواجج بالواو مثل طاغوتٍ و طواغيت و هاروت و هواريت و ساق الكلام إلى
أن قال الجبائي أنَّ ياجوج وياجوج قبيلان من ولد آدم وقيل من ولد يافث بن
نوح و من نسلهم الأتراك و بأل سعيد بن جبير قوله، مفسدون في الأرض،
معناه يأكلون النَّاس و قال قوم معناه أنَّهم سيفسدون، ذهب إليه قتادة إنتهى.

أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا
جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا

قرأ ابن كثير و أبو عمرو و ابن عامر، الصَّدَفَيْنِ، بضم الصاد و الدال و الباقون
بفتحهما إلا أبا بكر عن عاصم فإنه ضم الصاد و سكن الدال فالأقوال ثلاثة:
ضم الصاد و الدال و فتحهما، و ضم الصاد و سكن الدال، حكى الله تعالى عن
ذي القرنين أنه قال للقوم الذين شكوا إليه إفساد ياجوج و ماجوج، آتوني زبر
الحديد، قرأ الجمهور، زبر، بفتح الباء و الحسن بضمها مع إتفاقيهما في ضم الراء.
و قال الرأغب في المفردات الزُّبْرَةُ قطعة من الحديد جمعه، زبر، و قد يقال
الزُّبْرَةُ من الشُّعْر جمعه زبر، قال لهم ذو القرنين، آتوني زبر الحديد، أي
أعطوني زبر الحديد و ناولونها أمرهم بنقل الألة و زبر الحديد، قطع الحديد
حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ و التقدير إذا ساوى البناء بين الصدفين وهما جانبا
الجبل و سمياً بذلك لتصادفهما أي لتلاقيهما قال الشاعر:

كلا الصدفين ينفذه سناها توقد مثل مصباح الظلام

و يقال للبناء المرتفع صدف تشبيهاً بجانب الجبل فالصدفان الجبلان
المتناوحيان و لا يقال للواحد، صدف، قال، أي ذو القرنين لهم، أنفخوا، أي
أنفخوا على زبر الحديد بالأكيار و ذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبْرِ و
الحجارة ثم يوقد عليها الحطب و الفحم بالمنافع حَتَّىٰ تحمى و الحديد إذا
أوقد عليه صار كالنار و ذلك قوله: حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا، ثم يوتى بالنحاس
المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف في القطر فيفرغه على تلك
الطاقة المنصدة فإذا إلتأم و إشتد و لصق البعض ببعض إستأنف وضع طاقة
أخرى إلى أن إستوى العمل فصار جبلاً صلباً و معنى آتوني أفرغ عليه قطراً،
أي أعطوني قطراً، أفرغ عليه و القطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب
الرصاص المذاب و منه قوله، و أسلنا له عين القطر.

وقال بعض المفسرين أن ذا القرنين قاس ما بين الصّدفين من حفر الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل حشوه الصّخر وطينه النّحاس المذاب ثمّ يصبّ عليه والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب و الفحم حتى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاههما وقيل طول ما بين السّدين مائة فرسخ و عرضه خمسون و الأقوال كثيرة.

فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا

أي لم يقدرُوا أن يعلوه و ما إستطاعوا له نقباً من أسفله على قول قتادة، فما إستطاعوا أي ياجوج و ماجوج أن يظهره أي يصلوا إليه لبعده و إرتفاعه و إملاسه و لا أن يقبوه لصلابته و ضخامته فلا سبيل إلى مجاوزته إلا بأحد هذين إما إرتقاء و إما نقب و قد سلب قدرتهم على ذلك و حاصل ذلك المعنى هو عجزهم أي ياجوج و ماجوج على أن يعلوه أو يقبوه لإرتقائه و صلابته و في إستطاع ثلاث لغات، إستطاع يستطيع و إستطاع يسطيع بحذف التاء.

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا

أي قال ذو القرنين لهم، هذه أي هذا السّد نعمة من الله و رحمة منه على عباده، أو هذا الإقدار و التّمكين من تسويته رحمة من ربّي إذ لا حول و لا قوّة إلا بالله، في الكلام حذف و تقديره فلما أكمل بناء السّد و إستوى و إستحكم قال هذا رحمة من ربّي، فإذا جاء وعد ربّي و هو يوم القيامة جَعَلَهُ أي جعل السّد دَكَّاءَ مَنُونًا أراد دكّه دكّا و هو مصدر و من قرأ بالمُدّ أراد جعل الجبل أرضاً دكّاء منبسطة و جمعها دكّاءت و كان وعد ربّي حقّاً، أي ما وعد الله بأنّه يفعل له لا بدّ من كونه فأنّه حقّ و هو لا يخلف وعده و فيه إشارة إلى أنّ السّد أيضاً لا يبقى كغيره من الجبال فإنّ الدنّيا و ما فيها في معرض الفناء.

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ
جَمْعًا

يقول الله تعالى، و تركنا، هذا الضمير لله تعالى و قوله بعضهم، الظاهر أنّ الضمير فيه عائد على ياجوج و ماجوج و قيل يعود على الخلق و يقويّه قوله و نفخ في الصور فعلى الأوّل معنى الكلام أنا تركنا بعضهم يومئذ يمجون في بناء السّد و يخوضون فيه متعجبين و معنى يومئذ، يوم إنقضاء السّد و لما نفخ في الصور فجمعناهم جمعاً يعني يوم القيامة يحشرهم الله جميعاً.

على الثّاني: و هو رجوع الضمير على الخلق فالمعنى تركنا الخلق في الدّنيا كذلك و يوم القيامة يحشرهم الله جميعاً و أنّما قال و تركنا بعضهم ولم يقل و تركناهم لأنّ المتّصّفين بما وصفهم الله به هم بعض الخلق لا جميعهم فإنّ التّعبير بالموج الّذي هو اضطراب الماء بتراكب بعضه على بعض هو شأن جهال النّاس و الله أعلم.

و أمّا النّفخ في الصور فليل أنّه ينفخ فيه ثلاث نفخات:

الأولى: نفخة الفرج الّتي يفرغ من في السّموات و الأرض.

الثّانية: نفخة الصّعق.

الثّالثة: نفخة القيام لربّ العالمين و سيأتي الكلام فيه في موضعه بوجه

أبسط.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا

أي أبرزناها و أظهرناها حتّى يروها، يومئذ أي يوم إذ جمعناهم و قيل اللّام في للكافرين، بمعنى على و التقدير و عرضنا الكافرين على جهنّم عرضاً وصف الكافرين بالغطاء في العين و قال.

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا

إستعار الغطاء لأعينهم و المراد أنّهم لا ينصرون آياتي التي ينظر إليها فيعتبر بها و هذا على حذف مضاف أي عن آيات ذكري المراد بالذّكر هاهنا القرآن و المعنى أنّهم في غطاء عن القرآن و تأمل معانيه و المراد بالأعين البصائر لا الجوارح لأنّ الجوارح لا نسبة بينها و بين الذّكر فإنّ الذّكر يكون بالقلب و قوله و كانوا لا يستطيعون سمعاً، مبالغةً في إنتفاء السّمع إذ نفيت الإستطاعة و هم أن كانوا صمّاً لأنّ الأصم قد يستطيع السّمع إذا صحّح به و أمّا هؤلاء أصمّت أسمعهم فلا إستطاعة بهم للسّمع و لا يقدرّون عليه.

أقول الحقّ أنّ الذّكر في الآية بمعنى التّوحيد و العين عين البصيرة لا عين البصر كما أنّ المراد بالسّمع ليس الحاسة بل المراد به سمع القلب المعبر عنه بالتّفقه و التّدبر و هذا لا يختصّ بالكافر بمعنى المصطلح أعني به المشرك أو المنكر لتوحيد الله بل المراد به الكفر بمعناه العامّ الشّامل للكفر الجحود و كفر النّعمة فمن أقرّ بالتّوحيد و أنكر الرّسالة و الولاية داخل في قوله: **أَعْيُنُهُمْ في غطاء عن ذكري، و إلى هذا المعنى أشار الإمام عليّ بن موسى الرضا في الحديث المشهور بسلسلة الذهب كلمة لا إله إلاّ الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي حيث قال **عليّ** بعد ذكر الحديث بشروطها و أنا من شروطها فلو كان الإقرار بالتّوحيد كافياً لدخول الجنّة و الأمن من العذاب لما قال **عليّ** ما قال و السرّ في ذلك أنّ المعتقد بالتّوحيد معتقد بالرّسالة أيضاً لأنّ الرّسول مبعوث إلى الخلق من قبله تعالى و من اعتقد بالرّسول حقّاً اعتقد بجميع ما جاء به الرّسول من قبل الله تعالى رأس جميع الأمور الولاية.**

قال رسول الله **صلى الله عليه وآله** في الحديث المشهور عند الجميع من العامّة و الخاصّة من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة أي ميتة الكفر أي و ان كان مقرّاً معتقداً بالتّوحيد و الرّسالة ظاهراً و ذلك لأنّ الولاية بمنزلة اللّب و الرّسالة بمنزلة القشر قال الله تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ** و في أخبارنا ما يدلّ عليه:

ما ذكره الصدوق في العيون في باب ما جاء عن الرضا من الأخبار في التوحيد بأسناده عن عبد الله بن صالح الهروي قال سأل المأمون أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى: الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا فقال عليه السلام أن غطاء العين لا يمنع من الذكر والذكر لا يرى بالعين ولكن الله عز وجل شبه الكافرين بولاية علي بن أبي طالب بالعميان لأنهم كانوا يستثقلون قول النبي صلى الله عليه وآله فيه ولا يستطيعون له سمعاً، فقال المأمون فرجت عني فرج الله عنك الحديث.

وأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله حديث طويل وفيه قلت قوله عز وجل: الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي. قال عليه السلام يعني بالذكر ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وهو قوله ذكري، قلت قوله ولا يستطيعون سمعاً، قال عليه السلام: كانوا لا يستطيعون إذا ذكر علي عندهم أن يسمعوا ذكره لشدة بغض له و عداوة منهم له ولأهل بيته.

و محصل الكلام أن الآية صرحت بأن المراد من الكافرين كل من كانت عين بصيرته في غطاء و ستر عن ذكره تعالى ولا يستطيع سمعاً أي تفقهاً و تدبراً في الآيات التكوينية و التشريعية سواء كان كافراً أي منكراً أو مشركاً له تعالى أو مسلماً ظاهراً بأن الملاك في عرضه على جهنم أو عرضها عليه هو ما ذكره في الآية من الغطاء و الصم و هذا ظاهر و لا ينكره إلا المعاند و للبحث فيه مقام آخر.

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا
جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا

قرأ الجمهور، أفحسب الذّين، بكسر السّين وفتح الباء وعلّيا المصاحف وقرأ بعضهم بتسكين السّين وضمّ الباء مضافاً إلى الذّين ونسب هذه القراءة إلى عليّ عليه السلام وزيد بن عليّ بن الحسين وعلّيا هذا، فحسب، مبتدأ والخبر قوله: **أَنْ يَتَّخِذُوا**، وأما على القراءة الأولى فهو بمعنى، فلن و لذلك قرأ عبد الله، أظنّ الذّين كفروا الآية.

قال الزّمخشري أو على الفعل و الفاعل لأنّ إسم الفاعل إذا إعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل كقولك قائم الرّيدان و المعنى أنّ ذلك لا يكفيهم و لا ينفعهم عند الله كما حسبوا و هى قراءة محكمة جيّدة إنتهى.

و أورد عليه أنّ، حسب ليس بإسم فاعل فتعمل و لا يلزم من تفسير شيء إن تجري عليه جميع أحكامه وكيف كان فمعنى الآية على المشهور أفحسب الذّين كفروا بتوحيد الله و جحدوا ربوبيّته، أن يتّخذوا عبادي، من الملائكة و المسيح، من دونه أي من دون الله أولياء و أنصاراً يمنعونهم من عقابي لهم على كفرهم و قد أعددت جهنّم للكافرين، نزلاً، أي مأوى و منزلاً، أي ما ظنّوه باطل قطعاً و أما على القراءة الأخرى فالمعنى أنّ ذلك لا يكفيهم و لا ينفعهم عند الله، و قيل معناه أحسبهم على إتخاذهم عباد الله من دون الله أولياء إن جعل لهم جهنّم نزلاً و مأوى، أي لا يكفيهم فإنّ الهمزة للإنكار و على التّقديرين فالمعنى واضح و قد إتفق المفسّرون على أنّ المراد بقوله عبادي، الملائكة و المسيح و كلّ عبدٍ يعبد من دون الله فإنّهم لا يمنعونهم من عقاب الله يقدرون عليه و هذا ممّا لا كلام فيه و أنّما الكلام في معنى الكفر في الآية فمن قال أنّ المراد به كفر الجحود أي إنكار الرّب وإتخاذ معبودٍ غيره من عباده كالملائكة و المسيح مثلاً فقد خصّ الآية بالكفّار و المشركين و هو المشهور بين المفسّرين فإنّهم خصّوا الآية بالكفّار المنكرين لتوحيد الله الجاحدين لربوبيّته و أمّا من قال أنّ المراد بالكافرين في الآية كلّ منكرٍ لإلوهيّته و ربوبيّته و نعمه فيصير المعنى فيها عامّاً و الأمر سهل بعد وضح المراد.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

الأبناء الأخبار أمر الله نبيه أن يقول لهم هل ننبئكم أي نخبركم بالأخسرين
أعمالاً، الخسر بضم السين و الخسران إنتقاص رأس المال و ينسب ذلك إلى
الإنسان فيقال خسر فلان، و إلى الفعل فيقال خسرت تجارته و يستعمل ذلك
في المقتنيات الخارجة كالمال و الجاه في الدنيا و هو الأكثر و في المقتنيات
التفسيية كالصحة و السلامة و العقل و الإيمان و الثواب و هو الذي جعله الله
تعالى الخسران المبين و هذا هو المراد من الخسران في الآية فأقوله
بالأخسرين أعمالاً، بصيغة التفضيل يدل على خسران العمل من حيث الثواب
و العقاب لا خسران المال و الجاه في الدنيا بل نقول كل خسران ذكره الله
تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى دون الخسران المتعلق بالمقتنيات
الدنيوية و التجارات البشرية و الوجه فيه أن الدنيا و ما فيها من النعم في
معرض الزوال و الفناء لتغيرها و حدوثها فزوالها لا يعد خسراناً.
و أما الآخرة فهي باقية و نعمها دائمة لا زوال فيها فمن تركها لأجل الدنيا
الفانية فقد خسر خسراناً ميبناً.

قال بعض المفسرين أنهم اليهود و النصارى، و قيل الرهبان منهم
و روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: هم أهل حروراء من الخوارج
سأله ابن الكوا عن ذلك فقال عليه السلام: أنت و أصحابك منهم و هم
الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا أي جاز عنهم و هلك و هم مع
ذلك يحسبون أي يظنون أنهم يفعلون الأفعال الجميلة و الحسبان
هو الظن و هو ضد العلم.

أقول الآية لا تختص بقوم دون قوم لأن تعالى ذكر فيها حكماً كلياً يشمل
الكافر و المسلم و المؤمن و الفاسق و بالجملة جميع الأصناف و الأفراد لأن

قوله الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، معناه بطلان عمله بعدم تَرْتَبِ الثَّوَابِ عليه و قوله: وَ هُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صنْعاً، معناه عدم علمه ببطلان عمله بل يحسب أنه يحسن.

و هذا أي بطلان العمل و عدم العلم به لا يختص بقوم دون قوم بل هو من الأصول الجارية بالنسبة إلى جميع الأعمال، فأَنْ العمل الصَّادِر عن عامله قد يكون معلوم الحسن و قد يكون معلوم القبيح و قد يكون مشكوكاً فيه لا كلام لنا في القسمين الأولين و أمَّا المشكوك فيه فهو على قسمين:

أحدهما: أن يكون الطَّرفين متساويين بالنَّظر إلى الإعتقاد و هذا هو الشُّكُّ. **ثانيهما:** أن يترجح أحد الجانبين على الآخر و هو المسمَّى بالظَّنِّ و ما نحن فيه من هذا القبيل و قد ثبت أنَّ الظَّنَّ لا يغني عن الحقِّ شيئاً، و لا سيَّما في الإعتقادات ففي الآية إشارة أو دلالة على أنَّ الظَّنَّ بحسن العمل لا يكفي بل لا بدَّ له من القطع بصحَّة عمله و على هذا فالآية لا تختص بأهل حروراء أو باليهود و النَّصاري بل تشمل جميع الفرق الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنْعاً، و كلَّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا

الظاهر أنَّ المراد بالآيات أعمَّ من التَّشريعية و التَّكوينية و الكفر بها إنكارها و اللِّقاء كناية عن لقاء ثوابه و عقابه لا رؤية العين كما ذهب إليها أهل السُّنة و قوله: فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ إلاَّ أنهم أوقعوها على غير الوجه المتحرر في الشَّريعة و لذلك قال تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً، فأَنْ العمل الفاسد لا وزن له أي لا قيمة له فلا يستحق فاعله الثَّواب.

و قد ورد في الأخبار أنَّ الله تعالى: لا ينظر إلى أعمالكم ينظر إلى نيَّاتكم و في بعض آخر لا ينظر إلى صوركم بل ينظر إلى قولكم و المأل واحد.

فقد روي في الصحيح أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: أَنَّهُ لِيَأْتِي الرَّجُلَ السَّمِينُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ.

و في كتاب الإجماع عن أمير المؤمنين في حديث طويل يذكر فيه
أهل الموقف و أحوالهم و فيه، و منهم أئمة الكفر و قادة الضلالة
فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً و لا يعبأ بهم لأنهم لم يعبتوا
بأمره و نهيهم فهم يوم القيامة في جهنم خالدون تلفح وجوههم
النار و هم فيها كالحون إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله
عَزَّوَجَلَّ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا قَالَ عليه السلام: هُمُ النَّصَارَى
و القسيسون و الرهبان و أهل الشبهات و الأهواء و من أهل القبلة و
الحرورية و أهل البدع إنتهى.

ذَلِكَ جَزَاءُ لَهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِي وَ رُسُلِي هُزُوًا
ذلك، كذلك لأن جهنم جزاؤهم بما كفروا، بالله و رسوله (و اتخذوا آياتي و
رسلي هزواً) أي سخرية و إستهزاء، أثبت الله تعالى لهم ذنبين:

أحدهما: الكفر و هو الأصل في الباب.

الثاني: سخريتهم و إستهزاؤهم بالرسل و الآيات ثم بعد ذلك أشار الله
تعالى إلى حال المؤمنين يوم القيامة.

إِنَّ الَّذِينَ أَصْنَوْا وَّ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا
أي مأوى، و الفردوس البستان الذي يجمع الزهر و الثمر و سائر ما يمتع و
يلذ و قيل هو البستان الذي فيه الأعتاب و قيل هو أطيب موضع في الجنة و
قيل غير ذلك.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا

نصب خالد بن علي الحال و الحول بكسر الحاء و فتح الواو التَّحول و التَّبديل أي لا يطلبون عنها التَّحول و الإنتقال إلى مكانٍ آخر غيرها و قيل معناه لا يبغون عنها من حالٍ إلى حالٍ و الجامع عدم إنتقالهم عمَّا يكونون عليه مكاناً و حالاً و قال في المفردات الحول السَّنة إعتباراً بإنقلابها و دوران الشَّمس في مطالعها و مغاربها إنتهى.

أقول قد روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَىٰ قَوْلِهِ: حَوْلًا** قَالَ عليه السلام: خالد بن لا يخرجون عنها و لا يبغون عنها حولاً، أي لا يريدون بها بدلاً ثمَّ قال عليه السلام هذه نزلت في أبي ذرَّ و المقداد و سلمان و عمَّار بن ياسر إنتهى.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا

أمر الله أن يقول لجميع المكلفين قل لو كان ماء البحر مداداً و هو ما يمد به الدواة من الحبر و ما يمد به السراج من السليط لكتابة كلمات الله لنفد ماء البحر و لم تنفد كلمات الله و قوله: **وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** فالمدد و هو الجائي شيئاً بعد شيء على إتصالٍ و المداد الذي يكتب به فقوله مدداً، نصب على المصدر بمعنى و لو أمددناه بمثله إمداداً ثمَّ ناب المدد و مناب الأمداد مثل أنبتكم نباتاً، قال صاحب الكشاف و المعنى لو كتبت كلمات علم الله و حكمته و كان البحر مداداً لها و المراد بالبحر الجني، لنفد البحر قبل أن تنفد الكلمات و لو جئنا بمثل البحر مداداً لنفد أيضاً و الكلمات غير نافذة إنتهى.

و قال في التبيان، الكلمة الواحدة من الكلام و لذلك يقال للقصيدَة لأنَّها قطعة واحدة من الكلام و الصَّفة المفردة كلمة إنتهى.

وقال القرطبي قالت اليهود لرسول الله ﷺ أنك أوتيت الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح فقال تعالى: قل لهم وإن أوتيت القرآن وأوتيت التوراة فهي بالنسبة إلى كلمات الله قليلة.

قال ابن عباس، لكلمات ربي، أي مواعظ ربي، وقيل عني بالكلمات الكلام القديم الذي لا غاية له ولا منتهى وهو وأن كان واحداً فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات ولأنه ينوب منابها إنتهى كلامه.

وقال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عن صاحب الكشّاف و تقرير الكلام أنّ البحار كيفما فرضت في الإتساع والعظمة فهي متناهية ومعلومات الله غير متناهية والمتناهي لا يعني بضمير المتناهي البتة إنتهى كلامه.

أقول حمل الكلمات على علم الله وحكمه ومعلوماته خلاف ظاهر الآية إذ ليس البحث في علم الله وحكمه وحمل الكلمة على العلم والحكمة لا يساعده العقل واللغة أما اللغة فواضحة وأما العقل فلأنّ الكلمة حاكية عن العلم والحاكي غير المحكّي عنه والعجب أنّ جميع المفسرين حملوا الكلام على ظاهره وفسّروا الكلمات بأنّها جمع كلمة أعني بها الحروف ثمّ حكموا بأنّها غير متناهية ولم يعلموا أنّ كلمات الله بهذا المعنى متناهية والذي يقوي في نفسي هو أنّ المراد بالكلمات معناها العامّ الشامل للتكوينيات والتشريعات أي الموجودات الخارجيّة والأحكام والمواعظ وإطلاق الكلمة على الموجود الخارجي شائع وقد عبّر الله تعالى عن المسيح عيسى ابن مريم بالكلمة حيث قال تعالى:

إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَنْتُمْ أَنْتُمْ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (١).

وقال الله تعالى: أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ (٢).

و قال الله تعالى: **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ** (١).

ولذلك يقال أن كلمات الله على قسمين تكويني و تشريعي إذا عرفت هذا
فتقول:

الكلمة التكوينية، هي التي قد يعبر عنها بكلمة الإيجاد المشار إليها:

قال الله تعالى: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (٢).

قال الله تعالى: **سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (٣).

قال الله تعالى: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (٤).

وأما الكلمات التشريعية، فهي عبارة عن الأوامر والنواهي و المواعظ و غيرها مما هو موجود في الشرائع الإلهية و الكتب السماوية و هذه الكلمات هي التي قد تتخلف فيها الإرادة عن المراد لكون الإختيار واسطة بينهما.

وأما الكلمات التكوينية، فلا تخلف فيها أصلاً فقوله تعالى: **قُلْ لَوْ كَانَ أَلْبَحْرُ مِدادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي** المراد بها التكوينات أي الموجودات الخارجية أو الأعم منها و من التشريعات و من المعلوم عدم تناهيها بالنسبة إلينا و أما بالنسبة إلى خالقها فهي متناهية و الآية لا تدل على عدم تناهيها بقولٍ مطلق بل تدل على كثرتها و أنه ينفذ البحر قبل أن تنفذ و لا شك أن إحصاء المخلوقات خارج عن قدرة البشر قال الله تعالى: **وَإِنْ نَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا نَحْصُوهَا** (٥).

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا في الآية
مسائل:

٢- التحل = ٤٠

٤- يس = ٨٢

١- النساء = ١٧١

٣- مريم = ٣٥

٥- ابراهيم = ٣٤

أحدهما: قوله: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** قال الرَّاغِبُ في المفردات البَشْرَةُ ظاهر الجلد و الأدمة باطنه كذا قال عامة الأدباء و قال أبو زيد بالعكس ذلك و جمعها بشر و أشبار، و عبّر عن الإنسان بالبشر إعتباراً بظهور جلده من الشَّعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصُّوف أو الشَّعر أو الوبر و إستوى في لفظ البشر الواحد و الجمع و ثني فقال، المؤمن لبشرين، و خصّ في القرآن كلّ موضع أعتبر من الإنسان جثته و ظاهره بلفظ البشر و ساق الكلام إلى أن قال: **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** فيه تنبيه على أن النَّاس يتساوون في البَشْرية إنتهى موضع الحاجة من كلامه إذا عرفت هذا فقد علمت أن إطلاق البشر على الإنسان أنما هو بإعتبار جثته و جسمه لا بإعتبار روحه فقوله قل أنا بشرٌ مثلكم، معناه أنني مثلكم من حيث الجثة و الجسد و هذا ممّا لا كلام فيه فإنّ الأنبياء كانوا من جنس البشر لا من جنس الملك و الجنّ فمن هذه الجهة لا فرق بينهم و بين غيرهم من أفراد البشر و لأجل ذلك كانوا يأكلون و يشربون و ينامون و هكذا في جميع صفات البشر.

الثانية: قوله: **يُوحَىٰ إِلَيَّ** أصل الوحي الإشارة السريعة و لتضمن السرعة قيل أمرٌ وحيٌّ و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز و التعريض و قد يكون بصوتٍ مجرّدٍ عن التركيب و بإشارة ببعض الجوارح و بالكتابة و يقال للكلمة الإلهية التي تلقى الى أنبيائه و أوليائه وحيٌّ و ذلك أمّا برسولٍ مشاهد ترى ذاته و يسمع كلامه كتبليغ جبرئيل و للنبّي في صورة معيّنة، و أمّا بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله، و إمّا بألقاء في الرّوع كما ذكر النبي ﷺ، أنّ روح القدس نفث في روعي، و إمّا بإلهام نحو: **وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ^(١)** و أمّا بتسخير نحو قوله: **وَ أَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ^(٢)**.

و إمّا بمنام كما قال ﷺ **إِنْقَطَعَ الْوَحْيُ وَ بَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ.**

فقوله: **يُوحَىٰ إِلَيَّ** إشارة الى مقام نبوته وهذا هو الفرق بينه وبين غيره من البشر.

فقوله: **أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** بمنزلة الجنس و قوله: **يُوحَىٰ إِلَيَّ** بمنزلة الفعل المميز كما يقال في تعريف الإنسان أنه حيوان ناطق فقوله حيوان يدخل فيه، جميع الحيوانات و قوله ناطق يخرج ما ليس له نفس ناطقة فقوله: **أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** في الحقيقة تعريف للنبي كأنه قيل، النبي ما هو، قيل هو بشر يوحى إليه، وبهذا القيد أعني به الوحي يخرج عن التعريف جميع أفراد البشر ممن لا يوحى إليه و إلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ** (١) أي من لا يوحى إليه ليس بنبي قطعاً وليس كل بشر يصلح للوحي و بما ذكرناه يظهر لك فساد ما قال بعض الجهال كما حكى الله عنهم:

قال الله تعالى: **قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا** (٢).

قال الله تعالى: **هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** (٣).

قال الله تعالى: **مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ** (٤).

قال الله تعالى: **أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا** (٥).

قال الله تعالى: **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** (٦).

فهذه الآيات تدل على جهل قائلها، وذلك لأن الله تعالى لم يأمرنا بطاعة البشر و متابعتهم في أقواله و أفعاله من حيث أنه بشر بل أمرنا بالإنقياد له من حيث أنه يوحى إليه ففي الحقيقة أمرنا بمتابعة الوحي في الحقيقة راجعة الى طاعة الله فمن أطاع النبي فقد أطاع الله و من عصاه فقد عصاه و حيث أن الجاهل لجهله لا يعلم ما يقول يزعم أنه يطيع البشر فيقول ما يقول.

٢- إبراهيم الآية ١٠

١- الانبياء = ٢٤

٤- المؤمنون = ٣٣

٣- الأنبياء = ٣

٦- المدثر = ٢٥

٥- التغابن = ٦

الثالثة: قوله **إِلَهُكُمْ إِلَهُهُ** وأحد في هذا الكلام إشارة إلى أن النبي يدعو الناس إلى التوحيد في بدأ الأمر وأنه أي التوحيد هو الأصل ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا** والوجه فيه واضح فإن الطاعة فرح المعرفة.

قال الله تعالى: **مَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي** ^(١) أي ليعرفون، وكلمة، إنما تقييد الحصر والمعنى أن الإلهية منحصرة به تعالى لا شريك له في الملك فهو الواجب الوجود الذي يستحق أن يعبدوا ما سواه كائناً ما كان مخلوق له محتاج إليه حدوداً وبقاء وقوله واحد، أي واحداً بالوحدة الحقّة الحقيقة لا أنه واحد بالعدد كسائر الموجودات العددية.

الرابعة: قوله **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ^(٢) أي فمن كان يرجو الثواب من الله على أعماله في الدنيا فليعمل عملاً صالحاً، وهو العمل على طبق موازين الشريعة خالصاً لوجه الله ولا يشرك بالشرك الخفي وهو الزيادة بعبادة ربه أحداً، ففي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تفسير قوله عز وجل: **مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ** فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صلى مائة الناس فهو مشرك، ومن زكى مائة الناس فهو مشرك ومن صام مائة الناس فهو مشرك ومن حج مائة الناس فهو مشرك ولا يقبل الله عز وجل عمل مرءٍ إنتهى.

وفي كتاب التوحيد عن علي عليه السلام حديث طويل، يقول فيه وقد سأله رجل عما إشتهبه عليه من الآيات فأما قوله: **بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** ^(٣) يعني بالبعث فسماه الله عز وجل لقاءه وكذلك ذكر المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم يعني أنهم يؤمنون أنهم يبعثون ويحشرون ويجزون بالثواب والعقاب والظن هنا اليقين وكذلك:

قال الله تعالى: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا** ^(١).

قال الله تعالى: **مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ** ^(٢).

يعني بقوله من كان يؤمن بأنه مبعوث فأَنْ وعد الله لَاتٍ من الثواب و العقاب فاللقاء هاهنا ليس بالرؤية و اللقاء هو البعث فإفهم جميع ما في كتاب الله من لقاءه فإنه يعني بذلك البعث إنتهى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّ و جلّ: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا** قال عليه السلام: الرّجل يعمل شيئاً من الثّواب و لا يطلب به وجه الله أنما يطلب تزكية النّاس، يشتهي أن تسمع به النّاس فهذا الذي أشرك بعبادة ربّه ثمّ قال عليه السلام ما من عبدٍ أسّر خيراً فذهبت الأيام أبداً حتّى يظهر الله له خيراً و ما من عبدٍ يسرّ شراً فذهبت الأيام حتّى يظهر الله له شراً إنتهى.

و أما أنّ الرّجل يعمل عملاً خيراً فراه إنسان فيُسره ذلك فلا إشكال لقول أبي جعفر عليه السلام ما من أحدٍ إلّا و يحبّ أن يظهر له في النّاس الخير إذا لم يصنع ذلك.



سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعِصَ (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ
 نَادَى رَبَّهُ يَدَاؤً حَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
 مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
 شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَ
 كَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥)
 يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا
 (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ
 نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي
 غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ
 عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ
 خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ
 لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ الْأَتَى تَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا
 (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى
 إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَى خُذِ
 الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا
 مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ

وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ
وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

◀ اللُّغَةُ

وَهَنٌ: الوهن الضَّعْف.

أَسْتَعْلَ: الإشتعال الإنتشار.

الشَّيْبُ: ضدَّ الشَّبَاب.

عَاقِرًا: أي لا تلد و العقر في البدن الجرح و منه أخذ العاقر.

عَيْتًا: العَتِيّ و العسي واحد و العاسي هو الَّذي غَيَّرَه طول الزَّمان إلى حال

اليبس و الجفاف و قيل من له بضع و سبعون سنة.

هَيِّنٌ: أي سهل يسير.

◀ الإِعْرَابُ

ذِكْرُ رَحْمَةٍ رَبِّكَ ذَكَرَ، خبر مبتدأ محذوف أي هذا ذكر رحمة ربك إذ
ظرف لرحمة أو لذكر شَيْئًا نصب على التَّمْيِيز و قيل هو مصدر في موضع
الحال و قيل هو منصوب على المصدر خَفْتُ أَمْوَالِي فيه حذف مضاف أي
عدم الموالى أو جور الموالى سَمِيًّا فعيل بمعنى مسامياً و لام الكلمة واو من
سما يسمو عَيْتًا أصله عَتَو على فعول مثل تعود و جلوس إلا أنهم إستتقلوا
توالي الضَّمْتين و الواوين فكسروا التَّاء فإنقلبت الواو ياءً لسكونها و إنكسار ما
قبلها ثم قلبت الواو التي هي لام ياءً لسبق الأولى بالسكون و قيل، من زائدة،
عَتِيًّا مصدر مؤكَّد أو تمييز أو مصدر في موضع الحال من الفاعل كَذَلِكَ أي
الأمر كذلك و قيل هو في موضع نصب سَوِيًّا حال من الفاعل في تكلم أن
سَبَّحُوا أن مصدرية و قيل بمعنى، أي و بِقُوَّةٍ مفعول أو حال وَ حَنَانًا معطوف
على الحكم وَ بَرًّا أي و جعلناه برًّا و قيل هو معطوف على خبر كان.

◀ التفسير

كَيْعَصَ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا

قد تقدّم الكلام في أوّل البقرة وغيرها من السور إختلاف المفسرين في الحروف المقطّعة وأنه لا يعلم معناها إلا الله تعالى والمشهور عندهم أنها أسماء السور وقال بعضهم أنّ كلّ حرفٍ منها حرف من إسم من أسماء الله والله أعلم.

قوله: ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ، أي هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا، وصفه بالعبودية إشارة إلى تقربه عند الله وأنه نال مقام العبودية كما عبّر عن رسوله بالعبد حيث قال: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ^(١) وقد ثبت أنه لا مقام فوق مقام العبودية ولذلك في أيّوب النبي:

قال الله تعالى: وَ أَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ^(٢).

و في نوح:

قال الله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا^(٣).

و في داوود و سليمان:

قال الله تعالى: وَ هَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ^(٤).

و في عيسى:

قال الله تعالى: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَيْنِيَ الْكِتَابَ^(٥).

و في نوح:

قال الله تعالى: ذُرِّيَّتِي مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا^(٦).

و في الخضر:

٢- ص = ٤١

١- الاسراء = ١

٤- ص = ٣٠

٣- القمَر = ٩

٦- الإسراء = ٣

٥- مريم = ٣٠

قال الله تعالى: **فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا** (١).

وقد ورد في الأخبار أن مقام العبودية فوق الرسالة و النبوة إذ نادى ربه نداءً خفياً أي حين دعا ربه سراً غير جهاً لا يُريد به رياء و قيل أسرّه من موالیه الذين خافهم، و قيل دعائه كان في جوف الليل، و قيل لإخلاصه فيه فلا يعلمه إلا الله و الإحتمالات كثيرة.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا

حكى الله تعالى في هذه الآية ما دعا زكريا ربه قال رب، أي ربي، حذفت الياء لدلالة الكسرة عليه، أني وهن العظم مني، أي عرض علي الضعف و هو نقصان القوة و أنما أسند الوهن إلى العظم لأنه عمود البدن و به قوامه و هو أصل بناء فإذا وهن تداعى ما وراءه و تساقط قوته و لأنه أشد ما فيه و أصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن و وحد العظم لأنه يدل على الجنس و قصد في كلامه هذا أن هذا الجنس الذي هو العمود و القوام و أشد ما تركب منه الجسد قد أعياه الوهن.

و قال قتادة إشتكى سقوط الأضراس، و قال الكرمانى كان له سبعون سنة و قيل خمس و سبعون و قى خمس و ثمانون و قيل ستون و قيل غير ذلك بعض المفسرين في وجه الإضافة إلى العظم أن العظم مع صلابته إذا كبر ضعف و تناقص فكيف باللحم و العصب و قوله: **اسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** شبه الشيب بشواظ النار في بياضه و إنتشاره في الشعر و فشوه فيه و أخذه منه كل مأخذ بإشتعال النار ثم أخرجه مخرج الإستعارة ثم أسند الإشتعال إلى مكان الشعر و منبته و هو الرأس و أخرج الشيب مميزاً و لم يصف الرأس إكتفاءً بعلم

المخاطب أنه رأس زكرياً فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة.

قال الزمخشري وإلى هذا نظر ابن دريد حيث قال:

و إشتعل المبيض في مسوده مثل إشتعال النار في جزل الفضاء
وقيل قوله: شئياً مصدر في موضع الحال و إشتعال الرأس إستعارة
المحسوس للمحسوس إذا المستعار منه النار و المستعار له الشيب و الجامع
بينهما الإنبساط و الإنتشار و قوله، و لم يكن، نفي فيما مضى أي ما كنت
بدعائك رب شقياً بل كنت سعيداً موقفاً إذ كنت تجيب دعائي فأسعد بذلك
فعلى هذا الكاف مفعول و قيل المعنى لم أكن فيما مضى بدعائك إلى الإيمان
شقياً بل كنت ممن أطاعك و عبدك مخلصاً فالكاف على هذا فاعل و الأول
أظهر لأنه شكر الله تعالى بما سلف إليه من أنعامه أي قد أحسنت إلي فيما
سلف و سعدت بدعائي إياك فالإنعام يقتضي أن تجيبني آخرأ كما أجبتي
أولاً.

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتْ أُمَّرَأَتِي غَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ أَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا

الموالي بنو العم و القرابة الذين بالنسب قال الشاعر:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفوناً

و قال لبيد:

و مولتي قد دفعت الضيم عنه و قد أمسى بمنزلة المضميم

و قال ابن عباس و مجاهد و قتادة الموالي هنا الكلالة، خاف أن يرثوا ماله و
أن يرثه الكلالة و قالت فرقة أنما كان مواليه مهملين الدين فخاف بموته أن
يضيع الدين فطلب ولياً يقوم بالدين وحده و قال صاحب الكشاف كان مواليه
و هم عصابة و أخوته و بنو عمه شرار بني إسرائيل فخافهم على الدين أن
يغيروه و يبدلوه و أن لا يحسنوا الخلافة على أمته فطلب عقباً من صلبه صالحاً

يقتدي به في إحياء الدّين من ورائي أي من بعد موتي و كانت إمرا تي عاقراً لا تصلح للولادة فهب لي من لدنك ولياً فأنتك قادرٌ على ذلك ثم قال يرثني و يرث من آل يعقوب و يجعله ربّ رضيعاً أي يجعل ذلك الولي الذي يرثني مرضياً عندك ممثلاً لأوامرك و نواهيك ففي هذه الآية طلب زكريا من الله تعالى ولياً يرثه و يرث من آل يعقوب و أن يكون صالحاً مرضياً عند الله و هذا ظاهر لا خلاف فيه أنما الكلام في قوله: **يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** و أنّ زكريا عليه السلام أي إرث أراد و بعبارة أخرى المالمрад بالإرث في الآية هل هو المال أو العلم و الحكمة و النبوة و نحن نذكر أولاً ما ذهب إليه المفسرون من العامة ثم نردفه بما ذكره الخاصّة أعني بهم الشيعة تبعاً لأهل البيت فنقول:

قال الطبري و قوله فهب لي من لدنك ولياً يقول فأرزقني من عندك ولدأ و ارثاً معيئاً و قوله: **يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ** يقول يرثني من بعد وفاتي مالي و يرث من آل يعقوب النبوة و ذلك أنّ زكريا كان من ولد يعقوب ثم نقل الأخبار الواردة في الباب و بعد ذلك نقل منها ما يدل على أنّ المراد هو العلم أو النبوة و العلم دون المال.

و نقل عن السّدي أنّه قال يرث نبوتي و نبوة آل يعقوب.

و قال القرطبي و قالت طائفة أنّما كان مواليه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين فطلب ولياً يقوم بالدين بعده حكى هذا القول الزجاج و عليه فلم يسأل من يرث ماله لأنّ الأنبياء لا نورث و هذا هو الصّحيح من القولين في تأويل الآية و أنّه عليه السلام أراد وراثة العلم و النبوة لا وراثة المال لما ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة.

و في كتاب أبي داود أنّ العلماء ورثة الأنبياء و أنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً و لا درهماً و ورثوا العلم و ساق الكلام إلى أن قال و أنّ سليمان لم يرث من داود مالا خلفه داود بعده و أنّما ورث منه العلم و الحكمة و كذلك ورث يحيى من آل يعقوب هكذا قال أهل التّأويل (أهل العلم بالتأويل) ما عدا الرّوافض و إلأ

ما روي عن الحسن أنه قال يرثني مالا و يرث من آل يعقوب النبوة والحكمة و كل قول يخالف قول النبي ﷺ فهو مدفوعٌ مهجورٌ إنتهى كلامه.

و قال الرّازي و إختلفوا في المراد بالميراث على وجوه:

أحدها: أنّ المراد به في الموضوعين هو وراثة المال و هذا قول ابن عباس و الحسن و الضّحاك.

ثانيها: أنّ المراد به في الموضوعين وراثة النبوة و هو قول أبي صالح.

ثالثها: يرثني المال و يرث من آل يعقوب النبوة و هو قول السّدي و مجاهد و الشّعبي.

رابعها: يرثني العلم و يرث من آل يعقوب النبوة و هو مزوي عن مجاهد و إعلم أنّ هذه الرّوايات ترجع إلى أمور خمسة و هي المال، و منصب الحبورة و العلم و النبوة و السيرة الحسنة و لفظ الإرث مستعملٌ في كلّها إنتهى موضع الحاجة من كلامه و من أراد الوقوف على ما ذكره مفصلاً فعليه بكتابه.

و قال الأوسى في تفسيره لهذه الآية بعد نقله الأقوال ما هذا لفظه و مذهب أهل السنة أنّ الأنبياء لا يرثون مالا و لا يورثون لما صحّ عندهم من الأخبار إنتهى.

و قال البيضاوي و المراد وراثة الشّرع و العلم فأَنَّ الأنبياء لا يورثون المال و قيل يرثني الحبورة فأَنه كان حبراً و يرث من آل يعقوب الملك إنتهى.

و قال السيوطي في الدرّ المنتور بعد ما فسّر الورثة بالعصبة في قوله ربّ هب لي من لدنك ولياً يرثني و يرث من آل يعقوب، قال يرثني مالي و يرث من آل يعقوب النبوة، ثمّ نقل بعد ذلك من الأخبار ما يدلّ على أنّ المراد بالميراث هو النبوة و العلم، و في حديث السنّة و العلم كما ذكره الطبري و حاصل الكلام أنّهم حملوا الورثة على الوراة في العلم و النبوة و الحكمة و غير ذلك ممّا شاءوا و أرادوا لا على وراثة المال و الذي دعاهم إلى ذلك هو الحديث الذي رواه أبو بكر عن رسول الله ﷺ أنّه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما

تركناه صدقة، فهذا هو الذي ألجأهم إلى حمل الآية على خلاف ظاهرها و
 منشأ ذلك ليس إلا التَّعصب والعناد فأَنَّ كلمة الوراثة حقيقة في الوراثة الماليَّة
 مجازٌ في غيرها وذلك لأنَّ وراثة العلم والنبوة والحكمة وأمثالها من الفضائل
 لا معنى لها حقيقةً لأنَّها من الأمور الكسبيَّة أو الإفاضيَّة من عالم الغيب ولا
 يعقل أن يكون أحدٌ وارثاً لعلم غيره أو سخاءه أو شجاعته وهو ممَّا يشهد به
 العقل بل الحسُّ أيضاً ففي كلِّ موردٍ أطلق لفظ الإرث على غير المال يحمل
 على المجاز المعلوم أنَّ حمل اللفظ على المعنى المجازي يحتاج إلى القرينة
 المصححة فإذا لم توجد القرينة يحمل اللفظ على معناه الحقيقي وأية قرينة
 دلَّت في الآية على ما ذكره وذلك قال ابن عطية والأكثر من المفسرين على
 أنَّ زكريَّا أمَّا أراد وراثة المال ويحتمل قول النبي إنا معشر الأنبياء لا نورث، أن
 لا يريد به العموم بل على أنه غالب أمرهم فتأمَّله والأظهر الأليق بزكريَّا ^{عليه السلام}
 أن يريد وراثة العلم والدين فتكون الوراثة مستعارة إنتهى.

فقوله مستعارة تصريح منه بأنه أن أريد بالوراثة العلم والدين، فهو ليس
 على المعنى الحقيقي بل إستعارة وإذا كان الأمر على هذا المنوال فحمل
 الكلام على وراثة المال والعلم أولى من حمله على العلم فقط ولكنهم لا
 يرضون به الآن كما لم يرضوا به سابقاً تعصباً وعناداً، وأما المفسرون من فقد
 إتفقوا على حمل اللفظ على معناه اللغوي وهو المال وهذا المعنى شائع في
 العرف أيضاً فإذا قيل زيد وارث عمرو أو ورث عمرو لا يفهم العرف منه إلا
 الوراثة في المال قال بعض المحقِّقين في هذه الآية دلالة على بطلان ما رواه
 أبو بكر من أنَّ الأنبياء لا تورث وذلك لأنَّ زكريَّا طلب الوارث ومن الواضح أنَّ
 المراد من يرث المال أو الأعم منه ومن العلم والنبوة والحمل على أنه أراد
 من يرث العلم والنبوة خاصَّة خلاف المتبادر الذي هو علامة الحقيقة وإرادة
 الخاص من العام مع عدم وجود المخصَّص غير منقول ولا مخصَّص في
 المقام بالإتفاق فأن قالوا أنَّ المخصَّص هو الخبر الذي رواه أبو بكر قلنا:

أما أولاً: أنه خبرٌ واحد وهو لا يصلح لتخصيص عموم الكتاب.
ثانياً: لم تثبت صحته إذ لم يشهد على صحته إلا عائشة و حفصة و عمر و هو كما ترى.

ثانياً: أنه مخالف للأيات على ما سيأتي في موضعه و أعجب من ذلك كله إستدلال العامة بهذه الآية على التّعصب أيضاً لأنه أي زكريّا طلب وليّاً يرثه و لم يطلب وليّه و لولا التّعصب لم يخصّ الطلب به بل قال وليّاً أو وليّته فلمّا خصّصه به دلّ على أنّ بني عمّه يرثونه مع الوليّة فلذلك لم يطلبها و لم يعلموا أنّ الولي يشمل الذكر و الأنثى و التذكير باعتبار التّغليب و إلا يلزم أن يكون قوله الله وليّ الذين آمنوا مثلاً مختصاً بالرجال و أنّ الله تعالى مذكّر لا مؤنث لأنه لم يقل وليّته للذين آمنوا، و بعد الغض عن جميع ما ذكرناه نقول وجه التّخصيص أنه جرى على ما عليه طباع البشر من الرّغبة في البنين دون البنات أو أنه طلب من يرث المال و يقوم بأعباء النّبوة معاً و مثله لا يصلح للنساء و محصل الكلام أنّ الميراث في المال كان ثابتاً في جميع الأمم و هذا هو الأصل في قانون الإرث و ما سواه مجاز و قد ثبت هذا الأصل في الإسلام أيضاً بصريح الأيات و الأخبار و الإجماع و العقل بل لا يبعد أن يكون من ضروريات الإسلام المعلوم أنّ الرّسول في جميع الأمم أولى بالعمل بالأحكام التي جاء بها من غيره فكيف يعقل إنتشاه عن الحكم و ثبوته لأمته و أيّ فرق بين قوله إنا معشر الأنبياء لا نورث و بين القول إنا معشر الأنبياء لا نصليّ أو لا نصوم و هكذا في المحرّمات ثمّ نقول كيف يعقل الأخذ بالحديث الذي لم تثبت صحته بل تنادي ألفاظه بأنه مجعول، و ترك الكتاب و الإعراض عمّا جاء فيه، أليس الله أثبت الميراث في كتابه بالنسبة إلى جميع الأمم ألم يقل و ورث سليمان داود، أليس حكم الأمثال واحد فإن قال قائل الأيات تدلّ على ثبوت الإرث في الأمم السالفة و أنبيائهم و أمّا في الإسلام فلا و لا يبعد أن يكون حكم الإرث ثابتاً للأنبياء و إستثنى منهم رسول الإسلام دون أمتّه، نقول في الجواب أمّا أولاً فهذا محتاج إلى الإثبات.

ثانياً: لو كان كذلك لقال ﷺ أنا من بين الأنبياء لا أورث، وأما قوله، إنّا معشر الأنبياء أو نحن، فهو يشمل جميع الأنبياء من آدم إلى خاتم الأنبياء و يلزم التعارض بين الحديث ونص الكتاب، وكان جاعل الحديث غفل عن هذه النقطة و لم يقل أنا من الأنبياء لا أورث حتّى لا يقع التعارض بين الحديث و الكتاب و يمكن تخصيص الكتاب به على فرض صحّته و أمّا على ما نقلوه من أنّه ﷺ قال إنّا معشر الأنبياء لا نورث فلا يمكن تخصيص الكتاب به لإستحالة تخصيص العامّ بعامٍّ آخر و هو واضح.

إن قلت فما كان الوجه في تمسّكهم بالحديث على خلاف الكتاب.

قلت الوجه فيه منع الزهراء عليها السلام عن الميراث عن رسول الله ﷺ بقولٍ مطلق إذ ثبوت الميراث في المال يستلزم الثبوت في غيره أيضاً و قد نقل ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه على نهج أنّه قال لأستاذه، ما بال أبي بكر لم يصدّق فاطمة الزهراء في قولها بثبوت الميراث لها بصريح الكتاب ألم يعلم أنّها صديقه شهدت آية التطهير بصدقهما قال الأستاذ و هو أبو جعفر التّقيب نعم كان أبو بكر عالمًا بأنّ الزهراء صادقة في قولها قلت فلم لم يرد إليها ما إدّعتها قال لأنّ أبا بكر كان يعلم أنّ تصديقها في مسألة الميراث و فذلك يوجب تصديقها في جميع الموارد و منها مسألة الخلافة، إنتهى كلامه بتلخيص منّا و قد تكلمنا في هذا الباب في شرحنا على خطبة فذك بما لا مزيد عليه و قلنا هناك أنّ السّر في جعل الحديث هو هذا: وسيعلم الذين ظلموا أيّ مقلب ينقلبون إنّا لله وإنا إليه راجعون.

و لنعم ما قال الشيخ في التّبيان حيث قال و في الآية دلالة على أنّ الأنبياء يورثون المال بخلاف ما يقول من خالفنا أنّهم لا يورثون، لأنّ زكريّا صرح بدعائه و طلب من يرثه و يحجب منّي عمّه و عصبته من الولد و حقيقة الميراث إنتقال ملك المورث، إلى ورثته بعد موته بحكم الله و حمل ذلك على العلم و النبوة على خلاف الظاهر لأنّ النبوة و العلم لا يورثان لأنّ النبوة

تابعة للمصلحة لا مدخل للنسبة فيها والعلم موقوف على من يتعرض له و يتعلمه على أن زكريا إنما سأل ولياً من ولده يحجب مواليه من بني عمه و عصبته من الميراث و ذلك لا يليق إلا بالمال لأن النبوة و العلم لا يحجب الولد عنهما بحال على أن إشتراطه أن يجعله رضيعاً لا يليق بالنبوة لأن النبي لا يكون إلا رضيعاً معصوماً فلا معنى لمسألته ذلك و ليس كذلك المال لأنه يرثه الرضي و غير الرضي إنتهى موضع الحاجة من كلامه رفع مقامه و للبحث فيه مقام آخر.

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ أَصْمُومٍ يَخِينُ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا
قيل المنادى هم الملائكة بوحى من الله و ذلك:

قال الله تعالى: فَانَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّدًا وَ حَصُورًا وَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ^(١).

و الغلام الولد الذكر و قد يقال للأثني غلامه، و الظاهر أن يحيى ليس عربياً لأنه لم تكن عاداتهم أن ييموا بالفاظٍ عربيّة فيكون منعه الصّرف للعلمية و العمية، و قيل يسمّى بذلك لأنه يحيى بالحكمة و العفة أو بهدايته و إرشاده خلق كثير، و قيل لأنه يستشهد و الشهداء أحياء و كيف كان فقد بشر زكريا بما طلبه من الله و هو الولد و قوله: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قال ابن عباس معناه لم يلد مثله العواقي ولدأ و قال مجاهد لم نجعل له من قبل، مثلاً، و قال ابن جريح و قتادة لم يسمّ أحداً بإسمه قبله من الأنبياء.

قَالَ رَبِّ ائْتِنِي غُلَامًا وَ كَانَتْ أَمْرًا تِي عَاقِرًا وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا

أَيُّ قَالَ زَكْرِيَّا لَمَّا نُوذِيَ بِذَلِكَ، أَنِّي، أَيُّ كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ، وَ إِمْرَأَتِي عَاقِرٌ، لَا يَلِدُ مِثْلَهَا، وَ قَدْ بَلَغْتَ، أَنَا مِنَ الْكِبَرِ أَيُّ مِنَ السَّنِّ عَتِيًّا، الْعَتِيُّ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَ التَّاءِ الْمَبَالِغَةِ فِي الْكِبَرِ وَ الْعَاسِي هُوَ الَّذِي غَيَّرَهُ طَوْلُ الزَّمَانِ إِلَى حَالِ الْبَيْسِ وَ الْجَفَافِ.

وَ قَالَ قَتَادَةُ كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَ سَبْعُونَ سَنَةً، وَ هَذَا أَيُّ كَسَرَ الْعَيْنِ فِي قَوْلِهِ عَتِيًّا، هُوَ قِرَاءَةُ الْكِسَائِيِّ وَ حَمْزَةٌ وَ الْأَعْمَشُ وَ أَمَّا غَيْرُهُمْ مِنَ الشَّيْعَةِ فَقَرَأُوهَا بِالضَّمِّ وَ الْمَعْنَى وَاحِدًا وَ لَا خِلَافَ فِيهِ.

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئًا. قَالَ أَيُّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، كَذَلِكَ أَيُّ الْأَمْرِ كَذَلِكَ فَهُوَ تَصْدِيقٌ لَهُ ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، أَيُّ لَيْسَ يَشْقُ عَلَيْهِ خَلْقُ الْوَلَدِ مِنْ بَيْنِ شَيْخٍ وَ عَاقِرٍ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَ فِي قَوْلِهِ: قَالَ رَبُّكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُنَادِي كَانَ مُلْكًا مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَ هُوَ الَّذِي أَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ قَالَ رَبُّكَ وَ لَوْ كَانَ الْمُنَادِي هُوَ اللَّهُ تَعَالَى لَقَالَ، أَقُولُ وَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ أَيُّ سَهْلٌ يَسِيرٌ وَ كَيْفَ لَا يَكُونُ سَهْلًا وَ قَدْ خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلِ، ذَلِكَ وَ لَمْ تَكُ شَيْئًا، مَوْجُودًا وَ هَذَا الْكَلَامُ بِمَنْزِلَةِ التَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ بِقِيَاسِ الْأَوَّلِيَّةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ الْمَحْضِ أَصْعَبُ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ بَيْنِ شَيْخٍ وَ عَاقِرٍ وَ الْأَوَّلُ قَدْ حَصَلَ فَالثَّانِي أَوْلَى بِالْحَصُولِ وَ الْمَقْصُودُ كَيْفَ تَتَّعَجَبُ مِنْ حَصُولِ الْوَلَدِ لَكَ وَ أَنْتَ شَيْخٌ وَ إِمْرَأَتُكَ عَاقِرٌ وَ قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي خَلَقْتِكَ وَ لَمْ تَكُ شَيْئًا، وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى عَمُومِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى بِجَمِيعِ الْمَمْكَنَاتِ وَ صُورَةِ الْقِيَاسِ هَكَذَا، إِنَّ خَلْقَ الْوَلَدِ عَنِ الشَّيْخِ وَ الْعَاقِرِ أَمْرٌ مُمْكِنٌ لَا إِسْتِحَالَةَ فِيهِ وَ كُلُّ مُمْكِنٍ تَتَّعَلَقُ الْقُدْرَةُ بِهِ وَ يَوْجَدُ فَهُوَ يَوْجَدُ.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ آتِنَا ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا.

الآية العلامة طلب زكريا من ربه آية وعلامة يعلم بها وقوع ما بشر به و إنما طلب ذلك ليزداد يقيناً لا أنه كان شاكاً في قدرته كما قال إبراهيم عليه السلام: **وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** قال الله تعالى له: **أَيْتُكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ**، ثلاث ليالٍ، قال ابن عباس إعتقل لسانه من غير مرضٍ ثلاثة أيام.

و قال قتادة إعتقل لسانه من غير خرس، قيل أنه لما حملت زوجته بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً و هو مع ذلك يقرأ التوراة و يذكر الله فإذا أراد مناداة أحد لم يطقه و سويّاً حال من ضمير أي لا تكلم في حال صحتك ليس بك خرس و لا مرض و قيل قوله: **سَوِيّاً** عاقد على الليالي أي كاملات مستويات فتكون صفة لثلاث و دلّ ذكر الليالي هنا، و الأيام في آل عمران على أن المنع من الكلام استمر له ثلاثة أيام بلياليهن، و أن، في قوله أن لا تكلم الناس هي الناصبة للمضارع وليست بالمخففة من التثنية كما زعم.

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً أي و هو بتلك الصفة من كونه لا يستطيع أن يكلم الناس من المحراب أي من محراب عبادته و المحراب بكسر الميم هو موضع الصلاة، فأوحى إليهم، أي أشار إليهم لعدم قدرته على التكلم أو لعدم كونه مأموراً به فأشار إليهم و قيل كتب على الأرض و قال عكرمة كتب في ورقة و الوحي في كلام العرب الكتابة و منه قول ذي الرمة:

سوى الأربع الذهم اللواتي كأنها
و قال الأخر:

كوحى صحائف من عهد كسرى
و قال جرير:

كأن أخا اليهود يخط وحيّاً
بكافٍ في منازلها ولام

وقوله: **أَنْ سَبِّحُوا** فقل أي صلُّوا و قيل أمرهم بتسبيح الله و ذكره المفسرون كان يخرج على قومه بكرةً و عشياً فيأمرهم بالصلاة إشارةً.
أقول و لا يبعد أن يكون الأمر بالتسبيح لنقطةٍ و هي أن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجبياً يقول سبحان الله سبحان الخالق و علي هذا فلما رأى حصول الولد من شيخ و عاقرٍ تعجب منه فسبح هو و أمر غيره بالتسبيح أيضاً، و أن، في قوله: **أَنْ سَبِّحُوا** مفسرة و قيل قوله: **أَنْ سَبِّحُوا**، نصب بأوحي، و قيل أنها مصدرية و هي تكون بمعنى أي:

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا

قيل في الكلام حذف و تقديره، فلما ولد يحيى و كبر و بلغ السن الذي يؤمر فيه قال الله على لسان الملك يا يحيى خذ الكتاب و هو التوراة إذ لم يكن الإنجيل موجوداً، و قيل كان له كتاب خص به كما خص كثير من الأنبياء بمثل ذلك و قيل الكتاب صحف إبراهيم و المشهور عند المفسرين هو القول الأول و قوله: **بِقُوَّةٍ**، أي بجِدِّ، و آتيناه الحكم صبيًّا، أي أعطيناه الفهم لكتاب الله و قيل الحكم هنا النبوة و قيل الحكمة و العلم بالأحكام و قيل هو اللب و العقل الكامل، و قيل آداب الخدمة أو الفراسة الصادقة و الكل محتملٌ و قوله صبيًّا، أي طفلاً لأنه كان ابن سنتين و قيل ابن ثلاث و قيل ابن سبع و الآية تدل على أنه كان صبيًّا و أمّا تعيين السن فلا دليل عليه و في الآية إشارة إلى أن الصبي يمكن أن يكون نبياً و هو كذلك.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكُوَّةً وَ كَانَ تَقِيًّا، وَ بَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا، وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا
وَ حَنَانًا، معطوف على الحكم أي و آتيناه الحكم صبيًّا و حناناً من لدنا و الحنان الرحمة أي آتيناه الحكم و الرحمة من لدنا، أي من عندنا و ذلك لأن

الحكم والرّحمة من عند الله فقط سواء كان الحكم بمعنى النّبوة أم العلم و الحكمة فأَنَّ الكُلَّ من عند الله تعالى الرّحمة و قوله: زَكُوَّةٌ أَي عملاً صالحاً و عن الرّجّاج أَي تطهيراً، و قيل زيادة في الخير هكذا قيل و قال الشّيخ في التّبيان أَي إنّنا زكّيناه بحسن الثّناء عليه كما يزكّي الشّهود الإنسان و أنا أقول الزّكوة في الأصل النمو أي رفعناه مكاناً رفيعاً عليّاً، و كان تقيّاً، أي كان يحيى تقيّاً لا يعدل به غيره لأنّه لم يعص الله بل ٥ بم يهّم قطّ بكبيرة و لا صغيرة و كان طعامه العشب المباح، و بعبارة أخرى كان يتقي معاصي الله و ترك طاعته زاهداً في الدّنيا راغباً للأخرة، و برّاً بوالديه، أي كثير التبر و الإكرام و التّبجيل و قرأ بعضهم، برّاً، بكسر الباء أي و ذا برّاً، و لم يكن جباراً أي متكبّراً، عصياً أي عاصياً كثير العصيان، و سلامٌ عليه، و سلام الله على يحيى يوم ولد من أمّه يموت و يوم يبعث حيّاً، أي يوم القيامة.

قال الطّبري أي أمان و قال ابن عطية و الأظهر أنّها التّحيّة المتعارفة و أنّما الشّرف في أن سلم الله عليه و حيّاه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضّعف و الحاجة و قلة الحيلة و الفقر إلى الله.

أقول نقل المجلسي رحمته في البحار بأسناده عن الرّيان بن شبيب قال دخلت على الرّضا عليه السلام في أوّل يوم من المحرم فقال عليه السلام يا بن شبيب أصائم أنت فقلت لا فقال عليه السلام إنّ هذا اليوم هو اليوم الذي دعا زكريّا ربّه فقال ربّ هب لي من ولدك ذريّة طيبة أنك سميع الدّعاء فاستجاب الله له و أمر الملائكة فنادت زكريّا و هو قائم يصلي في المحراب أنّ الله يبشرك بيحيى فمن صام هذا اليوم ثمّ دعا الله عزّ وجلّ إستجاب الله له كما إستجاب لزكريّا إنتهى.

و بأسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت ما عني الله تعالى بقوله في يحيى: وَ حَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكُوَّةً قَالَ عليه السلام تَحَنَّنَ اللَّهُ قَالَ قلت فما بلغ من تحنّن الله عليه قال عليه السلام كان إذا قال ياربّ قال الله عزّ وجلّ لبيك يا يحيى إنتهى.

وبأسناده عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ كان من زهد يحيى ابن زكريّا أنّه أتى بيت المقدس فنظر إلى المجتهدين من الأُحبار والرهبان عليهم مدارع الشَّعر و برانس الصُّوف وإذا هم قد خرقوا تراقيهم و سلكوا فيها السِّلاسل و شدّوها إلى سوارى المسجد فلمّا نظر إلى ذلك أتى أمّه فقال يا أمّاه أنسجي لي مدرعة من شعرٍ و برنساءً من صوف حتّى أتى بيت المقدس فأعبد الله مع الأُحبار والرهبان فقالت له أمّه حتّى يأتي نبيّ الله و أوامره في ذلك فلمّا دخل زكريّا أخبرته بمقاله يحيى فقال له زكريّا يا بنيّ ما يدعوك إلى هذا و أنت صبيّ صغير فقال له يا أبه ما رأيت من هو أصغر سنّاً منّي قد ذاق الموت قال بلى، ثمّ قال لأمّه أنسجي له مدرعة من مشعر و برنساءً من صوف ففعلت فتدرّع المدرعة على بدنه و وضع البرنس على رأسه ثمّ أتى بيت المقدس فأقبل يعبد الله عزّ و جلّ مع الأُحبار حتّى أكلت مدرعة الشعر لحمه فنظر ذات يوم الى ما قد نحل من جسمه فبكى فأوحى الله عزّ و جلّ اليه يا يحيى أتبكي ممّا نحل من جسمك و عزّتي و جلالى لو إطلعت الى النّار إطلاعة لتدرّعت مدرعة الحديد فضلاً عن المنسوج فبكى حتّى أكلت الدّموع لحم خديّه و بدا للناظرين أضراسه فبلغ ذلك أمّه فدخلت عليه و أقبل زكريّا و اجتمع الأُحبار والرهبان فأخبروه بذهاب لحم خديّه فقال ما شعرت بذلك فقال زكريّا يا بنيّ ما يدعوك الى هذا أمّا سئلت ربّي أن يهبك لي لتقربك عيني قال أنت أمرتني بذلك يا أبه قال و متى ذلك يا بنيّ قال ألسنت القائل إنّ بين الجنّة و النّار لعقبة لا يجوزها إلاّ البكاؤون من خشية الله قال بلى فجّد و أجتهد و شأنك غير شأنى فقام يحيى فتفقد مدرعه فأخذته أمّه فقالت أتأذن لي يا بنيّ أن أتخذ لك قطعتي لبود تواريان أضراسك و تنشفان دموعك

فقال لها شأنك فأخذت قطعتي لبود تورايان أضراسه و تنشفان دموعه حتى إبتلتا من دموع عينيه فحسر عن ذراعيه ثم أخذهما فعصرهما فتحدّر الدموع من بين أصابعه فنظر زكريّا الى ابنه و الى دموع عينيه فرفع رأسه الى السماء فقال اللهم هذا إبني و هذه دموع عينيه و أنت أرحم الرّاحمين إنتهى موضع الحاجة منه والحديث طويل.

و بأسناده عن ياسر الخادم قال: سمعتُ الرّضاعَ عليه السلام يقول أنّ أوحش ما يكون لهذا الخلق في ثلاثة مواطن يوم يلد فيخرج من بطن أمّه فيرى الدُّنيا و يوم يموت فيعابن الأخرّة و أهلها و يوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدُّنيا و قد سلم الله تعالى على يحيى في هذه المواطن الثلاثة و آمن من روعته فقال و سلامٌ عليه يوم ولد و يوم يموت و يوم يبعث حيّاً و قد سلم عيسى ابن مريم على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال و السّلام عليّ يوم أموت و يوم أبعث حيّاً إنتهى.

و بأسناده سأل سعد بن عبد الله القائم عليه السلام عن تأويل كهيعص، قال عليه السلام: هذه الحروف من أنباء الغيب إطلع الله عليها عبده زكريّا ثم قصّها على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

و ذلك أنّ زكريّا سأل ربّه أن يعلّمه أسماء الخمسة فأهبط عليه جبرائيل فعلّمه أيّاهما فكان زكريّا إذا ذكر محمّداً و عليّاً و فاطمة و الحسن و الحسين سرّي عنه همّه و إنجلي كربه و إذا ذكر إسم الحسين عليه السلام خنقته العبرة و وقعت عليه البهرة فقال عليه السلام ذات يوم إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعة منهم تسّليت بأسماءهم من همومي و إذا ذكرت الحسين تدمع عيني و تثور زفرتي فأنبأه الله تبارك و تعالى عن قصّته فقال كهيعص، فالكاف إسم كربلاء، و الهاء هلاك

العترة و الياء يزيد و هو ظالم الحسين و العين عطشه و الصّاد صبره فلما سمع ذلك زكريّا لم يفارق مسجده ثلاثة أيّام و منع فيهنّ النَّاس من الدّخول عليه و أقبل على البكاء و النّحيب و كان يرثيه إلهي خير جميع خلقك بولده إلهي أنزل بلوى هذه الرّزية بفناءه، إلهي ألبس عليّاً و فاطمة ثياب هذه المصيبة إلهي أتحلّ كربة هذه المصيبة بساحتها ثمّ كان يقول إلهي أرزقتني ولدًا تقرّ به عيني على الكبر فإذا رزقتنيه فأفتني بحبّه ثمّ أفجعني بعدكما تفجع محمّداً حبيبك بولده فرزقه الله بيحيى و فجعه به و كان حمل بيحيى ستّة أشهر و حمل الحسين عليه السلام كذلك الخبر، و أمّا شهادته فقد روى أيضاً بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال أنّ ملكاً كان على عهد يحيى بن زكريّا لم يكفه ما كان عليه من الطّروقة حتّى تناول امرأةً بغياً، فكانت تأتيه حتّى أسنت فلما أسنت هيأت إبنتها ثمّ قال لها أني أريد أن أتى بك الملك فإذا واقعك فيسألك ما حاجتك فقولي حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريّا فلما واقعها سألها حاجتها فقالت قتل يحيى إبن زكريّا فلما كان في الثالثة بعث إلى يحيى فجاء به فدعا بطست ذهب فذبجه فيها و صبّوه على الأرض فيرتفع الدّم و يعلو و أقبل النَّاس يطرحون عليه التّراب فيعلو عليه الدّم حتّى صار تلاً عظيماً و مضى ذلك القرن فلما كان من أمر بخت نصر ما كان رأى ذلك الدّم فسأل عنه فلم يجد أحداً يعرفه حتّى دلّ على شيخٍ كبيرٍ فسأله فقال أخبرني أبي عن جدّي أنّه كان من قصّة يحيى بن زكريّا كذا و كذا و قصّ عليه القصّة و الدّم دمه فقال بخت نصر لا جرم لأقتلنّ عليه حتّى يسكن فقتل عليه سبعين ألفاً فلما وفى عليه سكن الدّم، و فى خبر آخر أنّ هذه البغي كانت زوجة ملك جبّار قبل هذا الملك و تزوّجها هذا بعده فلما أسنت فكانت لها إبنة من الملك

الأول قالت لهذا الملك تزوج أنت بها فقال لأسأل يحيى بن زكريا عن ذلك فإن أذن فعلت فسأله عنه فقال يحيى لا يجوز فهيات بنتها وزيّنتها في حال سكره و عرضتها عليه فكان من حال قتل يحيى ما ذكر فكان ما كان إنتهى^(١).

أقول ما أشبه ولادته و شهادته بولادة الحسين و شهادته و قصّة بخت نصر بقصّة المختار حيث قتل كثيراً من الظالمين و لأجل ذلك كان الحسين عليه السلام في مسيره إلى كربلاء كثيراً ما يذكر قصّة يحيى ابن زكريا ألا لعنة الله على الظالمين و سيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون و قد ورد في الأخبار أنّه ما بكت السماء و الأرض إلا على يحيى ابن زكريا و الحسين بن عليّ سلام الله عليهما و ذلك لشدة مظلوميتهما و شقاوة من ظلم عليهما فإنّ الأنبياء و أولاد الأنبياء لا يقتلهم إلا أولاد الزنا و يزيد بن معاوية كان كذلك كما أنّ معاوية أيضاً كان كذلك على ما تشهد به التواريخ.



وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا
 مَكَانًا شَرِيقًا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا
 فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧)
 قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا
 (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا
 زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ
 يَمَسُّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ
 رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً
 مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ
 مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)

مناسبة هذه القصة لما قبلها واضحة و ذلك أنه تعالى لما ذكر قصة زكريا و طلبه الولد و أجابه الله إياه فولد له من شيخ فان و عجز له عاقر و كان ذلك مما يتعجب منه أردفه بما هو أعظم في الغرابة و العجب و هو وجود ولد من غير ذكر فدل ذلك على عظم قدرة الله و حكمته و أيضاً فقص عليهم ما سأله من قصة أهل الكهف و قصة الخضر و موسى ثم قص عليهم ما سأله و هو قصة ذي القرنين ثم ذكر في هذه التوراة قصصاً لم يسأله عنها و فيها غرابة ثم أتبع ذلك بقصة إبراهيم و موسى و هارون موجزة ثم بقصة إسماعيل و إدريس ليستقر في أذهانهم أنه إطلع نبيه على ما سأله و على ما لم يسأله و أن الرسول ﷺ وحيه في ذلك واحد يدل على صدقه و صحة رسالته من أمي لم يقرأ الكتب و الرحل و لا خالط من له علم و لا عني بجمع سير فقال تعالى (وَأذكر يا محمد) في الكتاب و هو القرآن، و الذكر إدراك النفس للمعنى بحضوره في القلب و الإذكار إحضار النفس له و أما سمي كتاباً لأنه مما

يكتب، و مريم، هي ابنة عمران أم عيسى عليه السلام وكانت خالة يحيى فهما أي عيسى و يحيى كانا إنا الخالة.

نقل الطبري أن يحيى قال لعيسى أَدع لي فأنت خير مني فقال له عيسى بل أنت أَدع لي فأنت خير مني سلم الله عليك و أنا سلمت على نفسي إنتهى.

إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا قَالِ الزَّمخشري، إذ، بدل من مريم بدل الإشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها وقته إذ المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجبية فيها إنتهى و قوله إذ إنتبذت، الإنتباذ إتخاذ الشيء بإلقاء غيره عنه و الأصل الإلقاء من قولهم نبذه وراء ظهره أي ألقاه و النَبذ الطرح.

و قال قتادة معنى إنتبذت إنفردت و قيل معناه إتخذت مكاناً تنفرد فيه للعبادة و قيل معناه تباعدت و قال السدي إنتبذت لتطهر من حيضها و قال غيره لتعبد الله وكانت وقفاً على سداثة المتعبد و خدمته و قوله مكاناً شريقياً، فإنصب، مكاناً على الظرف أي في مكانٍ و وصف بشرفي لأنه كان يلي بيت المقدس أو من دارها و بسبب كونه في الشرفي أنهم كانوا يعظمون جهة الشرق من حيث تطلع الشمس و عن ابن عباس إتخذت النصارى الشرق قبله لميلاد عيسى و قيل قعدت في مشرقه للإغتسال من الحيض محتجة بحائض أي شيء ليسترها و كان موضعها المسجد كما قال تعالى: فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا إِلَى مريم روحنا فتمثل لها بشراً سوياً، قيل المراد بالروح جبرئيل عليه السلام و سمّاه روحاً لأنه روحاني لا يشبه شيئاً من غير الروح و خص بهذه الصفة تشريفاً له و قيل لأنه تحيي به الأرواح بما يؤديه إليهم من أمر الأديان و الشرائع وكيف كان لا خلاف عند المفسرين في أن المراد بالروح الملك جبرئيل أو غيره و لا يبعد أن يكون الروح إسم ملك من الملائكة كما قال تعالى: فَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ^(١) و قوله: فَتَمَثَّلَ لَهَا أَي فَمَثَّلَ الْمَلَكُ لَهَا

أي لمريم بشراً سويّاً أي مستوي الخلق، قيل أتاها الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضي الوجه جعد الشعر سوي الخلق لم ينتقص من الصورة الأدمية شيئاً أو حسن الصورة مستوي الخلق.

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا

لَمَّا تَمَثَّلَ الْمَلِكُ لَهَا بِصُورَةِ الْبَشَرِ قَالَتْ، أَي قَالَتْ مَرِيْمُ لَهُ، أَنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ أَي أَلْتَجِي إِلَيْهِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، تَخَافُ عِقُوبَةَ اللَّهِ وَ أَمَّا عَلَّقَتْ التَّعْوِيذَ عَلَى التَّقْوَى إِذْ أَتَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْهُ أَنْ يَرْتَدِعَ عَمَّا يَسْخَطُ اللَّهُ بِخِلَافِ الْفَاسِقِ الْفَاجِرِ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ وَلَا يَرْتَدِعُ عَنْ عَصِيَانِهِ فِي ذَلِكَ تَخْوِيفٌ وَ تَرْهِيْبٌ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ إِنْ كُنْتُ مُؤْمِنًا فَلَا تَظْلِمْنِي وَكَانَتْ مَرِيْمُ غَيْرَ عَالِمَةٍ بِأَنَّهُ تَقِيٌّ أَمْ لَا فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ مِنْهَا هَذَا الْقَوْلَ قَالَ عَلِيًّا لَهَا، أَنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ، أَرْسَلَنِي اللَّهُ لِأَبْشُرَكَ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَهَبُ لَكَ غُلَامًا ذَكَرًا زَكِيًّا، طَاهِرًا مِنَ الذَّنُوبِ، وَ قِيلَ نَامِيًّا فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ رُوحَنَا بَفَتْحِ الرَّاءِ لِأَنَّهُ سَبَبٌ لِمَا فِيهِ رُوحُ الْعِبَادَةِ وَ إِصَابَةُ الرُّوحِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عِدَّةُ الْمُقَرَّبِينَ فِي قَوْلِهِ: فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَلْمُقَرَّبِينَ، فَرُوحٌ وَ رِيحَانٌ^(١) أَوْ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَ هُمُ الْمُوعُودُونَ بِالرُّوحِ أَي مُقَرَّبِينَ وَذَا رُوحَنَا وَ ذَكَرَ النَّفَاسَ أَنَّهُ قَرِيٌّ رُوحًا بِتَشْدِيدِ النَّسْبِ إِسْمُ مَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ إِنْتَصَبَ الْبَشَرِ سَويًّا عَلَى الْحَالِ، وَ أَمَّا مِثْلُ الْمَلِكِ لَهَا بِصُورَةِ الْبَشَرِ لِتَسْتَأْنِسَ مَرِيْمُ بِكَلَامِهِ وَ لَا تَفْرَعَهُ وَ لَوْ بَدَأَ لَهَا فِي صُورَةِ الْمَلَكِيَّةِ لَنَفَرَتْ وَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى إِسْتِمَاعِ كَلَامِهِ وَ دَلَّ عَلَى عَفَافِهَا وَ وَرَعِهَا أَنَّهُ تَعَوَّذَتْ بِهِ مِنْ تِلْكَ الصُّورَةِ الْجَمِيلَةِ الْفَائِقَةِ الْحَسَنِ وَ كَانَ تَمَثِيلَهُ لَهَا عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ إِبْتِلَاءً لَهَا وَ

سبراً لعفتها، قيل كانت مريم في منزل زوج أختها زكرياً ولها محراب على حدة تسكنه وكان زكرياً إذا خرج أغلق عليها فتُمنّت أن تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فإنفرج السَّقْف لها فخرجت فجلست في المشرقة وراء الجبل فأتاها الملك قال بعضهم قام الملك بين يديها في صورة ترب لها إسمه يوسف من خدم بيت المقدس وقيل غير ذلك والمتّع ما في الكتاب لا غيره وقيل، إن، في قوله: **إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا نَافِيَةً أَي مَا كُنْتَ تَقِيًّا بِدُخُولِكَ عَلَيَّ وَنَظَرِكَ إِلَيَّ وَفَسَّرَ الزَّكَاةَ، فِي قَوْلِهِ: زَكِيًّا، هُنَا بِالصَّلَاحِ وَبِالنَّبُوَّةِ وَتَعَجِبْتَ مَرِيْمَ بِمَا أَلْقَى فِي رَوْعِهَا أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَتْ، أَي مَرِيْمَ، أَنِّي يَكُونُ لِي غَلَامٌ أَي كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وَ لَمْ يَمْسُسْنِي بِبَشَرٍ بِالْجَمَاعِ عَلَى وَجْهِ الزَّوْجِيَّةِ، وَ لَمْ أَكُ بَعِيًّا، تَخْصِيصٌ بَعْدَ تَعْمِيمٍ لِأَنَّ مَسِيْسَ الْبَشَرِ يَكُونُ بِنِكَاحٍ وَبَسْفَاحٍ.**

قال الزمخشري جعل المسّ عبارة عن نكاح الحلال لأنه كناية عنه لقوله تعالى: **مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ** وقوله: **أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ** والزنا ليس كذلك أنما يقال فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك، والبغي المجاهرة المشتهرة في الزنا، قيل لما كان هذا اللفظ خاصاً بالمؤنث لم يحتج إلى علامة التأنيث فصار كحائض و طالق وأنما يقال للرجل باغ.

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا

أي قال الملك لها لما سمع تعجبها من هذه البشارة، كذلك يعني أن الله تعالى قال ذلك، قال ربك هو عليّ هين، أي سهل، وقوله هو، يرجع إلى الغلام أي خلق الغلام عليّ هين كما خلقتك قبل وأخرجتك من العدم إلى الوجود على ما مرّ في قصة زكرياً، ولنجعله أي ولنجعل الغلام، آية، و غلامٌ على قدرة الله، للناس، ليعلموا أن الله على كل شيء قدير، ورحمة منّا، معطوف على آية أي أنه رحمة منّا على الخلق وذلك لأنّ النبي رحمة، وكان أمراً مقضياً، أي و

كان وجود الغلام أمراً مفروغاً منه أي قضاءه الله وقدره وما قضاؤه الله بأنه كائن من كونه فحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا يعني حملت مريم عيسى في بطنها، ذكروا أنَّ جبرئيل نفخ في جيب درعها أو فيه و في كمّها، فلمّا حملت بعيسى، إنتبذت مكاناً قصياً، أي إنفردت مكاناً بعيداً ومعناه قاصياً وهو خلاف الدّاني، قيل كانت مريم بنت أربع عشرة سنة و قيل خمس عشرة و كانت لم تحض قطّ فلمّا أحسّت و خافت ملامة النَّاس أن يظنّوا بها الشّر ارتمت به إلى مكانٍ قصي حياءً و فراراً قيل أنّها ببيت لحم بينه و بين إيليا أربعة أميال، و قيل بعيداً من أهلها وراء الجبل و قيل أقصى الدّار و ذكر المفسّرون في المقام أقوالاً لا يعتمد عليها بل الإعراض عنها أولى من التّعريض لها لكونها مضطربة متناقضة.



فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا
لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣)
فَنَادِيهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ
تَحْتِكَ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ
تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي
وَقرَّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ
إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ
لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ
أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْغِيًّا (٢٨)
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي
الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ
مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ
حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا
شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ
لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا
فَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ
رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ
الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمَعُ بِهِمْ وَ أَبْصِرُ يَوْمَ
يَأْتُونَنَا لَكِنَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
(٣٨) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ
هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ
الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِنَّا يُرْجَعُونَ (٤٠)

◀ اللغة

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ: الأصل جاءها ثم عدّي بالهمزة إلى مفعول ثانٍ وإستعمل بمعنى ألجأها وذلك لأن رجاء، قد يعدى بالباء و قد يعدى بالألف مثل ذهبت به و أذهبتة و خرجت به و أخرجته فعلى التعدية بالباء يقال جاء به، و على التعدية بالهمزة يقال أجهأ و ما نحن فيه من هذا القبيل ثم دخلت الفاء على الهمزة و من المعلوم أن تعدى الفعل بالهمزة يستدعى مفعولاً ثانياً يقال أستعمل بمعنى، ألجأها أي اضطرها قال الشاعر:

ود جارٍ سار معتمداً إليكم
أجائته المخافة و الرجاء

أي جاءت به، و الْمَخَاضُ، بفتح الميم و جمع الولادة و يقرأ بالكسر و هما لغتان و قيل الفتح إسم للمصدر مثل السَّلام و العطاء و الكسر مصدر مثل القتال نَسِيًا: بكسر النون و عليه فهو بمعنى المنسي و يقرأ بالفتح أي شيئاً حقيراً و يقرأ بفتح النون و همزة بعد السين و هو من نسات اللبن إذا خالطت به ماءً كثير و قيل النسِي خرقه الحيض التي تلقىها المرأة.

مِنْ تَحْتِهَا: بفتح الميم فاعل، نادى، و أن فى أَلَا مصدرية أي لا تغمى.

سَرِيًّا: السَّر هو النَّهر الصَّغير و إنما سمِّي النَّهر سَرِيًّا لأنه يسري بجريانه.

وَ هَزِيًّا: الهَز التَّحريك الشَّدِيد و يُقال هزرت الرُّمَح فأهتز.

جَيْئًا: الجَيْئ فعيل بمعنى، مفعول أي المجني المأخوذ من الثمرة الطرية

يقال إجتناه إذا اقتطفه (فَرِدًا) الفري القبيح من الإفتراء.

◀ الإعراب

أَلَا أَنْ مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ بِمَعْنَى أَي زُطْبًا حَالٌ مُوْطِئَةٌ وَصَاحِبُهُ الضَّمِيرُ فِي الْعَقْلِ وَ قِيلَ هُوَ مَفْعُولٌ، هَزِيٌّ، وَقِيلَ تَمْيِيزٌ وَجَيِّدًا بِمَعْنَى مَجْتَبِيٍّ بِمَعْنَى فَاعِلٍ أَي طَرِيًّا مِنْ أَلْبَشَرِ حَالٌ مِنْ أَحَدًا وَمَفْعُولٌ بِهِ فَآتَتْ بِهِ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ حَالٌ وَكَذَلِكَ تَحْمِلُهُ وَصَاحِبُهُ مَرِيْمٌ وَقِيلَ تَحْمِلُهُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ عَيْسَى صَبِيًّا حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْجَارِ بَعِيًّا حَالٌ خَبَرَ كَانَتْ نَبِيًّا حَالٌ بَرًّا مَعْطُوفٌ عَلَيَّ، مَبَارَكًا، وَ يَقْرَأُ بِكَسْرِ الْبَاءِ وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَيَّ الصَّلَاةِ وَوُلِدَتْ ظَرْفٌ وَالْعَامِلُ فِيهِ الْخَبَرُ الَّذِي هُوَ، عَلَيَّ ذَلِكَ مَبْتَدَأٌ وَعَيْسَى خَبَرُهُ وَأَبْنُ مَرْيَمَ تَعْتُ أَوْ خَبَرُ ثَانٍ قَوْلُ الْحَقِّ أَي أَقُولُ قَوْلَ الْحَقِّ وَقِيلَ هُوَ حَالٌ مِنْ عَيْسَى وَقِيلَ التَّقْدِيرُ أَعْنِي قَوْلَ الْحَقِّ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي بِالْكَسْرِ عَلَيَّ الْإِسْتِنَافُ وَبِفَتْحِ الْهَمْزَةِ عَلَيَّ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَيَّ قَوْلُهُ بِالصَّلَاةِ أَي وَأَوْصَانِي بِأَنَّ اللَّهَ رَبِّي أَسْمَعُ بِهِمْ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ كَقَوْلِكَ أَحْسَنُ يَزِيدُ أَي أَحْسَنُ زَيْدٌ هَذَا بِنَاءٍ عَلَيَّ مَسْلُوكِ الْمَشْهُورِ مِنْ أَنَّ لَفْظَهُ لَفْظُ الْأَمْرِ وَمَعْنَاهُ التَّعْجِبُ.

وَأَمَّا عَلَيَّ قَوْلُهُ بِأَنَّهُ أَمْرٌ حَقِيقَةٌ فَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ نَصْبٌ وَالْفَاعِلُ مَضْمَرٌ.

◀ التفسير

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا

أَي لَمَّا حَمَلَتْ مَرِيْمٌ بِعَيْسَى وَاتَّخَذَتْ بِهِ وَالْبَاءُ فِي بِهِ، لِلْحَالِ أَي مَصْحُوبَةٌ بِهِ وَالْمَعْنَى لَمَّا إِعْتَزَلَتْ مَرِيْمٌ وَهُوَ أَي عَيْسَى فِي بَطْنِهَا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ وَإِخْتَلَفُوا فِي مَدَّةِ الْحَمْلِ عَلَيَّ أَقْوَالٌ:

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ كَانَتْ مَدَّةُ الْحَمْلِ سَاعَةً وَاحِدَةً وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ وَقِيلَ حَمَلَتْ فِي سَاعَةٍ وَصُورٌ فِي سَاعَةٍ وَوَضَعَتْهُ فِي سَاعَةٍ.

وقيل ستّة أشهر و قيل في سبعة أشهر و قيل ثمانية و قيل غير ذلك و الذي يستفاد من الأخبار الواردة عن أئمة أهل البيت أنّ مدّة الحمل كانت ستّة أشهر. فعن كتاب علل الشرائع عن الصادق عليه السلام و قد ذكرنا فاطمة عليها السلام قال عليه السلام فعلقت و حملت بالحسين عليه السلام فحملت ستّة أشهر ثم وضعت ولم يعش ولد قط لستّة أشهر غير الحسين بن عليّ عليهما السلام و عيسى ابن مريم عليه السلام إنتهى.

و في حديثٍ آخر قال عليه السلام: ولم يولد لستّة أشهر إلاّ عيسى بن مريم و الحسين بن عليّ إنتهى.

و قد روي عن أبي عبد الله عليه السلام القول بتسع ساعات أيضاً و الله أعلم بحقيقة الحال و كيف كان لما قرب وضع الحمل فأجاءها المخاض أي الجأها و اضطرها إلى جذع النخلة، و الأصل في، فأجاءها، جاءها ثم عدّي بالهمزة إلى مفعولٍ ثانٍ و إستعمل بعض الجأها و قد أوضحناه في شرح اللغات و قلنا هو ممّا يعدّي تارة بالياء فيقال جاء به و أخرى بالألف فيقال فأجاءها و ما نحن فيه من قبيل التّعدي بالهمزة، و قيل أنّ الأجزاء تدلّ على المطلق، فتصلح لما هو بمعنى الأجزاء و لما هو بمعنى الإختبار كما لو قلت أقمت زيدا فإنه قد يكون مختاراً لذلك و قد يكون مجبوراً قد قسرته على القيام و على هذا فقوله تعالى: فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ، معناه و جاء المخاض إلى جذع النخلة أمّا بإختيار منها أو بالأجزاء بسبب المخاض و هذا هو الحقّ فلا يدلّ الإستعمال على تغيير المعنى و على هذا فمعنى الكلام، أجاءها كما يقال أجاءه إلى موضع كذا و قرأ بعضهم، فأجأها، من المعاناة و قيل في مصحف، أبي، فلما أجاءها، أقول قراءة، فأجأها، و أن كانت غير مشهورة إلاّ أنّها أوفق بسياق العبارة و العقل و الحسّ أيضاً يحكمان بأنّ المخاض و في شدّة الولادة و أوجاعها يأتي بغتةً و مفاجأةً و على هذا فأجأها المخاض أحسن من فأجاءها المخاض معنىً و أمّا

لفظاً فالقراءة المشهورة أولئى لوجود الفاء المفيدة للتفريع و كيف كان فالمعنى لا خفاء فيه على القراءتين.

و أما المخاض بفتح الميم و كسرهما هو شدة الولادة و أوجاعها يقال ناقه ماخض، أي دنا ولادتها و قوله إلى جذع النخلة، فالجذع بكسر الجيم ساق النخلة اليابسة في الصحراء الذي لا سقف عليه و لا غصن ولهذا لم يقل إلى النخلة، فكأنها طلبت شيئاً تستند إليه و تتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق، ولم تجد شيئاً سوى جذع النخلة فتعلقت به و المشهور أن ميلاد عيسى كان بيت اللحم و أنها لما هربت و خافت عليه أسرعته به و جاءت به إلى بيت المقدس فوضعت على صخرة فإنخفضت الصخرة له و صارت كالمهد و هي الآن موجودة تزار بحرم بيت المقدس ثم بعد أيام توجّهت إلى بحر الأردن فعمدته فيه و هو اليوم الذي تتخذة النصرارى و تسمونه يوم الغطاس و همأ يظنون أن المياه في ذلك اليوم تقدّست فلذلك يغطسون في كلّ ماءٍ و من زعم أنها ولدته بمصر قال بكورة أناس قيل و نخلة مريم قائمة إلى اليوم و الظاهر أنها كانت موجودة قبل مجي مريم إليها و قيل أن الله أنبت لها نخلة تعلقت بها و قيل أنها بلغت إلى موضع كان فيه جذع نخلة يابس بال أصله مدود لا رأس له و لا ثمر و لا حفرة هذا ما ذكره بعض المفسرين.

و قال صاحب الكشاف و التعريف (في النخلة) لا يخلو إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم و الصعق كان تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره.

و أما أن يكون تعريف الجنس أي جذع هذه الشجرة خاصّة و كان الوقت شتاء إنتهى.

قال بعض المحققين أن النخلة من خواصها أنها لا تثمر إلا بعد اللقاح قطعت رأسها لا تثمر فكأنه تعالى قال أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح ثم أتى أظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز

ظهور الولد من غير ذكر و حاصل الكلام أن النخلة من بين الأشجار أشبه شيء
بالإنسان في ظهور الثمر عليها، ولعله لهذه النقطة إختار النخلة في المقام من
بين الأشجار فأطعمها الله منها الرطب الذي هو ضرسة النفساء.

قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا أَي قَالَتْ مَرِيْمُ يَا
لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا، إِسْتِحْيَاءٌ مِنَ النَّاسِ وَ كُنْتُ نَسِيًّا، فَالنَّسِيُّ الشَّيْءُ الْمَتْرُوكُ
حَتَّى يَنْسَى، وَ يَجُوزُ فِيهِ الْفَتْحُ وَ الْكَسْرُ مِثْلَ الْوَتْرِ وَ الْوَتْرُ وَ قِيلَ الشَّيْءُ بِالْفَتْحِ
الْمَصْدَرُ يُقَالُ نَسَيْتُ الشَّيْءَ نَسِيًّا وَ نَسِيَانًا وَ بِالْكَسْرِ الْإِسْمُ وَ قِيلَ النَّسِيُّ خَرْقَةٌ
الْحَيْضُ الَّتِي تَلْقِيهَا الْمَرْأَةُ قَالَ الشَّاعِرُ:

كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نَسِيًّا تَقْضَهُ إِذَا مَا غَدَتْ وَ إِنْ تَمَالَكَ بَتَلَتْ
وَ قَوْلُهُ مِتُّ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَ ضَمِّهَا فَعَلَى الْكَسْرِ مِنْ مَاتَ يَمُتُ وَ عَلَى الضَّمِّ مِنْ
مَاتَ يَمُوتُ، الظَّاهِرُ أَنَّهَا قَالَتْ هَذَا الْكَلَامُ وَ تَمَنَّتْ الْمَوْتَ بَعْدَ وِلَادَةِ عَيْسَى
أَوْ عِنْدَهَا لِمَا رَأَتْهُ مِنَ الْأَلَامِ وَ التَّغْرِبِ وَ إِنكَارِ قَوْمِهَا وَ أَنَّهَا تَمَنَّتْ الْمَوْتَ مِنْ
جِهَةِ الدِّينِ إِذْ خَافَتْ أَنْ يَظُنَّ بِهَا الشَّرَّ فِي دِينِهَا، وَ قَوْلُهُ نَسِيًّا نَسِيًّا، فَالنَّسِيُّ
الشَّيْءُ الْحَقِيرُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَنْسَى فَلَا يَتَأَلَّمُ لِفَقْدِهِ كَالْوَتْدِ وَ الْحَبْلِ لِلْمَسَافِرِ وَ
خَرْقَةُ الطَّمْثِ وَ مَنْسِيًّا تَأَكِيدُ لَهُ وَ لَا شَكَّ أَنَّهَا تَمَنَّتْ ذَلِكَ لِمَا لَحِقَ بِهَا مِنْ فِرْطِ
الْحِيَاءِ عَلَى حَكْمِ الْعَادَةِ الْبَشَرِيَّةِ لَا كِرَاهَةَ لِحُكْمِ اللَّهِ أَوْ لَشِدَّةِ التَّكْلِيفِ عَلَيْهَا
إِذَا بَهَتُوهَا وَ هِيَ عَارِفَةٌ بِبِرَاءَةِ سَاحَتِهَا، وَ قِيلَ لِحَزْنِهَا عَلَى النَّاسِ أَنْ يَأْتُمُوا
بِسَبِّهَا.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

فَنَادِيهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا

الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُنَادِيَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ قَتَادَةُ وَ الضَّحَّاكُ الْمُنَادِي
كَانَ جِبْرَيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ كَانَ فِي بَقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ أَخْفَضَ مِنَ الْبَقْعَةِ الَّتِي كَانَتْ مَرِيْمُ
عَلَيْهَا قَالَهُ الْحَسَنُ وَ أَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ، وَ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَنَادَاهَا مَلِكٌ مِنْ تَحْتِهَا وَ
قَرَأَ الْبَاقُونَ بِحَرْفِ الْجَزْرِ قَطُّ وَ قَرَأَ بَعْضُهُمْ مِنْ تَحْتِهَا، بِفَتْحِ الْمِيمِ بِمَعْنَى الَّذِي

جزء ١٦

المجلد العادي عشر

تحتها ظرف منصوب صلة، لمن، والمراد به عيسى أي ناداها المولود، وأن، في الآ، حرف تفسير أي لا تحزني، والسري في قول الجمهور الجدول.
وقال قتادة عظيماً من الرجال له شأن ورومي أن الحسن فسّمى الآية فقال أجل لقد جعله الله أي المولود سوياً كريماً، والحق أن المراد بالسري معناه اللغوي وهو الجدول والنهر وأما قيل للنهر سري لأنه يسري بجريانه كما قيل جدول لشدة جريه قال لبيد:

فَتَوْسَطَا عَرَضَ السَّرِي فَصَدَعَا مَسْجُورَةً مَتَّجَاوِزُ أَقْدَامِهَا

وقال السدي كان الجذع مقطوعاً وأجري تحته النهر والمعنى، لما غلب عليها الحزن فناداها عيسى من تحتها أي من بطنها أن لا تحزني أي لا تحزني ولا تغتممي قد جعل ربك تحتك سرياً يشرب منه وذلك لأن الجذع كان يابساً وعلى هذا فقد ظهرت لها آيات تسكن إليها ولم يكن حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تتسلى بالأكل والشرب ولكن لما ظهر في ذلك من خرق العادة حتى يتبين لقومها أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

وَ هُزِّي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا

أمرها الله تعالى بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع والباء في قوله: بِجِذْعٍ قِيلَ زَائِدَةٌ.

وقال صاحب الكشاف صلة للتأكيد كما يقال خذ بالزنام، وأعط بيدك قال

تعالى: فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ^(١) أي فليمدد سبباً.

وقيل المعنى وهزي إليك رطباً على جذع النخلة وتساقط أي تتساقط فأدخم التاء في الستين، وقرأ، هَمَزَةٌ تُسَاقِطُ مَخْفِئاً حَذْفُ التَّيِّ أَدْغَمَهَا غَيْرُهُ وَقَرَأَ عَاصِمٌ، تُسَاقِطُ، بِضَمِّ التَّاءِ مَخْفِئاً وَكَسْرِ الْقَافِ وَقَرِي، تُسَاقِطُ، بِإِظْهَارِ التَّائِينَ، وَ

يساقط، بالياء وإدغام التاء ويسقط ويسقط و تسقط و قوله: رُطْبًا نَصَبَ بِالْهَمْزِ وَهُوَ يَخْتَلِفُ نَصْبُهُ، بحسب معاني القرآت و قوله: جَنِيًّا بفتح الجيم و كسر الثون صفة للرطب و معناه طابت و صلحت للإجتناء و هي من جنيت الثمرة قال الفراء، الجنّي و المجني واحد يذهب أتتهما بمنزلة الفتيل و المفتول و الجريح و المجروح و قال غيره الجنّي المقطوع من نخلة واحدة و المأخوذ من مكان نشأته كما قال الشاعر:

و طيب ثمار في رياضٍ أريضةٍ و أغصان أشجارٍ جناها على قربٍ
يريد بالجنّي ما يجني منها أي يقطع و يؤخذ و المعنى و هزّي اليك أي
هزّي النخلة اليك كما في قوله تعالى: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ^(١) تساقط النخلة عليك
رطباً جنياً أي رطباً طابت و صلحت للإجتناء و تقديره تساقط عليك ثمر
النخلة رطباً.

قيل ولم يكن للنخلة رأس و كانت في الشتاء فجعله الله آية:

فَكَلْبِي وَ أَشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْنًا فَاثْمًا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا
لما قال جبرائيل أو الملك لها: هُزِّي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ
رُطْبًا جَنِيًّا قال لها بعد ذلك، فكلبي، من ذلك الرطب و أَشْرَبِي من السري و
هو النهر، وَ قَرِّي عَيْنًا نَصَبَ عَلَى التَّمْيِيزِ أَي وَ قَرِّي عَيْنًا بَرُوءِيَةَ الْوَلَدِ النَّبِيِّ وَ
هو عيسى و الفتح في القاف قراءة الجمهور و كسر القاف لغة نجد، و هو مأخوذ
من المقرّ و القرّة، و هما البرد و دمعة السرور باردة و دمعة الحزن حارة و قيل
الدمع كله حار فمعنى أقرّ الله عينيه أي سكن الله عينيه بالنظر الى من يحبه
حتى تقرّ و تسكن، يقال فلان قرّة عيني أي نفسي تسكن بقربه و قال الشيباني،
و قَرِّي عَيْنًا، أي ما في حَضِّهَا عَلَى الْأَكْلِ وَ الشَّرْبِ وَ النَّوْمِ قال أبو عمرو، أقرّ

اللّه عينيه أي أنام عينيه و أذهب سهره و أنما قال ذلك لأنّ راحة البشر في الأكل و الشرب و النوم.

و قال بعض المفسرين معناه لتبرد عينك بسرور ما ترى و قال الآخر لتسكن سكون سرور برؤيتها ما تحبّ و نزل القرآن بلغة قريش فإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا تَرَيْنَ، أصله تَرَأَيْنَ مثل ترغيبين فالهمزة عين الفعل و الياء لامة و هو مَبْنِيّ هنا من أجل نُون التأكيد مثل لنضربن، فألقت حركة الهمزة على الراء و حذفت اللام للبناء كما تحذف في الجزم و بقيت ياء الضمير و حرّكت لسكونها و سكون التّون بعدها و يقرأ، ترين، بإسكان الياء و تخفيف التّون على أنّه لم يجزم، بأمّا، و هو بعيد و من البشر حال من أحداً أو مفعول به و المعنى أنّ الله ألقى إليها بعد الأمر بالأكل و الشرب ما تقول أن رأيت أحداً من البشر و سألتها عن ولدها فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيّاً هذا ما ألقاه الله إليها أن تقول في جواب من سألتها عن ولدها و أمرها أن تقول أنني نذرت لرحمن صوماً، أي صمتاً و بعبارة أخرى نذرت للرحمن أن أسكت فالمراد بالصوم قيل السكوت و قيل المراد به الصمت من الطعام و الشرب و الكلام أي إمساكاً و أنما أمرها الله بذلك ليكفيها الكلام ولدها بما يبرئ ساحتها، و قيل من كان صام في ذلك الوقت لا يكلم الناس فأذن لها في هذا المقدار من الكلام، و قيل أمرها الله أن تشير إليهم بهذا المعنى و يحتمل أن يكون المعنى فلن أكلم اليوم إنسيّاً، بعد قلبي هذا و بين الشّروط و جزاءه جملة محذوفة يدلّ عليه المعنى أي فأما ترين من البشر أحداً و سألك أو جاؤوك الكلام فقولي له كذا و كذا.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا

أي فأنت مريم به أي بعيسى قومها، قيل إتيانها كان من ذاتها بمعنى أنها لم تكن مأمورة به فحنت إلى الوطن و علمت أن عيسى سيكفيها من يكلمها، فعادت إلى قومها و قيل أرسلوا إليها لتحضري إلينا بولدك و كان الشيطان قد أخبر قومها بولادتها وكيف كان أنها أنت قومها و الحال أنها كانت تحمل عيسى قالوا أي قال قومها، يا مريم لقد جئت شيئاً فريباً، أي شنيعاً و قيل أي عملاً عجيباً هو من الإفتاء و معناه القبيح، يا أخت هارون، نسبت إلى هارون أخي موسى لأنها كانت من ولده، و قيل نسبت إلى هارون شقيقها أو أخوها من أمها و كان من أمثل بني إسرائيل.

و قال قتادة أنه كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ينسب إليه من عرف بالصلاح، و قال قوم كان رجلاً فاسقاً معلناً بالفسق فنسبت إليه ما كان أبوك أمراً سوءاً و ما كانت أمك بعيناً أي ما كان أبوك و أمك أهلاً لهذه الفعله فكيف جئت أنت بها و هذا من التعريض الذي يقوم مقام التصريح.

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا.

أي فأشارت مريم إلى ابنها عيسى أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه قيل كان المستنطق لعيسى زكرياً و يروى أنهم لما أشاروا إلى الطفل قالوا إستخفافاً بنا أشد علينا من زناها ثم قالوا لها على جهة الإنكار و التحكم بها كيف نكلّم من كان في المهد صبياً أي أن من كان في المهد يرّبي لا يكلم و أنما أشارت إليه لما تقدّم لها من وعده أنه يجيبهم عنها و يغنيها عن الكلام، و قيل أنما كان ذلك بوحى من الله إليها قيل، كان، هاهنا زائدة و نصب صبياً، على الحال، قال الشاعر:

فكيف إذا رأيت ديار قومي و جيران لنا كانوا كرام

و المعنى و ديار جيران كرام و (كانوا) فضلة فلذلك لم تعمل، و قيل ليست

بزائدة ومعناه على الشَّرط و تقديره من كان في المهد صبياً، كيف نكلمه على التقدِيم و التأخير و على أي حالٍ لَمَّا سألوهُ.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتِنِي الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا

أي قال عيسى إني عبد الله، قيل أنه قام متكناً على يساره و أشار إليهم بسبابته اليمنى و أنطقه الله تعالى أولاً بقوله: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ و أنما أشار أولاً بمقام العبودية لأنه الأصل في جميع الإفاضات و مع ذلك فيه إشارة إلى أن الله تعالى أوجده بقدرته ثم أشار ثانياً بأن الله تعالى أعطاه الكتاب و هو الإنجيل و ثالثاً بأنه تعالى جعله نبياً.

و قال قومٌ معناه إني عبد الله سيؤتيني الكتاب و يجعلني نبياً، فيما بعد، أقول لو كان معنى الكلام ما ذكروه لقال الله تعالى سيؤتيني الكتاب و يجعلني نبياً، و حيث لم يقل ذلك و جاء بصيغة الماضي فالمعنى أتاني الكتاب و جعلني نبياً فيما مضى أي في علم الله و هذا هو الحق عندنا و أما عند العامة و غيرهم من أهل الظاهر فالماضي بمعنى المضارع و لتوضيح ذلك نقول النبوة من أعلى المواهب الربانية و أفضل المناصب الإلهية و ليس كل واحدٍ من الناس لائقاً بهذا المقام.

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِزْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ^(١).

قال الله تعالى: إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بَكَلَامِي^(٢).

قال الله تعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا^(٣).

و غيرها من الآيات و هذا مما لا كلام فيه و أنما الكلام في أن النبوة التي أعطاهها الله من شاء و أراد أعطاهها قبل ولادة النبي أو بعدها و بعبارة أخرى

٢- الأعراف = ١٤٤

١- آل عمران = ٣٣

٣- فاطر = ٣٢

النَّبِيِّ نَبِيٍّ فِي بطنِ أُمِّهِ أَوْ بَعْدَ وِلادَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ إِنَّا لَا نَشْكُ فِي أَنَّ رَسُولَ الْإِسْلَامِ مِثْلًا صَارَ مَأْمُورًا بِالدَّعْوَةِ بَعْدَ مَضِيِّ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عَمْرِهِ وَهَكَذَا غَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَأَنْ قَلْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ فِي دَارِ الدُّنْيَا بَعْدَ مَضِيِّ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ فَالنَّبِيُّ فِي الْمَهْدِ بَلْ قَبْلَ ذَلِكَ الزَّمَانِ لَيْسَ بِنَبِيِّ بَلْ هُوَ كغَيْرِهِ مِنْ أَحَادِ النَّاسِ وَ أَنْ قَلْنَا أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَهُمْ أَنْبِيَاءَ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ إِيجَادِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَهَمْ أَنْبِيَاءٌ مِنْ حِينِ الْوِلادَةِ إِلَى الْمَوْتِ وَ عَلَي هَذَا تَبَتَّنِي الْعَصْمَةُ الَّتِي إِتَّفَقُوا عَلَي وَجُودِهَا فِيهِمْ لِأَنَّ الْعَصْمَةَ مِنْ شُئُونِ النَّبُوءَةِ وَ لَوَازِمِهَا فَهِيَ تَدُورُ مِدَارَ وَجُودِ النَّبُوءَةِ وَ لِذَلِكَ إِخْتَلَفُوا فِي عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ هَلْ هِيَ ثَابِتَةٌ لَهُمْ مِنْ حِينِ الْوِلادَةِ أَوْ هِيَ ثَابِتَةٌ لَهُمْ مِنْ حِينِ الدَّعْوَةِ وَ حَيْثُ أَنَّ الْعَامَّةَ إِخْتَارُوا الشُّقَّ الثَّانِي ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَ وَصُولِهِمْ إِلَى مَقَامِ الدَّعْوَةِ كَانُوا كغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ فَلَهُمْ مَالِهِمْ وَ عَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ، وَ لِذَلِكَ إِحْتِاجُوا إِلَى التَّأْوِيلِ فِي الْآيَاتِ الْمَشْعُورَةِ بِخِلَافِ مَذْهَبِهِمْ كَمَا فِيْمَا نَحْنُ فِيهِ.

وَ أَمَّا عَلَي مَذْهَبِ الْحَقِّ وَ هُوَ أَنَّ النَّبُوءَةَ ثَابِتَةٌ لِلنَّبِيِّ مِنْ حِينِ الْوِلادَةِ مَعَ لَوَازِمِهَا فَالْآيَاتُ عَلَي ظُوْهِرِهَا وَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى التَّأْوِيلِ وَ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَقَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ عِيسَى: **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ أَنبِيٌّ أَلْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا**. الخ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّأْوِيلِ بِقَوْلِهِمْ سَيُؤْتِينِي الْكِتَابَ وَ يَجْعَلُنِي نَبِيًّا، بَلْ هُوَ عَلَي ظَاهِرِهِ لِأَنَّ عِيسَى كَانَ فِي الْمَهْدِ نَبِيًّا وَ إِذَا أُبْتِنَتِ النَّبُوءَةُ لَوَازِمِهَا مِمَّا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْآيَةِ إِلَّا أَنَّ زَمَانَ فَعَلِيَّتِهَا فِي الْمَسْتَقْبَلِ فَأَنَّ الْعَالَمَ قَبْلَ ظُهورِ الْعِلْمِ مِنْهُ وَ الطَّبِيبَ طَبِيبَ قَبْلَ ظُهورِ الطَّبَابَةِ وَ الشَّجَاعَ شَجَاعَ قَبْلَ ظُهورِ الشَّجَاعَةِ وَ بِالْجُمْلَةِ حَصُولَ مَلَكَةِ الْعَدَالَةِ وَ الشَّجَاعَةِ وَ السَّخَاوَةِ وَ الْعَدَالَةَ شَيْءٌ وَ فَعَلِيَّتِهَا وَ ظُهورِهَا فِي الْخَارِجِ شَيْءٌ آخَرَ وَ مَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ مَقَامَ النَّبُوءَةِ وَ لَوَازِمِهَا مِنَ الْعِلْمِ وَ الْعَصْمَةِ وَ التَّقْوَى وَ الْعَدَالَةِ وَ غَيْرِهَا كَانَتْ حَاصِلَةً لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَدْوِ وَ لادَتِهِمْ إِلَّا أَنَّ ظُهورَ الدَّعْوَةِ مِنْهُمْ كَانَ مَوْكُولًا إِلَى زَمَانٍ

خاص لا يعلمه إلا الله وهذا أصل يعتمد عليه في النبوة والإمامة فما ثبت للنبي ثبت للإمام من حيث الصفات والخواص قال رسول الله ﷺ لأُمير المؤمنين علياً أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وذلك نقول أن التكلم في المهد من العصمة والعلم وغيرها لا تختص بالأنبياء بل هي ثابتة للأوصياء أيضاً وللبحث فيه مقام آخر.

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا
الواو للعطف فإن الآية معطوفة على ما قبلها والمعنى جعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت، أي معلماً للخير أينما كنت وقيل نفاعاً، والبركة نماء الخير والمبارك الذي ينمي الخير به قال بعض المفسرين وظاهر قوله: وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَنَّهُ تَعَالَى نَبَأَهُ حَالِ طِفُولِيَّتِهِ فَأَكْمَلَ عَقْلَهُ وَاسْتَبَاهُ طِفْلاً وَقِيلَ أَنَّ ذَلِكَ سَبَقَ فِي قَضَاءِهِ وَسَابِقِ حُكْمِهِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَجْعَلَ الْأَتِي لِتَحْقِيقِهِ كَأَنَّهُ قَدْ وَجَدَ إِنتَهَى.

وقوله: أَيْنَ مَا كُنْتُ شرط وجزاءه محذوف وتقديره جَعَلَنِي مُبَارَكًا وَحذف للدلالة ما تقدم عليه ولا يجوز أن يكون معمولاً، لجعلني السابق، لأن، إني، لا يكون إلا استفهاماً أو شرطاً ولا يجوز أن يكون هنا استفهاماً فثبتت الشرطية وإسم الشرط لا ينصبه فعل قبله إنما هو معمول للعقل الذي يليه وهو الفعل المحذوف وقوله وأوصاني بالصلاة والزكاة، أي أمرني بهما والظاهر حمل الصلاة والزكاة على ما شرع في البدن والمال وقيل المراد بالصلاة الدعاء وبالزكاة التطهر و(ما) في، ما دمت، مصدرية ظرفية وقوله: مَا دُمْتُ حَيًّا، أي مدة حياتي.

وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا

أي وأوصاني أن أكون باراً بوالدتي أي محسناً إليها قرأ بعضهم، بَرًّا بكسر الباء وعليه فهو أمّا على حذف مضاف أي وذا بَرًّا و أمّا على المبالغة جعل ذاته

من فرط برّه و يجوز أن يضمّر فعل في معني، أوصاني، و هو كلّفني لأنّ أوصاني بالصلاة و كلّفنيها واحد، و من قرأ و برّاً بفتح الباء و هو المشهور فقد جعله معطوفاً على مباركاً و فيه بعد للفعل بين المعطوف و المعطوف عليه و بالجملة التي هي أوصاني و متعلّقتها و الأولى إضمار فعل أي و جعلني برّاً. و حكى أبي البقاء أنّه قري و برّاً بكسر الباء و الرّاء عطفاً على بالصلاة و الزّكاة، و قوله: **بِوَالِدَتِي**، بيان محلّ البرّ و أنّه لا والد له و بهذا القول برّها قومها و لم يجعلني جباراً شقيّاً، أي لم يحكم الله عليّ بالتّجبر و الشّقاء و لم يسمّني بذلك.

وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا

و أمّا قال و السّلام عليّ، بالألف و اللّام و لم يقل و سلامّ عليّ، لقطعة و هي أنّ اللّام للجنس أي و جنس السّلام عليّ خاصّة فقد عرّض بأنّ ضده عليكم و نظيره و السّلام على من إتّبع الهدى، يعني أنّ العذاب و هو ضدّ السّلام على من كذّب و تولّى و أمّا خصّ السّلام بالأيام الثلاثة أعني بها يوم الولادة و يوم الموت و يوم البعث لأنّها أيام الشّدائد و المحن فمن نجى من شدائدها فقد نجى من عذاب الأخرة و قد يعبر عنها بأيام الله، و قيل اللّام لتعريف المنكر في قصّة يحيى في قوله: **وَ السَّلَامُ الخ** نحو قوله تعالى: **كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ**^(١) أي و ذلك السّلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إليّ.

قال بعض المحقّقين أنّ سلام يحيى أرجح من سلام عيسى لأنّ يحيى لم يقل سلامّ عليّ بل قال الله تعالى و سلامّ عليه يوم ولد الخ و أمّا عيسى فقال: **السّلامُ عليّ الخ** و من المعلوم أنّ سلام الله أرجح و أفضل من سلام عيسى على نفسه.

أقول الحقّ أنّ الأمر بالعكس و ذلك لأنّه تعالى أقام عيسى في ذلك مقام نفسه فسلم نائباً عن الله تعالى لكونه مظهراً كاملاً لخالفه.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

الإشارة بذلك، إلى المولود الذي ولدته مريم المتّصف بتلك الأوصاف الجميلة و، ذلك، مبتدأ و، عيسى، خبره و ابن مريم صفة لعيسى أو خبر بعد خبر أو بدل و المقصود ثبوت نبوته من مريم خاصّة من غير أب فليس بإبن له كما يزعم البغدادى و لا لغيره كما يزعم اليهود، و قرأ المشهور، قول الحقّ، بنصب اللّام على أنّه مصدر مؤكّد لمضمون الجملة أي هذه الأخبار عن عيسى أنّه ابن مريم ثابتٌ صدق ليس منسوباً لغيرها أي أنّها ولدته من غير فسق بشر كما تقول هذا عبد الله الحقّ لا الباطل أي أقول الحقّ و أقول قول الحقّ فيكون الحقّ هنا الصّدق و هو من إضافة الموصوف الى صفة أي القول الحقّ كما قال، وعد الصدق أي الوعد المصدّق و أن عني به الله تعالى كان القول مراداً به الكلمة، كما قالوا كلمة الله كان إنتصابه على المدح و على هذا فتكون، الذي صفة للقول و على الوجه الأوّل تكون صفة للحقّ.

أقول رفع القول أولى من النّصب على أنّه بدل من عيسى ابن مريم أو هو خبر، لذلك أي ذلك الذي هو عيسى ابن مريم، قول الحقّ بناءً على أن يكون ذلك عيسى ابن مريم مبتدأ و قول الحقّ خبره، أو هو خبر بعد خبر بناءً على المشهور من أنّ ذلك مبتدأ و عيسى ابن مريم خبره، و عليه فالمعنى ذلك أي عيسى ابن مريم، قول الحقّ و كلمته:

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** (١).

قال الله تعالى: **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ** (١).

والكلمة هي القول كما قيل في تعريفها الكلمة قولٌ مفردٌ، وعلى هذا التَّغيير فقوله: **قَوْلَ الْحَقِّ** إشارة الى أنه أي المسيح إنما وجد للكلمة كن، المشار إليها بقوله: **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** (٢) ففي هذا الكلام ردُّ على المُساق الذين قالوا في عيسى ما قالوا من الأكاذيب و الإفتراء فكأنه قيل عيسى ابن من، فقال تعالى ذلك أي عيسى، قول الحق أي قول الله أي موجودٌ بقوله: كن، وأما قوله: **فِيهِ يَمْتَرُونَ** فالضمير راجع على عيسى أو راجع على قول الحق و الإمتراء الشك، أي هو قول الحق الذي تشكون فيه أي في عيسى أو في قول الحق و ذلك لأنهم كانوا يشكون في قدرة الله تعالى و أنه قادرٌ على إيجاد البشر من غير أب هذا ما فهمناه من الآية و الله أعلم بكلامه.

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

و هذه الآية في الحقيقة مفسرة لما قبلها و تثبت ما ذكرناه و حاصل الكلام فيها أنه ليس كل من وجد بغير أب فهو ابن الله كما يزعم النصارى ففي الآية إشارة الى أمرين:

أحدهما: ما يستحيل في حقه تعالى و هو إتخاذ الولد.

ثانيهما: أنه قادر على كل شيء و منه إيجاد البشر من غير أب فقوله: **مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ** إشارة إلى الأول و قوله: **إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** إشارة الى الثاني و هو عموم قدرته فنفى الله شيئاً و أثبت شيئاً و كلاهما حق لا مربة فيه أما الأول فلأن إتخاذ الولد لا يعقل إلا من الجسم الذي فيه الشهوة و هو تعالى منزّه عن الجسميّة و لوازمها و لذلك أتى بكلمة، سبحانه.

وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ ثَابِتٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْإِثْبَاتِ لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ قَبِيلِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ وَإِعْلَمُ أَنَّ السَّلَامَ مُصَدَّرٌ سَلِّمَتْ سَلَاماً وَمَعْنَاهُ عُمُومُ الْعَافِيَةِ وَالسَّلَامَةِ وَالسَّلَامُ جَمْعُ سَلَامَةٍ وَالسَّلَامُ إِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَسَلَامٌ يَبْتَدَأُ بِهِ فِي التَّكْرَرِ لِأَنَّهُ يَكْثُرُ إِسْتِعْمَالُهُ تَقُولُ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ، وَأَسْمَاءُ يَحْسُنُ الْإِبْتِلَاءُ بِهَا لِأَنَّ فَائِدَتَهَا وَاحِدَةٌ وَلَمَّا جَرَى ذِكْرُ، سَلَامٌ، أُعِيدَ هَاهُنَا بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ لِيُرَدَّ عَلَى الْأَوَّلِ إِنْتَهَى مَا أَفَادَهُ الْمَفْسَّرِينَ.

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

لا كلام عندهم أن الواو للعطف وإختلفوا في المعطوف عليه على أقوال: أحدها: أنه معطوف على قوله: وَأَوْصَانِي أَي أَنَّهُ تَعَالَى أَوْصَانِي بِكَذَا وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ.

الثاني: أنه معطوف على، ذلك عيسى ابن مريم، أي ذلك عيسى ابن مريم وأن الله ربِّي وَرَبُّكُمْ وَاعْبُدُوهُ مَوْضِعُهُ الرَّفْعُ بِأَنَّهُ خَبِرَ الْمَبْتَدَأَ.

الثالث: أن المعنى وقضى الله أن الله ربِّي وَرَبُّكُمْ.

الرابع: التقدير ولأن الله ربِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، والعامل فيه فأعبدوه.

الخامس: أنه معطوف على قوله، قال إني عبد الله، وكيف كان فإن الله تعالى حكى عنه أنه قال لهم أن الله ربِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لَا عُوجَ فِيهِ أَي عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لَا عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِنَّ وَأَمَّا قَالَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَلَمْ يَقُلْ أَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنِّي مِثْلُكُمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ وَالرَّبُّوبِيَّةِ فَلَا تَتَّخِذُونِي مَعْبُوداً فَإِنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ وَأَمَّا قَدَّمَ لَفْظَ الْجَلَالَةِ لِأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ عَلَى الْأَصْحَحِ لِلذَّاتِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ الْمُسْتَجْمَعِ لِجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ فَهُوَ أَي مَقَامِ الْأَلُوْهِيَّةِ فَوْقَ مَقَامِ الْخَالْقِيَّةِ وَالرَّازِقِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَفِي أَمْرِهِ لِلْعِبَادَةِ حَيْثُ قَالَ فَاعْبُدُوهُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى مَنَعَمٌ عَلَيْكُمْ حَيْثُ خَلَقَكُمْ وَرَبَّكُمْ وَشَكَرَ الْمَنَعَمَ وَاجِبٌ عَقْلاً عَلَى الْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ وَلَا نَعْنِي بِالشُّكْرِ الْحَقِيقِيِّ إِلَّا الْعِبَادَةَ وَالْمَعْرِفَةَ.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 الإختلاف في المذهب هو أن يعتقد كل قوم خلاف ما يعتقد الأخرى و
 الأحزاب جمع حزب و الحزب الجمع المنقطع في رأيه عن غيره و المعنى
 إختلف أهل الكتاب في عيسى ففي هذه الآية إخبار من الله للرسول بتفرق
 بني إسرائيل فرقاً و قوله من بينهم يعني أن الإختلاف لم يخرج منهم و ذلك
 لأن سبب الإختلاف كان موجوداً فيهم و يحتمل أن يكون المراد بالأحزاب
 اليهود و النصارى و قال الحسن تحزبوا على الأنبياء لما قص عليهم قصة
 عيسى إختلفوا فيه من بين الناس فالضمير في، بينهم، على هذا ليس عائداً
 على الأحزاب.

وقيل الأحزاب هنا المسلمون و اليهود و النصارى، و قال قتادة إن
 بني إسرائيل جمعوا أربعة من أحبارهم فقال أحدهم عيسى هو الله نزل إلى
 الأرض و أحيا من أحيا و أمات من أمات فكذبه الثلاثة و إتبعه اليعقوبية ثم قال
 أحد الثلاثة عيسى ابن الله فكذبه الإثنين و اتبعته النطورية و قال أحد الإثنين
 عيسى أحد ثلاثة، الله إله و مريم إله، و عيسى إله، فكذبه الرابع و إتبعته
 الإسرائيلية، و قال الرابع عيسى عبد الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه،
 فإتبعته فرقة من بني إسرائيل ثم إقتل الأربعة فغلب المؤمنون و ظهرت
 اليعقوبية على الجميع و فى ذلك نزلت إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ^(١) و
 الأربعة يعقوب و نظور و مليكا و إسرائيل إنتهى.

وقوله و مشهد، هو مفعول من الشهود و هو الحضور أو من الشهادة مصدراً و
 مكاناً و زماناً، فمن الشهود يجوز أن يكون المعنى من شهود هول الحساب و
 من الشهادة يجوز أن يكون المعنى من شهادة ذلك اليوم و أن تشهد عليهم
 الملائكة و الأنبياء و ألسنتهم و أيديهم بالكفر و اليوم العظيم يوم القيامة.

وقال قتادة هو يوم قتل المؤمنين حين اختلف الأحزاب وقيل ما قالوه وشهد غرابة في عيسى وأمه يوم اختلفهم، وحاصل المعنى في الآية أنهم أي اليهود والنصارى أو جميع الناس اختلفوا في عيسى فمنهم من قال بألوهيته ومنهم من قال عيسى ابن الله وجميع هذه الأقوال كفر وإلحاد فويل لهؤلاء القوم من يوم الشهود وهو يوم القيامة.

وَأَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
قيل معناه ما أسمعهم وما أبصرهم على وجه التعجب والمعنى أنهم حلوا في ذلك محل من يتعجب منه وفيه تهديد وعيد أن يسمعون ما يصدع قلوبهم ويردون ما يهيلهم، وقال الحسن و قتادة لأن كانوا في الدنيا صمًا عميًا عن الحق فما أسمعهم به وما أبصرهم به يوم القيامة هكذا فسروا الكلام تقدم منا البحث في قوله:

قال الله تعالى: **فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** (١).

قال الله تعالى: **أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ** (٢).

وقلنا هناك أن التقدير خلاف الأصل و ظاهر الآية هو الأمر بالإبصار والإسماع وليس في الكلام ما يدل على التعجب هذا مضافاً إلى أن التعجب من الله تعالى لا معنى له والمراد بالبصر هاهنا ليس هو المماساة بل المراد به البصيرة فقوله: **أَبْصِرْ** كناية تفهم المقصود بسبب الآيات والدلائل وقوله: **أَسْمِعْ** كناية عن إبلاغ الحكم لئلا يقولوا إننا لم نسمع والمعنى إجعلهم على بصيرة وأتم عليهم الحجة بالتبليغ، يوم يأتوننا أي قل لهم يوم القيامة يوم عظيم هو يوم يقر المرء من أخيه وصاحبه وبنيه وبعبارة أخرى أبصرهم البيئات والدلائل وأسمعهم المواعظ والآيات هذا ما وصل إليه فهمي القاصر والعلم عند الله.

وأما قوله: **وَلَكِنَّ الظَّالِمُونَ أَيُّومَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**، فمعناه واضح إذ لا يملك أحد في يوم القيامة الأمر والنهي إلا الله تعالى.

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرَ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
المراد بيوم الحسرة يوم القيامة سمي به لأن الظالم يتحسر فيه ويقول يا ليتني لم أفعل كذا وكذا كما حكى الله تعالى في كتابه:

قال الله تعالى: **أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ^(١)**.

قال الله تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ ألسَاعَةُ بَعَثْنَا قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا^(٢)**.

وإذا كان يوم القيامة يوم الحسرة والندامة والعقل حاكم بأن الحسرة بعد الوقوع في التهلكة لا فائدة فيها فينبغي التحرز منها قبل الوقوع فيها فإن الدفء أسهل وأيسر من الرفع ولأجل ذلك أمر الله أنبياءه بالإندار وفي قوله: **إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ** إشارة إلى ما ذكرناه وأنهم كانوا في الدنيا غافلين عما سيقع بهم بعد موتهم فلم يؤمنوا فيها هذا الكلام إشارة إلى أن الغفلة منشأ الشرور والأفات وهو كذلك.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ
أخبر الله تعالى في هذه الآية عن نفسه فقال **إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ** ومن عليها فان أي لا يبقى منهم أحد عليها وإلينا يرجعون كلهم يوم القيامة وفيه إشارة إلى فناء الموجودات وبقاء:

قال الله تعالى: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(٣)**.

قال الله تعالى: **إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.**

وُنُشِرَ إِلَى شَطْرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي قِصَّةِ عَيْسَى تَيْمَنًا وَتَبْرَكَأَ بِهَا فَتَقُولُ:
رَوَى فِي الْبَحَارِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ
يَخْلُقِ اللَّهُ عَيْسَى مِنْ غَيْرِ أَبِي وَخَلَقَ سَائِرَ النَّاسِ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ
فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَعْلَمَ النَّاسُ تَمَامَ قُدْرَتِهِ وَكَمَالِهَا وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى
أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا مِنْ أَنْثَى مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ كَمَا أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَهُ مِنْ
غَيْرِ ذَكَرٍ وَالْأَنْثَى وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَعَلَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ إِنَّتَهَى.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنِ الْأَصُولِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الرُّوحِ الَّتِي
فِي آدَمَ فِي قَوْلِهِ: **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا** ^(١) قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
هَذِهِ رُوحٌ مَخْلُوقَةٌ وَالرُّوحُ الَّتِي فِي عَيْسَى مَخْلُوقَةٌ إِنَّتَهَى.
وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ مَرْيَمَ حَمَلَتْ بِعَيْسَى
عَلَيْهِ تِسْعَ سَاعَاتٍ كُلِّ سَاعَةٍ شَهْرًا إِنَّتَهَى.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ الصَّيَامَ لَيْسَ مِنَ الطَّعَامِ وَ
الشَّرَابِ وَحَدَهُ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَتْ مَرْيَمُ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا، أَي
صَمْتًا، إِنَّتَهَى ^(٢).

وَعَنْ تَهْذِيبِ الْأَحْكَامِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: وَقَدْ ذَكَرَ يَوْمَ
عَاشُورَاءَ وَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي وَلَدَ فِيهِ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَالحَدِيثُ طَوِيلٌ.
وَفِي كِتَابِ سَعْدِ السَّعُودِ بِأَسْنَادِهِ عَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شَعْبَةَ وَقَدْ بَعَثَهُ
النَّبِيُّ إِلَى نَجْرَانَ فَقَالُوا أَلَسْتُمْ تَقْرَأُونَ (يَا أُخْتُ هَارُونَ) وَبَيْنَهُمَا كَذَا
وَكَذَا فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَلَا قُلْتَ لَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمُونَ
بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْهُمْ إِنَّتَهَى.

وفي كتاب معاني الأخبار بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ: وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ^(١) قال نفاعاً إنتهى.

وفي أصول الكافي بأسناده عن بريد الكناسي قال: سألت أبا جعفر عليه السلام أكان عيسى بن مريم حين يكلم في المهد حجة الله على أهل زمانه فقال عليه السلام كان يومئذ نبياً حجة الله خير مرسل، أما تسمع لقوله حين قال إني عبدُ الله أتيني الكتابُ وجعلني نبياً، ما دُمْتُ حياً^(٢) قلت فكان يومئذ حجة لله على زكريا في تلك الحال وهو في المهد فقال عليه السلام كان عيسى في تلك الحال آية لله ورحمة منه لمريم حين يكلم فعبر عنها و كان نبياً و حجةً على من سمع كلامه في تلك الحال ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان و كان زكريا حجة لله عزَّ وجلَّ بعد صمت عيسى لسنتين ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع لقوله عزَّ وجلَّ: يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ إِنَّا نَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا^(٣) فلما بلغ سبع سنين تكلم بالنبوة والرَّسالة حين أوحى الله إليه فكان يعني الحجة على يحيى و على النَّاس أجمعين و ليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجة لله على النَّاس منذ يوم خلق الله آدم و أسكنه الأرض و الحديث طويل أخذنا موضع الحاجة.

و بأسناده عن صفوان ابن يحيى قال: قلت للرضاء عليه السلام قد كنتُ نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر عليه السلام فكنت تقول يهب الله لي غلاماً فقد وهب الله لك فقَرَّ عيوننا فلا أَرانا الله يومك فأن كان كون مالي من، فأشار بيده الى أبي جعفر عليه السلام و هو قائم بين يديه فقلت

جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين قال عليه السلام وما يضره من ذلك شيء قد قام عيسى بالحجة و هو ابن ثلاث سنين إنتهى...
الحسين بن محمد الخيراني عن أبيه قال: كنت واقفاً بين يدي أبي الحسن بخراسان فقال له قائل يا سيدي أن كان كون فيالي من، قال عليه السلام: الى أبي جعفر إبنني فكأن القائل إستصغر سنّ أبي جعفر عليه السلام فقال أبو الحسن أنّ الله تبارك و تعالى بعث عيسى إبن مريم رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر عليه السلام إنتهى.

و بأسناده عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عن أفضل ما يتقرب به العباد الى ربهم و أحب ذلك الى الله ما هو فقال عليه السلام: ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلوة ألا ترى أنّ العبد الصالح عيسى إبن مريم عليه السلام قال و أَوْضَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا إِنَّتِي.

و في تفسير علي بن إبراهيم قال الصادق عليه السلام في هذه الآية: (و أَوْضَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) قال عليه السلام: زكوة الرأس لأنّ كلّ الناس ليست لهم أقوال و أنّما الفطرة على الفقير و الغنيّ و الصّغير و الكبير إنتهى.

و في عيون الأخبار بأسناده عن الصادق عليه السلام حديث طويل في تعداد الكبائر و منها عقوق الوالدين لأنّ الله عزّ و جلّ جعل العقاق جباراً شقيّاً في قوله تعالى حكايةً عن عيسى: وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا^(١) إنتهى^(٢).

وَ أَدْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا
 (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ
 لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي
 قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ
 صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ
 الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي
 أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ
 لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ
 يَا إِبْرَاهِيمُ لئنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَ أَهْجُرَنِي
 مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي
 إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَ أَعْتَزِلْكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ
 بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَ مَا
 يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ
 يَعْقُوبَ وَ كَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَ هَبْنَا لَهُمْ مِنْ
 رَحْمَتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

اللغة

سَوِيًّا: أي معتدلاً.

مَلِيًّا: أي دهرأ، و قيل سليماً سَوِيًّا.

حَفِيًّا: الحفني بفتح الحاء و كسر الفاء اللطيف لعموم النعمة.

المجلد الحادي عشر

◀ الإعراب

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ إِذْ ظَرَفَ وَالْعَامِلَ فِيهِ صَدِيقًا نَبِيًّا أَرَأَيْتَ أَنْتَ مَبْتَدَأُ وَخَبِرَ وَ أَنْتَ فَاعِلُهُ وَ أَغْنَى عَنِ الْخَبْرِ وَ جاز الإبتداء بالثكرة لإعتمادها على الهمزة وَ مَكِينًا ظَرْفَ أَي دَهْرًا طَوِيلًا وَ قِيلَ هُوَ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ وَ كَلًّا جَعَلْنَا هُوَ مَنْصُوبٌ بِجَعَلْنَا.

◀ التفسير

وَ أَذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا

وَ أَذْكَرُ يَا مُحَمَّدُ أَي أَتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ وَ ذَاكَرَهُ وَ مُورَدُهُ فِي التَّنْزِيلِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَ مُنَاسِبَةٌ هَذِهِ الْآيَةُ لِمَا مَثَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ مَرْيَمَ وَ ابْنَهَا عِيسَى وَ إِخْتِلَافَ الْأَحْزَابِ فِيهِمَا وَ عِبَادَتَهُمَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ قَبِيلٍ مَنْ قَامَتْ بِهِمَا الْحَيَاةُ ذَكَرَ الْفَرِيقَ الضَّلَّالَ الَّذِي عَبْدَ جَمَادًا وَ الْفَرِيقَانَ وَ إِنْ إِشْتَرَكَا فِي الضَّلَالِ، فَالْفَرِيقَ الْعَابِدَ لِلْجَمَادِ أَضَلَّ ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَذْكَيرًا لِلْعَرَبِ بِمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَ قَوْلِهِ: صِدِّيقًا نَبِيًّا، فَالْصِّدِّيقُ مِنْ أُنْبِيَةِ الْمُبَالِغَةِ وَ هُوَ مَبْتَدِئٌ مِنَ الثَّلَاثِي لِلْمُبَالِغَةِ أَي كَثِيرِ الصِّدْقِ وَ يُقَابَلُهُ الْكُذْبُ وَ صَفَّ اللَّهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ بِالصِّدْقِ عَلَى الْعَمُومِ فِي أَقْوَالِهِ وَ أَعْمَالِهِ.

قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ الْمُرَادُ فَرَطُ صَدَقِهِ وَ كَثْرَةُ مَا صَدَّقَ بِهِ مِنْ غِيُوبِ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ كَتَبَهُ وَ رَسَلَهُ وَ كَانَ الرَّجْحَانُ وَ الْغَلْبَةُ فِي هَذَا التَّصْدِيقِ لِكِتَابِهِ وَ الرَّسَلُ أَي كَانَ مُصَدِّقًا لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَ كَتَبَهُمْ وَ كَانَ نَبِيًّا فِي نَفْسِهِ.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا قَالَ الطَّبْرَسِيُّ قد بَيَّنَّا فِيْمَا مَضَى أَنَّ الَّذِي يَقُولُهُ أَصْحَابُنَا أَنَّ هَذَا الْخُطَابَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ أَمَّا تَوَجُّهُهُ إِلَى مَنْ سَمَّاهُ اللَّهُ أَبًا لَهُ لِأَنَّهُ كَانَ جَدًّا إِبْرَاهِيمَ مِنْ أُمِّهِ وَ أَنَّ أَبَاهُ الَّذِي وَلَدَهُ كَانَ إِسْمُهُ تَارِخٌ لِاجْتِمَاعِ الطَّائِفَةِ عَلَى أَنَّ آبَاءَ الْأَنْبِيَاءِ

الى آدم كلهم مسلمون موحدون و لما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لم يزل ينقلني الله تعالى من أصلاب الطاهرين الى أرحام المطهرين حتى أخرجني في عالمكم هذا و الكافر غير موصوف بالطهارة لقوله تعالى: **إِنَّمَا أَلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** ^(١) إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقول ما ذكره عليه السلام حق لا مرية فيه و قد إنتفتت الشيعة تبعاً لأئمتهم على ذلك و قد ورد في زيارة الحسين عليه السلام: أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة و الأرحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهجات ثيابها الخ.

هذا و أما العامة فقد حملوا اللفظ على ظاهره و قالوا أن أباه أزر كان كافراً و قد أجمعوا في تفاسيرهم على ذلك فعلى قولهم كان آذر أباً لأبراهيم حقيقياً، و لرجع الى تفسير ألفاظ الآية فنقول إذ قال إبراهيم لأبيه، أزر، يا أبت، أي يا أبي و دخلت التاء للمبالغة في تحقيق الإضافة لم **تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ** إستفهم إبراهيم عن السبب الحامل لأبيه على عبادة الصنم و هو منتفٍ عنه السمع و البصر و الإغناء عنه شيئاً تنبيهاً على شناعة الرأي و قبحة و فساده في عبادة من إنتفت عنه هذه الأوصاف و توضيح الكلام بحيث الإجمال أن المعبود ينبغي أن يسمع دعاء العابد و يبصر عمله ليجزيه عليه ثواباً و عقاباً، و أن يكون ملاذماً و ملجأ في الشدائد و يجيب دعوة المضطر إذا دعاه و أن يفرج له بعد الشدة و من المعلوم أن هذه الأمور متوقفة على الإدراك و أما الأصنام و الأوثان و الأحجار و أمثالها من الجمادات التي لا إدراك لها و لا شعور كيف يعقل أن تتصف بهذه الأمور و ما ليس متصفاً بها كيف يعبد، و (ما) في لا يسمع قيل أنها موصولة بمعنى الذي و قيل أنها نكرة موصوفة و معمول، يسمع و يبصر، منسي و لا ينوي أي ما ليس به إستماع و لا إبصار لأن المقصود نفي هاتين الصفتين دون تقييد بمتعلق، و قوله: **شَيْئاً** أما مصدر أو مفعول به.

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا

لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْعِلَّةِ فِي عِبَادَةِ الصَّنَمِ وَ لَمْ يَجِدْ جَوَابًا إِذْ لَمْ يَقْدِرْ أَرْزَ عَلَيَّ
الجواب إنتقل معه الى إخباره بأنه قد جاءه من العلم ما لم يأته و لم يصف أباه
بالجهل صريحاً إذ يغني عنه السؤال السابق مضافاً الى مراعاة الأدب في
الكلام و عملاً بقوله تعالى: **أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ**
جَادِلْهُمْ بِلَاثِي هِيَ أَحْسَنُ^(١) و، من، في قوله من العلم للتبعيض أي أتأتى من
الله شيئاً من العلم ليس معك فأتبعني على توحيد الله بالعبادة و أرفض
الأصنام و عبادتهما أهدك صراطاً سويّاً أي مستقيماً غير ذي عوج و هو
الإيمان بالله و إفراده بالعبادة و الإتياد له في أوامره و نواهيه قال الله تعالى:
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ثم قال: **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ**
عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ.

و هذا الكلام في الحقيقة تفسير لقوله: **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** و قد مرَّ
الكلام فيه في تفسير سورة الحمد بما لا مزيد عليه و إنتقل من أمره بإتباعه إلى
نهيهِ عن عبادة الشيطان فقال: **يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ**
لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا حيث إستعصى حين أمره بالسجود لآدم فأبى فهو عدوّ لك و
لأبيك آدم من قبل و العاقل لا يعبد عدّوه، إن قلت، أنه ما كان عابداً للشيطان
بل كان عابداً للصنم فما معنى قوله: **لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ.**

قلت عبادة الصنم و الوثن و بالجملة عبادة غير الله في الحقيقة عبادة
الشيطان لأنه السبب في ذلك **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ**
مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قيل، أخاف، هاهنا بمعنى أعلم فخشيتاً
أَنْ يُؤْهِمَهُمَا^(٢).

أَي عَلِمْنَا أَنْ يَمْسَكَ وَيُلْحَقَكَ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى إِشْرَاكَكَ مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ
 غَيْرِهِ وَتَمَى فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ كُنْتَ وَلِيًّا لِلشَّيْطَانِ أَي نَاصِرًا وَمُسَاعِدًا لَهُ فَأَنْ
 التَّابِعِ نَاصِرٌ لِمَتَّبِعِهِ لَا مَحَالَةَ وَلِذَلِكَ يَتَّبِعُهُ وَقِيلَ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ
 التَّقْدِيرِ أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ وَلِيًّا فِي الدُّنْيَا لِلشَّيْطَانِ فَيَمْسَكَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
 مِنَ الرَّحْمَنِ وَقِيلَ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْينَ أَنَّ الْعَذَابَ فِي الْآخِرَةِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَحْمَلَ
 الْعَذَابَ عَلَى الْخِذْلَانِ مِنَ اللَّهِ فَيَصِيرُ مَوْلِيًّا لِلشَّيْطَانِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَسًّا
 الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا فَأَنْ يَبْتَلِيَ عَلَى كُفْرِهِ بَعْدَ مَا فِي الدُّنْيَا فَيَكُونُ ذَلِكَ الْعَذَابُ
 سَبَبًا لِمَتَمَادِيهِ عَلَى الْكُفْرِ وَصَيُورَتِهِ إِلَى وِلَايَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى أَنْ يُوَافِيَ عَلَى الْكُفْرِ
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَ بَلَّوْنَاَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ أَلْسَيْنَاتٍ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^(١) وَ كَيْفَ كَانَ
 فَهَذِهِ الْمُنَاصِحَاتُ تَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِمَعَالِجَةِ أَبِيهِ وَ الطَّمَعِ فِي هِدَايَتِهِ
 قِضَاءً لِحَقِّ الْأَبُوتِ وَ إِرْشَادًا إِلَى الْهُدَى لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لِأَنَّ يَهْدِي اللَّهُ بِكَ رَجُلًا
 خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَ
 أَهْجُرْنِي مَلِيًّا

قال، أزر، أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِي يَا إِبْرَاهِيمُ، أَي أَتَارَكُ أَنْتَ وَ زَاهِدٌ فِي
 عِبَادَةِ آلِهَتِي، ثُمَّ قَالَ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ أَي أَنْ لَمْ تَمْتَنِعْ مِنْ ذَلِكَ لِأَرْجُمَنَّكَ، أَي
 لِأُرْمِيَنَّكَ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تَبَاعِدَ عَنِّي وَقِيلَ لِأُرْمِيَنَّكَ بِالذَّمِّ وَ الْعَيْبِ وَ أَهْجُرْنِي
 مَلِيًّا، أَي سَوِيًّا سَلِيمًا مِنْ عَفْوَتِي وَقِيلَ دَهْرًا، وَ الْهَجْرُ التَّرْكُ أَي أَتْرَكْنِي وَ بَاعَدَ
 عَنِّي حَتَّى لَا أَرَاكَ وَ هُوَ كِتَابِيَةٌ عَنْ طَرْدِهِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ نَفْسِهِ وَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ نَعْلَمُ
 أَنَّ الْحَقَّ مُرٌّ عَلَى الْأَسْمَاعِ فَضْلًا عَنِ الْعَمَلِ بِهِ.

قال صاحب الكشاف قدّم الخبر على المبتدأ في قوله: أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنِ
 الْهَيْتِي لِأَنَّهُ كَانَ أَصَمَّ عِنْدَهُ وَ فِيهِ ضَرْبٌ مِنَ التَّعَجُّبِ وَ الْإِنْكَارِ لِرَغْبَتِهِ عَنِ آلِهَتِهِ

وَأَنَّ إِلَهَهُ مَا يُبْغِي أَنْ يَرْغَبَ عَنْهَا أَحَدٌ وَفِي هَذَا سَلْوَانٌ وَتَلْجُ لِصَدْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمَّا كَانَ يَلْقَى مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ كَفَّارٍ قَوْمِهِ إِنْ تَهَى.

أقول ما ذكره في إعراب الكلام أنكروه بعض المفسرين حيث قال والمختار في إعراب، أراغب أنت أن يكون راغب مبتدأ لأنه قد اعتمد على أداة الإستفهام وأنت فاعل سَدَّ مَسَدَ الْخَبْرِ وَيَتَرَجَّحُ هَذَا الْإِعْرَابُ عَلَيَّ مَا أَعْرَبَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ بوجهين:

أحدهما: أنه لا يكون فيه تقديم وتأخير إذ رتبة الخبر أن يتأخر عن المبتدأ.
الثاني: أن لا يكون فصل بين العامل الذي هو، أراغب وبين معموله الذي هو عن آلهتي، بما ليس بمعمولٍ للفاعل لأنَّ الْخَبْرَ لَيْسَ هُوَ عَامِلًا فِي الْمَبْتَدَأِ بخلاف كَوْنِ أَنْتَ فاعلاً فإنه معمول أراغب فلم يفصل بين، أراغب وبين عن آلهتي بأجبتني أنما فصل بمعمول له ولما أنكر عليه رغبته عن آلهته تَوَعَّدَهُ مُقْسِمًا عَلَيَّ إِنْغَاذَ مَا تَوَعَّدَ بِهِ أَنْ لَمْ يَنْتَهَ إِنْ تَهَى.
و إختلفوا في الرَّحْمِ فَقَالَ قَوْمٌ أَي لَأَقْتُلَنَّكَ، و قال قومٌ أَي لَأَشْتُمَنَّكَ لَارْجَمَنَّكَ بِالْحِجَارَةِ.

فأن قلت علام عطف و أهجرني.

قلت على معطوف عليه محذوف يدلُّ عليه لأرجمَنَّك أي فإحذرنى و أهجرني لأنَّ لأرجمَنَّك تهديد و تفریع و أنما قلنا ذلك ليناسب بين جملتي العطف و المعطوف عليه و قوله: **مَلِيًّا** إنتصب على الظرف أي دهرًا طويلاً الملوان و هما الليل و النهار و الملاوة بتثليث حركة الميم، الدهر الطويل من قولهم أمليت لفلان في الأمر إذا أطلت له قال الشاعر:

فعنا بها من الشباب ملاوة
فالحج آيات الرسول المحجب
وقيل معناه أبدأ، ومنه قول الشاعر:

فَتَصَدَعَتْ صَمَّ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ
وبكت عليه المرملات ملياً

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا

قرأ أبو البر، سلاماً، بالنصب، والجمهور بالرفع وهو الأصح قالوا هذا بمعنى المسالمة لا بمعنى التحية أي أمتته مني لك و أما قالوا ذلك لأنهم لا يجوزون ابتداء الكافر بالسّلام و قال النقاش، حليمٌ خاطب سفيهاً كقوله: وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا^(١) و قيل أنه دعاء له بالسّلامة على سبيل الإستمالة ثم وعده بالإستغفار و ذلك يكون بشرط حصول ما يمكن معه الإستغفار و هو الإيمان باللّه و إفراده بالعبادة و هذا كما يرد الأمر و النهي على الكافر مع أنه لا يصح الإمتثال إلا بشرط الإيمان.

و قال الشيخ رحمته اللّه في التّبيان، سلامٌ عليك، أي سلامة عليك أي إكرام و برّ بحقّ الآبوة و شكر التّربية و قال ذلك على وضع التّواضع له و لين الجانب لموضعه إنتهى.

و هذا هو الحقّ إذ لا نعني بقوله: أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^(٢) إلا هذا و أما قوله سأستغفر لك ربّي فمعناه أنه وعده بالإستغفار على مقتضى العقل و هو ممّا لا إشكال فيه.

و قال قوم أنه وعده بالإستغفار بشرط تركه عبادة الأوثان و لذلك قال سأستغفر لك أي في المستقبل ولم يقل أستغفر لك، و قيل معنى الكلام أَدْعُو اللَّهَ فِي هِدَايَتِكَ فَيَغْفِرُ لَكَ بِالْإِيمَانِ فَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِلْكَافِرِ مَا دَامَ كُونُهُ كَافِرًا و قوله: إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا أي إنّ الله كان بي رحيمًا، حليمًا، و قيل بارًا، و قيل الحفيّ المكرم المحتفل الكثير البرّ و الألفاظ.

وَأَعْتَزَلْكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا

لَمَّا أَمَرَهُ آزَرَ بِهَجْرِهِ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ فِي قَوْلِهِ: وَأَهْجُرْزَنِي مَلِيًّا، أَخْبَرَهُ إِبْرَاهِيمَ بِأَنَّهُ يَتِمُّثَلُ أَمْرُهُ وَيَعْتَزَلُهُ وَقَوْمُهُ وَمَعْبُودَاتِهِمْ فَهَاجَرَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى الشَّامِ وَقِيلَ إِلَى حِرَّانَ بِأَرْضِ كُوشَاءَ، وَفِي هَجْرَتِهِ هَذِهِ تَزْوُجُ سَارَةَ وَلَقِيَ الْجِبَارَ الَّذِي أَخْدَمَ سَارَةَ هَاجِرًا وَقَوْلُهُ أَدْعُو رَبِّي قِيلَ مَعْنَاهُ وَأَعْبُدْ رَبِّي كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الدُّعَاءُ الْعِبَادَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَبِجُوزِ أَنْ يَرَادَ بِاللُّعَاءِ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الشَّعْرَاءِ، رَبِّ هَبْ لِي حَكْمًا إِلَى آخِرِهِ، وَقَوْلُهُ: عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا قِيلَ فِيهِ تَعْرِيفُ آخِرِ بَشَقَاوَتِهِمْ بِدُعَاءِ آلِهِمْ مَعَ التَّوَاضُعِ لِلَّهِ فِي كَلِمَةِ عَسَىٰ، وَمَا فِيهِ مِنْ هُضْمِ النَّفْسِ وَفِي عَسَىٰ، تَرَجُّحٌ فِي ضَمْنِهِ خَوْفٌ شَدِيدٌ.

فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا

أَي فَلَمَّا إِعْتَزَلَهُمْ إِبْرَاهِيمَ أَي فَارْقَهُمْ وَأَرْضَهُمْ وَخَرَجَ مِنْهَا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ، وَهَبْنَا لَهُ أَي أَنْسَنَّا وَحَشَّتْهُ بِأَوْلَادِ كِرَامٍ عَلَى اللَّهِ رَسُلَ اللَّهِ وَجَعَلْنَاهُمْ أَنْبِيَاءَ فَوَلَدَ لَهُ إِسْحَاقُ وَابْنُهُ يَعْقُوبُ تَسْلِيَةً لَهُ وَشَدَادًا لِعُضْدِهِ وَإِسْحَاقُ أَصْغَرُ مِنْ إِسْمَاعِيلَ وَلَمَّا حَمَلَتْ هَاجِرٌ بِإِسْمَاعِيلَ غَارَتْ سَارَةُ ثَمَّ حَمَلَتْ بِإِسْحَاقَ.

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا الْمُرَادُ بِالرَّحْمَةِ النَّبُوءَةُ وَقِيلَ الْمَالُ وَالْوَلَدُ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا خَيْرَ الدِّينِيِّ وَالذُّنُبِيِّ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا وَالنَّعِيمِ فِي الْآخِرَةِ وَلسَانَ الصُّدْقِ التَّنَاءُ الْحَسَنَ الْبَاقِيَّ عَلَيْهِمْ آخِرَ الْأَبَدِ وَعَبَّرَ بِاللِّسَانِ كَمَا عَبَّرَ بِالْيَدِ عَمَّا يَطْلُقُ بِالْيَدِ هِيَ الْعَطِيَّةُ وَاللِّسَانُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الرِّسَالَةُ الرَّائِعَةُ كَانَتْ فِي خَيْرٍ أَوْ شَرًّا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنِّي أَتْنِي لِسَانَ لَا أَسْرَ بِهَا

و قال آخر:

ندمت على لسانٍ كان منِّي

و لسان العرب لغتهم وكلامهم إستجاب الله دعوته فصَّيره قدوة حتى عظمه أهل الأديان كلَّهم وادَّعوه فقال تعالى ملَّة أبيكم إبراهيم و ملَّة إبراهيم حنيفاً، ثم أوحينا إليك أن اتَّبِع ملَّة إبراهيم حنيفاً، و أعطى ذلك ذريته فأعلى ذكرهم و أثنى عليهم.

أقول في هذه الآيات دلالة على أنَّ الإنسان إذا دعا قومه إلى الحقِّ و أنكروه فالإعتزال عنهم ممدوح و ذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام إعتزلهم بعد إنكارهم الدَّعوة. ففي كتاب علل الشرائع بأسناده قال إحتجوا في مسجد الكوفة فقالوا ما بال أميرالمؤمنين عليه السلام لم ينازع الثلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان) كما نازع طلحة و الزبير و عائشة و معاوية فبلغ ذلك عليّاً، فأمر أن ينادي الصَّلاة جامعة فلما إجتمعوا صعد المنبر فحمد الله و أثنى عليه ثم قال:

قلنا ذلك قال عليه السلام أنَّ لي بستّة من الأنبياء أسوة فيما فعلت قال الله تعالى في محكم كتابه لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة قالوا و من هم يا أميرالمؤمنين قال عليه السلام أولهم إبراهيم عليه السلام إذ قال لقومه، و أعتزلكم و ما تدعون من دون الله، فأن قلتم أنَّ إبراهيم إعتزل قومه لغير مكروهٍ أصابه منهم فقد كفرتم و أن قلتم إعتزلهم لمكروهٍ رآه منهم فالوَّصي أَعذر.

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة إنتهى.

بَيَّن عليه السلام وجه إعتزاله عن القوم و هو وصول المكروه منهم إليه و لا شك أنَّ المراد من المكروه هو إنكارهم عليه لَمَّا دعاهم إلى الحقِّ و فعل المعصوم حجَّة كما ثبت في محلّه.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله عبد طلب من الله عز وجل حاجة فألح في الدعاء أستجيب له أو لم أستجيب وتلى هذه الآية: وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا.

و في تفسير علي بن إبراهيم، فلما اعتزلهم يعني إبراهيم و ما يعبدون من دون الله إلى قوله: مِنْ رَحْمَتِنَا يعني لإبراهيم و إسحاق ويعقوب من رحمتنا رسول الله و جعلنا لهم لسان صدقٍ علياً، يعني أمير المؤمنين عليه السلام حدثني بذلك أبي عن الحسن بن علي العسكري عليه السلام انتهى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين لسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خيراً من المال يأكله و يورثه الحديث بطوله إنتهى^(١).



وَ أذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ
 كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ
 الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ
 رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَ أذْكَرُ فِي
 الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ
 رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ
 الزُّكُوفِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَ أذْكَرُ فِي
 الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَ
 رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا
 مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ وَ مِمَّنْ
 هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ
 خَرُّوا سُجَّدًا وَ بُكْيًا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
 أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ
 يَلْقَوْنَ عَذَابًا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ
 صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ
 شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ
 بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ
 فِيهَا لُغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَ لَهُمْ فِيهَا رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَ
 عَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا
 مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَ مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا
 بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَ مَا كَانَ

رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
 بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ
 سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

◀ اللغة

الطُّور: بضم الطاء جبل بالشام.
 نَجِيًّا: أي اختصه بكلامه.
 وَاجْتَبَيْتُمَا: الإجتباء والاختيار.
 فَخَلَفَ: أي ترك.
 غِيًّا: الغي بفتح الغين الشر والخيبة.

◀ الإعراب

نَجِيًّا هو حال و هازون بدل و نبيًّا حال مَكَانًا عَلِيًّا ظرف مِنْ دُرِّيَّةِ آدَمَ هو
 بدل من النبيين بإعادة الجار و سُجَّدًا حال مقدرة بُكِيًّا أيضاً كذلك جَنَاتِ
 عَدْنٍ من كسر التاء بدله من الجنة في الآية قبلها و من رفع فهو خبر مبتدأ
 محذوف إِنَّهُ كَانَ وَعَدُهُ مَأْتِيًّا الهاء ضمير إسم الله و يجوز أن تكون ضمير
 الشَّانِ و وَعَدُهُ بدل منه بدل الإشتمال.

◀ التفسير

وَ أَذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَوْسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا
 قرأ الكوفيون مخلصاً، بفتح اللام أي أخلصه الله للعبادة و النبوة كما قال
 تعالى إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ يُكَزِّي الدَّارِ^(١) و قرأ باقي السبعة و الجمهور
 بكسر اللام أي أخلص العباداة عن الشُّرك و الرياء أو أخلص نفسه و أسلم وجهه

للّه والمعنى و أذكر يا محمّد في الكتاب موسى ابن عمران أنّه كان مخلصاً في عبادته و رسالته و قوله: **كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا**، إشارة الى أنّه صاحب كتابٍ و شريعة أرسله اللّه تعالى الى عباده كغيره من المرسلين و في هذا الكلام دلالة على أنّ موسى كان رسولاً و نبياً، أي أعطاه اللّه مقام الرّسالة و النّبوة معاً لا أنّه كان نبياً فقط مثل هود و صالح و إدريس و أمثالهم.

إن قلت قوله: **وَكَانَ رَسُولًا**، مغنٍ عن قوله: **نَبِيًّا**، لأنّ كلّ رسولٍ نبيٌّ و لا عكس.

قلت لعلّ الوجه في ذكر النّبي بعد الرّسول إشارة الى خروج الملائكة لأنّ الرّسول يطلق على الملك كما يطلق على البشر:

قال اللّه تعالى: **يُصْطَفَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ** (١).

قال اللّه تعالى: **جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا** (٢).

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى** (٣) والآيات كثيرة.

و على هذا فقوله نبياً، يدلّ على أنّه كان رسولاً من جنس البشر لأنّ الملك لا يكون نبياً و اللّه أعلم.

نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا

ندائه إيّاه هو تكليمه تعالى إيّاه و الطور الجبل المشهور بالشّام و الظاهر أنّ الأيمن منفذ للجانب لقوله في الآية الأخرى، جانب الطور الأيمن بنصب الأيمن نعتاً لجانب الطور و الجبل نفسه لا يمينة و لا يسرة و لكن كان على يمين موسى بحسب وقوفه فيه و أحتمل بعضهم أن يكون صفة للطور إذ معناه الأُسعد المبارك.

٢- فاطر = ١

١- الحج = ٧٥

٣- هود = ٦٩

قلت فعلى هذا هو مشتق من اليمن و البركة أي كان الطور مباركاً هذا و الجمهور على أنه صفة للجانب أي أنه تعالى ناداه من ناحيته اليمنى يمين موسى و قوله قَرَّبْنَا نُجِيًّا، إختلفوا في معنى المراد من المقرب فقال الجمهور تقرب التَّشْرِيف و قال ابن عباس أدنى موسى من الملكوت و رفعت له الحجب حتَّى سمع صريف الأقدام، و قال سعيد أردفه جبرئيل عَلَيْهِ السَّلَام و قال الزمخشري شبَّه بمن قرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلَّمه بغير واسطة ملك إنتهى.

و نجِّي فعيل من المناجاة بمعنى مناج كالجلس و قال قتادة معنى نجا صدقه.

أقول المراد بالقرب في الآية هو القرب المعنوي الذي يحصل للإنسان بسبب الإخلاص في العبودية كما يقال فلانٌ مقرب عند الله و أمّا ما نقلوه عن ابن عباس أن موسى رفعت له الحجب حتَّى سمع صريف الأقدام فهو كلام لا طائل تحته إذ ليس هناك صريفٌ حتَّى يسمع و لتوضيح ذلك نقول القرب و البعد يتقابلان و يستعمل ذلك في المكان و يعبر عنه بالقرب المكانى.

قال الله تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** (١).

قال الله تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ أَيْتِيمٍ** (٢).

قال الله تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ...** (٣).

قال الله تعالى: **فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** (٤).

و يستعمل في الزمان و يعبر عنه بالقرب الزماني و منه:

قال الله تعالى: **أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ** (٥).

قال الله تعالى: **وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ** (٦).

١- الانعام = ١٥٢

٢- التوبة = ٢٨

٣- الانبياء = ١٠٩

١- البقرة = ٣٥

٢- الاسراء = ٣٢

٣- الانبياء = ١

وقد يستعمل في النسبة:

قال الله تعالى: **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَ أَلْيَتَايَ (١)**.

قال الله تعالى: **أَلْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ (٢)**.

قال الله تعالى: **وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ (٣)** و أمثالها منها.

وقد يستعمل في الخطوة:

قال الله تعالى: **وَ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ (٤)**.

وقوله في عيسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**.

قال الله تعالى: **وَ جِبْهَاً فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٥)**.

قال الله تعالى: **نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٦)**.

قال الله تعالى: **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٧)**.

و هكذا قد يستعمل في الرعاية:

قال الله تعالى: **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٨)**.

قال الله تعالى: **فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ (٩)**.

قال الله تعالى: **وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ (١٠)**.

إذا عرفت هذا فقد علمت أن قوله **وَ قَرِيبًا نَجِيًّا** من قبيل قوله تعالى في

عيسى و الملائكة حيث وصفهم بالقرب و يحتمل أن يكون المراد بالقرب هو

حذف الوساطة في التكلم في قوله: **وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١١)** أي بدون

الوساطة و هو من أعلى مراتب القرب و **وَ هَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ**

نَبِيًّا الهبة أن تجعل ملك لغيرك بغير عوض يقال وهبته هبةً و موهبتاً و موهباً، و

بأي القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العادي عشر

٢- النساء = ٧

٤- النساء = ١٧٢

٦- الاعراف = ١١٤

٨- الاعراف = ٥٦

١٠- الواقعة = ٨٥

١- النساء = ٨

٣- المائدة = ١٠٦

٥- آل عمران = ٤٥

٧- المطففين = ٢٨

٩- البقرة = ١٨٦

١١- النساء = ١٦٤

قد تكون الهبة بعوضٍ و يعبر عنها بالهبة المعوضة كما يعبر عن الأولى بغير المعوضة و ما نحن فيه من القسم الأول لأن مواهب الله تعالى تكون بلا عوض لأنها على أساس الجود الذي لا عوض فيه و لا غرض فقله أو أحيناه، إشارة إلى أن هارون كان من مواهب الله أعطاه لموسى ليكون له عضداً و وزيراً، قال الله تعالى: **سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا** ^(١) و قوله **مِنْ رَحْمَتِنَا**، فكان، من، نشأته أو تبويضته أي أنها نشأت من رحمتنا التي هي قريب من المحسنين و قوله: **نَبِيًّا**، إشارة إلى أنه أي هارون كان نبياً، لو كان حياً بعد موسى إلا أنه مات قبله و الكلام مشعر بأن هارون كان شريكاً له في النبوة إلا أن ظهور النبوة و فعليتها كان مشروطاً ببقاء بعد موسى و إلى هذا المعنى أشير بقوله **يَا عَلِيُّ أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى** إلا أنه لا نبي بعدي. و قد مرّ الكلام في قصة موسى و ولادته و سيأتي تفصيل الكلام في سورة القصص إنشاء الله و يظهر من الأخبار أن الله تعالى كما قرّب موسى نجياً، قرّب علياً **عَلِيًّا** نجياً.

في بصائر الدرجات بأسناده عن حمران قال قلت لأبي عبد الله **عَلِيًّا** فذاك بلغني أن الله تبارك و تعالى ناجى علياً قال **عَلِيًّا** أجل قد كان بينهما مناجاة بالطائف نزل بينهما جبرئيل **عَلِيًّا** إنتهى. و بأسناده عن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم الطائف ناجى رسول الله **عَلِيًّا** فقال أبو بكر و عمر إن تجيته دوننا فقال رسول الله **عَلِيًّا** ما إن تجيته بل الله ناجاه إنتهى.

وَ أَذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا. أي و أذكر يا محمد في الكتاب الذي هو القرآن أيضاً إسماعيل و هو ابن إبراهيم الخليل أبو العرب فأَنَّ المشهور أنه أول من تكلم بالعربية قول

الجمهور، وقيل المراد به هو إسماعيل بن حزقيل بعثه الله إلى قومه فشجوا جلدة رأسه فخيره الله فيما شاء من عذابهم فاستغفاه ورضي بثوابه وفوض أمرهم إليه في عفوه وعقوبته وصدق وعده أنه كانت مواعيد الله للناس توفى بالجميع فلذلك خص بصدق الوعد قيل لم يعد ربّه موعدة إلا أنجزها فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للدبّح و وعد رجلاً أن يقيم بمكان فغاب عنه مدة قيل سنة وقيل اثني عشر يوماً فقال برحت من مكانك فقال لا والله ما كنت لأخلف موعدي.

أقول يظهر من الأخبار أن إسماعيل هذا غير إسماعيل ابن إبراهيم الخليل. فقد روي ابن أبي عمير بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: سمّي إسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلاً في مكانٍ فانتظر سنة فسماه الله عزّ وجلّ صادق الوعد ثمّ أنّ الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل ما زلت منتظراً لك إنتهى.

وفي عيون الأخبار بأسناده عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال عليه السلام: أتدري لم سسمي إسماعيل صادق الوعد قال قلت لأدري قال عليه السلام: وعد رجلاً فجلس له حولاً ينتظره إنتهى.

وفي كتاب علل الشرائع بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أنّ إسماعيل الذي قال الله عزّ وجلّ في كتابه وَإِسْمَاعِيلَ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا لم كين إسماعيل بن إبراهيم بل كان نبياً من الأنبياء بعثه الله عزّ وجلّ إلى قومه فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه فأتاه ملك فقال أنّ الله جلّ جلاله بعثني إليك فمرني بما شئت فقال لي أسوة بما يصنع بالأنبياء عليهم السلام إنتهى.

وبأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ إسماعيل كان رسولاً نبياً سلط عليه قومه فقتلوا جلده ووجهه وفروة رأسه فأتاه رسول من ربّ

العالمين فقال له ربك يقرؤك السلام ويقول قد رأيت ما صنع بك و قد أمر ربّي بطاعتك فمرني بما شئت فقال يكون لي بالحسين بن عليّ عليه السلام أسوةً إنتهى.

و في تفسير عليّ بن إبراهيم، و أذكر في الكتاب إسماعيل أنه كان صادق الوعد، وعد وعداً فإنظر صاحبه سنة و هو إسماعيل بن حزقيل عليه السلام إنتهى.

و قال الشيخ في التبيان و الطبرسي في مجمع البيان و تبعهما من كان بعدهما من المفسرين أنه إسماعيل بن إبراهيم، و به قال الطبري و الرّازي و غيرهما من مفسري العامة و هو المشهور بين المفسرين.

و قيل أنّ إسماعيل بن إبراهيم مات قبل أبيه إبراهيم و أنّ هذا هو إسماعيل بن حزقيل و الله أعلم بحقيقة الحال وكيف كان لا شك أنه كان من المرسلين.

وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا

أي و كان إسماعيل يأمر أهله بالصلاة و الزكاة و كان عند ربه مرضياً، قيل المراد بالأهل أمته و هو خلاف ظاهر اللفظ و متفاهم العرف فإنّ الأهل في الظاهر أقرب أقاربه لغةً و عرفاً و قوله: مَرْضِيًّا و هو إسم مفعول أي قد رضي أعماله لأنّها كلّها طاعات قيل أراد بذلك أفعاله الواجبات و المنذوبات دون المباحات لا يرضها الله و لا يسخطها و أصل مرضي، مرض، فقلبت الضمة كسرة و الواو ياء و أدغمت في الياء فصار مرضياً.

وَ أَذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا

أي و أذكر يا محمد في الكتاب أي في القرآن، إدريس قيل هو جدّ أبي نوح و هو أخنوخ و هو أول من نظر في النجوم و الحساب و جعله الله من معجزاته و أول من خطّ بالقلم و خاط الثياب و لبس المخيط و كان خياطاً و كانوا قبل يلبسون الجلود و أول مرسل بعد آدم و أول من إتخذ الموازين و المكاييل و

الأسلحة فقاتل بني قابيل، وقيل هو الياس بعث الى قومه بأن يقولوا لا إله إلا الله و يعملون ما شأؤوا فأبوا و أهلكوا و إدريس إسم أعجمي منع من الصّرف للعلميّة و العجمة و لا يجوز أن يكون أفعيلاً، من الدّرس كما قال بعضهم لأنّه كان يجب صرفه إذ ليس فيه إلا سبب واحد العلميّة، ثمّ وصفه الله تعالى بكونه صديقاً أي كثير التّصديق بالحقّ و نبياً من قبل الله تعالى الى الخلق.

وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا

و المكان العليّ شرف النبوّة و الزلّقى عند الله و قد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، و قيل هو رفع النبوّة و التّشريف و المنزلة في السّماء كسائر الأنبياء و قيل بل رفع الى السّماء ذلك بأمر الله كما رفع عيسى عليه السلام قالوا في كيفيّة رفعه الى السّماء أنّه كان له خليلٌ من الملائكة فحمّله على جناحه و صعد به حتّى بلغ السّماء الرابعة فلقى هناك ملك الموت فقال له أنّه قيل لي إهبط الى السّماء الرابعة فأقبض فيها روح إدريس و إنّّي لأعجب كيف يكون هذا فقال له الملك الصّاعد هذا إدريس معي فقبض روحه.

و روي أنّ هذا كلّهُ كان في السّماء السادسة قاله ابن عبّاس و عن الحسن، رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أي إلى الجنّة إذ لا شيء أعلى منها. و في الكافي بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبرني جبرئيل أنّ ملكاً من الملائكة كانت له عند الله منزلة عظيمة فنّعتب عليه فأهبطه من السّماء إلى الأرض فأتى إدريس و قال له أنّ لك من الله منزلة فإشفع لي عند ربك فصلى ثلاث ليالٍ لا يفتر و صام أيامها لا يفطر ثمّ طلب إلى الله عزّ و جلّ في السّحر في الملك فقال الملك أنّك قد أعطيت سؤلك أطلق الله لي جناحي و أنا أحبّ أن أكافيك فأطلب إليّ حاجة فقال تريني ملك

الموت لعلِّي أنس به فأنته ليس يهتيني مع ذكره شيء فبسط جناحه
ثم قال إركب فصعد به يطلب ملك الموت في السماء الدنيا فليل له
إصعد فاستقبله بين السماء الرابعة والخامسة فقال الملك يا ملك
الموت مالي أراك قاطباً قال العجب أنتي تحت ظلّ العرش حتى أمرت
أن أقبض روح آدمي بين السماء الرابعة والخامسة فسمع إدريس
فامتعض، فخر من جناح الملك فقبض روحه مكانه قال الله عزّ
وجلّ: وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا إِنْتَهَى.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: رَأَى فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ
قَالَ ﷺ: فَقُلْتُ مَنْ هَذَا يَجْبُرُئِيلُ فَقَالَ هَذَا إِدْرِيسُ رَفَعَهُ اللَّهُ مَكَانًا
عَلِيًّا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ وَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ وَاسْتَغْفَرَ لِي.

وقد ذكر في تفسير نور الثقلين حديثاً طويلاً في الباب إن شئت فراجع.

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا
مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا
تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا

أولئك إشارة إلى ما تقدّم ذكره من حالات الأنبياء (من) في قوله: مِنْ
النَّبِيِّينَ بيانية لأنّ جميع الأنبياء منعم عليهم ومن، الثانية للتبعض وكان
إدريس من ذرية آدم لقربه منه لأنّه جدّ أبي نوح، وإبراهيم من ذريته من حمل
مع نوح لأنّه من ولد سام بن نوح، ومن ذرية إبراهيم إسحاق وإسماعيل و
يعقوب وإسرائيل معطوف على إبراهيم، و زكريّا ويحيى وموسى وهارون
من ذرية إسرائيل وكذلك عيسى لأنّ مريم من ذريته.

قال بعض المفسّرين فإن حملنا (من) في قوله: مِنْ النَّبِيِّينَ على التبعض
لا إشكال فيه إذ لم تدلّ على من عداهم لم ينعم عليهم بل لا يمتنع أن يكون

أثماً أفردهم بأنه أنعم عليهم نعمة مخصوصة عظيمة رفيعة وأن كان غيرهم أيضاً قد أنعم عليهم بنعمة دونها إنتهى.

إن قلت لم قال من ذرية آدم، والأنبياء كلهم من ذريته.

قلت لأن النبي في الآية يشمل الرسول أيضاً وهو لا يختص بذرية آدم لأن الله بعث رسلاً ليسوا من ذرية آدم بل هم من الملائكة:

قال الله تعالى: **يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ** (١).

وقوله: **وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا أَي مَمَّنْ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى الطَّاعَاتِ فَاهْتَدُوا إِلَيْهَا** واجتبيناهم أي اخترناهم وإصطفيناهم، من الناس، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن، أي أعلامه وأدلته **خَرُّوا سُجَّدًا** أي سجدوا له تعالى وبكياً أي بكوا، وبكى جمع باك ونصبها على الحال وتقديره، **خَرُّوا ساجدين باكين**، وقيل بكياً، مصدر بمعنى البكاء، وقيل أنتصب، سجداً، على الحال المقدرة لأنه حال ضرورة لا يكون ساجداً، والمعنى أنهم إذا تليت عليهم آياته يخضعون لربهم وبيكون يخضعون لعظمته وبيكون من خشيته وفيه إشارة إلى علو مقامهم ومرتبهم في التوحيد.

إن قلت لم فرّق في ذكر نسبهم وكلهم من ذرية آدم.

قلت لعل التفریق لتبيين مراتبهم في شرف النسب فكان لإدريس شرف القرب من آدم لأنه جد نوح وكان إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح لأنه من ولد سام بن نوح وكان إسماعيل وإسحاق ويعقوب من ذرية إبراهيم فكان بهم شرف إبراهيم لتباعدهم من آدم وهكذا.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا

الْخَلْفَ بفتح اللّام يستعمل للصّالحين و بتسكين اللّام في الصّالح، قال الشّاعر:

ذهب الّذين يعاش في أكنافهم و بقيت في خلف كجلد الأجراب
و لذلك أجمعوا على سكون اللّام في الآية و قال الفراء يستعمل كلّ واحدٍ
منهما في الآخر و على هذا فيجوز فتح اللّام في الآية و في الآية دلالة على أنّ
المراد بالخلف من لم يكن صالحاً و هذا ممّا لا خلاف فيه، لأنّهم أضاعوا
الصّلاة و اتّبَعوا الشّهوات أمّا بتركها أو بتأخيرها عن مواقيتها فأنّ الإضاعة تطلق
على التّرك و التّأخير.

و قد ورد في الحديث أنّ الصّلاة تقول ضيّعني ضيّعك الله لمن أخرّها من
غير عذرٍ و لا يبعد أن يكون المراد بالإضاعة التّأخير عن وقتها لا تركها لأنّ
الإضاعة لا تطلق على المعدوم، و قيل الإضاعة الإخلال بشروط الصّلوة عدم
إعتقاد وجوبها و قيل تعطيل المساجد و الإشتغال بالصّنائع و الأسباب و هذه
الأقوال لا بأس بها فأنّ الإضاعة تطلق على الجميع و أمّا الشّهوات فية عامّ في
كلّ مشتهر يشغل عن الصّلاة و ذكر الله هكذا قيل و الحقّ أنّ المراد بها
المحرّمات و أنّما خصّ الصّلاة بالذّكر من بين الواجبات لأنّها أفضل الواجبات
و أهمّها في جميع الأديان إن قبلت قبل ما سواها و إن ردّت ردّاً ما سواها و
قوله: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا لَغِيًّا بفتح الغين الشّر و الخيبة قال الشّاعر:

فمن يلق خيراً يحمد النّاس أمره و من يغو لا يعدم على الغي لائماً
و قال ابن مسعود الغي وادّ في جهنّم و قال ابن زيد أي ضلالاً و قيل معناه
يلقون مجازاة غيهم يوم القيامة.

إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا قَدْ لَيْتَ لَكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظَلَّمُونَ
شَيْئًا

الظَّاهِرُ أَنَّ الْإِسْتِنَاءَ مَتَّصِلٌ وَقَالَ الرَّجَاجُ مَنْقَطِعٌ، إِسْتَنَى مِنْهُمْ مَنْ تَابَ وَ رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ إِضَاعَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْبَاعِ الشَّهَوَاتِ، وَأَمِنْ وَعَمِلَ صَالِحًا، قِيلَ قَوْلُهُ: «أَمِنْ»، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْإِضَاعَةُ إِضَاعَةُ كُفْرٍ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْإِضَاعَةَ أَعْمٌ مِنْ إِضَاعَةِ الْكُفْرِ وَغَيْرِهَا وَالتَّخْصِيسُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَفِي قَوْلِهِ: «عَمِلَ صَالِحًا»، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتَّحَقُّ بِدُونِ الْعَمَلِ وَقَوْلُهُ: «فَأَوْلَيْتُكَ»، إِشَارَةٌ إِلَى التَّائِبِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَاتَّهَمُوا بِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا، فَأَنَّ رَبَّنَا لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ لِأَنَّ الظُّلْمَ قَبِيحٌ وَهُوَ تَعَالَى مَنْزَهُ عَنِ الْقَبَائِحِ ثَبَتَ ذَلِكَ بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالتَّقْلِيَّةِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ لَا خِفَاءَ فِيهِ.

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا
 جَنَّاتِ عَدْنٍ، جَنَّاتٌ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: «الْجَنَّةُ» فِي قَوْلِهِ: «يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» كَأَنَّهُ قِيلَ «وَمَا الْجَنَّةُ الَّتِي يَدْخُلُونَ فِيهَا، قِيلَ لَهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ قِيلَ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ بِتَقْدِيرِ هِيَ جَنَّاتٌ وَالْجَنَّةُ الْبَسْتَانُ الَّذِي يَجْنَهُ الشَّجَرُ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَجَرٌ وَيَكُونُ مِنْ خَضِرَةٍ فَهُوَ رَوْضَةٌ وَلَا يُسَمَّى جَنَّةً هَكَذَا قِيلَ وَ أَمَّا قِيلَ جَنَّاتِ عَلَى لَفْظِ الْجَمْعِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ جَنَّةٌ تَجْمَعُهَا الْجَنَّةُ الْعَظْمَى وَالْعَدْنُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَ سَكُونِ الدَّالِّ وَ الثُّونُ الْإِقَامَةُ يُقَالُ عَدَنَ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ وَ الْوَعْدُ الْإِخْبَارُ بِمَا يَتَّضَمَّنُ فِعْلَ الْخَيْرِ وَ نَقِيضُهُ الْوَعِيدُ وَ هُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ فِعْلِ الشَّرِّ وَ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ الَّتِي هِيَ جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْخُلُودِ فِيهَا الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ بِمَعْنَى أَنَّهَا لَيْسَتْ حَاضِرَةً عِنْدَهُمْ بَلْ هِيَ غَائِبَةٌ عَنِ الْحَوَاسِّ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ أَيُّ أَنَّ الرَّحْمَنَ وَ قِيلَ أَنَّ الْهَاءَ ضَمِيرُ الشَّانِ وَ قَوْلُهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا، أَيُّ كَانَ وَعْدَ الرَّحْمَنِ مَأْتِيًّا يَأْتِيهِ أَوْلِيَاءُهُ وَ قِيلَ مَأْتِيًّا أَيُّ مَفْعُولًا وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ وَ حَاصِلُ الْكَلَامِ فِي الْآيَةِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُمُ الْجَنَّةَ وَ وَعْدُهُ حَقٌّ لَا خَلْفَ فِيهِ:

قال الله تعالى: وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا^(١).

قال الله تعالى: وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا^(٢).

قال الله تعالى: وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ^(٣).

قال الله تعالى: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا^(٤) والآيات كثيرة.

وفي هذا الكلام إشارة إلى نقطة أخرى وهي أن الله قادرٌ على كل شيء فلا يقدر أحدٌ على منعه عمًا أراد و شاء فلا محالة يكون وعده مأتيًا ثم وصف الله الجنة.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا
أي لا يسمعون في جنات عدن لغوًا أي كلامًا لا معنى له وقد يكون اللغو الهذر من الكلام، إلا سلامًا قيل هو إستثناء منقطع وهو قول الملائكة سلام عليكم بما صبرتم، يسلم الله عليهم عند دخولها.

أقول لا يبعد أن يكون الإستثناء متصلًا وكان السلام منهم أي يسلم كل واحدٍ على الآخر، وقوله: وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا أي في الجنة، بكرةً و عشياً، يعني يأتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم والليله من الزمن.
وقال مجاهد لا بكرة فيها ولا عشياً ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

وقال صاحب الكشاف، اللغو فضول الكلام و ما لا طائل تحته وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو وإتقائه حيث نزه الله عنه الدار التي لا تكليف

٢- الكهف = ٩٨

١- النساء = ١٢٢

٤- لقمان = ٣٣

٣- الزوم = ٦

فيها و ما أحسن قوله: **وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا^(١) وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ^(٢)** أي إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً فلا يسمعون لغواً إلا ذلك فهو من وادي قوله:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ طول من قراع الكتائب أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والتقيصة على الإستثناء المنقطع وقال أيضاً ولا يكون هناك ليل ولا نهار ولكن على التقدير ولأنه المتّنع عند العرب من وجد غداءً وعشاءً، وقيل أراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان صباحاً ومساءً وبكرةً وعشيّاً ولا يقصد الوقتين المعطوفين إنتهى.

أقول ما ذكره لا بأس به والأمر واضح.

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا

أي تلك الجنة التي وصفناها نعطها من كان تقيّاً في دار الدنيا بترك المعاصي وفعل الطاعات وأنما قال نورث، تشبيهاً بالميراث:

قال الله تعالى: **وَ لِنَادُوا الْآخِرَةَ حَيَّرُوا وَ لِنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ^(٣)**.

قال الله تعالى: **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ^(٤)**.

قال الله تعالى: **قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ^(٥)**.

وَ مَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا

قيل أبطأ جبرئيل عن الرسول مرّة فلما جاء قال جبرئيل قد إستقت إليك أفلا تزورنا أكثر ممّا تزورنا فنزلت الآية أخبر الله فيها بأنّ لا تنزل إلا بأمر الله،

١- الفرقان = ٧٢

٢- القصص = ٥٥

٣- النحل = ٣٠

٤- الفرقان = ١٥

٥- محمد = ١٥

له، أي لله تعالى ما بين أيدينا وهو الدنيا وما خلفنا وهو الآخرة، وما بين ذلك، هو ما بين التفخيتين، وما كان رَبُّكَ نَسِيًّا أي ليس الله مِمَّنْ ينسى و يخرج عن كونه عالماً لأنه عالمٌ لنفسه و تقدير الكلام و ما نسيك ربك و إن أخرَّ الوحي عنك و قيل أن الآية متصلة بما قبلها و ذلك لأن جبرئيل احتبس عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف و ذي القرنين و الرُّوح فلم يجيبهم و رجا أن يأتيه جبرئيل بجواب ما سألوا عنه فأبطأ عليه أربعين يوماً و قيل أثنى عشرة ليلة و قيل خمسة عشر يوماً ثلاثة عشر و قيل ثلاثة أيام فقال النبي أبطأت عليّ حتى ساء ظني و اشتقت إليك فقال جبرئيل إنني كنت أشوق و لكنني عبدٌ مأمور إذا بنت نزلت و إذا حبست احتبست فنزلت الآية و قال بعض المفسرين هو إخبار عن أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها و ما ننزل هذه الجنان إلا بأمر ربك ثم أن قوله: وَ مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ يحتمل وجهين:

أحدهما: إنا إذا أمرنا فأنزلنا عليك.

والثاني: إذا أمر ربك نزلنا عليك فيكون الأمر على الوجه الأول متوجهاً إلى النزول و على الثاني متوجهاً إلى التنزيل.

و أمّا قوله: وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا حيث نفي النسيان عنه تعالى فالوجه فيه هو أن النسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف قلبه و إما غفلة و إما عن قصدٍ حتى ينحذف عن القلب ذكره و كل ذلك محال في حقه تعالى لكونه منزهاً عن مشابهة الأجسام.

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا

إرتفع رب السموات على أنه خير مبتدأ محذوف أي هو رب السموات أو على البذل من الرب في قوله: وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا، و المعنى أن الله تعالى

هو المالك المتصرف في السموات والأرض وما بينهما من المخلوق فليس لأحد منعه منه و قوله: **فَاعْبُدْهُ** أي إذا كان الله ربهما فأعبده وحده لا شريك له، **وَ أَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ** أي أصبر على تحمّل مشقة عبادته **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** أي مثلاً و شبيهاً على قول ابن عباس و مجاهد و قيل معناه أنه لا يستحق أحد أن يسمّى إليه إلا هو.

و قال بعضهم السّمي من توافق في الإسم تقول هذا سميك أي إسمه مثل إسمك فالمعنى أنه لم يسم بإسم الله أي بلفظه شيء قطّ و كان المشركون يسمّون أصنامهم ألهة و العزى إليه، و أمّا لفظ الله فلم يطلقوه على شيء من أصنامهم، و يحتمل أن يعود الضمير على قوله: **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا**، أي هل تعلم من يسمّى أو يوصف بهذا الوصف غير الله تعالى هذا ما ذكروه في تفسير الكلام.

أَقُولُ الْأَقْوَى عِنْدِي أَنَّ قَوْلَهُ: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا كلامٌ مستقلٌ و ذلك أنّ الله تعالى لما وصف نفسه بما وصف من عدم النسيان و أنّه ربّ السموات و الأرض و ما بينهما، قال: **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**، أي هل تعلم له من كان لائقاً بهذه الأوصاف أي بعدم النسيان و خلق السموات و الأرض و ما بينهما فالإستفهام للإنكار أي لا تعلم له سميًّا، أي مثلاً و شبيهاً فإنّ ما سواه كائناً ما كان مخلوق له و كلّ مخلوق فهو مربوبٌ فلا ربّ في الحقيقة إلا هو كما قال تعالى: **أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** و مُحصّل الكلام أنّ الرّب بمعناه الحقيقي منحصرٌ به تعالى قوله: **فَاعْبُدْهُ وَ أَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ** حيث أتى الكلام بالفاء التي تفيد التّفريع إشارة إلى أنّ الرّب الموصوف بما ذكرناه هو المستحق للعبادة لا غيره و من المعلوم أنّ العبادة تلازم المشقة فالعابد لا محيص له من الصّبر عليها بل نقول لا صبر أشدّ من الصّبر على العبادة.

قال الله تعالى: **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ^(١).
 قال الله تعالى: **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ** ^(٢).



وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا
 (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ
 يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَّيْكَ لَنُخْشِرَنَّهْمُ وَ الشَّيَاطِينَ
 ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهْمُ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ
 مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهْمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩)
 ثُمَّ لَنُحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَ
 إِنِ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا
 مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ لَنُنَجِّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ
 فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
 قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ
 مَقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ
 قَوْمٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَ رِئِيًّا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ
 فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا
 رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ
 فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أضعفُ جُنْدًا (٧٥)
 وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَهْتَدَوْا هُدًى وَ الْبَاقِيَاتُ
 الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)
 أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَ
 وَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا
 (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ
 مَدًّا (٧٩) وَ نَرِيئُهُ مَا يَقُولُ وَ يُأْتِينَا فَزْدًا (٨٠) وَ
 اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١)

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا
 (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَا أُرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ
 تَوَزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ
 عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا
 (٨٥) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (٨٦)
 لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ
 عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ
 جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْهُ
 وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ
 دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَ مَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ
 يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ
 الْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ
 أَحْصَيْنَاهُمْ وَ عَدَّهْمُ عَدًّا (٩٤) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا
 يَسْرُنَاهُ لِبَلْسَانِكَ لِيُنَبِّشَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنذِرَ بِهِ
 قَوْمًا لَدًّا (٩٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ
 تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

◀ اللّغة

جثيًا: جمع جاثي و هو الذي برك على ركبتيه.

لنترعن: أي لنستخرجن.

عَيْتًا: أي تَمَرْدًا قِيلَ هُوَ جَمْعُ عَاتٍ.
 صِيلًا: جَمْعُ صَالٍ وَ الصَّلَاءُ يُقَالُ لِلقُودِ وَ للشَّوَاءِ.
 نَدِيًا: أي مَجْلِسًا يُقَالُ نَدَوْتُ الصَّوْمَ أَنْدُوهُمُ نَدَوًا إِذَا جَمَعْتَهُمْ فِي مَجْلِسٍ.
 أَثَاثًا: الأَثَاثُ المَتَاعُ.
 وَرِيًا: الرِّئِيُّ المَنْظَرُ.
 تَوَزُّهُمُ: أي تَزَعَجَهُمُ إِزْعَاجًا وَ الإِزْ، الإِزْعَاجُ إِلَى الأَمْرِ.
 وَفَدًا: أي رَكِبَانًا فِي قَدُومِهِمْ.
 وَرَدًا: أي عَطَاشًا.
 إِذَا: بِكسْرِ الألفِ أي مَنكَرًا عَظِيمًا.
 يَتَفَطَّرُنَ: أي يَتَشَقَّقُنَ الإِنْفِطَارَ الإِنشِقَاقَ.
 هَذَا: الهَدَى، تَهْدَمُ بِشِدَّةِ صَوْتِ.
 وَدًا: الوَدَى بَضَمِ الوَاوِ الحَبِّ.
 لُدًا: اللُدُّ بَضَمِ اللَّامِ مَأخُوذٌ مِنَ اللُدِّ وَ هُوَ شِدَّةُ الخِصُومَةِ.
 رَكْرًا: الرِّكَزُ بِكسْرِ الرِّاءِ الصَّوْتُ وَ قِيلَ الحَسِّ.

الإعراب

أَءَ ذَا العَامِلِ فِيهَا فَعَلَ دَلَّ عَلِيهِ الكَلَامُ أَي أبعث إِذَا، وَ لا يَجُوزُ أَن يَعمَلَ فِيهَا أَخْرَجَ لِأَنَّ ما بَعْدَ اللَّامِ وَ سَوفَ، لا يَعمَلَ فِيما قَبْلَها يَدُ كُرًّا بِالتَّشْدِيدِ أَي يَتَذَكَّرُ جِثًّا حَالِ أَيُّهُمُ مَوضِعُها نَصبٌ بِنِزَعِ هَذا إِذا قَلنا أَنَّ الضَّمَّةَ فِيها ضَمَّةُ بَناءٍ وَ أَمَّا إِذا قَلنا أَنَّها ضَمَّةُ الإِعرابِ فِفيهِ أَقوالُ:

أحدها: أَنَّها مَبْتَدَأٌ وَ أَشَدُّ خَبَرُهُ وَ هُوَ عَلى الحِكايةِ وَ هَذا هُوَ الحَقُّ وَ إِنِّ مِنْكُمْ أَي وَ ما أَحَدٌ مِلكِ فَحذَفَ الموصُوفُ مَقامًا بِالفِتحِ مَوضِعَ الإِقامةِ أَوْ هُوَ مَصدرٌ كَالإِقامةِ وَ بِالضَّمِّ فِيهِ الوَجهانِ أَيضًا نَدِيًا لامِ الَّذِي وَ أُو يُقالُ نَدوتَهُمُ وَ مَصدرُهُ النَّدوُ وَ كَمَ أَهْلَكُنْنا كَمَ مَنصُوبٌ بِأَهْلَكُنْنا وَ أَحسَنُ أَثاثًا صِفةٌ لَكمُ وَ

رئياً يقرأ بهمزة ساكنة بعد الراء و هو من الرؤية أي أحسن منظراً و يقرأ بتشديد الياء من غير همزة بناءً على قلب الهمزة ياء لسكونها و إنكسار ما قبلها ثم أدغم، و قيل هو من الرّي ضد العطش لأنه يوجب حسن البشرة و يقرأه، رئياً، بهمزة بعد ياء ساكنة و هو مقلوب قُلْ مَنْ كَانَ هِيَ شَرِطِيَّةً و الأمر جوابها و الأمر هنا بمعنى الخبر إما العذاب و إما السّاعة كلاهما بدل ممّا يوعدون فسيعلمون جواب إذا و يزيد معطوف على معنى، فليمدد مَنْ هُوَ من بمعنى الذي و هو شَرِطَتِهَا، و قيل هي إستفهام أطلع الهمزة همزة الإستفهام لأنها مقابلة الأم، و همزة الوصل محذوفة لقيام همزة الإستفهام مقامها و يقرأ بالكسر على أنها همزة وصل و حرف الإستفهام محذوف لدلالة، أم، عليه كلاً بضم الكاف و التّنوين حال بعبادتهم المصدر مضاف الى الفاعل أي سيكفر المشركون بعبادتهم الأصنام و قيل هو مضاف الى المفعول أي سيكفر المشركون بعبادة الأصنام و ضدّاً واحد في معنى الجمع و قدّأ جمع و افد مثل ركب جمع راكب لا يملكون حال إلا من آتخذ في موضع نصب على الإستثناء و المنقطع أو هو في موضع رفع بدلاً من الضمير في يملكون هذّا مصدر على المعنى و قيل هو حال أن دعوا للرحمن في موضع نصب على أنه مفعول له و قيل في موضع جرّ على تقدير اللّام، و في موضع، أي الموجب لذلك دعاؤهم من في السّموات من نكرة موصوفة و في السّموات صفتها إلا أتى خبر كلّ و ومد حملاً على لفظ كلّ.

التفسير

و يَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا

قيل في سبب نزولها أنّ رجلاً من قريش قيل هو أبي بن خلف جاء بعظم رفات فنفض فيه و قال للرّسول أبعث هذا و كذب و سخر و أسناد هذه المقالة لاجنس بما صدر من بعضهم أو للجنس الكافر الذي ينكر البعث و المعنى يقول

الإنسان الكافر المنكر للبعث، فإذا ما مَت لسوف أخرج حياً أَعِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا، و الهَمزة للإستفهام الإنكاري أي لا أخرج حياً بعد الموت فهو إنكارٌ للبعث و الإنكار لا يفيد إذا لم يكن مقروناً بالدليل فَأَنَّ الأشياء على الإمكان ما لم يدلّ دليل على الإمتناع لقولهم أي الفلاسفة، كل ما قرع سمعك فذره في بقعة الإمكان ما لم تدرك عنه قائمة البرهان و منها البعث و هو الحياة بعد الموت فهو ممكنٌ في حدّ نفسه إذ لم يدلّ دليل على إمتناعه عقلاً وليس للمنكر دليلٌ إلا مجرد الإستبعاد أجاب الله تعالى عنه بقوله:

أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا

قرأ نافع و ابن عامر و عاصم، أَوْ لَا يَذْكُرُ، خفيفاً و قرأ الباقون بالتشديد فمن شدّد الدال أراد أو لا يتذكر، فأدغم التاء في الدال لقرب مخرجهما، خفف فلقوله: فَهِنَّ شَاءَ ذِكْرَهُ^(١) و بعبارة أخرى من شدة أخذه من التذكر و من ضعف أخذه من الذكر و المأل فيهما واحد.

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن جهل المنكرين و عدم تفكيرهم في البعث و لذلك أنكروه و ذلك لأنّ البعث ليس إلا الحياة بعد الموت فمن زعم أنّ الإنسان بموته يعدم بالكلية يلزم منه الإحياء عن العدم و من ذهب إلى أنّ الإنسان لا يعدم بالموت بل المادّة الأصليّة باقية بعد تلاشي الأعضاء كما هو الحقّ يلزم من قوله أن لا يكون الإحياء عن العدم و على التقديرين لا إشكال فيه و لا إمتناع و ذلك لأنّ الإحياء على الأوّل أعني به الإحياء عن العدم فهو ممكنٌ بل واقعٌ في حقّ المنكر أليس الله أوجده من العدم و قد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد.

و أمّا على الثاني فالأمر أسهل، فقله تعالى: أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ، إلى

قوله: **وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا رَدُّ عَلَى الْمُنْكَرِ وَجُودِهِ فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ لَوْ اسْتِحَالَ الْإِحْيَاءُ عَنِ الْعَدَمِ فَكَيْفَ صرَتْ مَوْجُودًا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا، وَ حَيْثُ أَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى إِنْكَارِ وَجُودِكَ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى إِنْكَارِ الْوُجُودِ بَعْدَ الْعَدَمِ مَطْلَقًا وَ مَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ إِنْكَارَ الْبَعْثِ لِلْمُنْكَرِ يَرْجِعُ إِلَى إِنْكَارِ الْوُجُودِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ وَ هُوَ كَمَا تَرَى وَ سِيَّاتِي الْبَحْثُ فِيهِ فِي مَوْضِعِهِ إِنْشَاءَ اللَّهِ.**

إِنْ قُلْتَ قَالَ تَعَالَى وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا وَلَمْ يَقُلْ وَ كُنْتَ مَعْدُومًا، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْإِحْيَاءُ مِنَ الْعَدَمِ كَمَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

قُلْتَ الشَّيْءُ مَسَاوِقٌ لِلْوُجُودِ فَمَعْنَى قَوْلِهِ: وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا، لَمْ يَكُ مَوْجُودًا، وَ مَا لِي بِمَوْجُودٍ يَكُونُ مَعْدُومًا لِعَدَمِ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ الْوُجُودِ وَ الْعَدَمِ كَمَا ثَبَتَ فِي مَحَلِّهِ فَالْمَطْلُوبُ حَاصِلٌ.

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا

الواو في قوله: **فَوَرَبِّكَ** للقسم، أي لنبعثنهم من قبورهم مقرنين أوليائهم من الشياطين والواو في **وَ الشَّيَاطِينَ** للعطف أو بمعنى، مع، أي يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووههم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة هذا إذا كان الضمير في، لنحشرنهم، للكفرة، و أما إذا كان الضمير عائداً على الجميع مؤمناً كان أو كافراً كما هو الحق فالمعنى لنحشرن جميع الناس مع شياطينهم و أننا قلنا هو الحق لأن الشياطين لجميع الناس من ولد آدم:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ (١)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢)

فعلى هذا لكل إنسان شيطان يفتنه فقوله **لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّيَاطِينَ** معناه

نحشرهم جميعاً ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً، إذا كان الضمير عاماً كما هو المختار فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطي جهنم كما كانوا في الموقف متجاثين لأنه من توابع التوافق للحساب قبل الوصول إلى الثواب والعقاب و قال تعالى في حالة الموقف: وَ قَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ^(١) و جثياً حال مقدرة و عن ابن عباس، جثياً، أي قعوداً و قيل جماعات جمع جثوة و هو المجموع من التراب والحجارة.

و قال مجاهد و غيره على الركب، و قال السدي قياماً على الركب ليضيق المكان بهم و قرأ حمزة و الكسائي و حفص، جثياً و عتياً و صلياً، بكسر الجيم و العين و الصاد و الجمهور بضمها.

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا.

ثم للتراخي أي بعد حشرهم و حضورهم حول جهنم، لنزعن أي لنخرجن و قيل لنزعين من نزع القوس و هو الرمي بالسهم و قوله من كل شيعه، فالشيعه الجماعة المرتبطة بمذهب، يقال شائع فلاناً أي تابعه، و المعنى ثم لنخرجن من كل جماعة من أتباع الشيطان أيهم أي أي فرقة منهم أشد على الرحمن عتياً، أي متمرداً عاصياً، قال أبو الأعوص يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً.

و قال الزمخشري يمتاز من كل طائفة من طوائف العي و الفساد أعاصهم فأعصاهم و أعتاهم فأعتاهم فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب فقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم و الضمير في أيهم عائد على المحشورين المحضرين.

قال ابن عباس عتياً، أي جرأة، و قال مجاهد فجراً، و قيل إفتراءً بلغة تميم و قيل عتياً، جمع عاتٍ فإنتصابه على الحال.

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا
لَمَا قَالَ فِي آيَةِ السَّابِقَةِ، أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا، وَيُمْكِنُ أَنْ
يَتَّوَهُم مَّتَّوَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَعْتَىٰ وَأَعَصَىٰ فَدَفَعَ هَذَا
التَّوَهُمَ بِقَوْلِهِ: ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا أَي نَحْنُ أَعْلَمُ
مَوَاضِعَهُمْ لِأَنَّا قَدْ أَحْطَيْنَا عِلْمًا بِكُلِّ وَاحِدٍ فَنَعْلَمُ مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ بِالنَّارِ مِمَّنْ لَيْسَ
كَذَلِكَ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَىٰ نَحْنُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَبْلَ إِيجَادِهِمْ فِي
الدُّنْيَا فَضْلًا مِنْ بَعْدِهِ وَقَوْلِهِ: صِلِيًّا، قِيلَ مَعْنَاهُ نَعْلَمُ أَوْلَىٰ بِالْخُلُودِ.
وَقَالَ الْكَلْبِيُّ صِلِيًّا، أَي دَخُولًا، وَقِيلَ لَزُومًا، وَقِيلَ جَمْعُ صَالٍ فَيُنْتَصَبُ
عَلَى الْحَالِ وَ، بِهَا، مُتَعَلِّقٌ بِأَوْلَىٰ وَهُوَ الْحَقُّ عِنْدَنَا.

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا
الضَّمِيرُ فِي وَارِدِهَا، عَائِدٌ إِلَىٰ جَهَنَّمَ فِي قَوْلِهِ: لِنُحْضِرَنَّ لَهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ
جِثْيًا وَكَلِمَةٌ (إِنْ) نَافِيَةٌ أَي لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَارِدُهَا، فَإِنَّ الْكِنَايَةَ فِي قَوْلِهِ
إِلَّا وَارِدِهَا، رَاجِعَةٌ إِلَىٰ جَهَنَّمَ بِلَا خِلَافٍ إِلَّا قَوْلُ مُجَاهِدٍ، فَإِنَّهُ قَالَ هِيَ كِنَايَةٌ عَنِ
الْحَمَىٰ وَالْأَمْرَاضِ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الْخِطَابُ لِلْكَافِرِ أَي قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ،
لَيْسَ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدِهَا فَيَكُونُ الْوُرُودُ فِي حَقِّهِمُ الدُّخُولُ، وَ أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ عَلَىٰ
أَنَّ الْخِطَابَ عَامٌّ يَشْمَلُ الْكُلَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ قَالُوا لَيْسَ الْوُرُودُ الدُّخُولُ بَلِ
الْمَرَادُ جَوَارِحُهُمْ عَلَى الصَّرَاطِ الَّذِي مَمْدُودٌ عَلَيْهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، قَدْ يَرُدُّ الشَّيْءُ وَلَمْ يَدْخُلْهُ كَقَوْلِهِ: وَ لَفَا وَرَدَ فَاءَ مَدِينٍ (١) وَ
وَرَدَتْ الْقَافِلَةُ الْبَلَدَ وَلَمْ تَدْخُلْهُ وَ لَكِنْ قَرِيبٌ مِنْهُ أَوْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ قَالَ الشَّاعِرُ:
فَلَمَّا وَرَدْنَا الْمَاءَ رِزْقًا حَمَامَةً وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ
وَ تَقُولُ الْعَرَبُ وَرَدْنَا مَاءَ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي كَلْبٍ إِذَا حَضَرُواهُمْ وَ دَخَلُوا
بِلَادَهُمْ وَ لَيْسَ يَرَادُ بِهِ الْمَاءُ بَعِيْنَهُ إِتْمَهِي.

و يمكن أن يستدل على العموم بقوله تعالى:

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا

فإن هذه الآية صريحة في المدعى و القرآن يفسر بعضه بعضاً، قال قتادة و
 يابن مسعود، ورودهم اليها هو ممرهم عليها، هذا ما قالوه في المقام.
 أقول أما الآية الأولى و هي قوله: **وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا.**
 فالظاهر أن الورد للكل بلا إستثناء و قوله: **كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا**
 يدل على أن الورد حق سبق به القضاء أي أن الله تعالى قضى بذلك و لا مرد
 لقضاه.

و أما الآية الثانية و هي قوله: **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا** فتدل على أن المتقين
 ينجيهم الله من العذاب و النجاة لا معنى لها إلا بعد الدخول فلو كان الورد
 بمعنى المرور عليها كما ذهب اليه بعضهم أو أكثرهم فلا معنى لقوله: **ثُمَّ نُنَجِّي**
الَّذِينَ اتَّقَوْا فإن النجاة بعد الوقوع في الهلكة لا قبله ظاهر و قوله: **وَ نَذَرُ**
الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا أي نبركهم فيها باركين على ركبهم، و هذا الكلام يؤيد ما
 ذكرناه كما لا يخفى على المتأمل و مما يدل على المختار ما رواه أبو صالح
 غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبي سمية قال إختلفنا في الورد فقال
 قوم لا يدخلها مؤمن و قال آخرون يدخلونها جميعاً: **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**
 فلقيت جابر بن عبد الله الأنصاري فسألته فأومى بإصبعيه الى أذنيه و قال
 صمتا أن لم أكن سمعت رسول الله يقول الورد و الدخول لا يبقى برّ فاجر إلا
 يدخلها فيكون على المؤمنين برداً و سلاماً كما كانت على إبراهيم أن للنار أو
 قال لجهنم ضجيجاً من بردها ثم ينجي الله الذين إتقوا و نذر الظالمين فيها
 جثياً إنتهى.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العاشر عشر

و روي عن النبي ﷺ أنه سأل عن المعنى فقال ﷺ: **أَنَّ اللَّهَ**
تَبَارَكَ وَ تَعَالَى يَجْعَلُ النَّارَ كَالسَّمَنِ الْجَامِدِ وَ يَجْمَعُ عَلَيْهَا الْخَلْقَ ثُمَّ

ينادي المنادي أن خذي أصحابك فالذي نفسي بيده لهي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها إنتهى.

وقال الصدوق عليه السلام في الإعتقادات أنه لا يصيب أحداً من أهل التوحيد ألم النار إذا دخلوها و أتمّما يصيبهم الألم عند الخروج منها فتكون الألام جزاءً بما كسبت أيديهم و ما الله بظلام للعبيد إنتهى.

أقول و فى بعض الأخبار أن الله تعالى لا يدخل أحداً الجنة حتى يطلعته على النار و ما فيها من العذاب ليعلم تمام فضل الله عليه و كمال لطفه و إحسانه إليه فيزداد لذلك فرحاً و سروراً بالجنة و نعيمها و لا يدخل أحداً النار حتى يطلعته على الجنة و ما فيها من أنواع النعيم و الثواب ليكون ذلك زيادة عقوبة له و حسرة على ما فاتته من الجنة و نعيمها و قد ورد في الخبر أن الحمى من قبح جهنم.

و روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد مريضاً فقال: أبشر أن الله عز وجل يقول الحمى هي نارٌ أسلّطها على عبده المؤمن في الدنيا لتكون حظّه من النار.

و عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الحمى رائد الموت و هي سجن المؤمن في الأرض و هي حظّ المؤمن من النار.

و في حديث آخر عنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحمى رائد الموت و سجن الله في أرضه و فورها من جهنم و هي حظّ كلّ مؤمنٍ من النار إنتهى.

و الأحاديث بهذه المضامين كثيرة و يستفاد من مجموعها أن لكل إنسان حظّ من النار و لعلّ السرّ في ذلك أن الوصول إلى اللذة و النعمة بعد النقمة و رؤية العذاب و لو في حقّ الكافر و الفاسق أحلى و ألدّ و هذا معنى قولهم تعرف الأشياء بأضدادها، فلا يعرف الغنى إلا بعد الفقر و لا الصّحة إلا بعد

المرض ألا ترى أن الغني إذا لم يكن غناه مسبوقاً بالفقر لا يعرف قدره الصحيح قدر الصحة و بالعكس وهذا هو السر في قوله و أن منكم إلا و اردها الخ.

وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا

قيل نزلت في النضر بن الحارث و أصحابه، كان فقراء الصحابة في خشونة عيش و المشركون يدهنون رؤوسهم و يرجلون شعورهم و يلبسون الحرير و فاخر الملابس فقالوا للمؤمنين أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً أي منزلاً و سكناً و أحسن ندياً أي مجلساً و لما قام الحجّة على منكري البعث و أتبعه بما يكون يوم القيامة أخبر عنهم أنهم عارضوا تلك الحجّة اللامغة بأموالهم و رفاهم في الدنيا و ذلك عندهم يدل على كرامتهم على الله و ذلك لأن الكافر يزعم أن الله تعالى ينعم في الدنيا على أهل الحق و أن أحب الخلق إليه تعالى المتنعمون الغائضون في اللذات و الشهوات و لم يعلموا أن الله يقول أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً فيقولون للفقراء نحن قد أنعم الله علينا دونكم فنحن أغنياء و أنتم فقراء و نحن أحسن مجلساً و أجمل شارة و المراد بالبينات المعجزات و البراهين و الحجج تكويناً و تشريعاً قال الله تعالى: **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ**^(١) و على هذا يصير معنى الآية إذا قرأت على المشركين أدلة الله الظاهرة و حججه الواضحة يقولون للذين صدقوا بذلك مستفهمين لهم و غرضهم الإنكار عليهم أي الفريقين خيرٌ مقاماً، أي منزل إقامة في الجنة أو في النار و أحسن ندياً أي مجلساً، فالندي المجلس الذي قد اجتمع فيه أهله فهم يفتخرون على المؤمنين بكثرة نعمهم و حسن أحوالهم و حال مجلسهم فقال الله تعالى في جوابهم.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العادي عشر

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِئِيًّا

أخبر الله تعالى في هذه الآية كثرة ما أهلك من القرون ممن كان أحسن حالاً منهم في الدنيا تنبيهاً على أنه تعالى يهلكهم ويستأصل شأفتهم كما فعل ذلك بغيرهم من المترفين الذين كانوا قبلهم، وإتعاظاً لهم إن كانوا ممن يتعظ أنه لم يغن عنهم ما كانوا فيه من حسن الأثان والرأي وقوله: مِنْ قَرْنٍ تبيين لقوله: وَكَمْ وَهِيَ أَي، كم، مفعول لقوله: أَهْلَكْنَا.

قال صاحب الكشاف وتبعه أبو البقاء وَهُمْ أَحْسَنُ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ صفة، لكم، وهذا الكلام مخالف لقول الجمهور وذلك لِأَنَّ النَّحْوِيِّينَ إِنْتَفَقُوا عَلَى أَنَّ كَمْ الْإِسْتِفْهَامِيَّةُ وَالْخَبْرِيَّةُ لَا تُوصَفُ وَلَا يُوصَفُ بِهَا وَعَلَى هَذَا يَكُونُ، هَمْ، أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِئِيًّا، فِي مَوْضِعِ الصَّفَةِ لِقَرْنٍ وَجَمْعٌ لِأَنَّ الْقَرْنَ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَفْرَادٍ كَثِيرَةٍ فُرُوعِيٌّ مَعْنَاهُ وَلَوْ أَفْرَدَ الضَّمِيرُ عَلَى اللَّفْظِ لَكَانَ عَرَبِيًّا فَصَارَ كَلْفِظٍ جَمِيعٍ قَالَ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحَضَّرُونَ وَقَالَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُتَّصِرٌ، فَوَصَفَهُ بِالْجَمْعِ وَبِالْمَفْرَدِ ثُمَّ أَنَّ الْجُمْهُورَ قَرَأَهُ وَرِئِيًّا بِتَقْدِيمِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْيَاءِ مِنْ رُؤْيَةِ الْعَيْنِ

وقال ابن عباس الرئي المنظر وقال ابن الأحمر واحد الأثان أثانة كحمام و حمامة وقال أفراء لا واحد له وتجمع على أثة وأثث ويجوز في، رثيا، ثلاثة أوجه في العربية، رءياً، بالهمز قبل الياء، ورءياً، بياء قبل الهمزة، ورئياً، بترك الهمزة في قول الزجاج قيل ويجوز أن يكون من الرأي، كقوله:

أهاجتك الصغائن يوم بانوا
بذي الرئي الجميل من الأثان

أقول في هذه الآية إشارة إلى أن الدنيا وما فيها من النعم في معرض الفناء وما كان كذلك لا يعتمد عليه فلا ينبغي للعاقل أن يفتخر بها على غيره شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

رأيت خيال الظل أعظم عبرة
شخصاً وأصواتاً يخالف بعضها
لمن كان في علم الحقائق راقياً
لبعض وأشكالاً بغير وفاق
وتجى و تمضي بابة بعد بابة
وتفنى جميعاً والمحرك باقى

وقال الآخر:

ما أنعم على عبده بنعمة أوفى من العافية
 وكلّ من عوفي في جسمه فأنه في عيشة راضية
 و المال حلّو حسنٌ جيّدٌ على الفتى لكّنه عارية
 ما أحسن الدنيا و لكّنها مع حسنها غدارة فانية
 أين الأمم الماضية أين الملوك السالفة
 أين القرون الخالية

أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان
 أين الذين قهروا الأبطال و الشجعان
 أين الذين دانت لهم المشارق و المغرب
 أين الذين تمتّعوا بالذات و المشارب
 أين الذين تاهوا على الخلائق كبراً و عتياً

أين الذين راحوا في الحلل بكرّة و عشياً
 مقيمٌ بالحجون رهين رمسٍ و أهلي راحلون بكلّ وادٍ
 كآتي لم أكن لهم حبيباً و لا كانوا الأحبة في السواد
 فعوجوا بالسّلام فأن أبيتهم فأمّوا بالسّلام على البعاد
 قال بعض العرفاء لا فخر فيما يزول و لا غنى فيما لا يبقى و هل الدنيا إلا
 كما قال بعض الحكماء المتّقدين، قدرّ يغلي، و كيف يملي، قال الشّاعر:

ولقد سألت الدّار عن أخبارهم فتبسّمت عجباً ولم تبدي
 حتّى مهرت على الكنيف فقال لي أموالهم و نوالهم عندي

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا

أي قل يا محمد لهؤلاء الكفّار من كان في الضلالة عن الحقّ و إتباعه،
 فليمدد له الرّحمن مدداً، المدّ في الأصل الجرّ و منه المدة للوقت الممتدّ يقال

مددته في غيِّه و أمددت الجيش بمدد و الإنسان بطعام و أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب و المدّ في المكروه.

قال الله تعالى: **وَ أَمَدَدْنَاهُمْ بِغَايَةِهَا وَ لَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ^(١).

قال الله تعالى: **أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَنِينَ وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ** ^(٢).

قال الله تعالى: **يُفِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ** ^(٣).

قال الله تعالى: **كَلَّا سَنَخْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا** ^(٤).

قال الله تعالى: **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَ بَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ** ^(٥).

قال الله تعالى: **وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ^(٦).

قيل و أنّما ذكر بلفظ الأمور ليكون أكد كأنه أزم نفسه إلزاماً كما يقول القائل، أمر نفسي، و يمكن أن يكون أراد فليمدد له الرّحمن مدداً في عذابهم في النار كما قال: **وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا** ^(٧).

و الحاصل أنّ المدّ إمّا في الدنيا و إمّا في الآخرة من حيث العذاب و كيف كان فهو من ثمرات الضلالة أعادنا الله منها.

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أضعفُ جُنْدًا أي لا يبرحون يقولون هذا القول و يتولعون لا يتكافون عنه إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين إمّا العذاب في الدنيا و هو غلبة المسلمين عليهم و تعذيبهم إياهم قتلاً و أسراً و إظهار الله دينه على أيديهم، و إمّا يوم القيامة و ما ينالهم من الخزي و النكال فحينئذ يعلمون عند

١- الطور = ٢٢

٢- الشعراء = ١٣٣

٣- آل عمران = ١٢٥

٤- مريم = ٧٩

٥- المؤمنون = ٥٥

٦- البقرة = ١٥

٧- مريم = ٨٠

المعاينة أنّ الأمر على عكس ما قدّروه و أنّهم شرّ مكاناً و أضعف جنداً لا خيرٍ مقاماً و أحسن ندياً و أنّ المؤمنين على خلاف صفتهم هكذا فسّره بعض المفسّرين.

و قال في التّبيان ما هذا لفظه و قوله: **حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ أَي** شاهدوا ما وعدهم الله به **إِمَّا أَلْعَذَابَ** و العقوبة على المعاصي و **إِمَّا الْقِيَامَةَ** و المجازاة لكلّ أحدٍ على ما يستحقه، فسيعلمون حينئذٍ و يتحقّقون من هو شرّ مكاناً و أضعف جنداً، الكفّار أم المؤمنين و في ذلك غاية التّهديد في كونهم على ما هم عليه إنتهى كلامه.

أقول و الذي نفهم من الأيتين هو أنّ الله تعالى يدعهم في طغيان جهلهم و كفرهم فقوله: **فَلْيُمَدِّدْ**، لفظه لفظ الأمر و معناه الخبر أي من كان في الضّلالة مدّه الرّحمن مدّاً حتّى يطول إغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه فهو نظير قوله: **إِنَّمَا نُقَالِي لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا**^(١) أي فليعش ما شاء و ليوسع لنفسه في العمر فمصيره إلى الموت و العقاب، حتّى إذا رأوا ما يوعدون إمّا العذاب في الدنّيا و إمّا السّاعة فيصيرون إلى النّار فسيعلمون هناك من هو شرّ مكاناً و أضعف جنداً، أي تنكشف حينئذٍ الحقائق و هذا في الحقيقة ردٌّ على قولهم، أيّ الفريقين خيرٌ مقاماً و أحسن ندياً.

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَ آلْبَاقِيَاتُ الصّٰلِحٰتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ مَّرَدًّا

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ يَمُدُّهُ فِي طُغْيَانِهِ وَ كُفْرِهِ وَ جَهْلِهِ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي اهْتَدَوْا بِأَنَّهُ يَزِيدُ فِي إِيْمَانِهِمْ وَ أَنَّ مَا يَبْقَى مِنْهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ

مردداً، و المراد بالزيادة لهم فيه أن يفعل بهم الألفاظ التي يستكثرون عندها الطاعات بما يبيّن لهم من الأمور التي تدعوهم إلى أفعال الخيرات و أن شئت قلت يزيد في توفيقهم و حتّمهم على الخيرات و ذلك لأنهم آمنوا باللّه و رسوله و عملوا الصّالحات و تركوا المعاصي قال الله تعالى في قصّة أصحاب الكهف:

إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى (١).

قال الله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ (٢).

قال الله تعالى: مَنْ يَفْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا (٣).

قال الله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (٤) و الأيات كثيرة.

و قوله: خَيْرٌ مَرَدًّا، أي خير نعيماً ترده الباقيات الصّالحات على صاحبه أي يرجع خيرها إليه و اختلفوا في معنى المراد بقوله و الباقيات الصّالحات فقال قوم هي فعل جميع الطّاعات و إجتناّب المعاصي و قيل هي قوله سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر و لله الحمد.

و روي عن أبي عبد الله عليه السلام الباقيات الصّالحات القيام آخر الليل لصلاة الليل و الدّعاء في الأسحار و قيل غير ذلك من الإذكار و الأفعال و الحق أن المراد بها جميع الأفعال و الأقوال الحسنّة التي تبقى آثارها في الدّنيا و يترتب عليه الثّواب في الآخرة و سميت بها لأن منافعها تبقى في الدّنيا و تنفع كالولد الصّالح و السّنة الحسنّة و الأبنيّة التي يتتفع بها بعد موته كالمدارس و الحّمّامات و دار الأيتام و الموقوفات و غير ذلك و بالجملة كلّ الخيرات و المبرّات، خير ثواباً، في الآخرة و خير مرده الباقيات الصّالحات على صاحبه و بعبارة أخرى خير من حيث العاقبة.

٢- الشورى = ٢٠

٤- النساء = ١٧٣

١- الكهف = ١٣

٣- الشورى = ٢٣

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَمْ وَأَوْ كَدًّا

قيل نزلت في العاص بن وائل عمل له خباب بن الأثر عملاً وكان متيناً فاجتمع له عنده دينٌ فتقاضاه فقال لا أنصفك حتى تكفر بمحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال خباب لا أكفر بمحمدٍ حتى يميتك الله وبيعتك فقال العاص أو مبعوث أنا بعد الموت فقال خباب نعم قال فأت إذا كان ذلك فسيكون لي مال و ولد و عند ذلك أقضيك دينك و قال الحسن نزلت في الوليد بن المغيرة و قد كانت للوليد أيضاً أقوال تشبه هذا الغرض و كيف كان ما نعرض عنه الإستهزاء بالدين.

ورد في الحديث أنه قال أو أستم تزعمون أن في الجنة الذهب و الفضة و الحرير قال خباب بلى قال فموعد بيني و بينك الجنة فو الله لأوتين فيها خيراً مما أوتيت في الدنيا.

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

الهمزة في، أَطَّلَعَ، الإستفهام و لذلك عادلتها، أم، و قرئ بكسر الهمزة في الابتداء و حذفها في الوصل على تقدير حذف همزة الإستفهام للدلالة، أم، عليها كقول الشاعر:

بسبعٍ رمين الجمر أم بثمانٍ

يريد، أبسبع، فعلى القراءة الأولى حذف همزة الفعل و بقيت همزة الإستفهام و التقدير، ءأَطَّلَعَ الغيب، و على الثانية حذف الإستفهام و بقيت همزة الفعل و أكثر المفسرين إختاروا القراءة الأولى و عليها المصاحف.

و المعنى أن ما إدعى أن يؤتاه و تألى عليه لا يتوصل إليه إلا بأحد الطريقين إما علم الغيب، و إما عهد من عالم الغيب فبأيها توصل إلى ذلك، و العهد قيل هي كلمة الشهادة و قيل المراد، هل عهد الله إليه أن يؤتیه ذلك و من المعلوم أن كل واحدٍ منهما منتفٍ في حق القائل و لذلك.

قال تعالى: **كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**
 كلاً حرف ردع وفيه تنبيه على الخطأ الذي هو مخطئي فيما تصوّره لنفسه و
 يتّمناه فليرتدع عنه و كني بالكتابة عمّا يترتب عليها من الجزاء فلذلك دخله
 السّين للإستقبال أي سنجازيه على ما يقوله و المعنى ليس الأمر كما زعمه و
 تصوّره لنفسه سنكتب ما يقول في صحيفة عمله و نمدّ، أي نطول له من
 العذاب الّذي يعدّب به المستهزؤون أو نزيده من العذاب و نضاعف له المدد و
 الغرض إنّنا نحرّمه ما يتّمناه من الولد و المال و نجعله لغيره هكذا قيل و قال
 الكلبي نجعل ما يتّمنى من الجنّة لغيره.

وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَرْدًا

اي نرثه نحن المال و الولد بعد إهلاكنا إيّاه و إبطالنا ما ملّكناه و يأتينا فرداً،
 أي يجيئنا فرداً يوم القيامة لا أحد معه.
 و قال بعضهم، نرثه ما يقول، معناه نحفظه عليه و منه قوله العلماء ورثة
 الأنبياء أي حفظة ما قالوه و قوله فرداً، يدلّ على ذلّته و أنّه لا ناصر له و لا
 معين.

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا

و الضمير في، و إتخذوا عائد على الكفار و عبدة الأصنام و هم الّذين
 إتخذوا غير الله، آلهة ليكونوا أي الآلهة، لهم عزّاً، يتغرزون بها في النّصرة و
 المنغصة و الإنقاذ من العذاب أما اللّام في، ليكُونُوا، لام، كي و قد تسمى بلام
 العاقبة و في هذا الكلام تنبيه على أنّ المعبود يكون عزّاً للعابد و هو كذلك قال
 أميرالمؤمنين عليه السلام: **كَفَى بِي عِزًّا أَنْ تَكُونَ لِي رَبًّا** فما لا يكون عزّاً للعابد لا
 ينبغي أن يعبد لأنّ العاقل لا يخضع و لا يعبد ما ليس كذلك و من المعلوم أنّ
 معطي الشّي لا يكون فاقداً له فالمعبود الّذي يكون عزّاً لغيره لا بد له من أن

يكون عزيزاً في نفسه و ما سوى الله كأننا ما كان لا عزة له في نفسه فكيف يكون عزاً لغيره و إنما قلنا ذلك لأن العزة ثابتة لله تعالى فقط و أما غيره فهو عزيزٌ به تعالى و إذا كان كذلك فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات كيف يعبد الجمادات و الأخشاب التي لا حياة لها فضلاً عن الأوصاف بل الحق الذي لا مرثية فيه أنه لا ينبغي إطلاق الإنسان على من كان كذلك حقيقة كما أشار الله تعالى بقوله:

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا

أي ليس الأمر كذلك سيكفرون هؤلاء الكفار، بعبادتهم، الآلهة يوم القيامة، إما بانكارهم العبادة إياهم لما يرون من سوء عاقبتها فيقولون ما عبدناهم، وإما بتيسير عنهم كما قال الله تعالى حكاية عنهم، تَبَرُّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِثْنَا يَعْبُدُونَ^(١) أي ما كانت عبادتهم لنا بأمرنا وإرادتنا و إنما عبدونا من عند أنفسهم و قوله: يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا أي عوناً في خصومتهم و تكذيبهم.

و قال قتادة يكونون قرنائهم في النار يلعنونهم و يتبرؤون منهم فالضمير في يَكُونُونَ يَصِحُّ أن يعود الى العابدين و أن يعود الى المعبودين فعلى الأول يكون العابد ضد المعبود و على الثاني بالعكس و المقصود كل واحد من العابد و المعبود يتبرأ من الآخر و يكون ضداً و مخالفاً له.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا

قال المفسرون، أرسلنا، في الآية بمعنى، سَلَطْنَا، أي ألم ترى يا محمد إننا سَلَطْنَا الشَّيَاطِينَ على الكافرين يؤزهم أزًّا، أي تزعجهم إزعاجاً، و المراد بتسليطه الشَّيَاطِينَ على الكفار هو أنه تعالى خلَّى بين الشَّيَاطِينَ و بين الكفار حتى أغوهم و لم تحل بينهم بالإلجاء و بالمنع و عبّر عن ذلك بالإرسال على

ضرب من المجاز وذلك مثل قوله: فَيُفْسِكُ أَلْتِي قَضَى عَلَيْهَا أَلْمُوتَ وَ يُرْسِلُ أَلْأَخْرَجَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمَى (١).

فقول بعض المفسرين معناه تحركهم إلى الكفر لا معنى له أن أرادوا به الإلجاء وأن أرادوا به الوسوسة أي أن الشيطان يوسوهم إلى الكفر فلا إشكال فيه وذلك لأن الشيطان لا يقدر على الإجبار والإلجاء بمعنى سلب الاختيار عن العبد وإلى ذلك أشار من قال أن معنى الكلام تغريهم على المعاصي و تهيجهم لها بالوساوس والتسويلات وعلى هذا فالمعنى خلبنا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم.

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا

الخطاب في قوله، فلا تعجل، لرسول الله ﷺ أي لا تعجل يا محمد بالعذاب والهلاك إنما نعدُّ لهم، أي لهؤلاء الكفار، عدًّا، أي جعلنا لهلاكهم موعداً معيناً فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أياماً محصورة وأنفاس معدودة لأنها في سرعة تقضيها الساعة التي تعدُّ فيها لوجدت، وقيل نعدُّ أعمالهم لنجازيهم، وقيل آجالهم فإذا جاء أحللتنا العقوبة بهم، وقيل أيامهم التي سبق قضاؤها أن نهلهم إليها والمعاني متقاربة وأن كانت الألفاظ مختلفة ونشر إلى بعض ما ورد في تفسير هذه الآيات فنقول:

روي في تفسير القمي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً أَي يَكُونُونَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمُ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ضِدًّا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَيَتَّبِرُونَ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسَتِ الْعِبَادَةُ هِيَ السَّجُودُ الرَّكُوعُ وَأَمَّا هِيَ طَاعَةُ الرَّجَالِ مِنْ أَطَاعِ مَخْلُوقاً فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ فَقَدْ عُبِدَهِ وَقَوْلُهُ: أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمُ أَرْأَ

قال عليه السلام: لَمَّا طغوا فيها و في فتنتها طاعتهم مدَّ لهم في طغيانهم و ضلالهم أرسل إليهم شياطين الإنس و الجنَّ تُؤزَّهُم أزًّا، أي تنخسهم نخساً و تحضهم على طاعتهم و عبادتهم فقال الله تعالى: **فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا** أي في طغيانهم و فتنتهم و كفرهم إنتهى.

و في الكافي بأسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عزَّ و جلَّ **إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُم عَدًّا**، قال عليه السلام: ما هو عندك قلت عدد الأيام قال عليه السلام **أَنَّ الْأَبَاءَ و الْأُمَّهَاتِ** يحضون ذلك و لكنَّه عدد الأنفاس إنتهى.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا

أي أذكر يا محمد يوم نحشر المتقين الذين إتقوا معاصي الله و فعلوا طاعاته إلى الرحمن وفداً، أي ركبناً في قدومهم و وعدَّ لأنَّه مصدر وفد، و الوفد مشعرٌ بالإكرام و التبجيل ما يفد الوفود على الملوك منتظرين للكرامة عنده، و قيل على نوقٍ رحالها ذهب و على نجائب سرجها ياقوت و قيل أنهم يؤتون بنوقٍ لم يرمثلها عليها رحال الذهب و أزقتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يصلوا الى أبواب الجنة، و قيل معناه، يحشرهم الله جماعة و أتما قالوا ذلك لأنَّ الوفد يطلق على الجماعة و روي أنه يركب كلُّ أحدٍ منهم ما أحب من إبلٍ أو خيلٍ، و شبَّهوا بالوفود لأنَّهم سرة الناس و أحسنهم شكلاً و ليست وفادة حقيقية لأنَّها تتضمَّن الأطراف من الموفود عليه و هو لاء ليس لهم إنصراف بل مقيمون أبداً في ثواب ربهم الجنة.

في أصول الكافي بأسناده عن أبي الجارود قال: قال أبو جعفر رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم **أنا أوَّل وافِدٍ على العزيز الجبار يوم القيامة** و كتابه و أهل بيتي ثمَّ أمّتي ثمَّ أسألهم ما فعلتم بكتاب الله و أهل بيتي إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله قال عليه السلام:
 سألت علي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله عز وجل: **يَوْمَ نَخْشُرُ
 الْمُتَّقِينَ إِلَى الْرَحْمَنِ وَفَدًا** قال صلى الله عليه وسلم: يا علي الوفد لا يكون إلا
 ركباناً أولئك الرجال إتقوا الله عز وجل فأحبهم وإختصهم و
 رضى أعمالهم فسمّاهم الله متقين ثم قال صلى الله عليه وسلم: يا علي أما والذي
 فلق الحبة و برئ النسمة أنهم ليخرجون من قبورهم و بياض
 وجوههم كبياض الثلج عليهم ثياب بياضها كبياض اللبن عليهم
 نعال الذهب شركاها من لؤلؤ يتلأأ إنتهى.

و في حديث آخر أن الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق الجنة عليها
 رحائل الذهب مكلّة بالدر و الياقوت و جلالها الإستبرق و السندس
 و خطامها جذل الأرجوان و أزقتهم من زبرجد فينظر بهم الى
 المحشر مع كل رجل منهم ألف ملك من قدامه و من يمينه و من
 شماله يزفونهم حتى ينتهوا بهم الى باب الجنة الأعظم و على باب
 الجنة شجرة الورقة منها يستظل تحتها مائة ألف من الناس و عن
 يمين الشجرة عين مطهرة مكوكبة يسقون منها شربة فيطهر الله
 قلوبهم من الحسد و يسقط عن أبشارهم الشعر و ذلك قوله عز
 وجل: **وَسَقِيَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا** ^(١) من تلك العين المطهرة ثم
 يرجعون الى عين أخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون منها و هى
 عين الحياة فلا يموتون أبداً، ثم قال عليه السلام يوقف بهم قدام العرش و
 قد سلموا من الأفات و الأسقام و الحرّ و البرد فيقول الجبار جل
 ذكره للملائكة الذين معهم أحشروا أوليائي الى الجنة و لا تفقهوم
 مع الخلائق قد سبق رضائي عنهم و وجبت لهم رحمتي فكيف أريد
 أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات و السيئات فيسوقهم الملائكة الى

الجَنَّةَ فَإِذَا إِنْتَهَوْا إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ الْأَعْظَمِ ضَرَبُوا الْمَلَائِكَةَ الْحَلْقَةَ ضَرْبَةً فَتَصِيرُ صَرِيرًا فَيَبْلُغُ صَوْتُ صَرِيرِهَا كُلِّ حَوْرَاءٍ خَلْقَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْدَهَا لِأَوْلِيَاءِهِ فَتَبَاشَرُوا إِذْ سَمِعُوا صَوْتُ صَرِيرِ الْحَلْقَةِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ قَدْ جَاءَنَا وَلِيَاءُ اللَّهِ فَيَفْتَحُ لَهُمُ الْبَابَ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيَشْرَفُ عَلَيْهِمْ أَزْوَاجُهُمْ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَالْأَدَمِيِّينَ فَيَقْلُنَ مَرْحَبًا بِكُمْ فَمَا كَانَ أَشَدَّ شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَيَقُولُ لَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا عَلِيُّ هَؤُلَاءِ شَيْعَتُكَ الْمَخْلُصُونَ فِي وَلايَتِكَ وَأَنْتَ إِمَامُهُمْ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: **يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا عَلَى الرَّسَائِلِ** إِنْتَهَى تَفْسِيرُ نُورِ الثَّقَلَيْنِ ^(١).

وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا

النَّسُوقُ بفتح السين الحث على السير ساقه يسوقه سوقاً فهو سائق ومنه السَّاق لِإِسْتِمْرَارِ السَّيْرِ بِهَا السُّوقُ بضم السين لأنه يساق به البيع والشراء شيئاً بعد شيء، قال الفراء يسوقهم مشاة وقال الأحفش عطاشاً، وقيل أفراداً ومعنى ورداً، عطاشاً، لأنَّ الورد العطاش قاله ابن عباس ولما كان من يرد الماء لا يرده إلا العطش أطلق الورد على العطاش تسميةً للشيء بسببه ولما أشار الله تعالى بقوله يوم نحشر المتقين، الآية أتبعها بذكر المجرمين وقال نسوق المجرمين الآية، وقوله ورداً نصب على المصدر والتقدير فيردون ورداً ونقل عن ابن عباس أنه قال، الورد الإبل العطاش، وقيل، ورداً منصوب على الحال أي حال كونهم مشاة عطاشاً، و أنما قال في المتقين نحشر وفي المجرمين نسوق لأنَّ المجرم بمنزلة الحيوان وكلمة السَّوق كثيراً ما تقال في الحيوانات يقال ساق الإبل إلى كذا ومنه السَّائق فكأنَّ المجرمين الذين في رأسهم الكفار جعلوا بمنزلة الحيوان والوجه فيه ظاهر.

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

قيل المراد بالعهد العمل الصالح و عليه فموضع، من، نصب على أنه استثناء منقطع لأن المؤمن ليس من المجرمين و قد قيل أنه نصب على حذف اللام بمعنى لا يملكون المتقون الشفاعة إلا لمن إتخذ عند الرحمن عهداً، و العهد على هذا هو الإيمان و الإقرار بوحديته و تصديق أنبياءه فأَنَّ الكفار لا يشفع لهم و نقل عن الفراء أنه قال من، في موضع رفع بدلاً من الواو و التّون في قوله: لَا يَمْلِكُونَ، و المعنى لا يملك الشفاعة إلا من إتخذ عهداً، و هو الإيمان.

و قال الزّمخشري، الواو في (لَا يَمْلِكُونَ) أن جعل ضميراً فهو للعباد و دلّ عليه ذكر المتقين و المجرمين لأنهم على هذه القسمة و يجوز أن تكون علامة للجمع كالتي في قولهم، أكلوني البراغيث، و الفاعل من إتخذ، لأنه في معنى الجمع و محلّ، من، إتخذ، رفع على البدل أو على الفاعلية و يجوز أن ينصب على تقدير حذف المضاف أي إلا شفاعة من إتخذ، و المراد لا يملكون أن يشفع لهم و إتخاذ العهد الإستظهار بالإيمان و العمل و عن ابن مسعود أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح و مساءً عند الله عهداً قالوا و كيف ذلك قال ﷺ يقول كل صباح و مساءً اللهم فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أني أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك و أنّ محمداً عبدك و رسولك و أنّك إن تكلمني إلى نفسي تقريني من البشر و تباعدني من الخير و أنّي لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيهِ يوم القيامة أنّك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع و وضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الرحمن عهدٌ فيدخلون الجنة و قيل كلمة الشهادة من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به أي لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها و تعضده مواضع في التنزيل إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكره الزمخشري في المراد بالعهد لا يمكن المساعدة عليه على إطلاقه وذلك لأن الحديث الذي ذكره هو وغيره من المفسرين يدل على أن من قال كل صباح و مساء اللهم فاطر السموات والأرض إلى آخره هو في عهد الله فيدخل الجنة ولو كان القائل به معاوية و يزيد و عبد الملك و أمثالهم من الظلمة و هذا مما لا يقبله العقل السليم هذا أولاً.

ثانياً: ليس البحث في دخول الجنة و عدمه و أنما البحث في الشفاعة و أنه من يملكها يوم القيامة و الحديث الذي نقلوه عن ابن مسعود عن رسول الله على فرض صحته لا يدل على أن صاحب العهد يملك الشفاعة بل يدل على أنه يدخل الجنة و لا كلام لنا فيه و بعبارة أخرى دلت الآية على أن مالك الشفاعة من يتخذ عند الرحمن عهداً، و أين هذا مما يستفاد من الحديث و الذي نفهم من الآية و نعول عليه بقرينة السياق هو أن الله تعالى ذكر في هذه الآيات أن الكفار قالوا كذا و كذا فمن قوله تعالى: **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا إِلَى قَوْلِهِ: وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا،** في شأن الكفار و المشركين إلا قوله يوم نحشر المتقين إلى الرحمن و فداً، و حيث أن الكفار كانوا يزعمون أن هؤلاء الأصنام و الأوثان يشفعون لهم عند الله كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: **وَ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ** (١) فلذلك قال في المقام لا يملكون الشفاعة إلا من يتخذ عند الرحمن عهداً، رداً عليهم و أن الشفاعة تحتاج إلى عهد من الله و على هذا فلا يبعد أن يكون المراد بالعهد الإذن من الله تعالى و يدل عليه قوله:

قال الله تعالى: **وَ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** (٢).

قال الله تعالى: **لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ** (٣).

قال الله تعالى: **لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ** (٤).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

و غيرها من الآيات الدالة على أنّ الشفاعة لا تكون إلا بأذنه تعالى هذا كله بالنسبة إلى الشّافعين ويستفاد من الآيات والأخبار أنّ المشفوعين أيضاً كذلك:

قال الله تعالى: **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ أُرْتَضَى** ^(١).

قال الله تعالى: **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ^(٢).

والحاصل أنّ المستفاد من الآيات هو أنّ الشّافع والمشفوع تحت قدرة الله و إختياره وأنهما لا يكونان إلا بإذنه وهذا هو العهد المذكور في الآية والله أعلم.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا

قرأ الكسائي و نافع تكادُ بالياء و الباقون بالتاء و قرأ الكسائي و حفص يتفطرنُ بياء و تاء من تَطَّر و الباقون يتفطرنُ، من إنفطر.

أخبر الله تعالى في الآية بأنهم أي الكفار قالوا إتخذ الرحمن ولداً، كما قالت النصارى أنّ المسيح ابن الله و قالت اليهود عزيز ابن الله و قال بعض الكفار أنّ الملائكة بنات الله فقال الله تعالى على وجه القسم، لقد جئتم شيئاً إداً، أي لقد جئتم بهذا القول منكرأ عظيماً.

قال الراغب في المفردات إداً، أي أمراً منكرأ يقع فيه جلبة من قولهم أدت الناقة تتدُ أي رجعت حنيتها ترجيعاً شديداً و الأديد الجلبة، تكاد السّموات يتفطرن منه.

قال ابن عباس أي فزعت منه السّموات و الأرض و الجبال و جميع الخلائق و كد أن يزلن منه تعظيماً لله تعالى، و قيل تكاد السّموات يتفطرن أي تسقط عليهم و تنشق الأرض أي تخسف بهم و تخر الجبال هداً أي تنطبق عليهم.

وقال أبو مسلم تكاد تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول و
إنتصب هدأً، على المصدر لأن معنى، تَخَرَّ مِنْهُنَّ فقوله: تَخَرُّ الْجِبَالُ هَدَأً أَي
تنهد الجبال هدأً.

وقال الزمخشري فأن قلت ما معنى إنفطار السَّمَوَاتِ و إنشقاق الأرض و
خروج الجبال و من أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات.

قلت فيه وجهان:

أحدهما: أَنَّ اللَّهَ يقول كدت أفعل هذا بالسَّمَاوَاتِ و الأرض و الجبال عند
وجود هذه الكلمات غضباً مِنِّي على من تفوه بها لولا علمي و وقاري و أتني لا
أعجل بالعقوبة كما قال أَنَّ اللَّهَ: يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ و الْأَرْضَ.

الثاني: أن يكون إستعظاماً للكلمة و تهويلاً من فظاعتها و تصويراً لأثرها في
الدين و هدمها لأركانها و قواعده و أَنَّ مثال ذلك الأثر في المحسوسات أن
يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم ما تنفطر منه و تنشق و تخر
إنتهى.

وقوله: وَ مَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَكْدًا، فقد تكلمنا فيه سابقاً و قلنا
أَنَّ الولد من شئون الجسم و لوازمه و هو تعالى منزّه عن هذه الأمور ما ثبت في
محله.

أقول الحقَّ أَنَّ الكلام في هذه الآيات خرج مخرج المثل و هذه طريقة
للعرب مشهورة في المبالغة كما يقولون، هذا كلامٌ يَفْلُقُ الصَّخْرَ و يهدّ الجبال و
يصرع الطير و يستنزل الوعول و ليس ذلك بكذبٍ منهم بل المعنى أَنَّهُ لحسنه
و بلاغته يفعل مثل هذه الأمور لو تأتت:

قال الله تعالى: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا
مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ^(١).

و معنى الكلام إنا لو أنزلنا القرآن على جبلٍ و كان الجبل ممّا يتّصدع إشفاقاً من شيءٍ أو خشيةً لأمرٍ، لتّصدع مع صلابته و قوته فكيف بكمم يا معاشر المكلفين مع ضعفكم و قلتكم و أنتم أولى بالخشية و الإشفاق، و هكذا ما نحن فيه فالمعنى لو كانت السموات ممّا يتفطرن و الأرض ممّا ينشق و الجبال ممّا ينهد، لكانت السموات و الأرض و الجبال تتّصف بتلك الأوصاف من فظاعة هذا الكلام و ركابته و أي كلام أقطع و أقيح من هذا القول الشنيع قال الشاعر:

أما و جلال الله لو تذكّرني
كذكراك ما نهنت للعين مدمعاً
فقلت بلى و الله ذكراً لموانه
تضمّنه صمّ الصفا لتّصدعا
و قال الآخر:

وقفت على ربح لميّة ناقتي
فما زلت أبكي عنده و أخاطبه
و أسقيه حتىّ كاد ممّا أبته
تكلّمني أحجاره و ملاعبه
و قال الآخر:

فلو أنّ مابي بالحصى فلق الحصى و بالزّيح لم يسمع لهنّ هبوب
قال في التّبيان، قال قوم المعنى لو كان شيءٌ يتفطر إستعظماً لما يجري من الباطل لتفطرت السموات إستعظماً لما يضيفونه إلى الله تعالى من إتخاذ الولد و تنشق الأرض و تخرّ الجبال هدأ.

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا

إن، نافية أي ليس كلّ موجودٍ في السموات و الأرض إلاّ و هو عبدٌ للرحمن و مخلوق له و قال بعض المفسّرين المراد العقلاء و قوله من، يدلّ عليه لأنّ كلمة من، لا تستعمل إلاّ في ذوي العقول كما أنّ ما، يشمل الجميع قال الله: لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو يشتمل الجميع.

ثانياً: أنّ العبد لا يطلق على غير ذوي العقول فيصير معنى الكلام أنّ جميع ذوي العقول عبيدٌ له و الوجه فيه ظاهر لأنّ الله تعالى خلقهم و أوجدهم من

العدم والمخلوق عبداً لخالقه قهراً وهذه الآية في الحقيقة ردٌ على اليهود والنصارى وغيرهم ممن إتخذوا المخلوق آلهة كقولهم في المسيح وعزير ولم يعلموا أنّ المسيح قد أقرَّ بعبوديته له تعالى حيث قال: **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ اتَّبَعْتُ** **الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**^(١) ومحصل الكلام أنّ ما سوى الله كائناتٌ ما كان لا يستحق أن يكون معبوداً وهو ظاهرٌ.

لَقَدْ أَحْصَيْتُهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

اي علم تفاصيلهم وأعدادهم فكأنه عدّهم لا يخفى عليه شيء من أحوالهم والدليل عليه أنه تعالى خلقهم وأوجدهم ولا يعقل أن يكون الخالق جاهلاً بما خلقه مضافاً إلى أنّ العلم في الواجب عين ذاته علّة لإيجاد ما سواه فعلمه بذاته علّة لعلمه بمعلوله بل نقول علمه بذاته هو عين العلم بمعلوله قال الله تعالى: **وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**^(٢).

ثالثاً: لو لم يكن عالماً لكان جاهلاً لعدم الوساطة بين العلم والجهل والجهل نقصٌ والنقص من شئون الممكن وهو تعالى واجب الوجود فلو كان جاهلاً يلزم أن يكون ممكناً وقد ثبت أنه واجب وهذا خلفٌ:

قال الله تعالى: **وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**^(٣).

قال الله تعالى: **وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**^(٤).

قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ**^(٥).

والآيات الدالة على عموم علمه كثيرة هذا كله مضافاً إلى أنه يرزقهم والرازق كيف يكون جاهلاً بمرزوقه والأمر أوضح من أن يخفى على أحد.

١- مريم = ٣٠

٢- الطلاق = ١٢

٣- آل عمران = ٢٩

٤- الأنعام = ٥٩

٥- لقمان = ٣٤

وَكُلُّهُمْ أْتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا

لا أحد معه ولا ناصر له ولا معين لأن كل أحد مشغول بنفسه لا يهتمه هم غيره وقد ورد أن فاطمة عليها السلام قالت لأبيها يا أبت أخبرني كيف يكون الناس يوم القيامة قال صلى الله عليه وسلم يفاطمة يشغلون فلا ينظر أحد إلى أحد ولا والد إلى الولد ولا ولد إلى أمه الحديث.

وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ** ^(١).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا

لاشك أن السنين للإستقبال إلا أن المفسرين اختلفوا في أن هذا الجعل في الدنيا أو في الآخرة فقال بعضهم إنه في الدنيا وذلك لأن المؤمنين كانوا بمكة حال نزول هذه السورة وكانوا ممقوتين من الكفرة فوعدهم الله بذلك إذا ظهر الإسلام وفسى وقال الآخرون أنه في الآخرة وذلك أن الآية متصلة بما قبلها في المعنى أي أن الله لما أخبر عن إتيان كل من في السموات والأرض حال العبودية والإنفراد أنس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم وداً وهو ما يظهر عليهم من كرامته لأن محبة الله للعبد أنما هي ما يظهر عليه من نعمة و امارات غفرانه.

وقال الزمخشري وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحبهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم وقال أيضاً والمعنى سيحدث لهم في القلوب مؤدة ويزرعها فيها من غير تؤدد منهم ولا تعرض للأسباب التي يكتسب بها الناس مؤدات القلوب من قرابة أو صداقة أو إصطناع مبرة وغير ذلك وأتما هو اختراع منه ابتداءً إختصاصاً منه لأوليائه بكرامة خاصة كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظماً لهم وإجلالاً لمكانهم إنتهى.

وقيل في الكلام حذف و التقدير سيدخلهم دار كرامته و يجعل لهم وداً بسبب نزع الغل من صدورهم بخلاف الكفار فانهم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض و يلعن بعضهم بعضاً و في النار أيضاً يتبرأ بعضهم من بعض، ثم أنّ الجمهور على ضم الواو و قرأ أبو الحرث بفتحها و قرأ جناح بن حبيش وداً بكسر الواو، و اختلفوا في نزولها ف قيل نزلت في عبد الرحمن بن عوف كان اليهود و النصارى و المنافقون يحبونه و كان لما هاجر من مكة إستوحش بالمدينة فشكى ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت و قيل نزلت في المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب ألقى الله لهم وداً في قلب النجاشي و ذكر التقاش أنها نزلت في علي بن أبي طالب.

و قد روي الزمخشري عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام يا علي: قل اللهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي في صدور المؤمنين وداً (مودة).

أقول هذا هو الحق في نزول الآية و به قال كثيرون من مفسري العامة قال في الدر المنثور عند تفسيره لهذه الآية و أخرج ابن مردويه و الديلمي عن البراء قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام قل اللهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي عندك وداً و اجعل لي في صدور المؤمنين مودة فانزل الله تعالى أنّ الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً، قال فنزلت في علي إنتهى.

و أخرج الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس قال نزلت في علي بن أبي طالب أنّ الذين آمنوا و عملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً، قال محبة في قلوب المؤمنين و قال الألويسي في تفسير روح المعاني و أخرج ابن مردويه و الديلمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لعلي كرم الله وجهه قل اللهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي في صدور المؤمنين وداً، فانزل الله سبحانه هذه الآية و كان محمد بن الحنفية يقول لا تجد مؤمناً إلا و هو يحب علياً كرم الله وجهه و أهل بيته.

و روى الإمامية خبر نزولها في عليّ عليه السلام عن ابن عباس و الباقر و أيّدوا ذلك بما صحّ عندهم أنّه كرّم الله وجهه قال لَوْ ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني ولو حبيت الدُّنيا بجملتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني و ذلك أنّه قضى فإنقضى على لسان النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال لا يبغضك مؤمن و لا يحبك منافق، و المراد المحبّة الشرعيّة التي لا غلّو فيه و زعم بعض النصارى حبّه كرّم الله وجهه فقد أنشد الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ يوسف الأنصاري الشاطبي لابن إسحاق النصراني الرسغني:

عدّي و تيمُّ لا أحاول ذكرهم بسوءٍ و لكنّي محبٌ لهاشم
وما تعتريني في عليّ و رهطه إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم و أهل النهر من أعربٍ و أعاجم
قللت لهم آني لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

و أنت تعلم أنّه إذا صحّ الحديث ثبت كذبه و أظنّ أنّ نسبة هذه الأبيات للنصراني لا أصل لها و هي من أبيات الشيعة بيت الكذب و كم لهم مثل هذه المكائد كما بيّن في التحفة الأثني عشرية و الظاهر أنّ الآية على هذا مدنيّة أيضاً ثمّ العبرة على سائر الروايات في سبب النزول لعموم اللفظ لا بخصوص السبب إنتهى ما ذكره في الباب بألفاظه و عباراته.

و أنا أقول أنظر إلى هذا المتعصب المعاند للحقّ كيف نسب الأبيات إلى الشيعة و عبّر عنهم بيت الكذب و الكيد و هذه الأشعار رواها غير واحدٍ من مفسريهم في تفاسيرهم وليس فيها في تفاسير الشيعة عينٌ و لا أثر و الأخبار الواردة في فضائل أهل البيت و لا سيّما أمير المؤمنين أكثر ممّا رآه الألوّسي تحتاج الشيعة في إثبات الفضيلة لعليّ عليه السلام إلى قول النصراني ذنب الشيعة لو كان النصراني محبّاً لعليّ عليه السلام و نحن نشير إلى بعض ما ورد في الباب من كتاب شواهد التنزيل للحافظ الحسكاني رغماً لأنف الألوّسي و امثاله من المعاندين و الحافظ الحسكاني من أعيان علماء العامّة.

ما رواه بأسناده عن علي بن موسى الرضا عن أبائه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب يا علي: قل رب أقدف لي المؤدة في قلوب المؤمنين رب اجعل لي عندك عهداً رب اجعل لي عندك ودّاً، فأنزل الله: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)، فلا تلقى مؤمناً مؤمنة إلا وفي قلبه ودّاً لأهل البيت إنتهى.

ما رواه بأسناده عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ يا علي قل اللهم اجعل عندك عهداً و اجعل لي في صدور المؤمنين مؤدة فأنزل الله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا قال نزلت في علي إنتهى.

ما رواه بأسناده عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب يا علي قل اللهم اجعل لي عندك عهداً و اجعل لي في قلوب المؤمنين مؤدة فأنزل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا قال أنزلت في علي بن أبي طالب إنتهى.

ما رواه بأسناده عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ يا علي قل اللهم ثبت لي الودّ في قلوب المؤمنين و اجعل لي عندك ودّاً و عهداً فقال علي ذلك فقال رسول الله ثبتت و ربّ الكعبة ثم نزلت: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الی قوله قوماً لداً، فقال رسول الله ﷺ قد نزلت هذه الآية فيمن كان مخالفاً لرسول الله ﷺ لعلي إنتهى.

و قد ذكر أحاديث كثيرة بهذا المضمون أن شئت الوقوف عليها فعليك بكتابه و العجب من الألوسي حيث تمسك في إثبات مدّعاہ بالتحفة الأثني

عشرية التي لا يعرف أحدٌ من علماء الشيعة، أين هي ومن ألفها ونسبها اليهم وغفل أو أعرض عناداً عن الكتب المعتمدة عند الخاصة والعامة وللبحث فيه مقام آخر ولنعم ما قيل فيه **عليّاً**:

لد أعطيت مالم يعط خلقاً
إليك إشتاقت الأملاك حتى
هنياً يا أمير المؤمنين
تحت من تشوقها حيناً
هنالك برا لها الرحمن شخصاً
كشبهك لا يغادره يقيناً

ولم يعلم الألووسي و أمثاله أنّ حبّ الله ورسوله إيّاه أكثر من حبّ الناس له لقوله **صلى الله عليه وآله** يحبّه الله ورسوله وقوله **صلى الله عليه وآله**: أن الله عزّ وجلّ يكثر من الثناء على عليّ بن أبي طالب فوق عرشه فإشتاق العرش إلى عليّ بن أبي طالب فخلق الله هذا الملك على صورة عليّ **عليّاً** تحت عرشه ليسكن شوق العرش إليه الحديث^(١).

و الأحاديث الواردة في فضائله ومناقبه وحبّ الله ورسوله وملاكته إيّاه فوق جدّ الإحصاء.

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا

و المعنى أنّما يسرنا القرآن بلسانك وجعلناه عربياً لتبشّر به، أي بالقرآن، المتقين، بالجنة، وتذّر، أي تحوّف به أي بالقرآن قوماً لُدّاً، أي مخاصمين ذوي جدلٍ و هو من اللدّد و هو شدّة الخصومة و منه قوله تعالى: **وَ هُوَ أَلْدُّ أَخْضَامٍ**^(٢) فالمعنى و تذّر به أي بالقرآن قوماً لُدّاً أي مخاصماً للحقّ منكرّاً إيّاه هذا ظاهر الآية و عليه جمهور المفسّرين ولم يزيدوا على ظاهر الآية شيئاً فكأنهم قنعوا بتفسير ألفاظها من غير تدبّر فيها.

فتقول قال الرّاغب في المفردات الألدّ الخصيم الشّديد التّأبّي و جمعه،

لُدًّا، بَضْم اللَّامِ و سكون الدال المَشْددة و أصل الألدَّ الشَّدِيد اللَّدَد أي صفحة العنق و ذلك إذا لم يمكن صرفه عمَّا يريد و فلانٌ يَتَلدَّد أي يَتَلَفَّت إنتهى.

ثمَّ أتى أَظُنُّ أَنَّ الآيةَ مرتبطةٌ بما قبلها بدليل الفاء التي تفيد التَّفْرِيع أي أَنَّ فرَع على الآية السَّابِقة عليها فإذا كان المراد بالآية السَّابِقة ما ذكرناه على أساس الأخبار الواردة فيها كما مرَّ من أَنَّ المراد بالوَدِّ محبةُ أميرالمؤمنين فالمراد باللُّدُّ هو خصومته و إنكار ولايته فيصير معنى الآية أنما يسرنا القرآن بلسانك لتبشِّر به المتقين و هم الَّذِينَ أَمَنُوا و عملوا الصَّالِحَات و تنذر به أي بالقرآن قومًا لُدًّا أي قومًا شديد الخصومة لهؤلاء المتقين الَّذِينَ جعل الله في قلوبهم حَبَّ عَلَيَّ بن أبي طالب بحسب دعائه عَلَيْهِ السَّلَامُ و هذا لا ينافي قول الجمهور بأنَّ المراد باللُّدُّ شديد الخصومة للحقِّ و ذلك لأنَّ الحقَّ مع عَلَيَّ و بالعكس قال رسول الله ﷺ عَلَيَّ مع الحقِّ و الحقُّ معه يدور معه حيثما دار فالمخاصم للحقِّ مخاصمٌ له عَلَيْهِ السَّلَامُ و مخاصمه مخاصم الحقِّ و يدلُّ على ما ذكرناه:

ما رواه العياشي في تفسيره لهذه الآية بأسناده عن عمار بن سويد قال سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول في هذه الآية: **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** (١) و ذكر حديثاً طويلاً و في آخره و دعا رسول الله لأميرالمؤمنين في آخر صلواته رافعاً بها صوته يسمع الناس يقول: اللهم هب لعليّ المؤدّة في صدور المؤمنين و الهيبة و العظمة في صدور المنافقين فأنزل الله:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً فَإِنَّمَا يَسْرُرْنَا بِلسَانِكَ لِيُتبشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا
بني أمية فقال، ركب، و الله لصاع من تمرٍ في شَنِّ بَالٍ أَحَبُّ إِلَيَّ ممَّا سأل محمد ربه أفلا سأله ملكاً يعضده أو كنزاً يستظهر به على فاقته فأنزل إليه فيه عشر آيات من هود أولها **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم، وأما قوله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الآية، فإنه قال الصادق عليه السلام: كان سبب نزول هذه الآية أن أمير المؤمنين كان جالساً بين يدي رسول الله ﷺ فقال: له قل يا علي اللهم اجعل لي في قلوب المؤمنين ودّاً فأنزل الله، أن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الآية، ثم خاطب الله نبيه فقال فأتما يسرناه بلسانك يعني القرآن لتبشّر به المتقين الآية.

و في روضة الواعظين للمفيد عليه السلام قال رسول الله ﷺ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هو عليّ، وأما يسرناه بلسانك لتبشّر به المتقين الآية، قال أنما يسره الله على لسانه حين أقام أمير المؤمنين عليه السلام علماً فبشّر به المؤمنين وأنذر به الكافرين وهم الذين ذكرهم الله في كتابه، لذا، أي كفاراً إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم مثله، و يظهر من هذه الأخبار أن المراد باللدّ من خاتم الرسول في نبوته و أمير المؤمنين في ولايته و محبته و هو المطلوب و قد مرّ حديث الحافظ الحسكاني في الباب حيث قال، فقال رسول الله ﷺ قد نزلت هذه الآية فيمن كان مخالفاً لرسول الله و لعليّ.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا
أهلك الله تعالى من الأمم ما لا تحصون فقال تعالى يا محمد هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً
أهلكنا أمماً كثيرة أعظم منهم كثرةً و أكثر أموالاً و أشدّ خصاماً فلم يغنهم ذلك
لما أردنا إهلاكهم فقوله من أصل في موضع نصب أي هل ترى منهم أحداً و
تجد أو تسمع لهم ركزاً، أي صوتاً أو ذكراً و قيل الرّكز ما لا يفهم من صوتٍ أو
حركة، قال الشاعر:

وتوجّست ركز الأنيس فراعها
عن ظهر غيبٍ و الأنيس سقامها

و قيل الصَّوتُ الخَفِيّ و منه ركز الرُّمَح إذا غَيَّب طرفه في الأرض قال
الشَّاعر:

و صادقنا سمع التَّوجس لليسرى لركزٍ خَفِيٍّ أو لصوتٍ مندِّ
و كيف كان ففي الآية تهديدٌ و تخويف لمنكري الحَقِّ إذا كان عن عنادٍ و
لجاجٍ و أمّا إذا كان عن جهلٍ قصوراً لا تقصيراً فلا هذا آخر الكلام في تفسير
سورة مريم و الحمد لله رب العالمين.



سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَهَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنستُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَاقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا

وَ اتَّبَعَ هَوِيَهُ فَتَزُدِي (١٦) وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا
 مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا الْأَوْلَى
 عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَارِبٌ
 أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا
 هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ
 سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأَوْلَى (٢١) وَ اضْمُمْ يَدَكَ
 إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً
 أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْأَكْبَرَى (٢٣)
 إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ
 اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَ
 أَخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)
 وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ
 أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَرْزِي (٣٠) وَ أَشْرِكُهُ فِي
 أَمْرِي (٣١) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٢) وَ نَذْكُرَكَ
 كَثِيرًا (٣٣) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٤) قَالَ قَدْ
 أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٥)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

اللغة

جزء ١٦

آسْتَوِي: الإستواء الإستيلاء و قيل معناه إستوى لطفه و تدبيره.

النُّزَى: الثرى التراب الندى.

أَمْكُتُوا: المكث اللَّبث أي ألبثوا مكانكم.

بِقَبَسٍ: القبس الشعلة و هو نار في طرف عود أو قصبه.

المجلد الحادى عشر

فَأَخْلَعُ: الخلع النَّزْعُ يقال خلع ثوبه عن بدنه و خلع نعله عن رجله.

الْوَادِي: سفح الجبل.

طُوًى: إسم للوادي.

فَتَرَدَى: أي فتهلك يقال ردى يردى إذا هلك.

أَهْشُ: أي أخبط بها ورق الشجر اليابس لترعاه غنمي.

مَارِبٌ: الأرب الحاجة.

◀ الإعراب

الْأُتْدُ كِرَةً هو إستثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة أي للتذكرة و قيل هو مصدر أي لكن ذكرنا به تذكرة و قيل مصدر في موضع الحال تنزيلاً مصدر أي أنزلناه تنزيلاً و قيل هو مفعول، يخشى، و من متعلقة به الْعُلَى بِضَمِّ الْعَيْنِ جمع العليا لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ مبتدأ و خبر أَخْفَى يجوز أن يكون فعلاً ومفعوله محذوف أي و أخفى السَّرَّ عن الخلق و يجوز أن يكون إسماً أي و أخفى منه إِذْ رَأَى إذ ظرف للحديث أو مفعول به أي أذكر نُودَى المفعول القائم مقام الفاعل مضمَّر أي نودي موسى و قيل هو المصدر أي نودي النداء و ما بعده مفسر له طُوًى يقرأ بِالضَّمِّ و التَّنوين و هو إسم للوادي و هو بدل منه و يجوز فيه الرَّفْعُ أي هو طوى و يقرأ بغير تنوين على أنه معرفة مؤنث إسم للبقعة و قيل هو معدول و أن لم يعرف المعدول عنه لِذِكْرِ اللَّامِ تَتَّعَلَقُ، بأقم، و التقدير عند ذكرك إِيَّاي فالمصدر مضاف إلى المفعول و قيل إلى الفاعل أي لذكري إِيَّاكَ أو إِيَّاهَا بِمَا تَسْعَى ما، مصدرية بمعنى الَّذِي فَتَرَدَى يجوز فيه النَّصْبُ على جواب النهي و الرَّفْعُ أي فإذا تردى وَ مَا تَلَّكَ ما، مبتدأ و، تلك، خبره و هو بمعنى، هذه و يَمِينِكَ حال يعمل فيه معنى الإشارة و قيل هو بمعنى الَّذِي فيكون، بيمينك، صفة لها أَوَّ كَوًّا موضعه حال من الباء، أو من العصا.

وقيل هو خبر، هي، و عصاي مفعول بفعل محذوف، وقيل هي خبر، و أتوكأ، خبر آخر (تسعى) يجوز أن يكون خبراً ثانياً، و أن يكون حالاً سيرتها الأولى هو يدل من ضمير المفعول بدل الإشتمال و يجوز أن يكون ظرفاً أي في طريقته و بيضاءَ حال و مِنْ عَيْرِ سَوْءِ صفة لبيضاء أو حالاً من الضمير في بيضاء أو حال من الضمير في الجار، و قيل منصوبة بفعل محذوف أي و جعلناها آية أو آيتناك آية و لثربك متعلق بهذا المحذوف من لسانى يتعلق بأحلل أو يكون وصفاً للعقدة.

◀ التفسير

طه إختلف المفسرون في معناه كما إختلفوا في غيره من الحروف المقطعة في أوائل السور و المشهور عندهم أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا هو و قيل أنها أسماء للسور القرآنية.

قال ابن عباس معناه يا رجل و قيل أنها لغة معروفة في عكبل و قيل في عك.

قال الكلبي لو قلت في عك لرجل يا رجل لم يجب حتى تقول، طه و أنشد الطبري في ذلك.

دعوت بظه في القتال فلم يجب فحفت عليه أن يكون مؤملاً
و قال عبد الله بن عمرو معناه يا حبيبي بلغة عك.
و قال قطرب هو بلغة، علي.

قال الشاعر:

أن السفاهة طه من شمائلكم لا بارك الله في القوم الملاعين
و حكى الطبري أنه بالنبطية يا رجل.

و قال عكرمة بلسان الجثة و الأقوال فيه كثيرة و الحق أنها من لغة العرب و أن وجدت في لغة أخرى.

وقال بعض المفسرين أنه أي، طه، من أسماء النبي ﷺ وقد روي عنه ﷺ أنه قال، لي عند ربي عشرة أسماء فذكر أن فيها، طه، و يس، ومنه قول الشاعر:

سلامٌ على آل طه وياسين
والمشهور أنه إسمٌ للسورة ومفتاح لها والله أعلم.

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ

الشقاوة خلاف السعادة، يقال شقى يشقى شقوةً و شقاوةً و شقاءً.

قال الله تعالى: قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ^(١).

وقرأ شقاوتنا فالشقاوة كالزدة والشقاوة كالشقاوة من حيث الإضافة فكما أن السعادة في الأصل ضربان، سعادة اخروية و سعادة دنيوية ثم الدنيوية ثلاثة أضرب، نفسية، بدنية، خارجية، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب الشقاوة الأخروية.

قال الله تعالى: فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ^(٢).

قال الله تعالى: غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا.

وقرأ شقاوتنا، وفي الدنيوية:

قال تعالى في كتابه: فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ^(٣).

قال بعض الأدباء قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت في كذا وكل شقاوة تعب و ليس كل تعب شقاوة فالتعب أعم من الشقاوة قاله في المفردات وعلى هذا فقوله تعالى: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ أي لتتعب ولذلك قالوا الشقاء في اللغة العناء والتعب قال الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم لعقله و أخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فمعنى، لتشقى، لتتعب أي ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفراط فأسفك عليهم وعلى كفرهم و تحسرك على أن يؤمنوا.

و روي أن أبا جهل بن هشام والنضر بن الحرث قالا للنبي ﷺ أنك شقي لأنك تركت دين آباءك فنزلت وقيل في سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يتحمل من مشقة الصلوة حتى كادت قدماه تتورم ويحتاج الى الترويح بين قدميه.

وقال مجاهد كان النبي ﷺ وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلوة بالليل من طول القيام ثم ننسخ ذلك بالغرض فنزلت هذه الآية.

وقال الكلبي لما نزل الوحي على النبي بمكة اجتهد في العبادة وإشتدت عبادته فجعل يصلي الليل كله زماناً حتى نزلت هذه الآية فأمر الله أن يخفف عن نفسه فيصلّي وينام فنسخت هذه الآية قيام الليل فكان بعد هذه الآية يصلي وينام، وقال مقاتل والضحاك فلما نزل القرآن على النبي ﷺ قام هود وأصحابه فصلوا فقال كفار قريش ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا لتشقى فأنزل الله، طه يقول يا رجل:، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى، أي لتتعب.

أقول ما ذكروه في سبب النزول لا بأس به لو دلّ الدليل على صحته والحق على ما يستفاد من ظاهر الآية هو أن النبي ﷺ كان في بدء الأمر قد أتعب نفسه إما بكثرة الصلوة وإما بتبليغ الرسالة فقال الله تعالى: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى.

أما أن هذا التعب من أين حصل له من الصلوة أو من غيرها فالله أعلم. نعم يظهر من الأخبار الواردة عن العترة أن التعب كان من الصلوة.

ففي تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام قالوا: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام على أصابع رجله حتى تورم فأنزل الله تبارك وتعالى، طه، بلغة طي يا محمد، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إنتهى.

و في كتاب معاني الأخبار بأسناده عن الصادق عليه السلام في حديث طويل يقول فيه، وأما، طه، فإسمٌ من أسماء النبي صلى الله عليه وآله ومعناه يا طالب الحق الهادي اليه، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ بل لتسعد إنتهى.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها فقالت يا رسول الله لم تتعب نفسك غفر لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخر فقال صلى الله عليه وآله يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً، قال و كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل الله طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ إنتهى.

و في كتاب الإجماع للطبرسي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آباءه عن الحسين بن عليّ قال عليه السلام: قال أمير المؤمنين ولقد قام رسول الله عشر سنين على أطراف أصابعه حتّى تورمت قدماه و إصفر وجهه يقوم الليل أجمع حتّى عوتب في ذلك فقال الله عزّ وجلّ: طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ بل لتسعد به الحديث. و الأحاديث كثيرة.

إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ

قوله: تَذَكُّرَةً هو منصوب على المصدر أي أنزلناه لتذكّر به تذكرة أو على المفعول من أجله أي ما أنزلناه إلا للتذكرة، و التذكرة ما يتذكر به الشئ و هو أعم من الدلالة و الإمارة.

قال الله تعالى: فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذَكُّرَةِ مُغْرِبِينَ^(١).

قال الله تعالى: **إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا** (١).

قال الله تعالى: **وَإِنَّهُ لَتَذْكَرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ** (٢).

قال الله تعالى: **نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ** (٣).

وفي قوله: **لِمَنْ يَخْشَى** إشارة الى أن القرآن ليس تذكرة للقاسية لقلوبهم و ذلك لأنَّ الخشيَّة، خوفٌ يشوبه تعظيمٌ و أكثر ما يكون ذلك عن علمٍ بما يخشى منه و لذلك خصَّ العلماء بها:

قال الله تعالى: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** (٤).

قال الله تعالى: **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَحْشِينَهَا** (٥).

قال الله تعالى: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى** (٦).

و الحاصل أنَّ الخشيَّة أعني بها الخوف الناشئ عن العظمة و الكبرياء هي الأصل في قبول النَّصح و الموعظة فمن لا خشيَّة له لا ينتفع بالآيات و المواعظ و لذلك قال لمن يخشى و قال بعض المفسرين التذكرة هي البشارة و النَّذارة و أنَّ ما إدعاه المشركون من إنزاله للشقاء ليس كذلك بل أنما نزل تذكرة إنتهى.

تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى

قوله: **تَنْزِيلًا**، منصوب مَنزول مضمرة أي نزل تنزيلاً مِمَّنْ خلق الأرض و السَّمَوَاتِ العلى.

و من المعلوم أنَّ خالقها هو الله تعالى فالمعنى أنَّ الله نزل القرآن تنزيلاً، و فيه إشارة الى أنَّ القرآن كلام الخالق لا كلام المخلوق كما زعم المشركون و **الْعُلَى** بضمَّ العين جمع العلياء مثل كبرى و صغرى، و كبر و صغر، و أنما أتى

ضياء القرآن في تفسير القرآن



المجلد الحادي عشر

٢- الحاقَّة = ٤٨

٤- فاطر = ٢٨

٦- النَّازعات = ٢٦

١- المُرَّمَل = ١٩

٣- الواقعة = ٧٣

٥- النَّازعات = ٤٥

بصيغة الجمع مراعاة للسَّموات و المراد بالعلو جهة الفوق أن كان العلو حسياً
فإنَّ السَّموات أعلى من الأرض و يحتمل أن يكون إتصاف السَّموات بالعلو
من جهة أنها مقرّ الملائكة المقرّبين و المقصود أنّ الذي خلق الأرض و
السَّموات هو الذي أنزل القرآن على عبده و رسوله فمن أنكر المنزل أنكر
الخالق و هو ظاهرٌ و مع ذلك ففيه إخبارٌ عن عظمته و جبروته و جلاله

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى

الرَّحْمَنُ رفع بأنّه خبر مبتدأ أي هو الرَّحْمَنُ و ذلك لأنّه لما قال تنزيلاً ممّن
خلق بيّنه فكأنّه قال هو الرَّحْمَنُ، و قيل يجوز فيه النصب على المدح و الجز
على البدل، و قال النحاس رفع على الإبتداء و أمّا الخبر فهو قوله: لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ، ثمَّ أنّ الرَّحْمَنُ لا يطلق إلا على الله تعالى من حيث أنّ
معناه لا يصحّ إلا له إذ هو الذي وسع كلّ شيءٍ رحمةً بخلاف الرَّحِيمِ فإنّه قد
يستعمل في غيره تعالى كما قال في وصف رسوله: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ
أَنْفُسِكُمْ الى قوله: بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ و قيل أنّ الله تعالى رحمن الدنيا و
رحيم الآخرة و ذلك أنّ إحسانه في الدنيا عامٌ يشمل الكافر و المؤمن و أمّا في
الآخرة فهو مختصّ بالمؤمنين و كيف كان فإنّ الرَّحْمَنُ من أسماء الله تعالى
مختصّ به، و العرش، بفتح العين و سكون الراء في الأصل شيءٌ متّصف و
جمعه عروش:

قال الله تعالى: وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِ عُرْوَةٌ عَلَى عُرْوَتِهَا^(١).

قال الله تعالى: وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرْوَتِهَا^(٢).

و قوله: إستوى على العرش فإنّ الإستواء الإستيلاء و قيل معناه إستوى
لطفه و تدبيره و المعنى أنّ الرَّحْمَنُ إستولى على عرشه أو إستوى لطفه و
تدبيره في حقّ الجميع و الأوّل أشهر و أقوى.

و أعلم أنّ عرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالإسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان عاملاً له تعالى عن ذلك لا محمولاً.

قال الزاغب في المفردات و أعلم أنّ العرش ما اختلفوا في المعنى المراد منه فقال القفال العرش في قوله **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**، بمعنى الملك و قيل هو السرير الذي يجلس عليه الملوك ثم جعل كناية عن نفس الملك يقال قلّ عرشه أي أمقّصّ ملكه و قالوا استوى على عرشه استقر على سرير ملكه و منهم من فسّر العرش بالجسم الأعظم و الإستواء بمعنى الإستيلاء.

قال الرّازي في تفسيره إتفق المسلمون على أنّ فوق السّموات جسماً عظيماً هو العرش و اختلفوا في المراد بالعرش هنا فقال أبو مسلم المراد أنّه لما خلق الله السّموات و الأرض سطحها و رفع سمكها فأنّ كلّ بناء يسمّى عرشاً و بانيه يسمّى عارشاً قال تعالى: **وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** و الإستواء على العرش هو الإستعلاء عليه بالقهر و المشهور بين المفسرين أنّ المراد بالعرش الجسم العظيم الذي في السّماء و قيل المراد به الملك و ملك الله عبارة عن مخلوقاته و وجود مخلوقاته أنّما حصل بعد خلق السّموات و الأرض فلا جرم صحّ إدخال حرف (ثم) عليه.

و الحاصل أنّ المراد إستواءه على عالم الأجسام بالقهر و القدرة و التدبير و الحفظ يعني أنّ من فوق العرش الى ما تحت الثرى في حفظه و تدبيره الإحتياج اليه فسأل به خبيراً و الباء في، به، بمعنى، عن، أي عنه و الخبر هو الله أو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال المجلسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في البحار أعلم أنّ ملوك الدّنيا لما كان ظهورهم و إجراء أحكامهم على رعيّتهم أنّما يكون عند صعودهم على كرسيّ الملك و خروجهم على عرش السّلطنة و منهما تظهر آثارهم و تتبيّن أسرارهم و الله

سبحانه لتقدسه عن المكان لا يوصف بمحلٍّ ولا قصر وليس له عرشٌ كرسيٌّ يستقر عليهما بل يطلقان على أشياء من مخلوقاته أو صفاته الكمالية على وجه المناسبة فالكرسي والعرش يطلقان على معانٍ.

أحدهما: أنهما جسمان عظيمان خلقهما الله فوق سبع سموات و ظاهر أكثر الأخبار أن العرش أرفع وأعظم من الكرسي ويلوح من بعضها العكس والحكماء يزعمون أن الكرسي هو الفلك الثامن والعرش هو الفلك التاسع وظواهر الأخبار تدل على غير ذلك من كونهما مرتبعتين ذاتي قوائم وأركان وربما يأولان بالجهات والحدود والصفات التي بها إستحقا التعظيم والتكريم ولا حاجة لنا الى هذه التكاليف وأنما سميا بالإسمين لبروز أحكامه وتقديراته من عندهما وإحاطة الكروبيين والمقرئين وأرواح النبيين والأوصياء بهما وعروج من قربه من جنابه إليها كما أن أوامر الملوك وأحكامهم وآثار سلطنتهم وعظمتهم تبدو منهما وتطيف مقرّبوا جنابهم وخوّاص ملكهم بها وساق الكلام الى أن قال ﷺ.

ثانيها: العلم كما عرفت إطلاقها في كثير من الأخبار عليه وذلك لأن منشأ ظهوره سبحانه على خلقه العلم والمعرفة وبه يتجلّى على العباد فكأنه عرشه وكرسيه سبحانه وحملتها بيننا وأئمتنا لأنهم خزّان علم الله في سماءه وأرضه لا سيّما ما يتعلّق بمعرفته سبحانه.

ثالثها: الملك وقد مرّ إطلاقهما عليه في خبر حنّان والوجه ما مرّ أيضاً.

رابعها: الجسم المحيط وجميع ما في جوفه أو جميع خلق الله ويستفاد من بعض الأخبار إذ ما من شيء في الأرض ولا في السماء وما فوقها إلا من آيات وجوده وعلامات قدرته وأثار وجوده وفيضه وحكمته بجمع المخلوقات عرش عظمته وجلاله وبها تجلّى على العارفين بصفات كماله وهذا أحد المعاني التي خطرت ببالي الفاجر.

خامسها: إطلاق العرش على كل صفةٍ من صفاته الكمالية والجلالية إذ كل منها مستقر لعظمته و جلاله و بها يظهر لعباده على قد قابليتهم و معرفتهم فله عرش العلم و عرش القدرة و عرش الرحمانية و عرش الرحيمية و عرش الوحدانية و عرش التنزه و قد أوّل الوالد قدس سرّه الخبر الذي ورد في تفسير قوله: **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى** أنّ المعنى إستوى من كل شيء فليس شيءٌ أقرب إليه من شيءٍ، أنّ المراد بالعرش هنا عرش الرحمانية و الظرف حال أي الرّب حال كونه على العرش الرحمانية، إستوى من كل شيءٍ إذ بالنظر إلى الرحيمية التي عبارة عن الهدايات و الرّحمت الخاصة بالمؤمنين أقرب و المراد أنّه سبب صفة الرّحمانية حال كونه على عرش الملك و العظمة و الجلال إستوى نسبه إلى كل شيءٍ و هي فائدة التقييد بالحال نفى توهم أنّ هذا الإستواء ممّا ينقص من عظمته و جلاله شيئاً.

سادسها: إطلاق العرش على قلب الأنبياء و الأوصياء و كلّ المؤمنين فإنّ قلوبهم مستقر محبته و معرفته سبحانه كما روي أنّ قلب المؤمن عرش الرّحمن.

و روي أيضاً في الحديث القدسي لم يسعني سمائي و لا أرضي و سعني قلب عبدي المؤمن إنتهى كلامه رفع مقامه و الله تعالى أعلم بحقيقة كلامه.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى
 اللّام في، له، للملك أو للاختصاص و من المعلوم أنّ الخالق مالك المخلوق و أنّ العبد و ما في يده كان لمولاه فإذا ثبت كونه خالقاً لما سواه فهو مالك لجميع ما سواه و هذه الملكية ذاتية لا عرضية أي أنّها ثابتة له تعالى في مقام ذاته فلا يمكن سلبها عن الذات و لذلك نقول المالك الحقيقي هو الله تعالى لا يشاركه فيه أحد و أمّا الملكية في المخلوق عرضية أعطاه الله إيّاه فإذا شاء

أخذها و قوله: **وَ مَا تَحْتَ الْأَثْرَى** فالثرى التراب الندى والمعنى و ما تحت الأرض فإن الثرى في الحقيقة الأرض و أما خصه بالذكر لأنه ليس داخلاً في ما بينهما و أن شئت قلت أن الله تعالى يملك ما بين السماء و الأرض من المحسوسات و ما تحت الأرض من الموجودات التي لا تحس و لا ترى و لازم ذلك أن يكون المملوك مطيعاً لربه خاضعاً لربوبيته كما هو شأن المملوك بالنسبة إلى مولده و خالقه.

وَ إِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفَى

الجهر رفع الصوت يقال، جهر بجهر جهراً فهو جاهر و الصوت مجهور و ضده الهمس، و السر بكسر السين ما حدث به الإنسان غيره في خفية و أخفى، منه ما أضمره في نفسه و لم يحدث به غيره قاله ابن عباس و قال سعيد بن جبير السر ما أضمره العبد في نفسه و أخفى منه ما لم يكن و لا أضمره أحد، و قال قوم، أخفى، بمعنى الخفي و رد هذا القول بأنه ترك الظاهر و عدول بلفظة أفعال، إلى غير معناها من غير ضرورة.

و قال بعضهم السر مقابل الجهر كما قال تعالى سركم و جهركم، و قيل السر ما سره في نفسه و الأخرى ما أخفى عنه مما هو فاعله و لا يعلمه.

و قال مجاهد السر ما تخفيه من الناس و أخفى منه الوسوسة و قيل السر العزيمة و أخفى منه ما لم يخطر على القلب و نقل عن بعض السلف أنه قال، و أخفى فعل ماضٍ لا أفعل تفضيل أي يعلم أسرار العباد و أخفى عنهم ما يعلمه و هو كقوله: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ** (١) و لا يخفى عليك ضعف هذا القول و الحق ما ذهب إليه المشهور من أن السر ما حدث في خفية و أخفى منه ما أضمره في نفسه فتقدير الآية يعلم السر و

أخفى منه و أنما حذف منه، لدلالة الكلام عليه كما تقول فلان كالفيل أو أعظم وهذا كالحبة أو أصغر، أي أعظم منه و أصغر منه ثم أن الدليل على أنه يعلم السر و أخفى منه، هو أن الله تعالى خالق الإنسان و موجوده و هذا مما لا كلام فيه، و الخالق عالم بجميع شئون مخلوقه و إلا يلزم أن لا يكون خالقاً له و العلم من توابع الوجود فإذا كان الوجود منه تعالى فالعلم أيضاً منه سواء جهر به المخلوق أو أسر به و هكذا جميع صفات العبد.

ثانياً: نقول أن الله تعالى عالم بذاته و ذاته علة لإيجاد ما سواه فما سواه معلول له و العلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول تفضيلاً فهو يعلم السر و أخفى منه لأنه داخل في سلسلة المعلولات و هو ظاهر.

ثالثاً: لو لم يعلم السر و أخفى منه لزم أن يكون جاهلاً و الجهل نقص و النقص من شئون الممكن و قد فرضناه واجباً هف فثبت و تحقّق أن الله عالم بجميع الأمور ظاهرها و باطنها و لا يخفى عليه شيء و العقل و النقل يشهدان بذلك كما مرّ البحث فيه مراراً.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى

قال الزمخشري الحسنى تأنيث الأحسن و صفت بها الأسماء لأن حكمها حكم المؤنث كقولك الجماعة الحسنى و مثلها قارب أخرى و من آياتنا الكبرى و الذي فضلت به أسماءه في الحسن سائر الأسماء دلالتها على معاني التقديس و التمجيد و التعظيم و الربوبية و الأفعال التي هي النهاية في الحسن إنتهى كلامه.

و ذكروا أن هذه الأسماء هي التي قال فيها رسول الله ﷺ أَنَّهُ تَسَعَا وَ تَسَعِينَ إِسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ:

قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** (١).

قال الله تعالى: أَيُّ مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (١).

قال الله تعالى: هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٢).

وَهَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى، إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى
قوله: وَ هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَى خطاب للنبي ﷺ وتسلياً له مما ناله من أذى قومه والتثبيت له بالصبر على أمر ربه كما صبر موسى و قال بعضهم لما ذكر تعالى تعظيم كتابه و تضمن تعظيم رسوله أتبعه بقصة موسى ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة و تكاليف الرسالة و الصبر على مقاساة الشدائد:

قال الله تعالى: وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ (٣).

قال الله تعالى: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ (٤).

و هل هذا إستفهام تقرير يحث على الإصغاء لما يلقى إليه و على التآسي و قيل هل، بمعنى قد، أي قد أتاك حديث موسى و القول الأول هو الحق إذ رأى نَارًا أي حين رأى نارا فقال لِأَهْلِهِ امْكُثُوا أي ألبثوا مكانكم (إِنِّي آنَسْتُ نَارًا أي رأيت نارا و الإيناس وجدان الشيء لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسِ الْقَبَسِ الشعلة و هو نار في ظرف عود أو قصبه و المعنى لعلّي آتيكم بنار تصطلون به أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى أي أجد من يدلني على الطريق الذي أضللتناه أو ما إستدل به عليه.

قال القرطبي إستأذن موسى شعبياً في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله و غنمه و ولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة و قد عاد عن

الطَّرِيقِ وَ تَفَرَّقَتْ مَاشِيَتَهُ فَقَدَحَ مُوسَى النَّارَ فَلَمْ تَوَرَّ الْمَقْدَحَةَ شَيْئاً إِذْ بَصَرَ بِنَارٍ مِنْ بَعِيدٍ عَلَى يَسَارِ الطَّرِيقِ فَقَالَ لِأَهْلِهِ أَمَكْتُوْا، أَيِ أَقِيمُوا بِمَكَانِكُمْ، إِنِّي أَنْتَ نَارًا، أَيِ أَبْصَرْتُ فَلَمَّا تَجَّهَ نَحْوَ النَّارِ فَإِذَا النَّارُ فِي شَجَرَةِ عَنَابٍ فَوْقَ مَتَّعِجِباً مِنْ حَسَنِ ذَلِكَ الضُّوءِ وَ شِدَّةِ خُضْرَةِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ فَلَا شِدَّةَ حَرِّ النَّارِ تَغْيِيرَ حَسَنِ خُضْرَةِ الشَّجَرَةِ وَ لَا كَثْرَةَ مَاءِ الشَّجَرَةِ وَ لَا نِعْمَةَ الْخُضْرَةِ تَغْيِيرًا حَسَنِ ضَوْءِ النَّارِ وَ ذَكَرَ الْمَهْدُويُّ فَرَأَى النَّارَ فِي شَجَرَةٍ مِنَ الْعَلْيَقِ فَقَصَدَهَا فَتَأَخَّرَتْ عَنْهُ فَرَجَعَ وَ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خَيْفَةً ثَمَّ دَنَتْ مِنْهُ وَ كَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الشَّجَرَةِ إِنَّتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

وَ قَالَ الطَّبْرِيُّ نَقْلًا عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ وَهَبِ بْنِ مَنْبِهِ الِيمَانِيِّ قَالَ قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ خَرَجَ وَمَعَهُ غَنَمٌ لَهُ وَمَعَهُ زَنْدٌ لَهُ وَ عَصَاهُ فِي يَدِهِ يَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِهِ نَهَارًا فَإِذَا أَمْسَى إِقْتَدَحَ بَزَنْدِهِ نَارًا فَبَاتَ عَلَيْهَا هُوَ وَ أَهْلُهُ وَ غَنَمُهُ فَإِذَا أَصْبَحَ غَدًا بِأَهْلِهِ وَ بَغَنَمِهِ فَتَوَكَّأَ عَلَى عَصَاهُ فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةَ الَّتِي أَرَادَ اللَّهُ بِمُوسَى كِرَامَتَهُ وَ ابْتَدَأَ فِيهَا بِنُبُوتِهِ وَ كَلَامِهِ أَخْطَأَ فِيهَا الطَّرِيقَ حَتَّى لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّهُ فَأَخْرَجَ زَنْدَهُ لِيَتَّقِدَحَ نَارًا لِأَهْلِهِ لِيَبْتَئُوا عَلَيْهَا حَتَّى يَصْبِحَ وَيَعْلَمَ وَجْهَ سَبِيلِهِ فَاصْلَدَ زَنْدَهُ فَلَا يَورِي لَهُ نَارًا فَقَدَحَ حَتَّى أَعْيَاهُ لَاحَتِ النَّارُ فَرَأَاهَا فَقَالَ لِأَهْلِهِ أَمَكْتُوْا إِنِّي أَنْتَ نَارًا لِعَلِّي أَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبْسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هَدًى وَ عَنِي بِقَوْلِهِ: **أَفَنَسْتُ نَارًا**، وَجَدْتُ إِلَى أَنْ قَالَ وَ أَمَّا أَرَادَ مُوسَى بِقَلْدِهِ لِعَلِّي أَتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبْسٍ أَتِيكُمْ بِذَلِكَ لِيَصْطَلُوا بِهِ إِنَّتَهَى هَذَا مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَقَامِ وَ حَيْثُ انْجَرَّ الْكَلَامُ إِلَى هَاهُنَا فَلَا يَدُّ لَنَا مِنْ ذَكَرِ أَصْلِ الْقِصَّةِ مِنْ حِينَ حَمَلَهُ إِلَى نُبُوتِهِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ هُمْ أَدْرَى بِمَا فِي الْبَيْتِ فَتَقُولُ:

رَوَى الْمَجْلِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْبَحَارِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: أَنْ مَوْسَى لَمَّا حَمَلَتْ أُمُّهُ بِهِ لَمْ يَظْهَرِ حَمَلُهَا إِلَّا عِنْدَ وَضْعِهِ وَ كَانَ فَرْعُونَ قَدْ وَكَلَّ بِنِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نِسَاءً مِنَ الْقَبْطِ يَحْفَظُهُنَّ وَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ بَلِغَهُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ أَنَّهُ يُولَدُ فِينَا رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ يَكُونُ

هلاكَ فرعون وأصحابه على يديه فقال فرعون عند ذلك لأقتلن ذكور أولادهم حتى لا يكون ما يريدون وفرّق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في المجالس فلما وضعت أم موسى بموسى نظرت وحزنت وإعتمت وبكت وقالت يذبح الساعة فعطف الله بقلب الموكلّة عليه فقالت لأم موسى مالك قد إصفر لونك فقالت له أخاف أن يذبح ولدي فقالت لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلا أحبه وهو قول الله عزّ وجلّ، وألقيت عليك محبة مني، فأحبته القبطيّة الموكلّة به وأنزل الله على أم موسى التابوت ونوديت أمه ضعيه في التابوت فأقذفيه في اليمّ وهو البحر ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين فوضعت في التابوت وأطقت عليه وألقته في النيل وكان لفرعون قصور على طّ النيل فنظر من قصره ومعها أسية امرأته إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج وتضربه الرياح حتى جاءت على باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت ورفع اليد فلما فتحه وجد فيه صبياً فقال هذا إسرائيلي فألقى الله في قلب فرعون لموسى محبة شديدة وكذلك في قلب أسية وأراد فرعون أن يقتل فقالت أسية لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون أنه موسى ولم يكن لفرعون ولد فقالت إلتمسوا له ظئراً تربيته فجاءوا بعدة نساء قد قتل أولادهن فلم يشرب لبن أحد من النساء وهو قوله الله وحزمت عليه المرضع من قبل وبلغ أمه أن فرعون قد أخذه فحزنت وبكت كما قال الله فأصبح فؤاد أم موسى فارغاً كادت لتبدي به يعني كادت أن تخبرهم بخبره أو تموت ثم ضبطت نفسها فكانت كما قال لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ثم قالت لاخت موسى قصيه أي إتبعيه فجاءت أخته إليه فبصرت به عن جنب أي عن بعد وهم لا يشعرون فلما لم يقبل موسى مأخذ ثدي أحد من النساء إعتمت فرعون غمّاً شديداً فقالت أخته هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فقالوا نعم فجاءت بأمه فلما أخذته في حجرها وإلتقمته ثديها إلتقمته وشرب ففرح فرعون وأهله و

أكرموا أمه فقالوا لها ربيّه لنا فإنّا نفعل بك و نفعل كذا و ذلك قول الله فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها و لا تحزن و لتعلم أنّ وعد الله حقّ و لكن أكثرهم لا يعلمون فرعون يقتل أولاد بني إسرائيل كلّما يلدون و يرّبي موسى و يكرمه يعلم أنّ هلاكه على يديه فلمّا درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى الحمد لله ربّ العالمين فأنكر ذلك عليه و لطمه و قال ما هذا الذي تقول فوثب موسى على لحيته و كان طويل اللّحية فهلبتها أي قلع بعضها فهمّ فرعون بقتله فقالت إمراة غلاممّ حدث لا يدري ما يقول فقال فرعون بلى يدري فقالت له ضع بين يديك تمرّاً و جمراً فإن ميّز بينهما فهو الذي تقول فوضع بين يديه تمرّاً و جمراً فقال له كل فمّد يده إلى التّمر فجاء جبرئيل فصرفها إلى الجمر فأخذ الجمر في فيه فأحترق لسانه فصاح و بكى فقالت آسية لفرعون ألم أقل لك أنّه لا يعقل فعفى عنه قال الرّاوي فقلت لأبي جعفر عليه السلام فكم مكث موسى غائباً عن أمه حتّى رده الله عليها قال عليه السلام ثلاثة أيّام فقلت فكان هارون أخا موسى لأبيه و أمه قال عليه السلام نعم أما تسمع الله يقول يا بن أمّ لا تأخذ بليحيتي برأسي، فقلت فأيتهما أكبر سنّاً قال عليه السلام هارون قلت و كان الوحي ينزل عليهما جميعاً قال عليه السلام كان الوحي ينزل على موسى يوحيه إلى هارون فقلت له أخبرني عن الأحكام و القضاء و الأمر و التّهي أكان ذلك إليهما قال عليه السلام كان موسى الذي يناجي ربّه و يكتب العلم و يقضي بين بني إسرائيل و هارن يخلفه إذا غاب عن قومه للمناجات قلت فأيتهما مات قبل صاحبه قال عليه السلام مات هارون قبل موسى و ماتا جميعاً في التّيه قلت فكان لموسى ولد قال عليه السلام لا كان الولد لهارون و الذريّة له، فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كراميّة حتّى بلغ مبلغ الرّجال و كان ينكر عليه ما يتكلّم به موسى من التّوحيد حتّى همّ به فخرج موسى من عنده و دخل المدينة فإذا رجلاّن يقتتلان أحدهما يقول بقول موسى و الآخر يقول بقول فرعون، فاستغاثه الذي هو من شيعته، فجاء موسى فوكز صاحبه فقضى عليه و توارى

في المدينة فلما كان من الغد جاء آخر فثبت بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى، قال أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس فخلّى عن صاحبه و هرب وكان خازن فرعون مؤمناً بموسى قد كتم إيمانه ستة مائة سنة و هو الذي قال الله تعالى:

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ^(١)

و بلغ فرعون خبر قتل موسى الرجل فطلبه ليقته فبعث المؤمن الى موسى أنّ الملايأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إنّي لك من الناصحين فخرج منها كما حكى الله خائفاً يترقب، قال **عليه السلام** يلتفت يمنة و يسرة و يقول ربّ نجني من القوم الظالمين و مرّ نحو مدين و كان بينه و بين مدين تسير ثلاثة أيام فلما بلغ باب مدين رأى بئراً يستقي الناس منها لأغنامهم و دوآبهم فقعد ناحية و لم يكن أكل منذ ثلاثة أيام شيئاً فنظر الى جاريتين في ناحية و معهما غنيمات لا تدنون من البئر فقال لهما مالكما لا تستقيان فقالتا كما حكى الله حتى يصدر الرعاء و أبونا شيخ كبير، فرحهما موسى و دنى من البئر فقال لمن على البئر إستقي لي دلوأ و لكم دلوأ و كان الدلوأ يمده عشرة رجال فأسطفى وحده دلوأ لمن على البئر و دلوأ لبتي شعيب و سقى أغنامهما ثمّ تولّى الى الظلّ فقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خيرٍ فقيرٍ، و كان شديد الجوع و قال أميرالمؤمنين أنّ موسى كلّم الله حيث سقى لهما تولّى الى الظلّ فقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خيرٍ فقيرٍ، و الله ما سأل الله إلاّ خبزاً يأكل لأنّه كان يأكل بقلة الأرض يرى خضرة البقل من صفاق بطنه من هزاله فلما رجعتا إبتنا شعيب الى شعيب قال لهما أسرعتما الرجوع فأخبرناه بقصّة موسى **عليه السلام** ولم تعرفاه فقال شعيب لواحدةٍ منهما إذهبي إليه فأدعيه لنجزيه أجر ما سقى لنا فجاءت إليه كما حكى

اللّه تعالى: **تَفَشِي عَلَيَّ اسْتَحْيَاءٌ** فمشت أمامه فقالت له **أَنْ أَبِي** يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فقام موسى معها فسفقتها الرياح فبان عجزها فقال لها موسى تأخري وديني على الطريق بحصات تلقىها أمامي أتبعها فإننا قوم لا ينظرون في أدبار النساء فلما دخل على شعيب قصص عليه قصته فقال له شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين، قالت إحدى بنات شعيب، يا أبت إستأجره أن خير من إستأجرت القوي الأمين، فقال لها شعيب أما قوته فقد عرفته بسقي الدلو وحده فبم عرفت أمانته فقالت أنه قال لي تأخري عني وديني على الطريق فإننا من قوم لا ينظرون في أدبار النساء عرفت أنه ليس من القوم الذين ينظرون في أعجاز النساء فهذه أمانته فقال شعيب إنني أريد أن أنكحك إحدى إبنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك و ما أريد أن أشق عليك ستجدني إنشاء الله من الصالحين فقال له موسى ذلك بيني وبينك إيمًا الأجلين قيضت فلا عدوان علي، أي لا سبيل علي أن عملت عشر سنين أو ثماني سنين فقال موسى الله على ما نقول وكيل.

قال الزاوي قلت له **عَلَيَّْ أَيَّ** الأجلين قضى قال **عَلَيَّْ** أتمهما عشر حجج قلت له فدخل بها قبل أن يمضي الأجل أو بعده قال **عَلَيَّْ** قبل، قلت فالرجل يتزوج المرأة و يشترط لأبيها إجارة بشهرين مثلاً يجوز ذلك قال **عَلَيَّْ** أن موسى علم أنه يتم له شرطه فكيف لهذا أن يعلم أنه يبقى حتى يفي قلت له جعلت فداك أيتهما زوجة شعيب من بناته قال **عَلَيَّْ** التي ذهبت إليه فدعته و قالت لأبيها يا أبت إستأجره أن خير من إستأجرت القوي الأمين فلما قضى موسى الأجل قال شعيب لا بد لي أن أرجع الى وطني و أمي و أهل بيتي فمالي عندك فقال شعيب ما وضعت أغنامي في هذه السنة من غنم بلق فهو لك

فعمد موسى عند ما أراد أن يرسل الفحل على الغنم الى عصاه فقشّر منه بعضه و ترك بعضه و و عزّره في وسطه مريض الغنم و ألقى عليه كساء أبلق ثم أرسل الفحل على الغنم فلم تضع الغنم في تلك السنّة إلاّ بلباقاً فلما حال عليه الحول حمل موسى إمرأته و زوّده شعيب من عنده و ساق غنمه فلما أراد الخروج قال لشعيب أبغي عصا تكون معي و كانت عصي الأنبياء عنده قد ورثها مجموعة في بيت فقال له شعيب أدخل هذا البيت وخذ عصا من بين تلك العصا فدخل فوثبت إليه عصا نوح و إبراهيم و صارت في كفّه فأخرجها و نظر إليها شعيب فقال ردّها و خذ غيرها فردّها ليأخذ غيرها فوثبت إليه تلك بعينها فردّها حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات فلما رأى شعيب ذلك قال له إذهب فقد خصك الله بها فخرج يريد مصر فلما صار في مفازة و معه أهله أصابهم يرد شديد و ريح و ظلمة و قد جفهم الليل و نظر موسى الى نار و قد ظهرت كما قال الله: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ^(١). فأقبل نحو النّار يقتبس فإذا شجرة و نار تلتهب عليها فلما ذهب نحو النّار يقتبس منها أهوت إليه ففرغ منها و عدا و رجعت النّار الى الشّجرة فألتفت إليها و د رجعت الى الشّجرة فرجع الثّانية ليقتبس فأهوت إليه فعدا و تركها ثمّ التفت و قد رجعت الى الشّجرة فرجع إليها الثّالثة فأهوت فعدا ولم يعقب أي لم يرجع فناداه الله أن يا موسى إنّي أنا الله ربّ العالمين قال موسى فما الدليل على ذلك قال الله ما في يمينك يا موسى قال هي عصاي قال

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

أَلَيْهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فصارَتْ حَيَّةً ففزع منها موسى وعدا فناداه
 اللَّهُ خذها و لا تخف أنك من الآمنين و أسلك يدك في جيبك تخرج
 بيضاء من غير سوءٍ أي من غير علةٍ و ذلك أن موسى كان شديد
 السمرة فأخرج يده من جيبه فأضأت له الدنيا فقال اللَّهُ عزَّ و جل
 فذانك برهان من ربك الى فرعون و ملائه أنهم كانوا قوماً فاسقين
 فقال موسى كما حكى الله: **إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ، وَ
 أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُكَذِّبُونِ، قَالَ سَنُنْشِدُ عُضُدَكَ بِأَخْبِكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ
 إِلَيْكُمَا بِأَيَاتِنَا أَنْتُمَا وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** (١) انتهى (٢).

أقول و إنما نقلنا الحديث بطوله لما فيه من الفوائد ما لا يخفى مضافاً الى
 أن الله تعالى أشار الى موسى في كثير من الآيات و ذلك لما في قصته من
 المواعظ و العبر فذكرنا هذا الحديث عن المعصوم ليكون الناظر على بصيرة و
 لنترجع الى تفسير ألفاظ الآيات بعد وضوح المراد منها فيه فنقول:

فَلَمَّا أَتَيْهَا نُودِيَ يَا مُوسَى

أي لما أتى موسى النار التي رآها و أنسها، و نودي، موسى، من جانب
 الشجرة التي فيها النار و النداء هو مد الصوت.

إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى

قرأ ابن كثير و أبو عمرو و إنِّي أَنَا رَبُّكَ بفتح الهمزة و الباء و الباقون بكسرها و
 سكون الباء فعلى قول من فتح الهمزة فالمعنى نودي بأني أنا و لما حذف الباء
 فتح، و من كسرها فعلى الإستثناف أو على تقدير، قيل له إنِّي أَنَا رَبُّكَ الَّذِي خَلَقْتَ
 و قوله: **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** قيل السبب الذي لأجله أمر بخلع النعلين فيه قولان:

أحدهما: لياشر بقدميه بركة الوادي المقدس.

ثانيهما: أنها كانت من جلد حمار ميت.

وحكى التلجي أنه أمر بذلك على وجه الخضوع والتواضع والخلع نزع الملابس، وقيل كانتا من جلد بقرة ذكوى لكن أمر بخلعها لبيان بركة الوادي المقدس وتمس قدماه ترتبه، وقيل أنه خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي، والمقدس، المطهر، وطوى إسم علم عليه فتكون بدلاً أو عطف بيان وفيها قرأت، فمنهم من قرأها بكسر الطاء منوناً، ومنهم من قرأها بضمها منوناً، من قرأها بضمها غير منونٍ ومنهم من قرأها بكسرها غير منونٍ.

وقال الزاغب في المفردات في طوى، قيل هو إسم الوادي الذي حصل فيه وقيل أن ذلك جعل إشارة الى حالة حصلت له على طريق الإجتباء فكأته طوى عليه مسافة لو إحتاج أن ينالها في الإجتهد لبعده عليه، وقيل هو إسم أرض فمنهم من يعرفه ومنهم من لا يعرفه وقيل هو مصدر طويت فينصرف ويفتح أوله و يكسر نحو مشى و ثني ومعناه ناديته مرتين إنتهى هذا كلام المفسرين حول الآية.

وقد ذكر القرطبي وامثاله في تفسير الآية من الأباطيل والمجعولات ما لا يخفى على المتأمل البصير بالأخبار.

في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بأسناده الى سعد بن عبد الله القمر عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه قلت فأخبرني يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر الله لنبيه موسى، فأخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، فأن فقهاء الفريقين يزعمون أنها كانت من أهاب الميتة قال صلواة الله عليه من قال ذلك فقد إفتري على موسى وأستجمله في نبوته لأنه ما خلا الأمر فيه من خطيئتين، أما أن تكون صلواة موسى فيها جائزة أو غير جائزة فأن كانت صلواته جائزة جاز له لبسها في تلك البقعة إذا لم تكن مقدسة و أن كانت

مقدسة مطهرة فليست بأقدس وأطهر من الصلوة وأن كانت صلوته غير جائزة فيها فقد أوجب على موسى أنه لم يعرف الحلال من الحرام و علم ما جاز فيه الصلوة و ما لم يجز و هذا كفرٌ قلت فأخبرني يا مولاي عن التأويل فيها قال صلوات الله عليه أن موسى ناجى ربه بالوادي المقدس فقال يا ربّ إنّي قد أخلصت لك المحبّة منّي و غسلت قلبي عمّن سواك و كان شديد الحُب لأهله فقال الله تعالى: **أَخْلَعُ نَعْلَيْكَ أَيِ** إنزع حُب أهلِكَ من قلبك أن كانت محبّتك لي خالصة و قلبك من الميل الى من سواي مغسول إنتهى.

و في حديث آخر قال **عليه السلام**: **فَاخْلَعُ نَعْلَيْكَ أَيِ** خوفك، خوفك من ضياع أهلِكَ، و خوفك من فرعون إنتهى.

وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى

الظاهر أنّ، ما، في، لما، بمعنى أنا اخترتك للنّبوة من بين النّاس فأستمع للذي يوحى إليك من ربك قيل لِمَا سمع موسى هذا الكلام وقف على حجرٍ و أستند الى حجرٍ و وضع يمينه على شماله و ألقى ذقنه على صدره و وقف ليستمع و كان كلّ لباسه صوفاً و من المعلوم أنّ أدب الإستماع سكون الجوارح و غصّ البصر و الإصغاء بالسمع و حضور العقل و العزم على العمل و ذلك هو الإستماع لما يحب الله و حذف الفاعل في يوحى للعلم به ثم أشار الله تعالى الى ما أوحى إليه.

بهاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

أَنْتَنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي، إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَحْقِفُهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْغَى

هذا الكلام في الحقيقة تفسير لما يوحى أشار أولاً الى التوحيد لأنه الأصل في جميع الشرائع و الأديان كان رسول الله **ﷺ** يقول: **قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**

المجلد الحادي عشر

تَفْلَحُوا فمن لم يعرف الله لم يعبده و العبادَة فرع على المعرفة و لذلك فسّر قوله تعالى: مَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(١) بقولهم ليعرفون قال أمير المؤمنين عليه السلام: أوّل الذين معرفته و قال الحسين الشهيد عليه السلام: ما خلق الله العباد إلا ليعرفوه فإذا عرفوه عبده الخ... و لأجل ذلك قدّم المعرفة في جميع الأمور على العامّة و الإتيان و لذلك يقال أعبد النَّاسَ أعرّفه بل الحقّ أنّ المعرفة إذا حصلت حصلت العبادَة قطعاً و لأجل ذلك أشار الله تعالى أولاً إلى معرفة الله بالوحدانيّة ثمّ قال فأعبدني أي إذا عرفت أنّه لا إله إلا أنا، فأعبدني و الأولى أن يكون، فأعبدني، لفظ يتناول ما كلّفه به من العبادَة ثمّ عطف عليه ما هو قد يدخل تحت ذلك المطلق فبدأ بالصلاة و قال و أقم لذكره، إذ هي أفضل الأعمال و أنفعها في الآخرة أن قبلت قبل ما سواها و أن ردّت ردّاً ما سواها و مع ذلك هي أوّل ما يسأل عنه العبد من الأعمال يوم القيامة و إقامة الصلاة هي إتيانها بجميع شرائطها و آدابها على الوجه المقرّر في الشريعة المقدّسة المأمور بها في جميع الأديان لا مطلق الصلاة كيف إنفقت قال الله تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ^(٢) و في الزيارة أشهد أنّك قد أقمّت الصلاة و أتيت الزكوة الخ...

و لذلك أمر الله موسى بإقامتها و قال و أقم الصلاة ولم يقل و صل مثلاً و قوله: لِذِكْرِي قيل في معناه أي لتذكّري فيها بالتسبيح و التّعظيم، و قيل معناه، لأن أذكرك بالمدح و الثناء، و قيل المعنى متى ذكرت أنّ عليك صلوة كنت في وقتها أو فات وقتها، فأقمها، قال بعض المفسرين، لذكره، يحتمل وجوهاً و الأحسن منها ما وافق الحديث و المعنى أقم الصلوة لذكرها لأنّه إذا ذكرها فقد ذكر الله و يمكن أن يقدر مضاف هنا أي لذكر صلواتي، و يكون قد وقع ضمير، الله، موقع ضمير الصلوة لشرفها، و قرئ أقم الصلوة للذكرى، فتكون اللام الأولى بدل الإضافة أي أقم الصلوة وقت ذكرها.

أقول ما ذكروه في المقام لا بأس به و الذي يختلج بالبال هو أن المعنى أقم الصلوة لذكري، أي على وجه الإخلاص و لا تقصد بها غرضاً آخر لتكون مشركاً بالشرك الخفي المعبر عنه بالرياء و بعبارة أخرى صلّ مع حضور القلب فأَنْ حضور القلب هو الذّكر بعينه و أمّا قوله: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَلْح... .

فالمراد بالسّاعة القيامة فأنّها آتية لا محالة، قيل لِمَا ذكر الله تعالى الأمر بالعبادة و إقامة الصلوة ذكر الحاصل على ذلك و هو البعث و المعاد للجزاء فقال أن السّاعة آتية و هي التي يظهر عندها ما عمله الإنسان و جزاء ذلك إمّا ثواباً و إمّا عقاباً و قوله أكاد أخفيها، قرأ الحسن و مجاهد أخفيها، بفتح الهمزة بمعنى أظهرها أي أنها من صحّة وقوعها و يتّيقن كونها تكاد تظهر و لكن تأخرت إلى الأجل المعلوم و تقول العرب خفيت الشّيء أي أظهرته قال الشاعر:

خفاهنّ من إيقانهنّ كأنما خفاهنّ ودق من عشيّ مجلبّ

و قال الآخر:

فأن تدفونوا الداء لا نخفه و أن توقدوا الحرب لا نعقد

و لام لتجزى على هذه القراءة متعلّقة بأخفيها، أي أظهرها لتجزى كلّ نفس و قرأ الجمهور، أخفيها بضمّ الهمزة و عليها المصاحف فعلاً و على هذه القراءة فهو مضارع أخفى بمعنى، ستر و الهمزة هنا للإزالة أي أزلت الخفاء و هو الظهور و إذا أزلت الظهور صار للستر كقولك أعجمت الكتاب أزلت عنه العجمة و قال أبو علي هذا من باب السّلب و معناه أزيل عنها خفاؤها سترها و اللّام على هذه القراءة متعلّقة بأتية كأنه قال أن السّاعة آتية لتجزى، و قيل أخفيها بضمّ الهمزة بمعنى أظهرها فتتحدّ القراءة تان و أخفي من الأضداد بمعنى الإظهار و بمعنى السّتر.

قال أبو عبيدة خفيت و أخفيت بمعنى واحد و قد حكاها أبو الخطاب أيضاً و هو من رؤساء اللّغة، و قوله أكاد، من أفعال المقاربة لكنّها مجاز هنا، بعضهم، أكاد، بمعنى أريد فالمعنى أريد إخفاؤها و قالت فرقة، خبر كاد،

محذوف تقدير الكلام أكاد أتى بها لقربها و صحّة وقوعها كما حذف في قول الشاعر:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلالله
 أي كدت أفعل و ثمّ إستأنف الأخبار بأنّه يخفيها، وقوله: لِيَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ
 بِمَا تَسْعَى أَي تجازى كلّ نفس بحسب عملها من خيرٍ أو شرٍّ فمن عمل
 الطّاعات أثيب عليها و من عمل المعاصي عوقب عليها فأنّ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
 كَسَبَتْ رَهِينَةٌ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى و لذلك سُمّيت القيامة بيوم الجزاء:
 قال الله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ (١).

قال الله تعالى: لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٢).
 قال الله تعالى: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عملُوا و يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
 بِالْحُسْنَى (٣).

فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوِيَهُ فَتَرْدِي
 و الظاهر أنّ الخطاب في فَلَا يَصُدُّكَ بموسى عليه السلام و لا يلزم من النهي عن
 الشّيء إمكان وقوعه ممّن سبقت له العصمة فينبغي أن يكون لفظاً.
 و قيل أنّه خطاب للنبي ﷺ لفظاً و لأتمته معنى و هو كما ترى بعيد عن
 سياق الآيات و الصد المنع، و قيل الصد، الصّرف عن الخير يقال صدّه عن
 الإيمان و صدّه عن الحقّ و لا يقال صدّه عن الشرّ و لكن يقال صرفه عن الشرّ و
 منعه منه و المعنى أنّ الله تعالى نهى موسى ظاهراً و جميع المكلفين واقعاً أن
 يصدّهم عن ذكر السّاعة و المجازاة فيها من لا يصدّق بها من الكفّار و إتبع هواه
 أي هوى نفسه و قوله: فَتَرْدِي أَي فتهلك يقال ردّي يردي إذا هلك أي أن
 صددت عن السّاعة بترك التّأهب لها هلكت، و تردّي هلك بالسّقوط:

قال الله تعالى: **وَ لَا يَصُدُّنَكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**^(١).

قال الله تعالى: **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا**^(٢).

قال الله تعالى: **وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ**^(٣).

قال الله تعالى: **رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا**^(٤).

و الآيات كثيرة شكَّ أن الغفلة عن الآخرة أو الإعراض عنها يوجب السقوط عن مقام الإنسانية، و قوله: **فَتَرَدُّوْا** يجوز أن يكون منصوباً على جواز النهي و أن يكون مرفوعاً، أي فأنت تردى، على الخبر.

وَ مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى

ما، إستفهام مبتدأ و تلك خبره و يمينك، في موضع الحال كقوله و هذا لعلمي شيخاً، و العامل إسم الإشارة.

و قال الزمخشري يجوز أن يكون، تلك، إسماً موصولاً صلته بيمينك، إنَّما يصحَّ على مذهب الكوفيين، كأنه قيل و ما التي بيمينك، و هو في صورة السؤال لموسى عمّا في يده اليمنى و الغرض تنبيهه له عليها ليقع المعجز بها بعد التثبت فيها و التأمل لها، إن قلت، قوله و ما تلك بيمينك يا موسى، سؤال و هو لا يكون إلا لطلب العلم، و هو على الله محال لأنه قد أحاط بكل شيء علماً و لا يخفى عليه شيء.

قلت أجاب عنه صاحب الكشّاف و قال أنما سأله ليريه عظيم ما يخترعه عزّ و علا في الخشبة اليابسة من قلبها حيّة نضناضة و ليقرّر في نفسه المبايعة البعيدة بين المقلوب عنه و المقلوب إليه و ينهه على قدرته الباهرة و نظيره أن يريك الزرّاد زبرة من حديد و يقول لك ماهي فتقول زبرة من حديد ثمّ يريك بعد أيام لبوساً مردداً فيقول لك هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة و أنيق السرد إنتهى.

١- الزخرف = ٦٢

٢- الأعراف = ٤٥

٣- الزخرف = ٣٧

٤- النساء = ٦١

و قال الرّازي نظير ذلك إلا أنّه غير الألفاظ فكأنّه أخذه منه و حاصله أنّه تعالى قد نبّه العقول على كمال قدرته و نهاية عظّمته من حيث أنّه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله: **وَ مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى.**

و أجاب ثانياً بما حاصله أنّه لما تخيّر موسى من الدهشة و غلب عليه الخوف و الحيرة ممّا رآه من الشّجرة و إستماع كلام الله منها أراد الله تعالى إزالة تلك الدهشة و الخوف عنه فسأله عن العصا و هو أمر لا يقع الغلط فيه.

ثالثاً: لما عرّف موسى كمال الإلهيّة أراد أن يعرّفه نقصان البشريّة فسأله عن منافع العصا فذكر موسى بعضها فعرفه الله تعالى أنّ فيها منافع أعظم ممّا ذكره موسى تنبيهاً على العقول قاصرة عن معرفة صفات الشّي الحاضر.

رابعاً: أن يقرّر عنده أنّه خشبة إذا قلبها ثعباناً لا يخافها، إنتهى ما ذكره في الجواب ملخصاً.

و قال بعض المفسّرين منهم، أنّما إمتحن موسى بهذا السّؤال تنبيهاً له ليعلم أنّ للعصا عند الله إسماءً أخرى و حقيقة أخرى غير ما علمه منها فيخيّل علمها إلى الله تعالى فيقول أنت أعلم بها ياربّ فلما إنكّل على علم نفسه و قال هي عصاي فكأنّه قيل له أخطأت في هذا الجواب خطأين أحدهما في التّسمية بالعصا و الثّاني في إضافتها إلى نفسك و هو ثعبان لا عصاك إنتهى.

أقول هذا ما ذكره في المقام و أنت ترى أنّ هذه الأجوبة كلّها إستحسانات إختراعها أو هامهم و خيالاتهم و العقل السّليم لا يوافقها و لا سيّما الأخير منها فإنّه أشبه بكلام المجانين و أن نسبه صاحب روح البيان إلى التّأويلات ولم يعلم القائل و الناقل أنّ موسى لم يخطأ في الجواب أصلاً لا في التّسمية بالعصا و لا في إضافتها إلى نفسه.

و الذي يقوّي في النفس في حلّ الإشكال هو أنّه تعالى لما أوجد الصّوت في الشّجرة و قال أنّي أنا ربّك فأخلع نعليك، الآية دهش موسى منه و تعجّب

من ذلك و لَمَّا قَالَ أَنَا إِخْرَتَكَ فَاسْتَمَعَ إِلَى قَوْلِهِ: فَتَرَدَّدَى عِلْمٌ مِنْ ظَاهِرِ الْكَلَامِ أَنَّهُ بَعَثَ إِلَى النَّبُوَّةِ فِشَاءِ أَنْ يَرَاهُ اللَّهُ آيَةً أُخْرَى لِيُطْمَئِنَّ قَلْبُهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ الشَّجَرَةِ وَأَنَّهُ مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الْخَلْقِ فَقَالَ تَعَالَى: وَ مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى وَ اللَّهُ تَعَالَى كَانَ عَالِمًا بِهَا قَبْلَ السُّؤَالِ كَمَا كَانَ عَالِمًا بِجَوَابِ مُوسَى قَبْلَ قَوْلِهِ: هِيَ عَصَايَ، وَ أَنَّمَا سَأَلَهُ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقْرَأَ مُوسَى بِأَنَّ مَا فِي يَمِينِهِ هُوَ عَصَاهُ، ثُمَّ صَبَّرَهُ ثَعْبَانًا لِيَكُونَ آيَةً أُخْرَى لَهُ وَ أَنَّ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ يَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِ الصَّوْتِ فِي الشَّجَرَةِ أَيْضًا وَ بِذَلِكَ زَالَ الشَّكُّ عَنْ قَلْبِهِ بِالْكَلِيَّةِ وَ أُيْقِنَ بِصِحَّةِ النَّدَاءِ مِنَ الشَّجَرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ إِخْتَارَهُ لِلنَّبُوَّةِ وَ الرِّسَالَةِ.

ثَانِيهِمَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَهُ كَلِيمًا فَقَالَ لَهُ: مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى فَقَالَ مُوسَى هِيَ عَصَايَ الْخِ وَ هَذَا السُّؤَالُ وَ الْجَوَابُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى صَارَ كَلِيمًا لِلَّهِ وَ حَيْثُ إِتَجَرَ الْكَلَامُ إِلَى هَاهُنَا فَلَا بَأْسَ بِمَا ذَكَرَهُ الرَّازِي وَ غَيْرُهُ مِنْ مَفْسَّرِي الْعَامَّةِ وَ هُوَ أَنَّ الْخَطَابَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ مُوسَى كَانَ بِلَا وَاسِطَةٍ وَ لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُوسَى أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَ أَجَابُوا عَنِ الْإِشْكَالِ بِوَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا خَاطَبَ مُوسَى خَاطَبَ مُحَمَّدًا ﷺ فِي قَوْلِهِ: **فَأَوْحَى إِلَيَّ عَبْدِي مَا أَوْحَى** (١).

الثَّانِي: إِنْ كَانَ مُوسَى تَكَلَّمَ مَعَهُ وَ هُوَ مَعَ مُوسَى فَأَمَّةٌ مُحَمَّدًا ﷺ يَخَاطَبُونَ يَخَاطَبُونَ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ عَلَى مَا قَالَ ﷺ الْمَصْلِيُّ يَنَاجِي رَبَّهُ وَ الرَّبُّ يَتَكَلَّمَ أَحَادَ أُمَّةٍ مُحَمَّدًا ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالتَّسْلِيمِ وَ التَّكْرِيمِ فِي قَوْلِهِ: **سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ** (٢) إِنْتَهَى مَا ذَكَرَهُ الرَّازِي فِي الْجَوَابِ.

وَ نَحْنُ نَقُولُ مَا ذَكَرَهُ فِي الْجَوَابِ لَا يُمْكِنُ الْمُسَاعَدَةُ عَلَيْهِ لِأَنَّ الْوَحْيَ لَوْ كَانَ أَفْضَلَ مِنَ التَّكَلُّمِ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلَ مِنْ مُوسَى لِأَنَّ اللَّهَ أَوْحَى

اليهم ولم يكن الوحي مختصاً بمحمد ﷺ من بين الأنبياء حتى يكون دليلاً على أفضليته.

ثانياً: أن الله تعالى يقول في كتابه: **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ أَجْنَابٍ بُيُوتًا^(١)** فلو كان الوحي أفضل لكانت النحل أفضل من موسى وهو كما ترى لا يقول به عاقل فضلاً من مسلم.

وأما قوله: أن المصلي يناجي ربه فهذا أيضاً لا طائل تحته فإن أمة موسى وعيسى وجميع الأنبياء كانوا يصلون ويناجون ربهم وهو ظاهر.

وأما قوله والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد يوم القيامة الى آخر ما قال.

فيقال له أن كان الرب يتكلم يوم القيامة مع آحاد أمة محمد، فهو يتكلم مع آحاد جميع الأمم وأي دليل دل على إختصاص التكلم بهذه الأمة هذا مضافاً الى أن أصل الدعوى من الخرافات التي لا ينبغي أن يسمع اليها وأما صدر هذا الكلام من أهل السنة ولا سيما الأشاعرة منهم والله تعالى أعظم شأناً وأجل من أن يتكلم مع أحد شافهة بلا واسطة في الدنيا وفي الآخرة فكأنه لم يسمع قوله تعالى: **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ^(٢)** وهذا أصل يعتمد عليه في جميع المقامات وبذلك يظهر فساد قوله أن الخطاب كان لموسى بلا واسطة، ولم يحصل ذلك لمحمد ﷺ فإن الخطاب لجميع الأنبياء كان مع الواسطة، بإيجاد الله تعالى النداء فيها سواء كانت شجرة أو جبل أو غيرهما.

قال الله تعالى: **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا^(٣)**.

فقوله تكليماً يدل على أن التكلم معه كان نوعاً خاصاً أي من طريق الوحي أو من وراء حجاب وليس من سنخ التكلم المتعارف بين الناس كما زعمه الرازي ومثاله وللبحث فيه مقام آخر كما أن أفضلية محمد ﷺ على جميع

الأنبياء ثابتة في محلّه و التكلّم لا يكون دليلاً عليها فإنّ التكلّم على ما فسرناه في الجميع على حدّ سواء.

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ أَوَّلَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَهْشُ بِهِمَا عَلَيَّ غَنَمِي وَإِلَىٰ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ

لما سأل موسى بقوله مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى، أجب بأنّها عصاي أي أن الذي في يدي عصاي ثم ذكر موسى ما يترتب عليها من المنافع وهو ثلاثة. أحدها: قوله أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهِمْ.

ثانيها: قوله وَ أَهْشُ بِهِمَا عَلَيَّ غَنَمِي.

ثالثها: قوله وَإِلَىٰ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ.

أمّا قوله: أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهِمْ فَالتَّوَكُّي والإِعْتِمَاد واحد ومعناه أَعْتَمَد عليها إذا عييت فقوله أتوكأ، من توكأ يتوكأ مثل تَصَرَّفَ يَتَصَرَّفُ والضَّمير في عليها راجع على عصى و لا شك أن الإِتِّكَاء والإِعْتِمَاد من أهم منافع العصا و لذلك يأخذ بها من ضعف جسمه أو كان به مرض بحيث لا يقدر على المشي بدونها أو يشقّ عليه.

وقوله: وَ أَهْشُ بِهِمَا عَلَيَّ غَنَمِي أي أخطب بها ورق الشجر اليابس لترعاه غنمي قال الشاعر:

أهش بها بالعصا على أغنامي من ناعم الأراك و البشام

وقوله: وَإِلَىٰ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى، فالْمَآرِب جمع مأربة بفتح الراء و ضمّها وهي الحاجة و حكي بكسر الراء أيضاً، و الأرب بفتح الراء و الأربة بكسر الألف و سكون الراء الحاجة، و أنما قال أخرى لأنّ المَآرِب في معنى الحاجة فكأنّه قال جماعة من الحاجات أخرى، و في هذا الكلام إشارة إلى أنّ منافع العضا لا تنحصر بالإِتِّكَاء و الهش بل يترتب على العصا من المنافع غيرهما أيضاً ممّا لا يكاد يعدّ و هو ظاهر لا يحتاج إلى التوضيح و التفصيل لكونه من المحسوسات.

قال الرّازي أنّه قال هي عصاي فذكر العصا و من كان قلبه مشغولاً بالعصا و منافعها كيف يكون مستغرقاً في بحر معرفة الحقّ و لكن محمداً ﷺ عرض عليه الجنّة و النار فلم يلتفت الى شيء و لما قيل له أمدحنا قال لا أحصي ثناء عليك ثمّ نسي نفسه و نسي ثناء فقال أنت كما أثبتت على نفسك إنتهى كلامه و لقائل أن يقول للرّازي أيها الشّيخ لو سألت الله تعالى محمداً ﷺ كما سأل موسى و قال له ما تلك بيمينك يا محمّد، و كان في يده عصاه مثلاً فما كان جوابه لرّبه غير أن يقول هي عصاي و قد حكم العقل بأنّ الجواب مطابق للسؤال و الإستغراق في بحر معرفة الله لا ينافي التكلّم بالجواب لأنّه أمرٌ قلبيّ و الجواب أمرٌ لفظيٌّ و أيّ دليلٍ على أنّ المستغرق في بحر معرفة الله لا يتكلّم بالألفاظ و لا يراعي الجواب مطابقاً للؤلأ و من أين ظهر لك أنّ قلبه، أي قلب موسى كان مشغولاً بالعصا فإن كان غرض الرّازي من هذه الكلمات إثبات أفضليّة محمداً ﷺ على موسى كما يظهر من كلامه فهي أي الأفضليّة ثابتة لا كلام لأحدٍ فيه لكن لا بهذه الكلمات التي لا دليل على صحّتها من العقل و النقل.

أن قلت لما قال موسى هي عصاي فقد تمّ الجواب و ذلك لأنّ الله تعالى لم يسأل عن منافع العصا بل سأل عمّا في يده و قد ثبت أنّ الجواب يكون مطابقاً للسؤال.

قلت ذكروا في وجه التّفصيل أنّ موسى كان يحبّ المكالمة مع ربّه فجعل تفصيل الكلام محصلاً للغرض و هذا الجواب إرضاه الكلّ و لم يخالف فيه أحد من المفسرين.

و أنا أقول هذا الجواب لا يصحّ عقلاً و لا عرفاً و ذلك لأنّ حبّ المكالمة قد يكون من ناحية المخاطب و قد يكون من جانب المتكلّم و قد يكون من الطرفين، فإن كان من جانب المخاطب فقط فهو لا يوجب تفصيل الكلام و صحّته إذ من الممكن أن لا يكون المتكلّم ممّن يحبّ المكالمة أكثر من

الجواب، و أن كان الحبّ من جانب المتكلّم فهو محتاج إلى الدليل و من أين ثبت على موسى أنّ الله يحبّ تفصيل الكلام بل الأمر بالعكس لأنّه لو أراد التفصيل جعل السّؤال كذلك و حيث لم يجعل السّؤال مفصلاً و منع بالأقلّ نكشف أنّه أحبّ الإختصار، و أن كان مرادهم من حبّ المكالمة حبّها من الطّرفين فعليهم بالإثبات و محصل الكلام أنّ قوله: **هِيَ عَصَايَ إِلَى قَوْلِهِ: وَ لِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى سِوَالِ وَاحِدٍ وَ هُوَ مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** خارج عن المتعارف في المحاورات و المكالمات فلا بدّ له من دليل.

فَنَقُولُ أنّ ما ذكره في الجواب متفرّع على أن تكون ما، في قوله: **مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ**، ما الحقيقيّة التي بها يسأل عن ماهيّة المسمّى كقولك الإنسان ماهو، أي ما حقيقة و ماهيّة و الجواب حيوان ناطق فقط فلا يقال في جواب هذا السّؤال أكثر من قولنا، حيوان ناطق، إذ به يبيّن مقصود المتكلّم و هو معرفة ماهيّة الإنسان فلو قال المخاطب في الجواب الإنسان حيوان ناطق ضاحك مستقيم القامة يرى و يسمع و يمشي إلى غير ذلك من الأوصاف لا يصحّ لأنّ الغرض من السّؤال قد حصل بقوله حيوان ناطق.

و سائر الأوصاف من عوارض الماهيّة لا منها و على هذا يتّوجه الإشكال يصحّ للمخاطب أن يقول أتّي أردت من التفصيل كذا و كذا أو كنت أحبّ المكالمة مع المتكلّم.

و أمّا إذا كانت غير حقيقته و هي التي لا يسأل بها عن حقيقة الشّيء و ماهيّة بل الغرض منها شرح اللفظ فلا بدّ للمخاطب أن يشرح المسؤول عنه و يوضحه حتّى يرتفع الإبهام مثلاً إذا قال المتكلّم ما هذه الشّجرة، لا يصحّ للمخاطب أن يقول هذه خشبة مستقيم القامة، لأنّ كونها كذلك معلوم عند المتكلّم بل ينبغي أن يشرح المخاطب منافعها بأن يقول هذه شجرة يترتب عليها من المنافع كذا و كذا إذا عرفت هذا و علمت أنّ السّؤال، بما، قد يكون على سبيل الحقيقة و قد لا يكون و بعبارة أخرى، ما، قد تكون حقيقة و قد تكون شارحة،

ففي قوله تعالى: **مَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**، لم يدلّ دليل على أنّ المراد، بما، في قوله، ماتلك، ما الحقيقيّة التي يسأل بها عن ماهيّة الشئ و إذا لم تكن حقيقية فهي شارحة و هو المطلوب.

و الدليل على أنّها ليست حقيقة هو أنّ موسى لم يبيّن في الجواب ماهيّة العصا و حقيقتها بل قال هي عصاي فعبر عن الخشبة التي كانت في يده بأنّها عصاه و هو أي الجواب شرح اللفظ لا بيان ماهيّة الخشبة فإنّ كون الخشبة عصاه من عوارض الخشبة و منافعها لا أنّ العصا حقيقتها و ماهيتها و من هنا يظهر أنّ موسى عليه السلام فهم من الكلام أنّ الله تعالى لم يرد بالسؤال ماهيّة الخشبة التي كانت يمينه بل أراد بيان ما يترتب عليها من المنافع و الآثار فأجاب موسى بما يقتضيه السؤال و ذكر من منافعها إجمالاً و تفصيلاً ما أشارت إليه الآية و إذا كان كذلك فلا إشكال و لا جواب بل الجواب مطابق للسؤال طابق النعل بالنعل و لو كان الأمر كما ذكره من حمل الماء على ما، الحقيقيّة يتوجه على موسى إشكال آخر و هو أنّ السؤال عن ماهيّة الخشبة و الجواب عن عوارضها و أوصافها و هو لا يليق بمقام النبي هذا ما فهمناه من الآية و به يندفع الإشكال من أصله و لا نحتاج إلى التكلّفات الباردة و الأقوال الواهية في الجواب إذ لا إشكال في المقام حتّى يحتاج إلى الجواب و الله أعلم بكلامه.

قال فَأَلْقِيهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى

لما قال موسى هي عصاي إلى آخر ما قال قال تعالى له ألقها أي ألق عصاك فألقها موسى فإذا هي، أي الخشبة، حيّة تسعى أي تسرع في الأرض، قوله: إذا، للمفاجأة و الحيّة تطلق على الصّغيرة و الكبيرة و الذّكر و الإناث و الجانّ الرّقيق من الحيات و النّعبان العظيم منها و لا تنافي بين تشبيهها بالجانّ في قوله: **فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ** ^(١) و بين كونها ثعباناً لأنّ تشبيهها بالجانّ في

أول حالها ثم تزيد حتى صارت ثعباناً أو شبّهت بالجانّ و هي ثعبان في سرعة حركتها و إهتزازها مع عظم خلقها، قيل لما ألقى عصاه صارت ثعباناً كان لها عرف كعرف الفرس و صارت شعبتنا العصا لها فماً و بين لحيتها أربعون ذراعاً.

و عن ابن عباس إنقلب ثعباناً تتلع الصخر و الشجر و عيناها تتقدان فلما رأى موسى هذا الأمر العجيب الهائل لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال و المخاوف لا سيما هذا الأمر الذي يذهل العقول و معنى تسعى تنتقل و تمشي بسرعة و حكمة إنقلابها وقت مناجاته تأنيسه بهذا المعجز الهائل حتى يلقيا لفرعون فلا يلحقه دعرٌ منها في ذلك الوقت إذ قد جرت له بذلك عادة و تدريبه في تلقي تكاليف التوبة و مشاق الرسالة ثم أمره الله تعالى بالإقدام على أخذها و نهاه أن يخاف منها كما قال تعالى:

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى

قال، أي قال الله تعالى له، خذها، أي تناولها بيدك تخف، منها (سنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى أي سعيدها إلى صورة الخشبة و قيل سعيدها خلقتها الأولى و المعنى واحد، و قيل لما قال تعالى له لا تخف بلغ من ذهاب خوفه و طمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها و أخذ بلحيتها و حين أخذها بيده صارت عصا كما كانت فقله: سِيرَتَهَا الْأُولَى مفعول ثانٍ سعيدها على حذف الجار مثل قوله و إختار موسى قومه، أي إلى سرتها الأولى أو بدلاً من مفعول سعيدها بدل إشمالٍ فهذه المعجزة أول معجزة جرت على يد موسى عليه السلام.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

وَ أَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى
الجناح حقيقة في الطائر و الملك ثم توسع فيه فأطلق على اليد و على العضد و على جنب الرجل و أصل الجنوح الميل و منه جناح الطائر لأنه يميل

به في طيرانه حيث شاء و الجنب فيه جنوح الأضلاع و أصل العضد من جهته تميل حيث شاء صاحبها و قال أبو عبيدة الجناحان النّاحيتان.

و قال بعض المفسرين يقال لكلّ ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لظففيه و جناحا الإنسان جنباه و الأصل المستعار منه جناحا الطائر لأنّه يجنحهما عند الطيران و معنى ضمّ اليد إلى الجناح في قوله: وَ أَضْمُمُ يَدَكَ إِلَيَّ جَنَاحِكَ يعلم من قوله تعالى في آية أخرى:

قال الله تعالى: وَ أَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ^(١).

قال الله تعالى: أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ^(٢).

و القرآن يفسر بعضه بعضاً فقوله: وَ أَضْمُمُ يَدَكَ إِلَيَّ جَنَاحِكَ، معناه أدخل يدك في جيبك فعلى هذا يكون الجناح في الآية كناية عن الجيب تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فالسوء الرداءة و القبح في كل شيء فكنتى عنه بالبرص كما كنتى عن العورة بالسوءة و البرص أبغض شيء إلى العرب فكان جديراً بأن يكتى عنه و المعنى تخرج بيضاء يدك من غير برص.

إن قلت قال تعالى: وَ أَضْمُمُ يَدَكَ إِلَيَّ جَنَاحِكَ و لم يقل إلى جيبك فما

معنى الخروج.

قلت قوله: تَخْرُجُ دليل على الدخول إذا لو لم يكن خروج، قيل خرجت يده بيضاء تشف و تضي كأنها شمس و كان آدم اللون فكان إذا أدخل يده في جيبه و أدخلها تحت إبطه الأيسر و أخرجها كانت تبرق مثل البرق الشمس من غير برص ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول بلا نور، قيل اليد أعظم في الإعجاز من العصا و قيل بالعكس و لا فائدة في هذا البحث لأنّ الأنظار مختلفة و العقول متفاوتة و هو ظاهر على المتأمل.

لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى

قال صاحب الكشاف أي خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حيّة لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى، أي بهاتين الآيتين نريك بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

وَأَمَّا قَالَ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ولم يقل لنريك آياتنا الكبرى بحذف من، للدلالة على أن ما أراه الله من الآيات هو بعضها لا جميعها فأن الآيات كثيرة لا يحصيها إلا هو و لذلك أتى، بكلمة من، التي للتبعض ثم أنهم اختلفوا في تركيب الآية من حيث الإعراب فقال بعضهم أن الكبرى مفعول ثانٍ لنرى و مفعول الأوّل كان الخطاب و قيل: مِنْ آيَاتِنَا فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي و تكون الكبرى صفة لآياتنا على حدّ الأسماء الحسنى، و قارب أخرى و الّذي نختاره في المقام هو أن يكون، من آياتنا، في موضع المفعول الثّاني، لنريك، و الكبرى، صفة لآياتنا لأنّه يلزم من ذلك أن تكون آياته تعالى كلّها هي الكبير، لأنّ ما كان بعض الآيات الكبر صدق عليه أنّه الكبرى و إذا جعلت الكبرى مفعولاً لم تتّصف الآيات بالكبر لأنّها هي المتّصفة بأفعل التّفصيل و أيضاً إذا جعلت الكبرى مفعولاً ثانياً فلا يمكن أن يكون صفة كالعصا و اليد معاً لأنّهما كان يلزم التّثنية في وصيفهما و الأمر سهل بعد وضوح المعنى.

أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى

أمر الله تعالى موسى بعد أن أراه الآيتين و هما قلب العصا حيّة، و اليد البيضاء، أن يذهب إلى فرعون و بيّن العلة في ذلك بقوله أنّه أي فرعون طغى، أي تجاوز قدره في عصيان الله و تجاوز به قدر معاصي الناس و ذلك أنّه ادّعى الألوهيّة و أجبر الناس على الإعتراف و لإقرار بالوحيّة و أيّ طغيانٍ أشدّ و أعظم منه قيل أنّه تعالى قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إسمع كلامي و أحفظ وصيّتي و أنطق برسالاتي فإنّك بعيني و سمعي و أنّ معك يدي و بصري و أنّي ألبستك

جَنَّةٍ مِنْ سُلْطَانِي لَتَسْتَكَمِلَ بِهَا الْقُوَّةَ فِي أَمْرِي أُبْعَثُكَ إِلَى خَلْقٍ ضَعِيفٍ مِنْ خَلْقِي بَطَرِ نِعْمَتِي وَأَمِنْ مَكْرِي وَغَرَّتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى جَحَدَ حَقِّي وَأَنْكَرَ رُبُوبِيَّتِي وَأَنْتِي أَقْسَمُ بِعِزَّتِي لَوْلَا الْحِجَّةُ وَالْعَذْرُ الَّذِي وَضَعْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي لَبَطَشْتَ بِهِ بِطَشَةِ جِبَارٍ وَكُلَّ هَانَ عَلَيَّ وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِي فَبَلَغَهُ عَنِّي رِسَالَتِي وَأَدْعُهُ إِلَى عِبَادَتِي وَحَذَرَهُ نِقْمَتِي وَقَالَ لِيْنَا فَأَنْ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي لَا يَطْرَفُ وَلَا يَتَنَفَسُ إِلَّا بَعَلْمِي فَسَكَتَ مُوسَى سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَا يَتَكَلَّمُ ثُمَّ جَاءَهُ مَلِكٌ فَقَالَ أَجِبْ رَبَّنَا فِيمَا أَمَرْنَاكَ بِعِبَادَتِهِ وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى .

رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ أَخْلُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هُرُونَ أَخِي، أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا، قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى بِالذَّهَابِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهُوَ فِي سَطْوَتِهِ وَ قَدْرَتِهِ، سَأَلَ رَبَّهُ أُمُورًا ثَمَانِيَةَ ثُمَّ ذَكَرَ فِي أُخْرَاهَا مَا يَجْرِي مَجْرَى الْعَلَّةِ لِلسُّؤَالِ:

الأول: طلب منه تعالى شرح الصدر وإلى ذلك أشار بقوله: رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي وَ المَرَادُ بِشَرْحِ الصَّدْرِ وَسَعَتِهِ وَ قِيلَ بَيِّنُهُ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ شَجَعَنِي لِأَجْتَرِي بِهِ عَلَى مَخَاطَبَةِ فِرْعَوْنَ وَ أَمَّا قَدَّمَهُ عَلَى سَائِرِ الْأُمُورِ لِتَقَدُّمِهِ عَقْلًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ وَ لَا سِيمَا فِي حَقِّ النَّبِيِّ الْأَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ^(١).

قال بعض المفسرين أن الله تعالى خاطب موسى بالأشياء الستة:

أحدها: معرفة التوحيد فقال إنني أنا الله لا إله إلا أنا.

ثانيها: أمره بالعبادة والصلاة فقال فأعبدني وأقم الصلاة لذكركي.

ثالثها: معرفة الأخره حيث قال أن الساعة آتية.

رابعها: حكمة أفعاله في الدنيا في قوله: **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ.**

خامسها: عرض المعجزات الباهرة عليه في قوله: **لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ.**

سادسها: إرساله الى أعظم الناس كفراً وعتوّاً في قوله: **إِذْ هَبَّ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ طَغَىٰ،** فكانت هذه التكاليف الشاقة سبباً للقهر فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجزة فعرفه أن كل من سأله قرب منه حيث قال تعالى: **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** (١) وموسى كان مخصوصاً بالقرب لقوله تعالى: **وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** (٢) ولذلك قال رَبِّ **أَشْرَحْ لِي صَدْرِي** أو يقال أنه خاف شياطين الإنس والجن فدعا ربّه و طلب منه شرح الصّدر ليكون مأموناً من غوائلهم إنتهى.

أقول لا نحتاج الى هذه التكاليف في الباب بعد وضوح المعنى وأن العبد محتاج الى ربّه في جميع شؤنه ولا سيّما مقام النبوة حيث أن النبي كان مكلفاً بما إحتاج معه الى إحتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأشٍ رابطٍ و صدرٍ فسيح، و لذلك سأل ربّه أن يشرح صدره ليحتمل ما يرد عليه من الشدائد التي يضيق لها الصّدر وهذا واضح.

الثاني: قوله: **وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي،** أي سهّل عليّ أمر النبوة التي هي خلاقة الله في أرضه و ما يصحبها من مزاولة جلائل الخطوب و قد علم موسى ما عليه فرعون من الجبروت و التمرد و التسلط و الطغيان و الإنكار للحقّ.

الثالث: قوله: **وَ أَحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي،** وذلك لأنّ طلاقة اللسان من أهمّ شرائط التبليغ لأنّ المبلّغ إذا لم يقدر على بيان مراده بأحسن الوجوه لا يتّرتب على تبليغه أثر إذ المفروض أن المخاطب لم يفهم مراده و لذلك قال رسول

اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ الْعَلِيمُ أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بِيَدِ أُنْتِي مِنْ قَرِيشٍ، وَالْحَلَّ نَفِي الْعَقْدِ بِالْفَرْقِ وَ ضَدَّ الْحَلَّ الْعَقْدَ، وَيَقَالُ أَنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِ مُوسَى رَثَّةٌ وَ هِيَ الَّتِي لَا يَفْصَحُ مِنْهَا بِالْحُرُوفِ وَ قِيلَ أَنَّ سَبَبَ الْعَقْدَةِ فِي لِسَانِهِ أَنَّهُ طَرَحَ جِمْرَةً فِيهِ لَمَّا أَرَادَ فِرْعَوْنَ قَتْلَهُ لِأَنَّهُ أَخَذَ لِحِيْتَهُ وَ قَدَّمَ بِرَّ بِيَانِ ذَلِكَ مَفْصَلًا، وَ قِيلَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَطَمَهُ، وَ قِيلَ ضَرَبَهُ بِقَضِيْبٍ كَانَ فِي يَدِهِ وَكَيْفَ كَانَ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْعَقْدَةَ كَانَتْ مِنْ الْعَوَارِضِ لَا بِحَسَبِ الطَّبِيعَةِ وَ الْخَلْقَةِ كَمَا زَعَمَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ وَ غَيْرِهِمْ.

الرَّابِعُ: قَوْلُهُ: **يَفْقَهُوْا قَوْلِي** طَلَبَ مُوسَى مِنْ حَلِّ الْعَقْدَةِ قَدْرَ مَا يَفْقَهُ قَوْلُهُ قِيلَ وَ بَقِيَ بَعْضُهَا لِقَوْلِهِ وَ أَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا، وَ لِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ وَ أَحْلَلَ الْعَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي، فَقَوْلُهُ وَ أَحْلَلَ عَقْدَةً آيَةٌ عَقْدَةٌ كَانَتْ وَ لِذَلِكَ نَكَرَهَا فَالْتَّنْكِيرُ يَفِيدُ التَّنَوُّعَ وَ الْبَعْضِيَّةَ، وَ قِيلَ زَالَتْ بِالْكَلِيَّةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى** وَ هُوَ ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ أَيُّ مُوسَى لَمْ يَقُلْ وَ أَحْلَلَ الْعَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي بَلْ قَالَ عَقْدَةً فَإِذَا حَلَّ عَقْدَةً فَقَدْ أَتَاهُ اللَّهُ سُؤْلَهُ.

وَ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ وَ فِي تَنْكِيرِ الْعَقْدَةِ وَ أَنَّ لَمْ يَقُلْ وَ أَحْلَلَ عَقْدَةَ لِسَانِي، أَنَّهُ طَلَبَ حَلَّ بَعْضِهَا، فَقَوْلُهُ مِنْ لِسَانِي صِفَةٌ لِلْعَقْدَةِ كَأَنَّهُ قِيلَ وَ أَحْلَلَ عَقْدَةَ مِنْ عَقْدٍ لِسَانِي.

أَقُولُ وَ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ مِنْ لِسَانِي، مَتَعَلِّقٌ بِأَحْلَلَ.

الخَامِسُ: قَوْلُهُ: **وَ أَجْعَلُ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي** الْوَزِيرُ بَفَتْحِ الْوَاوِ الْمَعِينِ الْقَائِمُ بِوِزْرِ الْأُمُورِ أَيُّ بِثِقَلِهَا فَوْزِيرُ الْمَلِكِ يَتَحَمَّلُ عَنْهُ أَوْزَارَهُ وَ مُؤْنَهُ وَ قِيلَ مِنْ الْوِزْرِ وَ هُوَ الْمَلْجَأُ يَلْتَجَأُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

مِنَ السَّبَاعِ الضُّوَارِي دُونَهُ وَزُرُ وَ النَّاسِ شَرَّهُمْ مَا دُونَهُ وَزُرُ
كَمْ مَعْشَرٍ سَلِمُوا لَمْ يَزِدْهُمْ سَبْعُ وَ مَا نَرَى بَشْرًا لَمْ يُوْذَمْ بِبَشْرُ
فَالْمَلِكُ يَعْتَصِمُ بِرَأْيِهِ وَيَلْتَجَأُ إِلَيْهِ فِي أُمُورِهِ

وقال الأصمعي هو من الموازرة وهي المعاونة والمساعدة والقياس أوزير.
وكذا قال الرّمخسري فقلبت الهمزة الى الواو ووجه قلبها أنّ فعيلًا جاء في
معنى فاعل وقال بعضهم لا حاجة إلى إدعاء قلب الهمزة واوًا لأنّ لنا إشتقاقًا
واضحًا وهو الوزر وجوّزوا أن كون لي وزيراً مفعولين لأجعل، و هارون بدل أو
عطف بيان، وأن يكون وزيراً و هارون مفعوليه و قدّم الثّاني إعتناءً بأمر الوزارة،
وأخي بدل من هارون في هذين الوجهين، و في قوله: **مِنْ أَهْلِي** إشارة إلى أن
يكون الوزير من أهل بيت موسى و لذلك قال بعد هذا الكلام هارون أخي.

السادس: قوله: **هُرُونَ أَخِي** قيل كان هارون أكبر من موسى بأربعة أعوام و
هو أخوه من أمّه وأبيه و مات قبل موسى في الثّيبه.

السابع: قوله: **أَشْدُّ بِهِ أَزْرِي** الأزربفتح الهمزة الظّهر يقال أزرني فلان
على أمري أي كان لي ظهراً و منه المئزر لأنّه يشد على الظّهر و قيل يجوز أن
يكون أزر، لغة في وزر و هو ضعيف و في هذا الكلام إشارة إلى أن الأخ يشد به
الظّهر لا غيره من الأقرباء و لذلك قيل في موت الأخ الآن إنكسر ظهري و قلت
حيلتي و لا يقال هذا الكلام في موت غيره من الأقرباء حتّى الأولاد.

الثامن: قوله: **وَ أَشْرِكُهُ فِيّ أَمْرِي** بالأمر النبوة أي أشركه في نبوتي و كان
هارون كذلك لو بقي بعد موسى إلا أنّه مات قبله و لما طلب موسى من ربّه ما
سأل قال كما حكى الله عنه **كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا** فهذا الكلام
منه بمنزلة العلة كأنه قيل لم سألت من ربك ما سألت فقال كي نسبحك كثيراً و
نذكرك كثيراً، أي أنّما سألت ربّي ذلك لأجل التّسبيح و الذّكر، فالتّسبيح هو
التّزبیه لله عمّا لا يجوز عليه من وصفه بما لا يليق به فكلّ شيء عظم به الله
بنفي ما لا يجوز عليه فهو تسبيح مثل قوله سبحانه الله و الحمد لله و لا إله إلا
الله و الله أكبر، و قوله **وَ نَذْكُرَكَ كَثِيرًا** معناه نذكرك بحمدك و الثّناء عليك لما
أوليتنا من نعمك و مننت به علينا من يحتمل رسالتك قاله في التّبيان.

أقول قَدَمَ التَّسْبِيحِ لِأَنَّهُ تَزْيِيهِهِ تَعَالَى فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَمَلًا يَلِيْقُ بِجَنَابِهِ وَ بَرَاءَتِهِ عَنِ التَّقَائِصِ وَ مَحَلَّ ذَلِكَ الْقَلْبُ وَ أَمَّا الذِّكْرُ وَ التَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَ مَحَلَّهُ اللُّسَانُ فَلِذَلِكَ قَدَّمَ مَا مَحَلَّهُ الْقَلْبُ عَلَى مَا مَحَلَّهُ اللُّسَانُ كَثِيرًا، قَوْلُهُ: كَثِيرًا نَعَتْ لِمَصْدَرٍ مَحذُوفٍ أَوْ مَنْصُوبٍ عَلَى الْحَالِ أَي نَسَبَحُكَ التَّسْبِيحِ فِي حَالِ كَثْرَتِهِمْ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ سَبِيوِيهِ وَ قَوْلُهُ: إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا أَي أَنْتَ عَالِمٌ بِأَحْوَالِنَا وَ أُمُورِنَا وَ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْهَا إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ:

رَوَى الْحَافِظُ الْحَسْكَانِي فِي الشُّوَاهِدِ التَّنْزِيلِ بِأَسْنَادِهِ عَنِ حَدِيثِ ابْنِ أُسَيْدٍ قَالَ، أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ، أَبَشِرْ أَبَشِرْ أَنَّ مُوسَى دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِهِ هَارُونَ وَ أَنِّي أَدْعُو رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيٌّ أَخِي أَشَدُّ بِهِ ظَهْرِي وَ أَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي إِنَّتَهَى.

وَ أَيْضًا بِأَسْنَادِهِ عَنِ أَسْمَاءِ بِنْتِ عَمِيْسٍ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي مُوسَى اللَّهُمَّ وَ أَجْعَلْ لِي وَ زِيرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيًّا أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي إِلَى قَوْلِهِ: كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا إِنَّتَهَى.

وَ أَيْضًا بِأَسْنَادِهِ عَنِ أَسْمَاءِ بِنْتِ عَمِيْسٍ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي مُوسَى رَبِّ أَشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ أَجْعَلْ لِي وَ زِيرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيًّا أَخِي إِنَّتَهَى. وَ بِأَسْنَادِهِ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ اللَّهُمَّ وَ أَجْعَلْ لِي وَ زِيرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي يَعْنِي ظَهْرِي وَ أَشْرَكَهُ فِي أَمْرِي يَكُونُ لِي صَهْرًا وَ خَتَنًا إِنَّتَهَى.

أقول و روى أبي المغازلي الشافعي بأسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال فأخذ رسول الله ﷺ بيد عليّ فصلّى أربع ركعات ثمّ رفع يده إلى السّماء فقال اللهمّ سألك موسى بن عمران وأنا محمّد أسألك أن تشرح لي صدري و تيسر لي أمري و تحلّل عقدة من لساني يفقهوا قولي و أجعل لي و زيراً من أهليّ عليّاً أشد به أزرى و أشركه في أمري فقال ابن عباس سمعت منادٍ ينادي يا أحمد قد أوتيت ما سألت فقال النبيّ ﷺ يا أبا الحسن أرفع يدك إلى السّماء و أدع ربك و إسأله يعطيك فرفع عليّ يده إلى السّماء و هو يقول اللهمّ إجعل لي عندك وداً فأنزل الله على نبيّه، أن الذين آمنوا و عملوا الصّالحات سيجعل لهم الرّحمن وداً فتلاها النبيّ ﷺ على أصحابه فعجبوا من ذلك عجباً شديداً فقال النبيّ ﷺ ممّ تعجبون أن القرآن أربعة أرباع فربّع فينا أهل البيت خاصّة و ربّع حلال و حرام، و ربّع فرائض و أحكام، و الله أنزل في عليّ كرائم القرآن إنتهى.

و روى في الدرّ المنثور و هو من أحسن التّفاسير عند العامّة بأسناده عن أبي جعفر بن عليّ عليه السلام قال: لما نزلت و أجعل لي و زيراً من أهليّ هارون أخي أشد به أزرى، كان رسول الله ﷺ على جبلٍ ثمّ دعا ربّه و قال اللهمّ أشد أزرى بأخي عليّ فأجابه إلى ذلك إنتهى^(١).

و الأحاديث من طرق العامّة في الباب كثيرة و أمّا الخاصّة أعني بها الشيعة فالمؤاخذات عندهم من المسلمات فلا نحتاج إلى ذكر أحاديثهم في المقام روى في المناقب عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال سمعت عليّاً ينشد و رسول الله يسمع:

أنا أخو المصطفى لا شك في نسبي
 معه ربيت و سبطاه هما ولدي
 جدي و جد رسول الله منفرد
 وفاطم زوجتي لا قول ذي فند
 والحمد لله شكراً لا شريك له
 التبر بالعبد و الباقي بلا أحد
 قال جابر فتبسم رسول الله ﷺ وقال صدقت إنتهى.

ولنعم ما قيل:

علي أخوه المصطفى قد رويم
 و شيخاً كما قد قلتما أخوان



وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٦) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ
 أَمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٧) أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ
 فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
 عَدُوُّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ
 لِيُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٨) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ
 هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ
 كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَجَعَلْنَاكَ
 مِنَ الْغَمِّ وَ فَتْنَاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ
 مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٣٩) وَ
 أَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤٠) أَذْهَبَ أَنْتَ وَ أَخُوكَ
 بِآيَاتِي وَ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤١) إِذْهَبَا إِلَىٰ
 فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٢) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتِنَا لَعَلَّهُ
 يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٣) قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ
 يَقْرَظَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٤) قَالَ لَا تَخَافَا
 إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَىٰ (٤٥) فَاتَيْنَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا
 رُسُلَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا
 تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلَامُ عَلَىٰ
 مَنْ أَتْبَعَ الْهُدَىٰ (٤٦) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ
 الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ (٤٧) قَالَ فَمَنْ
 رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٨) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ
 شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٤٩)

◀ اللّغة

أَقْدِفِيهِ: القذف الطرح.
 فِي الْيَمِّ: اليم بفتح الياء و سكون الميم المشددة البحر، و المراد به هنا النيل.
 لِتُصْنَعِ: أي يتغذى.
 فَتُنَّاكَ فُتُونًا: أي إختبرناك إختباراً.
 فَلَبِثْتَ: أي أقمت يقال لبث في قومه مدة أي أقام فيهم.
 وَأَصْطَفَعْنَاكَ: أي إصطفيتك.
 وَلَا تِنِّيَا فِي ذِكْرِي: أي لا تغتر، يقال ونى في الأمر نبي إذا فتر فيه.

◀ الإعراب

إِذْ أَوْحَيْنَا هُوَ ظرف، لَمِنَّا أَقْدِفِيهِ أَنْ مصدرية بدلاً من، ما يوحي و يجوز أن تكون بمعنى، أي، فَلَبِثْتَهُ أَمْرٌ لِلْغَائِبِ وَ مَبْنِي تَتَلَقَّ، بِالْقَيْتِ وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ نَعْتًا لِمَحَبَّةِ أَيْ لِتَحَبُّ وَ لِتُصْنَعِ إِذْ تَمَشِي بدل من، إذ الأولى و التقدير إذ ذكر إذ تمشي فُتُونًا مصدر مثل القعود و يجوز أن يكون جمعاً تقديره بفتون كثيرة على قدر حال أي موافقاً لما قدر لك خَلَقَهُ مَفْعُولُ أَوَّلِ كُلِّ شَيْءٍ ثَانٍ أَيْ أُعْطِيَ مَخْلُوقَهُ كُلَّ شَيْءٍ وَ قِيلَ هُوَ عَلَى وَجْهِهِ وَ الْمَعْنَى أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ خَلَقَهُ أَيْ هُوَ الَّذِي يُبْتَدِعُهُ، وَ يَقْرَأُ، خَلَقَهُ، عَلَى الْفِعْلِ وَ الْمَفْعُولِ الثَّانِي مَحذُوفٌ لِلْعِلْمِ بِهِ.

◀ التفسير

وَ لَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى بِأَنَّهُ قَدْ آتَاهُ مَا طَلَبَهُ وَ أُعْطَاهُ سَوْأَهُ فِي قَوْلِهِ: قَدْ أَوْتَيْتَ سَوْأَكَ يَا مُوسَى^(١) أشار إلى ما تقدّم من نعمه عليه و مننه لديه فقال ولقد مننا عليك مرة أخرى و هي حفظه عن القتل حين الولادة.

وقال بعضهم المعنى أعطيت طلبتك وما سألتك من شرح الصدر و تيسير الأمر و حل العقدة و جعل أخيك وزيراً و ذلك من المنّة عليه ثم ذكر الله تعالى تقديم منّة أخرى عليه على سبيل التوقيف ليعظم إجهاده و تقوي بصيرته و قوله: مَرَّةً مَعْنَاهُ، مَنَّةٌ، كَأَنَّهُ قَالَ مَنَّةً أُخْرَى، و أُخْرَى، تَأْنِيثٌ أُخْرَ بِمَعْنَى، غَيْرِ، أَي مَنَّةٍ غَيْرِ هَذِهِ الْمَنَّةِ وَ لَيْسَتْ أُخْرَى، بِمَعْنَى، أُخْرَى فَتَكُونُ مُقَابِلَةً لِلأُولَى وَ تَحْيِيلُ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ فَقَالَ سَمَّاهَا أُخْرَى وَ هِيَ أُولَى، لِأَنَّهَا أُخْرَى فِي الذِّكْرِ، وَ الأُخْرَى لَفْظٌ مُشْتَرِكٌ يَكُونُ تَأْنِيثُ الأُخْرَ بِفَتْحِ الخَاءِ وَ تَأْنِيثُ الأُخْرَ بِمَعْنَى الأُخْرَى (أُخْرَى) فَهَذِهِ يَلْحَظُ فِيهَا مَعْنَى التَّأَخُّرِ وَ الْمَعْنَى إِنِّي قَدْ حَفِظْتُكَ وَ أَنْتَ طِفْلٌ رَضِيْعٌ فَكَيْفَ لَا أَحْفَظُكَ وَ قَدْ أَهْلَيْتُكَ لِلرَّسَالَةِ فَفِي قَوْلِهِ: مَرَّةً أُخْرَى إِبْجَامًا يَفْسِّرُهُ قَوْلُهُ: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ.

أقول لا يحتاج الكلام إلى هذا التفصيل و ذلك لأن الله تعالى قد منّ على موسى مرتين، مرّة في حال الطفولية على ما سبق شرحه و مرّة بعد النبوة فقوله و لقد منّا عليك مرّة أخرى، أي في حال الطفولية كما قال تعالى: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى قَالَ الْجُمْهُورُ الوحي هنا وحي إلهام كقوله: وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ^(١) و قيل وحي إعلام إمّا بإراءة ذلك في منام و إمّا ببعث ملك إليها لا على جهة النبوة كما بعث إلى مريم و هذا هو الظاهر، لظاهر قوله يأخذه عدوّ لي و عدوّ له و لظاهر قوله في سورة القصص: إِنَّا زَادُوهُ إِيَّاكَ وَ جَاعَلُوهُ مِنْ أَلْمُزْسَلِينَ^(٢) و حيث أنّ في قوله ما يوحى إلهام و إجمال فسره بقوله:

أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي أَلَيْمٍ فَلْيُلْقِهِ أَلَيْمٌ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
عَدُوُّ لِي وَ عَدُوُّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي
أي أوحينا إلى أمك أن أقذفيه في التابوت و القذف الطرح.
قال الزمخشري (أن) هي المفسرة لأنّ الوحي بمعنى القول، و قال ابن

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

عطيّة هي أي أن، بدل من، ما، يعني أنّها مصدريةً فلذلك كان لها موضع من الإعراب والوجهان سائغان والظاهر أنّ التّابوت كان من خشب وقيل من بردى شجر مؤمن آل فرعون سنّدت خروقه وفرشت فيه نطعاً وقيل قطناً محلوجاً وسدّت فمه وجصّصته وقيرته وألقته في اليمّ وهو إسمٌ للبحر العذب والمراد به في المقام النيل وأما القول بأنّه إسمٌ للنيل خاصّة فلا دليل عليه ولا ساعدته اللّغة والضمير في قوله أقدفيه في اليمّ عائد على موسى أي أوحينا إلى أمك أن أقدفيه أي أقدفي وأطرحي موسى في النيل وكذلك الضميران بعده وذلك لأنّ موسى هو المحدّث عنه لا التّابوت وأنّما ذكر التّبوت على سبيل الوعاء.

قال الزّمخشري والضمائر كلّها راجعة إلى موسى ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التّابوت فيه خجنة لما يؤدّي من تنافر النّظم وقال بعض المفسّرين الضّمير الأوّل في أقدفيه، عائد على موسى وفي الثّاني عائد على التّابوت. أقول هذا بحثٌ لا فائدة فيه إذ لا فرق بين عود الضّمير على موسى وعوده على التّابوت إذ المراد بالتّابوت هو التّابوت الذي فيه موسى لا نطلق التّابوت فالمحدّث عنه هو موسى لا التّابوت فإنّه فضلة في المقام.

وقوله: **فَلْيُلْقِهِ آلِيمٌ بِالسَّاحِلِ** هو جزاء وخبر أخرج مخرج الأمر والتقدير فأطرحيه في اليمّ فليلقه اليمّ بالسّاحل روي أنّ فرعون كان يشرب في موضع من النّيل إذ رأى التّابوت فأمر به رفيق إليه وإمرأته معه فرأوه فرحمته آسية امرأة فرعون وطلبتّه لتتخذهُ ابناً فأباح لها ذلك وروي أنّ التّابوت جاء في الماء إلى المشرعة التي كانت جوارى إمرأة فرعون تستعين منها الماء فأخذت التّابوت وجلبته إليها وأعلمته فرعون والعدوّ الذي لله ولموسى هو فرعون كما قال تعالى: **يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ** أمّا أنّه كان عدوّاً لله فهو ظاهر لأنّه كان يدعي الألوهية في قوله أنا ربكم الأعلى، وبعبارة أخرى أنّه أنكر الألوهية لله تعالى ولا نعني بالعدوّ إلا هذا وأمّا كونه عدوّاً لموسى أي سيكون له عدوّاً في

المستقبل و قد ثبت أن المستقبل إذا كان محقق الوقوع فهو في حكم الماضي فصَح أن يقال أن فرعون عدو له حتى قبل ولادة موسى و بعبارة أخرى أنه عدو له في العاقبة فكذا في الحال إلا أنه لا علم به قال الله تعالى: **فَأَلْتَقِطَهُ أُلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَنًا**^(١) و قد أجمع المفسرون على أن اللام في، ليكون، لام العاقبة أي التقطه آل فرعون من الماء ليكون لهم عدواً في المستقبل و فرعون و من تبعه لم يعلموا به إذ لو علموا به لقتلوه فهو عدو لموسى واقعاً و موسى عدو له لكفره و عناده و سيأتي تفصيل الكلام في سورة القصص.

وقوله: **وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي** أي جعلتك محبوباً عند فرعون و آسية قيل كان فرعون قد أحبه حباً شديداً حتى لا يتمالك أن يصبر عنه و قال ابن عباس أحبه الله و حبه إلى خلقه. و قال قتادة كان في عينيه ملاحظة ما رآه أحد إلا أحبه.

و قال الزمخشري، مني، لا يخلوا إما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى أحببتك و من أحبه الله أحبته القلوب و إما أن يتعلق بمحذوف هو صفة لمحبه أي محبة خالصة أو واقعة مني قد ركزتها أنا فيها في القلوب و زرعتها فيها فلذلك أحبك فرعون وكل من أبصرك.

أقول و نظير ذلك قول رسول الله ﷺ في الحسين الشهيد عليه السلام أن للحسين محبة في القلوب مكنونة و السر في ذلك أن القلوب بيد الله فهو الذي يقلبها كيف يشاء كما يقال يا مقلب القلوب و الأبصار، و لا فرق في ذلك بين قلب فرعون و غير فرعون فإن الكل مخلوق له فقلوبهم بيده و قوله: **لِيُصْنَعَ** قرأ الجمهور بكسر اللام كي، و ضم التاء و نصب الفعل أي و لتربي، و يحسن إليك و قوله: **عَلَيَّ عَيْنِي** أي أنا أراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به فالمعنى إنني ألقى في قلب فرعون محبة بالنسبة إليك لتصنع أي

لكي تصنع على عيني أي تغذي على محبتي وإرادتي تقديره و أنا أراك يقال صنعت الفرس إذا أحسنت إليه و قرئ و لتصنع بإسكان اللام و العين و ضم التاء فعل أمر، و قوله: **عَلَى عَيْنِي** أي على مرئي و منظري و هو كناية عن مراقبة الله إياه ثم أن وجه المنة في هذه الآية من جهات:

الأولى: إلقاء محبة موسى في قلب القابلة حين ولادته.

والثاني: إلهامه تعالى الى قلب أمه في جعلها الطفل في التابوت و طرحه في الماء.

الثالث: إلقائه اليم بالساحل و حفظه من الغرق.

الرابع: إلقاء المحبة في قلب فرعون و آسية ليصنعا به ما صنعا من التغذية و إظهار و غير ذلك و لا شك أن هذه الأمور من أحلى مصاديق النعم في حقّه.

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ، قيل إسمها مريم و سبب ذلك أن آسية عرضته للرُّضاع فلم يقبل موسى امرأة فجعلت تنادي في المدينة و يطاف به و يعرض للمراضع فيأبى و بقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته بالتفتيش في المدينة لعلها تقع على خبره فصرت به في طوافها فقالت أنا أدلكم على من يكفله و له ناصحون فتعلقوا بها و قالوا أنت تعرفين هذا الصبي فقالت لا ولكن أعلم من أهل هذا البيت الحرص على التَّقرب الى الملكة و الجَّد في خدمتها و رضاها فتركوها و سالوها الدلالة فجاءت بأم موسى فلما قرَّبته شرب ثديها فسرت آسية و قالت لها كوني معي في القصر فقالت ما كنت لأدع بيتي و ولدي و لكنّه يكون عندي قالت نعم فأحسنت آسية الى أهل ذلك البيت غاية الإحسان و الى هذا أشار الله تعالى بقوله: **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا** برويتك، و لا تحزن، بفراقها إياك قيل أن

بني إسرائيل إعتزوا بهذا الرضاع و النسب من الملكة و لما كمل رضاعه أرسلت آسية الى أم موسى أن جيئني بولدي ليوم كذا و أمرت خدمها و من لها أن يلقينه بالتتحف و الهدايا و اللباس فوصل اليها على ذلك و هو بخير حال و أجمل شباب فسرت آسية به و دخلت به على فرعون ليراه و ليهبه فأعجبه و قرّبه فأخذ موسى بلحية فرعون يوماً من الأيام و قد تقدّم الكلام فيه عند ذكر العقدة، و أمّا قوله تعالى: **وَ قَتَلْتَ نَفْسًا فَتَجَيْنَاكَ** فقد مرّ الكلام فيه أيضاً و قلنا أنه قتل رجلاً من القبط و سيأتي الكلام فيه عند قوله تعالى:

وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ^(١).

و قوله: **وَ قَتَلْنَاكَ** فتوناً قيل معناه إختبرناك إختباراً، فأنت الفتنة الإختبار و قيل الفتنة المحنة و ما يشق على الإنسان و عن ابن عباس أنه قال أي خلصناك من محنة بعد محنة و أمّا الغم في قوله: **فَتَجَيْنَاكَ مِنْ أَلْغَمٍ** فقيل أي من القتل فأنت الغم بلغة قريش القتل و قيل من غم التابوت و قيل من غم البحر و الظاهر أن المراد به غم القتل حين قتل القبطي فخرج من المدينة خائفاً ظاهراً.

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى لما قتل موسى قبطياً في المدينة و أخبر فرعون به همّ بقتل موسى فخرج منها خائفاً يتّربح حتى دخل على شعيب النّبي على ما مرّ بيانه و أجر نفسه عشر سنين و هذا هو المراد بقوله: **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ** و قال وهب ثمان و عشرون سنة منها مهر إبنته و بين مصر و مدين ثمان مراحل قيل في الكلام حذف و التقدير و فتناك فتوناً، فخرجت خائفاً إلى أهل مدين فلبثت سنين قيل و كان عمره حين ذهب إلى مدين اثني عشر عاماً و أقام عشرة أعوام في رعي غنم شعيب ثم ثمانية عشر عاماً بعد بناءه بإمرأة بنت شعيب و ولد فيها فكمل له أربعون سنة و هي المدّة التي عادة الله إرسال الأنبياء على رأسها.

ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ أَيَّ جِئْتَنَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي نَاجَيْتَكَ فِيهِ وَ كَلَّمْتَنَا وَ اسْتَنْبَأْتَنَا وَ قَوْلُهُ: عَلَيَّ قَدَرٌ قِيلَ أَيَّ وَقْتٍ مَعِينٍ قَدَرْتَهُ لَمْ تَقْدِرْهُ لَمْ تَقْدِرْهُ لَمْ تَتَّقِدْهُ وَ لَمْ تَتَّخِرْ عَنْهُ وَ قِيلَ عَلَيَّ مَقْدَارٌ مِنَ الزَّمَانِ بُوْحِي إِلَى الْأَنْبِيَاءِ فِيهِ وَ هُوَ الْأَرْبَعُونَ قَالَ الشَّاعِرُ:

نال الخِلافةَ أو جِئتَ على قَدَرٍ كما أتَى رَبَّهُ موسى على قَدَرٍ
قال الجبائِي معنى قوله: وَ فَتَنَّاكَ فَتُونًا أَيَّ شَدَدْنَا عَلَيْكَ التَّعَبَ فِي أَمْرِ
المعاشِ حَتَّى رَعَيْتَ لَشَعِيبَ عَشْرَ سَنِينَ، وَ يُؤَكِّدُهُ قَوْلُهُ: فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي
أَهْلِ مَدْيَنَ وَ هِيَ مَدِينَةُ شَعِيبَ، وَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ إِخْتَبَرْنَاكَ بِأَشْيَاءَ:

أولها: حملته أمه في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم لقائه في اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جره بلحية فرعون، ثم تناوله الجمره بدل الدرّة فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطي و خروجه خائفاً يترقب، ثم رعايته الغنم ليتدرب بها على رعاية الخلق فيقال أنه ندله من الغنم، جدي، فأتبعه أكثر النهار و أتعبه ثم أخذه فقبله و ضمّه إلى صدره و قال له أتعبتني و أتعبت نفسك ولم يغضب عليه و لهذا إتخذّه الله كليماً فهذه هذ الفتون التي أشارت الآية بها و قوله: فَلَبِثْتَ سِنِينَ يريد عشر سنين أتم الأجلين (ثم جئت على قدر يا موسى) يريد موافقاً للنبوة و الرسالة. و قال الرّازي في المقام فلا بد من حذف الكلام لأنه على قدر أمر من الأمور و ذكروا في ذلك المحذوف وجوهاً:

أحدها: أنه سبق في قضائي و قدري أن أجعلك رسولاً لي في وقتٍ معينٍ عنيته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدر لا قبله و لا بعده و منه قوله: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ^(١).

ثانيها: على مقدارٍ من الزمان يوحي فيه إلى الأنبياء و هو رأس أربعين سنة.

ثالثها: القدر هو الموعد فإن أثبت أنه تقدّم هذا الموعد صحّ حمله عليه و لا يمتنع ذلك الإحتمال أنّ شعيباً عليه السلام أو غيره من الأنبياء كانوا قد عيّنوا ذلك الموعد إنتهى.

أقول القَدْر بفتح القاف و الدّال مصدر مبلغ الشّيء الطّاقة و القوّة ما يقدره الله من القضاء و يحكم منه، تَعَلَّقَ الإرادة بالأشياء في أوقاتها أقدار قاله بعض أهل اللّغة و قال بعضهم القدر ما صدر مقدوراً عن فعل القادر والقدر بفتح القاف و سكون الدّال ما يقدره الله من القضاء.

و قال في المنجد القَدْر بسكون الدّال مصدر مبلغ الشّيء مساوياً لغيره بلا زيادة و لا نقصان يقال هذا قدر ذلك، أي مماثله و مساوٍ له إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ القدر و القدر معناهما واحد و الفرق بالإعتبار فإذا إعتبرت شيئاً بالقياس إلى شيءٍ آخر كما تقول هذا مساوٍ لذاك في الوزن مثلاً أو في المساحة أو في القيمة و إذا إعتبرت بالقياس إلى ما قدر له بقضاء الله فتقول هذا على قدرٍ أي مطابقٍ لما قدره الله و توضيحه إجمالاً أنّ لله تعالى قضاءً و قدر فالقضاء نفس الحكم و القدر حدّ الحكم و أن شئت قلت ظرف الحكم و إختلفوا في تقديم أحدهما على الآخر.

فقال بعض الفلاسفة القضاء مقدّم على القدر و قال الآخرون بالعكس الحقّ لأنّ الحكم ينبغي أن يكون ناظراً إلى المحكوم عليه و هذا هو مقتضى العقل و العدل فلا يجوز عقلاً أن يحكم على شيءٍ بأيّ نحوٍ كان ألا ترى أنّ الله تعالى يقول في كتابه: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ^(١) فقوله: **إِلَّا وُسْعَهَا** يُعَبِّرُ عنه بالقَدْر و على هذا فالحقّ أنّ القدر مقدّم على الحكم أي أنّ الله تعالى يحكم على العبد على قدر سعته و قدرته و من المعلوم أنّ تعيين الوسع مقدّم على الحكم:

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ** ^(٢).

فهذا حكمٌ منه تعالى أمر الله عباده بالصيام:
 قال الله تعالى: **وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ** (١).
 قال الله تعالى: **وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ** (٢).

و غيرها من الواجبات و المستحبات ثم وضع الله عنهم الصوم في السفر و في حالة المرض مثلاً و هذا الحكم مطابق للقدر أي أن الله تعالى علم قبل الحكم أن المريض لا يقدر على الصوم و الفقير لا يقدر على الحج بمعنى أنه يقع في مشقة فخص الحكم بمن لا يكون كذلك و هذا أي تخصيص الحكم بمن يقدر عليه يسمّى بالقدر ثم أن العبد قد يكون حمله موافقاً للقدر مطابقاً له و قد لا يكون و ذلك لأنه مختارٌ في فعله إن شاء فعل و إن شاء ترك فأن فعل ما أمر به وقع الفعل على ما قدر له و أن شئت قلت وقع على قدرٍ و إلا فلا و الأصل فيما ذكرناه أن القضاء و القدر في الأحكام التشريعية غيرهما في التكوينية معنى و ذلك لأن القضاء و القدر في التكوينية لا إختيار للعبد فيها بخلاف التشريعية فهما في التكوين على أساس الجبر و القهر التشريع على أساس إختيار العبد و عدم إختياره ألا ترى أن العبد يخلق و يوجد في الدنيا بغير إختياره و إرادته و لا يصلّي و لا يصوم بغير إختياره و لذلك نقول أن التكوينية مطابقة للقضاء و القدر و لا تخلف فيها و أما التشريعية فليست كذلك لأن إختيار العبد واسطة بين الأمر و الفعل و لو كان الأمر في التشريعية و التكوينية على حدّ سواء لزم الجبر و ملخص الكلام هو أن القضاء و القدر في التكوينية على أساس الجبر و القهر و في التشريعية على أساس الإختيار الثابت للعبد فالعبد غير مجبور في فعله و على هذا فالعبد المأمور أن كان عمله مطابقاً لما قضى الله عليه و قدر أي حكم به فهو جاء على قدر و إلا فلا إذا عرفت هذا و تأملت فيه حق التأمل فلنرجع إلى تفسير قوله: **ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى**.

ونقول أن الله تعالى قدّر لموسى النبوة والرّسالة في الأزّل لأنّه علم أن موسى يقدر على أداء وظيفته و ليست النبوة من الأمور الشّاقة الخارجة عن قدرة البشر ثمّ قضى على هذا التّقدير تشريعاً لا تكويناً فهذا من جانب الله و أمّا موسى فإن كان أعماله التي تصدر منه بإختياره و إرادته تنطبق على ما يليق بشأن الرّسول فقد جاء بما قدّر له و قضى به و حيث أن موسى كان كذلك فلا جرم جاء بأعماله على قدرٍ فهو نبيّ بلا كلام و أنّما قلنا جاء بأعماله على قدرٍ لأنّ الله تعالى إختبره و إمتحنه كما قال: **وَ فَتَّنَاكَ فُتُونًا**، هذا ما خطر ببالي في تفسير كلام الله و لم أر في كلمات المفسّرين ما يكشف القناع عن كلام الله فأفهم و إغتم.

و إلى ما ذكرناه أشار الله بقوله: **وَ أَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** أي إصطفتك و إخترتك من بين عبادي و من المعلوم أنّ الإصطفاء و الإختيار بعد الإختبار و الإمتحان.

قال بعض المفسّرين أي إخترتك لكلامي، و الحقّ أنّ تقييد الكلام لا وجد له فإنّ كونه كليماً لله تعالى من مصاديق الإصطفاء و هو ظاهر و قال بعضهم معناه أخلصتك بالألطف التي فعلتها بك إخترت عندها الإخلاص لعبادتي و المعنى واضح لا خفاء فيه فإنّ من وصل إلى مقام القرب كما قال تعالى: **وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا** واجدٌ لجميع مراتب الكمال فإنّ كلّ الصّيد في جوف الفرا.

قال الرّاعب في المفردات الإصطناع المبالغة في إصلاح الشّيء و قوله **وَ أَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** إشارة إلى نحو ما قال بعض الحكماء، أنّ الله تعالى إذا أحبّ عبداً تفقّده مكا يتفقّد الصّديق صديقه.

و قال بعض المفسّرين، و إصطنعتك لنفسي، أي جعلتك موضع الصّنيعة و مقرّ الإكمال و الإحسان و أخلصتك بالألطف و إخترتك لمحبّتي يقال إصطنع فلان فلاناً إنّخذة صنيعة و هو إنتقال من الصّنع و هو الإحسان إلى الشّخص حتّى يضاف إليه فيقال هذا صنيع فلان إنتهى.

و قال في معنى لِنَفْسِي، أي لأوامري وإقامة حججي و تبليغ رسالتي فحركاتك و سكناتك لي لا لنفسك و لا لأحدٍ غيرك.

و قال الزمخشري هذا تمثيل لما حوَّله من منزلة التَّقريب و التَّكريم و التَّكليم مثل حاله بحال من يراه الملوك بجميع خصال فيه و خصائص أهلًا لأن يكون أقرب منزلة إليه و أطف محلاً فيصطنعه بالكرامة و الإثرة و يستخلصه لنفسه إنتهى كلامه.

أَذْهَبَ أَنْتَ وَ أَحْوَكُ بِأَيَاتِي وَ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي

الوحي الفتور يقال وني في الأمر بني إذا أفر فيه، و هو فعل لازم و إذا عدَّى فبعن و بغي و زعم بعض الأدباء أنه يأتي فعلاً ناقصاً من أخوات ما زال و بمعناها و هو ضعيفٌ فقوله: وَ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي أَي لا تقتريا، أمر الله تعالى موسى و هارون بالذهاب إلى فرعون و أنما أشرك هارون معه في الذهاب إلى فرعون لأنه أي موسى دعا ربّه و طلب منه أشياء كان فيها أن يشرك أخاه هارون في قوله: وَ أَشْرِكُهُ فِي أَفْرِي^(١) فذكر الله أنه أتاه سؤله في قوله: قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى^(٢) و كان عند إشراك أخيه فأمره هنا و أخاه بالذهاب و أخوك، معطوفٌ على الضمير المستكن في، إذهب، قيل أن الله أوحى إلى هارون و هو بمصر أن يتلقى موسى و قيل سمع بمقدمه و قيل لهم ذلك و قوله بأياتي، ظاهره الجمع فقيل هي العصا و اليد و عقدة لسانه، و قيل اليد و العصا و قد يطلق الجميع على المثني و هما اللتان تقدّم ذكرهما و قيل العصا مشتملة على الآيات، لأنها إنقلبت حيواناً صغيراً في أول الأمر ثم عظم حتى صار ثعباناً ثم إدخال موسى يده في فمها فلا يضره و قيل ما أعطي من معجزة و وحي و قوله: وَ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي أَي لا تضعفا و لا تقصرا و المراد بالذِّكر تبليغ

الرسالة فأنّ الذّكر يقع على سائر العبادات و تبليغ الرّسالة من أجلّها و أعظّمها فكان جديراً أن يطلق عليه إسم الذّكر.

إِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ

أي عتا و خرج عن الحدّ في المعاصي و فى رأسها إدعاء الألوهية في قوله:
أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ.

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ

أمر الله تعالى موسى و هارون بالذهاب الى فرعون و أن يقولوا له قَوْلًا لَّيِّنًا، اللّين ضدّ الخشونة و يستعمل ذلك في الأجسام ثمّ يستعار للخلق و غيره من المعاني فيقال فلانٌ لّين و فلانٌ خشنٌ أمرهما الله بذلك لأنّ الدّعوة الى الحقّ إذا كانت بخشونة لا تنفع و لا تؤثّر في قلب المخاطب بل توجب تنفّر الطّبع ولو كان الكلام حقاً و هذا أمرٌ محسوسٌ:

قال الله تعالى: **أذْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ**

جَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (١).

و قيل القول اللّين، لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له و لينها خفتها على اللّسان و قال الحسن هو قولهما أنّ لك ربّاً و أنّ لك معاداً و أنّ بين يدك جنّة و ناراً فأمّن بالله يدخلك الجنّة و يقلّ عذاب النار.

و قيل أمرهما تعالى أن يعدّ المواعيد على الوعيد كما قال الشّاعر:

أقدم بالوعد قبل الوعيد لينهي القبائل جهالها

قيل حين عرض عليه موسى و هارون عليهما السّلام ما عرضا شوار فرعون آسية فقالت ما ينبغي لأحد أن يرّد هذا فشاور هامان فقال له كنت أعتقد أنّك ذو عقلٍ تكون مالكاً فتصير مملوكاً و ربّاً فتصير مربوباً فأمتنع من قبول ما عرض

عليه موسى، وقوله: **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** قيل التَّرجي بالنسبة لهما إذ هو مستحيل وقوعه من الله تعالى، وقيل التَّرجي في القرآن ليس على معناه بل معناه، كي، أي كي يتذكر أو يخشى، و فائدة إرسالهما اليه مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن، إقامة الحجّة عليه وإزالة المعذرة و قال بعضهم القول اللين ما حكاه الله هنا و هو **فَأْتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ** الى قوله: **وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**.

و قال الفراء لعل هنا بمعنى، كي، أي كي يتذكر أو يخشى كما تقول إعمل لعلك تأخذ أجرك أي كي، تأخذ أجرك و أما قوله: **يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** فقال صاحب الكشاف أي يتذكر و يتأمل فيبدل النصفة من نفسه و الإذعان للحق أو يخشى أن يكون الأمر كما يصفان فيجُره إنكاره الى الهلكة، و قيل المراد بقوله: **يَتَذَكَّرُ** هو حال فرعون حين احتبس النبل فسار الى شاطئه و أبعده و فرَّ ساجداً لله راعباً أن لا يخجله ثم ركب فأخذ النبل يتبع حافر فرسه فرضاً أن يتذكر علم الله وكرمه و أن يحذر من عذاب الله.

و قيل المعنى إذهب اليه على رجاءكما و طمعكما و باشرا الأمر مباشرة من يرجو أو يطمع أن يثمر عمله و لا يخيب سعيه و لعل، لتَّرجي المخاطب تارةً و لتَّرجي المخاطب أخرى.

قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِئَ

أي لَمَّا أمرهما بالذهاب الى فرعون قالا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا فرعون، و الفرط بفتح الفاء السَّبِق و التَّقَدُّم و منه الفارط الَّذِي يَتَقَدَّم الوارده و فرس فرط تسبق الخيل قال الشاعر:

و أستعجلونا و كانوا من صحابتنا كما تقدّم فارط الوارد و في الحديث عن رسول الله ﷺ أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَي مُتَقَدِّمُكُمْ و سابقكم.

قال الرّاعب في المفردات، فرط إذا تقدّم تقدّماً بالقصد يفرط ومنه الفارط الى الماء أي المتّقدم لإصلاح الدّلوي إنتهى.
فقوله تعالى: **أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا** معناه أن يتّقدم علينا أو أن يطغى، أي أننا نخاف أن يعجّل علينا بالعقوبة و يبادرنا بها قبل دعوتنا أيّاه أو أن يطغى في التّخطي الى أن يقول فيك ما لا ينبغي تجرّته عليك لإستكباره وإدعاءه الرّبويّة أو من حبه الرّئاسة أو من قومه القبط المتّمردين و ما قالاه حقّ لا مرية فيه فإنّ المتكبر الجبّار لا يقبل الحقّ غالباً.

قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَ أَرَى

أي قال الله في جواب موسى و هارون، لا تخافا منه، أنني معكما أي أنصركما فإنّ المعية هنا بالنصرة و العون، أسمع أقوالكما و أرى أفعالكما، و قال ابن عبّاس أسمع جوابه لكما و أرى ما يفعل بكما و هما كناية عن العلم فإنّ الله تعالى لا يسمع و لا يبصر بالجراحة لتنزهه عن الجسميّة و الجارحة من شؤون الجسم فقولنا أنه سمع بصيرّ معناه أنه عالم بالمسموعات و المبصرات و من المعلوم أنّ المنصور من الله لا يكون مغلوباً أبداً و من كان لله كان الله معه و من كان الله معه فهو الغالب بلا كلام بل الحقّ أنّ النّصر الواقعي لا يكون إلاّ منه تعالى:

قال الله تعالى: **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** (١).

قال الله تعالى: **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** (٢).

قال الله تعالى: **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** (٣).

قال الله تعالى: **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ** (٤).

قال الله تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ^(١).

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى

قوله: فَأْتِيَاهُ كَرَّرَ القول بالآيتين، فقولا، لفرعون إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ أَي ما جئناك من عند أنفسنا ولكن ربك أمرنا، وفي قوله ربك، تحقير له، وإعلام بأنه مريب مملوك لا الرب كما يدعيه في قوله: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ثُمَّ بَيَّنَّا لَهُ ما أُرْسِلَ بقولهما فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ وَأَمَّا قَالَا ذَلِكَ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ تَبِعَهُ مِنَ الْقَبْطِ كَانُوا يَعَذِّبُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ وَالْأَعْمَالِ الشَّقَاةِ مِنَ الْحَضَرِ وَالْبِنَاءِ وَنَقْلِ الْأَحْجَارِ وَالصَّخْرَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعَ قَتْلِ الْوَالِدَانِ وَاسْتِخْدَامِ النِّسَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ثُمَّ ذَكَرَ ما يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِمَا فِي إِرسَالِهِمَا إِلَيْهِ فَقَالَا: قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَفِي تَكَرُّرِ الرَّبِّ ما لَا يَخْفَى مِنَ اللَّطْفِ حَيْثُ أَنَّ التَّكَرُّرَ يُؤَكِّدُ مَرْبُوبِيَّتَهُ وَمَقْهُورِيَّتَهُ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ يَخْشَى إِذْ لَا يُمْكِنُ لَهُ الْفِرَارُ مِنَ حُكُومَةِ اللَّهِ وَالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِهِ إِلَّا بِالْإِلْتِجَاءِ إِلَيْهِ، وَالمَرادُ بِالآيَةِ فِي قَوْلِهِ: قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ قِيلَ هِيَ الْعَصَا وَالْيَدُ وَلِما كانا أَي موسى وهارون مشتركين في الرِّسالة صَحَّ نِسْبَةُ المَجْئِي بِالآيَةِ إِلَيْهِمَا وَأَنَّ كانَتْ صادرة من أحدهما.

أَنْ قُلْتَ لَمْ وَحْدًا، بِآيَةٍ وَلَمْ يَشْنِ، وَمَعَهُ آيَاتَانِ، الْعَصَا وَالْيَدُ.

قلت لأن المراد في هذا الموضوع تثبيت الدعوى ببيئته وبرهان فكأنه قال قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما إدعيناها من الرِّسالة و يحتمل أن يكون المراد جنس الآية وهو قريب مما ذكرناه والحاصل أن الآية تشهد بإننا رسولا ربك.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ فَصَّلَ مِنَ الْكَلَامِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ مُتَّبِعِي الْهُدَىٰ وَفِي هَذَا تَوْبِيخٌ لَهُ فَلَمْ يَرُدَّ بِهِ التَّحِيَّةَ بَلْ مَعْنَاهُ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ سَلَّمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ

إِنَّا قَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ

أَمَّا قَالَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا وَلَمْ يَذْكُرِ الْمَوْحِيَّ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَتْ لَهُ بَادِرَةٌ فَرُبَّمَا صَدَرَ مِنْهُ فِي حَقِّ الْمَوْحِيَّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ هَكَذَا قِيلَ وَالْمَعْنَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا أَنَّ الْعَذَابَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ الْأَنْبِيَاءَ وَتَوَلَّىٰ أَيَّ أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذِهِ أَرْجَىٰ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ مَا كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ فَلَا يِنَالُهُ شَيْءٌ مِنَ الْعَذَابِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: إِنَّ كُلَّ إِذٍ كَذَّبَ أَلْرُسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: كُلُّ كَذَّبَ أَلْرُسُلَ فَحَقَّ وَعَيْدٌ^(٣) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ

قَالَ فِرْعَوْنُ، فَمَنْ رَبُّكُمَا، الْخَطَابُ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ، يَا مُوسَىٰ لَمْ يَقُلْ يَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فَأَنَّ الْخَطَابَ فِي قَوْلِهِ رَبُّكُمَا لِهَمَّا، فَأَجَابَهُ مُوسَىٰ بِقَوْلِهِ الَّذِي حَكَى عَنْهُ، قَالَ، أَيُّ قَالَ مُوسَىٰ فِي جَوَابِ فِرْعَوْنَ مَنْ رَبُّكُمَا رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، قِيلَ أَيُّ صُورَتِهِ الَّتِي قَدَّرَ لَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ،

أي ثمّ هداه الى شربه و مطعمه و سكنته و منكحه الى غير ذلك من ضروب هدايته قاله مجاهد و قيل معناه أعطى كلّ شيءٍ مثل خلقه من زوجةٍ ثمّ هداه لمنكحه من غير أن رأى ذكراً أتى أنثى قبل ذلك و حذف المضاف و أقام المضاف اليه مقامه و غير ذلك من هدايته هذا على قراءة المشهور و هي فتح الخاء و سكون اللّام على أن يكون مصدراً و قرأ بعضهم بفتح اللّام و الخاء على أنّه فعل ماضٍ فقولُه: **خَلَقَهُ** على قراءة المشهور مفعول به و على القراءة الأخرى فعل ماضٍ و الضّمير فيه عائذ على الشيء و المعنى أنّه تعالى خلق كلّ شيءٍ على الهيئة التي بها ينتفع و التي هي أصلح الخلق له ثمّ هداه لمعيشته و منافعه لدينه و دنياه قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول الظاهر أنّ المراد بالهداية في قوله: **ثُمَّ هَدَى، الهداية التكوينية بدليل قوله: **خَلَقَهُ** و المعنى أنّه تعالى هداه تكوينياً إلى ما ينتفع به و يستضّر به من غير تعليم الغير إيّاه و هذا من العجائب التي تدهش العقول فأنتك إذا تأملت في أنواع الموجودات و أصناف المخلوقات ترى الهداية التكوينية فيها على سبيل الإرتكاز و لنعم ما قال صاحب الكشّاف حيث قال ولله في هذا الجواب ما أخصره و ما أبينه لمن ألقى الذّهن و نظر بعين الإنصاف و كان طالباً للحقّ إنتهى.**

و قال بعض المفسّرين المعنى أعطى كلّ ما خلق خلقته و صورته على ما يناسبه من الإتقان لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم و لا خلق البهائم في خلق الإنسان و لكن خلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديرأ قال الشّاعر:

وله في كلّ شيءٍ خلقةٌ و كذلك الله ما شاء فعل

و قال الضّحّاك خلقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له ثمّ هدى أي يسّر كلّ شيءٍ لمنافعه و مرافقه فأعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار و الأذن الشّكل الذي يوافق الإستماع و كذلك الأنف و اليد و الرّجل و اللّسان كلّ واحدٍ منها

مطابق لما علّق به من المنفعة، و قال قتادة أعطى كلّ شيءٍ صلاحه و هداه لما يصلحه و قيل كلّ شيءٍ هو المفعول الثاني لأعطى و خلقه، المفعول الأوّل أي أعطى خلقته كلّ شيءٍ يحتاجون إليه و يرتفقون به و الأقوال متقاربة المعنى.



قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥٠) قَالَ عَلِمَهَا
 عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى
 (٥١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ
 فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
 أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٢) كُلُوا وَارْعَوْا
 أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٥٣)
 مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ
 تَارَةً أُخْرَى (٥٤) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا
 فَكَذَّبَ وَابْتَدَى (٥٥) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ
 أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٦) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ
 مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ
 وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٧) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ
 الزَّيْتَةِ وَ أَنْ يُخَسِّرَ النَّاسَ ضُحَى (٥٨) فَتَوَلَّى
 فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٥٩) قَالَ لَهُمْ
 مُوسَى وَيَلَكُمْ لَاتَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا
 فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦٠)
 فَتَنَّا زَعْوًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى (٦١)
 قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاخِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم
 مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرْيِقَتِكُمْ
 الْأُمْتَلَى (٦٢) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ
 أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا
 أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٤) قَالَ

بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ
 سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٥) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ
 خِيفَةً مُوسَى (٦٦) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ
 الْأَعْلَى (٦٧) وَآتَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا
 صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ
 حَيْثُ أَتَى (٦٨) فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا أَمِنَّا
 بِرَبِّ هَرُونَ وَ مُوسَى (٦٩) قَالَ أَمِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ
 أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
 فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ
 لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا شَدَّ
 عَذَابًا وَ أَبْقَى (٧٠)

◀ اللغة

الْقُرُونِ الْأُولَى: هي الأمم الماضية.

لَا يَضِلُّ: بفتح الباء أي لا يذهب.

مَهْدًا: أي مستقرًا.

شَتَى: أي متفرقات.

النَّهْيُ: بضم النون جمع نهية نحو كسية و كسى و النهية العقل.

أَبَى: أي إمتنع.

سَوِيٌّ: أي عدلاً و قيل أي مستويًا.

فَتَوَلَّى: أي أعرض.

فَيَسْجَحْتَكُمْ: السُّحْتُ إستقصاء الشعر في الحلق معناه يستأصلكم.

خَابَ: إنقطع رجاءه.

أَفْتَرَى: الإفتراء الكذب.

أَسْرَوْا: أي أخفوا.

يَطْرِبِقْتَكُمْ الْمَثَلِي: أي يذهباً بطريقة أولى العقل والأشراف والأنساب.

تَلَقَّف: أي تتبلع.

◀ الإعراب

عِلْمُهَا مَبْتَدَأٌ عِنْدَ رَبِّي خَبْرُهُ وَفِي كِتَابٍ مَعْمُولِ الْخَبْرِ أَوْ خَيْرِ ثَانٍ أَوْ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ فِي، عِنْدَ، لَا يَضِلُّ فِي مَوْضِعٍ جَزَّ صِفَةً لِكِتَابٍ مَهْدًا هُوَ مَصْدَرٌ وَصَفٌ بِهِ شَتَّى جَمْعُ شَتِيَةٍ مِثْلُ مَرَضَى وَمَرِيضٌ وَهُوَ صِفَةٌ لِأَزْوَاجٍ أَوْ لِبَنَاتٍ أَلْتَهَى جَمْعُ نَهْيَةٍ وَقِيلَ هُوَ مَفْرَدٌ بِسِحْرِ مِثْلِهِ يَجُوزُ أَنْ يَتَّعَلَقَ، بِلِنَأْتَيْنِكَ، وَأَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِينَ مَوْعِدًا هَاهُنَا مَصْدَرٌ سُوءٌ بِالْكَسْرِ صِفَةٌ شَاذَةٌ وَيَقْرَأُ بِالضَّمِّ وَهُوَ أَكْثَرُ فِي الصِّفَاتِ مَوْعِدٌ كُمْ مَبْتَدَأٌ يَوْمَ الزَّيْنَةِ الْخَبْرُ إِنْ هَذَا فِيهِ وَجْهٌ:

أحدها: أنها بمعنى نعم، أي نعم هذان لساحران و على هذا فقوله هذان مبتدأ و لساحران الخبر.

الثاني: أن فيها ضمير الشأن محذوف أي أنه هذان لساحران، بعدهما مبتدأ و خير كما مضى القول فيه.

الثالث: قال الزجاج التقدير لهما ساحران فحذف المبتدأ و بقي الخبر.

الرابع: أن الألف علامة التثنية في كل حالٍ و هي لغة لبني الحرث لكنانة و يقرأ، إن، بالتخفيف و قيل هي مخففة من الثقيلة، و قرأ أبو عمرو، إن هذين، بتشديد، إن و نصب هذين وَ يَذْهَبُ بِطَرِبِقْتَكُمْ أَي يَذْهَبُ طَرِبِقْتَكُمْ فَالْبَاءُ مَعْدِيَّةٌ كَمَا أَنَّ الْهَمْزَةَ مَعْدِيَّةً صَفًّا حَالٌ أَي مُصْطَفِينَ وَ قِيلَ مَفْعُولٌ بِهِ أَي أَقْصَدُ وَصَفٌ أَعْدَانَكُمْ فَإِذَا هِيَ لِلْمَفْاجَاةِ جِبَالُهُمْ مَبْتَدَأٌ يُخَيَّلُ حَالٌ وَقِيلَ هُوَ الْخَبْرُ أَنَّهَا تَسْعَى بَدَلٌ مِنْهُ بَدَلِ الْإِشْتِمَالِ وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ

(تلف بالجزم على الجواب و الفاعل ضمير ما، و أنث لأنه أراد العصا و يقرأ بضم الفاء على أنه حال من العصا أو من موسى و هي حال مقدرة و تشديد القاف و تخفيفها قراءتان:

◀ التفسير

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى

قيل لما أجابه موسى بجواب فسكت ولم يقدر فرعون على معارضته فيه إنتقل إلى سؤالٍ آخر و هو ما حال من هلك من القرون الأولى أي الأمم الماضية و كان هذا السؤال منه معاية لموسى، و يحتمل أن يكون قصده من هذا السؤال هو إختبارها أي أنه سأل موسى عن أخبار الأمم و أجاديتها ليختبر أهمها نبيان أو هما من جملة القصاص الذين دارسوا قصص الأمم السالفة و ذلك لأن موسى لم يكن له علمٌ بالثورة لأنها أنزلت عليه بعد هلاك فرعون فقال موسى **عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي** و قيل مراده بالسؤال عنها أنه أن كان الحق ما وصفت فلم عبدوا الأصنام ولم تعبدوا الله في الأعصار الماضية، و قيل مراده، مالها لا تبعث و لا تحاسب و لا تجازى فقال موسى علمها عند ربي أي أن هذا سؤال عن الغيب و قد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، و قيل لما قال موسى أننا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب و تولى، قال فرعون فما بال القرون الأولى فأنها كذبت ثم أنهم ما عذبوا و الإحتمالات كثيرة و الحق أن موسى لما قرّر لفرعون أو المبدأ و أنه الذي أعطى كل شيء ثم هدى قال فرعون أن كان ما ذكرت في غاية الظهور فما بال القرون الأولى نسوه و تركوه و عبدوا الأصنام فلو كانت الدلالة واضحة كما ذكرت و جب على القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها، فقال موسى علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي و لا ينسى أي في كتاب لا يذهب عليه شيء و العرب تقول لكل ما ذهب على الإنسان مما ليس بحيوانٍ ضلّه كقولهم فلان ضلّ منزله أو لباسه إذا أخطأ، فإذا ضلّ منه

حيوان فيقولون، أضلُّ، بألفٍ يقال أضلُّ بعيره أو ناقته أو فرسه بالألف و حاصل المعنى أنّ العلم بالأُمم الماضية و حالاتهم و بالجملة العلم بكلِّ الكائنات ما مضى و ما يأتي عند ربِّي و هو مثبت في كتابٍ و لا يجوز عليه الخطأ و النسيان كما يجوز عليك أيُّها العبد الدليل فهو لا يضلُّ كما تضلُّ أنت و لا ينسى كما تنسى أنت يا مدعي الرّبوبيّة، بالجهل و الوقاحة و لعل المراد بالكتاب اللّوح المحفوظ و الضمير في علمُها يعود على القرون الأولى أي أنّه مكتوب عند ربِّي في اللّوح المحفوظ لا يجوز عليه أن يخطي شيئاً أو ينساه.

و قال بعض المفسرين المراد بالكتاب هو الكتاب الذي كتبه الملائكة من أحوال البشر.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية اختلفوا في فقالوا علمها عند ربِّي في كتابٍ، فأَنَّ العلم الذي عند الرّب كيف يكون في الكتاب و تحقيقه هو أنّ علم الله صفة و صفة الشّي قائمة به فأما أن تكون صفة الشّي حاصلة في كتابٍ فذاك غير معقولٍ فذكروا فيه وجهين:

الأوّل: معناه أنّه سبحانه أثبت تلك الأحكام في كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم في الإستدلال على أنّه تعالى عالمٌ بكلِّ المعلومات منزّه عن السّهو و الغفلة و لقائلٍ أن يقول قوله في كتابٍ يوهم احتياجه سبحانه في ذلك العلم إلى ذلك الكتاب.

الوجه الثّاني: أنّ تفسير ذلك بأنّ بقاء تلك المعلومات في علمه كبقاء المكتوب في الكتاب فيكون الغرض منه تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شيء منها عن علمه و هذا التفسير مؤكّد بقوله بعد ذلك لا يضلُّ ربِّي و لا ينسى إنتهى كلامه.

أقول تحقيقه ليس بتحقيقٍ و ذلك لأنّ علم الله هو عين ذاته كما ثبت في محلّه و ليس العلم صفة قائمة بذاته فأَنَّ هذا خلاف التّحقيق نعم العلم فينا

صفة قائمة بذواتنا لأنه لم يكن ثمّ كان فلا ذات غير العلم و العلم غير الذات كما أنّ الصّفة غير الموصوف و الموصوف غير الصّفة قال أميرالمؤمنين عليه السلام و كمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه لشهادة كلّ صفةٍ أنّها غير الموصوف و كلّ موصوفٍ أنّه غير الصّفة فمن وصفه فقد قرنه و من قرنه فقد ثناه إلى آخر كلامه و قد تكلمنا في شرح هذه الكلمات مفصّلاً في شرحنا على التّهج بما لا مزيد عليه فيقول الرّازي صفة الشّيء لا تكون في كتابٍ عجيبٍ منه هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول لو كان العلم صفة قائمة بذاته تعالى أيضاً لا إشكال في الآية و دل لأنّ المقصود من كون العلم في كتابٍ ليس حصول الصّفة فيه بأن نقول صفة العلم في كتابٍ، بل المقصود أنّ ما في الكتاب من علمه أي من أثاره المعلوم أنّ ما في الكتاب معلومه لا علمه و بعبارةٍ أخرى ما في الكتاب كاشفٌ عن علم الكاتب لا أنّه علمه بعينه و للبحث فيه مقامٍ آخر.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى

لما ذكر موسى عليه السلام ما دلّ على ربوبية الله و تمّ كلامه عند قوله: وَ لَا يَنْسَى، ذكر الله تعالى ما نبّه به على قدرته تعالى و وحدانيّته فأخبر عن نفسه بأنّه هو الذي صنع كيت و كيت و أنّما ذهبنا إلى أنّ هذا هو من كلام الله لقوله تعالى: فَأَخْرَجْنَا وَقَوْلِهِ: كُلُوا وَ أَرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ و قوله: وَ لَقَدْ أَرَيْنَاهُ فَيَكُون قوله فَأَخْرَجْنَا وَأَرَيْنَاهُ، التفاتاً، من الضمير الغائب في، جعل و سلك، إلى الضمير المتكلم المعظم نفسه يكون الإنفات من قائلين و أبعد من ذهب إلى أنّ الذي، نعتٌ لقوله: رَبِّي فيكون في موضع رفع أو نصب على المدح هذا ما قاله بعض المفسرين في تفسيره الَّذِي جَعَلَ مرفوع صفة لرّبي أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوبٌ على المدح و هذا من مظانه و محارّه إنتهى.

أقول وبه قال القرطبي أيضاً إلا أنه قال في نصبه، أنه بإضمار أعني في التبيان موضع الذي، رفع بدل من قوله، ربي، ولم يذكر الوجهين الآخرين.

وقال الطبرسي رحمته الله الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ يجوز أن يكون في موضع جرّ بأنه صفة ربي، و يجوز أن يكون في موضع رفع بأن يكون خبر مبتدأ، محذوف إنتهى.

وقال ابن عطية يحتمل أن يكون فَأَخْرَجْنَا من كلام موسى حكاية عن الله تعالى على تقدير، يقول عز وجل: فَأَخْرَجْنَا و يحتمل أن يكون كلام موسى ثمّ عند قوله: وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ثم وصل الله كلام موسى بأخباره لمحمد صلوات الله وسلامه والمراد به الخطاب إلى الخلق أجمع في قوله لكم، نبههم على هذه الآيات إنتهى.

وقال الرازي أما قوله: فأخرجنا به أزواجاً شتى فيه مسائل:

الأولى: قوله: فَأَخْرَجْنَا فيه وجوه:

أحدها: أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربي الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ كذا وكذا فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحرارة أزواجاً من نبات شتى.

ثانيها: أن عند قوله: وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً ثمّ كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلاً بالكلام الأول بقوله: فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثم يدل على هذا الإحتمال قوله: كُلُّوا وَ أَرْعُوا أَنْعَامَكُمْ.

ثالثها: قال صاحب الكشاف إنتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للإيدان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ ^(١) إلى آخر الآيات التي ذكرها تأييداً لما حققه إنتهى.

كلام الرّازي في المقام ثمّ قال الرّازي.

وإعلم أنّ قوله: فَأَخْرَجْنَا إِنَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ.
والأول: باطل لأنّ قوله بعد ذلك كُلُّوا وَ أَرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ الخ لا يليق
بموسى و ساق الكلام إلى أن قال فثبت أنّ هذا كلام الله و لا يجوز أن يكون
كلام الله ابتداءً من قوله: فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَرْوَأَجًا شَتَّى، لأنّ الفاء يتعلّق بما قبله
فلا يجوز جعل هذا كلام الله و جعل ما قبله كلام موسى فلم يبق إلا أن يقال أنّ
كلام موسى ثمّ عند قوله: لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ثمّ ابتدأ كلام الله من قوله
الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا و يكون التقدير هو الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
مَهْدًا فيكون، الَّذِي، خبر مبتدأ محذوف و يكون الانتقال من الغيبة إلى
الخطاب إلتفاتاً إنتهى.

أقول ما ذكره الرّازي وحقّقه لا بأس به بل هو أحسن الأقوال في المقام و
نحن أيضاً نقول به و الله أعلم بكلامه و لنرجع إلى تفسير الآية فقوله: الَّذِي
جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا أي هو الَّذِي جعل لكم الأرض مهدياً أي مستقراً
يستقرون عليه و قد أشار الله تعالى إلى كون الأرض مهدياً في مقام آخر أيضاً:
قال الله تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا^(١).

قال في المفردات المهد ما تهيأ للصبى:

قال الله تعالى: كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا^(٢).

والمهد و المهاد المكان الممهّد الموطأ قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
مَهْدًا.

قال الله تعالى: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا^(٣).

وذلك مثل قوله الأرض فراشاً، و مهّدت لك كذا هيأته و سوّيته:

قال الله تعالى: **وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا** (١).

إذا عرفت هذا فأعلم أنّ التعبير عن الأرض بالمهد يدل على أنّ الأرض ليست بساكنة بل هي متحركة خلافاً للقدماء من علماء الهيئة فأنهم كانوا يقولون أنّ الأرض ساكنة و أمّا في زماننا هذا فقد ثبت بالأدلة العقلية والحسية أنّ الأرض تدور حول الشمس بحركة سريعة و إنّما قلنا ذلك لأنّ المهد إنّما وضع لأن يحرك الصبي ليستريح فيه و في قوله: **جَعَلَ** أشار الى أنّ الله تعالى جعل الأرض مهدياً فكما أنّ المهد يحتاج الى محرك يحركه كذلك الأرض تحتاج الى محرك يحركها كما هو يقتضي القاعدة العقلية و هي أنّ المتحرك يحتاج الى جسم متحرك بل هي من عوارض الجسم و كلّ عارض محتاج الى غيره في عروضه فعروض الحركة على الأرض يحتاج الى محرك و هو الله تعالى هذا على مذاق الشهور و أمّا على ما اخترناه في الباب فالأمر أوسع من ذلك و هو أنّ لازم الماهية أيضاً مجعول بتبع ماهيته و القول بأنّ الماهيات غير مجعولة كلام لا نفهم معناه إلا أن يقال أنّ الماهية حدّ الوجود و ليست بشئ مستقلاً فلا يتعلّق بها الجعل إلا بتبع الوجود و على هذا تكون الحركة في الحقيقة من عوارض الوجود أو الموجود في الخارج و الإحتياج ثابت فيه بلا كلام فثبت المطلوب و محصل الكلام في المقام هو أنّ الأرض جعلها الله مهدياً لنا ولم توجد الأرض كذلك بغير خالق و موجد فثبت الخالق لها و هو المطلوب في المقام و أمّا قوله: **وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا**.

قال الرّازي السُّلوك النَّفَاز في الطَّرِيق يقال سلكت الطَّرِيق و سلكت كذا

في طبقه.

فَمِنَ الْأُولَى:

قال الله تعالى: **يَتَسَلَّلُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا** (١).

قال الله تعالى: **فَاسْأَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا** (٢).

وما نحن فيه من هذا القبيل.

الثانى:

قال الله تعالى: **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ** (٣).

قال الله تعالى: **كَذَلِكَ نَسْأَلُكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** (٤).

والسُّبُلُ بِضَمِّ السَّيْنِ والباء جمع سبيل وهو الطريق، والمعنى جعل لكم في الأرض سبلاً تسلكوا فيها في حوائجكم من موضع الى موضع حتى لا تتصدّر عليكم مصالحكم، وهو أيضاً من الألفاظ الربانيّة وفي كلامه هذا إشارة الى أنّ الله تعالى هو الذي خلق الأرض وجعل فيها السُّبُلَ لتتنفوا بها في معاشكم فهو أي جعل السُّبُلَ فيها من أحسن النعم بعد الإيجاد ولما كانت الأرض من الجمادات التي لا حياة لها قال تعالى: **وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى الضَّمِيرُ فِي، به، عائد على الماء والباء للسبب أي وأنزل الله من السماء ماءً، وهو ماء المطر فأخرجنا بسبب الماء أزواجاً أي أصنافاً شتى أي مختلفة منشئة، ففي قوله فأخرجنا، إلتفاتٌ وفي هذا الإلتفات تخصيصٌ أيضاً بإنا نحن نقدر على مثل هذا ولا يدخل تحت قدرة أحدٍ والأجود أن يكون شتى في موضع نصب نعتاً لقوله أزواجاً لأنها المحدث عنها.**

وقال الزمخشري يجوز أن يكون، شتى، صفة للنبات والنبات مصدر سمي به النبات كما سمي بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والزائحة والشكل بعضها يصلح للناس وبعضها

٢- النحل = ٦٩

٤- الحجر = ١٢

١- نوح = ٢٠

٣- المدثر = ٤١

للبهائم ثم قالوا من نعمته عزّ وجلّ أنّ أرزاق العباد إنّما تحصل بعمل الأنعام و قد جعل الله علفها ممّا يفضل عن حاجتهم ولا يقدرّون على أكله.

أقول أمّا أنّ حياة الأرض بالماء وهى مع قطع النظر عنه ميتة عنه فهو محسوس لا كلام فيه، و قد أشار الله تعالى الى ذكر ذلك في كثير من الآيات: قال الله تعالى: **حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِّنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ (١)**. قال الله تعالى: **وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٢)**. قال الله تعالى: **فَسُقِّنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٣)**. قال الله تعالى: **لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَ أَنْاسِيًّا كَثِيرًا (٤)**.

قال الله تعالى: **وَ مَا أَنْزَلْنَا اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٥)**.

قال الله تعالى: **وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٦)**.

و أمّا قوله تعالى: **فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى** فيه إشارة إلى أنّ إخراج النّبات من الأرض أمّا هو بسبب الماء إلا أنّ المخرج هو الله تعالى و ذلك لأنّ الأرض مخلوقة له تعالى و الماء الذي هو سبب لإخراج النّبات فيها أيضاً مخلوق له تعالى فينتج أنّ الإخراج بقدرته قال الشاعر:

تفكر في نبات الأرض و أنظر إلى آثار ما صنع الملك
ففي رأس الزبرجد شاهدات بأنّ الله ليس له شريك
و حيث أنّ النّبات منه ما يصلح للنّاس و منه ما يصلح للبهائم و الأنعام.

كُلُوا وَ أَرَعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى

٢- الزوم = ١٩

١- الأعراف = ٥٧

٤- الفرقان = ٢٩

٣- فاطر = ٩

٦- الزوم = ٢٤

٥- البقرة = ١٦٤

قوله: **كُلُوا وَارْزُقُوا** لفظه لفظ الأمر والمراد الإباحة أي كلوا مما يؤكل و أرعوا أنعامكم فيما لا يؤكل أن في ذلك آيات أي علامات، لأولي النهى أي لذوي العقول السليمة والنهى بضم التون جمع نهيته وهى العقل وإنما خص ذلك بأولي النهى لأن الجاهل بمعزل عن التدبر والتفكير لجهله وكذا العاقل، و قيل أن النهى مفرد وليس بجمع وهو العقل:

قال الله تعالى: **كُلُوا وَارْزُقُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ** ^(١).

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا** ^(٢).

و الآيات كثيرة و حيث قد ثبت أن شكر المنعم واجب عقلاً فيجب على العاقل أن يشكر الله على نعمه و رأس الشكر معرفته تعالى و لأجل ذلك ذكر هذه الآيات لفرعون لعله يتذكر أو ينحشى.

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى

لما قال تعالى أن في ذلك من جعل الأرض مهدياً و سلك سبلها و إنزال الماء عليها من السماء و إخراج النبات منها، لأيات أولي النهى أي لمن له عقل أشار إلى خلقه الإنسان و قال: **مِنْهَا** أي من الأرض، خلقناكم أول مرة و فيها نعيدكم، بعد الموت و منها نخرجكم حين البعث مرة أخرى و المراد بهذه الخلقه هو خلقه الجسم و البدن أي منها خلقنا أبدانكم و أجسادكم كما أن منها أخرجنا نباتاً شتى فكما أن النبات يخرج من الأرض كذلك أبدانكم تخرج منها و أما الروح فهو من عالم المجردات و قد سبق القول فيه غير مرة و فى هذه الآية إشارة إلى أن الذي خلقكم من الأرض قادر على أن يبعثكم منها تارة أخرى فلا تغفل أيها الإنسان عن نفسك و إعلم أن لك خالقاً و أنك تبعث بعد الموت و تسأل عن أعمالك قال الله تعالى: **وَ قَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ** ^(٣) و

تفضيل الكلام في مسألة المعاد موكول إلى محله إنشاء الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى

هذا إخبار من الله تعالى إلى محمد ﷺ قيل وهذا يدل على أن قوله: فأخرجنا الخ... أنما هو خطاب له ﷺ والصّмир في أريناه عائد على فرعون والرؤية من رؤية البصر لا رؤية القلب هكذا قيل والحق أن المراد بها معناها العام الشامل للبصر والقلوب ذلك لأن فرعون كما رأى الآيات بالبصر أعني بالمشاهدة كذلك رآها بالقلب إلا أن عناده للحق وحبه للرئاسة والسلطنة صار باعثاً لإنكاره لأنه لم يعقلها فقوله تعالى: وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا إشارة إلى الرؤيتين وبذلك تمت الحجّة عليه ولو كان المراد بها الرؤية بالبصر فقط فالحجّة ناقصة لأن المجنون وهو الذي لا عقل له يرى الآيات بالبصر من المعلوم أنه غير مكلف فلا يتوجه الذم عليه، وحيث أن فرعون لم يكن من المجانين وكان عاقلاً ظاهراً وأراه الله تعالى الآيات الباهرة التي أتى بها موسى فهو رآها وعقلها وعلم بحقيقتها إلا أن العناد منعه عن قبولها والإقرار بصدقها ظاهراً كما هو شأن المعاند وإلى هذه الدقيقة أشار الله بقوله، فكذب وأبى، فالتكذيب راجع إلى اللسان والإباء راجع إلى القبول قلباً أي كذب بلسانه وإمتنع عن القبول بقلبه وكيف كان ففي الآية إشارة بل دلالة على أن الله تعالى أتم الحجّة عليه وبذلك صار مستحقاً للعقاب والعذاب.

بنيّة القرآن في تفسير القرآن

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى

وأنما قال فرعون ذلك بعد أن رأى الآيات قال لموسى أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا، أي من أرض مصر بسحرك ياموسى، الباء للسبب أي بسبب سحرك، والمراد بالخروج من أرض مصر هو الخروج عن السلطنة عليها تحت عنوان الربوبية وليس المراد به الخروج المتعارف لأن الإيمان بالله لا يستلزم

المجلد الحادي عشر

جزء ١٦

الخروج منها و هو معلومٌ و أنّما قال من أرضنا ولم يقل من أرض مصر أو من الأرض مثلاً لأنّه كان يدّعي أنّ أرض مصر له لقوله أليس لي ملك مصر كما حكى الله عنه بقوله:

وَ نَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ^(١).

فقوله أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ، يدلّ على ما ذكرناه لأنّه لم يقل أليس لي حكومة مصر مثلاً، و قال ملك مصر بضمّ الميم و أمّا قوله: بِسِحْرِكَ حَيْثُ حَمَلُ المعجزة على السّحر فالوجه فيه هو أنّه لو قال بإعجازك مثلاً، كان هذا إقراراً منه بنبوة موسى لأنّ المعجزة لا يأتي بها إلاّ نبيّ أو وصيّ و الإقرار بالنبوة مستلزم للإقرار بالتوحيد و الألوهيّة لأنّ النّبيّ مبعوث من قبل الله و هذا الإقرار منه ينافي ما كان عليه في حكومته على النّاس من إدعاء الرّبوبيّة و لأجل ذلك عبّر عن المعجزة بالسّحر و قد قيل في المثل أنّ الغريق يتشبّث بكلّ حشيشٍ، و هذا أيّ إنكار الحقّ عناداً و لجأجأً لأجل الرّئاسة و الحطام الدنيويّة من الأمور المتداولة الشّائعة بين أهل الدنّيا في كلّ عصرٍ و زمانٍ و لا يختصّ بفرعون فأنّ الفراعنة لا يذعنون للحقّ بإختيارهم لتكبرهم و تجبرهم و هذا داءٌ لا دواء له إلاّ الإيمان بالله و الخضوع في جنب عظّمته.

فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا
أَنْتَ مَكَانًا سُوّى

قوله: فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ، جواب لقسم محذوف أوهم النّاس أنّ ما جاء به موسى أنّما هو من باب السّحر و أنّ عنده من يقاومه في ذلك فطلب فرعون من موسى ضرب موعد للمناظرة بالسّحر و الظّاهر أنّ موعداً، هنا هو الزّمان أيّ

فَعَيْنَ يَامُوسَى لَنَا زَمَانًا لَدَيْكَ لَا نَخْلُفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ فِي الْإِجْتِمَاعِ فِيهِ وَقَوْلُهُ: **مَكَانًا سَوِيًّا** أَي مَكَانًا عَدْلًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَقِيلَ مَعْنَاهُ مَكَانًا مُسْتَوِيًّا يَتَّيَّنُ النَّاسُ فِيهِ، وَقِيلَ مَكَانًا يَسْتَوِي حَالُنَا فِي الرِّضَا بِهِ وَفِي (سُورَى) إِذَا قَصَرَ لِعْتَانِ كَسَرَ السِّينِ وَضَمَّهَا وَإِذَا فَتَحَتْ السِّينَ مَدَدْتَهُ نَحْوَ قَوْلِهِ: **إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** (١).

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، سُورَى، الضَّعْفُ وَالْوَسْطُ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَأَنْ أَبَانَا كَانَ حَلًّا بِبِلَدِهِ
سُورَى بَيْنَ قَيْسِ قَيْسِ غِيلَانَ وَالْفَزْرِ
فَقَوْلُهُ: **مَوْعِدًا**، لِيَتَّعِينَ الزَّمَانَ، وَقَوْلُهُ: **مَكَانًا سَوِيًّا**، لِيَتَّعِينَ الْمَكَانَ فَأَنَّ الْمُنَاطَرَةَ وَكُلَّ حَادِثَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ لَا تَخْلُو مِنْهُمَا أَي مِنَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الطَّلَبِ وَالَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ تَعْيِينُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَقَدْ طَلَبَهَا فِرْعَوْنُ مِنْهُ أَي مِنَ مُوسَى فَأَجَابَ مُوسَى كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ.

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى

قِيلَ يَوْمَ الزَّيْنَةِ هُوَ يَوْمُ عِيدِ كَانْ لَهُمْ، وَقِيلَ يَوْمُ شَرَفٍ كَانُوا يَتَزَيَّنُونَ بِهَا فَهَذَا جَوَابٌ عَنْ قَوْلِ فِرْعَوْنَ مَوْعِدًا وَقَوْلُهُ: **وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى**، قِيلَ هُوَ فِي مَوْضِعٍ رَفِيعٍ وَتَقْدِيرُهُ مَوْعِدُكُمْ حَشَرَ النَّاسِ وَقِيلَ مَوْضِعُهُ جَزَّ تَقْدِيرُهُ يَوْمُ يُحْشَرُ النَّاسُ، أَنْ قَلْتَ طَلَبَ فِرْعَوْنُ مِنْ مُوسَى زَمَانًا وَمَكَانًا، فَأَجَابَ مُوسَى عَنْ الزَّمَانِ بِقَوْلِهِ، وَأَمَّا **مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ** عَنْ الْمَكَانِ فَلَمْ يَجِيبْهُ.

قَلْتَ قَوْلُهُ: **وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَى** جَوَابٌ عَنِ الْمَكَانِ مَعْنَى وَأَنْ لَمْ يَطَابِقْهُ لَفْظًا وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا بَدَلَ لَهُمْ مِنْ أَنْ يَجْتَمِعُوا يَوْمَ الزَّيْنَةِ فِي مَكَانٍ بَعِينِهِ مُشْتَهَرًا يَجْتَمِعُهُمْ فِيهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَبِذِكْرِ الزَّمَانِ عِلْمَ الْمَكَانِ مِنْ بَابِ الْمَلَازِمَةِ الْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّ الْحَشْرَ يَلْزَمُ الْمَكَانَ بَلْ لَا يَتَّحَقُّ الْحَشْرُ إِلَّا فِيهِ.

إِنْ قَلْتَ فَبِمَ يَنْتَصِبُ مَكَانًا.

قلت بالمصدر أو بفعل يدلّ عليه المصدر، و المراد بقوله: ضحّى ضحى ذلك اليوم بعينه فقوله ضحّى خبره أي خبر المبتدأ و هو موعدكم بمعنى الوقت على قراءة الحسن على نيّة التعريف فيه لما ذكرناه من أنّه ضحى ذلك اليوم بعينه.

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى

أي فأعرض فرعون عن قبول الحقّ أوم تولى ذلك الأمر بنفسه أو فرجع إلى أهله لإستعداد مكائده أو أدبر على عادة المتواعدين أن يولي كلّ واحدٍ منهما صاحبه ظهره إذا إفترقا فَجَمَعَ كَيْدَهُ، أي جمع ذوي كيده و هم السّحرة وكانوا عصابة لم يخلق الله أسحر منها، ثمّ أتى، أي ثمّ أتى فرعون للموعد الذي كان مقرّر عنده مع جميع السّحرة و أتى موسى أيضاً بمن معه من بني إسرائيل فلما اجتمعوا.

قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَى

قَالَ لَهُمْ أَي قال موسى للسّحرة ويلكم، قال الأصمعي، ويل قبح، و قد يستعمل على التّحسر و من قال، ويل، وادّ في جهنّم، لم يرد أنّ ويلاً في اللّغة هو موضوع لهذا قاله في المفردات و قوله: لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا أَي لا تدعوا آياته و معجزاته سحراً على قول الزّمخشري.

و قال في التّبيان أي لا تكذبوا عليه تعالى كذباً بتكذيبي و تقولوا أنّ ما جئت به السّحر، و الإفتراء إقتطاع الخبر الباطل بإدخاله في جملة الحقّ و أصله القطع من فراه يفريه فرياً، و الإفتراء و الإفتعال و الإختلاق واحدٌ و أمّا الكذب فهو الخبر الذي لا يطابق الواقع وليس فيه خلطٌ و بهذا يفترقان، فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ، أي فيستأصلكم بعذابٍ و السّحت إستقصاء الشّعر في الحلق فمن قرأ بضمّ الياء أخذه من أسحت رباعياً و من قرأ بفتح الياء فهو من سحت ثلاثياً.

وقوله: **وَ قَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى**، فالخيبة الإنقطاع أي إنقطع رجاء من إفتري الكذب يقال رجح بخيبته أي رجح بغير قضاء حاجته والمعنى أن موسى قال للسحرة لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم أي فيستأصلكم الله بعذابٍ إفتري على الله فقد إنقطع رجاءه فيرجع خائباً.

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرَوْا النَّجْوَى

لا شك أن الصمائر ترجع على السحرة أي أنهم تنازعوا أمرهم بينهم و اختلفوا فيه لكنهم أخفوا النجوى و اختلف المفسرون فيما أخفوه بينهم على أقوال:

قال قتادة أنهم قالوا أن كان هذا ساحراً فسنگلبه و أن كان من السماء فله أمره. و قال وهب، لما قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً، قالوا ما هذا بقول ساحر، و قيل إسرارهم كان أنهم قالوا إن غلبنا موسى إتبعناه. و قيل أسروا النجوى دون موسى و هارون بقوله أن هذين لساحران ذكر هذه الوجوه في التبيان.

و قال بعض المفسرين إسرارهم النجوى خيفةً من فرعون أن يتبين فيهم ضعفاً لأنهم لم يكونوا مصممين على غلبة موسى بل كان ظناً من بعضهم صاحب الكشاف الظاهر أنهم تشاوروا في السر و تجاذبوا أهداب القول ثم قالوا إن هذان لساحران فكانت نجواهم في تليفق هذا الكلام و تزويره خوفاً من غلبتها و تثبيطاً للناس من إتباعها إنتهى.

قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَ يُدْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى

قالوا أي السحرة، إن هذان، أي موسى و هارون، لساحران، و اختلف في تخريج هذه القراءة فقال القدماء من النحاة أنه على حذف ضمير الشأن و التقدير أنه هذان لساحران و على هذه القراءة فقوله: **هَذَا** مبتدأ و لساحران،

خبره و الجملة خبر، إنّ، في إنّه، و الهاء إسمها، واللام في لَسَاحِرَانِ داخلة على خبر المبتدأ، و أورد على هذا القول أنّ حذف ضمير الشّان لا يجيئ إلاّ في ضرورة الشّعور و دخول اللّام في الخبر شاذّ.

و قال القراء (الرّجاج) اللّام لم تدخل على الخبر بل التّقدير لهما ساحران فدخلت على المبتدأ المحذوف و قيل إنّ بمعنى نعم، و ثبت ذلك في اللّغة فتحمل الآية عليه و هذان لساحران، مبتدأ و خبر و اللّام في، لساحران، على ذينك التّقديرين في هذا التّخريج و التّخريج الذي قبله، و الذي يقوّي في النفس هو أنّ، إن هي المخفّفة عن الثّقيلة، و هذان مبتدأ و لساحران، الخبر و اللّام للفرق بين، إن، التّافية و، إن، المخفّفة عن الثّقيلة على رأي البصريين و الكوفيين يزعمون أنّ إن، نافية و اللّام بمعنى، إلاّ، و قرأت فرقة، إن ذان لساحران، و تخريجهما كتخريج التي قلبها و ذلك لأنّ إسم الإشارة هو، ذا، و الهاء للتّبيه، و قرأ بعضهم أنّ هذين بتشديد نون إنّ، و بلباء في هذين بدل الألف و إعراب هذا واضح إذ جاء على النّمط المعروف في التّثنية لقوله، فذانك برهانان إحدى بنتي هاتين بالألف رفعاً و الباء نصباً و جزأً، و لكن هذه القراءة خلاف المصحف و الأقوال فيه كثيرة.

و قولهم: يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا تبعوا فيه مقالة فرعون حيث قال أجتئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك و نسبوا السّحر أيضاً لهارون لما كان مشتركاً معه في الرّسالة و سالكاً طريقته و علّقوا الحكم على الإرادة بقولهم: يريدان و هم لا إطلاع لهم عليها تقيصاً لهما و خطأ من قدرهما و قد كان ظهر لهم من أمر اليد و العصا ما يدلّ على صدقهما و علموا أنّه ليس في قدرة السّاحر أن يأتي بمثل ذلك و قولهم بطريقته المثلّي، فالطّريقة السّيرة و المملكة و الحال التي هم عليها، و المثلّي بضمّ الميم تأنيث الأمثل أي الفضلى الحسنی، و قيل عبّر عن السّيرة بالطّريقة و أنّه يراد بها أهل العقل و السنّ و الحجى و حكوا أنّ العرب تقول فلان طريقة قومه أي سيدهم، و قيل

هو على حذف مضاف أي و يذهباً بأهل طريقتكم و هم بنو إسرائيل لقول موسى أرسل معنا بني إسرائيل.

أقول يحتمل أن يكون مرادهم بطريقة المثلى، هو دينهم الذي كانوا عليه فإن كل حزب بما لديهم فرحون، و المعنى أن موسى و هارون يريدان أن يغيروا دينكم، و فسره بعضهم بالجاء و المنصب و الرئاسة و إلى هذا ينظر قول من قال الأمثل الأفضل أي أن طريقتكم و مذهبكم أفضل مما يدعوكم إليه موسى يريد أن يخرجكم منه و قال بعضهم الأمثل الأشبه بالحق و قيل الأمثل الأوضح و الأظهر و الأقوال و الإحتمالات كثيرة و المعنى واضح لا خفاء فيه.

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى

الظاهر أنه من كلام فرعون للسحرة أمرهم بأن يجمعوا كيدهم، و قيل هو من كلام السحرة بعضهم لبعض، قرأ الجمهور فأجمعوا، بقطع الهمزة و كسر الميم من أجمع، رباعياً أأعزموا و أجعلوه مجمعاً عليه حتى لا تختلفوا و لا يتخلف واحد منكم كالمسألة المجمع عليها، و قرأ الزهري و أبو عمرو و يعقوب و أبو حاتم بوصل الألف و فتح الميم موافقاً لقوله: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ و قيل، جمع و أجمع لغتان في العزم على الشيء يقال جمعت الأمر و أجمعت عليه و على هذا فالقراءتان بمعنى واحد.

و الظاهر أن المراد بالكيد، السحر، و قوله: ثُمَّ آتُوا صَفًّا، معناه مصطفين، و أتما تتاعوا إلى الإتيان صفاً لأنه أهيب في عيون الناظرين و أظهر في التَّمويه و أنتصب صفاً على الحال أي مصطفين، أو مفعولاً به إذ هو المكان الذي يجتمعون فيه لعبيدهم.

و قد أفلح و فاز ببغية من طلب العلو في أمره و سعى سعيه و إختلفوا في عدد السحرة فأقل ما قيل أنهم كانوا إثنتين و سبعين ساحراً مع كل ساحر عصي و حبالٍ و أكثر ما قيل تسع مائة ألف.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ

لَمَّا جَاؤُوا أَي السَّحْرَةَ مُصْطَفِينَ إِلَى مَكَانِ الْمَوْعَدِ فِي يَوْمِ الزَّيْنَةِ وَبِيدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَصَا وَحَبْلٌ وَجَاءَ مُوسَىٰ وَأَخُوهُ أَيْضاً كَذَلِكَ فَوَقَفُوا فَقَالُوا: يَا مُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ أَوَّلًا وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْإِلْقَاءَ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ آيَةَ مُوسَىٰ فِي الْإِقَاءِ الْعَصَا وَقِيلَ خَيْرُوهُ ثَقَّةً مِنْهُمْ بِالْغَلْبِ لِمُوسَىٰ وَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَقَاوِمُهُمْ فِي السَّحْرِ.

وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ وَهَذَا التَّسْخِيرُ مِنْهُمْ إِسْتِعْمَالُ أَدَبٍ حَسَنٍ مَعَهُ وَتَوَاضَعٌ لَهُ وَخَفْضُ جَنَاحٍ وَتَبْيِيهُ عَلَىٰ إِعْطَاءِهِمُ النِّصْفَةَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَلْهَمَهُمْ ذَلِكَ وَعَلَّمَ مُوسَىٰ إِخْتِيَارَ الْإِقَاءِ هُمْ أَوَّلًا مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مَقَابِلَةِ الْأَدَبِ بِأَدَبٍ حَتَّىٰ يَبْرُزُوا مَا مَعَهُمْ مِنْ مَكَائِدِ السَّحْرِ وَيَسْتَنْفِذُوا أَقْصَىٰ طَرَفِهِمْ وَمَجْهُودِهِمْ فَإِذَا فَعَلُوا أَظْهَرَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ وَقَذَفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ وَسُلْطَةً الْمَعْجِزَةَ عَلَى السَّحْرِ فَمَحَقَّتْهُ وَكَانَتْ آيَةً بَيِّنَةً لِلنَّاطِرِينَ بَيِّنَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ إِنْتَهَى.

قَالَ بَلَّ الْقُوَا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ

جِبَالٌ بِكَسْرِ الْحَاءِ جَمْعُ حَبْلٍ وَعَصِيَّتُهُمْ بِكَسْرِ الْعَيْنِ جَمْعُ عَصَا وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمَّا خَيْرُوا مُوسَىٰ قَالَ لَهُمْ بَلَّ الْقُوَا أَنْتُمْ مَا مَعَكُمْ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ، وَأَمَّا قِيلُ يُخَيَّلُ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَسْعَىٰ حَقِيقَةً وَأَمَّا تَحَرَّكَتْ ظَاهِرًا وَذَلِكَ لَمَّا قِيلَ أَنَّهُ كَانَ جَعَلَ دَاخِلَهَا زَنْبُقٌ فَلَمَّا حَمَيْتْ بِالسُّمْسِ طَلَبَ الزَنْبُقُ الصُّعُودَ فَتَحَرَّكَتْ الْحِبَالُ وَالْعَصَىٰ فَظَنَّ مُوسَىٰ أَنَّهَا تَسْعَىٰ وَقَوْلُهُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ، قِيلَ يُخَيَّلُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ أَنَّهَا تَسْعَىٰ وَقِيلَ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَيَّ أَنَّ مُوسَىٰ يُخَيَّلُ أَنَّهَا تَسْعَىٰ وَإِخْتَارُهُ فِي التَّبْيِيَانِ لِقَوْلِهِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خَيْفَةَ مُوسَىٰ.

وَبَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ إِخْتَارُوا الْأَوَّلَ، وَقَوْلُهُ: فَإِذَا الْفَاءُ جَوَابٌ مَا حَذَفَ وَتَقْدِيرُهُ فَأَلْقُوا، وَإِذَا، فِي هَذَا ظَرْفٌ مَكَانٌ وَالْعَامِلُ فِيهِ، أَلْقُوا، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ.

و الْحَقُّ أَنَّ الْفَاءَ لَيْسَتْ فَاءَ جَوَابٍ لِأَنَّ فَاَلْقُوا لَا تَجَابُ وَ أُنْمَا هِيَ لِلْعَطْفِ عَطَفَتْ جُمْلَةَ الْمَاجَاةِ عَلَى ذَلِكَ الْمَحذُوفِ، وَ قَوْلُهُ وَ الْعَامِلُ فِيهِ أَلْقُوا لَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّ الْفَاءَ تَمْنَعُ مِنَ الْعَمَلِ وَ لِأَنَّ، إِذَا، هَذِهِ أُنْمَا هِيَ مَعْمُولَةٌ لِخَبَرِ الْمَبْتَدَأِ وَ الَّذِي هُوَ حِبَالَهُمْ وَ عَصِيَّتَهُمْ، وَ قَوْلُهُ يَخْتَلِ، فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَ هَذَا نَظِيرُ قَوْلِكَ خَرَجْتَ إِذَا الْأَسَدُ رَابِضٌ، وَ رَابِضًا وَ قَدْ أَطَالُوا الْكَلَامَ فِي الْبَابِ بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَ الَّذِي حَصَلَ لَنَا مِنَ الْآيَةِ هُوَ أَنَّ مُوسَى أَمَرَ السَّحْرَةَ بِالْإِلْقَاءِ أَوْلَى فَلَمَّا أَلْقَوْا مَا أَلْفُوا إِذَا حِبَالَهُمْ وَ عَصِيَّتَهُمْ أَعْنِي بِهِمَا الْآتِ سَحَرَهُمْ يَخْتَلِ أَنَّهَا تَسْعَى لَا أَنَّهَا وَاقِعًا بَلْ كَانَتْ الْحَرَكَةُ فِيهَا بِحَسَبِ الْخِيَالِ وَ الْوَهْمِ فَأَنَّ الْقُوَّةَ الْمَخْتَلَةَ وَ الْوَاهِمَةَ تَقْدِرَانِ عَلَى إِيجَادِ الْأَشْيَاءِ فِي وَعَاءِ الْخِيَالِ وَ الْوَهْمِ وَ لِذَلِكَ قِيلَ أَنَّهَا لَمْ تَتَّحَرَكْ وَاقِعًا وَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ سِحْرِ الْعَيُونِ وَ قَدْ صَرَّحَ تَعَالَى بِهَذَا حَيْثُ قَالَ:

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ أَسْتَرَّهُمْ^(١).

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خَيْفَةً مُوسَى

قِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَنَّ مُوسَى خَافَ بِطَبْعِ الْبَشَرِيَّةِ لِمَا رَأَى مِنْ كَثْرَةِ مَا تُخَيَّلُ مِنَ الْحَيَاتِ الْعِظَامِ، وَ قِيلَ كَانَ خَوْفُ مُوسَى عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتَنُوا لَهُوْلَ مَا رَأَوْهُ قَبْلَ أَنْ يَلْقَى عِصَاهُ، وَ إِلَّا يَحَاسُ هُوَ مِنَ الْهَاجِسِ الَّذِي يَخْطُرُ بِالْبَالِ وَ لَيْسَ يَتِمَكَّنُ، وَ خَيْفَةً بِكَسْرِ الْخَاءِ أَصْلُهُ خَوْفَةٌ قَلْبَتِ الْوَاوِ يَاءً لِكَسْرِهِ مَا قَبْلَهَا وَ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ يَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ أَصْلُهَا خَوْفَةٌ بَفَتْحِ الْخَاءِ قَلْبَتِ الْوَاوِ يَاءً ثُمَّ كَسَرَتْ الْخَاءَ لِلتَّنَاسُبِ فَلَمَّا خَافَ مُوسَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى هَذَا تَقْرِيرٌ لِعَلْبَتِهِ وَ قَهْرُهُ وَ تَوْكِيدٌ بِالْإِسْتِنَافِ وَ بِكَلِمَةِ التَّوَكِيدِ وَ تَكْرِيرِ الضَّمِيرِ وَ لَامِ التَّعْرِيفِ وَ بِالْأَعْلَوِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّفْضِيلِ.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَ لَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى

أمر الله موسى بإلقاء ما في يمينه لما في لفظ اليمين من معنى اليمن و البركة و المعنى ألق ما في يمينك من العصا، تلقف ما صنعوا، قرأ ابن عامر، تَلَقَّفَ بتشديد القاف و رفع الفاء و قرأ حفص عن عاصم ساكنة الفاء مجزومة خفيفة القاف و قرأ الباقون مشددة القاف مجزومة لفاء و قرأ الكسائي، كيد سحر، و الباقون، ساحر، على فاعل، و المعنى ألق ما في يمينك و هو العصا و هى تأخذها فيها إبتلاعاً، ما صنعوا، ما، بمعنى، الذي، و تقديره تلقف و تبتلع الذي صنعوا فيه و ذلك إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ لا أصل له.

وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى أَي لا يفوز السَّاحِرُ بفلاح أي بنجاة.

قال الزمخشري و قوله: فِي يَمِينِكَ و لم يقل عصاك جائز أن يكون تصغيراً لها أي لا تبال بكثرة حبالهم و عصيهم و ألق العويد الفرد الصَّغير الجرم الذي في يمينك فإنه بقدره الله يتلقفها على حدته و كثرتها و صغره و عظمها، و جائز أن يكون تعظيماً لها أي لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فأَنْ في يمينك شيء أعظم منها كلها و هذه على كثيرتها أقل شيء و أنزره عندها فألقه تتلقفها بإذن الله و تمحقها إنتهى.

أقول هذا الذي ذكره أشبه بشئٍ بالخطابة و لا يستفاد من ظاهر الآية ذلك و مع ذلك لا بأس به و فى قوله: وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى إشارة الى نقطة و هى أَنَّ السَّحْرَ باطل في نفسه إذ لا حقيقة له و الباطل لا يدوم و الحق يدوم قال رسول الله: لِلْحَقِّ دَوْلَةٌ وَلِلْبَاطِلِ جَوْلَةٌ فمن أتى بالحق فهو مقروء بالفلاح و من أتى بالباطل فلا فلاح له و هذا أصلٌ يعتمد عليه في جميع الأفعال و الأقوال و لا إختصاص له بالسَّحْرِ فقط فأَنَّ السَّحْرَ أحد مصاديق الباطل و لذلك لا يفلاح فاعله و هذا هو السر في بقاء الأديان السماوية لأنها كانت مطابقة للواقع بخلاف المالك و المذاهب المخترعة التي لا حقيقة لها فأنها تزول

بموت صاحبها وكيف يفلح من أغفل الناس و أظهر الباطل بلباس الحق و
أضل الناس به فهو كسرابٌ بَقِيعَةٌ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً^(١).

فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا أَمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى

أي لما رأوا ما فعله الله على يد موسى من قلب العصا ثعباناً وإبطال
سحريهم بتلقف الثعبان ما صنعوا من السحر علموا أنه ليس من سنخ السحر و
أنه معجزة أتى بها موسى من قبل الله فألقوا نفوسهم ساجدين لله مقرنين بنبوة
موسى مصدقين له و قالوا آمناً، أي صدقنا برَبِّ هارون و موسى أو آمناً بالربِّ
الذي يدعوا اليه هارون و موسى قال بعض المفسرين لما زال إيجاس الخيفة
من موسى و ألقى ما في يمينه و تلقفت حبالهم و عصيهم ثم إنقلبت عصا، و
فقدوا الحبال و العصي و علموا أن ذلك معجز ليس في طوق البشر فألقى
السحرة سجداً و أمّا قال سجداً ولم يقل فسجدوا لأنهم أي السحرة لما رأوا ما
رأوا من قلب العصا ثعباناً إلى آخر القصة لم يتمالكوا أنفسهم من سرعة ما
تأثروا لذلك الخارق العظيم و لذلك خرّوا ساجدين كأنهم خرجوا عن حدِّ
الإعتدال و دهشت عقولهم، و أمّا قالوا ذلك لأنهم علموا أن فعل موسى ليس
من سنخ السحر إذ لو كان كذلك لقدروا على إبطاله فلما لم يقدروا أذعنوا بأنه
أي ما فعله موسى من سنخ الإعجاز فصاروا خاضعين في جنب عظمة الله
فقالوا: آمناً بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى، قيل قدّم هارون لأنه كان أكبر من موسى،
و قيل أن فرعون كان ربّي موسى فبدوا بهارون ليزول تمويه فرعون أنه ربّي
موسى فيقول أنا ربّيته، و قالوا ربّ هارون و موسى ولم يكتبوا بقولهم برَبِّ
العالمين للنص على أنهم آمنوا برَبِّ هذين فرعون فيما قيل يزعم أنه ربّ
العالمين.

أقول يحتمل أن يكون تقديم هارون على موسى في الآية لأجل الفواصل و هو الأظهر و لذلك ترى قدّم موسى في الأعراف و أخر هارون أيضاً لذلك

قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ تَعَلَّمْتُمْ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى

لَمَّا أَلْقَى السِّحْرَةَ سَجَدَ لِلَّهِ وَ آمَنُوا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى قَالَ فِرْعَوْنُ لَهُمْ أَمَنْتُمْ لَهُ أَي صَدَقْتُمُوهُ وَ إِنْتَبَعْتُمُوهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ الْإِذْنَ فِي الشَّيْءِ إِعْلَامٌ بِإِجَازَتِهِ وَ الرُّخْصَةِ فِيهِ أَي بِإِرَادَتِهِ وَ أَمْرِهِ، وَ هَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الْإِذْنِ وَ الْأَمْرِ لِأَنَّ فِي الْأَمْرِ دَلَالَةً عَلَى إِرَادَةِ الْفِعْلِ الْمَأْمُورَةِ وَ لَيْسَ فِي الْإِذْنِ دَلَالَةٌ عَلَى إِرَادَةِ الْمَأْدُونِ فِيهِ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ، أَمَنْتُمْ عَلَى الْخَبْرِ وَ مِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ عَلَى لَفْظِ الْإِسْتِفْهَامِ فَعَلَى الْأَوَّلِ كَانَ فِرْعَوْنُ أَخْبَرَ بِإِيمَانِهِمْ قَبْلَ الْإِذْنِ وَ عَلَى الثَّانِي كَأَنَّهُ اسْتَفْهَمَ عَنِ إِيمَانِهِمْ عَلَى وَجْهِ التَّقْرِيعِ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ أَي أَنَّ إِيمَانَكُمْ بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى قَبْلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ مِمَّا عَلَّمَكُمُ كَبِيرِكُمْ وَ رَيْسِكُمْ الَّذِي تَعَلَّمْتُمُ السِّحْرَ مِنْهُ ثُمَّ هَدَّاهُمْ وَ قَالَ: فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ يَعْنِي قَطَعَ الْيَدَ الْيُمْنَى وَ الرَّجْلَ الْيُسْرَى وَ قَطَعَ الْيَدَ الْيُسْرَى وَ الرَّجْلَ الْيُمْنَى.

قيل أول من فعل ذلك فرعون و لأصلببتكم في جذوع النخل قيل، في، بمعنى، على، أي على جذوع النخل و قيل نقر فرعون الخشب و صلّبهم في داخله فصار ظرفاً لهم حقيقياً حتى يموتوا فيه جوعاً و عطشاً و من تعديه صلب، بفي. قول الشاعر:

وهم صلبوا العبدى في جذع نخلة فلا عطست شيان إلا بأجدعا
و قيل هو أول من صلب على جذوع النخل أيضاً أراد فرعون بالتقطيع و

التَّصْلِيبِ فِي الْجَذُوعِ التَّمْثِيلِ بِهِمْ وَ لَمَّا كَانَ الْجَذْعُ مَقْرَأً لِلْمَصْلُوبِ وَ إِشْتَمَلَ عَلَيْهِ إِشْتِمَالِ الظَّرْفِ عَلَى الْمَظْرُوفِ عَدَى الْفِعْلِ، بَقِيَ، الَّتِي لِلوَعَاءِ وَ لَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى الْخَطَابِ لِلشَّجَرَةِ وَ أَيُّنَا أَشَدُّ جَمَلَةً إِسْتِفْهَامِيَّةً مِنْ مَبْتَدَأٍ وَ خَبْرٍ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ لِقَوْلِهِ، وَ لَتَعْلَمَنَّ، سَدَّتْ مَسَدَ الْمَفْعُولِينَ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، أَيُّنَا، مَوْصُولَةً وَ الْجَمَلَةُ بَعْدَهَا صِلَةٌ وَ التَّقْدِيرُ وَ لَتَعْلَمَنَّ مِنْ هُوَ أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى، وَ التَّقْدِيرُ مِنْ هُوَ أَشَدُّ عَذَابًا مِنَ الْآخِرَةِ أَنَا أَوْ أَنْتُمْ وَ مَنْ يَكُونُ أَبْقَى فِي الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرِ أَنَا أَوْ أَنْتُمْ.

وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَظْلُومَ أَشَدُّ عَذَابًا فِي الدُّنْيَا مِنَ الظَّالِمِ كَمَا أَنَّ الظَّالِمَ أَبْقَى مِنْهُ فِيهَا.

قَالَ فِي الْمَفْرَدَاتِ الْجَذْعُ بِكسْرِ الْجِيمِ جَمْعُهُ جَذُوعٌ جَذَعْتَهُ، قَطَعْتَهُ قَطَعَ الْجَذْعُ وَ الْجَذْعُ بِفَتْحِ الْجِيمِ مِنَ الْإِبِلِ مَا أَتَتْ لَهَا خَمْسُ سَنِينَ وَ مِنَ الشَّاةِ مَا تَمَّتْ لَهُ سَنَةٌ إِنْتَهَى.

أَنْ قَلْتِ مَا ذَنْبِ السَّحَرَةِ وَ بِأَيِّ شَيْءٍ إِسْتَحَقُّوا ذَلِكَ الْعَذَابِ.

قَلْتِ ذَنْبَهُمْ إِيْمَانَهُمْ بِاللَّهِ وَ قَوْلَهُمْ الْحَقُّ وَ لَيْسَ جَزَاءُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقُولُ بِالْحَقِّ عِنْدَ الظَّالِمِ الْعُنُودَ إِلَّا الْقَتْلَ وَ حَيْثُ أَنْ فَرَعُونَ كَانَ ظَالِمًا فَفَعَلَ مَا فَعَلَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَ تَبِعَهُ عَلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ الْعَذَابِ أَشْيَاعُهُ وَ أَتْبَاعُهُ بَعْدَهُ كَمَا فَعَلَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِعَنْهَمَا اللَّهُ ذَلِكَ بَزِيدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ كَثِيرَةً.



قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ
 الَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي
 هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧١) إِنَّا أَمَّا بِرَبِّنَا لِيَعْفِرَ لَنَا
 خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتُنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ
 خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٢) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ
 جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٣) وَمَنْ يَأْتِهِ
 مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ
 الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٤) جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ
 تَزَكَّىٰ (٧٥) وَ لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ
 بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا
 تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٦) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
 بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ (٧٧) وَ
 أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَىٰ (٧٨) يَا بَنِي
 إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ
 جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ
 السَّلْوَىٰ (٧٩) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ
 لَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحْلِلْ
 عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨٠) وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ
 تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨١) وَ مَا
 أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٢) قَالَ هُمْ
 أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَتْرَىٰ وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ

(٨٣) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
الْشَّامِرِيُّ (٨٤)

◀ اللُّغَةُ

نُؤْتِرُكَ: الإيثار الإختيار تَفَضُّلاً.
فَاقْضِ: أمرٌ من قضى أي أحكم.
خَطَايَانَا: الخطايا جمع خطيئة وهى الذَّنْب.
يَبْسًا: اليبس اليابس وجمعه، أيباس، و جمع اليبس بسكون الباء، ييبوس، و
قال أبو عبيدة، اليبس بفتح الباء المكان الجاف.
دَرَكَ: الدَّرْكُ بفتح الدَّالِ والرَّاء ما يلحق الإنسان من تبعه كالدَّرْكُ في البيع.
غَشِيَهُمْ: أي سترهم.
الْمَنَّ وَ السَّلْوَى: المَنَّ هو الَّذِي يقع على بعض الأشجار، و السَّلْوَى طائرٌ
أكبر من السَّمَان.
هَوَى: أي سقط.
أَثَرِي: أثر الشَّيْءِ حصول ما يدلُّ على وجوده.
فَتَنَّاكَ: الفتنة الإختبار.

◀ الإِعْرَابُ

مَا أَنْتَ قَاضٍ مَا، بمعنى الَّذِي و قيل هي زمانية أي أقض أمرك مدة ما
أنت قاض هذه الْحَيَوةَ الدُّنْيَا منصوب بتقضي، وما، كإفة أي تقضي أمور
الحياة الدنيا، و يجوز أن يكون ظرفاً و المفعول محذوف ما أَكْرَهْتَنَا قِيلَ، ما،
بمعنى، الَّذِي، معطوفة على الخطايا و قيل في موضع رفع على الإبتداء و
الخبر محذوف أي و ما أَكْرَهْتَنَا عليه مسقطٌ مِنَ السِّحْرِ حال من، ما، أو من الهاء
و قيل هي، ما، نافية و فى الكلام تقديم تقديره ليغفر لنا خطايانا من السِّحْرِ و لم

تكرهنا عليه إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ الضَّمِيرُ هُوَ الشَّانُ وَالْقِصَّةُ جَنَاتٌ عَدَنٍ هِيَ بَدَلٌ مِنَ الدَّرَجَاتِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ هِيَ نَبَاتٌ لِأَنَّ خَالِدِينَ فِيهَا حَالٌ وَلَا يَكُونُ فِي الْكَلَامِ مَا يَعْمَلُ فِي الْحَالِ طَرِيقًا مَفْعُولٌ بِهِ يَسَّابَفْتَحُ الْبَاءُ مَصْدَرُ أَي ذَاتُ يَبْسُ، لَا تَخَافُ قِيلَ هُوَ مُسْتَأْنَفٌ وَقِيلَ هُوَ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي إِضْرَبُ، وَقِيلَ هُوَ صِفَةٌ لِلطَّرِيقِ وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ أَي وَلَا تَخَافُ فِيهِ وَيَقْرَأُ بِالْجَزْمِ عَلَى النَّهْيِ أَوْ عَلَى جَوَابِ الْأَمْرِ بِجُودِهِ هُوَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَالْمَفْعُولِ الثَّانِي مَحْذُوفٌ أَي فَاتَّبِعْهُمْ فَرَعُونَ عِقَابَهُ وَمَعَهُ جَنُودُهُ جَانِبَ الطُّورِ هُوَ مَفْعُولٌ بِهِ فَيَجِلُّ جَوَابُ النَّهْيِ مَا أَعْجَلَكَ مَا، إِسْتِفْهَامِيَّةٌ مُبْتَدَأٌ وَأَعْجَلَكَ الْخَبْرُ هُمْ مُبْتَدَأٌ وَأَوْلَا بِمَعْنَى الَّذِي عَلَى أَثَرِي صَلْتَهُ.

التفسير

قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

لَمَّا هَدَّوْهُمْ فَرَعُونَ بِالْقَتْلِ قَالُوا فِي جَوَابِهِ لَنْ نُؤْتِرَكَ، أَي لَنْ نَخْتَارَ إِتْبَاعَكَ وَكُونَنَا مِنْ حَزْبِكَ وَسَلَامَتَنَا مِنْ عَذَابِكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْمَعْجَزَاتُ الَّتِي أَنْتَنَا وَعَلِمْنَا صَحَّتْهَا، وَكَلِمَةٌ لَنْ، لِنْفِي الْأَبْدَ أَي لَا نَخْتَارُكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ أَوَّلًا، قَوْلُهُ هَذَا لِفَرَعُونَ تَوْهِيئٌ لَهُ وَإِسْتِصْغَارٌ لَمَّا هَدَّوْهُمْ بِهِ وَاعْدَمَ إِكْتِرَابٌ بِقَوْلِهِ وَفِي نِسْبَةِ الْمَجْعِيِّ إِلَيْهِمْ وَأَنْ كَانَتْ الْبَيِّنَاتُ جَاءَتْ لَهُمْ وَغَيْرُهُمْ، إِشْعَارٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْرَفَ بِالسُّحْرِ وَالْفِرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْجَزَةِ مِنْ غَيْرِهِمْ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيْسَ بِسِحْرٍ فَكَانُوا عَلَى جَلِيَّةٍ مِنَ الْعِلْمِ بِالْمَعْجَزِ وَغَيْرِهِمْ يَقْلُدُهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَيْضًا فَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ حَصَلَ لَهُمْ النَّفْعُ بِهَا فَكَانَتْ بَيِّنَاتٌ وَاضِحَةٌ فِي حَقِّهِمْ وَالْوَاوُ فِي وَالَّذِي فَطَرْنَا وَاعْطَفَ عَلَى مَا جَاءَنَا أَي وَعَلَى الَّذِي فَطَرْنَا.

قيل لَمَا لاحت حِجَّةُ اللَّهِ في المعجزة بدأوا بها ثم تَرَقَّوا إلى القادر على خرق العادة و هو الله تعالى و ذكروا وصف الإختراع و هو قولهم، الَّذِي فَطَرْنَا، تيناً لعجز فرعون و تكذيبه في إدعاء ربوبيته و الإلهية و هو عاجزٌ عن صرف ذبابة فضلاً عن إختراعها إنتهى و أمّا قوله: فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِلَى آخر الآية.

أقول في الآية مسائل:

الأولى: قوله قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْيِّنَاتِ.

الثانية: قوله وَ الَّذِي فَطَرْنَا.

الثالثة: قوله فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ.

الرابعة: قوله إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا و نحن نتكلم فيها على

سبيل الإختصار.

أمّا المسئلة الأولى: فحاصلها أنه لا شك لنا أن ما جاءنا به موسى ليس من سنخ السحر و أمّا هو معجزة يعجز البشر عن الإتيان بها و إذا كان كذلك فلا يجوز لنا العدول عنها عقلاً فأمرنا يدور بين أمرين:

أحدهما: متابعة العقل.

الثاني: متابعتك و الجمع بينهما محال لأن الحق و الباطل لا يجتمعان معاً و

نحن نؤثر الحق على الباطل كما هو مقتضى العقل السليم ولن نؤثر الباطل على الحق أبداً و في هذا الكلام إشارة إلى أنهم أي السحرة كانوا في طلب الحق ولم يكونوا معاندين له و أن فرعون أجبرهم على تلك المناظرة أو أغفلهم عليه أو كانوا جاهلين و أمّا قلنا ذلك لأن المعاند و هو الذي ينكر الحق و يريد إطفائه مع العلم بكونه حقاً مثل كفار قريش لا يقول آمنت بالله و لا ينقاد للحق أصلاً و حيث أنهم أي السحرة صاروا سجداً لله تعالى و إختاروا الموت على الحياة مع الظالمين علمنا أنهم كانوا طالبين للحق واقعاً و هو كاشف عن حسن سريرتهم.

المسألة الثانية: قوله **وَ الَّذِي فَطَرْنَا**، أي خلقنا وأوجدنا وفيه إشارة الى أن الخالق الموجد يستحق أن يعبد لا غيره و أن التوحيد راجع الى الفطرة قال الله تعالى: **فَطَرَتْ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**^(١) فمن أنكر الفاطر أنكر الفطرة و من كان كذلك فهو خارج عن ذوي العقول و لا كلام لنا معه.

المسألة الثالثة: قوله **فَأَقْضِي مَا أَنْتَ قَاضٍ** وفيه إشارة الى أن الحاكم الظالم يحكم بما يشاء و العادل لا يحكم إلا بالحق.

المسألة الرابعة: قوله **إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** وهي الحياة التي لا بقاء لها و أما الحياة التي لا موت فيها و لا زوال فهي الحياة الآخرة و العاقل لا يؤثر الفاني على الباقي.

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى

و أنه قيل لهم لم آمنتكم ربّ هارون و موسى، فقالوا **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا** لأمرين أحدهما: أن يغفر لنا ذنوبنا و ما أكرهتنا عليه من السحر، قال ابن عباس أن فرعون رفع غلماناً الى السحرة يعلمونهم الحر بالعزائم.

و قيل أن فرعون حملهم على معارضة موسى، و عليه فقوله ما أكرهتنا عليه من السحر معناه أكرهتنا عليه من أعمال السحر، و قيل كان فرعون يأخذ ولدان الناس و يجربهم على ذلك فأشارت السحرة على ذلك و لا شك أن أعمال السحر من أشدّ الذنوب إذا كان في تقوية الباطل.

والوجه الثاني: قوله **وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**، أي **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا** لأنه خير و أبقي من كل شيء بحيث لا فناء له و إختيار الخير على الشر و الباقي على الفاني ممّا يحكم به العقل.

وقال بعض المفسرين معناه والله خيرٌ لنا منكم وأبقى لنا ثواباً من ثوابك و على هذا فهو في الحقيقة ردٌّ على قول فرعون **أَيْئاً أَشَدُّ عَذَاباً وَ أَبْقَى** (١) روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً فوجدوه يحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحرٍ السّاحر إذا قام بطل سحره فأبى فرعون إلا أن يعارضوه و يظهر من قولهم، أنن لنا لأجرأ عدم الإكراه.

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى.

في هذا الكلام إشارة إلى أن المذنب العاصي ينبغي أن يتوب و يرجع إلى الله قبل موته ليدخل على ربه تائباً منقاداً، فمن عصى ربه و مات على العصيان بغير توبة فإن له جهنم و ذلك لأن الأخرة ليست بدار التّكليف فلا توبة فيها، و لأجل ذلك رجع السّحرة عمّا كانوا عليه من المعصية و قوله: **لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى**، إشارة إلى الموت و الحياة من خواصّ الدنيا الفانية و أما الأخرة فهي دار الحياة ثم أن قوله: **لَا يَمُوتُ فِيهَا** لا خفاء فيه و أما قوله: **وَلَا يَحْيَى** فقبل في معناه أي لا حياة فيها راحة بل هو معاقب بأنواع العقاب، و قيل و لا يحيا، أي يعذب عذاباً ينتهي به إلى الموت ثم لا يجهز عليه فيستريح بل يعاد جلده و يجدد عذابه و لا يحيا حياة طيبة.

و قال الرّازي الجسم لا بدّ و أن يبقى أما حياً أو يصير ميتاً فخلّوه عن الوصفين محال فمعناه في الآية أنه أي المجرم يكون في جهنم بأسوء حالٍ لا يموت موتة مريحة و لا يحيا حياة ممتعة إنتهى.

أقول نفى الله تعالى الموت و الحياة في الأخرة على الإطلاق فتقيد الموت بالمريحة و الحياة بالمتعة لا دليل عليه فالإشكال باقٍ بحاله، و الذي يختلج بالبال هو أن الموت لا يصدق إلا بعد الحياة بل هو عدم الحياة، كما إن الحياة أيضاً لا تصدق إلا بعد الموت بل هي عدم الموت إذا عرفت هذا فنقول:

أما أنه لا يموت في الآخرة فلا خلاف فيه لأنها أي الآخرة دار البقاء ومن لا يموت فهو لا يحيا قطعاً فأَنَّ السَّالِبَةَ تَنْتَقِي بِانْتِفَاعِ الْمَوْضُوعِ مَوْضُوعَ الْحَيَاةِ الْمَوْتِ فِانْتِفَاءِ الْمَوْتِ يَسْتَلْزِمُ انْتِفَاءَ الْحَيَاةِ وَأَمَّا قَلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَا مَوْتَ فِيهَا وَلَا حَيَاةً حَتَّى يَحْتَاجَ الْكَلَامَ إِلَى التَّقْيِيدِ وَالتَّوْبِيلِ بَلْ قَالَ لَا يَمُوتُ وَلَا يَحْيَا أَي لَا يَتَّصِفُ بِهِمَا لِأَنَّ الْإِنْتِصَافَ مِنْ شَيْءٍ الْحَادِثُ.

هذا ويحتمل أن يكون المعنى في قوله: لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا، إشارة أو كناية عن بقاء العذاب وعدم زواله والله أعلم بما أراد منه فأَنَّ عقولنا قاصرة عن درك كلامه والبلوغ إلى غاية مرامه.

وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى
 الواو للعطف والضمير في، يأتته، عائد على الرَّبِّ في الآية السابقة في قوله:
 إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا والمعنى ومن يأت ربّه مؤمناً معتقداً بالله ورسوله
 وجميع ما جاء به الرسول ومع ذلك قد عمل الصالحات في دار الدنيا فأولئك
 الذين كانوا كذلك لهم الدرجات العلى في الآخرة وقوله قد عمل الصالحات
 بعد قوله: مُؤْمِنًا يدل على أَنَّ مجرد الاعتقاد القلبي لا يكفي في تحقّق الإيمان
 بل لابد له من العمل الصالح على أساس الاعتقاد وهو صريح في أَنَّ الإيمان
 عبارة عن الاعتقاد والعمل الناشئ منه كما نقول به وقد وردت الأخبار بذلك
 عن المعصومين خلافاً لأكثر العامة حيث ذهبوا إلى أَنَّ الإيمان مجرد الاعتقاد،
 وفي قوله: لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى إشارة إلى أَنَّ مراتب الإيمان متفاوتة ولكلِّ
 مرتبة منها درجة عالية في الآخرة فلو كان الإيمان لا يزيد ولا ينقص كما زعم
 بعضهم كان حقّ العبارة أن يقال لهم درجة عالية على حدّ سواءٍ فالدرجات من
 جهة الثواب كاشفة عن درجات الأسباب وإختلافها فأَنَّ لكلِّ مرتبة من مراتب
 الإيمان درجة من حيث الثواب وعبارة أخرى معنى الكلام أَنَّ للمؤمنين
 درجات عالية متفاوتة بحسب مراتب إيمانهم.

إِن قُلْتَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَهُم الدَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَ أَمَا أَنَّ الدَّرَجَاتِ مُتَفَاوِتَةً مُخْتَلِفَةً فَلَا تَدُلُّ الْآيَةَ عَلَيْهَا حَتَّى تَكُونَ كَاشِفَةً عَنِ تَفَاوُتِ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ.

قُلْتَ لَفِظِ الْجَمْعِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُن بَيْنَهَا تَفَاوُتٌ وَإِخْتِلَافٌ فَلَا تَصُدِّقُ الدَّرَجَاتِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ بَلْ يُقَالُ لَهُمْ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ وَ هَذَا ظَاهِرٌ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْأَسَاسُ فِي الدِّينِ وَ لَا شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي بَابِ الْعِبَادَةِ وَ مَعَ ذَلِكَ لَهُ مَرَاتِبٌ مُتَفَاوِتَةٌ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ الْإِسْتِعْدَادَاتِ وَ الْإِعْتِقَادَاتِ فَلَا بُدَّ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى شَطْرٍ مِمَّا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي الْبَابِ فَالْكَلَامُ يَقَعُ فِي مَقَامَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِيمَانَ مُشْرُوطٌ بِالْعَمَلِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمَرَاتِبَ فِيهِ مُتَفَاوِتَةٌ مِنْ حَيْثُ الزِّيَادَةُ وَ التَّقْيِصَةُ. فَنَقُولُ أَمَّا الْمَقَامُ الْأَوَّلُ وَ هُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ مُشْرُوطٌ بِالْعَمَلِ، وَ أَنَّهُ أَخْصَصَ مِنَ الْإِسْلَامِ.

فَقَدْ رَوَى فِي الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنِ سَمَاعَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ وَ الْإِيمَانِ أَهْمَا مُخْتَلِفَانِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَخْبِرْنِي أَنَّ الْإِيمَانَ يَشَارِكُ الْإِسْلَامَ وَ الْإِسْلَامَ لَا يَشَارِكُ الْإِيمَانَ فَقُلْتُ فَصَفَّهُمَا لِي فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْإِسْلَامُ شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ التَّصَدِيقُ بِرَسُولِ اللَّهِ بِهِ حَقَّقْتَ الدِّمَاءَ وَ عَلَيْهِ جَرَّتِ الْمَنَاكِحُ وَ الْمَوَارِيثُ وَ عَلَى ظَاهِرِهِ جَمَاعَةُ النَّاسِ، وَ الْإِيمَانُ الْهُدَى وَ مَا يَثْبُتُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ صِفَةِ الْإِسْلَامِ وَ مَا ظَهَرَ مِنَ الْعَمَلِ بِهِ وَ الْإِيمَانُ أَرْفَعُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِدَرَجَةٍ أَنَّ الْإِيمَانَ يَشَارِكُ الْإِسْلَامَ فِي الظَّاهِرِ وَ الْإِسْلَامَ لَا يَشَارِكُ الْإِيمَانَ فِي الْبَاطِنِ وَ أَنْ يَجْتَمِعَا فِي الْقَوْلِ وَ الصِّفَةِ إِنَّتَهَى.

وَ بِأَسْنَادِهِ عَنِ حَمْرَانَ بْنِ أَعْيُنَ عَنِ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَمِعْتَهُ يَقُولُ الْإِيمَانَ مَا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ وَ أَفْضَى بِهِ إِلَى اللَّهِ وَ صِدْقَهُ الْعَمَلِ بِالطَّاعَةِ وَ التَّسْلِيمِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَ الْإِسْلَامِ مَا ظَهَرَ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ.

وبأسناده عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله أنّ الإيمان يشارك الإسلام و ساق الحديث إلى أن قال أنّ الإيمان ما قر في القلوب الحديث.

وبأسناده عن أحدهما قال الإيمان إقرار و حمل و الإسلام إقرار بلا حمل إنتهى.

وبأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: دين الله إسمه الإسلام و هو دين الله قبل أن تكونوا حيث كنتم و بعد أن تكونوا فمن أقرّ بدين الله فهو مسلم و من عمل بما أمر الله تعالى به فهو مؤمن إنتهى.

وبأسناده عن جميل بن دراج قال: سألت أبا عبد الله عن الإيمان فقال عليه السلام: شهادة أن لا إله إلا الله و أنّ محمّد رسول الله قال قلت ليس هذا عمل قال بلى قلت فالعمل من الإيمان قال لا يثبت له الإيمان إلا بالعمل و العمل منه إنتهى.

و الأحاديث كثيرة و لا نحتاج إلى إطالة الكلام في الباب لأنّه من المسلّمات التي لا خلاف فيه في مذهبنا، و أمّا المقام الثاني و هو أنّ الإيمان درجات و مراتب.

فقد روي في الكافي عن عمّار بن أبي الأحوص عن أبي عبد الله قال عليه السلام: أنّ الله تعالى وضع الإيمان على سبعة أسهم على البرّ و الصدق و اليقين و الرضا و الوفاء و العلم و اللحم ثمّ قسّم ذلك بين النّاس فمن جعل فيه هذه السّبعة الأسهم فهو كاملٌ محتملٌ و قسّم بعض النّاس السّهم و لبعض السّهمين و لبعض الثّلاثة حتّى إنتهوا إلى سبعة ثمّ قال عليه السلام لا تحملوا على صاحب السّهم سهمين و على صاحب السّهمين ثلاثة فتبهضوهم ثمّ قال عليه السلام كذلك حتّى ينتهي إلى سبعة إنتهى.

و بأسناده عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام يا عبد العزيز أن الإيمان عشرة درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة الحديث.

و بأسناده عن سدير قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام أن المؤمنين على منازل منهم على واحدة و منهم على اثنتين و منهم على ثلاث و منهم على أربع و منهم على ست و منهم على سبع الحديث و الأحاديث نقلناها عن الوافي، الجزء الثاني أبواب تفسير الإيمان و الإسلام^(١).

إذا عرفت هذا فقد علمت أن الدرجات العلى في الثواب ناظرة إلى الدرجات في الإيمان و هو المطلوب.

جَنَاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى

لما أخبر الله تعالى أن لمن أمن بالله و عمل الصالحات الدرجات العلى قال و لهم جنات عدن أي بساتين إقامة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، أبداً ثم قال و ذلك جزاء من تزكى، و التزكي طلب الزكا بإرادة الطاعة و العمل بها و الزكا النماء في الخير و قيل معنى (تَزَكَّى) نطهر من الذنوب بالطاعة بدلاً من تدينسها بالمعصية و الخلود المكث في المشي إلى غير غاية، قاله الشيخ في التبيان.

أقول أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله و يعتبر ذلك بالأموال الدنيوية و الأخروية يقال زكى الزرع يزكوا إذا حصل منه نمو و بركة، و قوله تعالى أيها أركى طعاماً، إشارة إلى ما يكون حلالاً لا يستوخم عتبه و منه الزكاة لما يخرج الإنسان من حق الله إلى الفقراء و تسميته بذلك من رجاء البركة و لتزكية النفس

أي تنميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعاً، وبزكاء النفس و طهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة و في الآخرة الأجر و المثوبة و هو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره و ذلك تارة إلى العبد لكونه مكتسباً لذلك نحو قوله تعالى: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْنَهَا** ^(١) و تارة ينسب إلى الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو: **اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ** و تارة إلى النبي لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم نحو: **تَطَهَّرْهُمْ وَ تَزَكِّيْهِمْ بِهَا** ^(٢) و قوله: **يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيْكُمْ** ^(٣) و تارة إلى العباد التي هي آله في ذلك نحو: **وَ خَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَ زَكْوَةً** ^(٤) ثم أن تزكية الإنسان نفسه ضربان:

أحدهما: بالفعل و هو محمود و إليه قصد بقوله: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْنَهَا** ^(٥).

الثاني: بالقول كتزكية العدل غيره و ذلك مذمومٌ أن يفعل الإنسان بنفسه و قد نهى الله عنه فقال: **فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ** و نهيه عن ذلك تأديبٌ بقبح مدح الإنسان نفسه عقلاً و شرعاً و لهذا قيل لحكيم، ما لذي لا يحسن و أن كان حقاً فقال مدح الرجل نفسه إذا عرفت ماتلوناه عليك فإعلم أن قوله ذلك جزء من تزكى، معناه من تزكى نفسه بسبب العمل لا بالقول فقط و ذلك مثل السحرة فأنهم بفعلهم تزكوا أنفسهم حيث أذعنوا للحق و صاروا سجداً له و خالفوا فرعون، و بالقول أيضاً حيث قالوا أمنا برّب هارون و موسى، بل الحق أن قولهم هذا كان إقراراً منهم لا تزكية لفسوسهم كما هو ظاهرٌ على المتأمل فدخلوا في المؤمنين حقاً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

**وَ لَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ
يَبْسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَ لَا تَحْشَى**

١- التوبة = ١٠٣

٢- مريم = ١٣

١- الشمس = ٩

٢- البقرة = ١٥١

٣- الشمس = ٩

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أوحى إلى موسى عليه السلام أن أسر بعبادي أي بني إسرائيل والإسراء السير بالليل أي أسر بهم ليلاً. فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً، أي فأضرب بعصاك البحر تجعل طريقاً لهم في البحر وهو النيل على ما قيل، يبساً.

قال في المفردات اليبس المكان فيه ماء فيذهب و في النَّبات ما كان فيه رطوبة فذهبت، قال بعض المفسرين لما إنقضى أمر السحرة و غلب موسى و قوى أمره و عده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل فأقام موسى على وعده حتى غدره فرعون و نكث و أعلمه أنه لا يرسلهم معه فبعث الله حينئذ الأيات المذكورة في غير هذه الأيات الجراد و القمل إلى آخرها كلما جاءت آية و وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند إنكشاف العذاب فإذا إنكشف نكث حتى تأتي أخرى فلما أكملت الأيات أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل في الليل سارياً و السري مسير الليل فقلوه: **أَنْ أُسْرٍ** يحتمل أن تكون، أن، مفسرة و أن تكون ناصبة و قوله لعبادي، إضافة تشريف لقوله: **نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** و إختلفوا في وقت الإيحاء هل كان متقدماً على وقت إتباع فرعون موسى و قومه بجنوده أو حين قارب فرعون لحاقه و قوى فزع بني إسرائيل و الظاهر هو الثاني وكيف كان يروى أن موسى نهض ببني إسرائيل و هم ستة مائة ألف على ما قيل فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم و إتصل الخبر فرعون فجمع جنوده و حشروهم و نهض و راءه فأوحى الله إلى موسى أن يقصد البحر ففزع بنو إسرائيل و رأوا أن العدو من وراءهم و البحر من أمامهم و موسى يثق بصنع الله فلما رأهم فرعون قد نهضوا نحو البحر طمع فيهم و كان مقصدهم إلى موضع ينقطع فيه الفحوص و الطرق الواسعة قيل و كان في خيل فرعون سبعون ألف أدهم و نسبته ذلك من سائر الألوان و قيل أكثر من هذا فضرب موسى بعصاه البحر فإنفرق أنتني عشرة فرقة طرقات واسعة بينها حيطان

الماء واقفة و يدلّ عليه قوله فكان كلّ فرقٍ كالطّود العظيم و قيل بل هو طريق واحد لقوله: **فَأَضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا** و قد يراد بقوله طريقاً الجنس فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث الله ريح الصّبا فجففت تلك الطّرق حتّى يبست و دخل بنو إسرائيل و وصل فرعون إلى المدخل و بنو إسرائيل كلّهم في البحر فرأى الماء على تلك الحال فجزع قومه و إستعظمو الأمر فقال لهم فرعون أنما إنفلق الماء من هيبتي حتّى أدرك أعدائي و عبيدي ولم تكن في خيل فرعون أنثى فجاء جبرئيل على فرس أنثى و عليه عمامة سوداء و تقدّمهم و خاض البحر و ظن أصحاب فرعون أنّه منهم فلمّا سمعت النخيل ريحها إقتحمت البحر و أثرها و جاء ميكائيل على فرس خلف القوم يشحذهم و يقول لهم ألحقوا بأصحابكم فلمّا أراد فرعون أن يسلك طريق البحر نهاه وزيره هامان و قال إنّي قد أتيت بهذا الموضوع مراراً و مالي عهدٌ بهذه الطّرق و إنّي لا أمن أن يكون هذا مكرّاً من الرّجل يكون فيه هلاكنا و هلاك أصحابنا فلم يطيعه فرعون و ذهب حاملاً على حصانه أن يدخل البحر فإقتنع و نفر حتّى جبرئيل على رمكة بيضاء فخاض البحر فتبعها حصان فرعون فلمّا توافوا في البحر و هم أولهم بالخروج فإلتطم عليهم ففرقهم جميعاً بمرأى من بني إسرائيل قالوا فلمّا سمعت بنو إسرائيل صوت إلتظام البحر قالوا لموسى ما هذه الوجبة فقال موسى لهم أنّ الله سبحانه قد أهلك فرعون و كلّ من كان معه فقالوا أنّ فرعون لا يموت ألم تر أنّه كان يلبث كذا و كذا يوماً لا يحتاج إلى شيءٍ ممّا يحتاج إليه الإنسان فأمر الله سبحانه البحر فألقاه على نجوةٍ من الأرض و عليه درعه حتّى نظر إليه بنو إسرائيل و يقال لو لم يخرج الله تعالى ببدنه لشكّ فيه بعض النّاس فبعث موسى جندين عظيمين من بني إسرائيل كلّ جنديّ أنثى عشر ألفاً إلى مدائن فرعون وية يومئذٍ خالية من أهلها لم يبق منهم إلاّ النّساء و الصّبيان و الزّمني و المرضي و أقرّ على الجندين يوشع بن نون و كالب

بن يوفنا فدخلوا بلاد فرعون فغنموا ما كان فيها من أموالهم وكنوزهم وحملوا من ذلك بقدر الطّاقة و ما لم يطبقوا حملها باعوه من قوم آخرين فذلك قوله تعالى: **كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَآتٍ وَ عُيُونٍ^(١)** الآيات و إلى ما ذكرناه أشار الله بقوله:

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا غَشِيَهُمْ
فَأَنْ الْغَشَاءَ السَّتْرَ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ غَرْقِهِمْ فِي الْمَاءِ عَلَى مَا مَرَّ بِيَانِهِ.

وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَى

أي أنه دعاهم إلى الضلال و أغواهم و لذلك نسب إليه الضلال و قوله و ما هدى، أي ما هدى فرعون إلى الحق بسوء سريرته و خبت ذاته مع أنه رأى من المعجزات ما رأى فقد تمتّ الحجة بذلك عليه فلم يمهلها الله و أهلكه و أراح الناس من شره.

**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَاعِدْنَاكُمْ جَانِبَ الْبُحْرِ
الْأَيْمَنِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّانَ وَ السَّلْوَى**

لَمَّا أَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَ جُنُودَهُ وَ غَرَقَهُمْ فِي الْبَحْرِ عَدَدٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَعْمَةً عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ بَدَأَ بِإِزَالَةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الضَّرْرِ مِنَ الْإِذْلالِ وَ الْخِرَاجِ وَ الدَّبْحِ وَ هِيَ آكِدٌ أَنْ تَكُونَ مَقْدَمَةً عَلَى الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِأَنَّ إِزَالَةَ الضَّرْرِ أَكْبَرُ فِي النُّعْمَةِ مِنْ إِصَالِ تِلْكَ الْمَنْفَعَةِ وَ لِذَلِكَ قَالُوا دَفَعِ الضَّرْرَ مَقْدَمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ وَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ بِقَوْلِهِ: **قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ثُمَّ أَعْقَبَ** ذَلِكَ بِذِكْرِ الْمَنْفَعَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَوْجِبُ الْإِرْتِقَاءَ إِلَى مَقَامِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَ الْخُرُوجِ عَنِ الشُّثُونِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: **وَ وَاعِدْنَاكُمْ جَانِبَ الْبُحْرِ الْأَيْمَنِ** إِذْ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ مُوسَى التَّوْرَةَ وَ فِيهَا بَيَانٌ أَحْكَامِ دِينِهِمْ وَ شَرَحَ

شريعتهم، ثم أعقب ذلك بذكر المنفعة الدنيوية وهو قوله: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَ السَّلْوٰى فَالْمَنَّ فَالْمَنَّ بفتح الميم هو الذي يقع على بعض الأشجار و السَّلْوٰى طائر أكبر من السَّمَان و الظَّاهِر أَنَّ الخُطَاب كان لمن نجامع موسى.

من بني إسرائيل بعد إغراقهم فرعون فخاطب الجميع بقوله واعدناكم و أن كان الموعودون هم السَّبْعِينَ الَّذِينَ إختارهم موسى و لسماع كلام الله كما قال تعالى: وَ اخْتَارَ مُوسٰى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا^(١) وَ ذَلِكَ لِأَنَّ سماع أولئك السَّبْعِينَ تعود منفعتة على جميعهم فكأنهم خوطبوا بذلك جميعاً مضى الكلام في الطُّور الأيمن و المَنَّ و السَّلْوٰى في سورة البقرة و مريم.

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوٰى

و الطَّيِّبَات قيل المراد بها هنا الحلال اللذيذ كلوا، صورته صورة الأمر و المراد به الإباحة أي أباح الله لكم الطَّيِّبَات من الرزق ثم نهاهم عن الطُّغْيَان فيما رزقهم الله و الطُّغْيَان هو التَّعْدِي عن حدود الله في الطيبات بأن يكفروها و يشغلهم اللُّهُو و النَّعْم عن القيام بشكرها و أن ينفقوها في المعاصي و يمنعوا الحقوق الواجبة فيها.

و قال ابن عباس في قوله: وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ أَي لا يكلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه بغير حقّ و قال الصَّحَاك معناه لا تجاوزوا حدَّ الإباحة و قيل معناه لا تسرفوا فيها.

أقول ما ذكروه في معنى الكلام لا بأس به لأنه من مصاديق الطُّغْيَان إلا أنه خروج عن ظاهر اللفظ و ذلك لأن قوله: وَ لَا تَطْغَوْا خطاب لبني إسرائيل بأن لا يطفخوا فيما رزقهم الله من النَّعْم و ذلك لأن كثيراً ما يصير الإنسان طاغياً

بسبب إقبال الدنيا عليه و يصرف نعم الله في غير رضئ الله فيخرج بذلك عن حد الاعتدال و ذلك هو الطغيان ألا ترى أن أكثر الأنبياء و الأمراء يكونون كذلك و حيث أن الطغيان يوجب سخط الله و غضبه قال تعالى: **فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي** فَأَنَّ الطَّاعِي مَبْغُوضٌ لِلَّهِ تَعَالَى و من المعلوم أن من يحلل عليه غضب الله فقد هلك و سقط و اليه الإشارة بقوله: **وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى** و أتما أشار الله تعالى الى ذلك في هذا المقام لأن فرعون الذي يكون مدار البحث عليه من أكبر مصاديق الطاغين و أظهر المتمردين العاصين و منشأ طغيانه لم يكن إلا ما ذكره في الآية من أنه إستعان بنعمة الله على مخالفة الله ثم أن قراءة الجمهور، **فَيَحِلُّ** بكسر الحاء و من يحلل بكسر اللام من حلَّ يحلُّ، أي فيجب و يلحق و قرأ الكسائي، بضم الحاء و ضم اللام في، يحلل، من حلَّ يحلُّ، أي ينزل، و هي قراءة قتادة أيضاً و قرأ بعضهم بضم الياء و كسر الحاء من أحلَّ و مصدره الإحلال و عليه فهو متعدِّ بنفسه و الفاعل فيه مقدر ترك لشهرته و تقديره فيحلَّ به طغيانكم غضبي عليكم، و دلَّ على ذلك و لا تطغوا، فيصير غضبي في موضع نصب مفعول به و لما حذر تعالى من الطغيان و توعده عليه بحلول غضبه على الطاغى فتح باب الرجاء للتائبين النادمين و أتى بصيغة المبالغة فقال:

وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى

الغفر في اللغة السَّتر و فيه قيل لجنة الرأس مغفر، ثم أن الألفاظ المشتقة من المغفرة في حقَّ الله تعالى ثلاثة:

أحدها الغافر:

قال الله تعالى: **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ** ^(١).

ثانيها الغفور:

قال الله تعالى: وَ رَبُّكَ أَلْغَفُورٌ ذُو الرِّحْمَةِ (١).

قال الله تعالى: وَ هُوَ أَلْغَفُورٌ أَلْوَدُودٌ (٢).

قال الله تعالى: نَبِيُّ عِبَادِي أَبِي أَنَا أَلْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٣) و هكذا غيرها من الآيات.

ثالثها العَفَّار:

قال الله تعالى أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (٤).

قال الله تعالى: وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَفَّارِ (٥).

قال الله تعالى: رَبُّ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ (٦).

قال الله تعالى: فَقُلْتُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (٧).

و هكذا فقد ثبت أن هذه الأسماء بنص الكتاب ثلاثة قال بعضهم أن العبد أيضاً له أسماء ثلاثة مشتقة من المعصية.

أحدها الظالم:

قال الله تعالى: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ (٨).

ثانيها الظلوم:

قال الله تعالى: إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٩).

ثالثها: الظلام:

قال الله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ (١٠).

و من أسرف في المعصية كان ظلاماً فكأن الله تعالى قال عبدي لك ثلاثة أسماء في الظلم بالمعصية ولي ثلاثة أسماء في الرحمة بالمغفرة فأن كنت

١- الكهف = ٥٨

٢- البروج = ١٤

٣- الحجر = ٤٩

٤- نوح = ١٠

٥- ص = ٦٦

٦- فاطر = ٣٢

٧- نوح = ١٠

٨- فاطر = ٣٢

٩- الزمر = ٥٣

١٠- الأحراب = ٧٢

ظالمًا فأنا غافر، و أن كنت ظلومًا فأنا غفورٌ وإن كنت ظالمًا فأنا غفارٌ أن صفاتك متناهية و صفاتي غير متناهية كما يليق بي و غير المتناهي يغلب المتناهي فلا تكن من القانطين و مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ^(١) إنتهى كلامه.

وإعلم أن الغفور أبلغ من الغافر لأن هذا البناء للمبالغة و الغفار أبلغ من الغفور لأنه للتكثير و معناه أنه يغفر الذنب بعد الذنب أبدًا و ليرجع إلى تفسير ألفاظ الآية فنقول:

قوله: وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ قال ابن عباس من الشُّرك، و أمن، أي و حُدَّ الله، و عمل صالحًا، أي أدَّى الفرائض، ثم إهتدى، أي لزم الهداية و أدامها إلى الموافاة على الإسلام، و قيل معناه لم يشك في إيمانه، و قيل ثم إستقام معناه ثم حفظ معتقداته من أن يخالف الحق في شيءٍ من الأشياء فأن الإهتداء على هذا الوجه غير الإيمان و غير العمل.

و قال صاحب الكشاف الإهتداء الإستقامة و الثبات على الهدى المذكور و هو التوبة و الإيمان و العمل الصالح و نحوه: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا^(٢) و كلمة التآخي دلَّت على تباين المنزلتين أعني منزلة الإستقامة على الخبر بيانية لمنزلة الخبر نفسه لأنها أعلى منه و أفضل إنتهى.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه من حيث الألفاظ فأن التوبة و الإيمان و العمل الصالح قد مرَّ الكلام في كل واحدٍ منها غير مرّة و قلنا سابقاً أن ذكر العمل الصالح بعد الإيمان دليل على أن الإيمان في تحققه مشروطٌ به فمن لا عمل له لا إيمان له و هو ظاهر أنما الكلام في قوله: ثُمَّ أَهْتَدَى بعد التوبة و الإيمان و أنه تعالى لم يقل و إهتدى أو فإهتدى بل قال: ثُمَّ أَهْتَدَى المعلوم أن كلمة، ثم، تفيد التراخي و لذلك تراهم حيارى في فهم الكلام و كل واحدٍ منهم يقول في معنى المراد منه من عند نفسه على أساس تخيله و توهمه و لا سيما رئيس المفسرين و علماءهم أعني به صاحب الكشاف فأن مفسري العامة يأخذون

الألفاظ بعضهم من بعضٍ من غير تَعَمُّقٍ و تَدَبُّرٍ فيها و ليت شعري ما الَّذي دعا الرّمخشري على أن يفسر الإهتداء بالإستقامة و الثّبات على الهدى مع عدم مساعدة اللّغة عليه ولو كان المراد بالإهتداء ما قال الرّمخشري لقال ثمّ إستقام على الهدى و حيث لم يقل ذلك علمنا أنّ الإهتداء غير الإستقامة و الثّبات على الهدى إذا عرفت هذا فنقول:

معنى قوله: **ثُمَّ أَهْتَدَى**، أي إهتدى بعد التّوبة و الإيمان إلى ولاية أولياء الله الَّذِينَ أوجب الله طاعتهم و الإنقياد لأمرهم ففيه إشارة إلى أنّ الإيمان و العمل الصّالح لا يكفي إلا بالولاية أي ولاية أهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما ورد في الأخبار الواردة من طريق العامة و الخاصّة.
أَمَّا الْعَامَّةُ:

فقد روى الحافظ الحسكاني في كتابه المسمّى بشواهد التّنزيل في هذه الآية بأسناده عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَام في قوله تعالى: **ثُمَّ أَهْتَدَى** قال عَلَيْهِ السَّلَام: إلى و لايتنا أهل البيت إنتهى.

و بأسناده عن جابر عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَام في قوله: **وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى** قال عَلَيْهِ السَّلَام: إلى و لايتنا أهل البيت إنتهى.

و بأسناده عن عمر بن شاعر البصري عن ثابت البناني في قوله: **وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى** قال: إلى ولاية أهل البيت إنتهى.

و بأسناده عن أبي جعفر الباقر عن أبيه عن جدّه قال: خرج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذات يوم فقال أنّ الله تعالى يقول: **وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى** ثمّ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لعليّ بن أبي طالب إلى و لايتك إنتهى.

و بأسناده عن زيد بن أسلم عن أبيه عن جدّه عن أبي ذرّ في قول
 اللّٰه تعالى: وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ قَالَ: لمن أمن بما جاء به محمّد ﷺ و
 أدّى الفرائض ثمّ إهتدى قال إهتدى إلى حبّ آل محمّد ﷺ و
 إنتهى^(١).

و أمّا الخاصّة:

و أمّا الأخبار من طريق الخاصّة فكثيرة جداً مضافاً الى أنّ الموضوع عندهم
 من المسلمّات و أنّه لا يقبل اللّٰه عمل العبد إلاّ بولاية أميرالمؤمنين والأئمة
 المعصومين و مع ذلك نشر الى شطرٍ منها تيمناً و تبركاً.

فنقول في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام أنّه قال: أنّ
 اللّٰه تبارك و تعالى لا يقبل إلاّ العمل الصّالح و لا يقبل اللّٰه إلاّ الوفاء
 بالشُّروط و العهود فمن وفى لله عزّ و جلّ بشرطه و إستعمل ما
 وصف في عهده نال ما عنده و إستكمل و عدّه أنّ اللّٰه تبارك و
 تعالى أخبر العباد بطرق الهدى و شرع لهم فيها المنار و أخبرهم
 كيف يسلكون فقال: وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا
 ثُمَّ أَهْتَدَى و قال إنّما يتّقبل اللّٰه من المتّقين فمن إتقى اللّٰه فيما أمره
 لقي اللّٰه مؤمناً بما جاء به محمّد ﷺ إنتهى.

عليّ ابن إبراهيم بأسناده عن سدير قال: سمعتُ أبا جعفر عليه السلام و هو
 داخلٌ و أنا خارجٌ و أخذ بيدي ثمّ إستقبل البيت فقال يا سدير أنّما
 أمر النّاس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها ثمّ يأتونا فيعلمونا
 ولايتهم لنا و هو قوله تعالى: وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ
 صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى ثمّ بيده الى صدره، الى ولايتنا و الحديث طويل.

و في تفسير علي بن إبراهيم في قوله: لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ
 عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِلَى الْوَلَايَةِ إِنْتَهَى.
 وَ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ
 آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلَا تَرَى كَيْفَ إِشْتَرَطَ وَ لَمْ
 يَنْفَعِ التَّوْبَةَ وَ الْإِيمَانَ وَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ حَتَّى إِهْتَدَى وَ اللَّهُ لَوْ جَهْدَ أَنْ
 يَعْمَلَ مَا قَبَلَ مِنْهُ حَتَّى يَهْتَدِيَ، قُلْ قَلْتُ إِلَى مَنْ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْبَيْتَ إِنْتَهَى.
 وَ فِي أَمَالِي الصَّدُوقِ بِأَسْنَادِهِ إِلَى النَّبِيِّ، الْحَدِيثُ طَوِيلٌ، وَ فِيهِ يَقُولُ
 لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ لَقَدْ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ عَنْكَ وَ لَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى اللَّهِ مَنْ لَمْ يَهْتَدِ
 إِلَيْكَ وَ إِلَى وَ لَايَتِكَ وَ هُوَ قَوْلُ رَبِّي وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ
 عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى يَعْنِي إِلَى وَ لَايَتِهِ إِنْتَهَى.
 وَ فِي كِتَابِ الْمَنَاقِبِ لِابْنِ شَهْرٍ آشُوبٍ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي الصَّبَّاحِ
 الْكِنَانِيِّ عَنِ الصَّادِقِ وَ عَنِ أَبِي حَمْزَةَ عَنِ السَّجَّادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ثُمَّ
 أَهْتَدَى إِلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِنْتَهَى.^(١) فَقَدْ إِنُّضِحَ الْأَمْرَ بِحَمْدِ اللَّهِ.

وَ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى

قيل كانت المواعدة أن يوافي هو و قومه فلما نهض موسى ببني إسرائيل
 إلى جانب الطور الأيمن حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما فيه شرف
 العاجل و الأجل رأى على وجه الإجتهد أن يقدم وعده مبادراً إلى أمر الله و
 حرصاً على القرب منه و شوقاً إلى مناجاته فليستخلف هارون على بني إسرائيل و
 قال لهم موسى تسيرون إلى جانب الطور فلما إنتهى موسى إلى الطور و ناجى
 ربه زاده في الأجل عشراً و حينئذ وقفه على يستعجاله دون القوم ليخبره موسى
 أنهم على الأثر فيقع الإعلام له بما صنعوا و، ما، في قوله ما أعجلك إستفهامية
 أي أي شيء عجل بك عنهم فقال موسى في الجواب كما حكى الله عنه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلِيٍّ أَثْرِي وَ عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى

قرأ الجمهور على أثري بفتح الهمزة و التاء و عليها المصاحف و حكي الكسائي، أثري، بضم الهمزة و سكون التاء و قرأ عيسى و يعقوب و زيد بن علي أثري بكسر الهمزة و التاء و أولاء، بالممد و الهمزة بالإتفاق، أي قال موسى هم أولاء، أتى بإسم الإشارة لقربهم منه أجاب مشيراً إليهم أنهم على أثره جاءوا للموعد و ذلك على ما كان عهد إليهم أن يجيئوا للموعد ثم ذكر السبب الذي حمله على العجلة و هو طلبه رضا الله تعالى في السبق إلى ما وعده ربه و معنى، إليك، أي إلى مكان وعدك و لتَرْضَى أي ليدوم رضاك و يستمر لأنه تعالى كان عنه راضياً.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ

أصل الفتن إدخال الذهب النار لتطهر جودته من رداءته و أستعمل في إدخال الإنسان النار أيضاً قال الله تعالى: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ^(١) و تارة يُستعمل في الإختبار كقوله تعالى: وَ فَتَنَّاكَ فَتُونًا^(٢) و ما نحن فيه من هذا القبيل و المعنى أنا إختبرنا قومك من بعدك و أضلهم السامري، و قوله: مِنْ بَعْدِكَ أي من بعد فراقك لهم.

قال الزمخشري أراد الله بالقوم المفتونين الذين خلفهم موسى مع هارون و كانوا ست مائة ألف ما نجى من عبادة العجل إلا اثني عشر ألفاً.

فإن قلت في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقة موسى عشرين ليلة و حسبوا أربعين مع أيامها و قالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك فكيف التوفيق بين هذا و بين قوله لموسى عند مقدمه أَنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ: قلت قد أخبر الله تعالى عن الفتنة المترتبة بلفظ الموجودة الكائنة على

عادته وافتراض السامري غيبته فعزم على إضلالهم غبب إنطلاقه و أخذ في تدبير ذلك فكان بدأ الفتنة موجوداً إنتهى.

وقرأ الجمهور، وأضلهم فعلاً ماضياً، وقرأ أبو معاذ وفرقة أخرى، وَأَضَلَّهُمْ بِضَمِّ اللَّامِ مَبْتَدَأُ وَالسَّامِرِيُّ خَبْرُهُ وَعَلَى هَذَا فَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّا قَدْ إِخْتَبَرْنَا قَوْمَكَ بَعْدَكَ وَأَضَلَّهُمْ، أَي أَضَلَّ الْقَوْمَ السَّامِرِيَّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّامِرِيَّ كَانَ دَاخِلًا فِي الْمَفْتُونِينَ وَحَاصِلَ الْكَلَامِ كَانَ السَّامِرِيُّ أَشَدَّهُمْ ضَلَالًا، لِأَنَّهُ كَانَ ضَالًّا فِي نَفْسِهِ مَضَلًّا لِغَيْرِهِ.

وأما على قراءة المشهور فالمعنى أننا إختبرنا قومك فأضلهم السامري فأسند الضلال إلى السامري لأنه كان السبب فيه، و السامري قيل إسمه موسى بن زفر و قيل منجا و هو ابن خالة موسى أو ابن عمه أو كان من أعظم بني إسرائيل على إختلاف الأقوال فيه ولو كان من قبيلة تعرف بالسامرة أو علج من كرمان أو من باجرما أو من اليهود أو من القبط هكذا قيل قالوا أنه أمن بموسى و خرج معه و كان جاره و وقع في مصر فدخل في بني إسرائيل بظاهره و كان من عبادة البقر و لذلك كان في قلبه عبادة البقر و إنما أمن بموسى ظاهراً و كان سبب ذلك أن موسى لما وعده الله تعالى أن ينزل عليه التوراة و الألواح الى ثلاثين يوماً، كما قال تعالى: **وَإِعْدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً** (١) أخبر موسى بني إسرائيل بذلك و ذهب إلى الميقات و خلف أخاه هارون على قومه فلما جاء الثلاثون يوماً و لم يرجع موسى إليهم عصوا و أرادوا أن يقتلوا هارون قالوا أن موسى كذب و هرب منا فجاهم إبليس في صورة رجل فقال لهم أن موسى قد هرب منكم و لا يرجع إليكم أبداً فأجمعوا لي حليكم حتى أتخذ لكم إلهاً تعبدونه و كان السامري على مقدمة قوم موسى يوم أغرق الله فرعون و أصحابه فنظر إلى جبرئيل و كان على حيوان في صورة رمكة، (الرمكة) الفرس تتخذ للنسل، و كانت كلما وضعت حافرهما على موضع من الأرض تحرك ذلك

الموضع فنظر إليه السّامري و كان من خيار أصحاب موسى فأخذ التّراب من حافر رمكة جبرئيل و كان يتحرّك فصّره في صرّة و كان عند يفتخر به على بني اسرائيل فلما جاءهم إبليس و إتخذوا العجل قال للسّامري هات التّراب الذي معك فجاء به السّامري فألقاه في جوف العجل فلما وقع التّراب في جوفه تحرّك و خار و نبت عليه الوبر و الشّعر فسجد له بنو اسرائيل عدد الذين سجدوا له سبعين ألفاً منهم فقال لهم هارون كما حكى الله عنه: **يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي** ^(١).

و سيأتي الكلام فيها فهموا بهارون فهرب منهم و بقوا في ذلك حتّى تمّ ميقات موسى أربعين ليلة فلما كان يوم عشرة من ذي الحجّة أنزل الله علم الألواح فيها التّوراة و ما يحتاج اليه من أحكام السّير و القصص فأوحى الله الى موسى أنّا قد فتّنا قومك من بعدك و أضلهم السّامري، و عبدوا العجل وله خوار، فقال **عليه السلام** يا ربّ العجل من السّامري، فالخوار ممّن، فقال منّي إنّي لما رأيتهم قد ولّوا عني الى العجل أحببت أن أزيدهم فتنة.



فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٥) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْ زَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٦) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمُ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٧) أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٨) وَتَقَدَّرَ لَهُمْ هَرُونَ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَاطِيعُوا أَمْرِي (٨٩) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩٠) قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩١) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٢) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا يَرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَمْ تَرَفُّبٍ قَوْلِي (٩٣) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٤) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّاتُ لِي نَفْسِي (٩٥) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا

لَنَحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٦﴾ إِنَّمَا
 إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ
 عِلْمًا ﴿٩٧﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ
 سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٨﴾ مَنْ أَعْرَضَ
 عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٩٩﴾ خَالِدِينَ
 فِيهِ وَ سَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي
 الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا حِمْلًا
 ﴿١٠١﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٢﴾
 نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً
 إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٣﴾

◀ اللغة

غَضَبَانِ أَسْفًا: الغضب ضد الرضا والأسف شدة الغضب وقد يكون

بمعنى الحزن.

بِمَلَكِنَا: أي بطاقتنا.

أَوْزَارًا: الأوزار الأثقال.

فَقَدَفْنِيهَا: القذف الطرح.

حُورًا: الحور الصّوت الشّديد كصوت البقرة.

فِتْنَتُمْ: أي إختبرتم.

نَبْرَحَ: أي لن نذهب.

عَاكِفِينَ: و العكوف اللزوم.

وَلَمْ تَرْقُبْ: أي لم تحفظ.

حَطْبُكَ: أي شأنك وأصل الخطب الجليل من الأمر.

لَنْسِفْنَهُ: يقال نسف فلان الطَّعام بالمنسف إذا رآه يشطر عنه قشوره.
وَزُرًّا: الوزر بكسر الواو الإثم.
زُرْقًا: أي عميًّا، وقيل أزرق عيونهم من العطش.

الإعراب

بِمَلَكِنَا بِكسر الميم وفتحها وضمَّها والجميع مصدر بمعنى القدرة
فَكَذَلِكَ صفة لمصدرٍ محذوف أي إلقاء مثل ذلك أَلَّا يَرْجِعُ أن مخففة عن
الثقيلة و(لا) كالعوض عن إسمها المحذوف أَلَّا تَتَّبِعِنِ، قيل، لا زائدة، مثل
قوله ما منعك أن لا تسجد فَقَبِضْتُ بالضاد بملا الكف و بالضاد بأطراف الأصابع
وقد قرئ به قَبْضَةً فصدر بالضاد والضاد لا مساس يقرأ بكسر الميم وفتح السين
هو مصدر، ماسة و يقرأ بفتح الميم وكسر السين وهو للفعل أي لا تمسني ظَلَّتْ
بفتح الظاء وكسرهما وهما.

لعتان والأصل ظلت بكسر اللام الأولى فحذفت و نقلت كسرتها الى الظاء و
من فتح لم ينتقل لَنْسِفْنَهُ بكسر السين و ضمَّها و هما لعتان قد قرأ بهما عَلِمًا
تميز كذلك صفة لمصدر محذوف أي قصصنا كذلك خَالِدِينَ حال من
الضمير في يحمل زُرْقًا حال يَتَخَفَتُونَ حال أخرى بدل من الأولى أو حال من
الضمير في زرقًا إِنْ لِبِئْسَمِ إن نافية

التفسير

فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا

وذلك بعد ما إستوفى الأربعين أي رجع موسى من الطور بعد سماعه قوله
تعالى: قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الشَّامِرِيُّ^(١) غَضْبَانَ أي حال
كونه غضبان على قومه ممَّا فعلوا من عبادتهم العجل و قوله أسفًا، صفة

بهاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد العادي عشر

لغضبان و هو أي الأسف أشدّ الغضب و إنتصب غضبان أسفاً على الحال و قيل الأسف الحزن قيل كان غضبه من حيث له قدرة على تغيير منكرهم و أسفه و حزنه من حيث علم أنه موضع عقوبة.

قال ابن عطية الأسف في كلام العرب متى كان من ذي قدرة على من دونه فهو غضب و متى كان من الأضعف على الأقوى فهو حزن و كيف كان لما رجع موسى الى قومه كان يوبخهم على إضلالهم و لذلك قال لهم يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا و الوعد الحسن ما وعدهم من الوصول الى جانب الطور الأيمن و ما بعد ذلك من الفتوح في الأرض و المغفرة لمن تاب و امن و غير ذلك مما وعد الله أهل طاعته.

و قال الزمخشري وعدهم الله بعد ما إستوفى الأربعين أن يعطيهم التوراة التي فيها هدى و نور و لا وعد أحسن من ذلك و أجمل، و قال الحسن الوعد الحسن الجنة و قيل أن يسمعهم كلامه و العهد الزمان يريد مفارقتهم لهم يقال طال عهدي بكذا أي حال زماني بسبب مفارقتك و عدوه أن يقيموا على أمره و ما تركهم عليه من الإيمان فأخلفوا مواعده بعبادتهم العجل و إنتصب وعداً على المصدر و المفعول الثاني ليعدكم محذوف أو أطلق الوعد و يراد به الموعود فيكون هو المفعول الثاني، و الحق أن المراد بالوعد الحسن هو أن الله تعالى كان وعد موسى بالنجاة من عدوهم و مجيئهم إلى جانب الطور الأيمن و أنه تعالى غفارا لمن تاب و أمن و عمل صالحاً ثم إهتدى.

في القرآن في تفسير القرآن

أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي

قيل في قوله: أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ إلى آخره توقيف على أعدار لم تكن و لا تصح لهم و هو طول العهد حتى يتبين لهم خلف في الموعد و إرادة حلول غضب الله و ذلك كله لم يكن، إذ لم يطل العهد ولم يريدوا غضب الله قطعاً و

المجلد الحادي عشر

على هذا لا وجه لخلف الموعد ولا عذر لهم في ذلك إلا متابعة الشيطان و
 قيل المعنى، أفعال عليكم العهد ولقائي فنسيتموه أم أردتم أن يحلّ عليكم
 أي يجب عليكم، غضب، أي عقاب من ربكم فأخلفتم موعدني أي أخلفتم ما
 وعدتموني من المقام على الطاعات.

وقال الحسن ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً، في الآخرة على التمسك بدينه
 في الدنيا وقيل الذي وعدهم الله به التوراة وفيها التور والهدى ليعلموا بما
 فيها ويستحقوا عليه الثواب وكانوا وعدوه أن يقيموا على أمرهم فأخلفوا ثم
 أنهم أجابوا فقالوا.

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ
 فَقَدْنَا بِهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ

أي أنهم قالوا في جواب موسى ما أخلفنا موعدك بملكنا أي بطاعتنا.
 قال بعض المفسرين أي قال المؤمنون أن نرد عن ذلك السفهاء وقال ابن
 زيد معناه لم نملك أنفسنا للبلية التي وقعت بنا، فمن فتح الميم أراد المصدر و
 من كسرهما أراد ما يتملك ومن ضمّ أراد السلطان والقوة به وقد قرئ بالوجه
 الثلاثة والظاهر أنها لغات فيه والمعنى واحد وقال الزمخشري أي ما خلفنا
 موعدك بأن ملكنا أمرنا أي لو ملكنا أمرنا و ضلينا وأينا لما أخلفناه ولكن
 غلبنا من جبهة السامري وكيده إنتهى.

ونقل القرطبي في تفسيره عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، بملكنا،
 بكسر الميم قال وإختاره أبو عبيد وأبو حاتم لأنها اللّغة العالية وهو مصدر
 ملكت الشيء أملكه ملكاً والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف
 كأنه قال بملكنا الصواب بل أخطأنا فهو إعتراف منهم بالخطأ إنتهى كلامه.

أقول قوله: قَالُوا عامّ يراد به الخاصّ أي قال الذين تَبَّعُوا على طاعة الله إلى
 أن يرجع إليهم من الطور، ما أخلفنا موعدك، وكانوا أثنى عشر ألفاً جميع

بني إسرائيل ست مائة ألف وقوله: **وَ لَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ**، بضم الحاء و تشديد الميم مكسورة و قرأ نافع و ابن كثير و ابن عامر و حفص بفتح الحرفين خفيفةً و إختار أبو عبيد و أبو حاتم لأنهم حملوا على القوم معهم حملوها كرهاً، أوزاراً، أي أثقالاً من زينة القوم أي من حليهم وكانوا إستعاروه حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام و قيل هو ما أخذوه من آل فرعون لما قذفهم البحر إلى الساحل و سميت أوزاراً بسبب أنها كانت أثاماً أي لم يحلّ لهم أخذها و لم تحلّ لهم الغنائم و أيضاً فالأوزار هي الأثقال في اللغة و قال بعض المفسرين المراد بالصوم هنا القبط و أنهم كانوا إستعاروها في القبط برسم التزين و قيل أمرهم بالإستعارة موسى عليه السلام و قيل أمر الله موسى به و قيل الأوزار التي هي الأثام من جهة أنهم لم يردوها إلى أصحابها و معنى أنهم حملوا الأثام و قذفوها على ظهورهم كما جازهم يحملون أوزارهم على ظهورهم و قوله فقذفناها فكذلك ألقى السامري، فالقذف الرمي، أي ثقل علينا حمل معنا من الحلي فقذفناها في النار ليدوب أي طرحناه فيها و قيل طرحناه إلى السامري لترجع فترى فيها رأيك، و قيل أي قذفناها على أنفسنا و أولادنا، و الحق أنهم قذفوا الحلي في النار و كان أشار عليهم بذلك السامري فحفرت حفرة و سجرت فيها النار و قذف كل من معه شيء ما عنده من ذلك في النار و قذف السامري أيضاً ما معه فيها، فقله: **فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ** أي مثل قذفنا إيها ألقى السامري ما كان معه و ظاهر هذه الألفاظ أن العجل لم يصنعه السامري، و قال الزمخشري في قوله: **فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ**، أنه أراهم أنه يلقي حلياً في يده مثل ما ألقوا و إنما ألقى التربة التي أخذها من موطي حيزوم فرس جبرئيل عليه السلام أوحى إليه وليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتاً صار حيواناً فأخرج لهم السامري من الحفرة عجلاً خلقه الله من الحلي التي سبكتها النار تخور كخور العجاجيل و المراد بقوله أننا قد فتنا قومك هو خلق العجل

للإمتحان أي إمتحنّاهم بخلق العجل و حملهم السامري على الضلال و أوقعهم فيه حين قال لهم هذا إلهكم و إله موسى إنتهى.

و قال الآخرون أنّ السامري قال لهم حين إستبطن القوم موسى أنّما إحتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلّي فجمعوه و دفعوه إلى السامري فرمى به في النار و صاغ لهم منه عجلاً ثمّ ألقى عليه قبضةً من أثر فرس الرسول جبرئيل و قال معمر الفرس الذي كان عليه جبرئيل هو الحياة فلما ألقى عليه القبضة صار عجلاً حسداً له خوار و الخوار صوت البقر.

و قال ابن عباس لما إنسبك الحلّي في النار جاء السامري و قال لهارون يانبي الله ألقى ما في يدي و هو يظنّ أنّه كبعض ما جاء به غيره من الحلّي ففذف التراب فيه و قال كن عجلاً جسداً له خوار فكان كما قال للبلاء و الفتنة فخار خورة واحدة لم يتبعها مثلها و قيل خواره و صوته كان بالريح لأنّه كان عمل فيه خروفاً فإذا دخلت الريح في جوفه خار و لم تكن فيه حياة و هذا قول مجاهد.

و على القول الأوّل كان عجلاً من لحمٍ و دمٍ و هو قول الحسن و قتادة و السدي.

و روي عن ابن عباس أنّه قال، مرّ هارون بالسامري و هو يصنع العجل فقال ما هذا قال ينفع و لا يضر فقال لهم أعطه ما سألك على ما في نفسه فقال اللهم أنّي أسالك أن يخور و كان إذا خار سجدوا و كان الخوار من أجل دعوة هارون قال ابن عباس خار كما يخور الحيّ من العجول.

روي أنّ موسى قال ياربّ هذا السامري أخرج لهم عجلاً جسداً له خوار من حلّيهم فمن جعل الجسد و الخوار قال الله تبارك و تعالي، أنا، قال موسى و عزّتك و جلالك و إرتفاعك و علوك و سلطانتك ما أضلهم غيرك قال صدقت يا حكيم الحكماء.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ قَتْسِيَّ
 أَي لَمَّا أَخْرَجَ السَّامِرِيُّ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ عَلَىٰ مَا مَرَّ بِيَانِهِ قَالَ هُوَ وَ
 أَتْبَاعَهُ الَّذِينَ كَانُوا قَائِلِينَ بِالتَّشْبِيهِ، إِذْ قَالُوا اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، وَقِيلَ
 الصَّمِيرُ فِي، فَقَالُوا، عَائِدٌ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَي ضَلُّوا حِينَ قَالَ كِبَارُهُمْ
 لَصِغَارِهِمْ، وَ الصَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: قَتْسِيَّ قِيلَ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى السَّامِرِيِّ أَي فَنَسِيَ
 إِسْلَامَهُ أَوْ فَتَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ.

و قِيلَ عَائِدٌ عَلَى مُوسَىٰ أَي فَنَسِيَ مُوسَىٰ أَنْ يَذَكَرَ لَكُمْ أَنَّ هَذَا إِلَهُكُمْ أَوْ
 فَنَسِيَ الطَّرِيقَ إِلَى رَبِّهِ، أَوْ فَنَسِيَ مُوسَىٰ إِلَهَهُ عِنْدَكُمْ وَ خَالَفَهُ فِي طَرِيقِ أُخْرٍ وَ
 عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ يَكُونُ قَوْلُهُ: قَتْسِيَّ مِنْ كَلَامِ السَّامِرِيِّ.

أَقُولُ قَالَ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَفْسِيرِهِ وَ كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ مُوسَىٰ لَمَّا وَعَدَهُ
 اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ التَّوْرَةُ وَ الْأَلْوَابِحُ إِلَى ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَخْبَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِذَلِكَ وَ
 ذَهَبَ إِلَى الْمِيْقَاتِ وَ خَلَفَ هَارُونَ عَلَى قَوْمِهِ فَلَمَّا جَاءَتِ الثَّلَاثُونَ يَوْمًا وَلَمْ
 يَرْجِعْ مُوسَىٰ إِلَيْهِمْ غَضِبُوا وَ أَرَادُوا أَنْ يَقْتُلُوا هَارُونَ قَالُوا أَنَّ مُوسَىٰ كَذَّبَنَا وَ
 هَرَبَ مِنَّا فَجَاءَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ فَقَالَ لَهُمْ أَنَّ مُوسَىٰ قَدْ هَرَبَ مِنْكُمْ وَ
 لَا يَرْجِعُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا فَاجْمَعُوا لِي حَلِيكُمْ حَتَّى أَتُودَّ لَكُمْ إِلَهًا تَعْبُدُونَهُ السَّامِرِيُّ
 عَلَى مَقْدَمَةِ مُوسَىٰ يَوْمَ أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَ أَصْحَابَهُ فَنَظَرَ إِلَى جِبْرِئِيلَ عَلَى
 حَيَوَانٍ فِي صُورَةِ رَمَكَةٍ فَكَانَتْ كَلَّمَا وَضَعَتْ حَافِرَهَا عَلَى مَوْضِعٍ مِنَ الْأَرْضِ
 تَحْرَكَ ذَلِكَ الْمَوْضِعُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ السَّامِرِيُّ وَ كَانَ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ مُوسَىٰ فَأَخَذَ
 التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ حَافِرِ رَمَكَةِ جِبْرِئِيلَ وَ كَانَ يَتَّحَرِكُ فَصَّرَهُ فِي صِرَّةٍ وَ كَانَ عِنْدَهُ
 يَفْتَخِرُ بِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ إِبْلِيسُ وَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ قَالَ لِلْسَّامِرِيِّ
 هَاتِ التُّرَابَ الَّذِي مَعَكَ فَجَاءَ بِهِ السَّامِرِيُّ فَأَلْقَاهُ إِبْلِيسُ فِي جَوْفِ الْعِجْلِ فَلَمَّا
 وَقَعَ التُّرَابُ فِي جَوْفِهِ تَحْرَكَ وَفَارَ وَ بَنَتْ عَلَيْهِ الْوَبْرَ وَ الشَّعْرَ فَسَجَدَ لَهُ بَنُو
 إِسْرَائِيلَ وَ كَانَ عِدَدُ الَّذِينَ سَجَدُوا سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّتَهَى مَوْضِعَ
 الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فَسَادَ إِعْتِقَادِهِمْ وَقَالَ:

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا

قيل أن المراد بالرؤية رؤية البصر رؤية القلب فعلى الأول يكون الإستفهام للإنكار و على الثاني للتوبيخ، والمعنى أفلا يرون إتباع السامري أن العجل لا يكلمهم ولا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً وإذا كان كذلك فكيف يعبدونه وهذا كقول إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر والحق أن الرؤية هنا بمعنى العلم ولذلك جاء بعدها المخففة من الثقيلة كما جاء ألم يروا أنه لا يكلمهم وقرأ أبو حياة، أن لا يرجع بنصب العين، والمقصود أن الإله هو الذي يضرب وينفع ويعطي ويمنع كالذي يعبد موسى وقوله: **أَلَّا يَرْجِعُ** تقديره فلذلك يرتفع الفعل فخففت أن، وحذف، الضمير وهو المختار في الرؤية والعلم والظن.

قال الشاعر:

في فتنه من سيوف الهند قد علموا أن هالك كل من يحفى ويتنعل
وقد يحذف مع التشديد أيضاً كقوله: فلو كنت جتياً عرفت قرابتي
و لكن زنجي عظيم المشافر أي ولكنك.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي

أخبر الله عز وجل أن هارون قد كان قال لهم في أول حال العجل إنما هي فتنة وبلاء و تمويه من السامري و إنما ربكم الرحمن الذي له القدرة والعلم والخلق و الإختراع فأتبعوني الى الطور الذي واعدكم الله إليه و أطيعوا أمري فيما ذكرته لكم و ما على الرسول إلا البلاغ لكنهم لم يسمعوا قوله ولم.

يطيعوه بل خالفوه، و الضَّمير في (به) عائد على العجل زجرهم هارون عن الباطل أولاً بقوله: **إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ثُمَّ نَبَّهْتُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ** بقوله: **إِنَّ رَبَّكُمْ** الرَّحْمَنُ الْخُضُّ الْخُضُّ الْخُضُّ الخ وإِنَّمَا ذكر وصف الرَّحمة حيث قال: **إِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ**، ولم يقل و **أَنَّ رَبَّكُمْ** اللَّهُ مثلاً تنبيهاً على أَنَّهُمْ متى تابوا و رجعوا عمَّا كانوا عليه من عبادة العجل شملتهم الرَّحمة الإلهية لأنَّ رحمته وسعت كلَّ شيءٍ و مع ذلك هي سبقت غضبه، و فيه أيضاً تذكيرٌ من تخليصهم و نجاتهم من فرعون قبل أن يوجد العجل ثمَّ أمرهم بإتباعهم تنبيهاً على أَنَّهُ مفترض الطاعة في زمان غيبة موسى بأمرٍ من الله و رسوله و قرأت فرقة، إِنَّمَا و **أَنَّ رَبَّكُمْ**، بفتح الهمزتين و تخريج هذه القراءة على لغة سليم حيث يفتحون، أن، بعد القول مطلقاً، و الجمهور على كسر الهمزة فيهما ولَمَّا وعظهم هارون و نَبَّههم على ما فيه رشدهم **إِتَّبَعُوا سَبِيلَ الْغَيِّ** كما حكى الله عنهم بقوله:

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ

أي قالوا في جواب هارون حين نهاهم عن عبادة العجل لن نزال لازمين لهذا العجل مقيمين على عبادته حتى يرجع إلينا موسى من الطور فننظر ما يقول، و **الْعَاكِفُ** بضم العين و الكاف لزوم الشيء مع القصد إليه على مرور الوقت و منه الإعتكاف في المسجد و غيِّروا ذلك برجوع موسى للدلالة على أن، لن، لا تقتضي التأييد خلافاً للزمخشري إذ لو كان من موضوعها التأييد لما جازت التقيية، يجتبي، لأنَّ التغيية لا تكون إلا حيث يكون الشيء محتملاً فيزييل ذلك الإحتمال بالتغيية و محصل الكلام أَنَّهُمْ عكفوا على عبادة العجل ولم يطيعوا هارون الى أن رجع موسى من التيات فلَمَّا جاء موسى و رأى من قومه ما رأى من عبادة العجل قال لأخيه هارون ما حكى الله عنه بقوله:

قَالَ يَا هَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا، أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي
 قيل في الكلام حذف و تقديره فرجع موسى و وجدهم عاكفين على عبادة
 العجل فقال يا هارون، و كان ظهور العجل في سادس و ثلاثين يوماً و عبوده و
 جاءهم موسى بعد إستكمال الأربعين فغضب موسى على عدم إتباعه لَمَا
 رَاهُمْ قَدْ ضَلُّوا و، لا، في أن لا، زائدة كما في قوله: مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ، و
 قال بن عيسى، دخلت، (لا) هنا لَأَنَّ المعنى ما دعاكَ الى أن لا تَتَّبِعَنِي و ما
 حملك على أن لا تَتَّبِعَنِي بمن معك من المؤمنين أفَعَصَيْتَ أَمْرِي، يريد قوله
 أخلفني الآية إنتهى.

و عليه فليست بزائدة و قال صاحب الكشَّاف معناه، ما منعك أن تَتَّبِعَنِي
 في الغضب لله و شدَّة الزَّجْر عن الكفر و المعاصي هالاً ما قلت من كفر بمن
 آمن و مالك لم تباشِر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً أو مالك فلحققتني
 إنتهى.

أقول ما ذكره الزمخشري لا يستفاد من ألفاظ الآية و أنما قال ما قال من عند
 نفسه و لا سَمًا قوله هالاً قاتلت من كفر بمن آمن، ألم يعلم موسى أنَّ من بقى
 على الإيمان كان قليلاً بالنسبة الى من كفر و عبد العجل فكيف أمكن لهم
 القتال مع عبدة العجل.

و الحق في المعنى أنَّ قوله: أَلَا تَتَّبِعَنِي حيث لم يذكر متعلقه كان الظاهر أن
 لا تَتَّبِعَنِي الى جبل الطُّور بني إسرائيل ألا ترى أنَّ هارون إعتذر بقوله: إِنِّي
 خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. و ذلك لأنَّ هارون لو إتَّبِعَ
 موسى مع المؤمنين فَرَّقَ بينهم لا محالة إذ كان لا يتبعه إلا المؤمنون و يبقى
 عبَاد العجل عاكفين عليه كما قالوا لن نبرح عليه عاكفين، و يحتمل أن يكون
 المعنى في تَتَّبِعَنِي، أي تسير بسيري في الإصلاح و التَّسديد و على هذا فيجئ
 إعتذاره أنَّ الأمر تفاقم فلو تقويت عليه تقاتلوا و إختلفوا فكان تفريقاً بينهم و

أَمَّا لِأَيْتِ جَهْدِي. وَأَمَّا قَوْلُهُ: أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. فَصُورَتُهُ صُورَةُ الْإِسْتِفْهَامِ وَ الْمُرَادُ بِهِ التَّقْرِيرَ لِأَنَّ مُوسَى كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ هَارُونَ لَمْ يَعْصِهِ فِي أَمْرِهِ.

قَالَ يَابْنُ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي

قِيلَ كَانَ مُوسَى شَدِيدَ الْغَضَبِ لِلَّهِ وَ لَدِينِهِ فَلَمَّا رَجَعَ عَنِ الطُّورِ وَ رَأَى قَوْمَهُ عَبَدُوا عَجْلاً مِنْ دُونِ اللَّهِ بَعْدَ مَا شَاهَدُوا مِنَ الْآيَاتِ الْعِظَامِ لَمْ يَتِمَّاكَ أَنْ أَقْبَلَ عَلَى أَخِيهِ قَابِضاً عَلَى شَعْرِ رَأْسِهِ وَ كَانَ هَارُونَ كَثِيرَ الشَّعْرِ وَ عَلَى شَعْرٍ وَجْهِهِ يَجْرَهُ إِلَيْهِ، وَ قِيلَ أَخَذَ مُوسَى بِلِحْيَتِهِ وَ رَأْسَهُ وَ ذَكَرَ فِي التَّبْيَانِ فِي وَجْهِ ذَلِكَ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ عَادَةَ ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ الْوَاحِدَ إِذَا خَاطَبَ غَيْرَهُ قَبِضَ عَلَى لِحْيَتِهِ كَمَا يَقْبِضُ عَلَى يَدِهِ فِي عَادَتِنَا وَ الْعَادَاتُ تَخْتَلِفُ فَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِسْتِخْفَافِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ أَجْرَاهُ مَجْرَى نَفْسِهِ إِذَا غَضِبَ، فِي الْقَبْضِ عَلَى لِحْيَتِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ عَلَيْهِ كَمَا لَا يَهْتَمُّ عَلَى نَفْسِهِ إِنتَهَى.

قَالَ أَيُّ قَالَ هَارُونَ لِمُوسَى لَمَّا أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ وَ رَأْسَهُ، يَا بْنَ أُمَّ بَفَتْحِ الْمِيمِ عَلَى قِرَاءَةِ إِبْنِ كَثِيرٍ وَ أَبِي عَمْرٍو وَ عَاصِمٍ فِي رِوَايَةِ حَفْصٍ وَ كَسْرِ الْمِيمِ عَلَى قِرَاءَةِ غَيْرِهِمْ فَمَنْ فَتَحَ الْمِيمَ جَعَلَ إِبْنَ أُمَّ، إِسْمًا وَاحِدًا وَ بِنَاهُمَا عَلَى الْفَتْحِ مِثْلَ خَمْسَةِ عَشْرٍ، إِلَّا أَنَّهُا تَضْمَنُ مَعْنَى الْوَاوِ وَ تَقْدِيرُهُ خَمْسَةٌ وَ عَشْرَةٌ، وَ إِبْنَ أُمَّ، بِمَعْنَى اللَّامِ وَ تَقْدِيرُهُ لِأُمِّي وَ كِلَاهُمَا عَلَى تَقْدِيرِ الْإِتِّصَالِ بِالْحَرْفِ عَلَى جِهَةِ الْحَذْفِ، وَ يَجُوزُ يَابْنَ أُمَّ، عَلَى الْأُضَافَةِ وَ لَمْ يَجِئِ هَذَا الْبِنَاءُ إِلَّا فِي يَابْنَ أُمَّ وَ يَابْنَ عَمِّ، وَ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ يَابْنَ أُمَّهُ، فَرَّخِمَ، وَ مِنْ كَسْرِ الْمِيمِ أَرَادَ يَابْنَ أُمِّي، لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ يَابْنَ أُمَّا بِمَعْنَى يَابْنَ أُمِّي، وَ يَا رَبِّا بِمَعْنَى يَا رَبِّي وَ عَلَى هَذَا فَمَنْ كَسَرَ أَرَادَ يَابْنَ أُمِّي، فَحُذِفَ الْبَاءُ وَ أَبْقِيَ الْكَسْرَةُ تَدَلُّ عَلَيْهَا إِنتَهَى.

ما قاله في التَّيْبَانِ والمعنى قال هارون لموسى لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي،
واللَّحِيَّةُ بفتح اللّام لغة أهل الحجاز وبكسرهما لغة غيرهم والمشهور على كسر
اللام وعليه المصاحف ولو قلنا أنّ القرآن أنزل بلغة أهل الحجاز فالفتح أولى.
ثمّ قال هارون له إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، وذلك لأنّ
هارون لو فعل ذلك على وجه العنف والإكراه إختلفت كلمتهم وتفرقت
أحزابهم فكان بعضهم يلحقون بموسى مع هارون وبعض آخر يقيمون مع
السّامري، وبعض آخر يقيمون على الشك في أمره ولا نعني بالاختلاف إلاّ
هذا وقوله: وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي، من كلام هارون أي إني خفت أن تقول لم
ترقب قولي، أي لم تحفظ قولي وذلك لأنّ موسى نهاه عن الاختلاف حين
استخلفه ولما اعتذر له أخوه رجع موسى إلى مخاطبة السّامري الذي أوقع
القوم في الضلال كما حكى الله عنه بقوله: فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ أي ما
شأنك وما دعاك إلى ما صنعت من إضلال القوم وأصل الخطب الجليل من
الأمر فكأنّه قيل ما هذا الأمر العظيم الذي دعاك إلى ما صنعت.

قال ابن عطية لفظة الخطيب تقتضي إنتهاراً لأنّ الخطب يستعمل في المكاره
فكأنّه قال ما نحسك وما شؤمك وما هذا الخطب الذي جاء من قبلك.

أقول ما ذكره ليس بشيء فإنّ الخطب يستعمل في المكاره وغيرهما قال الله
تعالى فما خطبكم أيّها المرسلون، وهو قول إبراهيم لملائكة الله فليس هذا
إنتهاراً ولا شيئاً ممّا ذكره وقال الزّمخشرى، خطب مصدر خطب الأمر إذا
طلبه فإذا قيل لمن يفعل شيئاً ما خطبك فمعناه ما طلبك له إنتهى.

ومنه خطبة النكاح وهو طلبه وقيل هو مشتق من الخطاب كأنّه قال له ما
حملك على أن خاطبت بني إسرائيل بما خاطبت و فعلت معهم ما فعلت و
كيف كان لا شك أنّ إضلال القوم أمرٌ عظيمٌ فصحّ أن يقال له ما خطبك يا
سامري، قيل أنّه كان من خيار أصحاب موسى وكان عظيماً في بني إسرائيل
من قبيلة يقال لها سامرة ولكن نافق بعد ما قطع البحر مع موسى فلما مرّت بنو

إسرائيل بالعمالقة و هم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فاغتنمها السامري و علم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فإتخذ العجل على ما مرّ بيانه فلما قال له موسى ما قال السامري مجيباً له كما حكي الله تعالى عنه بقوله:

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّاتُ لِي نَفْسِي

المراد بالرّسول هو جبرئيل عليه السلام والمعنى قال السامري في جواب موسى لما قال له ما خطبك يا سامري، بصرت بما لم يبصروا، أي رأيت ما لم يروه، رأيت جبرئيل على فرس الحياة فألقى في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيته على شيء إلا صار له روح و لحم و دمّ فلما سألوك أن تجعل لهم إلهاً زينت لي نفسي ذلك، و قيل قال السامري رأيت جبرئيل على الفرس و هي تلقي خطوها مدّ البصر فألقي في نفسي أن أقبض من أثرها ممّا ألقيته على شيء إلا صار له روح و دمّ.

و قيل رأى جبرئيل نزل على رمكة وديق (وهي الفرس التي تشتهي الفحل) فتقدم خيل فرعون في ورود البحر و يقال أنّ أمّ السامري جعلته حين وضعته في غار خوفاً من أن يقتله فرعون فجاء جبرئيل فجعل كف السامري في فم السامري فوضع العسل و اللبن فإختلف إليه فعرفه من حينئذ.

أقول أنظر إلى هذه الأباطيل التي ذكروها في تفاسيرهم و حملوا كلام الله عليها، ثمّ أنهم إختلفوا في قراءة هذين الحرفين أعني بهما قوله: **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا** فأهل المدينة و البصرة قرأوا بالياء و قرأ الكوفة بالتاء على وجه المخاطبة لموسى فعلى القراءة الأولى معنى الكلام **بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرْ بِهِ** بنو إسرائيل و على الثانية معناه بصرت بما لم تبصروا، أنت و أصحابك قال الطبري بعد نقله ما نقلناه عنه ما لفظه.

و القول في ذلك عندي أَنَّهُما قراءتان معروفتان قد قرأ بكل واحدة منها علماء من القراء مع صحّة معنَى كُلِّ واحدةٍ منها و ذلك أَنَّهُ جائز أن يكون السّامري رأى جبرئيل فكان عنده ما كان بأن حدّثته نفسه بذلك أو بغير ذلك من الأسباب أنّ تراب حافر فرسه الذي كان عليه يصلح لما حدث عنه حين نبذه في جوف العجل ولم يكن علم ذلك عند موسى و لا عند أصحابه من بني إسرائيل فلذلك قال لموسى بصرت بما لم تبصروا به أي علمت بما لم تعلموا به و أمّا إذا قرئ بصرت بما لم تبصروا به بالياء فلا معونة فيه لأنّه معلوم أنّ بني إسرائيل لم يعلموا ما الذي يصلح له ذلك التراب إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره في توجيه القراءة بالتاء لا وجه له بل نقول أَنَّهُ باطلٌ عاطلٌ و ذلك لأنّ موسى كان من أعظم الأنبياء فكيف يعقل أن يكون السّامري أعلم منه ولو كان كذلك فينبغي أن يكون السّامري نبياً لا موسى بقبح تقديم المفعول على الفاعل عقلاً نعم ما ذكره الطّبري صحيحٌ على مسلك القوم حيث جوّزوا تقديم المفضول على الفاضل و لذلك قدّموا أبا بكر و بعده عمر و بعده عثمان و حتّى معاوية على عليّ بن أبي طالب إذ لا قبح عندهم في هذا التّقديم، و على هذا فقراءة التاء لا وجه لها و قراءة التاء هي الأصحّ المصاحف أيضاً فالمخاطب بهذا الكلام في الحقيقة بنو إسرائيل و أمّا موسى فهو خارجٌ عن المراد و المعنى بصرت أي رأيت ما لم يبصروا أي ما لم يروه و هذا ممّا لا إشكال فيه.

و أمّا قوله: فَقبَضْتُ قبضةً فالمشهور على قرائته بالصاد من القبض الأخذ أي فأخذت بكفّي كلّها تراباً من تراب أثر فرس الرسول و عن الحسن أَنَّهُ قرأها بالصاد، قالوا القبضه عند العرب الأخذ بالكفّ كلّها، و القبضه بالصاد الأخذ بأطراف الأصابع و أنت ترى أنّ المعنى واحدٌ إذ لا فرق بين الأخذ بالكفّ و الأخذ بأطراف الأصابع إلاّ بالاعتبار، و قوله: فَنَبَذْتُهَا، أي طرحتها و قد مرّ بيانه و قوله: وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي، أي حدّثني نفسي و قيل زيّت لي نفسي.

قال الزاغب التَّسْوِيلُ تزيين النَّفْسِ لما تحرص عليه و تصوير القبيح منه بصورة الحسن:

قال الله تعالى: **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا** (١).

قال الله تعالى: **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ** (٢).

و قد يُنْفَقُ أهل اللُّغَةِ على أَنَّ التَّسْوِيلَ هو تزيين النَّفْسِ لما تحرص عليه.

قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا

قال موسى عند ذلك، فَادْهَبْ، يا سامري، فَأَنْ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ، وإختلفوا في معناه فقال قومٌ معناه تقول لا أمس و لا أمس و كان موسى أمر بني إسرائيل أن لا يواكلوه و لا يخالطوه يبايعوه.

و قال الجبائي معناه لا مَسَاسَ لأحدٍ من النَّاسِ لأنه جعل يهيم في البرية مع الوحش و السَّبَاعِ و قوله لا مَسَاسَ بالكسر و الفتح فأن كسرت فمثل لا رجال فتحت بنيت على الكسر مثل نزال، قال الشاعر:

تميمٌ كرهط السَّامري و قوله أَلَا لا يريد السَّامري مَسَاسًا

وكله بمعنى المماسة و المخالطة إنتهى ما ذكره في التبيان.

و قيل كان موسى لا يقتل بني إسرائيل إلا في حَدٍّ أو وحي فعاقبه بإجتهاد نفسه بأن أبعده و نحاه عن النَّاسِ و أر بني إسرائيل بإجتنابه و إجتناب قبيلته و أن لا يواكلوا و لا يناكحوا و جعل له أن يقول مدَّةَ حياته لا مَسَاسَ أي لا مماسة مخالطة.

و قال الزمخشري، عوقب في الدنيا بقوية لا شيء أعلم منها و أوحش أنه منع من مخالطة النَّاسِ منعاً كلياً و حرَّم عليهم ملاماته و مكالمته و مبايعته و

مواجهته وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً وإذا إتفق أن يماس أحداً رجلاً أو امرأة حمّ المماس والممسوس فتحامى في الناس و تحافوه وكان يصيح لا مساس و يقال أنّ قومه باق فيهم ذلك الى اليوم إنتهى.

ثم أنّ الفاء دخلت للتعقيب أثر المحاوره و طرده بلا مهله زمانية و أنّما عبّر بالمماسه عن المخالطة لأنها أدنى أسباب المخالطة فسنبه بالأدنى على الأعلى و على هذا فالمعنى لا مخالفة بينك و بين الناس ما دمت حياً فنفر السامري من الناس و لزم البرية و بقى مع الوحوش الى أن إستوحش و صار إذا رأى أحداً يقول لا مساس أي لا تمسني و لا أمسك و قيل إبتلى بعذاب قيل له لا مساس بالواسواس و هو الذي عناه الشاعر بقوله:

فأصبح ذلك السمرى إذ قال له موسى لا مساساً

و قيل أنّ موسى أراد قتله فمنعه الله عنه لأنه كان شيخاً.

و أعلم أنّ الجمهور قرأوا لا مساس بفتح السين و كسر الميم و مساس مصدر ماس كقتال من، قاتل، و هو منفي بلا التي لنفي الجنس و هو نفي أريد به النهي أي لا تمسني و لا أمسك و قرأ بعضهم بفتح الميم و كسر السين على صورة، نزال، و نظار، من أسماء الأفعال بمعنى أنزل و أنظر، و قوله: **وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ** قيل المراد بالموعد القيامة و قرأ الجمهور، تخلفه، بالتاء المضمومة و فتح اللام على معنى لن يقع فيه خلف بل ينجزه لك الله في الآخرة على الشرك و الفساد بعد ما عاقبك في الدنيا.

و قرأ أبي كثير و الأعمش و أبو عمر و بضم التاء و كسر اللام أي لن تستطيع الروغان عنه و الحيدة فتزول عن موعد العذاب، و قرأ ابن مسعود و الحسن نحلفه بالنون و كسر اللام أي لا نقص مما وعدناك من الزمان شيئاً **وَ أَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِّقَهُ ثُمَّ لَنْنَسِفَنَّهُ فِي الْآيْمِ نَسْفًا** ثم قال موسى للسامري و أمطر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً، قيل أصله ظللت، فحذف اللام المكسورة للتخفيف و كراهيته التضعيف و للعرب فيها مذهبان، و

فتح الظاء وكسرها فمن فتح تركها على حالها ومن كسرها نقل حركة اللام اليها للإشعار بأصلها مثله ومست ومست في مَسَتْ وأنما خاطبه وحده وقال: وَ أَنْظُرْ، ولم يقل وأنظروا إذ لو كان هو رأس الضلال وهو ينظر لقولهم لن نبرح عليه عاكفين واللام في قوله: لَنْحَرِّقَنَّهُ وقوله: لَنْنَسِفَنَّهُ، قيل لام القسم فأقسم موسى لنحرقنه وهو أعظم فساد الصُّورة ثم للنسفة في اليم وهو البحر حتى تتفرق أجزاءه فلا يجتمع.

قيل أنه حرّقه ثم ذرأه في البحر، قيل لما كان قد أخذ السامري القبضة من أثر فرس جبرئيل وهو داخل البحر حاله تقدم فرعون وتبعه فرعون في الدُخول ناسب أن ينسف ذلك العجل الذي صاغه السامري من الحلبي الذي كان أصله للقطب وألقى فيه القبضة في البحر ليكون ذلك تنبيهاً على أن ما كان به قيام الحياة آل الى العدم وألقي في محل ما قامت به الحياة وأن أموال القبط قدفها الله في البحر بحيث لا ينتفع بها كما قدف الله أشخاص مالكها في البحر وغرقهم فيه إنتهى.

و فتح الظاء و سكون اللام هو المشهور في قراءة الجمهور و عليه المصاحف و قرأ بعضهم بكسر الظاء و ضمها كما قرأ بعضهم ظللت بلامين على الأصل و حاصل معنى الكلام أن موسى قال للسامري الذي صنع العجل و جعله معبوداً لهم أن هذا المعبود الذي إتخذته معبوداً و عكفت أنت و من تبعك عليه لنحرقنه بالنار ثم لنسفته في البحر حتى تتفرق أجزاءه و فيه إشعار بعدم كونه إلهاً معبوداً إذ لو كان إلهاً لما قدرنا على إحراقه و إعدامه، ثم أن في قوله: لَنْحَرِّقَنَّهُ ثلاث قرأت.

الأولى: لنحرقنه مشدداً مضارع، حرّق مشدداً و على هذا القراءة تكون الحاء في، لنحرقنه، مكسورة.

الثانية: قرأ قتادة و أبو جعفر و الحسن مخففاً، من أحرق رباعياً، و على هذه بقراءة تكون الحاء ساكنة.

الثالثة: فتح الثون من حرق يحرق مخففاً و عليها تكون الحاء أيضاً ساكنة و الرّاء في المضارع مضمومة و الظاهر أنّ حرق و أحرق هو بالنار.
 و أمّا القراءة الثالثة فمعناها لنبرذنه بالمبرد يقال حرق يحرق بضمّ راء المضارع وكسرها و ذكر أبو علي أنّ التّشديد قد يكون مبالغة في، حرق، إذا برد بالمبرد.
 قال السّدي أمر موسى بذبح البقرة فذبحت و سال منه الدّم ثمّ أحرقت و نسفت رمادها إنتهى.

و هو بعيد قال الجمهور أنّ موسى تعجل وحده فوقع أمر العجل ثمّ جاء موسى و صنع به ما صنع ثمّ خرج بعد ذلك بالسبعين على معنى الشّفاة في ذنب بني إسرائيل و أن يطلعهم أيضاً على أمر المناجاة فكان لموسى عليه السلام نهضتان و قيل أنّ موسى عليه السلام كان مع السبعين في المناجاة و حينئذٍ وقع أمر العجل و أنّ الله أعلم موسى بذلك فكتمه و جاء بهم حتّى سمعوا الغط بني إسرائيل حول العجل فحينئذٍ أعلمهم موسى إنتهى.
 و كيف كان لمّا أحرق العجل و فرغ من إبطال ما عمله السّامري عاد إلى بيان دين الحقّ كما حكى الله تعالى عنه بقوله:

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا
 كلمة، أمّا تقييد الحصر والمعنى أنّ إلهكم منحصر في الله الذي لا إله إلا هو، و هو الواجب الوجود المستجمع لجميع الكمالات إذ قد ثبت أن كلمة، الله، علم على الأصحّ للذات الواجب الوجود و لا يطلق على غيره و هذا أي قوله:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يعبر عنه بكلمة التّوحيد و عليها كان شعار الأنبياء في جميع الأديان فإنّ أوّل الذين معرفته تعالى: **وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** قرأ الجمهور وسع، مخففاً و قرأ مجاهد و قتادة بفتح السين مشدّدة.

قال الزّمخشري وجهه أنّ، وسع، متعدّ إلى مفعول واحد و هو كلّ شيء، و

أما علماً فإن تصابه على التمييز وهو في المعنى فاعل فلماً ثقل نقل إلى التعدية إلى مفعولين فنصبهما معاً على المفعولية لأن المميز فاعل في المعنى.
وقال ابن عطية، وسَّع، بمعنى خلق الأشياء وكثرها بالإختراع فوسَّعها موجودات إنتهى.

أقول أما قال موسى هذا الكلام في هذا المقام لوجهين:

أحدهما: أن المعبود الذي يستحق أن يعبد هو الذي لا يوجد في الوجود مثله فلا شبه له ولا نظير في ذاته وصفاته، وأما العجل الذي صنعه السامري فليس كذلك فهو لا يكون إلهاً.

ثانياً: أنه مخلوق لغيره وكل مخلوق لا يكون مُنحصراً لأنه يمكن أن يخلق مثله فهو كثيره من المصنوعات ولا فرق بينه وبينها فكيف يكون إلهاً، وفي قوله: وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا إشارة إلى أن المعبود لا يكون جاعلاً والعجل حيوان لا علم له فكيف يكون معبوداً للإنسان العالم ومن المعلوم أن من عبد الجاهل فهو أجهل منه وهو ظاهر.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا
ذلك إشارة إلى نبا موسى و بني إسرائيل و في فرعون أي كَقَصْنَا هَذَا النَّبَأَ
الغريب نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَ هَذَا فِيهِ ذِكْرُ نِعْمَةِ عَظِيمَةِ الْإِعْلَامِ
بأخبار الأمم السَّالِفَةِ لِيَتَسَلَّى بِذَلِكَ وَيَعْلَمَ أَنَّ مَا صَدَرَ مِنَ الْأُمَّمِ لِرُسُلِهِمْ وَ مَا
قَاسَتْ الرُّسُلَ مِنْهُمْ لَيْسَ بِقَلِيلٍ وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الذِّكْرَ هُنَا هُوَ الْقُرْآنُ أَتَيْنَ اللَّهُ تَعَالَى
به عليه و ذكر فيه الأخبار و القصص المشتملة على معجزات الأنبياء المراد
بالذِّكْرُ هُوَ الْعِلْمُ، أَيِ اعْطَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ عِنْدِنَا عِلْمًا بِأَخْبَارِ الْمَاضِيَيْنِ.

أقول يمكن مجمع بين القولين فأَنَّ الْعِلْمَ بِأَخْبَارِ الْمَاضِيَيْنِ قَدْ حَصَلَ لَهُ
بسبب القرآن فأن قلنا أن المراد بالذِّكْرُ هُوَ الْقُرْآنُ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ السَّبَبِ وَ أَنْ قَلْنَا

به العلم فهو من ذكر المسبب وإرادة السبب فمرجع القولين إلى شيء واحد أطلق الذكر على القرآن في كثير من الآيات فحمل الذكر على القرآن أولى:

قال الله تعالى: **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْشَئُونَ** (١).

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ** (٢).

قال الله تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (٣).

قال الله تعالى: **قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** (٤).

والآيات كثيرة وأما إرادة العلم من الذكر فلا تكون إلا على ما ذكرناه من ذكر السبب وأرادوا المسبب.

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا

أي من أعرض عن القرآن بكونه لم يؤمن به ولم يتبع ما فيه فإنه يحمل يوم القيامة أي عذاباً ثقيلاً فأَنْ الوزر، بكسر الواو وهو ثقل العذاب. وقال مجاهد أي إثمًا، وقال الثوري شركًا، والظاهر أنه عبّر عن العقوبة بالوزر لأنه سببها.

إن قلت كيف يكون المعرض عن القرآن حاملاً للوزر يوم القيامة وأية ملازمة بينهما.

قلت لأن المعرض عن القرآن هو في الحقيقة معرض عن الله تعالى ضرورة أن الإعراض عن الكلام هو الإعراض عن المتكلم ومن أعرض عن الله فقد أقبل على الشيطان من حيث لا يحتسب إذ لا واسطة بين الحق والباطل والإقبال إلى الشيطان متابعته وأيُّ إثمٍ أو وزرٍ أشنع وأفظع من متابعته ظاهر.

خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا

٢- القمر = ١٧

١- الزخرف = ٤٤

٤- الحجر = ٦

٣- الحجر = ٩

أي خالدين في العذاب والعقوبة، وأما جمع، خالدين و الصّمير في، لهم، حملاً على معنى من، بعد الحمل على لفظها في، أعرض، و في، فأته، و المخصوص بالذم محذوف أي وزرهم، وقوله: خَالِدِينَ، نصب على الحال و العامل فيه العذاب الذي تقدّم ذكره من الوزر و المعنى خالدين في عذاب الإثم وقوله: حِمْلًا، نصب على التمييز و فاعل ساء، مضمّر و تقديره ساء الحمل حملاً و المعنى ساء لهم يوم القيامة حملاً الوزر فقوله: لَهُمْ للبيان كهي في، هيت لك، لا متعلّقة، بساء، و ساء بمعنى بشس لا بمعنى أحزن و أهمّ، لفساد المعنى.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا

قوله يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ بدلٌ من يوم القيامة، كأنه قيل ما يوم القيامة قال تعالى يوم ينفخ في الصور و النفخ إخراج الرّيح من الجوف بالدفع من الغم فهذا أصله و قد يطلق على إحداث الرّيح من الزرق أو البوق للمشابهة لأنّه كالنفخ المعروف و في الصّور قولان:

أحدهما: أنّه جميع صورة كلّ حيوانٍ تنفخ فيه الرّوح فتجري في جسمه و يقوم حيّاً بإذن الله.

والثاني: أنّه قرنٌ ينفخ فيه النفخة الثانية ليقوم النّاس من قبورهم عند تلك النفخة، و المراد به في المقام هو صور إسرائيل لإحياء الأموات.

قال الزاغب في المفردات قيل هو مثل قرنٍ ينفخ فيه فيجعل الله سبحانه ذلك سبباً لعود الصّور و الأرواح إلى أجسامها.

و روي في الخبر أنّ الصّور فيه صورة النّاس كلّهم و أمّا قوله: وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا، قيل المراد بالزّرق زرقه العيون و الزّرقه أبغض ألوان العيون إلى العرب و العرب تتشأم بالزّرقه قال الشّاعر:

لقد زرقت عيناك يابن مكعبٍ
كما كلّ ضبّيٍّ من اللّوم زرقُ

ولذلك قيل أن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف و يوم القيامة كذلك بالنسبة إلى الكفار والمعرضين عن الحق.

يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا

أصل الخفت السكون ثم قيل لمن خفض صوته خفته ومعنى، يتخافتون، يتسادون لهول المطلع و شدة ذهاب أذهانهم فقد عزب عنهم قدر المدّة التي لبثوا فيها و قوله إن لبثتم إلا عشراً، أي ما أقمتم في قبوركم إلا عشرة أيام لأنّ المذكور إذا حذف و أبقى عدده قد لا يأتي بالتاء و قد يأتي بها. و قد حكى الكسائي عن أبي الجراح صمنا من الشهر خمساً، و منه ما جاء في الحديث، ثم أتبعه بسّ من شوال، يريد ستّة أيام و حسن الحذف هنا لتناسب الآية قبلها و بعدها.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا

أي و ذكر أعدلهم و أصلحهم طريقة و أوفرهم عقلاً أقلّ العدد و هو اليوم الواحد و قال ما لبثتم إلا يوماً واحداً و نحن أعلم بما يقولون و أنّما يقولون ذلك لشدة ما يرونه يوم القيامة من الهول و الخوف فكأنّهم نسوا ما لبثوا في الدنيا أعادنا الله من هول المطلّة بمحمّد و آله.



وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا
 (١٠٤) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٥) لَا تَرَى فِيهَا
 عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٦) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا
 عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا
 تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ
 إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٨)
 يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ
 بِهِ عِلْمًا (١٠٩) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ
 قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١٠) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ
 الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا
 هَضْمًا (١١١) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
 وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ
 لَهُمْ ذِكْرًا (١١٢) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا
 تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ
 قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٣) وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ
 مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٤) وَإِذْ قُلْنَا
 لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
 (١١٥) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجِكَ
 فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٦) إِنَّ لَكَ
 أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٧) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ
 فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٨) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ
 قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ

لَا يَبْلَى (١١٩) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا
 وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ
 عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢٠) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ
 عَلَيْهِ وَ هَدَى (١٢١) قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ
 لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ
 هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى (١٢٢) وَ مَنْ أَعْرَضَ
 عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٣) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى
 وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٤) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا
 فَنَسِيتَهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٥) وَ كَذَلِكَ
 نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَ
 لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقَى (١٢٦)

◀ اللغة

يَنْسِفُهَا: النَّسْفُ الإِقتْلَاعُ وَ الإِزَالَةُ يُقَالُ نَسَفْتُ الرِّيحُ الشَّيْءَ أَيِ إِقتلعتهُ وَ
 أزالته وَ النَّسَافَةُ مَا تَتَوَّرُّ مِنْ غبارِ الأَرْضِ.
 قَاعًا صَفْصَفًا: القَاعُ قِيلٌ هُوَ الأَرْضُ المِلْسَاءُ وَ قِيلَ مُستتَعِ المَاءُ وَ جمعه
 أقْوَاعُ وَ الصَّفْصَفُ المَوْضِعُ المُستَوِي الَّذِي لا نَباتَ فِيهِ وَ قِيلَ مَا لا تَرابَ فِيهِ.
 عَوْجًا: أَيِ صَدْعًا.
 وَ لاَ أَمْتًا: أَيِ أَثْرًا وَ قِيلَ أكمةٌ وَ قِيلَ العَوْجُ المِيلُ وَ هُوَ مُصدرٌ مَا عَوْجَ مِنْ
 المِجَارِيِّ وَ المَسائِلِ وَ الأودِيَةِ وَ الإِرتِفاعِ يَمِينًا وَ شِمَالًا.
 حَشَعَتِ: الخِشوعُ الخِضوعُ.
 هَمْسًا: الهَمْسُ صَوْتُ الأَقْدَامِ وَ قِيلَ هُوَ إِخفاءُ الكَلَامِ.

وَعَنْتَ أَلْجُوهُ: أي خضعت و ذلّت خضوع الأسير في يد القاهر والعاني الأسير.

وَقَدْ خَابَ: أي خسر.

هَضْمًا: المهضم النَّقص العزم.

عَزَمًا: الإرادة المتقدمة لتوطين النَّفس على الفعل.

تَطْمُؤًا: أي لا تعطش فأَنَّ الظَّماء العطش والظَّمَان العطشان.

وَلَا تَضْحَى: ضحى الرَّجل يضحى إذا برز للشمس.

لَا يَيْتَلَى: أي لا يهلك.

ضَنْكًا: الضَّنك الضيق،

◀ الإعراب

فَاعًا حال و صَفْصَفًا صفة للحال لَا تَرَى مستأنف و يجوز أن يكون حالاً أيضاً أو صفة للحال لَا عِوَجَ لَهُ حال من الداعي أو هو مستأنف على ما قيل إِلَّا مَنْ أَدْنُ مِنْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ بِنَفْعٍ، و قيل في موضع رفع أي إلا شفاعة من أذن فهو بدل و وَقَدْ خَابَ يجوز أن يكون حالاً و أن يكون مستأنفاً فَلَا يَخَافُ هو جواب الشرط فمن رفع إستأنف و من جزم فعل النهي و كَذَلِكَ الكاف نعتٌ لمصدر محذوف أي إنزالاً مثل ذلك يُقْضَى على ما لم يسم فاعله وَحِيَهُ مَرْفُوعٌ بِهِ عَزَمًا هو مفعول، نجد بمعنى نعلم و أَنَّكَ بفتح الهمزة معطوف على موضع، أَلَّا تَجُوعَ، فَوَسْوَسَ عَدَى بالي لأنه بمعنى أشر.

◀ التفسير

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا

ضمير الغائب في و يسألونك، عائد على قريش منكري البعث أو على المؤمنين الذين سألوا عن ذلك أو على رجل من ثقيف و جماعة من قومه أقوال ثلاثة و الكاف خطاب للرسول ﷺ و الظاهر وجود السؤال و قيل لم

يكن سؤال بل المعنى إن يسألوك عن الجبال فقل كذا فضمن معنى الشرط
 لذلك أجيب بالفاء و روعي أنّ الله يرسل ريحاً على الجبال فيدكها كالعهن
 المنفوش ثم يتوالى عليها حتى يعيدها كالهباء المنبث فذلك هو النّسف و
 الظاهر عود الضّمير في، فيذرها، على الجبال في قوله:

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا

أي فيذر الجبال بعد النّسف تبقى قاعاً، أي مستويّاً من الأرض معتدلاً و قيل،
 فيذر مقرها و مراكزها الضّمير يعود على الأرض و أن لم يجر لها ذكر لدلالة
 الجبال عليها و قوله صفصفاً، أي ما لا تراب فيه أو ما لا نبات فيه.

لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا

أي لا ترى في الجبال أو في الأرض ميلاً و لا أمتاً أي و لا أثراً و قال ابن
 عباس معناه لا ترى فيها وادياً و لا أمتاً رابية و عنه أيضاً الأمت الإرتفاع، و قيل
 الأمت الشقوق في الأرض و قال قتادة لا عوجاً أي صدعاً و لا أمتاً أي أكمة.

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا
 تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا

أي يوم إذ ينسف الله الجبال، يتبعون، الخلائق الدّاعِيَ أي داعي الله الى
 المحشر و هو إسرافيل الذي ينفخ في الصّور قيل يقوم على صخرة بيت
 المقدس يدعوا الناس فيقبلون من كلّ جهة يضع الصّور في فيه و يقول أيتها
 العظام البالية و الجلود المتّمزقة و اللّحوم المتّفرقة هلّم إلى العرض على
 الرّحمن.

و قال محمّد بن كعب يجمعون في ظلمة قد طويت السّماء و إنتشرت
 النّجوم فينادي منادٍ فيموتون موتةً، و قيل الدّاعِيَ هنا الرّسول ﷺ كان

يدعوهم إلى الله فيعوجون على الصراط يميناً وشمالاً ويميلون عنه ميلاً عظيماً فيومئذٍ لا ينفعهم إيتاعه و قوله: **لَا عِوَجَ لَهُ** لا عوج لدعاء الداعي يسمع جميعهم فلا يميل إلى ناسٍ دون ناسٍ وقيل هو على القلب أي لا عوج لهم عنه بل يأتون مقبلين إليه متبعين لصوته من غير إنحرافٍ وقال الزمخشري أي لا يعوج له مدعواً بل يستون إليه، وقيل معناه لا معدل لهم عنه أي عن دعاءه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحدون.

وقيل يتبعون الداعي إيتاعاً لا عوج له فالمصدر مضمر والمعنى يتبعون صوت الداعي للحشر والأقوال متقاربة المعنى **وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ** أي ذلت وسكنت وخضعت قال الشاعر:

لَمَّا أَتَى خَيْرَ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ
سُورَ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالِ الْخَشَعُ

والخشوع في الأصل التظامن والتواضع وهو في الأصوات إستعارة بمعنى الخفاء الأشرار للرحمن أي لهيبته و سطوته وقيل هو على حذف المضاف أي وخشع أهل الأصوات، والهمس الصوت الخفي ويحتمل أن يريد بالهمس المسموع، تخافتهم بينهم وكلامهم السر ويحتمل أن يريد صوت الأقدام وأن أصوات النطق ساكنة.

وقال الزمخشري هو الركن الخفي ومنه الحروف المهموسة وعن ابن عباس وابن جبير الهمس وطئ الأقدام والعلة في كل ذلك هي الخوف والهول في المحشر.

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا
أخبر الله تعالى أن ذلك اليوم لا تنفع شفاعة أحدٍ في غيره من أذن الله له أن يشفع و رضي قوله فيها من الأنبياء والأولياء والصُّلحاء والمؤمنين فالمنفي في الآية هو الشَّفَاعَةُ بغير إذن الله لا مطلق الشَّفَاعَةُ لأنها ثابتة في الشريعة في حق من أذن له.

قال رسول الله ﷺ: أن من أمتي سيدخل الله الجنة بشفاعتي أكثر من مضر إنتهى.

قال رسول الله ﷺ: لكل نبي دعوة قد دعا بها و قد سأل سؤالاً أحبأت دعوتي لشفاعتي لأمتي يوم القيامة إنتهى.

قال ﷺ: ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون، الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء إنتهى.

قال ﷺ: من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ثم قال ﷺ: أما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي و أما المحسنون فما عليهم من سبيل. إنتهى و الأحاديث في الباب كثيرة.

و في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد و هم حفاة عراة فيوقفون في المحشر حتى يعرقوا عرقاً شديداً و تشتد أنفاسهم فيمكنون في ذلك خمسين عاماً قول الله و خشعت الأصوات الآية. قال عليه السلام: ثم ينادي منادٍ من تلقاء العرش أين النبي الأمي فيقول الناس قد سمعت فسم باسمه فينادي أين نبي الرحمة أين محمد بن عبد الله الأمي فيقدم رسول الله ﷺ أمام الناس كلهم حتى ينتهي إلى حوض طوله ما بين إيلة و صنعاء فيقف عليه فينادي بصاحبكم فيقدم علي عليه السلام أمام الناس فيقف معه ثم يؤذن للناس فيمرون فبين وارد الحوض يومئذٍ و بين مصروفٍ عنه فإذا رأى رسول الله من يصرف من محبيننا يبكي و يقول يارب شيعه علي قال عليه السلام: فيبعث الله ملكاً فيقول له ما يبكيك يا محمد فيقول أبكي لأناس من شيعه علي أراهم قد صرفوا تلقاء أصحاب النار و منعوا

ورود حوضي قال **عَلَيْهِ** فيقول الملك **أَنْ** الله يقول قد وهبتهم لك يامحمد و صفحت لهم عن ذنوبهم بحبهم لك و لعترتك و ألحقتهم بك و بمن كانوا يتولون به و جعلنا هم في زمرك فأوردهم حوضك فقال أبو جعفر فكم من باك يومئذ و باكية ينادون يا محمدا إذا رأوا ذلك و لا يبقى أحد يومئذ يتولانا و يحبنا و يتبرأ من عدونا و يبغضهم إلا كانوا في حزبا و معنا و يردون حوضنا إنتهى.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا
 أي يعلم ما بين أيدي الخلائق من أمور القيامة و أحوالهم و يعلم ما سبقهم فيما تقدمهم و قيل يعود الضمير على الملائكة و قيل على الناس لا بقيد الحشر و الأتباع و الأظهر هو أول الأقوال و أما الضمير في، به، فهو عائد على، ما، أي يحيطون بعلوماته علماً، و هو كذلك لأن معلوماته غير متناهية و علم المخلوق متناه و المتناهي لا يحيط بغير المتناهي.

وَ عَنَتِ آَلُوجُوهٌ لِّلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا
 الظاهر عموم الوجوه أي خضعت وجوه الخلائق في جنب عظمته قيل و خصّ الوجوه من بين سائر الأعضاء لأن آثار الدلّ أنما تظهر في أول الوجوه.
 و قال صاحب الكشاف المراد بالوجوه وجوه العصاة و أنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة و الشقوة و سوء الحساب صارت وجوههم عانية أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العناة و هم الأسارى و نحوه قوله: **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**^(١) و قوله: **وُجُوهُ يَوْمئذٍ نَاضِرَةٌ**^(٢) إنتهى.

أقول لا دليل لتخصيص الوجوه بالعصاة فحمل الكلام على العموم أولى كما هو ظاهر الآية ومقتضى العقل فأَنَّ المخلوق خاضع في جنب الخالق قهراً و أمَّا القيوم فلا يطلق على غير الله تعالى لأنه عبارة عن الموجود الذي يكون قائماً بذاته و ما سواه كائناً ما كان قائماً به و الله تعالى كذلك فلا يتَّصف بالقيومة غيره تعالى و قيل القيوم الموجود الذي لا فناء له و على هذا التغير أيضاً لا يطلق على غيره تعالى.

و أمَّا قوله: **وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**، فمعناه لم ينجح أي لا ظفر بمطلوبه و الظلم يعمُّ الشُّرك و المعاصي و خيبة كلِّ حاملٍ بقدر ما حمل من الظلم فخيبة المشرك تكون دائماً و خيبة المؤمن مقيّدة بوقتٍ من الأوقات في العقوبة إن عوقب و لما خصَّ الزمخشري الوجوه بوجوه العصاة كما مرَّ.

قال في المقام أنه إعتراض كقولك خابوا و خسروا حتّى تكون الجملة دخلت بين العصاة و بين من يعمل من الصّالحات فهذا عنده قسمٌ لقوله: **وَ عَنَّتِ أَلْوَجُوهُ**، و الحقُّ أَنَّ الواو في قوله: **وَ قَدْ خَابَ**، للإستئناف و على هذا فالكلام مستأنف و أن شئت قلت أنه حكمٌ كلّيٌ يشمل كلَّ من حمل ظلماً سواء كان الظالم كافراً أم مسلماً إلا أنّ مراتب الظلم متفاوتة مختلفة و هذا ظاهر لا يحتاج إلى مزيد بيانٍ و الآيات الواردة في ذمِّ الظلم كثيرة و الأخبار فيه متواترة.

قال رسول الله ﷺ: **من إقتطع حقَّ إمريِّ مسلمٍ أوجب الله له النَّارَ و حرَّم عليه الجنَّةَ** فقال له رجل يا رسول الله و لو كان شيئاً يسيراً قال ﷺ: **ولو كان قضيباً من أراك إنتهى.**

قال رسول الله ﷺ: **أوحى الله تعالى إليّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين أنذر قومك فلا يدخلوا بيتاً من بيوتي و لأحدٍ من عبادي عند أحدٍ منهم مظلمة فأنّي ألعنه مادام قائماً يصلي بين يديّ حتّى**

يَرِدُ تِلْكَ الظَّلَامَةَ إِلَى أَهْلِهَا فَأَكُونُ سَمِعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ وَبَصَرَهُ الَّذِي
يَبْصُرُ بِهِ وَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَائِي وَأَصْفِيَائِي وَيَكُونُ جَارِي مَعَ النَّبِيِّينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ إِنَّتَهُي.
وَلنَعْمَ مَا قِيلَ:

وَحَقَّ اللَّهُ أَنَّ الظَّلْمَ لَوْثٌ وَ أَنَّ الظُّلْمَ مَرْتَعُهُ وَخَيْمٌ
إِلَى دِيَانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمِضِي وَ عِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ
وَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَلَا أَنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ، فَظُلْمٌ لَا يَغْفَرُ، وَ ظُلْمٌ لَا
يُتْرَكُ، وَ ظُلْمٌ غَفُورٌ لَا يُطَلَبُ فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفَرُ فَالشَّرْكَ بِاللَّهِ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ (١).

وَ أَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.
وَ أَمَّا الظُّلْمُ الْمَغْفُورُ الَّذِي لَا يُطَلَبُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ إِنَّتَهُي.
وَ الْأَخْبَارُ فِي ذَمِّ الظُّلْمِ كَثِيرَةٌ فَقَوْلُهُ: وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا يَشْمَلُ
جَمِيعَ أَنْوَاعِهِ وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ تَنْكِيرُ الظُّلْمِ فِي قَوْلِهِ ظُلْمًا أَيُّ أَيُّ نَوْعٍ كَانَ مِنْهُ وَ
مَحْصَلُ الْكَلَامِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ حَكَمَ عَلَى الظُّلْمِ بِالْخِيْبَةِ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِ
الظُّلْمِ وَ لَا إِسْتِنَاءَ فِيهِ وَ لَا تَخْصِيصَ وَ هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَ مَنْ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَ لَا هَضْمًا.
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الظُّلْمُ مَجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي عَظِيمِ سَيِّئَاتِهِ وَ الْهَضْمُ نَقْصٌ مِنْ
حَسَنَاتِهِ.

وَ قَالَ قَتَادَةُ الظُّلْمُ أَنْ يَزَادَ مِنْ ذَنْبٍ غَيْرِهِ وَ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ الظُّلْمُ أَنْ لَا يَجْزِي
بِعَمَلِهِ وَ قِيلَ الظُّلْمُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ صَاحِبِهِ فَوْقَ حَقِّهِ وَ الْهَضْمُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ حَقِّ

أخيه فلا يوفيه له كصفة المطففين يسترجعون لأنفسهم إذا إكتالوا و يخسرون إذا كالوا، و الظلم و الهضم متقاربان، و قال الماوردي و الفرق أنّ الظلم منع الحقّ كلّه و الهضم منع بعضه.

و قرأ الجمهور على الخبر أي فهو لا يخاف، و قرأ ابن كثير و حميد فلا يخف على النهي قال الرّازي يعني و من يعمل شيئاً من الصّالحات و المراد به الفرائض فكان عمله مقروناً بالإيمان و هو كقوله و من يأتيه مؤمناً قد عمل الصّالحات فقوله: **فَلَا يَخَافُ** في موضع جزم لكونه في موضع جواب الشرط و التقدير فهو لا يخاف و نظيره و من عاد فينتقم الله منه فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخساً و لا رهقاً.

و قرأ ابن كثير فلا يخف على النهي و هو حسن لأنّ المعنى فليأمن و النهي عن الخوف أمرٌ بالأمن، و الظلم هو أن يعاقب لا على جريمةٍ أو يمنع من الثواب على الطاعة و الهضم أن ينقص من ثوابه و الهزيمة النقيصة و منه هضم الكشح إنتهى كلامه.

و قال أبو مسلم الظلم أن ينقص من الثواب و الهضم أن لا و في حقّه من الأعظام لأنّ الثواب مع كونه من اللغات لا يكون ثواباً إلا إذا قارنه التعظيم يدخل النقص في بعض الثواب و يدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفي الله تعالى كلا الأمرين عن المؤمنين إنتهى.

هذا ما قالوه في تفسير الكلام و الذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أنّ المؤمن الذي عمل الصّالحات لا يخاف ظلماً أي مجاوزةً عن الحدّ الذي هو سبب العقاب و لا هضماً أي و لا تقصيراً في العمل و أن كان القصور ثابتاً في حقّه فإنّ القصور لا يوجب العقاب و بعبارةٍ أخرى أنّه عمل بوظيفته فلا خوف عليه من هول القيامة و أنّما قلنا ذلك لأنّ عدم الخوف من الظلم يوم القيامة ثابتٌ في حقّ الكافر و المؤمن فإنّ الكافر أيضاً لا يخاف ظلماً و لا هضماً و هذا

لا إختصاص له بالمؤمن وذلك لأنَّ الله تعالى عادل ولا يظلم على أحدٍ و أما العذاب الثابت للكافر فهو عين العدل لكونه مستحقاً به و ما ربك بظلام للعبيد نعم لو قلنا معنى الكلام أنَّ المؤمن لا يخاف ظلماً على نفسه و لا هضماً فله وجهٌ و أما على ما فسره القوم من أنَّ المؤمن لا يخاف ظلماً أي من أن يظلم عليه و لا هضماً أي يتقص من حقه دون الكافر فلا نفهم معناه و الله أعلم.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا

و كذلك أنزلناه عطف على قوله: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ (١) أي و مثل ذلك الإنزال أو كما أنزلنا عليك هذه الآيات المتضمنة الوعيد أنزلنا القرآن كله على هذه الوتيرة مكررين فيه آيات الوعيد ليكونوا بحيث يراد منهم ترك المعاصي أو فعل الخير و الطاعة، و الذكر يطلق على الطاعة و العبادة، و قيل كما قدرنا هذه الأمور و جعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد كذلك حذرنا هؤلاء أمرها و أنزلناه قرآناً عربياً و توعدنا فيه بأنواع من الوعيد لعلهم بحسب توقع الشر و ترجيهم يتقون الله و يخشون عقابه فيؤمنون و يتذكرون نعمه عندهم و ما حذرهم من أليم عقابه هذا تأويل فرقة في قوله: أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا.

و قال الرّازي أمّا قوله: أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ففيه وجهان:

الأول: أن يكون المعنى أنّما أنزلنا القرآن لأجل أن يصيروا متقين أي محترزين عمّا لا ينبغي أو يحدث القرآن لهم ذكراً يدعوهم إلى الطاعات و فعل ما ينبغي.

الوجه الثاني: أن يقال: أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِيَتَّقُوا فإن لم يحتمل ذلك فلا

أقل من أن يحدث القرآن لهم ذكراً و شرفاً وصيتاً حسناً فعلى هذين التَّقْدِيرين يكون إنزاله تقوى إنتهى.

أقول الآية لا تحتاج إلى هذه التَّكَلُّفات التي هي بمنزلة الأكل من القفا، و ذلك لأنَّ الله تعالى يقول: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** بلسان قومك ليقراه و يتلوه و يتفكروا في آياته و صرفنا فيه من آيات الوعيد كالطُّوفان و الصَّيْحة و الرَّجفة و المنح لعلمهم يتقون أن ينزل بهم ما نزل بمن تقدّمهم من العذاب أو يحدث القرآن لهم ذكراً أي عظة و فكراً و اعتباراً.

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

قيل أي ذو الحق، و لما كان فيما سبق ذكر تعظيم القرآن في قوله: **وَ قَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا** و قوله **وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ذكر عظمة منزلته تعالى ثم ذكر هاتين الصفتين و هما صنعنا الملك التي تضمّت القهر و السُّلْطَنَة و صفة سلطانه يوم القيامة و عظم قدرته فالصفة الأولى دلّت على بطلان كلِّ إله غيره تعالى و أنّ كل ما يدعى به غيره باطل لا سيّما الإله الذي صاغوه من الحليّ و الصفة الثانية دلّت على قدرته و ذلّة عبيده و حسن تلطفه بهم فناسب تعاليه و وصفه بالصفتين المذكورتين و لما ذكر القرآن و إنزاله قال على سبيل الإستطراد طالباً منه التّأني في تحفظه فقال لا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه فهو كقوله: **لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ^(١).

و قيل معناه لا تبلغ ما كان منه مجملاً حتّى يأتيك البيان و قيل في سبب نزولها أنّ امرأة شكّت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ زوجها لطمها فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينكما القصاص ثمّ نزلت: **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ** ^(٢) و نزلت هذه بمنزلة الأمر

بالتَّبَثِّبِ فِي الْحَكْمِ بِالْقُرْآنِ، وَ قِيلَ كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ أَمْرٌ بِكُتْبِهِ لِلْحَيِّينَ فَأَمْرٌ أَنْ يَتَأَنَّى حَتَّى يَفْسِّرَ لَهُ الْمَعْنَى وَ يَتَقَرَّرَ عِنْدَهُ.

وَ قَالَ الْمَوْرِدِيُّ مَعْنَاهُ وَ لَا تَسْأَلُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ الْوَحْيُ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ وَ أَسْقَفَ نَجْرَانَ قَالُوا يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا عَنْ كَذَا وَ قَدْ ضَرَبْنَا لَكَ أَجْلاً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَأَبْطَأَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ وَ فَشَتِ الْمَقَالَةَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَ قَدْ غَلَبَ مُحَمَّدٌ فَنَزَلَتْ وَ لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ أَيَّ بِنَزُولِهِ.

وَ قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ أَيُّ وَ لَا تَعْجَلْ بِقِرَاءَتِهِ فِي نَفْسِكَ أَوْ فِي تَأْدِيبَتِهِ إِلَى غَيْرِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ أَيُّ تَمَامُهُ أَوْ بَيَانُهُ وَ قَوْلُهُ: قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا قِيلَ أَيُّ قِرْآنًا، وَ قِيلَ أَيُّ فَهْمًا وَ قِيلَ حَفْظًا قَالَ بَعْضُهُمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِطَلْبِ الزِّيَادَةِ فِي شَيْءٍ إِلَّا فِي طَلْبِ الْعِلْمِ إِنْتَهَى.

وَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْعِلْمُ هُوَ النُّورُ الَّذِي يَقْذِفُهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعِلْمُ الْحَضُورِيُّ الْأَنْصَابِيُّ مِنْ مَبْدَأِ الْفِيضِ لَا الْعِلْمَ الْحَصُولِيَّ الْكُتُبِيَّ الَّذِي يَحْصُلُ بِسَبَبِ التَّعْلِيمِ وَ التَّعَلُّمِ مِنَ الْغَيْرِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ عُلُومَ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْصِيَاءِ مِنْ نَسْخِ الْعِلْمِ الْحَضُورِيِّ كَعِلْمِ النَّفْسِ بِذَاتِهَا.

وَ قَدْ رَوَى فِي أُصُولِ الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي يَحْيَى الصَّنْعَانِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ يَا أَبَا يَحْيَى أَنْ لَنَا فِي لَيْلِي الْجُمُعَةِ لَشَأْنًا مِنَ الشَّأْنِ قَالَ قُلْتَ جَعَلْتَ فِدَاكَ وَ مَا ذَاكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُؤْذَنُ لِأَرْوَاحِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَوْتَى وَ أَرْوَاحِ الْأَوْصِيَاءِ الْمَوْتَى وَ رُوحِ الْوَصِيِّ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يَعْجُرُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى تُوَافِيَ عَرْشَ رَبِّهَا فَتَطُوفُ بِهِ إِسْبُوعًا وَ تَصَلِّيُ عِنْدَ كُلِّ قَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ تَرُدُّ إِلَى الْأَبْدَانِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا فَتَصْبِحُ الْأَنْبِيَاءَ وَ الْأَوْصِيَاءَ قَدْ مَلِئُوا سُرُورًا وَ يَصْبِحُ الْوَصِيُّ الَّذِي بَيْنَ ظَهْرَانِيكُمْ وَ قَدْ زِيدَ فِي عِلْمِهِ مِثْلَ جَمِّ الْغَفِيرِ إِنْتَهَى.

وبأسناده إلى الفضل قال: قال أبو عبد الله ذات يوم و كان لا يُكْفِينِي قَبْلَ ذَلِكَ، يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ قُلْتَ لَتَيْكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ لَنَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ سُرُورًا قَالَ قُلْتَ زَادَكَ اللَّهُ وَ مَا ذَاكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا كَانَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وَافَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْعَرْشِ وَ وَافَى الْأُئِمَّةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ وَافَيْنَا مَعَهُمْ فَلَا تُرَدُّ أَرْوَاحُنَا بِأَبْدَانِنَا إِلَّا بِعِلْمٍ مُسْتَفَادٍ وَ لَوْلَا ذَلِكَ لَأَنْفَدْنَا إِنْتَهَى.

وبأسناده إلى صفوان بن يحيى قال: سمعت أبا الحسن يقول كان جعفر بن محمد عليه السلام يقول لولا أننا نزيد لأنفدنا إنتهى.

وبأسناده عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لولا أننا نزيد لأنفدنا، قلت تزدادون شيئاً لا يعلمه رسول الله ﷺ قال عليه السلام أما أنه إذا كان عرض على رسول الله ﷺ ثم على الأئمة ثم إنتهى الأمر إلينا إنتهى^(١).

أقول الآيات والأخبار الواردة في فضيلة العلم كثيرة قال الصادق عليه السلام منهومان لا يشبعان منهوم علم ومنهوم مال، وكفى في فضيلة العلم أن الله تعالى يقول: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ^(٢) ولتفصيل الكلام في هذا الباب مقام آخر.

وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَسَىٰ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا

قال ابن عباس ومجاهد معناه عهد إليه بأن أمر به و وصاه به، فنسى أي ترك، وقيل أنما أخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسى، وقوله: لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا أي عقداً ثابتاً.

وقال قتادة، صبراً، وقال عطية، حفظاً، والعزم الإرادة المتقدمة لتوطين النفس على الفعل، هذا ما ذكره الشيخ عليه السلام في التبيان.

وقال الطبري المعنى إن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي و يخالفوا رسلي و يطيعوا إبليس فقدماً فعل ذلك أبوهم آدم.

قال ابن عطية و هذا ضعيف و ذلك أن كون آدم مثلاً للكفار الجاحدين بالله ليس بشئ و آدم عليه السلام أنما عصى بتأويل ففي هذا فضاضة عليه و أنما الظاهر في هذه الآية أما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله و أما أن يجعل تعلقه أنما هو لما عهد إلى محمد صلى الله عليه وآله أن لا يعجل بالقرآن مثل له بنبي قبله عهد إليه فنسي ليكون أشد في التحذير و أبلغ في العهد إلى محمد صلى الله عليه وآله إنتهى.

وقال صاحب الكشاف يقال في أوامر الملوك و وصاياهم تقدم الملك إلى فلان و أوعز عليه و عزم عليه و عهد إليه، عطف الله سبحانه قصة آدم على قوله: **وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** و المعنى و أقسم قسماً لقد أمرنا أباهم آدم و وصينا أن لا يقرب الشجرة و توعدناه بالدخول في جملة الظالمين أن قربها و ذلك من قبل وجودهم و من قبل أن تتوحدهم فخالف إلى ما نهي عنه و توعد في إرتكابه مخالفتهم و لم يلتفت إلى الوعيد كما لا يلتفتون كأنه يقول أن أساس أمر بني آدم على ذلك و عرفهم راسخ فيه إنتهى.

قال الطبرسي رحمته الله في وجه اتصال قوله: **وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ**، الآية بما قبله أنه لما ذكر تصريف الآيات و القرآن و أن بها يتذكر أمره سبحانه بالتذكر و أن لا يكون مثل آدم في نسيان العهد و قيل أنه إتصل بقوله و لا تعجل خوف النسيان للفظه و لكن توكل على الله و سله التوفيق لحفظه فإن أباك آدم نسي ما عهد إليه إنتهى.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه و هو أننا أمرناه و أوصينا إليه أن لا يقرب الشجرة و لا يأكل منها فترك الأمر فالمراد بالعهد في الآية هو ما عهد الله إليه أن لا يقرب الشجرة و العهد حفظ الشئ و مراعاته حالاً بعد حال و سمى الموثق

الَّذِي يَلِزَمُ مِرَاعَاتِهِ عَهْدًا وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ عِنْدَ الْجَمِيعِ وَ أُنْمَا الْكَلَامَ فِي قَوْلِهِ (فَنَسِيَ) حَيْثُ أَنَّ النَّسْيَانَ يَنَافِي الْعَصْمَةَ وَ قَدْ ثَبَتَتْ عَصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَقْلًا وَ شَرْعًا، فَقَالَ قَوْمٌ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّسْيَانِ فِي الْآيَةِ التَّرْكَ أَي تَرَكَ آدَمَ مَا عَهْدَ إِلَيْهِ، وَ بِذَلِكَ أَجَابُوا عَنِ الْإِشْكَالِ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْإِشْكَالَ بَاقٍ بِحَالِهِ فَأَنَّ تَرَكَ الْمَأْمُورَ بِهِ أَوْ فَعَلَ الْمَنْهِي عَنْهُ أَيْضًا يَنَافِي الْعَصْمَةَ.

أَمَّا الْعَامَّةُ فَقَدْ إِسْتَرَحَوْا عَنِ الْجَوَابِ لِعَدَمِ وَجُوبِ الْعَصْمَةِ عِنْدَهُمْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فَضْلًا عَنِ الْأَوْصِيَاءِ وَ لَا كَلَامَ لَنَا مَعَهُمْ فِي الْمَقَامِ. وَ أَمَّا الشَّيْعَةُ فَلَا خِلَافَ عِنْدَهُمْ فِي وَجُوبِ الْعَصْمَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْصِيَاءِ وَ عَلَى هَذَا فَتَقُولُ:

يُظْهِرُ مِنْ بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْعَصْمَةَ لَازِمَةٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ أَمَّا فِي الْجَنَّةِ فَلَا. فَفِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ بِأَسَانِدِهِ إِلَى أَبِي الصَّلْتِ الْهَرَوِيِّ قَالَ لَمَّا جَمَعَ الْمَأْمُونُ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَهْلَ الْمَقَالَاتِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَ الدِّيَانَاتِ مِنَ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسِ وَ الصَّابِيِّينَ وَ سَائِرِ الْمَقَالَاتِ فَلَمْ يَقُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَلْزَمَهُ حُجَّتَهُ كَأَنَّهُ أَلْقَمَ حِجْرًا قَلَمَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ جَهْمٍ فَقَالَ لَهُ يَا بَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَقُولُ بِعَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَعَمْ، قَالَ فَمَا تَعْمَلُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ حُجَّتَهُ فِي أَرْضِهِ وَ خَلِيفَتَهُ فِي بِلَادِهِ وَ لَمْ يَخْلُقْهُ لِلْجَنَّةِ، وَ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ مِنْ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ لَا فِي الْأَرْضِ لَتَمَّ مَقَادِيرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمَّا أَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ وَ جَعَلَ حُجَّةَ وَ خَلِيفَةَ عَصَمَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ^(١) إِنْتَهَى وَ يَظْهِرُ مِنْ بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ النَّهْرَ لَمْ يَكُنْ نَهْيَ تَحْرِيمٍ وَ أُنْمَا هُوَ نَهْيَ تَنْزِيهِهِ وَ عَلَى هَذَا يَحْمَلُ الْعَصِيَانَ عَلَى تَرَكَ الْأُولَى وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ سَابِقًا بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

قد مرَّ الكلام في كيفية سجدة الملائكة و قلنا أنها لم تكن للعبادة بل كانت للخضوع و التَّعظيم عند قوله:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ^(١).

و قال الله تعالى: لَا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ^(٢).

فلا نعيد الكلام حذراً من الإطالة و الذي نقول في المقام هو أن قوله: أَبَى متعلِّقة محذوف و أنه يقدر هنا ما صرَّح به في الآية الأخرى بقوله: أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ و بذلك يعلم أن الكلام قد تمَّ على قوله إلا إبليس، و قوله: أَبَى جملة مستأنفة بنيته أن إمتناعه من السُّجود أتما كان عن إباء منه و إمتناع و به قال الزمخشري حيث قال، أبى، جملة مستأنفة كأنه جواب قائلٍ قال لِمَ لم يسجد الخ.

و قد قلنا أن أمر الله للملائكة بالسُّجود لآدم يدل على تفضيله عليهم و أن كان السُّجود في الحقيقة لله تعالى لا لآدم لأنَّ السُّجود عبادة و المخلوق لا يستحقُّ شيئاً منها بحالٍ قالوا لأنَّ العبادة تستحقُّ بأصول النُّعم و قيل أن سجودهم لآدم كان كما يسجد الى جهة الكعبة يعني أن آدم كان في قبلتهم مثل الكعبة بالنسبة اليها، و الحقُّ الحقيقي بالإتباع هو القول الأول لأنَّ التَّعظيم الذي هو في أعلى المراتب حاصل لله تعالى لا لآدم بإسجاد الملائكة له ولو لم يكن الأمر على ما قلناه من أن في ذلك تفضيلاً لآدم عليهم لما كان لإمتناع إبليس من السُّجود له وجهٌ و لما كان لقوله: أُنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ^(٣) وجهٌ فلمَّا احتجَّ إبليس بأنه أفضل من آدم علمنا أن موضوع الأمر بالسُّجود لآدم على جهة التَّفضيل.

أقول الأمر أوضح من أن يخفى على المتأمل في كلام الله و لا نحتاج الى الإستدلال و ذلك أن إبليس أبى من السجود لآدم لا من السجود لله تعالى ظاهر.

فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْوَجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى

المشار اليه بقوله (هذا) هو إبليس أي قلنا لآدم أن إبليس عدو لك و لزوجك و هو، حواء، فلا يخرجكما باغواءه و وسوسته من الجنة فتشقى بذلك أي بسبب متابعتك آياه و أنما قال فتشقى ولم يقل فتشقى مراعاة للسمع في الآيات.

لا شك في عداوة إبليس لآدم و لأولاده بعده الى يوم القيامة و كان سبب عداوته لآدم أن الله طرده و لعنه و رجمه بعد إمتناعه من السجود و العدو يطلق على الواحد و المشى و المجموع عرف تعالى آدم عداوة إبليس له و لزوجه ليحذراه فلم يغن الحذر عن القدر.

و قيل أن إبليس كان حسوداً فلما رأى آثار نعم الله على آدم حسده و عاداه، و قيل العداوة حصلت من تنافي أصليهما إذ إبليس من النار و آدم من الماء و التراب و النهي في قوله: فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا و أن كان متوجهاً اليهما في الظاهر إلا أنه متوجه الى أولاده أيضاً.

فالنهي له و المراد غيره و أنما أسند الإخراج اليه أي الى إبليس مع أن المخرج هو الله تعالى لأن إبليس كان سبباً له فكأنه المخرج واقعاً فتشقى، يحتمل أن يكون منصوباً بإضمار أن في جواب النهي و أن يكون مرفوعاً على تقدير فأنت تشقى قيل و أسند الشقاء اليه وحده بعد اشتراكه مع زوجه في الإخراج من حيث كان هو المخاطب أولاً و المقصود بالكلام و لأن في ضمن شقاء الرجل شقاء أهله فإختصر الكلام بإسناده اليه مع المحافظة على

الفاصلة، وقيل أراد بالشقاء التعب في طلب الرزق والقوت وذلك راجع الى الرجل لأن الرجل يكد على زوجته.

قال بعضهم قد يوضع الشقاء موضع التعب نحو شقيت في كذا وكل شقاوة تعب وليس كل تعب شقاوة فالتعب أعم من الشقاوة.

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى، وَ أَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَى

هذه الأوصاف للجنة والمعنى ما دمت على طاعتك لي والإمتثال لأمرى لا تجوع فيها أي في الجنة ولا تعرى، فيها من الكسوة وأنك لا تظماً، فيها، أي لا تعطش و لا تضحى أي لا يصيبك حرّ الشمس.

قيل لما كان الشبع والرّي والكسوة والكن هي الأمور التي هي ضرورية للإنسان إقتصر عليها لكونها كافية له وإلا ففي الجنة ضروب، من النعم ما هذه بالنسبة إليها إلا كالعدم، فمنها الأمن من الموت الذي هو مكدر لكل لذة، ومنها رضى الله تعالى عن أهلها وأن لا سقم ولا حزن ولا ألم ولا كبر ولا هرم غل ولا غضب ولا حدث ولا مقادير ولا تكليف وهكذا، وذكرت هذه الأربعة بلفظ النفي وهو الجوع والعري والظما والضحو ليطلق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذر منها حتى يتحامي السبب الموقع فيها كراهة لها إنتهى.

وأعلم أنه ليس في الجنة شمس ولا قمر وإنما فيها نور و ضياء والشمس والقمر والكواكب في سماء الدنيا خاصة بقوله: وَ لَا تَضْحَى، أي لا تبرز للشمس هناك يقال ضحى الرجل يضحى إذا برز للشمس ولا يبعد أن تكون هذه الأمور كالتفسير لقوله فتشقى، كأنه قال فتتعب بعد الخروج عن الجنة والهبوط الى الأرض بتحصيل هذه الأمور في الدنيا ومن المعلوم أن في تحصيلها تعب ومشقة كما هو محسوس عندنا.

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَا يَبُلَى

قال الزاغب، الوسوسة الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت
الحلي والهمس الخفي ويقال لهمس الصائد وسواس إنتهى.

قال بعض المحققين في قوله تعالى: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، أي ألقى
الى قلبه المعنى بصوتٍ خفيٍّ لكنَّ العرب توصل بهذه الحروف كلها الفعل
يقال لما يقع في النفس من عمل الخير إلهامٌ و ما لا خير فيه وسواس ولما يقع
من الخوف إيجاس و لما يقع من تقدير الخير، أملٌ، و لما يقع ممًا لا يكون
للإنسان و لا عليه، خاطر، إنتهى.

و في الدعاء أعوذ بك من وسواس الشيطان و قال بعض الأعلام وسواس
الشيطان غير متناهية فمهما عارضة فيما يوسوس بحجّة أتاه من بابٍ آخر
بوسوسةٍ و لا تدبير في إبطال ما يأتي به من الفساد أقوى و أحسن من اللجأ الى
الله و الإعتصام بحوله و قوته إنتهى.

قيل لمّا وسوس الشيطان اليه ناداه بإسمه ليكون أقبل عليه و أمكن
للإجتمع ثم عرض عليه ما يلقي بقوله: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ الَّذِي
يشعر بالنصح و يؤثر قبول من يخاطبه كقول موسى هل لك الى أن تزكّى،
عرض فيه مناصحة و كان آدم قد رغبه الله في دوام الراحة و إنتظام المعيشة
بقوله: فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا وَرَغْبَةَ إِبْلِيسَ فِي دَوَامِ الرَّاحَةِ بقوله: هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى
شَجَرَةِ الْخُلْدِ فجاءه إبليس من الجهة التي رغبه الله فيها و معنى شجرة الخلد
أي الشجرة التي من أكل منها خلد و حصل له ملكٌ لا يخلق، الشجرة التي نهاه
الله عن تناولها و قد تقدّم الكلام في ماهية تلك الشجرة و إختلافهم فيها فلا
وجه لإعادته.

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
الْجَنَّةِ وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى

أي فأكَل آدم و زوجته حواء منها أي من الشجرة المنهيّة عنها، فبدت، أي
ظهرت لهما أي لآدم و حواء، سواتهما، أي عوراتهما لأنّ ما كان عليهما من
لباس الجنّة نزع عنهما، و إنّما جمع سواتهما و هو الإثنين، لأنّ كلّ شيئين من
شيئين فهو من موضع التثنية جمع لأنّ الإضافة تثنية و قوله: طَفِقَا، يعني ظلًّا و
جعلًا يفعلان و قوله: يَخْصِفَانِ فالخصف خيط الشئ بقطعة من غيره إنهما كانا
يطبقان ورق الجنّة بعضه على بعض و يخيطان بعضه الى بعض ليسترا به
سواتُهُما، و قوله: وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى العصيان هنا ترك الأولى و قوله:
فَغَوَى، أي خاب و خسر يقال غوى يغوي غوايةً و غيًّا إذا خاب قال الشاعر:
فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره و من يغو لا يلوم على الغي لانمأ
أي من يخب، و أمّا البحث في ماهية الشجرة و الجنّة و المعصية ذلك فقد مرّ
في البقرة مفصلاً.

ثُمَّ أَجْتَبِيَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى

الإجتماع الإصطفاء أي أنّ الله تعالى إصطفاه على غيره بعد ذلك و قبل
توبته و هداه الى معرفته و الى الثواب الذي عرضه له و قيل هداه الى نبوته أو
الى كيفية التوبة أو هداه رشده حتّى رجع الى النّدم و يدلّ على ذلك قوله: إنّ
الله اصطفى آدم و نوحاً و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين^(١).

قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا تَيْنَكُم مِّنِّي هُدَى فَمَنِ
اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى

لا شك أنّ الضمير في، إهبطا، ضمير تثنية و هو أمرٌ لآدم و حواء، جعل هبوطهما عقوبتهما، و جميعاً حال منهما، و الضمير في بعضكم و يأتينكم ضمير جمع فكيف التوفيق بينهما، قلت ذكروا في جوابه وجهين:

أحدهما: ما ذهب إليه أبو مسلم و هو أنّ الخطاب في قوله: **أهبطا** لآدم و معه ذريته و لإبليس و معه ذريته فلكونها جنسين صحّ قوله: **أهبطا** و لأجل إشمات كل واحدٍ من الجنسين على الكثرة صحّ قوله فإمّا يأتينكم.

ثانيهما: ما ذهب إليه صاحب الكشاف و هو أنّه لما كان آدم و حواء أصلا للبشر و السبب اللذين منهما تفرّعا جعلاً كأنهما، البشر أنفسهم فخطبا مخاطبتهم فقال فإمّا يأتينكم على لفظ الجماعة إنتهى.

و أمّا قوله: **بعضكم لبعض عدو** فيقول يكفي في توفيقه هذا الظاهر حقّه أن يكون إبليس و الشياطين أعداء للناس و الناس أعداء لهم فإذا إنضاف الى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام إنتهى.

فهذا ما قالوه في حلّ الإشكال ولنا في المقام جواب آخر و هو أن قوله: **أهبطا** دليل على أنّ أقلّ الجمع هو إثنان و على هذا فالمراد بقوله: **أهبطا** هو الجميع بدليل قوله: **جميعاً**، بعد ذلك و قوله: **بعضكم** و قوله: **فإمّا يأتينكم** كلّ ذلك يدلّ على أنّ أقلّ الجمع ما ذكرناه أعني الإثنين و ما زاد عليهما هذا مضافاً الى قوله:

قال الله تعالى: **قُلْنَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** (١).

قال الله تعالى: **قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** (٢).

و قد ثبت أنّ القرآن تفسيره بعضه بعضاً، و الله أعلم.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْفَى

و قوله: **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ قِيلٌ وَالْأَصْلُ وَأَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ**، و، ما، فريدة للتأكيد أي معنى الشَّرْطِ و، ما، هذه مثل لام القسم في دخول التَّوْنِ المؤكِّدة معها، قالوا و **إِنَّمَا جِيءَ** بكلمة الشكِّ إيذاناً بأنَّ إتيان الهدى بطريق الكتاب و الرِّسُولِ ليس بقطعي الوقوع و أنه تعالى أن شاء هدى و أن شاء ترك لا يجب عليه شيء و لك أن تقول إتيان الكتاب و الرِّسُولِ لَمَّا لم يكن لازم التَّحَقُّقِ و الوقوع أبرز في معرض الشكِّ و أكَّدَ صرف الشَّرْطِ و الفعل بالتَّوْنِ للدلالة على رجحان جهة الوقوع و التَّحَقُّقِ إنتهى.

و قال بعض المفسرين معناه أن أتاكم هدىً مني بأن أكلفكم و أنصب لكم الأدلة على ما أمركم به من معرفتي و توحيدني و العمل بطاعتي فمن إتبع أدلتي و عمل بما أمره به فإنه لا يضل في الدنيا و لا يشقى في الآخرة. و نقل عن ابن عباس أنه قال، فمن الله تعالى لمن قرأ القرآن و عمل به ألا يضل في الدنيا و لا يشقى في الآخرة إنتهى.

أَقُولُ دَلَّ الكلام على من إتبع هدى الله فلا يضل و لا يشقى، و هذا ممَّا لا كلام فيه لأحد و إنما الكلام في كيفية المتابعة فأَنْ الهدى يحتاج الى الهادي و الهادي هو الإمام في كلِّ عصرٍ و زمان قال الله تعالى مخاطباً لرسوله: **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ^(١) أثبت الإنذار له ﷺ و الهداية لمن بعده من الأوصياء و لذلك لم يقل **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَ هَادٍ** و الواو في قوله و لكلِّ قومٍ للإستئناف لا للعطف و إلا يلزم أن يكون الرِّسُولُ حيًّا الى يوم القيامة.

أن قلت يمكن أن يكون المراد بالهادي سنَّة الرِّسُولِ و هي باقية بعده.

قلت تفسير السنَّة و تبيَّنَّها يحتاج الى مبيِّن و مفسِّر و لانعني بالهادي بعد الرِّسُولِ إلا هذا فثبت و تحقَّق أنَّ متابعة هدى الله أي دينه لا يمكن بدون الهادي أعني به الوحي.

قال رسول الله ﷺ من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة
الجاهلية.

ولنعم ما قال العطار بالفارسية:

به عقل أين راه مسپر كاندرين ره جهاني عقل چون خر در خلال است
ولذلك إنفقت الشيعة على أن الهداية لا تحصل إلا بواسطة الإمام المعصوم و
قد خاب من إفتري.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
أَعْمَى

قيل المراد بالذكر هو القرآن والأدلة المصوبة على الحق والمعنى من لم
ينظر في ذكري الذي هو القرآن والأدلة المنصوبة على الحق وصدف عنها فأنت
له عيشة ضنكاً والظنك الضيق الصعب يقال منزل ضنك أي ضيق وعيش
ضنك وهو لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث لأن أصله المصدر ثم وصف به قال
الشاعر:

أن يلحقوا أكدر وأن تستلحموا أشدد وأن يلفوا بضعك أنزل
وقال الآخر:

أنّ المنيّة لو تمثّل مثليّت مثلي إذا نزلوا بضعك المنزل
وقال الحسن وابن زيد المعيشة الضنك هو الضريع والزقوم في النار، الضريع
شوك من النار وقال عكرمة والضحاك هو الحرام في الدنيا الذي يؤدي الى
النار، وقيل أنه عذاب القبر رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ و به قال أبو سعيد
و ابن مسعود والسدي وعن ابن عباس نزلت هذه الآية في الأسود بن عبد
الأسد المخزومي والمراد ضغطة القبر تختلف فيه أضلاعه وقال عطاء،
المعيشة الضنك معيشة الكافر لأنه غير مؤمن بالثواب والعقاب، وقال ابن
جبير يسلب القناعة حتى لا يشبع، والأقوال كثيرة وقوله: وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ

أَلْقِيْمَةِ أَعْمَى، قيل أعمى البصر وقيل أعمى الحجّة وقيل أعمى عن جهات الخير لا يهتدي إليها والقول الأول أظهر وأنسب بإطلاق الكلام، وقيل المراد به هو عمى البصيرة، وعلى هذا حملوا الكلام وهو الحقّ بدليل قوله تعالى: وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا^(١).

ومن المعلوم المسلم عند الكلّ أنّ المراد به ليس هو عدم البصر فالمراد عدم البصيرة، وهو المطلوب وإنّما قلنا ليس المراد به عدم البصر إذ لا دليل لنا عقلاً ولا نقلاً على إثبات ذلك بل الدليل ثابت على خلافه فإنّ النّيل الى مقدّمات الآخرة مترتّب على الإيمان والعمل الصّالح وأمّا البصر والسّمع فلا دخل لهما ولا لغيرهما من الأعضاء في الوصول إليها وهذا واضح وإطلاق الأعمى على عمى القلب وهو عدم البصيرة كثير في القرآن بل هو أكثر على إطلاقه على فاقد البصر:

قال الله تعالى: وَ أَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا أَلْعَمَى عَلَى الْهُدَى^(٢).

أي فاستحبوا الضلالة والكفر على الهداية والسعادة:

قال الله تعالى: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ^(٣).

قال الله تعالى: فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا^(٤).

قال الله تعالى: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ^(٥).

قال الله تعالى: وَ مَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ وَ لَا الظُّلُمَاتُ وَ لَا النُّورُ^(٦).

والآيات كثيرة بل نقول أيّ ذنب للأعمى الذي خلقه الله كذلك حتى يقال أنه أعمى في الآخرة أيضاً والحاصل أنّ العقل والنقل لا يساعدان على إرادة

٢- فضلت = ١٧

٤- الأنعام = ١٠٤

٦- فاطر = ١٩

١- الإسراء = ٧٢

٣- الحجّ = ٤٦

٥- الأنعام = ٥٠

الظاهر من الآية هذا، و قد دلت الأخبار أيضاً أن المراد ما ذكرناه من عمى البصيرة من العامة والخاصة فمن العامة ما رواه الحافظ الحسكاني وهو من أعيان العامة في شواهد التنزيل.

بأسناده عن عليّ بن الحسين عن أبيه عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ للمهاجرين والأنصار أحبوا علياً لحبيّ إياه وأكرموا كرامتي والله ما قلت لكم هذا من قبلي ولكن الله أمرني بذلك ويا معشر العرب من أبغض عليّاً من بعدي حشره الله يوم القيامة أعمى أليس له حجة إنتهى.

وبأسناده عن جابر بن عبد الله فخطبنا رسول الله فسمعته يقول من أبغضنا أهل البيت حشره الله يوم القيامة يهودياً إنتهى.

ومن الخاصة ما رواه عليّ بن إبراهيم بأسناده عن معاوية بن عمار قال قلت لأبي عبد الله قول الله: إِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا، قال هي والله للنصاب قال قلت جعلت فداك قد نراهم دهرهم الأطول في كفاية حتى ماتوا قال عليّاً ذاك والله في الرجعة يأكلون الغدرة إنتهى.

وعن أصول الكافي بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا، قال عليّاً: نعني ولاية أمير المؤمنين عليّاً قلت ونحشره يوم القيامة أعمى، قال عليّاً: يعني أعمى البصر في الآخرة أعمى القلب في الدنيا عن ولاية أمير المؤمنين قال وهو متحيز في القيامة يقول لم حشرتني أعمى و قد كنت بصيراً قال: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا، يعني الأئمة، وكذلك اليوم تنسى الحديث.

وعن الفقيه بأسناده عن معاوية بن عمار قال سألت ابا عبد الله عن رجل لم يحج قط وله مال فقال: هو ممن قال الله عز وجل: وَنَحْشُرُهُ

يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى فَقُلْتُ سَبْحَانَ اللَّهِ أَعْمَى فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْمَاهُ اللَّهُ عَنْ طَرِيقِ الْخَيْرِ انْتَهَى.

وفي حديثٍ آخر رواه في الكافي، أعماه الله عن طريق الحق، وفي حديثٍ آخر عن طريق الجنة و يحتمل أن يكون المراد بقوله و نحشره يوم القيامة معناه الظاهر جزاءً بما أعرض عن ذكر الله في الدنيا ولكنه بعيداً عن مساق الأيـان المذكورة و الله أعلم بما أراد.

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى

قال مجاهد معنى قول لم حشرتني أعمى، أي لا حجة لي كنت عالماً بحجتي بصيراً بها أحاج عن نفسي في الدنيا إنتهى.

وقيل سأل العبد ربه عن السبب الذي إستحق به أن يحشر أعمى لأنه جهله و ظن أنه لا ذنب له فقال له جل ذكره كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، أو أعرضت عنها و كذلك اليوم تنسى، أي تترك في العذاب و المقصود أن آياتنا أتتك واضحة مستيسرة فلم تنظر إليها بعين المعترف و لم تتبصر و عميت عنها فكذاك اليوم نتركك على عماك و لا نزيل غطاؤه عن عينيك قاله الرّمخسري

و يظهر من كلامه أنه حمل الأعمى على فاقد البصر يوم القيامة لا على فاقد البصيرة بدليل قوله (عن عينيك) و لا مشاحة فيه و أما الآيات في قوله: أَتَتْكَ آيَاتُنَا، فالجمهور على أن المراد بها الأدلة و الحجج التي أتى بها النبي من القرآن و المعجزات و الكرامات و بالجملة جميع الدلائل الواضحة المرشدة إلى طريق الحق من التشريعات و التكوينيات و قوله: فَنَسِيْتَهَا فالنسيان هو ترك الإنسان ضبط ما إستودع، أما لضعف قلبه، و أما عن غفلة، و أما عن قصدٍ حتى ينحذف عن القلب ذكره و على هذا فالمعنى تركتها أي تركت الآيات ولم تتبصر فيها فكذاك اليوم تترك و يستفاد من هذا الكلام أن الإنسان مأمورٌ عقلاً

بالتفكير والتدبر في الآيات ليحصل له التبصر في دينه وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان لا الرؤية بالبصر لأنها موجودة في الحيوان أيضاً إذا عرفت هذا فنقول:

المراد بالآيات في قوله: **أَيَاتُنَا** وأن كان على قول الجمهور معناها العام الشامل للتشريعات والتكوينيات إلا أنه يظهر من الأخبار أن في رأس الآيات أوصياء النبي وهم الأئمة الأثني عشر بل هم المرادون في الحقيقة منها فمن ترك ولايتهم ومتابعتهم في الدنيا ينسى و يترك في الآخرة وأن لم يترك ينسى سائر الآيات في الدنيا.

روي في الكافي بأسناده عن داوود الرقي قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله تعالى: **وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ** (١) قال **عليه السلام**: الآيات الأئمة والنذر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين إنتهى.

وأسناده عن أبي جعفر **عليه السلام** في قول الله تعالى: **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا** يعني الأوصياء كلهم إنتهى.

وأسناده عن أبي جعفر **عليه السلام** قال: قلت له جعلت فداك أن الشيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية: **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ** (٢) قال **عليه السلام**: ذلك إني إن شئت أخبرتهم وإن شئت لم أخبرهم قال **عليه السلام** لكنني أخبرك بتفسيرها قلت عمّ يتسألون قال فقال هي في أمير المؤمنين يقول ما لله تعالى آية هي أكبر مني ولا لله من نبي أعظم مني إنتهى.

أقول والسّر في ذلك هو أن جميع الآيات في صدورهم فمن لم يعرفهم لم يعرفها.

فقد روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام عن تفسير قوله تعالى: **بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** ^(١) قال عليه السلام أما والله يا أبا محمد ما قال بين دفتي المصحف قلت من هم جعلت فداك قال عليه السلام من عسى أن يكونوا غيرنا إنتهى والأحاديث نقلناها عن الكافي أبواب الحجج.

أقول ولذلك لا تقبل الأعمال إلا بولايتهم وهذا الذي ذكرناه هو تأويل الآية فإفهم.

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِرْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى

عد الله تعالى من لم يؤمن بالآيات من المسرفين على أنفسهم وهددهم بقوله ولعذاب الآخرة أشد، أنواع العذاب، وأبقى، لأنه لا زوال له هذا تفسير ألفاظ الآية وأما تأويلها فقد ظهر مما ذكرناه في معنى الآيات وقلنا أن المراد بها الأوصياء وأما قلنا ذلك لأن الإيمان والإعتقاد بظواهر الآيات كان ثابتاً في صدر الإسلام لأكثر المسلمين ومن أظهر مصاديقهم الخوارج، ولتفصيل الكلام فيه موضع آخر فأتانا لا نشك في أن الإيمان لا يتحقق إلا بالولاية.

■

أَقَلَمَ يَهْدِي لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ
 يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ
 لِأُولَى النَّهْيِ (١٢٧) وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
 لَكَانَ لِرِزَامًا وَاجِلٌ مُسَمًّى (١٢٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا
 يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
 وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ
 النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٢٩) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ
 إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى
 (١٣٠) وَ أَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا
 نَسْتَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى
 (١٣١) وَ قَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بآيَةٌ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ
 تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٢) وَ لَوْ
 أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا
 أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 نَذَلَّ وَ نَخْزَى (١٣٣) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَ مَنْ
 أَهْتَدَى (١٣٤)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٦

المجلد الحادي عشر

◀ اللغة

من الْقُرُونِ: هي جمع قرن و القرن القوم المقترنون في زمن واحد و جمعه

قرون.

الْتَهَى: بَضَمَ التُّونَ واحدها نَهْيَةٌ بَضَمَ التُّونَ ايضاً و هى العقل التَّاهِي عن القبائح.

أَنَايَ اللَّيْلِ: ساعاته واحدها إنى.

زَهْرَةٌ: بفتح الهاء و سكونها الأنوار التي تروق عند الرُّؤية و من ذلك قيل الكوكب يزهر و الباقي واضح.

الإعراب

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ فِي فاعله وجهان:

أحدهما: ضمير إسم الله أي أفلم يبين الله لهم.

الثاني: أن يكون الفاعل ما دل عليه.

أَهْلَكُنَا، أي إهلاكنَا و كَمْ في موضع نصب بأهْلَكُنَا أي كم قرناً أهْلَكُنَا يَمْشُونَ حال من الضمير المجرور في لهم، أو حال من المفعول في، أهْلَكُنَا، أي أهْلَكُنَا في حال غفلتهم و أَجَلٌ مُسَمًّى هو معطوف على كلمة و اللزَام مصدر في موضع إسم الفاعل و يجوز أن يكون جمع لازم مثل قائم و قيام و مِن أَنَايَ اللَّيْلِ هو في موضع نصب بسبب الثانية زَهْرَةٌ في نصبه أوجه:

أحدها: أن يكون بفعل محذوف دل عليه، متعناً، أي جعلنا لهم زهرة.

الثاني: أن يكون بدلاً من موضع، به.

الثالث: أن يكون بدلاً من أزواج و التقدير ذوي زهرة محذوف المضاف مَنْ

أَصْحَابٌ من مبتدأ و خبر و الجملة في موضع نصب و لا تكون بمعنى الذي، إذ لا عائد عليها.

التفسير

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

قرأ الجمهور، يهد، بالياء و قرأ فرقة منهم ابن عباس بالثون و بَخَّهم الله تعالى و ذكَّهم العبر بما تقدَّم من القرون و الأمم السَّالفة قِيلَ أَنَّ قريشاً كانت تتَّبِحر إلى الشَّام فتَمُر بمساكن عاد و ثمود فتري آثار إهلاك الله إياهم فنبَّهم الله بذلك على معرفته و توحيده و أعلمهم أَنَّ إهلاكهم لم يكن إلا بتكذيبهم الرُّسل و تركهم الإيمان بالله و إتباع رسله، فقولُه: كَمْ أَهْلَكْنَا، قد دلَّ على هلاك القرون فالتَّقدير أفلم نبيِّن لهم هلاك من أهلكنا من القرون و محو آثارهم فيتَّعظوا بذلك، يمشون في مساكنهم، و الضَّمير في يمشون عائد على الكفَّار الذين و بَخَّهم الله في الآية فأنَّهم كانوا يمشون في مساكنهم أي في مساكن الذين أهلكهم الله لأنَّ في ذلك لآياتٍ و علاماتٍ لذوي العقول السَّليمة و ذلك لأنَّ الله تعالى لم يهلكهم إلا لتكذيبهم الرُّسل و ترك الإيمان و فعل المعاصي و حكم الأمثال واحد.

و لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِرِزَامًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى

قيل في الكلام تقديم وتأخير و تقديره ولولا كلمة سبقت من ربك و أجل مسمى لكان لزاماً، معناه لولا ما سبق من وعد الله بأنَّ السَّاعة تقوم في وقتٍ بعينه و أنَّ المكلف له أجل مقدَّر معيَّن لكان هلاكهم لزاماً أي لازماً أبداً و قيل معناه فيصلاً يلزم كلَّ إنسانٍ طائره أن خيراً فخييراً و أن شراً فشرراً و قال قوم عذاب اللِّزام كان يوم بدر قتل الله في الكفَّار ولولا ما قدَّر الله من آجال الباقيم و وعدهم من عذاب الآخرة لكان لازماً لهم أبداً في سائر الأزمان.

أقول بيِّن الله تعالى الوجه الذي لأجله أحرَّ العذاب عن هذه الأمة و الكلمة السَّابقة هي المعدَّة بتأخير جزائهم قال تعالى: **بِئْسَ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ** هكذا قيل، و الذي يقوِّي في النَّفس أنَّ المراد بالكلمة هو قوله تعالى: **وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَعْفِفُونَ** (١).

و أما قولهم أن المراد بالكلمة التي سبقت هو قوله: **بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ** فهو إشارة إلى عذاب الآخرة و هو يشمل جميع الناس و لا إختصاص له بمن خالف النبي في الدنيا فإن المسلم الفاسق أيضاً يعذب في الآخرة، و الظاهر أن الآية بصدد العذاب في الدنيا ألا ترى أن الله يقول و كم أهلكتنا من القرون يعني في الدنيا ثم يقول ولولا كلمة سبقت من ربك و أجلّ مسمى لكان ذلك الإهلاك لازماً لهم أي لكفار قريش أيضاً، فتقدير الكلام أن الكلمة التي سبقت منّا هي المانعة من نزول العذاب عليهم في الدنيا و هي قوله و ما كان الله ليعذبهم و أنت فيهم و لأجل هذا لم ينزل عليهم العذاب في حياة النبي مع أنهم كانوا أحبب و أفسق من قوم عاد و ثمود ثم أمر الله نبيه بالصبر على ما يقول مشركوا قريش و هم الذين عاد الضمير في قوله أفلم يهد لهم، عليهم و كانوا يقولون أشياء قبيحة ممّا حكى الله عنهم في كتابه فأمّر الله تعالى نبيه بالصبر على أذاهم و الإحتمال لما يصدر من سوء أخلاقهم فقال.

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ سَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهَا وَ مِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ اطَّرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ
 أمره بالصبر على ما يقولون من كفرهم بتوحيد الله و جحدهم لنبوته و أذاهم إياه بأقوالهم و أفعالهم ثم أمره بتسبيح ربه قبل طلوع الشمس، يعني صلاة الفجر و قبل غروبها يعني صلاة العصر و من أناء الليل، يعني المغرب و العشاء و أطراف النهار يعني صلاة الظهر و قد أجمع المفسرون على أن المراد من الآية إقامة الصلوات الخمس و هي الصبح و الظهر و العصر و المغرب و العشاء و أنت ترى أن الآية تدلّ على سعة الوقت و عدم الإختصاص بأول الوقت أو آخره إلا أن الروايات و الشُّهرة خصصت الظهر من أوله و العصر من آخره و كذا العشائين بمقدار إدائها و على أن آخر وقت صلوة الفجر طلوع

الشَّمْسُ و تفصيل الكلام في الفقه، و أما قوله: **و مِنْ أَنَايِ اللَّيْلِ**، من، ظرفية بمعنى، في، أو إستدائية و قدّم الجار هنا لزيادة التحريص و التّرجيب لإختصاصه بمزيد الفضل فأَنَّ القلب فيه أجمع لتفرغه من هموم المعاش أو أنّ النَّفس أميل الى طلب الإستراحة من تعب الكد في النهار فكانت العبادة فيه أحمز و أصعب و لذلك.

قال الله تعالى: **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلًا** (١).

و نقل عن ابن عباس أنه قال المراد من آناء الليل صلوة الليل كله، و أما قوله و أطراف النهار، قيل المراد صلوة الفجر و المغرب على التكرار في الفجر لشدة الإهتمام فيها، و جعل المغرب طرف النهار على ضربٍ من المجاز لشدة قربها منه لأنّ مبدأ وقتها إستتار القرص كما قيل أو لأنّ ما قبل ذهاب الشفق داخل في النهار و ذكر بعضهم أنّ المراد بأطراف النهار صلوة الظُّهر و ذلك لأنّ وقتها عند الزوال طرف النصف الأوّل نهايةً و طرف الثاني بداية و قيل صلوة العصر لأنّها الوسطى و إنّما قال أطراف النهار بصيغة الجمع لأنّه يصدق على كلّ ساعةٍ من النّصف الأخير أنّها طرف، و قيل فالنهار في معنى الجَمع، و قيل أنّه أراد طرف أوّل النّصف الأوّل و آخر النّصف الأوّل أوّل النّصف الأخير و آخر النّصف الأخير جمع، و قوله: **لَعَلَّكَ تَرْضَى** معناه سبّح في هذه الأوقات يعطيك ربّك ما ترضى به نفسك و قيل معناه إفعل يا محمّد ما أمرتك به لكي ترضى بما يعطيك الله من الثّواب على ذلك.

و لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَبِالتَّسْبِيحِ نَهَاہُ عَنِ مَدِّ البَصْرِ إِلَى مَا مَتَّعَ بِهِ الكُفْرَةَ، يُقَالُ مَدَّ نَظْرَهُ إِلَيْهِ إِذَا أَدَامَ النَّظْرَ إِلَيْهِ، المَعْنَى لَا تَعَجَبْ يَا مُحَمَّدٌ مِمَّا مَتَّعْنَاہُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ وَمَنَازِلَ وَمَرَاکِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَطَاعِمٍ فَإِنَّمَا ذَٰلِكَ کَلَّمَهُ کَالزَّهْرَةِ الَّتِي لَا بَقَاءَ لَهَا وَلَا دَوَامَ وَأَنَّهَا عَمَّا قَلِيلٍ تَفْنَى وَتَزُولُ وَالخطابُ وَ أَنَّ کَانَ ظَاهِرًا لِلرَّسُولِ إِلَّا أَنَّ المَرَادَ بِهِ الْأُمَّةَ لِأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ کَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ النَّظْرِ فِي زِينَةِ الدُّنْيَا وَزَخْرَفِهَا بَلْ نَقُولُ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا بَعِينَ الحِسْرَةَ أَبْدَأُ وَهُوَ القَائِلُ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا أُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَ کَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَدِيدَ النَّهْيِ عَنِ الإِغْتِرَابِ بِهَا وَالنَّظَرِ إِلَى زَخْرَفِهَا وَقَوْلُهُ: وَلَا تَمُدَّنَّ، أَبْلَغُ مِنْ، لَا تَنْظُرْ، لِأَنَّ مَدَّ البَصْرِ يَقْتَضِي الإِدَامَةَ وَالإِسْتِحْسَانَ بِخِلَافِ النَّظْرِ فَإِنَّهُ قَدْ لَا يَكُونُ ذَٰلِكَ مَعَهُ وَ مِنْ المَعْلُومِ أَنَّ العَيْنَ لَا تَمُدُّ، فَهُوَ عَلَى حَذْفِ مَضَافٍ أَيْ لَا تَمُدَّنْ بِنَظَرِ عَيْنِكَ وَ النَّظْرُ غَيْرُ المَمْدُدِّ مَعْقُوفٌ عَنْهُ وَ ذَٰلِكَ مِثْلُ مَنْ فَاجَأَ الشَّيْءَ ثُمَّ غَضَّ بَصْرَهُ وَقَوْلُهُ: أَرْوَأَجًا مِنْهُمْ أَي أَشْكَالًا مِنَ المَزَاجِجَةِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَ هِيَ المَشَاكِلَةُ وَ ذَٰلِكَ أَنَّهُمْ أَشْكَالٌ فِي الذَّهَابِ عَنِ الصُّوَابِ زَهْرَةً الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا الجَمْهُورُ عَلَى سَكُونِ الهَاءِ وَ أَجَازَ الرَّمْخَشْرِي فِي الهَاءِ الفَتْحِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ تَكُونُ جَمْعُ زَاهِرٍ نَحْوُ كُفْرَةٍ وَ كَافِرٍ وَصَفْهُمُ بِأَنَّهُمْ زَاهِرٌ وَ هَذِهِ الدُّنْيَا لَصْفَاءُ أَلْوَانِهِمْ مِمَّا يَلْهَوْنَ وَ يَتَنَعَمُونَ وَ تَهَلَّلَ وَجُوهُهُمْ وَ بَهَاءَ زَيْهَمُ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ المُؤْمِنُونَ وَ الصُّلْحَاءُ مِنْ شُحُوبِ الْأَلْوَانِ وَ التَّقَشْفُ فِي الثِّيَابِ وَ مَعْنَى (لِنَفْسِنَهُمْ) أَي لِنَبْلُوهُمْ وَ نَخْتَبِرُهُمْ حَتَّى يَسْتَوْجِبُوا العَذَابَ لِوُجُودِ الكُفْرَانِ مِنْهُمْ أَوْ لِنَعَذِّبَهُمْ فِي الآخِرَةِ بِسَبَبِهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى يَعْنِي الَّذِي وَعَدَكَ بِهِ فِي الآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ وَ أَبْقَى مِمَّا مَتَّعْنَا بِهِ هَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا.

وَ قَالَ بَعْضُ المَفْسِّرِينَ مَعْنَاهُ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى لِهَؤُلَاءِ الكُفَّارِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَيْ مَا ذَخَّرْ لَهُمْ مِنَ المَوَاهِبِ فِي الآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا مَتَّعَ هَؤُلَاءِ فِي الدُّنْيَا وَ أَبْقَى وَ أَدْوَمَ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَ قِيلَ مَعْنَاهُ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَ أَنَّ كَانَ قَلِيلًا خَيْرٌ

مما جمعوا وإن كان كثيراً لحليّة ذلك و حرمة هذا و أول الأقوال أحسنها و يدلّ عليه سياق الكلام كما لا يخفى على المتأمل.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ
الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى

قيل المراد به أهل بيتك و أهل دينك فدخلوا كلهم في الجملة، (و أصطبر عليها) بالاستعانة بها على الصبر عن محارم الله لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا الخطاب للنبي و المراد به جميع الخلق فأَنَّ الله تعالى يرزق خلقه و لا يسترزقهم فيكون أبلغ في المنّة، و العاقبة للتقوى، يعني العاقبة المحمودة لمن إتقى معاصي الله و أجنب محارمه قاله الشيخ في التبيان.

أقول ظاهر الآية و جوب أهله خاصّة بالصلوة و لا يبعد أن يفهم من الآية و جوبها على الأمر فيها أيضاً و لكن ترك التصريح بذلك اعتماداً على ظهور كونه مأموراً بالإصطبار عليها أي أقبل أنت و أهلك على الصلاة و عبادة الله و إستعينوا بها على قضاء حوائجكم كما قال تعالى: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ (١) و لا تهتمّ بالرّزق و المعيشة فإنه يأتيك من عندنا و نحن نسوقه إليك ففرغ بالك لأمر الأخرة.

و يدلّ على ذلك ما رواه في غوالي اللثالي عن الباقر عليه السلام أنه قال: أمر الله أن يخصّ أهله دون الناس ليعلم الناس أنّ لأهله منزلة ليست للناس فأمرهم مع الناس عامّة ثمّ أمرهم خاصّة إنتهى.
و في تفسير علي بن إبراهيم في هذه الآية، فإنّ الله أمره أن يخصّ أهله دون الناس ليعلم الناس أنّ لأهل محمّد ﷺ عند الله منزلة خاصّة ليست للناس إذ أمرهم مع الناس ثمّ أمرهم خاصّة، فلما

أنزل هذه الآية كان رسول الله ﷺ يجيء كل يوم عند صلاة الفجر حتى يأتي باب علي و فاطمة فيقول السلام عليكم ورحمة الله و بركاته فيقول علي و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام و عليك السلام يا رسول الله ورحمة الله و بركاته ثم يأخذ بعضادتي الباب فيقول الصلاة الصلاة يرحمكم الله أنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً فلم يزل يفعل ذلك كل يوم إذا شهد المدينة حتى فارق الدنيا و قال أبو حمراء خادم النبي أنا شهدته يفعل ذلك إنتهى.

و فيه أيضاً و أمر أهلك بالصلاة أي أمتك و إصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك و العاقبة للمتقوى، قال للمتقين إنتهى.

و في عيون الأخبار مثل ذلك و لكن فيه و كان يجيء إلى بابهم بعد نزول الآية تسعة أشهر كل يوم عند حضور كل صلاة خمس مرات إنتهى و الأخبار في الباب كثيرة و فضيلة الصلاة معلومة.

قال بعض العلماء، أعلم أنه يحتمل أن يكون المقصود ترك التكسب بالكلية و التوجه إلى الأمر بالمعروف و التصبر على مشاققة الصلاة و الأمر بها و عدم تكليفه برزق نفسه و عياله و يكون ذلك من خصائصه ﷺ لأنه قد جعل له في الأموال سهماً.

و يحتمل على بعد أن يكون هذا عام لكل من توجه إلى الله و أقبل إلى عبادة ربه و يرشد إليه قوله تعالى: **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (١).**

و روي عنه ﷺ أنه قال: من طلب العلم تكفل الله برزقه و أمثال ذلك من الأحاديث إنتهى.

أقول هذه الأخبار لا يمكن المساعدة عليها على إطلاقها لأن ترك طلب الرزق مرجوحٌ سيّما بالنسبة إلى من ليس له وجه معيشة بالكلية بل يوشك أن يكون حراماً.

وقد ورد عنهم عليهم السلام أنه تعالى لا يستجيب دعاء الرجل يجلس في بيته ويقول ربّ أرزقني ولا يخرج ولا يطلب الرزق رواه في الكافي.

وروي الشيخ عليه السلام عن علي بن عبد العزيز قال قال ما فعل عمر بن مسلم قلت جعلت فداك قد أقبل على العبادة وترك فقال ويحه أما علم أنّ تارك الطلب لا يستجاب له أنّ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت و من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا قد يكفيننا فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليهم ما حملكم على ما صنعتم فقالوا يارسول الله تكفل الله لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة فقال صلى الله عليه وآله وسلم أنه من فعل ذلك لم يستجيب له عليكم بالطلب إنتهى.

والأخبار الواردة في الحث على الطلب وتحصيل المعيشة بالتكسب أكثر من أن تحصى مضافاً إلى أن الطلب من سنن الأنبياء عليهم السلام.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: كان أمير المؤمنين يضرب بالمر و يستخرج الأرضين و أعتق عليه السلام ألف مملوك من ماله و الآيات و الأخبار المتضمنة لكون الرزق من الله و أنه هو المقدر له لا تنافي الرّجحان الطلب كما لا يخفى.

نعم الحرص في طلب الرزق مدمومٌ لأنّ الرزق مقسوم قسّمه عادلٌ بين الخلق و ضمنه فالحرص لماذا، و الأظهر في معنى الآية أنّ

المراد بها ليس ترك الطلّب و التّكسب بالكلية لأنّه مرجوحٌ في الجملة قطعاً فالمعنى لا تهتمّ لطلب الرّزق بل يكفك أدنى طلبٍ و الله تعالى هو الذي يسوق الرّزق إليك و لا تطلب الفضول كما يفعله من أقبل على الدّنيا حرصاً عليها و لكن إهتمّ لطلب الآخرة سيّما الأمور الواهية قال عليه السلام ليس منّا من ترك دنياه لأخرته و لا أخرته لدنياه. و روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: وليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيّع و دون طلب الحريص الرّاضي بدنياه المطمئن إليها و لكن أنزل نفسك بمنزلة المنصف المتّعفف ترّفّع عن منزلة الواهن الضعيف و تكتسب ما لا بدّ منه إنتهى.

أقول و بهذا الحديث و امثاله يجمع بين الأخبار الواردة من الطرفين فإنّ الله تعالى قد جعل هذه الآية وسطاً في جميع الأمور المتعلّقة بالنشأتين.

وَ قَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى.

قالوا، أي قال الكفّار قيل المراد بهم كفّار مكّة، لولا يأتينا بآيةٍ من ربّه، أي لولا يأتينا محمداً صلّى الله عليه وسلّم بآيةٍ و علامةٍ توجب العلم الضّروري بنبوته أو بآيةٍ ظاهرة كالنّاقة و العصا، أو هلاً يأتينا بالآيات التي نقرّحها كما أتى الأنبياء من قبله فقال تعالى في جوابهم.

أَوْ لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى يريد التّوراة و الإنجيل و الكتب المتقدّمة و الإستفهام للإنكار أي بلى أنتهم بيّنة ما في الكتب السماوية الدالّة على نبوّته و لكنهم أخفوها و أنكروها بألستهم كما هو شأن المنافق معناه، أولم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا و إقرّحوا الآيات فما يؤمنهم أن أنتهم الآيات إن يكون حالهم حال أولئك، و الأوّل أنسب بقوله: مَا فِي

الصُّحُفِ الْأُولَى، لَأَنَّ فِيهَا الْبَشَارَةَ بِنُبُوءِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ كَانُوا عَالَمِينَ بِهَا إِلَّا أَنَّهُمْ لِعِنَادِهِمْ أَنْكَرُوهَا لِسَانًا مَعَ عِلْمِهِمْ بِهَا قِطْعًا كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمَعَانِدِ وَآيَةٌ آيَةٌ أَظْهَرَ وَأَجْلَى مِمَّا فِيهَا مِنَ الْبَشَارَةِ صَرِيحًا هَذَا مِضْطَافًا إِلَى الْمَعْجَزَاتِ الَّتِي أَتَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ ظَاهِرًا لَهُمْ.

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَا هُم بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَتُنَبِّئَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى

أي ولو أهلكنا الكفار بعذاب كعذاب عاد و ثمود و قوم نوح و غيرهم، من قبله، أي من قبل نزول القرآن، أو من قبل أن نبعث الرسول إليهم، لقالوا، غداً يوم القيامة ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا، يدعوننا إلى الله و يأمرنا بتوحيده، فتنبع، أولئك و آياتك من قبل أن نذل و نخزي، في الدنيا و الآخرة.

قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَ
مَنْ أَهْتَدَى

التربص الإنتظار و الصراط السوي هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه خاطب الله نبيه ظاهراً و المراد به الأمة باطناً أمره الله أن يقول لهؤلاء الكفار المعاندين الذين أنكروا التوحيد و النبوة، كل متربص، أي كل واحد منا و منكم متربص دوائر الزمان و لمن يكون النصر و الغلبة فتربصوا أنتم أي فإنتظروا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي و من إهتدى، أي فستعلمون بالنصر من إهتدى إلى دين الحق، و قيل فستعلمون يوم القيامة من إهتدى إلى طريق الجنة و في هذا ضربٌ من الوعيد و التهديد و التخويف، و كلمة من، هاهنا إستفهام في موضع رفع بالإبتداء و المعنى فستعلمون أصحاب الصراط السوي أم أنتم.

و قال الفراء أُنْ معنى، من أصحاب الصراط السوي، من لم يضلّ و أنْ معنى
وَمِنْ أَهْتَدَى من ضلّ ثم إهتدى إنتهى وكيف كان فالمقصود من الآية نحن
نتربص بكم وعد الله لنا فيكم و أنتم تتربصون بنا أن نموت فتستريحوا،

وقد روي الحافظ الحسكاني بأسناده عن أبي صالح عن ابن عباس
أنه قال عليه السلام: أصحاب الصراط السوي، هو والله محمّد وأهل بيته، و
الصراط الطريق الواضح الذي لا عوج فيه، و من إهتدى فهم
أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إنتهى.

و في كتاب كشف المحجّة لابن طاووس رحمته الله حديث طويل، عن
أميرالمؤمنين وفيه قيل و من الولي يارسول الله قال وليكم في هذا
الزمان أنابعدي وصيتي و من وصي لكلّ زمان حجج الله لكيلا
يقولون كما قال الضلال من قبلكم فارقمهم نبيهم، ربّنا لو لا أرسلت
إلينا رسولا و أنما كان تمام ضلالتهم جهالتهم بالأيات و هم
الأوصياء فأجابهم الله بقوله: قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا إنتهى.

و في تفسير علي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام: و
الله نحن السبيل الذي أمركم الله بإتباعه و نحن و الله الصراط
المستقيم و نحن و الله الذين أمر الله بطاعتهم فمن شاء فليأخذ هنا
و من شاء فليأخذ هنا لا تجدون و الله عنّا محيصاً إنتهى.

أقول ختامه مسك و فى ذلك فليتنافس المتنافسون هذا آخر الكلام في تفسير
الجزء السادس عشر من هذا السفر الجليل.



الجزء

السابع عشر

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ
 مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ
 مُخَدَّثًا إِلَّا اسْتَغْمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً
 قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا
 إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ
 (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ
 وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ
 بَلْ أَفْتَرِيهِ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
 الْأَوْلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا
 أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا
 نُوْحِي إِيَّيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
 تَعْلَمُونَ (٧) وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ
 وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ الْوَعْدَ
 فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَ مَنْ نَشَاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)
 لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
 (١٠) وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ

أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا
بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَ
أَرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)
فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا
خَامِدِينَ (١٥) وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ
مَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا
لَا تَخَذَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ تُقَدِّفُ
بِالْحَقِّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ
لَكُمْ أَلْوَيْلٌ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَ لَهُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ
الَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)

◀ اللّغة

أَقْتَرَبَ: الإقتراب قصر مدّة الشيء بالإضافة الى ما مضى زمانه و حقيقة
القرب قلّة ما بين الشيئين يقال قَرَبَ ما بينهما تقريباً إذا قلل ما بينهما من مدّة
أو مسافة أو أيّ فاصلة و القرب قد يكون في الزّمان، و في المكان، و في
الحال، و قد قيل كلّ آتٍ قريب.

في عَفَلَةٍ: الغفلة ذهاب المعنى عن النّفس و نقيضها اليقظة.
مُحَدِّثٌ: بتنزيل القرآن سورة بعد سورة و آية بعد آية و الدّكر القرآن.
لأهية: اللّهُ الهزل الممتّع أي طالبة للهُو.
أَسْرُوا: أي أخفوا.

أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ: أي تخاليط رؤيا رآها في المنام.
 أَفْتَرَيْهِ: يقال إفتري أي تخرصه وافتعله.
 فَفَقَصْمُنَا: القصم كسر الشيء الصلب.
 بِأَسْنَاءٍ: البأس الشدة والعذاب.
 يَرَّ كُضُونٌ: الرُّكُض ضرب الذابة بالرجل.
 خَامِدِينَ: خمدت النار طفتت.
 فَيَدْمُغُهُ: دماغه أصاب دماغه نحو كبده و رأسه.
 زَاهِقٌ: يقال ذهب أي هلك.

◀ الإعراب

وَهُمْ فِي عَقْلَةٍ هَم، مبتدأ و مُعْرَضُونَ الخبر و في غفلة حال في، معروضون و يجوز أن يكون خبراً تانياً مُحَدَّثٍ محمول على لفظ، ذكر، ولو رفع على موضع من ذكر، جاز، مِنْ رَبِّهِمْ صفة لذكر أو حال من الضمير في محدث لأهية حال من الضمير في، يلعبون، وقيل حال من الواو في إستمعوه الَّذِينَ ظَلَمُوا موضعه الرفع لأنه بدل من الواو في، وَ أَسْرُوا، أو هو مبتدأ والخبر، هل هذا، أو هو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين ظلموا، أو منصوب على إضمار، أعني، أو مجرور على أنه صفة للناس في آسْمَاءٍ حال من القول أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ أي هذا أضغاث أحلام أَهْلِكْنَاهَا صفة لقربة إما على اللفظ أو على الموضع جَسَدًا هو مفرد في موضع الجمع و المضاف محذوف أي ذوي أجساد فيه ذِكْرُكُمْ الجملة صفة لكتاب و ذكركم، مضاف الى المفعول أي ذكرنا أيكم إِذَا هُمْ مبتدأ و يَرَّ كُضُونٌ الخبر، وإذا، ظرف للخبر، تِلْكَ دَعْوَاهُمْ تلك في موضع رفع إسم زالت و دعواهم الخبر و يجوز العكس حَصِيدًا مفعول ثانٍ خَامِدِينَ صفة لحصيد لِأَعْيُنٍ حال من الفاعل في، خلقنا، و، ما، في مِمَّا تَصِفُونَ بمعنى الذي و نكرة موصوفة موصوفة أو مصدرية يُسَبِّحُونَ

يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون حالاً من ضمير الفاعل قبلها ولا يَفْتَرُونَ حال من ضمير الفاعل في، يسحبون.

◀ التفسير

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ

قيل أنه لما ذكر قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا^(١) قال مشركوا قريش أن محمداً يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال وليس بصحيح وأن صحَّ فيه بعدُ فأنزل الله تعالى: أِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ الآية وإقترب إفتعل بمعنى الفعل المجرد وهو، قرب، كما تقول إرتقب و رقب، وقيل هو أي إفتعل أبلغ من قرب للزيادة في البناء، والمراد بالناس مشركوا مكة، وقيل عامٌّ في منكري البعث وإقترب الحساب إقترب وقته والحساب في اللغة إخراج الكمية من مبلغ العدد وقد يطلق على المحسوب وجعل ذلك إقتراباً لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ وأن طال وقت إنتظاره فهو قريب لتحقق وقوعه ولذلك قيل أنَّ المستقبل المحقَّق الوقوع في حكم الماضي وأنما البعيد هو الذي إنقضى أو هو مقترَّب عند الله كقوله: وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ^(٢) أو بإعتبار ما بقى من الدنيا فإنه أقصر وأقلَّ مما مضى وفي الحديث قال رسول الله ﷺ بعثت أنا و السَّاعة كهاتين، قال الشَّاعر:

فما زال من يهواه أقرب من غدٍ و زال من يخشاه أبعد من أمس

وقوله: لِلنَّاسِ، متعلِّق بإقترب و هذه اللام إما أن تكون صلة لإقترب أو تأكيداً لإضافة الحساب اليهم كما تقول أرف للحي رحيلهم والأصل أرف رحيل الحق، والواو في وَ هُمْ واو الحال أخبر الله تعالى عنهم بخبرين ظاهرهما التَّنَافِي لأنَّ الغفلة عن الشَّيْءِ و الإعراض عنه متنافيان لكن يجمع بينهما باختلاف حالين أخبر عنهم أولاً أَنَّهُمْ لا يَتَّفَكَّرُونَ في عاقبته بل هم غافلون

بَابُ التَّوْقَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

عَمَّا يُؤَلِّمُ بِهِ أُولَئِكَ يَوْمَئِذٍ يَخَابِرُونَ إِذْ يَأْتِي السَّمَاءَ دُخَانٌ مُسَمَّى السَّاعِةِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَإِذْ يَأْتِي السَّمَاءَ دُخَانٌ مُسَمَّى السَّاعِةِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَإِذْ يَأْتِي السَّمَاءَ دُخَانٌ مُسَمَّى السَّاعِةِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

عَمَّا يُؤَلِّمُ بِهِ أُولَئِكَ يَوْمَئِذٍ يَخَابِرُونَ إِذْ يَأْتِي السَّمَاءَ دُخَانٌ مُسَمَّى السَّاعِةِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

عَمَّا يُؤَلِّمُ بِهِ أُولَئِكَ يَوْمَئِذٍ يَخَابِرُونَ إِذْ يَأْتِي السَّمَاءَ دُخَانٌ مُسَمَّى السَّاعِةِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

عَمَّا يُؤَلِّمُ بِهِ أُولَئِكَ يَوْمَئِذٍ يَخَابِرُونَ إِذْ يَأْتِي السَّمَاءَ دُخَانٌ مُسَمَّى السَّاعِةِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

أقول: ألفاظ الآية ظاهرة لا خفاء فيها من حيث المعنى وهي أي الآية تدل على ثبوت الحساب يوم القيامة لجميع الناس لأن قوله: لِنَّاسٍ، يشمل الكل فيدخل تحت ذلك الأنبياء والأوصياء أيضاً والأيات في الباب كثيرة كما لا يخفى:

قال الله تعالى: وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَابِسِكُمْ بِهِ اللَّهُ^(١).

قال الله تعالى: أَلَا لَهُ الْخُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ^(٢).

قال الله تعالى: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ^(٣).

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ^(٤).

قال الله تعالى: هَذَا مَا تُوَعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ^(٥) وغيرها.

٢- الأنعام = ٦٢

٤- ص = ٢٦

١- البقرة = ٢٨٤

٣- إبراهيم = ٤١

٥- ص = ٥٣

بالأسانيد عن الرضا عن أبائه قال رسول الله ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ عَزَّ وَجَلَّ يَحْسَبُ كُلَّ خَلْقٍ إِلَّا مِنْ أَشْرِكٍ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَا يَحْسَبُ وَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ أَنْتَهَى.

بأسناد التميمي عن الرضا عن أبائه عن عليّ عليه السلام قال: النَّبِيُّ أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَنْتَهَى.

المفيد رحمه الله بأسناده في أماليه عن ابن عينية قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول ما من عبد إلا والله عليه حجة إما في ذنب إقترفه وإما من نعمة قصر عن شكرها إنتهى.

وبالأسناد عن أبي بردة قال: قال رسول الله ﷺ لَا تَزَلْ قَدَمُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْ حُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَامَةُ حَبِّكُمْ، قَالَ فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكَبِ عَلِيٍّ أَنْتَهَى.

وبالأسناد عن أبي جعفر عليه السلام قال: أَنَّمَا يَلِاقُ اللَّهُ الْعِبَادَ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدَرِ مَا أَتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي الدُّنْيَا أَنْتَهَى^(١).

ولا شك أن الحساب حقٌ نطقت به الآيات والأخبار فيجب الاعتقاد به لكل مسلم.

مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ
قيل المراد بالذكر هنا ما ينزل من القرآن شيئاً بعد شيء وقيل المراد به أقوال النبي في أمر الشريعة ووعظه وتذكيره وصفه بالحدوث لنزول القرآن بعد وقت وقيل سورة بعد سورة وأية بعد أية والحدوث وجود الشيء بعد أن لم يكن وهو دليل على أن القرآن مخلوق كما هو شأن الحادث ولا قديم سوى الله تعالى وللبحث فيه مقام آخر وسئل عن بعض الصحابة عن الآية فقال

فحدث النزول فحدث المقول، ثم أن الجمهور على أن محدث بالجر صفة،
لذكر على اللفظ، وقرأ بعضهم بالرفع صفة، لذكر، على الموضوع.

و قرأ زيد بن علي بالنصب على الحال من ذكر، إذ قد وصف بقوله: مِنْ رَبِّهِمْ و قوله: إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ جملة حالية و ذوا الحال المفعول في، ما يأتيهم، و هم يلعبون جملة حالية من ضمير إستمعوه، و المعنى ما يأتيهم أي ليس يأتيهم من ذكر، أي آية أو سورة من ربهم بعد أن لم يكن إلا إستمعوه و الحال أنهم يلعبون و يستهزؤون بها و حاصل الكلام أنهم يستمعون الآيات ثم يلعبون بها و ينكرونها و بعبارة أخرى كل ما جدد لهم الذكراستمروا على الجهل و أنت ترى أن هذا لا يختص بقوم دون قوم بل هو سار في كثير من الناس أو أكثرهم و هذا دليل على أن المراد بالناس في قوله: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ، العموم فمن استمع الى آية الرنا ثم يزني أو آية السرقة ثم يسرق أو آية الظلم ثم يظلم و هكذا سائر الآيات الواردة في باب الأوامر و الناهي فهو يلعب بها فإن الفاعل إذا كان غير قاصد بفعله مقصداً صحيحاً فهو لاعب.

قال في المفردات لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً.

قال الله تعالى: وَ ذُرِ الْأَذْيَانِ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ غَرَّتْهُمْ الْخَيْرَةُ
الدُّنْيَا^(١).

قال الله تعالى: وَ مَا هَذِهِ الْخَيْرَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ^(٢).

و حاصل الكلام أن من استمع الى كلام الله ثم ترك العمل به من غير عذر
استخفافاً به فهو من اللاعبين بكلام الله كائناً من كان بل لا يبعد أن تكون الآية
مختصة بالمسلمين وذلك لأن الكافر منكراً لها و المسلم مقتصد بها و لا يعمل
بها فترك الكافر العمل بها لا يعد لعباً بخلاف ترك المسلم فاللاعبون بالآيات
هم المسلمون لا غيرهم.

لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ
أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

لاهيئة، بالنصب على الحالية و قري بالرفع على أنه خبر لقوله (وهم) و
النجوى من التناجي و لا يكون إلا خفية فمعنى، وَ أَسْرُوا، بالغوا في إخفائها
أو جعلوها بحيث لا يفتن أحد لتناجيهم و لا يعلم أنهم متناجون.

و قال أبو عبيدة أسروا، هنا من الأضداد يحتمل أن يكون أخفوا كلامهم و
يحتمل أن يكون أظهره و منه قول الفرزدق:

فلما رأى الحجاج جرد سيفه أسروا الحروري الذي كان أضمر
و قال التبريزي لا يستعمل في الغالب إلا في الإخفاء و إنما أسروا الحديث
لأنه كان ذلك على طريق التشاور و عادة المشاورين كتمان سرهم عن
أعدائهم و أسروها ليقولوا للرسول ﷺ و للمؤمنين أن ما ندعونه حقاً
فأخبرونا بما أسرنا فموضع، الذين ظلموا، من الإعراب يحتمل أن يكون
رفعاً على البدل من الضمير في قوله: وَ أَسْرُوا كما قال تعالى: ثُمَّ عَمُوا وَضَمُّوا
كثيرٌ منهم^(١) و يجوز أن يكون رفعاً على الإستئناف و تقديره و هم الذين
ظلموا، و يجوز خفضاً بدلاً من الناس. و قوله: هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ،
إستفهام معناه التّعجب أي كيف خصّ بالنبوة دونكم مع مماثلته لكم في
البشرية وإنكارهم و تعجبهم من حيث كانوا يرون أن الله لا يرسل إلا ملكاً،
و قوله: أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ، إستفهام معناه التوبيخ و عناو بالسحر ما ظهر على
يدي الرسول من المعجزات التي أعظمها القرآن و الذكر المتلو عليهم أي
أفتحضرون السحر و أنتم تبصرون أنه سحر و أن من أتى به هو بشرٌ مثلكم
فكيف تقبلون ما أتى به و هو سحر و كانوا يعتقدون أن الرسول من عند الله لا
يكون إلا ملكاً و أن كل من ادعى الرسالة من البشر و جاء بمعجزة فهو ساحر و

معجزته سحرًا، ومعنى الآية أن قلوبهم ذاهلة غافلة عن الحق ولذلك أسروا النجوى وزعموا أن الله تعالى لا يعلم ما أضمره في قلوبهم.

قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
قرأ حمزة والكسائي وحفص والأحمش وأيوب وخلف وابن جرير وغيرهم، قال ربِّي، على معنى الخبر عن نبيِّهِ ﷺ وقرأ باقي السبعة، قل ربِّي، على الأمر لنبيِّهِ، وكيف كان قال النبيُّ لهؤلاء الكفار وغيرهم من المنافقين والمنكرين لعلم الله بالخفيات، ربِّي يعلم القول في السماء والأرض، ولا يخفى عليه شيء من القول ظاهراً وخفيةً لأنه لو لم يعلم لزم الجهل بالنسبة إليه تعالى والجهل نقص وهو منزه عن النقائص.

و ثانياً: أنه عالمٌ بذاته وذاته علةٌ لوجود الممكنات والعلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول تفصيلاً وقوله هو والسَّمِيعُ الْعَلِيمُ، معناه أنه تعالى عالم بالمسموعات مطلقاً، والسَّمِيعُ مبالغة في السَّمْعِ والعليم مبالغة في العلم، قال بعض المحققين، القول عامٌ يشمل السرَّ والجهر فكان في الأخبار بعلمه القول علم السرِّ وزيادة وكان أكد في الإطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم سرَّهم ثم بيَّن ذلك بقوله: وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، معناه السَّمِيعُ لإقوالكم العليم بما إنطوت عليه ضمائركم.

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرِيهِ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ

لما ذكر الله تعالى عنهم أنهم قالوا أن ما أتى به النبي سحرٌ ذكر اضطرابهم في مقالاتهم فذكر أنهم أضربوا عن نسبة السحرة وقالوا ما يأتي به أنما هو أضغاث أحلام، ثم أضربوا عن هذا فقالوا بل افتراه أي إختلقه من عند نفسه و نسبه الى الله و ليس من الله ثم أضربوا عن هذا فقالوا بل هو شاعر و هكذا و

فيه إشارة الى أن المبطل الكاذب لا يثبت على قول واحد بل يبقى متحيراً لا يعلم ما يقول فإن الغريق يثبت بكل حشيش والآية تدل على أنهم قالوا هذه الأقوال المختلفة أما أنها صدرت من قائلين متفقين إنتقلوا من قول الى قول أو مختلفين قال كل منهم مقالة فالآية ساكنة عنه.

قال الرّمخشري و يجوز أن يكون تنزيلاً من الله لأقوالهم في درج الفساد و أن قولهم الثاني أفسد من الاول و الثالث أفسد من الثاني، و كذلك الرابع من الثالث إنتهى.

أقول: إضطرابهم في الأقوال يدل على إضطرابهم في المقولات و أنهم لا كانوا كاذبين في دعاويهم و أي ربط بين قولهم **أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ** و قولهم **بَلْ أَفْتَرِيهِ** و قولهم **بَلْ هُوَ شَاعِرٌ** و أمّا قوله: **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ** فالكاف في أرسل يجوز أن يكون في موضع النعت لآية، و ما أرسل في تقدير المصدر و المعنى بآية مثل آية إرسال الأولين، و يجوز أن يكون في النعت لمصدر محذوف أي إتياناً مثل إرسال الأولين أي مثل إتيانهم بالآيات و هذه الآية التي طلبوها هي على سبيل إقتراحهم و لم يأت الله بآية مقترحة إلا أتى بالعذاب بعدها و أراد تعالى تأخير هؤلاء و في قولهم هذا دليل على معرفتهم بإتيان الرّسل، و قولهم: **بِآيَةٍ عَلَى سَبِيلِ التَّنْكِيرِ** أي آية آية كانت و لم يبينوا المراد منها فلا يبعد أن يكون إقتراحهم منها من قبيل قولهم: **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا**^(١) و أمثال ذلك ثم أجاب الله تعالى عن قولهم: **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ** بقوله:

مَا أَمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ

ما، في قوله: **مَا أَمَنْتَ** نافية و قوله: **مِنْ قَرْيَةٍ** بتقدير مضاف أي من أهل قرية، و الهمزة في قوله: **أَفَهُمْ** للإنكار و معنى الآية و المعنى إننا أظهرنا الآيات

بإتيان القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

التي إقترحوها على الأمم الماضية فلم يؤمنوا عندها فأهلكناهم بتكذيبهم و إنكارهم، فهؤلاء أيضاً لا يؤمنون أو أنزلنا ما أرادوه فأَنَّ حكم الأمثال واحد ولم يعلموا هؤلاء الكفَّار أنه لو أظهرنا عليهم ما إقترحوه من الآيات ثم لم يؤمنوا بها بعد نزولها لوجب عليهم العذاب كما وجب على من قبلهم بعد نزول الآيات إذ لا إمهال بعد الآيات:

قال الله تعالى: **وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَانْتَبْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً^(١)**

وقال بعض المفسرين أراد الله بهذا الإجماع عليهم أن يبين أن سبب مجيء الآيات ليس لأنه سبب يؤدي إلى إيمان هؤلاء و إنما مجيئها على أساس اللطف و المصلحة بدلالة أنها لو كانت سبباً لإيمان هؤلاء لكانت سبباً لإيمان أولئك قبلهم فلما بطل كونها سبباً لإيمان أولئك بطل أن تكون سبباً لإيمان هؤلاء على هذا الوجه.

أقول: و الذي يقوي في النظر هو أن سنة الله جرت على نزول العذاب و الهلاك بعد تمامية الحجة كما في قوم نوح و قوم عاد و قوم ثمود و غيرهم و هؤلاء الكفَّار الذين يقترحون الآية كأنهم لم يعلموا بذلك و أن عدم نزول الآية التي إقترحوها لطف في حقهم و عناية من ربهم لأنه يمنع العذاب عنهم في الدنيا.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

لما تقدّم من قول الكفَّار، هل هذا إلا بشرٌ مثلكم، أجاب الله تعالى في هذه الآية فقال ما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً أي بشرأ ولم نرسل ملكاً إلى الناس

قَطَّ أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ وَ قَلْ لَهُمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَ اِخْتَلَفُوا فِي الْمَرَادِ بِأَهْلِ الذِّكْرِ، فَقَالَ قَوْمٌ هُمْ أَحْبَابُ أَهْلِ الْكِتَابِينَ أَعْنِي بِهِمَا التَّوْرَةُ وَ الْإِنْجِيلُ فَأَنَّ شَهَادَتَهُمْ تَقُومُ بِهَا الْحُجَّةُ فِي إِرْسَالِ اللَّهِ الْبَشَرَ.

وَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَا أَهْلُ الذِّكْرِ، وَ قِيلَ الْمَرَادُ بِهِ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ التَّوْرَةِ، وَ قِيلَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالسِّيَرِ وَ قِصَصِ الْأُمَمِ الْبَائِدَةِ وَ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ فَأَنْتَهُمْ كَانُوا يَفْصَحُونَ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَ إِذَا كَانَ أَهْلُ الذِّكْرِ أَرِيدَ بِهِمُ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى فَأَنْتَهُمْ لَمَّا بَلَغَ خَبْرَهُمْ حَدَّ التَّوَاتُرِ جَازَ أَنْ يَسْأَلُوا وَ لَا يَقْدَحَ فِي ذَلِكَ كَوْنُهُمْ كَفَّارًا.

وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ

الجسد يقع على ما لا يتغذى من الجماد و قيل يقع على المتغذي فعلى الأول يكون النفي قد وقع على الجسد و على الثاني مثبتاً و النفي أنما وقع على صفته و وحّد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال ذوي ضرب من الأجساد و هذا ردّ لقولهم، مال هذا الرسول يأكل الطعام، و هذه الجملة من تمام الجواب للمشركين الذين قالوا هل هذا إلا بشر مثلكم.

لأنّ البشريّة تقتضي الجسميّة الحيوانيّة و هذه لا بدّ لها من مادّة تقوم بها خرجوا بذلك في قولهم: هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يأكل ممّا تأكلون منه و يشرب ممّا تشربون و لما أثبت أنّهم كانوا أجساداً يأكلون الطّعام بيّن أنّهم مألهم إلى الفناء و التّفاد و نفى عنهم الخلود و هو البقاء السّرمدى و الحاصل أنّ هؤلاء الرُّسُلَ يموتون كغيرهم من البشر و يجري عليهم ما يجري عليهم من الأكل و الشُّرب و الحياة و البقاء و غير ذلك ممّا هو ثابت للبشر و الذي صاروا به رسلاً هو ظهور المعجزة على أيديهم و عصمتهم من الصّفات القادحة في التّبليغ و غيره و في قوله: وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ أَي مَا كَانُوا خَالِدِينَ فِي الدُّنْيَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْخُلُودَ فِيهَا لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِ كَائِنًا مِنْ كَانَ مَصِيرُهُ إِلَى الْفَنَاءِ.

قال الله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ^(١).

ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ أَلْوَعَدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ
ذكر الله تعالى سيرته مع أنبيائه فقال ثم صدقناهم الوعد من النُّصْر و النِّجَاة
و الظُّهُور على الأعداء، و يحتمل أن يكون المراد بالوعد ما وعدهم الله تعالى
من نزول العذاب على الكفَّار المعاندين و قول الكفَّار لأنبيائهم متى هذا الوعد
إن كنتم صادقين و فى الآية إشارة إلى أَنَّ اللَّهَ تعالى لا يخلف الميعاد و قد
صرَّح بذلك في قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا^(٢).

و قوله: فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ معناه فأنجينا الأنبياء و من نشاء من
المؤمنين الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَ الْهَلَاكِ كَمَا فِي قِصَّةِ نُوحٍ وَ عَادَ وَ ثَمُودَ وَ
غَيْرِهِمْ مِمَّنْ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَ أَنْجَى اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ وَ مِنْ مَعَهُمْ مِنْهُ وَ فِي قَوْلِهِ:
وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ إشارة إلى أَنَّ الْعَذَابَ حَقٌّ لِمَنْ أَسْرَفَ فِي الْعِصْيَانِ وَ
بِعِبَارَةٍ أُخْرَى مَجْرَدُ الْعِصْيَانِ لَا يُوجِبُ نَزُولَ الْعَذَابِ وَ أَمَّا يُوجِبُهُ الْإِسْرَافُ
فِيهِ وَ لَعَلَّهُ لِهَذِهِ النِّقْطَةِ لَمْ يَقُلْ وَ أَهْلَكْنَا الْكَافِرِينَ وَ الْإِسْرَافُ هُوَ التَّجَاوُزُ عَنِ
الْحَدِّ وَ هُوَ مَذْمُومٌ فِي الْعَقْلِ وَ الشَّرْعِ أَيْنَمَا وَجَدَ وَ إِذَا كَانَ الْإِسْرَافُ فِي
الْمَعْصِيَةِ وَ الطَّغْيَانِ سَبَبًا لِنَزُولِ الْعَذَابِ فَفِي الْحَقِيقَةِ يَكُونُ الْمُسْرِفُ سَبَبًا وَ
بَاعْتِائًا لِلْعَذَابِ فَهُوَ الَّذِي أَهْلَكَ نَفْسَهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ كَمَا:

قال الله تعالى: وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ^(٣).

قال الله تعالى: أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ^(٤).

و قال قتادة المسرفون هم المشركون، و الحق ما ذكرناه فأَنْ مَجْرَدُ الشَّرْكِ لَا
يَعْدُ مُسْرِفًا وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

قال المفسرون المراد بالكتاب هو القرآن وإختلفوا في معنى الذكر فقال الحسن معناه فيه ما تحتاجون إليه من أمر دينكم، وقيل فيه شرفكم أن تمسكتم به و عملتم بما فيه، وقيل ذكر، لما فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال وقيل فيه ذركم، أي فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب.

وقال صاحب التحرير الذي يقتضيه سياق الآيات أن المعنى فيه ذكر مشائلكم وما عاملتم به أنبياء الله من التكذيب والعناد فعلى هذا تكون الآية ذمًا لهم وليست من تعداد النعم عليهم ويكون الكلام على سياقه إنتهى.

والحق أن الذكر في الآية بمعنى الشرف والمعنى أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه فيه شرفكم و فضيلتكم و خيركم في الدنيا والأخرة أفلا تعقلون ذلك.

وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ

كلمة، ما، تستعمل للكثرة، وهى ضد رب فأنها تستعمل للتعليل أي، كم، في موضع نصب، قَصَمْنَا وَالْقَصْمُ بفتح القاف و سكون الميم كسر الصلب قهراً يقال قصمه يقصمه قصماً فهو قاصم الجبارة فمعنى قوله: وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ، أي كثيراً و المراد بالقرية أهلها إذ لا توصف القرية بالظلم و هذا كقوله من هذه القرية الظالم أهلها، فحذف المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه و التقدير من أهل قرية و هم ساكنوها من البشر و قوله: وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا أي أوجدنا بعد هلاك أهل القرية قوماً آخرين و أنما قال و أنشأنا ولم يقل و أوجدنا أو خلقنا، لأن الإنشاء إحداث الشيء و تربيته و فيه نشأ السحاب لحدوثه في الهواء و تربيته شيئاً فشيئاً فالإنشاء إيجاد الشيء و تربيته لا مجرد الإيجاد و أكثر ما يقال ذلك في الحيوان:

قال الله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ^(١).

قال الله تعالى: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا^(٢).

وقال بعضهم أكثر ما يقال ذلك في الحيوان ومعنى الآية أن كثيراً من أهل القرى أهلكتناهم إهلاكاً شديداً وأوجدنا بعدهم قوماً آخرين.

نقل عن ابن عباس أنه قال المراد بالقرية حضوراء قرية باليمن وعن ابن وهب أنهما قريتان باليمن بطرا أهلهما، والحق أن ما ذكرناه على سبيل التمثيل لا على التعيين في القرية لأن كم، تقتضي التكثر.

قال القرطبي في تفسير الآية يريد مدائن كانت باليمن وقال أهل التفسير والأخبار أنه أراد أهل حضوراء وكان بعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذي مهدي وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له، كثير الثلج وليس بشعيب صاحب مدين لأن قصة حضوراء قبل مدة عيسى عليه السلام وبعد مئتين من السنين من مدة سليمان عليه السلام وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرس في ذلك التاريخ نبياً اسمه حنظلة بن صفوان وكانت حضوراء بأرض الحجاز من ناحية الشام فأوحى الله إلى إرميا أن أنت بخت النصر فأعلمه أنني سلطته على أرض العرب و أنني منتقم بك منهم وأوحى الله إلى إرميا أن أحمل معد بن عدنان (عدنان) على البراق إلى أرض العراق كي لا تصيبه العقمة والبلاء معهم فأنتي مستخرج من صلبه نبياً في آخر الزمان اسمه محمد فحمل معد وهو ابن أنتي عشرة سنة فكان مع بني إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة إسمها معانة ثم أن بخت نصر نهض و كمن للعرب في مكان وهو أول من اتخذ المكامن فيما ذكروا ثم شن الغارات على حضوراء فقتل وسبى و خرب العامر ولم يترك بحضوراء أثر ثم إنصرف راجعاً إلى السواد إنتهى والعلم عند الله.

فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنَاءِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ

و الضَّمير في، و أحسبوا، عائد على أهل المحذوف من قوله وكم قصمنا من قرية و لا يعود، على قوله قوماً آخرين، لأنه لم يذكر لهم ذنب يركضون من أجله و الضَّمير في، منها، عائد على القرية و يحتمل أن يعود على، بأسنا، لأنه في معنى الشدة فأثت على المعنى، و الركض، العدو بشدة الوطئ يقال ركض فرسه إذا حثه على المرّ السريع فمعنى يركضون، يهربون من العذاب سراعاً كالمهزم من عدو، قيل أن بخت نصر بعث إليهم جيشاً فهزموه ثم بعث آخر فهزموه أيضاً ثم خرج إليهم بنفسه فهزمهم في الثالثة فلما أخذ القتل منهم ركضوا، هاربين فيقول الله تعالى:

لَا تَرْكُضُوا وَ أَرْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ
أَي لا تهربوا من الهلاك و أرجعوا إلى ما كنتم فيه من منازلكم لعلكم تفتقروا
بالمسألة، المترف المنعم و الترف التنعيم.

قال ابن عطية يحتمل أن يكون هذا من قول رجال بخت نصر على الرواية المتقدمة فالمعنى على هذا أنهم خدعوه و إستهزؤا بهم بأن قالوا للهايين منهم لا تقروا و أرجعوا إلى منازلكم لعلكم تسائلون صلحاً أو جزية أو أمراً يتفق عليه فلما إنصرفوا أمر بخت نصر أن ينادي فيهم يا لثارات النبي المقتول فقتلوا بالسيف من آخرهم.

و قال قومٌ يحتمل أن يكون قوله: لَا تَرْكُضُوا إلى آخر الآية من كلام ملائكة العذاب.

و قال الزمخشري يحتمل أن يكون القائل بعض الملائكة، و الأقوال كثيرة لا فائدة في نقلها إذ لا فائدة في تعيين القائل و أما الكلام في المعنى و هو حاصل في المقام و هو أن الفرار و الهزيمة لا ينفعكم و إنما النافع هو التوجه في سبب الحادثة و أنه كيف وقعتم فيما وقعتم فيه من القتل و الدلة.

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوِيهِمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ

الويل الوقوع في الهلكة والمعنى أنهم قالوا ليس لنا إلا الهلاك وذلك لأننا ظلمنا أنفسنا بترك معرفة الله وتصديق أنبيائه وركوب معاصيه وفي ذلك إقرارهم على نفوسهم بالخطأ ولم يعلموا أن الإقرار بعد الإنكار لا فائدة فيه فأنهم لما أنكروا معرفة الله وكذبوا أنبيائه بعد ظهور الأيات والمعجزات منهم قضى الله عليهم بالهلاك والفناء ولا راد لقضاءه وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوِيهِمْ أَي مَا زالوا يقولون ذلك حَتَّى جعلناهم حصيداً خامدين الحصيد قتل الإستئصال كما يحصد الزرع بالمنجل والخمود كخمود النار إذا طفيت وقيل أي موتى دون أرواح مشبهين بالنار إذا أطفأت، هذا.

أقول: يستفاد من الآية أن سبب القسيم والعذاب هو الظلم والظالم هو الظالم على النفس والظلم على الغير والظلم على الله تعالى فالظلم على النفس كترك الواجبات وفعل المحرمات والظلم على الغير كقتل النفس بغير حق و غصب أموال الغير ومثال ذلك والظلم على الله هو الشرك به قال لقمان لابنه وهو يعظه يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(١) وقد صرح الله بذلك في كثير من الآيات: قال الله تعالى: فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ^(٢).

قال الله تعالى: وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^(٣) والأيات كثيرة.

وأما قوله: فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوِيهِمْ الخ فالمعنى كانوا يكررون تلك الكلمة فلم تنفعهم وفيه إشارة إلى أن الندم بعد وقوع الحادثة لا فائدة فيه يسمى بتوبة فإن التوبة هي الرجوع عما كان عليه قبل وقوع العذاب:

قال الله تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ^(١).

قال الله تعالى: وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ^(٢).

قال الله تعالى: فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(٣).

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آيَاتٍ تَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى قِصَمَ تِلْكَ الْقُرَى الظَّالِمَةِ أَهْلِهَا أَتَبَعَ ذَلِكَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْهُ وَمَجَازَةً عَلَى مَا فَعَلُوا وَأَنَّهُ تَعَالَى أَمَّا أَنْشَأَ هَذَا الْعَالَمَ الْعُلُويَّ الْمَحْتَوِيَّ عَلَى عَجَائِبِ صَنْعِهِ وَغَرَائِبِ فِعْلِهِ وَهَذَا الْعَالَمَ السَّفْلِيَّ وَمَا أَوْدَعَ فِيهِ مِنْ عَجَائِبِ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْجِمَادَاتِ وَالْمِعَادِنِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْهَوَاءِ وَالسَّحَابِ وَالرِّيَّاحِ عَلَى سَبِيلِ اللَّعِبِ بَلْ لِفَوَائِدِ دِينِيَّةٍ تَقْضِي بِسَعَادَةِ الْأَبَدِ أَوْ بِشِقَاوَتِهِ وَ قَدْ أَشَارَ بِذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ:

قال الله تعالى: مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى^(٤).

قال الله تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا^(٥).

قال الله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ^(٦).

قال الله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ^(٧) وَ الْآيَاتِ كَثِيرَةً.

٢- الأنعام = ١٤٧

٤- الرّوم = ٨

٦- المؤمنون = ١٧

١- غافر = ٨٥

٣- الأعراف = ٥

٥- ص = ٢٧

٧- إبراهيم = ١٩

قال الكرمانى فى، اللَّعْبِ، فعل يعدو إليه الجهل يروق أوّله ولا ثبات له، فالمعنى أنّما خلقنا هما لنجازى المحسين و المسيئ و ليستدلّ بهما على الوحداية و القدرة، و قوله: **لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوْا**، أصل اللّهُو ما تسرع إليه الشّهوة و يدعو إليه الهوى فعن ابن عباس و السّدي هو الولد.

و قال الزّجاج هو الولد بلغة حضر موت و على هذا فهو ردّ على من قال **إِتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا** و قيل اللّهُو هنا اللّعب و قيل هو المرأة

قال قتادة هذا فى لغة أهل اليمن و تكون ردأ على من إدعى أنّ لله زوجة و معنى، من لدنا، من عندنا بحيث لا يطلع عليه أحد لأنّه نقص فستره أولى.

قال الزّمخشري بيّن أنّ السّبب فى ترك إتّخاذ اللّهُو و اللّعب و إنتفاه عن أفعالي أنّ الحكمة صارفة عنه و إلاّ فأنا قادر على إتّخاذها أن كنت فاعلاً لأنّى على كلّ شىءٍ قدير إنتهى.

أقول: ما ذكره الزّمخشري لا بأس به على قول من قال اللّهُو هو اللّعب، و أمّا من فسّره بالولد و المرأة فذلك مستحيل فى حقّه تعالى إذ لا تتعلّق به القدرة و الظاهر أنّ، إن، هنا شرطية و جواب الشّروط محذوف يدلّ عليه جواب، لو، أي أن كنّا فاعلين إتّخذناه أن كنّا ممّن يفعل ذلك ولسنا ممّن يفعله.

و قال الحسن و قتادة، إن، نافية أي ما كنّا فاعلين.

و قال بعض المفسّرين الإنكار على من أضاف ذلك إلى الله و محاجته بأنّه لو كان جائزاً فى صفته لم يتّخذة بحيث يظهر لكم أو لغيركم من العباد لما فى ذلك من خلاف صفة الحكيم الذي يقدر أن يستر النقص فيظهره و أنّما إستحال اللّهُو على الله لأنّه غنى بنفسه عن كلّ شىءٍ سواه يستحيل عليه المرح، فى قوله: **مِنْ لَدُنَّا**، معناه فى السّماء من الملائكة و قيل معناه ممّا نخلقه إنتهى.

وقال القرطبي معناه أي من عندنا لا من عندهم، وقال ابن جريح أي من أهل السماء لا من أهل الأرض، وقيل أراد الرّد على من قال أنّ الأصنام بنات الله أي كيف يكون منجوتكم ولدنا و قال ابن قتيبة الآية ردُّ على النصارى.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْأُولَىٰ مِثْلًا تَصِفُونَ

القذف الرمي وكلمة، بل، للإضراب أي بل نرمي بسرعة بالحق وهو القرآن على الباطل وهو شبههم و وصفهم الله بغير صفاته من الولد وغيره وقيل الحق عام في القرآن والرّسالة والشّرع والباطل أيضاً عام كذلك والمعنى أنّه تعالى يدحض الباطل بالحقّ وإستعار لذلك القذف والدّفح تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه أي أصاب دماغه وذلك مهلك في البشر فكذلك الحق يهلك الباطل، يقال دفع الرجل إذا شجّ شجّة تبلغ أمّ الدماغ فلا يحيا صاحبها بعدها، وقوله: **فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**، أي هالك مضمحل يقال زهق زهوقاً أي هلك، ولكم الولي، يعني الوقوع في العقاب جزاءً على ما تصفون الله به من إتخاذ الولد.

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ

اللام في قوله: **لَهُ**، للملك أو للإختصاص أي هو تعالى مالك من في السموات والأرض من أصناف المخلوقات وأتما قال من ولم يقل، ما، تغليبا لذوي العقول على غيرهم وهذا ممّا لا كلام فيه لأنّه تعالى خلقهم وأوجدهم والخالق مالك لمخلوقه فهراً وأما قوله: **وَمَنْ عِنْدَهُ** فالمراد بهم الملائكة أي يملكهم بالتصرف فيه أيضاً، لا يستكبرون، هؤلاء عن عبادة الله، ولا يستحسرون، قال قتادة معناه لا يعيون، وقيل لا يملّون هكذا قيل في تفسير

الكلام فأنهم عطفوا قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عَلَى قَوْلِهِ: مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ، أي له من في السموات والأرض ومن عنده، من الملائكة وكلهم لا يستكبرون عن عبادته، والذي يختلج بالبال هو أن الواو في قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ، ليست للعطف بل هي للإستثناف والدليل هو أن قوله: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ يشمل الكل من الملائكة وغيرهم وذلك لأن الملائكة داخلون في قوله: مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، فلا يحتاج إلى قوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ، وهو واضح لا خفاء فيه عند التأمل، فالحق أن الكلام تمَّ عند قوله والأرض ثم إستأنف الكلام لإفادة معنى آخر وهو أن من عنده، من الملائكة لا يتكبرون عن عبادته ولا يستحسرون بخلاف من في الأرض من عباده فإن منهم من لا يعبد ثم وصف الله تعالى الملائكة بأنهم يسبحون الليل والنهار، أي ينزهونه عما أضافه هؤلاء الكفار إليه من إتخاذ الصاحبة والولد وغير ذلك من القبائح لا يفترون، أي لا يملون بل هم دائمون على التسبيح والتنزيه وفي هذا الكلام إشارة بل تنبيه على عصمة الملائكة وأنهم لا يعصون الله بخلاف الإنسان فإنه قد يطيع وقد يعصي وليس في هذا الكلام ما يدل على أفضلية الملائكة على الإنسان بقولٍ مطلقٍ وذلك لأنهم أي الملائكة خلقوا كذلك بخلاف الإنسان فإن دواعي المعصية من الشهوة والغضب وحب الأولاد وغيرها فيهم موجودة وهذا بخلاف الملائكة فأنها متفية فيهم نعم أفضلية الملائكة ثابتة على كثير من الناس بل على أكثرهم بل أفضلية الحيوان أيضاً ثابتة عليهم فضلاً عن الملائكة وقد مرَّ الكلام فيه سابقاً بما لا مزيد عليه والحاصل أن الإنسان أفضل من الملائكة إذا وجد وأما البشر فلا.

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾
 لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ
 رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا
 يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
 إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ
 مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ
 مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
 رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ
 ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ
 عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ
 بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا
 خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَ هُمْ مِنْ
 خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ
 مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي
 الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ
 السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ
 جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾
 وَ جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيً أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ
 جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَ
 جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا
 مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ
 وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مِنْتَ فَهُمْ
الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ
بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)

◀ اللُّغَةُ

الْهَيْئَةُ: واحدها، إله، وهو المعبود مطلقاً يقال آله إذا تحيّر وأما سَمِيَ اللّٰهَ تعالى به لتحير العقول في كنه ذاته وقيل سَمِسَ به لإلتجاء الخلق إليه.
وقيل، آله، بمعنى عبد يقال آله فلان يأله، عبد، وقيل أصله، ولاه، فأبدل
الهزمة من الواو تسميته به لكون كل مخلوقٍ والهاً نحوه.

يُنشِئُونَ: أي يحيون يقال أنشأ الله الموتى فنشروا أي أحياهم فحيوا.
رَتَقًا: أي ملتصقين وقيل مسندتين لا فرج فيهما.
فَفَتَقْنَاهُمَا: الفتق ضد الرّتق.

رَؤَاسِي: واحدها راسية وهي الجبل.

تَمِيدٌ: الميد الإضطراب بالذهاب في الجهات.

فِجَاجًا: الفج الطريق الواسع وجمعه الفجاج.

يَسْبَحُونَ: أي يجرون.

نَبْلُوكُمْ: البلاء الإختبار.

◀ الإِعْرَابُ

مِنَ الْأَرْضِ صفة لألّٰهة إِلَّا آلّٰهة بِالرَّفْعِ عَلَى أَنْ، إِلَّا، صفة بمعنى، غير،
فَذَلِكَ الْجُمْهُورُ عَلَى النَّصْبِ بِالْفِعْلِ قَبْلَهُ وَقَرَأَ بِالرَّفْعِ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ مَبْتَدَأِ
الْحَقِّ فِي رَفْعِ الْإِبْتِدَاءِ وَقِيلَ فِي مَوْضِعِ نَصْبِ بَفِعْلِ دَلَّ عَلَيْهِ نَجْزِيهِ وَالجُمْلَةُ
جَوَابُ الشَّرْطِ فِجَاجًا حَالٌ مِنْ، سَبَلٌ، وَقِيلَ، سَبَلًا، بَدَلٌ، فِئْتَنَةٌ مُصَدَّرٌ مَفْعُولٌ
لَهُ أَوْ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ عَلَى الْمَصْدَرِ بِمَعْنَى نَبْلُوكُمْ أَيْ نَفْتَنَكُمْ بِهَا فِئْتَنَةٌ.

◀ التفسير

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الدَّلَالَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَأَنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّهِمْ مَلِكٌ لَهُ وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمَكْرَمِينَ هُمْ فِي خِدْمَتِهِ لَا يَفْتَرُونَ عَنْ تَسْبِيحِهِ وَعِبَادَتِهِ عَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ تَوْبِيخِ الْمُشْرِكِينَ وَذَمِّهِمْ وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِهِمْ، وَأَمْ، هُنَا مَنْقُطَةٌ تَتَّقِدُ بِلِ وَالْهَمْزَةُ فِيهَا إِضْرَابٌ وَإِنْتِقَالٌ مِنْ خَبْرٍ إِلَى خَبْرٍ، وَاسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّعَجُّبُ وَالْإِنْكَارُ أَيْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ يَتَّصِفُونَ بِالْأَحْيَاءِ وَيَقْدِرُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى الْإِمَامَةِ أَيْ لَمْ يَتَّخَذُوا إِلَهَةً بِهَذَا الْوَصْفِ بَلِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً جَمَادًا لَا تَتَّصِفُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى شَيْءٍ فَهِيَ عَيْنُ إِلَهَةٍ لِأَنَّ مِنْ صِفَةِ الْأَلْهَةِ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَامَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فِي مَعْنَاهُ، أَنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا كَانُوا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِحْيَاءِ الَّذِي مِنْ قَدْرِ عَلَيْهِ قَدْرٌ عَلَى أَنْ يَنْعَمَ بِالنَّعْمِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا الْعِبَادَةَ فَكَيْفَ يَسْتَحِقُّونَ الْعِبَادَةَ، وَحَكَى عَنِ الرَّجَاحِ أَنَّهُ قَرَأَ، يَنْشُرُونَ بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى هَلِ اتَّخَذُوا إِلَهَةً لَا يَمُوتُونَ أَبَدًا وَيَقُونُ أَحْيَاءً أَبَدًا أَيْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِنْتَهَى.

أقول: فمعنى الآية واضح وهو أن الإله من يقدر على الإحياء والإماتة لا يقدر على الإحياء كيف يكون إلهاً، وأم، إستفهام إنكاري أي لم يتخذوا إلهة تقدر على الإحياء أو بمعنى، هل، أي هل إتخذوا هؤلاء المشركون إلهة من الأرض يحيون الموتى.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ

الضَّمِيرُ فِي، فِيهِمَا، عَائِدٌ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَيْ لَوْ كَانَ، فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَهَةٌ كَمَا زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ لَفَسَدَتَا أَيْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَعٌ عَمَّا يَقُولُونَ فِي حَقِّهِ مِنْ إِثْبَاتِ الشَّرِيكِ لَهُ.

المجلد الحادي عشر

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ قَدْ أَطَالُوا الْكَلَامَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَلَا بَدَّ لَنَا أَيْضًا مِنْ الْبَحْثِ حَوْلَ الْآيَةِ لِأَنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَدْلَةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَحَاصِلُ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَقَامِ هُوَ أَنَّ الْقَوْلَ بِوُجُودِ الْإِهْيَيْنِ يَفْضِي إِلَى الْمَحَالِّ وَمَا يَفْضِي إِلَى الْمَحَالِّ مَحَالٌّ فَالْقَوْلُ بِوُجُودِ الْإِهْيَيْنِ مَحَالٌّ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ تَقْرِيرُهُ إِنَّا لَوْ فَرَضْنَا وَجُودَ الْإِهْيَيْنِ فَلَا يَخْلُو حَالَهُمَا، إِنَّمَا أَنْ يَكُونَا قَادِرِينَ عَلَى كُلِّ الْمَقْدُورَاتِ بِمَعْنَى أَنْ يَكُونَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَادِرًا عَلَى كُلِّ مَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ الْآخَرُ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَا غَيْرِ قَادِرِينَ كَذَلِكَ بَأَنْ يَكُونَا عَاجِزِينَ ضَعِيفِينَ عَنِ إِعْمَالِ الْقُدْرَةِ مَعًا، وَفِي الْمَقَامِ إِحْتِمَالِ ثَلَاثٍ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا قَادِرًا عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ وَالْآخَرُ غَيْرِ قَادِرٍ عَلَيْهِ فَالشَّقُوقُ الْعَقْلِيَّةُ فِي الْمَقَامِ ثَلَاثَةٌ.

قُدْرَتُهُمَا مُطْلَقًا، وَعَدَمُ قُدْرَتِهِمَا مُطْلَقًا، وَوُجُودُ الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ لِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ فَهَذِهِ هِيَ الشَّقُوقُ الْمَحْتَمَلَةُ عَقْلًا فِي الْمَقَامِ وَلَا رَابِعَ لَهَا إِذَا عُرِفَتْ هَذَا.

فَنَقُولُ أَمَّا كَوْنُهُمَا عَاجِزِينَ عَنِ الْقُدْرَةِ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الْبَحْثِ لِأَنَّ الْعَاجِزَ لَا يَكُونُ إِلَهًا لِأَنَّ الْعَجْزَ نَقْصٌ وَالتَّقْصُ مِنْ شَيْئِ الْإِمْكَانِ وَالْوَاجِبُ مَنْزَعَةٌ عَنْهُ سِوَاءَ كَانُ وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ، وَبِهَذَا الْبَيَانِ خَرَجَ أَيْضًا كَوْنُ أَحَدِهِمَا عَاجِزًا عَنِ الْبَحْثِ وَهُوَ ظَاهِرٌ فَإِنَّ الْعَاجِزَ مُضَافًا إِلَى أَنَّهُ نَاقِصٌ وَالتَّقْصُ لَا يَلِيقُ بِالْوَاجِبِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، مَقْهُورٌ مَغْلُوبٌ لِشَرِيكَه قَهْرًا فَإِنَّ الْإِلَهَ الْقَادِرَ غَالِبٌ عَلَى الْعَاجِزِ فَكَيْفَ يَصْدُرُ الْفِعْلُ عَنِ الْعَاجِزِ مَعَ وَجُودِ الْقَادِرِ، بَقِيَ فِي الْمَقَامِ كَوْنُهُمَا قَادِرِينَ أَوْ أَحَدَهُمَا قَادِرًا وَالْآخَرَ غَيْرَ قَادِرٍ، فَنَقُولُ لَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا قَادِرًا وَالْآخَرَ غَيْرَ قَادِرٍ فَالْقَادِرُ هُوَ الْإِلَهَ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ فَثَبَّتَ أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ قَادِرٌ وَمَا فَرَضْنَاهُ شَرِيكًا لَهُ خَارِجٌ عَنِ الْأُلُوهِيَّةِ وَلَا نَعْنِي بِالتَّوْحِيدِ إِلَّا هَذَا.

وَأَمَّا كَوْنُهُمَا، قَادِرِينَ عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ بِحَيْثُ كَانَ قُدْرَتُهُمَا عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ فَهَذَا هُوَ مَحَلُّ الْبَحْثِ وَالْآيَةُ نَازِرَةٌ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ فَسَادُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَقْرِيرُهُ مِنْ وَجْهِهِ:

أحدها: أنه لو كان كل واحدٍ منهما قادراً على تحريك الفلك و تدبيره مثلاً فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه و الآخر تسكينه و المفروض أن كلاً واحدٍ منهما قادر على إنفاذ قدرته يلزم حركة الفلك و سكونه في آنٍ واحدٍ و هو محال و لا نعني بالفساد إلا هذا.

إن قلت: يمكن إتفاقهما على التَّحريك أو التَّسكين فلا يلزم الفساد.

قلت: ليس البحث في تحريك الفلك أو تسكينه فقط بل البحث في كلِّ المقدورات و أما ذكرنا الفلك بعنوان المثل لأنَّ قوله لفسدتا أي فسدت السموات و الأرض جميعاً فيدخل في البحث جميع ما بينهما من المقدورات مثل أن أراد أحدهما حياة زيد و الآخر موته أو أراد أحدهما نزول المطر و الآخر عدمه أو أحدهما أراد وقوع العذاب و الآخر عدمه و هكذا في جميع المقدورات و هذا ظاهر.

إن قلت: يمكن إتفاقهما في جميع المقدورات بحيث لا يكون بينهما اختلاف من جهة الإرادة و بعبارةٍ أخرى نفرض فيهما أو في جميع الآلهة وحدة الإرادة و بذلك يرتفع الإشكال.

قلت: وحدة الإرادة في الإلهين أو الآلهة لا يعقل بل هو مجرد فرض لا يمكن القول به إذا تكثرت المرید يوجب تكثرت الإرادة فأنَّ لكلِّ موجودٍ إرادةً مخصوصةً به هذا، مضافاً إلى أنَّ الإرادة لو كانت واحدة في جميع الآلهة فلا نحتاج إلى القول بكثرة الآلهة إذ المفروض أنَّ الإرادة في الجميع واحدة بمعنى أنَّ ما أراد أحدهم إرادته الجميع ففي هذه الصُّورة أيَّ إحتياج بتعدد الآلهة و المفروض أنَّ الفرض يحصل بوجود واحدٍ منهم فالواحد هو الإله و هو المطلوب.

و قد يقرَّر هذا الدليل بوجهٍ آخر و هو أنَّ الإلهين أو أكثر إذا اختلفت الإرادة فيهما فأمَّا أن يقع مراد كلِّ واحدٍ منهما و هو محال لإستحالة الجمع بين الضدين، أو لا يقع واحدٍ منهما و هو أيضاً محال لإستحالة ارتقاع المرادين و المفروض أنَّهما قادرين على كلِّ شيءٍ مضافاً إلى أنَّ المانع من وجود أحد

المرادين هو مراد الآخر كما هو المفروض فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو إمتنعا معاً و ذلك محال، و أمّا أن يقع مراد أحدهما دون الآخر فهو أيضاً محال لأنّ المفروض تساوي قدرتهما فوقوع المراد من أحدهما دون الآخر يحتاج الى مرجح و كلّ محتاج الى مرجح ناقص في ذاته من حيث القدرة و قد فرضناه قادراً على كلّ مقدور هُف.

هذا مضافاً الى أنّ الذي لم يقع مراده عاجزٌ ضعيفٌ و العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً و هو ظاهر.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه فأن قيل الفساد أمّا يلزم عند إختلافهما في الإرادة و أنتم لا تدعون و جوب الإختلاف فيها بل أقصى ما تدعونه أنّ إختلافهما فيها ممكنٌ فإذا كان الفساد مبنياً على الإختلاف في الإرادة و هذا الإختلاف ممكنٌ و المبنّي على الممكن ممكنٌ، فكان الفساد ممكناً و واقعاً فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد.

قلنا لعلّه سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناءً على الظاهر من حيث أنّ الرّعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التّغالب.

والثاني: و هو الأقوى أن يبيّن لزوم الفساد لا من الوجه الذي ذكرناه بل من وجهٍ آخر.

فنقول: لو فرضنا ألّهين لكان كلّ واحدٍ منهما قادراً على جميع المقدورات فيفضي الى وقوع مقدورٍ من قادرين مستقلّين من وجهٍ واحدٍ و هو محال لأنّ إستناد الفعل الى الفاعل لإمكانه فإذا كان كلّ واحدٍ منهما مستقلّاً بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده الى هذا لكونه حاصلّاً منهما جميعاً فيلزم إستغناؤه عنهما معاً و إحتياجه اليهما معاً محال و هذه حجّة تامّة في مسألة التّوحيد فنقول القول بوجود الإلهين يفضي الى إمتناع وقوع المقدور لواحدٍ منهما و إذا كان كذلك و جب أن لا يقع ألبتة و حينئذٍ يلزم الفساد قطعاً.

أو نقول لو قدرنا الإهين فأما أن يتفقا أو يختلفا فإن إتفقا على الشئ الواحد مقدورٌ لهما و مرادٌ لهما فيلزم وقوعه بهما و هو محال و إن اختلفا فأما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر و الكل محال فثبت أن الفساد لازمٌ على كل التقديرات إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول: ما ذكره لا بأس به إلا أنه يتم على مذهب كثير من الفلاسفة لولا أكثرهم لذهابهم العلتين على معلولٍ واحدٍ و هو مذهب كثير من الفلاسفة لولا أكثرهم لذهابهم الى أن الواحد لا يصدر إلا من الواحد كما أن الواحد لا يصدر منه إلا الواحد فمن ذهب الى صحة هذه القاعدة وتماميتها يقول بليستحالة صدور معلولٍ واحدٍ من عليتين مستقلتين و من أنكر القاعدة لا يقول بالاستحالة و قد رأيت في بعض تأليفات الرّازي على ما يبالي إنكاره لصحة القاعدة فكيف إستدل بها في المقام و لنا أيضاً في صحة القاعدة و تماميتها كلام في محلّه و لذلك لم نحتج بما احتج به الرّازي في المقام و محصل الكلام أن النظم الكلي في نظام عالم الوجود ممّا في السموات و الأرض يقتضي عقلاً أن يكون خالق العالم و مدبره واحداً إذا لشركه في الخالقية و تدبير أمور الخلق توجب إختلال النظام و فساد الأركان مضافاً الى أن تعدد الآلهة أمرٌ غير معقول في نفسه مع قطع النظر عن فساد العالم على ما مرّ بيانه و ذلك لأن الإلهين أو الإله أما أن يكونا موجودين أو معدومين لا سبيل الى الثاني لأنّ المعدوم لا يكون ألهاً فلا يكون خالقاً. و هو معلوم و إذا كانا موحدين كما هو المفروض فلا بدّ و أن يشتركا في الوجود و يمتاز كل واحدٍ منهما عن الآخر بنفسه.

و من المعلوم أن ما به الإشتراك غير ما به الإمتياز إذ لولا ذلك لأنتفت الأثنية، و إذا كان ما به الإشتراك غير ما به الإمتياز يلزم أن يكون كل واحدٍ منهما مركباً ممّا به يشارك الآخر و ممّا به إمتاز عنه و كل مركبٍ فهو مفتقر الى أجزاءه و كل مفتقرٍ ممكن الوجود لذاته فيلزم أن يكون الواجب لذاته ممكن الوجود لذاته هف.

فإذاً واجب الوجود لا يكون إلا واحداً و ما عداه ممكن مفترق اليه المطلوب.

ثانياً: نقول أنّ أحد الإلهين أو الإله أَمَا أن يكون كافياً في خلق العالم و تدبيره أو لا يكون إلا بمشاركة الغير فعلى الأول هو الإله و ما سواه عبث ضائع غير محتاج اليه.

و على الثاني فالكلّ متّصف بالضعف و العجز و ما كان عاجزاً ضعيفاً فهو مخلوق و المخلوق لا يكون واجب الوجود و هو أيضاً ظاهر و الدلائل العقلية في المقام كثيرة و فيما أشرنا إليه كفاية لأولى الدراية و الى هذا المعنى أشار الله بقوله: فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ أَي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنزَةً عَنِ الشَّرِيكِ فَإِنَّ الشَّرْكَ بِاللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ لِقْمَانَ حَيْثُ قَالَ: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(١).

لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ

إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء و ليس لغيره من المخلوق أن يفعل ما يشاء فهو تعالى لا يسئل عما يفعل لأنه فعل ما فعل في ملكه و غيره مسئول عن فعله لأنه فعل ما فعل في ملك غيره أي في ملك الله فهو عاص متجاوز عن حدّه فلا جرم يسئل المالك الحقيقي عنه و قد أطال الرّازي البحث في هذا الكلام و نحن نذكر شرطاً ممّا ذكره.

قال المسئلة الثانية: في الدلالة على أنّه سبحانه لا يسئل عما يفعل إمّا أهل السنّة فإنهم استدلوا عليه بوجوده.

أحدها: أنّه لو كان كلّ شيء معتلاً بعلّة لكانت عليّة تلك العلة معللة بعلّة أخرى و يلزم التّسلسل فلا بدّ في قطعه من الإنتهاء الى ما يكون غنياً عن العلة و أولى الأشياء بذلك ذات الله و صفاته و كما أنّ ذاته منزّهة عن الإفتقار الى

المؤثر والعلّة و صفاته مبرّاة عن الإفتقار الى المبدع و المخصّص فكذا فاعليّته يجب أن تكون مقدّسة عن الإستناد الى الموجب و المؤثر إنتهى.

أقول: أمّا أنّ كلّ شيءٍ معلّلٌ بعلةٍ فهو قاعدة عقليةٌ كليّةٌ لا تقبل التّخصيص إذ لا تخصيص في العقليّات و إلّا يلزم وجود المعلول بدون العلة و هو غير معقول بل من المحالات و أمّا قوله لكانت عليّة تلك العلة معلّلة بعلةٍ أخرى، فهو كلامٌ عابر عن التّحصيل كيف و العليّة من الأمور الإنتزاعيّة التي تنتزع عن ذات العلة و الأمر الإنتزاعي يدور مدار منشأ الإنتزاع يوجد بوجوده و يعدم بعدمه وليست العليّة من الأمور المتحصّلة الموجودة في الخارج حتّى يقال فيها ما يقال في غيرها فهي تقطع بقطع الإنتزاع.

فقوله لا بدّ في قطعه من الإنتهاء الى ما يكون غنيّاً عن العلة، لا نفهم معناه و كيف يعقل أن يكون المعلول غنيّاً عن العلة و أعجب من ذلك كلّه قوله و كما أنّ ذاته منزّهة عن الإفتقار الى المؤثر و العلة و صفاته كذلك، فكذا فاعليّته يجب أن تكون مقدّسة عن الإستناد الى الموجب و المؤثر، وجه التّعجب أنّه لم يفرّق بين الذات و الفعل الصّادر عنه ففاس أحدهما بالآخر ولم يعلم أنّ الفعل يحتاج الى الفاعل و هو المؤثر في إيجادّه لأنّه أثر الفاعل و الأثر مفتقرٌ الى المؤثر قطعاً و هذا بخلاف الذات الواجبي فأنّه ليس أثراً لشيءٍ آخر حتّى يحتاج إلى المؤثر.

قال الزاوي وثانيهما: أنّ فاعليّته، لو كانت معلّلة بعلةٍ لكانت تلك العلة أمّا أن تكون واجبة أو ممكنة فإن كانت واجبة لزم من وجوبها كونه فاعلاً و حينئذٍ يكون موجباً بالذات لافاعلاً بالإختيار و أن كانت ممكنة كانت تلك العلة فاعلاً لله تعالى أيضاً فتفتقر فاعليّة لتلك العلة إلى علةٍ أخرى و لزم التّسلسل محال إنتهى.

و الجواب أنّ فاعليّته معلّلة بعلةٍ هي ذاته تعالى قوله أنّ العلة أمّا أن تكون واجبة أو ممكنة، نقول أنّها واجبة، و قوله لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلاً فيكون موجباً بالذات لافاعلاً بالإختيار.

نقول في جوابة لا ملازمة بين وجوب العلة و وجوب كونه فاعلاً بل هي أي العلة و هي الذات المقدسة فاعل بالإختيار أن شاء فعل و أن لم يشاء لم يفعل و ليس فاعلاً بالإيجاب كما هو ثابت في محلّه.

قال الرّازي و ثالثها: أنّ علة فاعلية الله تعالى للعالم أن كانت قديمة لزم أن تكون فاعلية للعالم قديمة فيلزم قدم العالم و أن كانت محدثة إفتقرت إلى علة و لزم التسلسل إنتهى.

و الجواب أنّ الفاعلية غير الفعل لأنها منتزعة عن الفعل فوجودها يدور مدار وجود الفعل فما لم يوجد الفعل لا يقال لموجده أنّه فاعلٌ فقولهُ أنّ علة فاعلية الله أن كانت قديمة لزم أن تكون فاعلية قديمة فيلزم قدم العالم أن كان مراده بالفاعلية القدرة على الفعل فهي قديمة و لا يلزم منه قدم العالم كما زعم الرّازي لأنّ العالم لم يوجد بعد و أن كان مراده منها مفهومه المنتزع عن الفعل فهو حادث و لا إشكال فيه و هكذا الكلام في سائر أدلته التي ذكرها في المقام فأنتك بعد إمعان النظر فيها تقدر على الجواب عنها هذا كلّهُ مع أنّ البحث في الآية أجنبيّ عن هذه الأمور فأذن الله تعالى يقول لا يسأل الله عمّا يفعل، و أيّ ربطٍ بينه و بين ما ذكره الرّازي من كون الشّيء معلّ أو غير معلّل إلى آخر ما ذكره، فمعنى الكلام أنّ الله تعالى خالق لجميع الموجودات فكُلّ ما سواه مخلوق له و ليس للمخلوق أن يسأل خالقه عن خلقه إياه و غيره فيقول لخالقه لم خلقتني أو لم خلقت العالم فأذن هذا السّؤال قبيح عقلاً و هذا لا يحتاج إلى الإستدلال و لا سيّما عن الخالق العالم بجميع الأمور و هذا ظاهر.

و أمّا قوله: **وَ هُمْ يُسْأَلُونَ،** فأنّه حقٌّ لا مرية فيه لأنّه تعالى خلقهم و أعطاهم النعم الكثيرة التي لا تعدّ و لا تحصى كما قال تعالى: **وَ إِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا** فله أن يسألهم عن كيفية مصرفها في الدنيا ثمّ كلّفهم بالتكاليف الشرعية من الواجبات و المحرّمات و هو تعالى سائلهم عنها أيضاً و حقٌّ له أن يسأل عقلاً.

نعم ورد في الأخبار الواردة عن الأئمة أن الله يسألهم عما عهد إليهم يسألهم عما قضى عليهم و سيأتي الكلام في هذا الباب عند قوله تعالى: وَقَفْوَهُمْ أَنَّهُمْ مَسْئُلُونَ فإنتظره فأَنَّ الله تعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم سدى:

قال الله تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ^(١).

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ إِلَهَةٍ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ

ثم كرر تعالى عليهم الإنكار والتوبيخ فقال أم أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ أَيْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، ألهة إستفظاعاً لشأنهم وإستعظاماً لكفرهم وزاد في هذا التوبيخ قوله: مِنْ دُونِهِ، فكأنه وبَّخهم على قصد الكفر بالله عز وجل ثم دعاهم إلى الإتيان بالحجة والبرهان على ما إتخذوا فقال: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، ومن المعلوم أنه لا حجة تقوم على أَنَّ لهُ تعالى شريكاً لا من جهة العقل ولا من جهة النقل بل كتب الله السابقة شاهدة بتزيهه تعالى عن الشركاء والأنداد كما في الوحي الذي جئتكم به، ثم قال هذا ذكر من معي، أي عظةً للذين معي وهم أمته، و ذكر للذين من قبلي وهم أمم الأنبياء، فالذكر في الآية يراد به الكتب الإلهية ويجوز أن يكون، هذا، إشارة إلى القرآن والمعنى فيه ذكر الأولين والأخرين فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشرع لهم و ذكر الأولين بقصص أخبارهم و ذكر الغيوب في أمورهم والمعنى على هذا عرض القرآن في معرض البرهان أي هاتوا برهانكم فهذا برهاني في ذلك ظاهر، وقيل معنى، معي، هنا، عندي، والمعنى هذا ذكر من عندي ومن قبلي أي أذكركم بهذا القرآن الذي عندي كما ذكر الأنبياء من قبلي أقمهم و قرأت فرقة، ذكر من بالإضافة، و ذكر مَنْوناً من

قبلي بكسر الميم، من، و عليه فالمعنى هذا القرآن ذكر من معي من أمّتي و هو أي القرآن ذكرٌ من قبلي من الأنبياء أيضاً ثم قال تعالى بل أكثرهم لا يعلمون الحق، أي أصل شرهم و فسادهم هو الجهل و عدم التمييز بين الحقّ و الباطل و من ثمّ جاء الإعراض عنه و على هذا فالحقّ نصب على المفعول به و قال ابن عطية حكّم الله تعالى عليهم بأن أكثرهم لا يعلمون الحقّ لإعراضهم عنه و ليس المعنى فهم معرضون لأنّهم لا يعلمون بل المعنى فهم معرضون و لذلك لا يعلمون الحقّ إنتهى.

أقول: ما ذكره هذا القائل من قبيل الأكل من القفا و ذلك لأنّ الإعراض عن الشئ عن الجهل به لا أنّ الجهل مسبّب عن الإعراض ولو كان كذلك لقال بل أكثرهم أعرضوا عن الحقّ لعدم علمهم به و الحقّ أنّ الفاء للتفريع و المعنى أنّهم لا يعلمون فهم معرضون عنه فعلة الإعراض هي الجهل، ثمّ أنّ في الآية إشعار بل دلالة على أنّ العاقل لا يسلك مسلكاً لا دليل على صحّته في جميع أموره و لا سيّما في دينه و عبادته فكيف إنّخذوا الأصنام و الأخشاب و غيرها من الجمادات ألهة و لا برهان لهم على صحّة ذلك قل يامحمد لهم عاتوا برهانكم، و حيث لا برهان لهم فهم خارجون عن العقلاء و هو ظاهر.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

لما ذكر الله تعالى علمهم بالحقّ و إعراضهم عنه أخبر في هذه الآية أنّه ما أرسل من رسولٍ إلّا جاء مقرراً لتوحيد الله و إفراده بالإلهية و الأمر بالعبادة و لما كان قوله: مِنْ رَسُولٍ عَامّاً لفظاً و معنىً أفرد على اللفظ في قوله: إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ، و لم يقل نوحى إليهم، ثمّ جمع على المعنى في قوله: فَاعْبُدُونِ بكسر التّون أي فأعبدوني، حذفت الياء و بقيت الكسرة للدلالة عليه و يحتمل أن يكون الأمر له قاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و لأمتّه و هذه العقيدة من توحيد الله لم تختلف فيها

بالنبوت و أتما و مع الإختلاف في أشياء من الأحكام، ثم أن القراءة المشهورة في الآية نُوحِيْ بِاللُّوْنِ و قرأ بعضهم بالياء و فتح الحاء بصيغة المجهول.
 قال الرُّماني: إِيَّا، في قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، صفة وليست بإستثناء لأنك لا تقول لو كان معنا إِيَّا زيد لهلكنا على الإستثناء لأن ذلك محال من حيث أنك لم تذكر ما تستثنى منه كما لم تذكر في قولك كان معنا إِيَّا زيد فهلكننا، قال الشاعر:
 و كلَّ أخٍ مفارقة أخوه لعمر أبيك إِيَّا الفرقدان
 أراد و كلَّ أخٍ يفارقه أخوه غير الفرقدين، إنتهني.
 أقول: و على هذا فمعنى قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لا إله غير الله ثم أن الله تعالى نزّه نفسه عما نسبوا إليه من الولد فقال:

و قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ

قيل نزلت الآية في خزاعة حيث قالوا أن الملائكة بنات الله و قالت النصارى نحو هذا في عيسى و قالت اليهود في عزيز أو المسيح و القائل بنزول الآية في خزاعة صاحب الكشاف و تبعه على ذلك القرطبي و الرّازي ممن تأخر عنه و المشهور بين القدماء من المفسرين أنها نزلت في جميع الكفار القائلين بهذه المقالة السخيفة وكيف كان فالأمر سهل فإن الله حكى عن هؤلاء الكفار الذين تقدّم ذكرهم أنهم قالوا إِيَّا نَتَّخِذُ الرَّحْمَنَ وَلَدًا من ملائكة أو من غيرهم فقال جلّ ثناؤه إستعظماً ممّا قالوا و تَبْرِيّاً ممّا وصفوه به، سبحانه، أي أنه تعالى منزّه عن ذلك بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ أي هؤلاء الذين جعلوهم أولاد الله هم عبيد له مكرمون لديه.

نقل الطبري عن قتادة في هذه الآية أنه قال قالت اليهود أن الله تعالى صاهر الجن فكانت منهم الملائكة و أتما نزّه الله نفسه من ذلك لأنه لا يجوز عليه التّبني لأنّ التّبني إقامة المتخذ لولد غيره مقام ولده لو كان له فإذا إستحال أن يكون له تعالى ولد على الحقيقة إستحال أن يقوم ولد غيره مقام ولده و لذلك

لا يجوز أن يشبه بخلقه على وجه المجاز لما لم يكن مشبهاً على الحقيقة قاله الشيخ في التبيان.

وقال الرّازي ثمّ أنّه تعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله: **سُبْحَانَهُ** لأنّ الولد لا بدّ وأن يكون شبيهاً بالوالد فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه ثمّ لا بدّ وأن يخالفه من وجهٍ آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التّركيب في ذات الله وكلّ مرّكب ممكن فإتخاذه للولد يدلّ على كونه ممكناً غير واجب يخرج عن حدّ الإلهيّة ويدخله في حدّ العبوديّة ولذلك نزه نفسه عنه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول: ما ذكره الرّازي لا بأس به في الأصل إلاّ أنّه خارج عن مورد البحث في المقام لأنّ الآية ليست بصدد بيان نفي الولد عن الله تعالى وأنّه يمكن أن يكون له ولد أو لا بل الآية ناظرة إلى نفي إتخاذ الولد لنفسه بمعنى أنّه تعالى إنّخذ ولد غيره ولداً لنفسه مثل عيسى عليه السلام وعزير وعبارة أخرى أنّهم قالوا إنّخذ الرّحمن ولداً لنفسه ولم يقولوا أنّ لله ولد والفرق واضح نعم لو قالوا للرّحمن ولد لثمّ ما ذكره الرّازي فكأنّه غفل عن هذه الدّقيقة وكيف كان أنّه تعالى نفي ذلك بقوله: **سُبْحَانَهُ**، أي أنّه منزهٌ ومبرأٌ عمّا يقولون من إتخاذ الولد سواء كان الولد من الملائكة أم من البشر فما قاله الرّمخشري من أنّه مخصوص بالملائكة لا دليل عليه بل هو عامّ يشمل الملائكة وغيرهم ثمّ قال تعالى بل عبادٌ مكرمون، الجمهور على التّخفيف وقرأ عكرمة بالتّشديد، وكلمة (بل) للإضراب أي أنّ الذين زعمتم أنّهم أولاد لله تعالى عباد له ومن المقرّبين فضّلوا على غيرهم لمكان عبوديتهم وكيف يكون العبد ولداً ثمّ وصفهم.

بقوله: **لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**

أي لا يقولون شيئاً حتّى يقوله فلا يسبق قولهم قوله: **وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** فكما أنّ قولهم تابع لقوله كذلك فعلهم مبنيّ على أمره لا يعملون عملاً ما لم

يؤمروا به و هذه عبارة عن تَوَغُّلهم في طاعته و الإمتثال لأمره فأَنَّ من كان قوله تابعاً لقول الله و فعله و عمله تابعاً لأمره و نهيه فهو في كمال الطاعة، إذ لا نعني بالمطيع إلا هذا قال الإمام الهادي عليه السلام في الزيارة المشهورة بالجامعة الكبيرة: «السَّلام على الدُّعاة إلى الله و الأدلاء على مرضاة الله و المستقرين في أمر الله و التَّامين في محبة الله و المخلصين في توحيد الله و المظهرين لأمر الله و نهيه و عباد المكرمين الَّذِينَ لا يسبقونه بالقول وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ».

و هذا الكلام منه عليه السلام دليل على أَنَّ المراد بالعباد المكرمين في الآية ليس الملائكة أو لا يختص بهم كما ذهب إليه بعض المفسرين بل لو قلنا أَنَّ العباد ظاهرٌ في الإنسان و لا تطلق على الملائكة إلا بضربٍ من المجاز لا إشكال فيه و أنما وصفهم الله تعالى بالمكرمين لأنَّ التَّقرب إلى الله تعالى لا يحصل إلا بالطاعة و الإتياد على وجه الأتمُّ الأكمل و الطاعة كذلك لا تحصل إلا بالقول و العمل معاً لا بواحدٍ منهما لأنَّ الطاعة بالقول فقط دون العمل نفاق، و العمل دون القول جهل، و الجاهل و المنافق مطرودان مردودان عن ساحة القرب و المتَّصف بهما معاً هو المطيع المقرب عند الله و هذا ظاهر لا خفاء فيه.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَ هُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ

قال ابن عباس معناه، يعلم ما قَدَّموا و ما أَخروا من أعمالهم و قال الكلبي ما بين أيديهم، يعني القيامة و أحوالها و ما خلفهم، يعني من أمر الدنيا.

أقول: ما ذكره ابن عباس في تفسير الكلام أقرب بسياق الكلام و ظاهر اللَّفظ ممَّا ذكره الكلبي و غيره، و قيل معناه يعلم ما كان قبل أن خلقهم و ما كان بعد خلقهم و ممَّا كانوا مقهورين تحت أمره و ملكوته و هو محيطٌ بهم لم يجسروا على أن يشفعوا إلا لمن إرتضاه الله ثمَّ هم مع ذلك من خشيته أي من خشية ربِّهم مشفقون أي خائفون حذرون لا يأمنون.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره ما هذا لفظه:
 فقلوه: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ، إستئناف في مقام التعليل لما
 تقدّمه من قوله، لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون، كأنه قيل أنما لم يقدموا
 على قولٍ أو عملٍ بغير أمره تعالى لأنه يعلم ما قدّموا من قولٍ و عملٍ و ما
 أخروا فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث أنهم يعلمون ذلك و هو معنى جيد
 في نفسه لكنه إنما يصلح لتعليل عدم إقدامهم على المعصية لا لتعليل قصر
 عملهم على مورد الأمر و هو المطلوب.

على أن لفظ الآية لا دلالة فيه على أنهم يعلمون ذلك و لو لا ذلك لم يتم
 البيان إنتهى كلامه.

و قال في قوله: وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ أَرْتَضَى، تعرّض لشفاعتهم لغيرهم
 و هو الذي تعلّق به الوثنيون في عبادتهم الملائكة كما بينى عنه قولهم، هؤلاء
 شفعاؤنا عند الله و أنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، فردّ الله تعالى عليهم
 بأنّ الملائكة أنما يشفعون لمن إرتضاه الله و المراد به إرتضاء دينه لقوله: إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ^(١) فالإيمان بالله من غير
 شرك هو الإرتضاء و الوثنيون مشركون، و قال في قوله: وَ هُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ
 مُشْفِقُونَ هي الخشية من سخطه و عذابه مع الأمن منه بسبب عدم المعصية
 و ذلك لأنّ جعله تعالى إياهم في أمنٍ من العذاب بما أفاض عليهم من العصمة
 لا يحدّد قدرته تعالى و لا ينتزع الملك من يده فهو يملك بعد الأمن كما كان
 يملكه من قبله و هو على كلّ شيءٍ قدير و بذلك يستقيم معنى الآية التالية إنتهى
 كلامه رفع مقامه.

أقول: يظهر ممّا ذكره تعالى في تفسير الآية أنها نزلت في قوم إتخذوا الملائكة
 معبودين لأنفسهم و جعلوهم شفعاء عند الله و ليس في الآية من الملائكة
 عينٌ و لا أثر فأنت.

قوله: **قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا** لا دليل فيه على أنهم إتخذوا الملائكة للرحمن ولداً فحمل الآية على العموم أولى مضافاً الى أنهم لم يثبتوا الولد لله تعالى بل أثبتوا له أنه إتخذ الولد أي أنه تعالى إتخذ عيسى مثلاً أو عزيزاً ولداً لنفسه و هو واضح فمعنى الآية أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم كان محاطاً بعلمه تعالى لا يكون إلهاً و لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن إرتضاه و هو أيضاً دليل على ضعفهم و إحتياجهم الى إذن الله في الشفاعة و من كان كذلك لا يكون إلهاً و هم من خشية الله مشفقون خائفون و الإله لا يكون خائفاً فقد ثبت بهذه الدلائل أنّ ما جعلوه ولداً له تعالى أو بمنزلة الولد ثم عبوده مخلوق له و كلّ مخلوق، لا ينبغي أن يعبد بل المعبود الذي ينبغي أن يعبد هو الذي خلق الأشياء و ما سواه مفتقر إليه لم يتخذ صاحبةً و لا ولداً ولم يكن له شريك في الملك و هو الواحد القهار.

وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

أي و من يقل من هؤلاء المعبودين لهؤلاء الكفار إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ أي من دون الله فنجزيه جهنم لكونه ظالماً و يستفاد من قوله: **وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ** أنه إن لم يقل بذلك أي لم يقر ولم يعترف بالوهية نفسه فلا حرج عليه و لا نجزيه جهنم لأنه ليس ظالماً، و هو كذلك و بعبارة أخرى يثبت الظلم لمن إدعى الربوبية و رضى بها و أمّا من لم يدّعه فلا ذنب له و إنّما الذنب ثابت لمن إتخذه رباً، من الجهال الذين وضعوا الشئ في غير موضعه و أداة الشرط تدخل على الممكن و الممتنع نحو قوله: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** (١).

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ
جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ

الهمزة، في قوله: أَوْ لَمْ يَرَ إِسْتِفْهَامٌ لِلتَّوْبِيخِ لِمَنْ إِدْعَى مَعَ اللَّهِ إِلَهُ مِنَ الْكُفَّارِ
و فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنِ الشُّرْكِ وَمَعَ ذَلِكَ تَوْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَدْلَةِ التَّوْحِيدِ
و رَدٌّ عَلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ وَكُلِّ مَنْ إِتَّخَذَ لِنَفْسِهِ إِلَهًا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ الْوَاحِدِ
الْأَحَدِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْإِلَهَ الْقَادِرَ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَّصِرِفِ فِيهَا
كَيْفَ يَشَاءُ كَيْفَ يَجُوزُ فِي الْعَقْلِ أَنْ يَعْدَلَ عَنِ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ حَجَرٍ أَوْ صَنْمٍ
أَوْ كُلِّ مَخْلُوقٍ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

و الرُّؤْيِيَّةُ، فِي قَوْلِهِ: أَوْ لَمْ يَرَ قِيلَ هِيَ رُؤْيِيَّةُ الْقَلْبِ وَ قِيلَ رُؤْيِيَّةُ الْبَصَرِ عَلَى
الْإِخْتِلَافِ فِي الرُّتْقِ وَ الْفَتْقِ وَ قَوْلُهُ: أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَالَ الزَّجَاجُ
السَّمَوَاتِ جَمْعٌ لِفِظًا وَ لَكِنْ أُرِيدُ بِهِ الْوَاحِدُ وَ لِهَذَا قَالَ كَانَتَا رَتْقًا، لِأَنَّهُ أَرَادَ
السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ، وَ مِنْهُ إِنَّ اللَّهَ يُفْسِكُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا^(١) جَعَلَ
السَّمَوَاتِ نَوْعًا وَ الْأَرْضِينَ نَوْعًا فَأَخْبَرَ عَنِ التَّوَعِينِ كَمَا أَخْبَرَ عَنِ إِثْنَيْنِ كَمَا
تَقُولُ أَصْبَحْتَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَ مَرَّبْنَا غَنَمَانَ أَسْوَدَانَ لِقَطِيعِي غَنَمٍ إِتْمَهِي.

و قال: الحوفي قال كانتا رتقا، و السموات جمع لأنه أراد الصنفين و منه قول
الشاعر:

أَنْ الْمَنِيَّةُ وَ الْحَتُوفُ كِلَاهِمَا يُوْفِي الْمَحَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي

لأنه أراد التوعين و قال أبو البقاء الضمير يعود على الجنسين.

و قال الزمخشري و أنما قال كانتا دون، كن، لأن المراد جماعة السموات و
جماعة الأرض و نحوه قولهم لقاعان سواد او ان، أراد جماعتان، فعل في
المضمرة ما فعل في المظهر انتهى.

وقال ابن عطية و قال كانتا من حيث هما نوعان و نحوه قول الشاعر:
 ألم يحزنك أن جبال قيس و تغلب قد تباينت إنقطاعاً
 و قال ابن عباس و الحسن و قتادة و غيرهم كانتا شيئاً واحداً ففصل الله
 بينهما بالهواء و قال كعب، خلق الله السموات و الأرض بعضها على بعض ثم
 خلق ريحاً بوسطها ففتحتها بها و جعل السموات سبعاً و الأرضين سبعاً.
 و قال مجاهد و السدي و أبو صالح، كانت السموات و الأرض مؤتلفة طبقةً
 واحدة ففتقها سبع سموات وكذلك الأرضون كانت مرتقة طبقةً واحدة ففتقتها
 و جعلها سبعاً.

و قالت فرقة، السموات و الأرض رتق بالظلمة و فتقها الله بالضوء و قالت
 فرقة أخرى، السماء قبل المطر رتق و الأرض قبل النبات رتق ففتقهما بالمطر و
 النبات كما قال: **وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرِّجْعِ، وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**^(١).

قال ابن عطية هذا قول حسن بجمع العبرة و تعديد النعمة و الحجة
 للمحسوس يبين و يناسب قوله: **وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** أي من
 الماء الذي أوجده الفتق إنتهى.

و على هذين القولين تكون الرؤية من البصر و على ما قبلها من رؤية القلب
 و جاء تقريرهم بذلك لأنه و ارد في القران الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام
 المرئي المشاهد و لأن تلاصق الأرض و السماء و تباينهما كلاهما جائز في
 العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص و هو الله سبحانه.

وَ اعْلَمُ أَنَّ الْجُمْهُورَ قَرَأُوا رَتَقًا بِسُكُونِ التَّاءِ وَ هُوَ مُصَدَّرٌ يُوصَفُ بِهِ كَرُوزٌ عَدْلٌ
فَوْقَ خَبْرٍ لِلْمَثْنَى.

و قرأ الحسن و زيد و أبو حياة و عيسى رتقاً بفتح التاء و هو اسم المرتوق
 كالقبض و النفض فكان قياسه أن يبني ليطابق الخبر الإسم.

و قال الزّمخشري هو على تقدير موصوفٍ أي كانتا شيئاً رتقاً، وأما قوله و جعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيٍّ، قال المفسّرون جعلنا أن تعدّت لواحدٍ كانت بمعنى و خلقنا من الماء كل حيوانٍ أي مادّته النُطفة قاله قطرب و جماعة أو لما كان قوامه الماء المشروب وكان محتاجاً إليه لا يصبر عنه جعل مخلوقاً كقوله خلق الإنسان من عجلٍ، قاله الكلبي و غيره و تكون الحياة على هذا حقيقة و يكون كلّ شيءٍ عامّاً مخصوصاً إذ خرج منه الملائكة و الجنّ إذ ليسوا مخلوقين من نطفة و لا محتاجين للماء.

و قال قتادة أي خلقنا كلّ نامٍ من الماء فيدخل فيه النّبات و المعدن و تكون الحياة فيهما مجازاً و عبّر بالحياة عن القدر المشترك بينهما و بين الحيوان النّمُو و يكون أيضاً على هذا عامّاً مخصوصاً هذا إن قلنا أن، جعلنا، تعدّت لواحدٍ و أمّا أن قلنا تعدّت لأثنين فالمعنى صيرنا كلّ شيءٍ حيٍّ بسبب من الماء لابدّله منه.

و قرأ الجمهور حيٍّ، بالخفض و عليه المصاحف و هو على هذا صفة لشيءٍ، و قرأ حميد، حياً بالنصب مفعولاً ثانياً لجعلنا، و الجارّ و المجرور لغو أي ليس مفعولاً ثانياً لجعلنا قوله، أفلا يؤمنون إستفهام إنكارٍ و فيه معنى التّعجب من ضعف عقولهم و المعنى أفلا يتدّبرون هذه الأدلّة فيعلموا بمقتضاها و يتركوا طريقة الشّرك و أطلق الإيمان على سببه و قد انتظمت هذه الآية دليلين من دلائل التّوحيد و هي من الأدلّة السماوية و الأرضيّة، هذا ما ذكره في تفسير الآية ملخصاً و حيث أنّ الآية الشّريفة حاوية لأسرارٍ يجب التّنبيه عليها لابدّ لنا من البحث فيها بوجهٍ أبسط.

فنقول قال الرّاعب في المفردات، الرّتق الضّم و الإلتحام خلقه كان أم صفةً قال تعالى كانتا رتقاً ففتقناهما، أي منضمّتين و الرّتقاء الجارية المنضمّمة الشّفرتين، و فلاّن راتقٌ و فاتقٌ في كذا أي هو عاقدٌ و حالٌ إنتهى.

وقال في لسان العرب، الرَّتق ضدّ الفتق و قال ابن سيده، الرَّتق إحمام الفتق وإصلاحه رتقه رتقاً فإرتق أي إلتمأ إذا عرفت هذا فالبحت حول الآية يقع في فصول:

أحدها: في قوله: **أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ قَوْلِهِ: فَفَتَقْنَاهُمَا.**
 الثاني: في تفسير قوله: **وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ.**
 الثالث: في قوله: **أَفَلَا يُؤْمِنُونَ.**

الفصل الأول: فيه أبحاث:

أحدها: أن الهمزة في **أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا**، للتوبيخ والتقرير ويحتمل أن تكون للإنكار فعلى الأول و بَخ الله الكفار على عدم رؤيتهم ما ذكره في الآية أو قرّر لهم ذلك.

على الثاني: أنكر عليهم عدم الرؤية.

ثانيها: أن الرؤية في المقام قيل هي الرؤية بالبصر وقيل الرؤية بالقلب بمعنى العلم.

و الثاني أولى لأن الرَّتق و الفتق في السَّمَاوات و الأرض ممّا يتعلّق به العلم دون النّظر إذ لم ير أحد من البشر بعينه رتق السَّمَاوات و الأرض و ذلك لأنّ الرؤية بالبصر فرع وجود المبصر و من المعلوم عدم وجود البشر حين الرّتق و أمّا الرؤية بالقلب المعبر عنه بالرؤية العلمية فأنّها تحصل للإنسان من طريق الآثار و على هذا فقوله: **أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا**، معناه أولم يعلموا.

ثالثها: قوله: **رَتَقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**، قد مضى الكلام في معنى الرّتق و أنّه ضدّ الفتق و معنى الكلام أن أطباق السَّمَاوات كانت رتقاً يتّصل بعضها ببعض بنحو الإلتصاق ففتقها سبعا و هي السَّمَاوات قال أمير المؤمنين عليه السلام و كان من إقتدار جبروته و بديع لطائف صنعه أن جعل من ماء البحر الزّآخر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثمّ فطر منه أطباقاً ففتقها سبع سموات بعد إرتفاقها

فإستمسكت بأمرو أو قامت على حدّه و أرسى أرضاً يحملها الأخضر
المُشعّنجر والقمام المسخّر قد ذلّ لأمره و أذعن لهيبته و وقف الجاري على
آخر كلامه^(١).

و قال عليه السلام في^(٢) وَفَتَقَ بَعْدَ الْإِزْتِنَاقِ صَوَامِتَ أَبْوَابِهَا، وَ أَقَامَ رَصْدًا مِّنَ الشُّهُبِ
التَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا النِّخ.

و قال عليه السلام في وصف الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ وَقَدَّمَهُ فِي الْإِضْطِفَاءِ
فَرَتَّقَ بِهِ الْمَمَاتِي نِخ^(٣).

و قال في^(٤) فَلَمْ يَلَمْ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعُ وَرَتَّقَ بِهِ الْفَتْقَ النِّخ.

إذا عرفت معنى الرّتق و الفتق فنقول يظهر من كلام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّ
السّموات و الأرض كانتا قبل الفتق يبساً جامداً ثم خلق الله منه أطباقاً أي
جعله أطباقاً و أمّا كيفيّة خلق السّموات و الأرض فقد قال أميرالمؤمنين عليه السلام
في الخطبة الأولى في فصل خلق العالم ما هذا لفظه:

ثُمَّ أَنْشَاءَ سُبْحَانَهُ فَتَقَّ الْأَجْوَاءِ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءِ، وَسَكَتَكَ الْهَوَى، فَأَجْزَى فِيهَا مَاءً
مَّتَلَطِطاً تَيَّارُهُ، مْتَزَاكِماً رَخَّارُهُ، حَمَلُهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، وَالرُّعْزَعِ
الْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ وَ سَاقَ الْكَلَامِ إِلَى أَنْ قَالَ عليه السلام حَتَّى عَبَّ عُبَابُهُ، وَرَمَى
بِالرُّبِيدِ رُكَامُهُ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ، وَجَوَّ مُنْفَهَقٍ فَسَوَى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ إِلَى
آخِرِ مَا قَالَ عليه السلام.

و قد أشبعنا الكلام في هذا الباب في شرحنا على التّهج بما لا مزيد عليه
أن شئت فراجع.

رابعها: قوله: **وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**، قلنا أن في الحيّ قراءة ثان، قراءة الخفض و قراءة النَّصْب فمن قرأه بالخفض جعله صفة، و من قرأ بالنَّصْب (حيّاً) جعله مفعولاً ثانياً لجعلنا و الجار و المجرور لغو أي ليس مفعولاً ثانياً لجعلنا، و أمّا على القراءة الأولى فهو أي الجارّ و المجرور يكون مفعولاً ثانياً له و التّقدير و جعلنا كلّ شيءٍ حيّاً من الماء، ثمّ أنّ جعلنا إن تعدّت لواحدٍ كانت بمعنى، و خلقنا أي و خلقنا من الماء كلّ حيوانٍ أي مادّة النُّطفة قاله قطرب أو لمّا كان قوامه الماء المشروب و كان محتاجاً إليه لا يصبر عنه جعل مخلوقاً منه كقوله خلق الإنسان من عجلٍ و على هذا فتكون الحياة حقيقية و يكون كلّ شيءٍ، عامّاً مخصوصاً إذ خرج منه الملائكة و الجنّ و كلّ ما ليس مخلوقاً من نطفة محتاجين إلى الماء.

و قال قتادة أي خلقنا كلّ نام من الماء فيدخل فيه النّبات و المعدن على التّبّع و تكون الحياة فيهما مجازاً.

و أن تعدّت لأثنين فهو أي جعلنا بمعنى صيّرنا أي صيّرنا كلّ شيءٍ حيٍّ بسبب من الماء لا بدّ له منه، و إختار الجمهور الخفض و عليه المصاحف فعلاً و إختار حميد النَّصْب و هو شاذّ، و على مذهب الجمهور فالمعنى جعلنا من الماء كلّ شيءٍ أي كلّ موجودٍ متصفٍّ بالحياة أو صيّرنا من الماء كلّ موجودٍ كذلك و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أنما الكلام في معنى الحياة هل المراد بها الحياة حقيقةً أو مجازاً فالإحتمالات في المقام ثلاثة:

الحياة حقيقةً في الكلّ.

الحياة مجازاً في الكلّ.

الحياة حقيقةً بالنسبة إلى بعض و مجازاً بالنسبة إلى آخر.

و لتوضيح المقام لا بدّ لنا من معنى الحياة فنقول الحياة نقيض الممات هي الوجود فإذا قلنا أنّ الشّيء موجود معناه له حياة و هذا بحسب اللّغة و العقل

واضح لا خفاء فيه و إذا كان الحَقُّ نقيض الميت فمعناه أنه موجود إذا عرفت هذا.

فأعلم أنّ الحياة تستعمل على أوجه.

الأول: للقوة التامة الموجودة في النبات والحيوان ومنه قيل نبات حيّ أو

حيوان حيّ.

قال الله تعالى: **إِغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** (١).

الثانية: للقوة الحاسة وبه سمّي الحيوان حيواناً.

قال الله تعالى: **وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْواتُ** (٢).

قال الله تعالى: **إِنَّ الَّذِي أَخْبَاهَا لَمْخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**

قَدِيرٌ (٣).

الثالثة: للقوة العاملة العاقلة.

قال الله تعالى: **أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** (٤).

قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حياً
ولكن لا حياة لمن تنادي
الرابعة: الحياة عبارة عن إرتفاع الغم.

قال الشاعر:

ليس من مات وإستراح بميت
أما الميت ميت الأحياء

وعلى هذا قوله تعالى: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا**

بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (٥) أي هم متلذذون.

الخامسة: الحياة الأخروية الأبدية:

قال الله تعالى: **وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهي أَلْحَيوانٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** (٦).

٢- فاطر = ٢٢

٤- الأنعام = ١٢٢

٦- العنكبوت = ٦٤

١- الحديد = ١٧

٣- فصلت = ٣٩

٥- آل عمران = ١٦٩

السادسة: الحياة التي يوصف بها البارئ تعالى فأنه إذا قيل أنه تعالى، حَيٍّ، معناه لا يَصَحُّ عليه الموت وليس ذلك إلا لله عزَّ وجلَّ و الحياة باعتبار الدنيا و الأخره ضربان، الحياة الدنيا و الحياة الأخره و قد أشار الله تعالى إليها في القرآن في موارد كثيرة كما لا يخفى إذا عرفت معاني الحياة و موارد إستعمالاتها.

فَاعْلَمْ أَنْ قَوْلَهُ: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، يمكن أن يراد بالحياة في الآية جميع أقسامها المذكورة إلا السادس منها و هو حياة الله تعالى التي هي عين ذاته و ذلك لأنَّ الحياة بالمعنى الأول و هو القوَّة النَّبَاتِيَّة الموجدة في النَّبَات لاشكَّ أنَّ حياتها بسبب الماء فأَنَّ حياة النَّبَات بدون الماء غير ممكنٍ و هكذا المعنى الثاني فأَنَّ القوَّة الحسَّاسة التي بها سمِّي الحيوان حيواناً لا توجد إلا بالماء أعني به النَّظْفَة و لا يمكن لها إستمرار الحياة إلا بالماء أيضاً.

و أمَّا المعنى الثالث و هو القوَّة العاملة العاقلة فهو أيضاً يوجد بالماء أعني بها النَّظْفَة و هو الإنسان فإحتياجه إلى الماء واضح.

و المعنى الرَّابع: و هو إرتفاع الغمِّ فهو أيضاً مخصوص بالإنسان و قد ثبت أنَّه محتاج إلى الماء في حدوثه.

و هكذا الخامس فأَنَّ الحياة الأبدية الأخروية لا تكون إلا للإنسان فهذه المعاني الخمسة كلُّها حياتها بالماء أعني بها النَّبَاتات و الحيوانات و الإنسان بقي منها الجماد و حياته أيضاً بالماء كالأرض فأَنَّ حياة كلِّ شيءٍ بحسبه و على هذا فمعنى جعلنا أي خلقنا أو صيِّرنا كلَّ شيءٍ متَّصِفٍ بالحياة بسبب الماء بمعنى أنَّ الماء سببٌ لوجودها و حياتها حدوثاً و بقاءً إذ لا يقاء للحياة بدون الماء ثمَّ أنَّ الحياة على قسمين:

ذاتية و عرضية، فالذاتية منها لا تحتاج إلى سببٍ لأنَّها عين ذات الموجود و ذلك كحياة الله تعالى.

و العَرَضِيَّةُ تحتاج إلى السَّبَبِ لأنها لم تكن ثمَّ كانت فلا محالة تحتاج إلى سببٍ من الأسباب و أن شئت قلت أن العَرَضِيَّةَ داخلة في سلسلة الممكنات لأنها قد تعرض و قد لا تعرض و نسبة الممكن في حدِّ ذاته إلى الموجود و العدم على حدِّ سواء و لذلك يحتاج إلى مخرج و المخرج لا يكون ممكناً و إلاً يلزم التَّسْلُسُ و لا ممتنعاً لأنَّ ممتنع الوجود كيف يكون مخرجاً و قد ثبت أنَّ معطي الشَّيْءِ لا يكون فاقداً له فإذا هو الواجب لإحصار المفهوم في هذه الثلاثة فثبت أنَّ المخرج هو الله تعالى سبب الماء إذ أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها و هذا معنى قوله: وَ جَعَلْنَا، فالحياة العارضة على الأحياء من الله تعالى و هو المطلوب.

و قد ظهر لك ممَّا ذكرناه أنَّ الحياة إذا كانت عارضة على الشَّيْءِ بعد أن لم تكن فهي محتاجة إلى المؤثِّر و السَّبَبِ و أمَّا إذا لم تكن عارضة بل كانت عين ذات الشَّيْءِ فلا تحتاج إلى مؤثِّرٍ و حيث أنَّ الحياة في الله تعالى كذلك فلا تحتاج إلى المؤثِّر و لأجل هذا قلنا أنَّ حياته تعالى ليست من مصاديق الآية فإنَّ الآية ناظرة إلى الحياة العارضة على الشَّيْءِ بعد أن لم تكن كذلك لا الحياة التي هي عين ذات الشَّيْءِ من غير عروضٍ فلا يتعلَّق بها الجعل و الخلق أصلاً فليس لقائل أن يقول أنَّ الله تعالى أيضاً حيٌّ و كلَّ حيٍّ حياته من الماء أو بالماء فحياته تعالى بالماء إذ يقال له أنَّ الحياة فيه تعالى غيرها في غيره فأنَّها فيه ذاتية و في غيرها عرضية و المجعول هو الثَّانِي دون الأوَّل فثبت المطلوب.

الفصل الثالث: في تفسير قوله: أَفَلَا يُؤْمِنُونَ الهمزة للإستفهام الإنكاري و فيه معنى التَّعْجَبِ من ضعف عقولهم و المعنى أفلا يتدبرون في هذه الأدلة الدالة على وجود الصَّانِعِ القدير فيعملوا بمقتضاها و يتركوا طريقة الشَّرْكَ و الإنكار و على هذا فأطلق الإيمان على سببه، و قيل معنى الكلام، أفلا يصدِّقون بما أخبرتهم أو أفلا يصدِّقون بما يشاهدونه من أفعال الله الدالة على

أنه المستحق للعبادة المختص بها لا غير وأنه لا يجوز عليه إتخاذ صاحبة و
الولد و لنعم ما قال الشاعر:

تفكر في نبات الأرض و أنظر إلى آثار ما صنع الملك
ففي رأس الزبرجد شهادات بأن الله ليس له شريك
ثم ذكر الله تعالى دليلاً آخر من الدلائل الأرضية الدالة على قدرته و
حكيمته فقال.

وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا
لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

الرواسي هي الجبال واحدها راسية و هي الثابتة كما ترسو السفينة إذا
وقفت متمكنة في وقوفها و الميّد، بفتح الميم الإضطراب بالذهاب في الجهات
يقال ماد يميد ميّداً فهو مائد، وقوله: أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ، أي ألا تميد بهم، كما في
قوله: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا^(١) والمعنى ألا تضلّوا، وقوله: فِجَاجًا، الفجج
الطريق الواسع بين الجبلين و الفجاج جمعه و معنى الآية و جعلنا أي خلقنا
في الأرض رواسي أي جبالاً ثابتات، أن تميد بهم، أي منع الأرض أن تميد أي
لهذا خلقت الجبال و بعبارة أخرى جعلنا في الأرض رواسي لأجل أن لا تميد
بكم الأرض و تضطرب و قيل أنّ الأرض كانت تميد و ترجف فثقلها الله
بالجبال الرواسي لتمتع من رجوفها و الوجه في تثقيل الأرض بالرواسي مع
قدرته على إمساك الأرض بدون الجبال، هو ما فيه من المصلحة و الإعتبار و
قوله: وَ جَعَلْنَا فِيهَا أي في الأرض و قيل في الجبال فججاجاً أي طرقاتاً واسعة
بين الجبال أو في الأرض لعلهم يهتدون أي لكي يهتدون بها إلى البلاد أو إلى
وحدانية الله تعالى بالإستدلال و قيل لعلكم تهتدون، أي لكي تهتدوا فيها إلى

بنيان القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

حوائجكم و مواطنكم و بلوغ أغراضكم و يحتمل أن يكون المراد لتتهتدوا فتستدلوا بذلك إلى توحيد الله و حكمته، و قيل معناه ليظهر شكركم فيما تحبون و صبركم فيما تكرهون.

أقول الظاهر أن قوله: لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ المراد به الإهتداء تكوينياً و تشريعياً، فإن الهداية تارة تكون تكوينية و هي ظاهرة لا خفاء فيها و تارة تكون تشريعية و هي التي تنتهي إلى معرفة الله و معرفة رسوله أن أردنا بها الإيصال إلى المطلوب و أما إذا أردنا بها إراءة الطريق فقد تنتهي و قد لا تنتهي:

قال الله تعالى: **وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعِغْيَ عَلَى الْهُدَى^(١).**

و من المعلوم أن الله تعالى هو الذي يهدي إلى الحق فمن إهتدى فأنما يهتدي إلى نفسه و من ضل فعليها:

قال الله تعالى: **قَدْ جَاءَكُمْ الْخَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ^(٢).**

قال الله تعالى: **مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا^(٣).**

و الحاصل أن الإهتداء إلى الحق مطلوب عقلاً و شرعاً لأن سعادة الدارين فيه و حلوة الشأتين لا تحصل إلا به و المغفرة تتوقف عليه:

قال الله تعالى: **وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى^(٤).**

فهذه الآيات تشير إلى هذه الدقيقة التي هي الأصل في الباب.

وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ

١- يونس = ١٠٨

٢- طه = ٨٢

١- فصلت = ١٧

٣- الإسراء = ١٥

إعلم أنّ جعل، لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلّها و هو أعمّ من فعل و صنع و سائر أخواتها و يتّصرف على خمسة أوجه:

الأول: يجري مجرى صار و طفق فلا يتّعدى نحو جعل زيدٌ يقول كذا، قال الشاعر:

فقد جعلت قلوب بني سهيل من الأكوار مرتعها قريب

الثاني: يجري مجرى أوجد فيتّعدى إلى مفعولٍ واحدٍ:

قال الله تعالى: **وَ جَعَلَ الْأَنْظُمَاتِ وَ النَّوْرَ.**

قال الله تعالى: **وَ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ** (١).

الثالث: يجري في إيجاد الشّيء من شيءٍ و تكوينه منه و يسمّى بالجعل المركّب على قول الفلاسفة نحو قوله:

قال الله تعالى: **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** (٢).

قال الله تعالى: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا** (٣).

و هكذا أي أوجدنا الأزواج من أنفسكم و أوجدنا الأكنان من الجبال.

الرابع: في تصيير الشّيء على حالةٍ دون حالةٍ:

قال الله تعالى: **الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا** (٤).

قال الله تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** (٥).

الخامس: الحكم بالشّيء على الشّيء حقّاً كان أو باطلاً فأما الحقّ:

قال الله تعالى: **إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** (٦).

و أمّا الباطل:

قال الله تعالى: **وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ نَصِيبًا** (٧).

١- النحل = ٧٢

٢- البقرة = ٢٢

٣- القصص = ٧

٤- النحل = ٧٨

٥- النحل = ٨١

٦- الزخرف = ٣

٧- الانعام = ١٣٦

قال الله تعالى: **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْآبِنَاتِ** ^(١).

قال الله تعالى: **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ^(٢).

ذكر هذه الوجوه في المفردات و أنت ترى أن الذي يناسب ما نحن فيه هو الوجه الرابع أعني به تصيير الشيء على حالةٍ دون حالةٍ و على هذا فالمعنى صيرنا السماء على هذه الحالة دون غيرها، ثم أن السماء من أسماء الجنس الذي يذكر و يؤنث و يخبر عنه بلفظ الواحد و الجمع و ذلك كالنخل في الشجر.

قال في المفردات سماء كل شيء أعلاه و قال بعضهم كل سماء بالإضافة إلى ما دونها فسماء و بالإضافة إلى ما فوقها فأرض إلا السماء العليا فأنها سماء بلا أرض و على هذا حمل قوله: **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ^(٣) ذكره في المفردات أيضاً إذا عرفت هذا.

فتقول معنى الآية إننا جعلنا السماء أي صيرناه سقفاً محفوظاً و إنما ذكرها لأنه أراد السقف ولو أنت و قيل محفوظة كان جائزاً أيضاً و معنى قوله **مَحْفُوظًا** قيل أي حفظها الله من السقوط على الأرض، و قيل حفظها من أن يطمع أحد أن يتعرض لها بنقض و من أن يلحقها ما يلحق غيرها من الهدم أو الشعث على طول الدهر، و قيل هي محفوظة من الشياطين بالشهب التي يرمون بها، و الحق أن يقال أنها محفوظة بقدرة الله من الآفات كلها ثم قال تعالى: **وَ هُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ** أي أن الكفار و المنكرين لتوحيد الله عن آياتها أي عن الاستدلال بأدلتها على توحيدهم معرضون و الضمير في آياتها عائد على السماء و فيه إشارة إلى أن في السماء آيات و علامات دالة على توحيدهم و قدرته و حكمته لمن كان له قلب.

وقال بعض المفسرين في قوله: **وَ هُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ** أي عن ما وضع الله فيها من الأدلة والعبء بالشمس والقمر وسائر النيرات ومسايروها وطلوعها وغروبها على الحساب القديم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة.

وقال الزمخشري: هم يتفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والإهتداء بكواكبها و حياة الأرض والحيوان بأمطارها وهم عن كونها آية مبنية على الخالق معرضون والتنونين في كل عوض عن المضاف إليه، ثم أن الجمهور قرأوا عن آياتها بالجمع وعليها المصاحف وقرأ مجاهد وحميد عن آياتها بالأفراد، وعليه فالمراد بالآية هي السماء التي تحوي الآيات كلها ويجوز أنه أراد بها أي بالآية الجمع فجعلها إسم الجنس ودل على ذلك كثرة ما في السماء من الآيات وهم عن الإعتبار بها معرضون، والمراد بإعراضهم عنها عدم التفكر فيها والتدبر في كيفية خلقتها وقد أشار الله تعالى بذلك في كثير من الآيات الواردة في الكتاب.

قال الله تعالى: **أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ** (١).

قال الله تعالى: **قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ** (٢).

قال الله تعالى: **وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ** (٣).

قال الله تعالى: **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** (٤).

وفي مدح المؤمنين الموحدين:

قال الله تعالى: **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ عَلَى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ** (٥).

١- الأعراف = ١٨٥

٢- يونس = ١٠١

٣- الرُّوم = ٢٢

٤- البقرة = ٢١٩

٥- آل عمران = ١٩١

قال الله تعالى: **وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** (١) و
الآيات في البحث على التّفكر في الآيات كثيرة جداً بل نقول:
و في كلّ شيءٍ له آيةٌ تُدلُّ على أنّه واحدٌ
و قد مرّ الكلام في هذا الباب وسيأتي البحث فيه بوجهٍ أبسط.

**وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ**

قيل الفلك هو المجرى الذي تجري فيه الشمس و القمر بدورانها عليه و
قيل برجٌ مكفوف تجريان فيه و قيل هو طاحونة كهيئة فلك المغزل و الفلك في
اللّغة كلّ شيءٍ دائرٍ و جمعه أفلاك قال الشاعر:

باتت تناصي الفلك الدّوارا حتّى الصّباح تعمل الأقتارا

و معنى يسبحون، يجرون في قول ابن جريح و قال ابن عباس يسبحون،
بالخير و الشّر و الشّدة و الرّخاء و إنّما قال يسبحون، على فعل ما يعقل لأنّه
أضاف إليها الفعل الذي يقع من العقلاء كما قال: **وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ زَانِتُهُمْ لِي
سَاجِدِينَ** (٢) و قال بعضهم الفلك الجسم الدّائر دورة اليوم و اللّيلة و عن ابن
عبّاس الفلك السّماء و قال قتادة الفلك إستدارة بين السّماء و الأرض يدور
بالنّجوم مع ثبوت السّماء، و قيل الفلك القطب الذي تدور عليه النّجوم قطب
السّماء، و قيل لكلّ واحدٍ من السّيّارات فلك و فلك الأفلاك يحركها حركةٌ
واحدة من المشرق الى المغرب.

و قال الزّمخشري الضّمير للشمس و القمر و المراد بهما جنس الطّوالع كلّ
يوم و ليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها و هو السّبب في جمعها بالشمس و
الأقمار و إلاّ فالشمس واحدة و القمر واحدٌ إنتهى.

وقال الرّاعب في المفردات الفلك مجرى الكواكب و تسميته بذلك لكونه كالفلك قال تعالى: **وَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِحُونَ** و فلكة المغزل و منه و منه اشتق فلك ثدي المرأة إنتهى.

وقالوا في تفسير قوله: **كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِحُونَ** بصيغة الجمع، أراد الشّمس و القمر و النّجوم لأنّ قوله، اللّيل، دلّ على النّجوم فمعنى الآية أنّ الله تعالى هو الذي خلق اللّيل و النّهار و الشّمس و القمر، **كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِحُونَ**، أي كلّ واحدٍ من الشّمس و القمر و النّجوم في فلكٍ يسبحون، أي يجرون فالتّنوين في، كلّ، فرض من المضاف اليه هذا ما ذكره في تفسير الآية و نحن نقول في الآية أبحاث.

الأول: أنّ الفلك ما هو فقال السّدي و ابن عباس أنّ الفلك السّماء.

و قال أكثر المفسّرين الفلك موجّ مكفوف تحت السّماء تجري فيه الشّمس و القمر.

و قال قتادة الفلك إستدارةٌ بين السّماء و الأرض يدور بالنّجوم مع ثبوت السّماء.

و قيل الفلك القطب الذي تدور عليه النّجوم و هو قطب الشّمال لكلّ واحدٍ من السيّارات فلك و فلك الأفلاك يحركها حركةٌ واحدة من المشرق و المغرب. و قال الضّحاك الفلك ليس بجسم و إنّما هو مدار هذه النّجوم، ثمّ أنّهم اختلفوا فقال بعضهم أنّ كلّاً يسبح في فلكٍ واحدٍ و قال الآخرون لكلّ واحدٍ فلكٌ يختصه فهو كقولهم كساهم الأمير حلّة أي كسى كلّ واحدٍ حلّة.

أقول: الحقّ في معنى الفلك في الآية أنّه عبارة عن مدار هذه النّجوم فلا وجود له في الخارج مستقلاً و أنّما هو ينتزع من حركات النّجوم و هذا هو الذي أثبتته العلم في زماننا هذا و أمّا الفلك بمعنى أنّه جسمٌ يغرّ قابل للخرق و الإلتئام ما زعمه أتباع بطليموس فلا دليل عليه بل الدليل ثابت على خلافه و يظهر أنّ في الآية أنّ لكلّ واحدٍ منها فلكٍ يخصّه بدليل قوله تعالى: **كُلُّ فِي**

فَلَكِ يَسْبَحُونَ أَي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فَالتَّنْوِينُ فِي كُلِّ عَوْضٍ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ الْمَحذُوفِ وَأَمَّا عَدَدُ النُّجُومِ فَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَى فِي إِثْبَاتِ الْمَدْعَى أَنَّ عَدَدَ النُّجُومِ كَانَ عِنْدَ الْقَدَمَاءِ (١٠٢١) وَ قَدْ ثَبِتَ فِي زَمَانِنَا هَذَا مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْ ١٦٠٠٠/٠٠٠ مِليُونٍ وَ يَزِيدُ عَلَيَّ هَذَا الْعَدَدُ وَ كُلِّ يَوْمٍ وَ تَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْبَابِ خَارِجٌ عَنِ مَوْضُوعِ الْكِتَابِ.

الثاني: قوله: يَسْبَحُونَ، بَوَاوِ الْجَمْعِ الْعَاقِلِ، أَمَّا الْجَمْعُ فَقِيلَ ثُمَّ مَعْطُوفٌ مَحذُوفٌ وَ هُوَ وَ النُّجُومُ، وَ لِذَلِكَ عَادَ الضَّمِيرُ مَجْمُوعاً وَ لَوْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ مَعْطُوفٌ مَحذُوفٌ لَكَانَ، يَسْبَحَانِ، مَثْنَى.

وَ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ الضَّمِيرُ لِلشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ وَ الْمَرَادُ بِهِمَا جِنْسُ الطَّوَالِعِ كُلِّ يَوْمٍ وَ لَيْلَةٍ جَعَلُوهَا مَتَكَاتِرَةً لِتَكَاتُرِ مَطَالَعِهَا وَ هُوَ السَّبَبُ فِي جَمْعِهَا بِالشَّمُوسِ وَ الْأَقْمَارِ وَ إِلَّا فَالشَّمْسُ وَاحِدَةٌ وَ الْقَمَرُ وَاحِدٌ قَالَه الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ثُمَّ قَالَ وَ أَنَّمَا جَعَلَ الضَّمِيرُ وَاوَ الْعَقْلَاءَ لِلْوَصْفِ بِفَعْلِهِمْ وَ هُوَ السَّبَّاحَةُ إِنْتَهَى.

أقول: قوله فالشَّمْسُ وَاحِدَةٌ وَ الْقَمَرُ وَاحِدٌ لَيْسَ شَيْءٌ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فَأَنَّ الشَّمُوسَ وَ الْأَقْمَارَ كَثِيرَةٌ كَمَا ثَبِتَ فِي الْهَيْئَةِ وَ قَدْ وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ أَيْضاً مَا يُؤَيِّدُهُ قَالَ **عَلِيٌّ** أَنَّ مِنْ وَرَاءِ شَمْسِكُمْ هَذِهِ أَرْبَعِينَ شَمْساً وَ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ قَمْرِكُمْ هَذَا أَرْبَعِينَ قَمراً وَ قَدْ ذَكَرَ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ عَدَدَ الْأَرْبَعِينَ جِيءَ بِهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْكثْرَةِ لَا أَنَّ الْعَدَدَ مَنحَصراً بِالْأَرْبَعِينَ فَأَنَّ الشَّمُوسَ وَ الْأَقْمَارَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الْعَدَدِ أضعافاً، وَ عَلَيَّ هَذَا فَالْحَقُّ أَنَّ اللَّامَ فِي الشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ لِلْجِنْسِ وَ هُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْقَلِيلِ وَ الْكَثِيرِ فَقَوْلُهُ: يَسْبَحُونَ أَي يَسْبِحُ جَمِيعُ الشَّمُوسِ وَ الْأَقْمَارِ فِي أَفلاكِهِمْ فَالتَكَاتُرُ لَيْسَ بِحَسَبِ مَطَالَعِهَا كَمَا زَعَمَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ بَلْ بِحَسَبِ أَنْفُسِهَا وَ ذَوَاتِهَا فَالْمَعْنَى أَنَّ جَمِيعَ الشَّمُوسِ وَ الْأَقْمَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي فَلَكِ تَخَصَّصَ بِهِ يَدُورُ وَ يَسْبِحُ وَ أَنَّمَا قَالَ: يَسْبَحُونَ بَوَاوِ الْجَمْعِ الثَّابِتِ لِلْعَقْلَاءِ لِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ أَعْنِي بِهِ السَّبَّاحَةَ وَصَفْتُ لَهُمْ لِأَنَّهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ

يوسف الصديق رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ^(١) وذلك لأنَّ السَّجدة من أفعال الأَدْميين ولذلك قال رأيتهم ولم يقل رأيتها هذا كله على مسلك المشهور من أَنَّ النَّجوم والأفلاك لا شعور لها وأما على مسلك من أثبت لها الشُّعور بزعمه الفاسد فالكلام على حقيقته وهو ظاهر.

الثالث: قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ بِتقديم الليل فيه إشارة إلى تقدّم الليل وهو كذلك لأنَّ الليل عَدَمِيّ والنَّهار وجودِيّ والعدم مقدّم على الموجود وأما قلنا أنّ الليل عَدَمِيّ لأنه عبارة عن عدم النَّهار وليس عدماً محضاً ولذلك صار مخلوقاً وتوضيح ذلك إجمالاً هو أنّ العدم تارة يكون محضاً أي خالصاً لا حظّ له للوجود وقد يعبر عنه بالمتنع أيضاً كشريك الباري وإجماع النقيضين وإجماع الصّدين وأخرى لا يكون محضاً بل له حظٌّ من الوجود وهذا هو الذي قد يعبر عنه بالعدم والملكة، أي له شأنيّة الوجود وبعبارة أخرى أنّه يكون قابلاً للوجود وبهذا الإعتبار يقال، له حظٌّ من الوجود فيتعلّق به الجعل والخلق، إذا عرفت فقد علمت أنّ الليل ليس عدماً مطلقاً بل هو عدم النَّهار عمّا من شأنه أن يكون نهاراً وباعتبار هذه الشأنيّة والقابليّة صار مخلوقاً أي تعلّق به الخلق وأما قلنا بتقديمه على النَّهار لأنَّ العدم مقدّم على الموجود فالليل مقدّم على النَّهار ذاتاً ولذلك قدّمه عليه في الآية وأنّ بها على عباده بأنّه تعالى هو الذي أخرجهم من ظلمة العدم إلى نور الوجود في أصل الخلقة ومن ظلمة الليل إلى النَّهار في هذا العالم بسبب الشّمس والقمر وغيرهما من النَّجوم وبذلك ظهر لك أنّ إسناد الخلق إلى الليل والنَّهار أنّما هو على سبيل المجاز دون الحقيقة لأنّهما ليسا من الأمور المتأصلة بل هما من الأوصاف المترتبة على وجود الشّمس والقمر إن لم تقل بانتزاعيتهما بل على وجود الشّمس فقط لأنَّ القمر لا نور له ذاتاً وأنّما يستنير

بِالشَّمْسِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مَعْنَاهُ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ أَسْبَابَهُمَا وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ أَخْلُدَ أَفَائِنَ مِتَّ فَهُمْ الْأَخْلَادُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَاتِ نَفْسٍ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا تُرْجِعُونَ
قِيلَ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَنْ يَمُوتَ وَآتَمَّا هُوَ مَخْلُدٌ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ الرَّسُولُ ﷺ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ وَقِيلَ طَعَنَ كَفَّارَ مَكَّةَ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ بَشَرٌ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمُوتُ فَكَيْفَ يَصِحُّ إِرسَالُهُ.

وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ كَانُوا يَقْدِرُونَ أَنَّهُ سَيَمُوتُ، فَيَسْتَمُوتُونَ بِمَوْتِهِ فَنَفَى اللَّهُ عَنْهُ الشَّمَاتَةَ بِهَذَا أَيَّ قَضَى اللَّهُ أَنْ لَا يَخْلُدَ فِي الدُّنْيَا بَشَرًا، فَلَا أَنْتَ وَلَا هُمْ إِلَّا عُرْضَةٌ لِلْمَوْتِ فَأَنْ مَاتَ أَيْبَقَى هَؤُلَاءِ.

أَقُولُ: قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ الْخُلُودُ هُوَ تَبَرُّي الشَّيْءِ مِنْ إِعْتِرَاضِ الْفَسَادِ وَبِقَاءِهِ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا وَكُلُّ مَا يَتَّبِطِي عَنْهُ التَّغْيِيرُ وَالْفَسَادُ تَصَفَهُ الْعَرَبُ بِالْخُلُودِ كَقَوْلِهِمْ لِلْأَثَافِيِّ خَوْلِدٍ وَذَلِكَ لِطَوْلِ مَكْثِهَا لِادْوَامِ بَقَائِهَا إِلَى أَنْ قَالَ وَاصِلِ الْمَخْلُودِ الَّذِي يَبْقَى مَدَّةً طَوِيلَةً وَمِنْهُ قِيلَ رَجُلٌ مَخْلُدٌ لِمَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ الشَّيْبُ إِنتَهَى.

أَقُولُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الدَّوَامِ وَالْخُلُودِ هُوَ أَنَّ الدَّائِمَ يُقَالُ لِلْمَوْجُودِ الْأَزَلِيِّ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ فَالدَّوَامُ عِبَارَةٌ عَنْ شُمُولِ الْأَزْمَنَةِ بِخِلَافِ الْخُلُودِ وَذَلِكَ يُطْلَقُ الدَّائِمَ عَلَى اللَّهِ وَيُقَالُ يَا دَائِمَ الْفَضْلِ عَلَى الْبَرِيَّةِ وَلَا يُطْلَقُ الْخَالِدُ عَلَيْهِ تَعَالَى وَيُمْكِنُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ الدَّائِمَ أَزَلِيٌّ فِي الْمَاضِي بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا أَوَّلَ لَهُ بِخِلَافِ الْخَالِدِ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ نَفَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْبَشَرِ الْخُلُودَ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ وَ مَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلُودَ وَقَدْ ثَبِتَ أَنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ عَقْلًا فَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ ثَابِتًا لِكُلِّ الْبَشَرِ كَمَا هُوَ الْمَفْرُوضُ بِحَسَبِ الْآيَةِ وَقَدْ ثَبِتَ أَنَّ الرَّسُولَ بَشَرٌ فَقَوْلُ الرَّسُولِ بَشَرٌ وَكُلُّ بَشَرٍ لَا مَخْلُدٌ فَالرَّسُولُ لَا يَخْلُدُ أَمَّا الصُّغْرَى فَثَابِتَةٌ لِقَوْلِهِ: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

و أما الكبرى فهي أيضاً ثابتة بحكم الآية فالنتيجة ثابتة قطعاً و إذا ثبت أن الرسول مخلّد في الدنيا ثبت هذا الحكم في حق غيره أيضاً بطريق أولى و إلى هذا المعنى أشار بقوله أفان متّ فهم الخالدون ثم قال تعالى: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** هنا عبارة عن زوال القوّة الحيوانيّة و إبانة الرّوح عن الجسد و ذلك لأنّ الموت له أنواع كثيرة بحسب أنواع الحياة و بعبارة أخرى حياة كلّ شيء بحسبه فكذلك موته و قد تقدّم الكلام في هذا المعنى غير مرّة و كيف كان لا شك أنّ الموجود الحادث مصيره إلى الموت انناً فأنناً و هذا لا يختصّ بالإنسان فقط بل كلّ مخلوق كذلك.

روي أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام سمع إنساناً يقول، إنّ الله و إنّا إليه راجعون، فقال عليه السلام قولنا إنّنا لله إقرارٌ منّا له بالملك و قولنا إنّنا إليه راجعون إقرار على أنفسنا بالهلك و لنعم ما قيل:

وإذا المنيّة أنشبت أظافرها
وقال الأخر:

و قد حدّرتناها لعمرى خطوبها
على أنّها فينا سريع ربيبها
إلى حفرة يحشى عليّ كتيبها
على غفلة من صوتها لا أجيبها
يحاذر نفسي منك ما سيصيبها
و نفسي سيأتي بعد ذاك نصيبها

ننافس في الدنيا ونحن نعيها
وما نحسب الساعات نقطع مدّة
كأنّي برهطي يحملون جنازتي
و باكية حرى تنوح و إنّي
أيا هادم اللذات ما منك مهرب
رأيت المنايا قسّمت بين أنفس
وقال الأخر:

أنته المنايا رقدة بعد ما هجع
فراراً و لا منه بحيلة أنتفع
ولا يسمع الداعي إذا صوته رفع
و فارق ما قد كان بالأمس قد جمع

وكم من صحيح بات للموت أمناً
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة
فأصبح يبكيه النساء مكفناً
و قرب من لحدٍ فصار مقيمته مقيله

قال الله تعالى: **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** ^(١).
 قال الله تعالى: **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلْأَقِبَكُم ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ**
عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ ^(٢).

قال الله تعالى: **وَ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ تَحِيدُونَ** ^(٣) و
 الآيات كثيرة.

وأما قوله تعالى: **وَ نَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِنَّا نُرْجِعُونَ فِيهِ**
 إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أَنَّ الدُّنْيَا دار بلاء و إختبار.

ثانيهما: الحساب بعد الموت فقوله: **نَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً** إشارة
 إلى الأول و قوله و **إِنَّا نُرْجِعُونَ** إشارة إلى الثاني فالبحث يقع في مقامين:

المقام الأول: قوله: **نَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً**، أي نختبركم بها و قدّم
 الشرّ على الخير لأنّ الإبتلاء به أكثر و لأنّ العرب تقدّم الأقل والأردء و منه لا
 يغادر صغيرة و لا كبيرة فمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق
 بالخيرات و هكذا قيل في وجه تقديم الشرّ على الخير.

و عن ابن عباس الخير و الشرّ عامّ في الغنى و الفقر و الصّحة و المرض و
 الطّاعة و المعصية و الهدى و الضلال.

و قال ابن عطية أنّ المراد من الخير و الشرّ هنا كلّ ما صحّ أن يكون فتنة و
 إبتلاء.

و عن ابن عباس أيضاً بالشدّة و الرّخاء أي أتصبرون على الشدّة و تشكرون
 على الرّخاء أم لا.

و قال ابن زيد المراد بهما المحبوب و المكروه و إنتصب فتنة على أنّه
 مفعول له أو مصدر في موضع الحال أو مصدر من معنى، **نَبَلُّوكُم**.

أقول: الشَّرَّ الَّذِي يَرِغِبُ عَنْهُ الْكُلُّ كَمَا أَنَّ الْخَيْرَ هُوَ الَّذِي يَرِغِبُ فِيهِ الْكُلُّ قَوْلًا وَعَمَلًا وَهُوَ أَيُّ الْخَيْرِ عَلَى ضَرْبَيْنِ، خَيْرٌ مُطْلَقٌ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مَرْغُوبًا فِيهِ بِكُلِّ حَالٍ وَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ كَمَا وَصَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِ الْجَنَّةَ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا خَيْرَ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ وَلَا شَرَّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ، وَقد يَكُونُ الْخَيْرُ مَقِيدًا وَهُوَ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لِوَاحِدٍ وَشَرًّا لِأَخْر كَالْمَالِ الَّذِي رَبَّمَا يَكُونُ خَيْرًا لِرَبِّدٍ وَشَرًّا لِعَمْرُو، هَذَا التَّقْسِيمُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْخَيْرِ لَا كَلَامٍ فِيهِ وَأَمَّا الشَّرُّ فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَقِيدًا لِأَنَّ الشَّرَّ الْمَطْلُوقَ لَمْ يَوْجَدْ وَلَنْ يَوْجَدْ أَبَدًا كَشْرِيكَ الْبَارِيِّ وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ أَعْمَالَ الْإِنْسَانِ وَأَقْوَالَهُ لَا تَخْلُو مِنْهُمَا فَأَنَّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ أَنْ كَانَ مِمَّا يَرِغِبُ فِيهِ الْكُلُّ فَهُوَ خَيْرٌ وَالْأَفْهَى شَرٌّ وَحَيْثُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْتَارٌ فِي فِعْلِهِ بِمَعْنَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَصَحَّ إِخْتِبَارُهُ فِيهِمَا فَالْمَعْنَى أَنَّا نَبْلُو الْإِنْسَانَ بِهِمَا لِأَجْلِ الْإِخْتِبَارِ وَالْإِمْتِحَانِ وَقَوْلُهُ: نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِنَّا تُرْجَعُونَ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ فَيَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَيَجْزَى عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ.



وَ إِذَا رَأَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
 أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ
 كَافِرُونَ (٣٦) خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَوْرِيكُمْ
 آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا
 الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ النَّارَ وَ لَا
 عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ
 بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَ لَا هُمْ
 يُنظَرُونَ (٤٠) وَ لَقَدْ آسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ
 فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ
 (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ
 بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمُ الْهَيْهَاتَهُ
 تَمَنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ
 لَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ
 آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا
 نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ
 (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لَا يَسْمَعُ الصَّمْعُ
 الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَ لَكِنَّ مَسئَلَهُمْ نَفْحَةً
 مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ
 (٤٦) وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا
 تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ
 أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)

◀ اللُّغَةُ

هُزُّوْا: أي سخرتَهُ و إستهزأء.
يَكْفُون: الكَّف المنع أي لا يمنعون.
بَعْتَةً: البعته الغفلة.
فَتَبَهُتُهُمْ: أي تحيرهم و المبهوت المتحير.
فَحَاقَ: أي حل، حاق يحق حيقاً.
يَكْلُوْكُمْ: يقال كلاه أي حفظه.
نَفْحَةٌ: النَّفْحَةُ الدَّفْعَةُ اليسيرة يقال نفخ ينفخ نفخاً فهو نافخ.
وَيَلْنَا: الويل الهلاك.

◀ الإِعْرَابُ

الإِهْزَؤُ أَي مَهْزُؤَابِه و هو مفعول ثانٍ مِنْ عَجَلٍ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِخَلْقٍ عَلَى الْمَجَازِ كَمَا تَقُولُ خَلَقَ مِنْ طِينٍ وَ قِيلَ هُوَ حَالٌ أَي عَجَلًا وَ جَوَابٌ، لَوْ، مَحْذُوفٌ وَ حِينَ مَفْعُولٌ بِهِ لَا ظَرْفَ، وَ بَعْتَةً مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ الرَّحْمَنِ أَي مِنْ أَمْرِ الرَّحْمَنِ فَهُوَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ، يَكْلُوْكُمْ، إِذَا مَا يُنْذَرُونَ إِذَا، مَنْصُوبَةٌ يَسْمَعُ أَوْ بِالذُّعَاءِ مِنْ عَذَابٍ صِفَةٌ لِنَفْحَةٍ أَوْ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِمَسْتَهْمِ الْقِسْطِ أَمَا أَفْرَدَ وَ هُوَ صِفَةٌ لَجَمْعٍ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ وَصَفَ بِهِ وَ قِيلَ التَّقْدِيرُ ذَوَاتِ الْقَبْطِ شَيْئًا بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ وَمِنْثَقَالٌ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ كَانَ وَ يَقْرَأُ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنْ تَكُونَ، كَانَ، تَامَةً مِنْ خَرَدٍ صِفَةٌ لِحَبَّةٍ أَوْ لِمِثْقَالٍ.

◀ التَّفْسِيرُ

وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا
قِيلَ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي جَهْلٍ وَ أَبِي سَفْيَانَ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ هَذَا بَنِي عَبْدِ مَنْفَى فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ وَ مَا تَنْكُرُونَ أَنَّهُ يَكُونُ نَبِيًّا فِي بَنِي عَبْدِ مَنْفَى

فسمعهما الرسول فقال لأبي جهل ما تنتهي حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة و أما أنت يا أباسفيان فأتما قلت ما قلت حمية فنزلت الآية و لما كان الكفار يغمهم ذكر آلهتهم بسوء شرعوا في الإستهزاء و تقيص من يذكرهم على سبيل المقابلة و (إن) نافية بمعنى، ما، أي ليس يتخذونك إلا هزواً.

أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَيْتَكُمْ وَ هُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ أَي أَنَّ الْكُفَّارَ يَقُولُونَ هَكَذَا وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ، أَي بِتَوْحِيدِ الرَّحْمَنِ كَافِرُونَ وَ مِنْ هَذِهِ حَالُهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْكَرَ عَلَى مَنْ يَعْيبُ آلِهَتَهُمْ.

و قال الزمخشري و الجملة في موضع الحال أي يتخذونك هزواً و هم على حالٍ هي أصل الهزو و السخرية و هي الكفر بالله إنتهى.

و قد إتفقوا على أن تكرار هُم في الآية للتوكيد، و قيل أنها نزلت حين أنكروا لفظة الرحمن و قالوا ما نعرف الرحمن إلا في اليمامة، و كيف كان ففي الآية تسلية لكل محققٍ يلحقه أذى من جاهلٍ مبطلٍ.

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ

لَمَّا كَانُوا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ يَسْتَعْجِلُونَ عَذَابَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ الْمَلْجُئَةَ إِلَى الْإِقْرَارِ وَ الْعِلْمِ نَهَاَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْإِسْتِعْجَالِ وَ قَدَّمَ أَوْلَا ذَمِّ الْإِنْسَانِ عَلَى إِفْرَاطِ الْعَجَلَةِ وَ أَنَّهُ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ يَرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا إِسْمَ الْجِنْسِ وَ كَوْنَهُ خَلْقٌ مِنْ عَجَلٍ وَ هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْمَبَالِغَةِ لَمَّا كَانَ يَصْدُرُ مِنْهُ كَثِيرًا كَمَا يُقَالُ لِمَكْثَرِ اللَّعْبِ أَنْتَ مِنْ لَعِبٍ وَ قَوْلُهُ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي أَي آيَاتِ الْوَعِيدِ فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ فِي رُؤْيَتِكُمْ الْعَذَابَ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ وَ إِدْعَى أَبُو عَمْرٍو الْقَلْبَ فِي الْكَلَامِ وَ أَنَّ التَّقْدِيرَ خَلَقَ الْعَجَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَ كَذَا قِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ جَعَلَ طَبِيعَةَ مَنْ طَبَّاعَهُ وَ جِزَاءً مِنْ أَخْلَاقِهِ.

أقول: هذا الكلام منه مطرودٌ ممنوع لأنَّ القلب الصَّحيح فيه أن لا يكون في الكلام الفصيح وأنَّ بابه الشُّعر ثمَّ أنَّ الكلبِي ومقاتل والصُّحاك والسُّدي وغيرهم قالوا المراد بالإنسان هنا آدم أبو البشر.

قال مجاهد لما دخل الرُّوح رأسه وعينه رأى الشَّمس قاربت الغروب فقال يا ربَّ عَجَلْ تمام خلقي قبل أن تغيب الشَّمس.

وقال سعيد لما بلغت الرُّوح ركبته كان يقوم، فقال الله خلق الإنسان من عجلٍ.

وقال ابن زيد خلقه الله يوم الجمعة على عجلةٍ في خلقه.

وقال الأخفش في قوله: مِنْ عَجَلٍ، لأنَّ الله قال له كم فيكون.

وقال الحسن من عجلٍ أي ضعيف يعني النُّطفة، وقيل خلق بسرعةٍ وتعجيلٍ على غير ترتيب الأدميين من النُّطفة والعلقة والمضغة، وقيل من عجلٍ، أي من طينٍ فأَنَّ العجل الحمير الطين قال الشاعر:

التَّبَع في الصَّخرة الصَّماء منبةً والنَّخل منبته في الماء والعجل

وقيل الآيات هنا الهلاك المعجَّل في الدُّنيا والعذاب في الآخرة ولمعنى يأتيكم العذاب في وقته وقيل أدلَّة التَّوحيد وصدق الرِّسول وقيل آثار القرون الماضية بالشَّام واليمن، والقول الأوَّل أليق بسياق الكلام أي سيأتي ما يسؤوكم إذا دمتم على كفركم.

قال الرَّمخسري، فأن قلت لم نهاهم عن الإسْتعجال مع قوله: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ، وقوله: وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا أليس هذا من تكاليف ما لا يطاق.

قلت هذا كما ركَّب فيه من الشَّهوة وأمره أن يغلبها لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشَّهوة وترك العجلة إنتهى.

أقول: الإستعجال طلب الشئ قبل وقته الذي حقه أن يكون فيه دون غيره، والعجلة تقديم الشئ قبل وقته وهو مذموم و لذلك يقال العجلة من الشيطان، ومعنى الآية لا تطلبوا نزول الآيات قبل وقته و أنما قال ذلك لأنهم كانوا يطلبونه و قد أراهم الله العذاب في الدنيا يوم بدر بالقتل والأسر و في الآخرة بالخلود في النار و في الآية إشارة إلى أن لكل شئ أجل و كتاب و هو مما لا يخفى على أحد من العقلاء.

و يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

و هذا الكلام الذي حكاه الله عنهم دليل على إستعجالهم فأنا المراد بالوعد هنا العذاب الذي وعدهم الله على لسان رسوله في صورة بقاءهم على الكفر و العناد فالمعنى **إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** و محققين فيما تقولون من نزول العذاب متى يكون ما وعدتموه فقولهُ: **مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**، إستفهام على جهة الهزاء و كان الرسول و المسلمون يتوحدونهم على لسان الشرع و **مَتَى**، في موضع الجر، لهذا، فموضعه رفع.

و نقل عن بعض الكوفيين أن موضعه النَّصْب على الظرف و تقديره يكون يجيء و العامل فيه مقدّر و جواب، لو، محذوف لدلالة الكلام عليه أي، يعلموا صدق ما وعدوا به من الساعة و أنما حذف الجواب لأنه أبلغ و أهيب من النَّص عليه.

و قال بعضهم تقدير الكلام، **لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** الخ، لما إستعجلوا، و قدره الزمخشري، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر و الإستهزاء و الإستعجال، و قيل التقدير، لعلوا صحة البعث، أو صحة الموعد.

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

معناه لو علم الكفار الوقت الذي يستعجلون عنه بقولهم: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ وَهُوَ وَقْتُ صَعْبٍ شَدِيدٍ تَحِيْطُ بِهِمُ النَّارُ مِنْ وَّرَاءِ وَ قَدَامِ وَ لَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ وَ لَا مَعِيْنٌ لِمَا اسْتَعْجَلُوْهُ وَ كَلَنَ جَهْلُهُمْ بِهِ هُوَ الَّذِي هُوَ عَنْدهُمْ وَ عَلَى هَذَا، حِيْنَ، مَنْصُوبٌ بِمُضْمَرِ أَيْ حِيْنَ لَا يَكْفُوْنَ وَ لَا يَمْنَعُوْنَ عَنْ وَجُوْهِهِمُ النَّارَ وَ كَذَا عَنْ ظَهْرِهِمْ، يَعْلَمُوْنَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْبَاطِلِ وَ يَنْتَفِيْ عِنْدَهُمْ هَذَا الْجَهْلُ الْعَظِيْمُ وَ الَّذِي يَظْهَرُ مِنَ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ مَفْعُولَ، يَعْلَمُ، مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ أَيْ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مَجِيْءَ الْمَوْعُودِ الَّذِي سَأَلُوا عَنْهُ وَ اسْتَنْبَطُوْهُ وَ حِيْنَ مَنْصُوبٌ بِالْمَفْعُولِ الَّذِي هُوَ مَجِيْءٌ ثُمَّ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْمَوْعُودَ يَأْتِيهِمْ بَغْتَةً.

فقال: بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ أَيْ بَلْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ وَ الْقِيَامَةُ بَغْتَةً وَ فَجَاءَةً فَتَبْهَتُهُمْ، أَيْ تَحْيِرُهُمْ وَ الْمَبْهُوتُ الْمَتَّحِرُ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا أَيْ رَدَّ السَّاعَةِ وَ مَعْنَاهُ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِهَا، وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ، أَيْ وَ لَا هُمْ يُؤَخَّرُونَ إِلَى وَقْتٍ أُخَرَ.

وَ قَالَ بَعْضُ الْمَفْسَّرِيْنَ أَنَّ مَا ذَكَرَ الْوَجُوْهَ مِنْ بَيْنِ الْأَعْضَاءِ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ مَا فِي الْإِنْسَانِ وَ مَحَلُّ حَوَاسِهِ وَ الْإِنْسَانُ أَحْرَصُ عَلَى الدَّفْعِ عَنْهُ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ أَعْضَائِهِ ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ الظُّهُورَ وَ الْمَرَادُ عَمُومُ النَّارِ لِجَمِيْعِ أَيْدَانِهِمْ وَ لَا أَحَدٌ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ بَلْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَيْ تَفْجُؤُهُمْ، وَ قِيلَ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي تَأْتِيهِمْ عَائِدٌ عَلَى النَّارِ فِي قَوْلِهِ عَنْ وَجُوْهِهِمُ النَّارِ، وَ قِيلَ إِلَى الْعُقُوبَةِ وَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ رَجُوعِهِ إِلَى السَّاعَةِ أَوْ الْقِيَامَةِ أَوْلَى وَ قَرَأَ الْأَعْمَشُ بَلْ يَأْتِيهِمْ بِالْيَاءِ بَغْتَةً بِفَتْحِ الْغَيْنِ، فَيَبْهَتُهُمْ بِالْيَاءِ وَ الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْوَعْدِ أَوْ الْحَسِيْنِ وَ لَنَعْمَ مَا قِيلَ:

لَيْتَ شِعْرِي إِذِ الْقِيَامَةُ قَامَتْ وَ دَعِيَ بِالْحِسَابِ أَيْنَ الْمَصِيْرِ وَ حَيْثُ أَنَّ الْإِسْتِهْزَاءَ بِالرُّسُلِ كَانَ دِيْدَانَ الْكُفَّارِ فِي جَمِيْعِ الْأَزْمَنَةِ وَ لَمْ يَكُنْ مَخْتَصِّصاً بِرَسُولٍ دُونَ رَسُولِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ

وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ

فهذا الكلام في الحقيقة تسلية للنبي ﷺ في استهزاء الكفار إياه و
الأخبار بأن أتباع الباطل لا يزالون كذلك و قد أخبر الله تعالى بذلك في كثير من
الآيات:

قال الله تعالى: **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** (١).

قال الله تعالى: **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ** (٢).

قال الله تعالى: **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** (٣).

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**.

و الآيات كثيرة و يستفاد من جميع الآيات أن العذاب ثابت للمستهزي
واقع عليه في الدنيا و الآخرة و ذلك لأن الإستهزاء بالرّسول يرجع إلى إستهزاء
الدين و هو إلى إستهزاء الله تعالى و المستهزي بالله حاله معلوم.

أقول و هذا الإستهزاء الذي أشار الله تعالى إليه في كتابه بالنسبة إلى رسله
هو الذي نراه في زماننا هذا بالنسبة إلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ولم
يعلموا أن العلماء لا ذنب لهم و أنما هم دعاة إلى الله و هكذا الأنبياء و
الأوصياء فأن جميعهم يدعون الناس إلى دين الله الذي إرتضاه لهم و حيث أن
الإستهزاء ضرب من الإنكار بل أقبح منه عقلاً فلا جرم حاق بهم ما كانوا به
يستهزؤون.

وإعلم أن الإستهزاء داخل في اللعب واللهو ولذلك لا يصح من الله تعالى في الحقيقة لتنزهه عنهما فقوله تعالى: **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** (١) معناه يجازيهم جزاء الهزؤ أي أمهلهم مدة ثم أخذهم مغافصة فسمى له أيأهم إستهزاءً من حيث أنهم إغترؤا به إغترارهم بالهزؤ فيكون ذلك كالإستدرج من حيث لا يعلمون، أو لأنهم إستهزؤا فعرف الله ذلك منهم فصار كأنه يهزأ بهم كما قيل من خدعك و فطنت له ولم تعرّفه فإحترزت منه فقد خدعته.

وقد روي أنّ المستهزئين في الدنيا، يفتح لهم باب الجنة فيسرعون نحوه فإذا إنتهوا اليه سدّ عليهم وعلى هذه الوجوه:

قال الله تعالى: **سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (٢).

قال الله تعالى: **فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ** (٣).

وبما ذكرناه يُعلم معنى:

قال الله تعالى: **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** (٤).

أي يجازيهم على مكرهم وقد مرّ الكلام فيه فيما مضى

قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ

ثم أمر الله نبيه أن يسألهم من الذي يحفظكم في أوقاتكم من بأس الله وهو إستفهام تقرير وتوبيخ وفي آخر الكلام تقدير محذوف كأنه ليس لهم مانع ولا كالي وعلى هذا التفي تركيب، بل، في قوله: **بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ**.

١- البقرة = ١٥

٢- التوبة = ٧٩

٣- المطففين = ٣٤

٤- آل عمران = ٥٤

و قال الزّمخشري بل هم معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتّى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالّي و صلحوا للسؤال عنه و المراد أنّه تعالى أمر رسوله بسؤالهم عن الكالّي و الحافظ ثمّ بيّن لهم أنّهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلّوهم إنتهى.

أقول معنى الآية ظاهر لا خفاء فيه و هو أنّ الله تعالى أمر نبيّه أن يسألهم من يحفظكم بالليل و النهار أي في الليل و النهار من الرّحمن أي من عذاب الرّحمن.

و أمّا قوله: **بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ** فكأنّه قال ما يلتفتون الى شئ من المواعظ بل هم عن ذكر ربّهم معرضون، أو أنّهم لا يلتفتون الى أنّ الله هو الذي يحفظهم عن الآفات و البليات و ذلك لأنّهم أعرضوا عن ذكر ربّهم و قيل معنى الكلام، من يحفظكم ممّا يريد الله إحلاله بكم من عقوبات الدّنيا و الآخرة ثم قال الله تعالى على وجه التّوبيخ لهم و التّقرّيع:

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنَا يُصْحَبُونَ

و المعنى، أم لهم آله تمنعهم، من عذابنا و عقوباتنا، من دوننا، ثمّ أخبر أنّهم، أي آلهتهم، لا يقدرّون على نصر أنفسهم فكيف يقدرّون على نصر غيرهم، و قيل أنّ الكفّار لا يستطيعون نصر أنفسهم، أي لا يقدرّون على دفع ما ينزل بهم عن نفوسهم و لا هم منّا يصحبون، معناه لا يصحبهم صاحب يمنعهم منّا، و قيل و لا هم منّا يصحبون، بأن يجيرهم مجيرّ علينا.

و قال قتادة معناه، و لا هم منّا يصحبون، بخير هكذا قيل في تفسير الآية.

و الظاهر أنّ، أم، بمعنى، ب، و الهمزة كأنّه قيل، بل ألهمهم آلهة فاضرب ثمّ إستفهم تمنعهم من العذاب فالمعنى، ألهمهم آلهة تجعلهم في منعة و عزّ من ان

ينالهم مكروهة من جهتنا، و قال ابن عباس في الكلام تقديم و تأخير تقديره أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم إستأنف الإخبار عن آلهتهم فبيّن أنّ ما ليس بقادر على نفسه و منعها و لا بمصحوب من الله بالنصر و لتأييد كيف يمنع غيره و ينصره ثم قال يصحبون أي يمنعون و قال مجاهد ينصرون إنتهى.

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ

هؤلاء، إشارة الى المخاطبين قيل و هم كفّار قريش و من إتخذ آلهة من دون الله أخبر الله تعالى في الآية أنه متّع هؤلاء الكفّار و آباءهم من قبلهم بما رزقهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاءٍ و نعمةٍ و تدّعوا في الضلالة بامهالهم و تأخيرهم الى الوقت الذي يأخذهم فيه فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يعلبون و لا ينزع عنهم ثوب أفتهم و إستماعهم و إقتدّت بهم أيام الرّوح و الطمأنينة ولم يعلموا أنّ ذلك طمع فارغ و أمّد كاذب ثم قال تعالى: أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا.

قال الزّمخشري أي نقص أرض الكفر و دار الحرب و نحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها و إظهارهم على أهلها و ردّها دار إسلام.
فَأَنْ قُلْتَ أَيِّ فَائِدَةٍ فِي قَوْلِهِ: نَأْتِي الْأَرْضَ.

قُلْتَ الْفَائِدَةُ فِيهِ تَصْوِيرُ مَا كَانَ اللَّهُ يَجْرِيهِ عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ وَ أَنَّ عَسَاكِرَهُمْ وَ سَرَايَاهُمْ تَغْزَوْنَ أَرْضَ الْمُشْرِكِينَ وَ تَأْتِيهَا غَالِبَةً عَلَيْهَا نَاقِصَةٌ مِنْ أَطْرَافِهَا إِنْتَهَى كَلَامَهُ.

و قال بعض المفسّرين في معنى الكلام، أي نقصها بسبب خرابها، بموت أهلها، و قيل بموت العلماء، و قوله: أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ فهو إستفهام فيه تفرّيع و توبيخ حيث لم يعتبروا بما يجري عليهم.

و قال الرّازي في تفسير التّقصان وجوه:

أحدها: قال ابن عبّاس ومقاتل والكلبي نقصها بفتح البلدان.

وقال ابن عبّاس في رواية أخرى يريد نقصان أهلها وبركتها.

ثالثها: قال عكرمة تخريب القرى عند موت أهلها.

رابعها: يموت العُماء الى أن قال فالأظهر من الأقاويل ما يتعلّق بالغلبة فلذلك قال **أَفْهَمُ الْغَالِبُونَ** والذي يليق بذلك أنه ينقصها عنهم ويزيدها في بلاد الإسلام قال القفال نزلت هذه الآية في كفّار مَكَّة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبيّن تعالى أنّ كلّ ذلك من العبر التي لو إستعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم إنتهى.

أقول قال الله تعالى في سورة الرّعد:

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ^(١)

وقد تكلمنا حول الآية هناك بقدر فهمنا وإستطاعتنا و نزيدك ها هنا أنه لا يبعد أن يكون المراد بنقص الأرض نقص بركاتها و ثمارها أو نقصها بجور ولاتها، وذلك لأنّ المعاصي والظلم والشرك بالله توجب زوال البركات قال الله تعالى: **وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ يَتْرَافِ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا** و زوال البركات من الأرض هو نقصها بلا كلام والله أعلم بما أراد منه و قوله: **أَفْهَمُ الْغَالِبُونَ** فيه إشارة الى ضعف الإنسان وأنه مغلوب في جنب الحقّ وهو ظاهر.

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ
ثم أخبر الله تعالى أنهم أي الكفّار مع إنذارهم بواسطة النبي معروضون عمّا أنذروا به فالإنذار لا يجديهم فقال مخاطباً لنبيه قل لهم يا محمّد أنّما أنذركم

بسبب الوحي من الله تعالى لا من قبل نفسي و مع ذلك لا ينفعكم النصح كما لا ينفع النداء الصم و هو الذي لا يسمع الصوت شبَّههم الله تعالى بالصم الذين لا يسمعون النداء إذا نودوا مجازاً و توسعاً مع أنهم لم يكونوا كذلك واقعاً بل كانوا يقدرّون على السَّماع و الإستماع و وجه الشُّبه ظاهرٌ فأَنْ السَّماع إذا لم ينفَع بسماعه فهو كمن لا يسمع و قد عبّر الله تعالى عن هؤلاء بالصم في كثير من الآيات.

قال الله تعالى: **صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** (١).

قال الله تعالى: **صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** (٢).

قال الله تعالى: **وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ** (٣).

قال الله تعالى: **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ** (٤).

قال الله تعالى: **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** (٥).

قال الله تعالى: **فَأِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَ لَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** (٦).

و الآيات كثيرة و حاصل الكلام هو أنّ من يسمع و لا ينفَع بسماعه بمعنى عدم ترتيب الآثار عليه فهو خارج عن طور الإنسانية و داخل في صنف الحيوانات بل الجمادات و منشأ ذلك قد يكون الجهل كما في أكثر العوام يكون العناد و اللجاج كما في أكثر الخواص و من زعم أنّ السبب في ذلك هو الجهل في جميع الموارد فقد أخطأ فأَنَّ العالم أيضاً قد يكون كذلك فأَنَّ أكثر الناس عبيد الدنيا، و الذين شقَّ على ألسنتهم فإذا محصوا بالبلاء قلَّ الديانون و لنعم ما قيل:

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

١- البقرة = ١٧١

٢- يونس = ٤٢

٣- الروم = ٥٢، التمل = ٨٠

١- البقرة = ١٨

٢- الأنعام = ٣٩

٣- الأنفال = ٢٢

لقد أسمعت لو ناديت حَيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي
 و قد حكى الله تعالى ذلك في جميع الأنبياء في كتابه بألفاظٍ مختلفة
 متفاوتة تصريحا أو كنايةً و الحاصل أن اللجاج و العناد و عدم قبول الحق لم
 يكن مختصاً بكفار مكة بل كان عاماً شاملاً لجميع الكفار في جميع الأزمنة و
 الآن أيضاً كذلك و السر فيه ما ذكرناه من أن الناس عبيد الدنيا فكل كلام من أي
 شخص صدر إذا كان على خلاف أميالهم و شهواتهم النفسانية مانعاً عن
 وصولهم الى ما يشتهون لا يقبلونه و قد حكى الله تعالى عن صالح النبي عليه السلام
 فقال:

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ
 لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ^(١).

و فى حكاية عن شعيب النبي:

قال الله تعالى: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي
 وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ^(٢).

و فى حكاية عن نوح النبي:

قال الله تعالى: أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحَ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
 تَعْلَمُونَ^(٣).

قال الله تعالى: وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ^(٤).

و فى حق الجميع:

قال الله تعالى: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
 أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٥).

١- الأعراف = ٧٩

٢- الأعراف = ٧٩

٣- الأعراف = ٦٢

٤- هود = ٣٤

٥- النحل = ٦٣

قال الله تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ
الْعِلْمِ وَ خَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ^(١) والآيات في الباب كثيرة
جداً.

وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ
المس بفتح الميم و سكون السين مصدر كاللمس لكن للمس قد يقال لطلب
الشيء و أن لم يوجد كما قال الشاعر: و المس فلا أجده، و المس يقال فيما
يكون معه إدراك حاسة اللمس و كني به عن النكاح ف قيل مسها و ما مسها:

قال الله تعالى: وَ إِنْ طَلَقْتُمْوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ^(٢).

قال الله تعالى: أَتَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ^(٣).

و المراد باللمس في الآية هو معناه اللغوي و من قبيل:

قال الله تعالى: وَ لَا تَمْسُوها بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٤).

قال الله تعالى: لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ^(٥).

قال الله تعالى: وَ لَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ^(٦).

و أما النَّفْحَةُ بفتح النون و سكون الفاء و فتح الحاء ف قيل هي الدفعة اليسيرة
يقال نفح نفحاً فهو نافح و المعنى لو لحقهم و أصابهم دفعة يسيرة من
عذاب ربك، ليقولن هؤلاء الكفار يا ويلنا، أي الهلاك علينا، أنا كنا ظالمين
لنفوسنا بإرتكاب المعاصي إعترافاً منهم بذلك و الحاصل أن الله تعالى أخبر
في هذه الآية بأن هؤلاء الذين صموا عن سماع ما أُنذروا به إذا نالهم شيء مما
أُنذروا به و لو كان يسيراً نادوا بالهلاك و أقرؤوا بأنهم كانوا ظالمين ففي الحقيقة
نبهوا على العلة التي أو سبب لهم العذاب و هو ظلم الكفر ففي قوله: وَ لَئِنْ

بإب، القرآن في تفسيره

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

١- غافر = ٨٣

٢- البقرة = ٢٣٧

٣- آل عمران = ٤٧

٤- الأعراف = ٧٣

٥- آل عمران = ٢٤

٦- هود = ١١٣

مَسْتَشْتَهُمْ ثَلَاثَ مَبَالِغَاتٍ، لَفْظَ الْمَسِّ، وَ مَا فِي مَدْلُولِ النَّفْحِ مِنَ الْقَلَّةِ إِذْ هُوَ الرِّيحُ السَّيِّرُ أَوْ مَا يَرْضَحُ مِنَ الْعَطِيَّةِ، وَ بِنَاءِ الْمَرَّةِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ نَفْحٌ فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ بَادِنِي مِنْ أَقْلِ الْعَذَابِ أَدْعَنُوا وَ خَضَعُوا وَ أَقْرَبُوا بِأَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ ظَلَمَهُمُ السَّابِقُ وَ لَمَّا ذَكَرَ حَالَهُمُ السَّابِقَ فِي الدُّنْيَا وَ أَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ فِيهَا بِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ أَشَارَ إِلَى عَدْلِهِ وَ أَسَدَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ بِثُؤَنِ الْعِظْمَةِ.

وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ

الوزن معرفة قدر الشيء و زينة و زناً و المتعارف في الوزن عند العامة ما يقدر بالقسط و القبان:

قال الله تعالى: وَ زِنُوا بِالْقِسْطِ الْأَمْسُتَقِيمِ^(١).

قال الله تعالى: وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ^(٢).

والميزان بكسر الميم آلة الوزن فهو إسم آلة و أصله الموازن بالواو فأبدلت الواو ياء لكسرة ما قبلها و لذلك يجمع على الموازين ثم أن الميزان كما يكون في المحسوسات كذلك يكون في المعقولات فأن الميزان في كل شيء بحسبه فكما يوزن الشعير و الحنطة و غيرهما من الأجناس بالميزان المحسوس كذلك توزن الأفعال و الأقوال بالميزان المعقول.

قال الله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ

الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ^(٣).

قال الله تعالى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(٤).

قال الله تعالى: **وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ** (١).

فالمراد بالميزان في هذه الآيات ونظائرها هو الميزان العقلي وقد ورد في زيارة أميرالمؤمنين (السَّلام على ميزان الأعمال) وذلك لأنَّ قبول الأعمال وعدمه يدور مدار ولاية عليٍّ عليه السلام وعدمها كما وردت به الأخبار وكيف كان فالميزان يوم القيامة إشارة إلى العدل في محاسبة النَّاس.

قال بعضهم وذكر في مواضع من الكتاب الميزان بلفظ الواحد إعتباراً بالمحاسب، وفي مواضع بلفظ الجمع إعتباراً بالمحاسبين، وقوله: **لِيَوْمِ أَتَقِيَمَةُ**، معناه لأهل يوم القيامة وقيل معناه في يوم القيامة، وقوله: **وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ إِلَى قَوْلِهِ: حَاسِبِينَ**، ففيه إشارة إلى أنه لا يضيع لديه قليل الأعمال والمجازاة عليه طاعةً كانت أو معصية وكفى المطيع أو العاصي بمجازاة الله وحسبه ذلك وفي ذلك غاية التهديد كما لا يخفى والصَّмир في قوله: **بِهَا** يرجع إلى المِثقال أي أتينا بالمثلث وأما قال، بها، بلفظ التأنيث مع أنَّ المِثقال مذكر، لأنَّ مِثقال الحَبَّة وزنها ومثله قراءة الحسن (تلتقطه بعض السيارة) لأنَّ بعض السيارة سَيارة.

وقال الزمخشري وأنت ضمير المِثقال لإضافته إلى الحَبَّة كقولهم ذهب بعض أصابعه وإعلم أنهم اختلفوا في المراد بالميزان فقال الطبرسي رحمته الله فيه أقوال:

أحدها: أنَّ الوزن عبارة عن العدل في الآخرة وأنه لا ظلم فيها على أحد.

ثانيها: أنَّ الله ينصب ميزاناً له لسان وكفتان يوم القيامة فتوزن به أعمال العباد الحسنات والسيئات عن ابن عباس والحسن وبه قال الجبائي واختلفوا في كيفية الوزن لأنَّ الأعمال أعراض لا تجوز عليها الإعادة ولا يكون لها وزن ولا تقوم بأنفسها فقبل توزن صحائف الأعمال عن ابن عمر وجماعة.

و قيل تظهر علامات للحسنات و علامات للسيئات في الكفَّتَانِ فتراها النَّاسُ عن الجبائي.

و قيل تظهر للحسنات صورة حسنة و للسيئات صورة سيئة عن ابن عباس.
و قيل توزن نفس المؤمن و الكافر عن عبيد بن عمير.
قال يؤتى بالرجل العظيم الجثة فلا يزن جناح بعوضة.

ثالثها: أنَّ المراد بالوزن ظهور مقدار المؤمن في العظيم و مقدار الكافر في الدَّلة كما قال سبحانه: **فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**^(١) فمن أتى بالعمل الصَّالح الَّذِي يثقل و زنه أي لعظيم قدره فقد أفلح و من أتى بالعمل السيِّ الَّذِي لا وزن له و لا قيمة فقد خسر فمن ثقلت موازينه أُنما جمع الموازين لأنَّه يجوز أن يكون الكلُّ نوع من أنواع الطَّاعات يوم القيامة ميزان و يجوز أن يكون كلُّ ميزان صنفاً من أصناف أعماله و يؤيد هذا ما جاء في الخبر أنَّ الصَّلاة ميزان فمن و في إستوفى هذا.

و قال بعضهم أنَّ المراد من الميزان العدل و القضاء و كثير من المتأخرين ذهبوا إلى هذا القول أما بيان أنَّ حمل لفظ الوزن على هذا المعنى جائز في اللُّغة، فالأنَّ العدل في الأخذ و الإيعطاء لا يظهر إلا بالكيل و الوزن في الدنيا فلمَّ يبعد جعل الوزن كناية عن العدل ألا ترى أنَّ الرَّجل إذا لم يكن له قدر و لا قيمة عند غيره فقال أنَّ فلاناً لا يقيم لفلان وزناً قال تعالى فلا نقيم له يوم القيامة وزناً، قال الشَّاعر:

قد كنت قبل لقاءكم ذا قوَّةٍ عندي لكلِّ مخاصم ميزانه

أراد عندي لكلِّ مخاصم كلام يعادل كلامه فجعل الوزن مثلاً للعدل قالوا و على هذا يجب أن يكون المراد من الآية هذا المعنى فقط و الدليل عليه أنَّ الميزان أُنما يراد ليتَّوصل به إلى معرفة مقدار الشَّيْء و مقادير الثَّواب و العقاب

لا يمكن إظهارها بالميزان لأن أعمال العباد أعراض و قد فنيت و عدمت و وزن المعدوم محال و أيضاً فتقدير بقاءها كان وزنها محالاً.

أقول قد أطلوا الكلام في المقام في معنى الميزان و كيفية وزن الأعمال بما لا فائدة في نقلها و من أراد الإطلاع عليها فعليه بمراجعة التفاسير و الذي يظهر من الأخبار هو أن الميزان كتابة عن العدل.

روي هشام بن الحكم أنه سأل الزنديق أبا عبد الله فقال أو ليس توزن الأعمال قال **عَلَيْهَا** لا، لأن الأعمال ليست بأجسام و إنما هي صفة ما عملوا و إنما يحتاج إلى وزن الشيء من جهل عدد الأشياء و لا يعرف ثقلها و خفتها و أن الله لا يخفى عليه شيء قال فما معنى الميزان قال **عَلَيْهَا** العدل قال فما معناه في كتابه، **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ،** قال **عَلَيْهَا** فمن رجح عمله الخبر.

و عن كتاب التوحيد عن علي **عَلَيْهَا** و قد سأله رجل عما إشتهبه عليه من الآيات و أما قوله تعالى و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً فهو ميزان العدل يؤخذ به الخلائق يوم القيامة يدين الله تعالى الخلق بعضهم من بعض بالموازين إنتهى.

و في بعض الأخبار أن المراد بالموازين هم الأنبياء و الأوصياء. فعن أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد الله **عَلَيْهَا** في قوله تعالى: **وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** قال **عَلَيْهَا** الأنبياء و الأوصياء عليهم السلام إنتهى.

و قد ورد في زيارة أمير المؤمنين **عَلَيْهَا** (السلام على ميزان الأعمال) أن الأعمال توزن يوم القيامة بميزان الولاية.

و ليعلم أن أهل الشرك لا تنصب لهم الموازين و لا تنشر لهم الدواوين لأهل الإسلام و قد صرحت الأخبار به.

قال الشيخ المفيد رحمته الله: الحساب هو المقابلة بين الأعمال و الجزاء عليها و الموافقة للعبد على ما فرط منه و التوبيخ على سيئاته و الحمد على حسناته و معاملته في ذلك بإستحقاقه و ليس كما هو ذهب العامة اليه من مقابلة الحسنات بالسيئات و الموازنة بينهما على حسب إستحقاق الثواب و العقاب عليها إذ كان التحابط بين الأعمال غير صحيح و مذهب المعتزلة فيه باطلٌ غير ثابت و ما يعتمد الحشوية في معناه غير معقول و الموازين هي التعديل بين الأعمال و الجزاء عليها و وضع كلِّ جزءٍ في موضعه و إيصال كلِّ ذي حقٍّ الى حقه فليس الأمر في معنى ذلك على ما ذهب اليه أهل الحشو من أن في القيامة موازين كموازين الدنيا لكلِّ ميزان كفتان توضع الأعمال فيها إذ الأعمال أعراض و الأعراض لا يصحّظ وزنها و أنّما توصف بالثقل و الخفة على وجه المجاز و المراد بذلك أن ما ثقل منها هو ما كثر و إستحق عليه عظيم الثواب خفَّ منها ما قلَّ قدره و لم يستحق عليه جزيل الثواب و الخبر الوارد أن أمير المؤمنين و الأئمة من ذريته عليهم السّلام الموازين فالمراد أنّهم المعدّلون بين الأعمال فيما يستحق عليها و الحاكمون فيها بالواجب و العدل.

و يقال فلان عندي في ميزان فلان و يراد به نظيره و قال كلام فلان لو وزن من كلام فلان و المراد به أن كلامه أعظم و أفضل قدراً و الذي ذكره الله تعالى في الحساب و الخوف منه أنّما هو الموافقة على الأعمال لأنّ من وقف على أعماله لم يتخلص من تبعاتها و من عفي الله تعالى عنه في ذلك فاز بالنجاة و من ثقلت موازينه بكثرة إستحقاقه الثواب فأولئك هم المفلحون و من خفّت موازينه بقلّة أعمال الطّاعات فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون و القرآن أنّما أنزل بلغة العرب و حقيقة كلامها و مجازه و لم ينزل على ألفاظ العامة و ما سبق الى قلوبها من الأباطيل إنتهى كلامه رفع مقامه.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ فَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٍ وَإِنْ كَانَ قَلِيلاً كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الْعَدْلِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ تَعَالَى يَكْفِي فِي الْحِسَابِ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ كَمَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْخَلْقِ وَالْإِبْجَادِ فَكَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُمْ يَحْسِبُهُمْ وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ مُضَافاً إِلَى أَنَّهُ وَاجِبُ الْوُجُودِ وَالْإِحْتِيَاجُ مُسَاوِقٌ لِلْإِمْكَانِ فَلَوْ إِحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ كَانَ مُمْكِناً وَكُلُّ مُمْكِنٍ مَخْلُوقٌ لْغَيْرِهِ وَهَذَا كَمَا يَرَى يَنَافِي الْوُجُوبَ كَمَا ثَبَتَ فِي مَحَلِّهِ.



وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ
 ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ
 وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَ هَذَا ذِكْرُ
 مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠) وَ لَقَدْ
 آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ
 (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي
 أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا
 عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي
 ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
 الْأَلْعَابِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَ
 الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنْ
 الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ
 أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذُودًا إِلَّا كَبِيرًا
 لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا
 بِالْهَيْئَةِ إِنَّا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى
 يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأَتُوا بِهِ
 عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا
 ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْئَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ
 فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ
 (٦٣) فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ
 الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ
 عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفْتَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ
 (٤٦) أَفَ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَقْلًا
 تَعْقِلُونَ (٤٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٤٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا
 عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ (٤٩) وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ
 الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

◀ اللغة

الفرقان: بضم الفاء مصدر، كل ما فرّق به بين الحقّ والباطل و في الحديث
 الفرقان المحكم الواجب العمل به و القرآن جملة الكتاب.
 ضيَاء: الضياء الضوء و الفرق بين الضياء و النور هو أنّ الضياء ما كان من
 ذات الشئ كالشمس، و النور ما كان مكتسباً من غيره كإشتارة الجردان
 بالشمس.

مُشْفِقُونَ: أي خائفون.

عَا كَفُونَ: العكوف اللزوم لأمر من الأمور.

اللَّاعِينَ: اللعب المزاح جُذادًا بضم الجيم و فتحها و كسرهما، المكسر، ما
 تكسر من الشئ يقال عندي، جذاذات من الفضة أي قراضات منها.

نُكْسُوا: يقال نكس رأسه طأطأه من ذلّ.

أَفٍ: بضم الألف إسم فعلٍ بمعنى أتجر و أتكره.

◀ الإعراب

وَ ضِيَاءٌ قِيلَ دخلت الواو على الصفة كما تقول مررت بزيد الكريم و العالم
 فعلى هذا يكون حالاً أي الفرقان مضيئاً و قيل هي عاطفة أي أتيناها ثلاثة

أشياء، الفرقان، والضياء، والذِّكْرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ فِي مَوْضِعٍ جَزَعًا عَلَى الصِّفَةِ أَوْ نَسَبًا بِإِضْمَارٍ أَعْنِي، أَوْ رَفَعَ عَلَى إِضْمَارِهِمْ وَبِالْغَيْبِ حَالٌ إِذْ قَالَ ظَرْفًا، لِعَالَمِينَ، أَوْ لِرَشْدِهِ، أَوْ لِأَتِينَا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ مَوْضِعٍ، مِنْ قَبْلِ، وَأَنْ يَتَنَسَّبَ بِإِضْمَارٍ، أَعْنِي، أَوْ بِإِضْمَارٍ، أَذْكَرُ، لَهَا عَا كِفْوْنًا، قِيلَ اللَّامُ بِمَعْنَى عَلَى، وَقِيلَ أَفَادَتْ مَعْنَى الْإِخْتِصَاصِ جُذَادًا يَقْرَأُ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ وَالْكَسْرِ وَهِيَ لُغَاتٌ وَقِيلَ الضَّمُّ عَلَى أَنَّ وَاحِدَةَ جِذَاذَةَ وَالْكَسْرُ عَلَى أَنَّ وَاحِدَةَ جِذَاذَةَ بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحُ عَلَى الْمَصْدَرِ كَالْحِصَادِ وَالتَّقْدِيرُ ذَوِي جِذَاذٍ وَيَقْرَأُ بِضَمِّ الْجِيمِ مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ وَوَاحِدَةٍ جِذَهَ كَقَبَةٍ وَقَبِ مَنْ فَعَلَ هَذَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، مِنْ، إِسْتِفْهَامًا وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ إِنَّهُ إِسْتِثْنَاءٌ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى، الَّذِي، فَيَكُونُ إِنَّهُ وَمَا بَعْدَهُ الْخَبَرُ يَذْكَرُهُمْ مَفْعُولٌ ثَانٍ، لِسَمْعِنَا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مَسْمُوعًا كَقَوْلِكَ سَمِعْتَ زَيْدًا يَقُولُ كَذَا وَالْمَعْنَى سَمِعْتَ قَوْلَ زَيْدٍ وَيُقَالُ صِفَةٌ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا إِرْتِفَاعٍ إِبْرَاهِيمُ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ:

أحدها: أَنَّهُ خَيْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَي هَذَا وَهَذَا، وَقِيلَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَالْخَبَرُ مَحذُوفٌ أَي إِبْرَاهِيمُ فَاعِلٌ ذَلِكَ وَالْجُمْلَةُ مَحْكِيَةٌ مَحْكِيَةٌ.

الثاني: هُوَ مُنَادَى مُفْرَدٌ فَضَّمَّتْهُ بِنَاءٍ أَي أَنَّهُ مُبْنِيٌّ عَلَى الضَّمِّ.

الثالث: هُوَ مَفْعُولٌ وَيُقَالُ لِأَنَّ الْمَعْنَى يَذْكَرُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَسْمِيَّتِهِ فَالْمُرَادُ الْإِسْمُ لَا الْمَسْمُوعُ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ آيَةٌ عَلَى رُؤْيَتِهِمْ أَي ظَاهِرًا لَهُمْ بَلْ فَعَلَهُ الْفَاعِلُ كِبِيرُهُمْ هَذَا، وَصَفَّ أَوْ بَدَلَ وَقِيلَ الْوَقْفُ عَلَى فَعَلِهِ وَالْفَاعِلُ مَحذُوفٌ أَي فَعَلَهُ مِنْ فَعَلِهِ وَهَذَا بَعِيدٌ لِأَنَّ حَذْفَ الْفَاعِلِ لَا يَسُوغُ عَلَى رُءُوسِهِمْ مُتَعَلِّقٌ بِنَكْسَاوٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا فَيَتَعَلَّقُ.

بِمَحذُوفٍ مَا هُوَ لِأَنَّ يَنْطَلِقُونَ الْجُمْلَةَ تَسُدُّ مَسَدًا مَفْعُولِي عِلْمَتِ كَقَوْلِهِ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ، وَسَيِّئًا فِي مَوْضِعِ مَصْدَرٍ أَي نَفْعًا أَفِي لَكُمْ أَي أَنْتَضَجْرُ وَأَتَكْرَهُ لَكُمْ مِنْ فَعْلِكُمْ هَذَا بَرْدًا أَي ذَاتَ بَرْدٍ وَ(عَلَى) يَتَعَلَّقُ بِسَلَامٍ أَوْ عَلَى صِفَةٍ لَهُ وَالْبَاقِي وَاضِحٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ.

التفسير

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ .
قال مجاهد و قتادة هو التّوراة التي تفرّق بين الحقّ و الباطل و به قال أكثر
المفسّرين و قال ابن زيد هو البرهان الذي فرق به حقّه و باطل فرعون كما قال
تعالى: وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ أَتَقَىٰ الْجَمْعَانِ^(١) قوله و ضياءً
أي و أتينا ضياءً يعني أذلة يهتدون بها كما يهتدون بالضياء وَ ذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ
أي و أتينا ذكراً أي مذكراً لهم يذكرون الله به و من جعل الضياء و الذكر حالاً
للفرقان، قال دخلته و او العطف لإختلاف الأحوال كقولك جائني زيد الجواد و
الحليم و العالم و إضافة إلى المتّقين لأنهم المشفقون به دون غيرهم و قال
بعضهم الفرقان التّوراة و هو الضياء و الذكر أي كتاباً هو فرقانٌ و ضياءً و ذكرٌ
يدلّ على هذا المعنى قراءة ابن عباس و عكرمة و الضّحاك ضياءً و ذكر بغير
واو في ضياءً.

و قال قوم الضياء التّوراة و الذكر التّذكّر و الموعظة أو ذكر ما يحتاجون إليه
في دينهم و مصالحهم و العطف بالواو يؤذن بالتّغاير.

و عن ابن عباس الفرقان الفتح لقوله يوم الفرقان، و عن الضّحاك هو فلق
البحر و عن ابن كعب المخرج من الشّبهاة و قال ابن زيد الفرقان هنا هو النّصر
على الأعداء و دليله قوله تعالى: وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يعني يوم
بدر.

قال التّعلبي هذا القول أشبه بظاهر الآية لدخول الواو في ضياءً فيكون معنى
الآية و لقد آتينا موسى و هارون النّصر و التّوراة التي هي الضياء و الذكر
أقول ما ذكروه لا بأس به فإنّ المرجع و المأل في جميع الأقوال واحد كون
الشّيء فارقاً بين الحقّ و الباطل و من المعلوم أنّ مصاديقه كثيرة متفاوتة واضح.

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ

ثم وصف المتقين بأنهم يخشون ربهم بالغيب.

وقال في المفردات الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ولذلك خص العلماء بها في قوله تعالى: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ^(١) إنتهى.

وأما الغيب فقال الجبائي معناه يؤمنون بالغيب الذي أخبرهم به وهم من مجازاة يوم القيامة مشفقون أي خائفون إنتهى.

وعليه فالمراد بالساعة القيامة والإشفاق هو الخوف وقال الجمهور من العامة معناه يخافونه ولم يروه وقال الزجاج يخافونه من حيث لا يراهم أحد. وقال بعضهم معناه يخافونه إذا غابوا عن أعين الناس والإشفاق شدة الخوف.

وقال القرطبي في قوله **بِالْغَيْبِ** أي غائبين لأنهم لم يروا الله تعالى بل عرفوه بالظن والإستدلال فعلموا أن لهم رباً يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس وهم من الساعة أي من قيامها قبل التوبة مشفقون أي خائفون وجلون.

وقال الرزاعي في معنى الغيب وجوه:

أحدها: يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره ويستهنون عن نواهيه وإيمانهم بالله يسمي إستدلالاً فالعباد يعملون لله في الغيب والله لا يغيب عنه شيء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ثانيها: يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها.

ثالثها: يخشون ربهم في الخلوات إذا غابوا عن الناس وهذا الأقرب والمعنى أن خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم إلا أن ذلك مما يظهره في

الملأدون الخلاً و هم من عذاب السّاعة و سائر ما يجري فيها من الحساب و السّؤال مشفقون فعدلون بسبب ذلك الإشفاق عن معصية الله إنتهى.

أقول: قلنا الخشية خوفاً يشوبه تعظيم و بهذا يفرق بينهما و بين الخوف و من المعلوم أنّ المتقين لما عرفوا الله ملئت من عظمتهم قلوبهم فلا يخشون بهذا إلا الله و إذا كان كذلك فهم من السّاعة أيضاً مشفقون ثمّ أنّ الله تعالى أخبر عن القرآن.

وَ هَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ

و المشار إليه هو القرآن أي هذا القرآن و ذكر مبارك أمّا أنّه ذكر فلا خفاء منه سواء أريد من الذكر ذكر اللساني أم ذكر القلبّي و أمّا كونه مباركاً فلا منافع كثيرة جداً لمن كان أهلاً له و الهمزة في قوله، إمّا أفأنتم للإستفهام الإنكاري أي لا ينبغي إنكاره و إمّا للتوبيخ أي كيف ينكرون هذا و قد علمتم واقعاً أنّ أنزلناه على محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما أنزلنا التوراة و الإنجيل على موسى و عيسى و كيف كان فيه تسليّةً للرّسول إذ أنكر ذلك المشركون كما أنكر أسلاف اليهود ما أنزل الله على موسى و عيسى و فيه أشار إلى أنّ هذا ليس أوّل قارورة كسرت في الإسلام فإنّ كثيراً من النّاس ينكرون بألسنتهم ما هو ثابتٌ في قلوبهم كما أنّهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ

الرّشد هو الحقّ الذي يؤدّي إلى نفع يدعو إليه و نقيضه الغي.

قال قتادة و مجاهد معنى آتينا إبراهيم رُشده هديناه صغيراً و قال قوم المراد به النّبوة و قوله من قبل يعني من قبل موسى و هارون و قوله: كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ أي كُنَّا به عالمين بأنّه موضعٌ لإيتاء الرّشد و قيل معناه كُنَّا نعلم أنّه يصلح للنّبوة.

إِذْ قَالَ لِأَيِّهِمْ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ
 قد مرَّ الكلام سابقاً عند قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِزْ أُنْتَخِذْ أَصْنَامًا
 إِلَهَةً^(١) أَنْ أَرِزَكَانَ عَمَّ إِبْرَاهِيمَ وَقَدْ يُطْلَقُ الْأَبُ عَلَى الْعَمِّ وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ
 تَفْصِيلاً هُنَاكَ وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِذْ قَالَ لِأَيِّهِمْ أَيُّ قَالَ لِعَمِّهِ فَأَنَّ أَبَاهُ كَانَ تَارِخًا
 وَلَمْ يَكُنْ حَيًّا حِينَ بَعَثَ إِبْرَاهِيمَ لِلتَّبْوَةِ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لَهُ وَلِقَوْمِهِ أُنْتَخِذْ أَصْنَامًا
 آلِهَةً كَمَا قَالَ فِي الْمَقَامِ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، وَ
 الْمُرَادُ بِالتَّمَاثِيلِ الْأَصْنَامَ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا وَالتَّعْبِيرُ بِالتَّمَاثِيلِ لِلتَّحْقِيرِ أَيُّ أَنَّهَا
 صُورٌ بِلَا رُوحٍ مِنْ نَسْخِ الْجَمَادَاتِ وَكَلِمَةٌ مَا، لِلإِسْتِفْهَامِ، وَالمَعْنَى أَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ
 التَّمَاثِيلُ فَهِيَ لِلتَّبْوِيخِ وَ لَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ
 عَارِفًا بِحَالِ التَّمَاثِيلِ فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُمْ مَا قَالَ عَلَى
 سَبِيلِ التَّبْوِيخِ وَالتَّفْرِيعِ فَأَنَّ الْمَوْجُودَ الْعَاقِلَ إِذَا عَبَدَ الْجَمَادَ فَهُوَ يَسْتَحِقُّ
 لِلتَّبْوِيخِ وَ الْمُرَادُ بِالْعُكُوفِ اللَّزُومَ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ.

وَقِيلَ مَعْنَى، لَهَا، عَاكِفُونَ، لِأَجْلِهَا ثُمَّ أَنَّهُمْ أَجَابُوا بِمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ
 بِقَوْلِهِ: قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ إِسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ
 بِعَمَلِ آبَائِهِمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ فَقَالُوا فِي جَوَابِ إِبْرَاهِيمَ وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا أَيُّ
 لِلْأَصْنَامِ عَابِدِينَ فَنَحْنُ أَيْضًا نَعْبُدُهُمْ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ التَّقْلِيدَ فِي الْأَصُولِ
 الْإِعْتِقَادِيَّةِ بَاطِلٌ لَا سِيَّمَا التَّقْلِيدَ عَنْ مُشْرِكٍ أُخْرٍ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي الْأَبَاءِ
 كَالْكَلَامِ فِي الْأَبْنَاءِ مِنَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَ لِذَلِكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فِي جَوَابِ إِسْتِدْلَالِهِمْ.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
 فَإِنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ أَيُّ أَنَّ الْأَبَاءَ كَانُوا عَلَى الضَّلَالَةِ كَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِا
 فَذَمَّهُمْ عَلَى تَقْلِيدِ الْأَبَاءِ وَ نَسْبِ الْجَمِيعِ إِلَى الضَّلَالَةِ وَ الْعُدُولِ عَنِ الْحَقِّ ثُمَّ

أنهم أجابوا ثانياً حيث قالوا أجتئنا بالحقّ أم أنت من اللّاعبين، أي قالوا في جواب إبراهيم عليه السلام على سبيل الإستفهام أجتئنا بالحقّ أي أنت محقّ فيما تقول في ذمّ عبادة الأصنام أم أنت لآعبّ بنا و أنما قالوا ذلك له لأنّ إبراهيم عليه السلام كان قد نشأ بينهم فجّوزوا أنّ ما قاله لهم بترك عبادة الأصنام على سبيل المزاح لا الجدّ فإستفهموه أهذا جدّ أم لعب و الضّمير في قوله، قالوا، عائذ على أبيه و قومه و بالحقّ، متعلّق بقولهم أجتئنا ولم يريدوا حقيقة المجي لأنّه لم يكن عنهم غائباً فجاءهم ثمّ أنّ الحقّ هنا ضدّ الباطل و هو الجدّ ولذلك قالوا باللّعب و جاءت الجملة إسميّة لكونها أثبتت كأنّهم حكموا عليه بأنّه لآعبّ هازلّ في مقالته لهم بزعمهم الفاسد و ذلك أنّهم كانوا يستبعدون منه إنكار عبادتها عليه و لذلك أضرب إبراهيم عن قولهم و أخبر عن الجدّ كما حكاه الله تعالى بقوله:

قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

كلمة، بل، للإضراب ومعنى الآية أنّ المالك لهم و المستحقّ للعبادة هو ربّهم و ربّ هذا العالم العلوي و العالم السفلي المندرج فيه أنتم و معبوداتكم من الأصنام و فيه تنبيه على أنّ المستحقّ للعبادة هو منشي هذا العالم و مخترعه من العدم الصّرف إلى الوجود و الظّاهر أنّ الضّمير في (فطرهنّ) عائذ على السّموات و الأرض ولما لم تكن السّموات و الأرض تبلغ في العدد الكثير منه جاء الضّمير ضمير القلّة و قيل الضّمير في فطرهنّ عائذ إلى التّماتيل التي كانوا يعكفون عليها و يعبدونها.

و قال الزّمخشري عوده على التّماتيل أدخل في تضليلهم و أثبت للإحتجاج عليهم إنتهى.

و قال ابن عطية فطرهنّ، عبارة عنها كأنها تعقل و هذه من حيث لها طاعة و إنقياد و قد وضعت في مواضع بما يوصف به من يعقل.

أقول كأن ابن عطية و غيره تخيل أنّ ضميرهنّ، من الضمائر التي تخصّ من يعقل من المؤنثات ولم يعلموا أنّه لفظٌ مشترك بين من يعقل و ما لا يعقل من المؤنث المجموع و من ذلك قوله: **فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ**^(١) و الضمير عائذ على الأربعة الحرم و الإشارة بقوله ذلكم، إلى ربوبيته تعالى و وصفه بالإختراع لهذا العالم و من، للتبعض أي الذين يشهدون بالربوبية كثيرون و أنا بعضٌ منهم و على ذلكم، متعلّق بمحذوف تقديره و أنا شاهد على ذلكم من الشاهدين.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية عني بقوله: **وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِينَ**، إذعاء أنّه قادرٌ على إثبات ما ذكره بالحجّة أو أنّي نسبت مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجّة كما لا تقدرُوا على الإحتجاج لمذاهبكم و لم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه أبأؤكم إنتهى موضع الحاجة منه.

وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ

ثمّ أقسم إبراهيم عليه السلام و قال و تالله و ذلك قسمٌ و التاء في القسم لا تدخل إلاّ في إسم الله لأنّها بدل من الواو والواو بدلٌ من الباء فهي بدل من بدل فلذلك أختصت بإسم الله.

و قرأ معاذ بن جبل و أحمد بن حنبل، بالله، بالباء بواحدة من أسفل.

قال الرّمخشري فإن قلت ما الفرق بين التاء والباء.

قلت أنّ الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو و أنّ التاء فيها زيادة معني التعجّب كأنه تعجّب من تسهّل الكيد على يده لأنّ ذلك كان أمراً مقنوطاً منه

لصعوبته و تَعَذُّره و لعمري أنّ مثله صعبٌ مَتَّعِذِرٌ في كلّ رمانٍ خصوصاً في زمنٍ نمرود مع عتوه و إستكباره و قوّة سلطانه و تهالكه على نصر دينه ولكن إذ بالله شيءٌ عقد شيءٌ تيسراً إنتهى.

أقول: قيل في وجه إصالة الباء للقسم أنّها أوسع حروف القسم إذ تدخل على الظاهر و المضمّر و يصرّح بفعل القسم معها و تحذف و أمّا قولهم أنّ التاء بدل من الواو الذي أبدل من باء القسم فهو قولٌ لا دليل عليه و قد رواه السُّهيلي و الذي يقتضيه النقل أنّه ليس شيئاً منها أصلاً لآخر و أمّا قول الزّمخشري أنّ التاء فيه زيادة معنى و هو التّعجب فهو أيضاً غير مسلم لأنّ التاء يجوز أن يكون معها التّعجب و أن لا يكون و اللّام هي التي يلزمها التّعجب في القسم هذا ثمّ أنّ الكيد معناه الإحتيال في وصول الضّرر إلى المكيد و الظاهر أنّ هذه الجملة خاطب بها عمّه و قومه و قيل قال ذلك سراً من قومه و سمعه رجلٌ واحد سمعه قومٌ من ضعفائهم ممّن كان يسير في آخر النّاس يوم خرجوا إلى العيد و كانت الأصنام سبعين و قيل اثنين و سبعين.

روي أنّ أزر خرج به في يوم عيد لهم فبدؤا ببيت الأصنام فدخلوه و سجدوا لها و وضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم و قالوا لن ترجع بركة الألهة على طعامنا فذهبوا فلمّا كان في الطّريق ثنى عزمه عن المسير معهم فقعدها قال: **إِبْنِي سَقِيمٌ.**

و قال الكلبي كان إبراهيم من أهل بيت ينظرون في النّجوم و كانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلاّ مريضاً فأتاهم إبراهيم بالذي هم فيه فنظر قبل يوم العيد إلى السّماء و قال لأصحابه أنّي أشتكى غداً و أصبح معصوب الرأس فخرجوا و لم يتخلف أحد غيره و قال تالّله لأكيدنّ إلى آخره فسمعه رجلٌ فحفظه ثمّ أخبر به فانتشر إنتهى.

قيل و في الكلام حذف تقديره فتولوا إلى عيدهم فأتى إبراهيم الأصنام فجعلهم جذاداً.

قال ابن عباس و حطاماً و قال الضحاك أخذ من كل عضو من عضواً كانت الأصنام مصطفةً و صنمٌ منها عظيم مستقبل الباب من ذهب و في عينه درتان مضيتان فكسرها بفأس إلا ذلك الصنم و علّق الفاس في عنقه و قيل في يده و قرأ الجمهور، جذاداً بضم الجيم و الكسائي و ابن محيص و ابن مقسم بكسرها و ابن عباس و أبو السّمّاك و أبو نهيك بفتحها و هي لغات أجودها الضّم كالخطام و الرّفات قال البيهقي، جذاد بالضم جمع جذادة كزجاج و زجاجة و بالكسر جمع جديذ مثل كريمٌ و كرام و بالفتح مصدر كالحصاد بمعنى المحصود فالمعنى مجذوذين.

و قال قطرب في لغاته الثلاث هو مصدر لا يثنى و لا يجمع و إلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله:

فَجَعَلَهُمْ جُذَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

و أما قال، فجعلهم ولم يقل فجعلها لأنها كانت تعبد و محصل الكلام أن إبراهيم عليه السلام جعل الأصنام جذاداً و قوله: إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ إستثناء من الضمير في، فجعلهم، أي فلم يكسر الكبير من الأصنام فالضمير في، لهم، يحتمل أن يعود على الأصنام و أن يعود على عباده أي لم يكسر الكبير من أصنامهم و المراد بالكبير هنا العظيم الجثة و قيل كبير في المنزلة عندهم لكونهم صاغوه من ذهبٍ و جعلوا في عينيه جوهرتين تضيئان بالليل و الضمير في إليه، عائذٌ على إبراهيم أي فعل ذلك إبراهيم بأصنامهم ترجياً منه أن يرجعوا إليه و إلى شرعه.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ

قيل في الكلام محذوف تقديره فلما رجعوا من عيدهم إلى ألهتهم و رأوا ما فعل بها إستفهموا على سبيل البحث و الإنكار فقالوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالِهِنْتِنَا أَي من كَسَرها و جذَّها أَنه لظالمٌ في إجترائه على الألهة المستحقة للتعظيم و التوقير و الظاهر أَنهم إستفهموا من أنفسهم إذ لم يكن هناك من يستفهموه قيل لهم ما حكاه الله تعالى عنهم.

بقوله: قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ.

أَي قال الَّذِينَ سَمِعُوا قول إبراهيم لَمَّا قال: وَ تَاللَّهِ لَأُكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ و قوله: يَذُكُرُهُمْ أَي يذكرهم بسوء و قد مرَّ أَنَّ بعض الضُّعفاء من القوم سمعوا من إبراهيم هذا فقوله يقال له إبراهيم يحتمل أن يكون جواباً لسؤال مقدرٍ لما قالوا سمعنا فَتَى يذكرهم و أتوا به منكرأ قِيل من يقال له فقيل يقال له إبراهيم و إرتفاع إبراهيم على أَنه خبر مبتدأ محذوف أَي هو إبراهيم له و على أَنه مفرد مفعولي لما لم يسم فاعله و عليه فيكون من الأسناد للفظ لا مدلوله أَي يطلق عليه هذا اللفظ.

قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ

لَمَّا قال بعضهم أَنه سمع إبراهيم يعيب ألهتهم و يذكرها بسوءٍ قالوا جيئوا به أَي أحضروه على أعيُن النَّاسِ و أَنما قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يأخذوه بغير بَيِّنَةٍ و لذلك قالوا جيئوا به بحيث يراه النَّاسِ و يكون بمراءٍ منهم لَعَلَّهُمْ يشهدون، بما قال أَنِّي أكيد أصنامهم شهادة يكون حجةً عليه، و قيل معناه يشهدون عقابه، يشهدون حجَّته و ما يقال له من الجواب و على هذا فقوله: عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ و في موضع الحال و على، معناها الإستعداد المجازي قيل المراد بالنَّاسِ هنا خواصَّ المملك و أوليائه و فى الكلام حذف تقديره فَأَتُوا به على تلك الحالة من نظر النَّاسِ إليه.

قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ

لَمَّا أَحْضَرُوا إِبْرَاهِيمَ قَالُوا أَيُّ قَوْمٍ لَكَ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا أَيُّ أَنْتَ كَسَّرْتَ الْأَلْهَةَ وَجَعَلْتَهَا جِذَاذًا يَا إِبْرَاهِيمَ قَالَ فِي جَوَابِهِمْ.

قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ

قال بعض المفسرين و إنما جاز أن يقول بل فعله كبيرهم هذا و المفروض أنه ما فعل شيئاً لأحد أمرين:

أحدهما: أنه قيده بقوله، إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم و قالوا فإسألوهم إعتراض بين الكلامين كما يقول القائل عليه الدرهم فإسأله أن أقترن.

الثاني: أنه خرج مخرج الخبر و ليس بخبر و إنما هذا إلزام دل على تلك الحال كأنه قال بل ما تكرون فعله كبيرهم هذا فالإلزام تارة يأتي بلفظ السؤال و تارة بلفظ الآخر كقوله تعالى: فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ و تارة بلفظ الخبر و المعنى فيه أنه من إعتقد كذا لزمه كذا و قد قرئ في الشعراء فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ بتشديد اللام يعني فلعل كبيرهم فعلى هذا لا يكون كذباً خبيراً فلا يلزم أن يكون كذباً و الكذب قبيح لكونه كذباً فلا يحسن على وجه سواء كان فيه نفع أو دفع ضرر و على كل حال فلا يجوز على الأنبياء و القبايح و لا يجوز عليهم التعمية في الأخبار و لا التقييد في أخبارهم لأنه يؤدي الى التشكيك في أخبارهم فلا يجوز ذلك عليهم على وجه فأمأ ما روي عن النبي بأن قال، لم يكذب إبراهيم إلا بثلاث كذبات كلها في الله، فإنه خبر لا أصل له و لو حسن الكذب على وجه كما يتوهم بعض الجهال لجاز عن القديم تعالى ذلك و زعموا أن الثلاث كذبات هي قوله: فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا و ما كان فعله و قوله: إِنِّي سَقِيمٌ و لم يكن كذلك و قوله في سارة لَمَّا أَرَادَ الْجَبَّارُ أَخْذَهَا أَنَّهَا أُخْتِي و كانت زوجته حتى قال بعضهم كان الله أذن له في ذلك و هذا باطل لأنه لو أذن الله فيه لكان

الكذب حسناً، قد بينا أنه قبيحٌ على كلِّ حالٍ و قيل معنى قوله: **إِنِّي سَقِيمٌ** إِنِّي سَأَسْقِمُ، لأنه لما نظر الى بعض الكواكب علم أنه وقت نوبة حمى كانت تجيئه فقال إِنِّي سَقِيمٌ و قيل معناه إِنِّي سَقِيمٌ، أي غمّاً بضلالكم، قيل معناه إِنِّي سَقِيمٌ عندكم فيما أدعوكم إليه من الدين و قيل أن من كانت عاقبته الموت جاز أن يقال فيه سَقِيمٌ مثل المريض المشرف على الموت و أمّا قوله في سارة أنها أختي فإنه أراد في الدين و أمّا قول يوسف لإخوته **أُنْكُمْ لَسَارِقُونَ** فقد قال قومٌ هو من قول مودن يوسف على ظنّه فيما يقتضيه الحال من الظنّ الذي يعمل عليه و قيل معناه أنكم لسارقون، يوسف إنتهى ما ذكره الشيخ **هَاشِمٌ** فِي التَّبْيَانِ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ و إنّما نقلنا كلامه لما فيه من الفائدة التي ينبغي التّوجه إليها.

و أنا أقول: أصل الإشكال هو أنّ قول إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** من الكذب و الكذب قبيحٌ ذاتاً و هو لا يصدر عن النبي لمكان عصمته فلو قلنا بجواز الكذب عليه نفينا عنه الصّحة و لا شك أنّ إبراهيم عليه السّلام من أعظم الأنبياء فكيف يجوز عليه الكذب و هذا الإشكال هو الذي صار سبباً و باعثاً على إحالة الكلام في المقام و حيث إنجر الكلام الى هنا فلا بد لنا من التّكلم فيه من أصول الإعتقادات في حقّ الأنبياء و الأوصياء على مذهب الحقّ و قبل الخوض في البحث نشير الى بعض الأقوال من المفسّرين قال الرّمخسري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

هذا من معاريف الكلام و لطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الرّاضة من علماء المعاني و القول فيه أنّ قصد إبراهيم، لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصّنم و إنّما قصد تقريره لنفسه و إثباته لها على أسلوب تعريضي يعني يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجّة و تبكيّتهم و هذا كما لو قال لك صاحبك و قد كتبت كتاباً بخطّ رشيق و أنت مشهور بحسن الخطّ أنت

كتبت هذا و صاحبك أُمِّي لا يحسن الخَطَّ ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة فقلت، بل كتبت أنت كان قصدك بهذا الجواب تقديره لك مع الإستهزاء به لا نفسه عنك و إثباته للأُمِّي أو المخرمش لأنَّ إثباته و الأمر دائرٌ بينكما للعاجز عنكما إستهزاءً به و إثباتٌ للقادر و القائل أن يقول غاضته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مرتبة و كان غيظه كبيرها أكبر و أشدَّ لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه لأنه هو الذي تسبب لإستهانته بها و حطمه لهما و الفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه و يجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فأَنَّ من حقَّ من يعبد و يدعى إليه بأنه إله أن يقدر على هذا و أشدَّ منه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية لمآلم يكن السَّماع عاماً و لا تثبت الشهادة إستفهموه هل فعل أم لا و فى الكلام محذوف فجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا أنت فعلت هذا بألهة فقال لهم إبراهيم على جهة الإحتجاج عليهم **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** هذا أي أنه غار و غضب من أن يعبد هو و يعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك أن كانوا ينطقون بإسألوهم فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين تنبيهاً لهم على فساد إعتقادهم كأنه قال بل هو الفاعل أن نطق هؤلاء.

و قيل بيّن أن من لا يتكلّم و لا يعلم لا يستحق أن يعبد و كان قوله من المصاريفي مندوحة من الكذب أي سلوهم إن نطقوا فأنهم ليصدقون و أن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل و فى ضمن الكلام إعتراّف بأنه هو الفاعل و هذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه فدلَّ أنه خرج مخرج التعريض إنتهى.

و قال الرّازي فأن قيل، قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** كذب.

و الجواب للناس فيه قولان، ثم ذكر أقوالاً كثيرة في القول الأوّل و نحن نقلناها عنهم فلا نعيدها ثم قال القول الثّاني و هو قول طائفة من أهل

الحكايات أن ذلك كذب وإحتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات في ذات الله تعالى، قوله: **إِنِّي سَقِيمٌ** وقوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** وقوله لسارة هي أختي وفي خبر آخر أن أهل الموقف إذا سألوا إبراهيم الشفاعة قال إنني كذبت ثلاث كذبات ثم قرروا قولهم من جهة العقل و قالوا أن الكذب ليس قبيحاً لذاته فإن النبي ﷺ إذا ضرب من ظالم وإختفى في دار إنسانٍ وجاء الظالم وسأل عن حاله فإنه يجب الكذب فيه وإذا كان كذلك فأبى بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو ثم قال الرّازي ويعلم أن هذا القول مرغوب عنه أمّا الخبر الأول وهو الذي رووه فلأن يضاف الكذب إلى رواية أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم السلام والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة وبأذن الله فيه فلنَجُوز هذا الإحتمال في كل ما أخبروا عنه وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه وما ذلك يبطل الموثوق بالشرائع والطرق التهمة إلى كلها ثم أن ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعارض على ما قال **عَلَيْهِ** أن في المعارض مندوحة عن الكذب وأما قوله تعالى: **إِنِّي سَقِيمٌ** فعلة كان به سقمٌ قليل وإستقصاء الكلام فيه يجيء في موضعه وأما قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** فحق ظهر الجواب عنه.

وأما قوله لسارة أنها أختي فالمراد بها أخته في الدين وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء فلا يحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره حق لا مرية فيه ويظهر من كلامه أن الحديث الذي رووه عن رسول الله أنه قال لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات بأن لا أجعل له بل هو من المجعولات وقد صرح بذلك من العصيان كما مرّ وهو أي الشيخ **فِيهِ** أعرف بالأنبياء من غيره والعجب من الطبري وهو من أعظم أهل السنة أنه حكم بصحة الخبر في تفسيره لهذه الآية قال ما هذا لفظه:

وقد زعم بعض من لا يصدّق بالأثار ولا يقبل من الأخبار إلا ما استعاص به التّنقل من العوام أنّ معنى قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** أنّها هو، بل فعله كبيرهم هذا أن كانوا ينطقون فإسألوهم أي أن كانت الألهة المكسورة تنطق فأنّ كبيرهم هو الذي كسرهم وهذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنّ إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات كلّها في الله، قوله: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**، وقوله: **إِنِّي سَقِيمٌ** وقوله لسارة هي أختي وغير مستحيل أن يكون الله تعالى أذن لخليله في ذلك ليقرع قومه به ويحتجّ به عليهم ويعرفهم موضع خطأهم وسوء نظرهم لأنفسهم كما قال مؤدّن يوسف أيتها العير أنك لسارقون ولم يكونوا سرقوا شيئاً إنتهى كلامه.

بألفاظه و عباراته إذا عرفت هذا فنقول:

الحق أنّ النّبّي لا يكذب لكان عصمته و عدم وجوب التّقية عليه و أنّ جواز الكذب فيه يوجب سلب الإعتداد بقوله و احتمال المصلحة في كذبه يجري في جميع أقواله و أمّا وجود المصلحة في الكذب في غير النّبّي فهو ممّا لا إشكال فيه بل قد يجب الكذب و يحرم الصدق في بعض الموارد كما إذا تزدت على الصدق مفسدة عظيمة و السّر في ذلك أنّ النّبّي يخبر عن الله تعالى بالوحي و الإلهام و يجب على الأمة قبول قوله في جميع الأمور فلو فرضنا جواز الكذب عليه بأيّ نحو كان يلزم نقض الفرض و إمّا غير النّبّي فليس كذلك و لأجل ذلك لم يجوزوا التّقية عليه و هذا ثابت في حقّه إجماعاً عقلاً و نقلاً ولم يخالف فيه أحداً إلا شرذمة قليلة فمن لا يعنى بقولهم و لا تضر مخالفتهم في المقام.

و العجب من الطّبري حيث أنكر ذلك و تمسك بما لا أصل له من الأخبار الموضوعية و ليس هذا أول قارورة تكسر في الإسلام.

إن قلت: فما معنى الآية.

قلت: معنى الآية لا خفاء فيه ولا يحتاج إلى ما ذكره وذلك لأن إبراهيم لم يقل ما فعلت صريحاً حتى يلزم الكذب بل قال: **فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ** ثم علق الفعل على نطق الأصنام فقال فإسألوهم إن كانوا ينطقون ومن المعلوم المسلم عند الكل أن المشروط ينتفي بإتفاء شرطه وحيث أن السؤال علق على النطق فإذا إنتفى النطق إنتفى السؤال ولا شك أن الجماد لا يصدق على النطق فلا يسأل منه فلم يفعل الفعل فالكلام يدل على أن الفعل لم يصدر من الكبير وهو حق لا مرية فيه واقعاً وأما أن الفعل صدر من إبراهيم أو لم يصدر منه فالكلام ساكت عنه فأين الكذب في كلامه هذا حتى نبحت فيه والذي أوقفهم في الإشكال هو قوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا** ومن المعلوم أنه لم يفعل ولم يعلموا أن إسناد الفعل إلى الكبير ليس على إطلاقه حتى يلزم الكذب بل مشروطاً بالنطق المستحيل وما علق على المحال فهو محال فبإسناد الفعل إليه بقول كان محال ولعمري هذا واضح لمن تدبر في الكلام وأنصف من نفسه، نعم لو كانت الآية هكذا قال لم أفعله بل فعله كبيرهم يلزم الكذب حيث نفى الفعل عن نفسه والمفروض أنه فعله ولما لم يقل لم أفعله فلم يكذب وهذا ظاهر.

فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ

أي عادوا إلى نفوسهم يعني بعضهم إلى بعض وقال بعضهم لبعض أنكم أنتم الظالمون في سؤاله لأنها لو كانت ألهة لم يصل إبراهيم إلى كسرها، وقيل معنى الكلام أنتم الظالمون بعبادة من لا ينطق بلفظة ولا يملك لنفسه لحظة وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس من لا يرده عن رأسه الفأس.

وقال بعض المفسرين في معنى الكلام أي أنتم الظالمون في سؤالكم إبراهيم حين سألتموه ولم يسألوها أو حين عبدتم ما لا ينطق وقال ابن عباس أنتم الظالمون حين لم تحفظوا ألهتكم، أو في عبادة الأصاغر مع هذا الكبير، وقيل أنتم الظالمون حقيقة حيث نسبتهم إبراهيم إلى الظلم في قولكم أنه لمن الظالمين إذ هذه الأصنام مستحقة لما فعل بها.

ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ

النكس هو جعل الشيء أسفله أعلاه و منه النكس في العلة إذا رجع إلى أول حاله و المعنى أدرتكم حيرة سوء فنكسوا لأجلها رؤوسهم ثم أقرؤا بما هو حجة عليهم فقالوا لإبراهيم لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ فأقرؤا بالحيرة التي لحقتهم فكل ذلك دلالة على خطأهم لكنهم أصرؤا على العناد قاله الشيخ في التبيان.

و قال بعض المفسرين نكسوا على رؤوسهم أي إرتبكوا في ضلالهم و علموا أن الأصنام لا تنطق فساءهم ذلك حين نبه على قيام الحجة عليهم إستعارة للذي يرتطم في غيّه كأنه منكوس على رأسه و هي أقبح هيئة للإنسان فكأن فعله منكوس أي مغلوب لإنتقال شكله و جعل أعلاه أسفله فرجوعهم إلى أنفسهم كناية عن إستقامة فكرهم و نكسهم كناية عن مجادلتهم و مكابرتهم و يحتمل أن يكون نكس الرؤوس كناية عن تنكيسها إلى الأرض على سبيل الخجل و الإنكار من إقامة الحجة عليهم بحيث لم يطبقوا جواباً و أما قولهم و لقد علمت أي لَقَدْ عَلِمْتُمْ يا إبراهيم أن الأصنام لا يقدرّون على النطق فكيف تقول لنا فاسألوهم أما قصدت بذلك توبيخاً.

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفِ لَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

لما قال القوم له: لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قال لهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَعْبُدُونَ من دون الله ما ينفعكم شيئاً، ولا تدفع عنكم ضرراً لأنها لو قدرت على نفعكم و ضرركم لدفعت عن نفسها حتى لا تكسر، هكذا فسّر الكلام في التبيان و لقائل أن يقول.

قوله: وَلَا يَضُرُّكُمْ ليس معناه لا تدفع عنكم ضرراً و بعبارة أخرى نفى عنها النفع و الضرر أي لا نفع في عبادتها و لا ضرر فهما في عبادتهما و عدمها سببان.

ومن المعلوم أنّ الضّرّ في عبادتها موجود و أيّ ضرّاً أقيح و أعظم من عبادة الصّئم و فيه خسران الدّنيا و الآخرة فكيف قال و لا يضركم .
 و أمّا تفسير الشّيخ فلا يساعده ظاهر الكلام إذ فرّق بين عدم الضّرّ و عدم دفع الضّرّ و المنّفي في الآية هو الأوّل دون الثّاني فالإشكال باقٍ على حاله لوجود الضّرّ في عبادة الأوثان في الدّارين و بعبارة أخرى لا نفع في عبادة الأصنام و لكن الضّرّ فيها موجود فكيف قال و لا يضركم و العجب أنّ أكثر المفسّرين لم يفتنوا لهذه الملاحظة و فسّروا الكلام على خلاف ظاهره و أتى بعد الرّجوع الى تفاسيرهم الموجودة عندي لم أر ما يرفع الإشكال إلّا الطّبرسي رحمته الله في المجمع حيث قال و لا يضركم أن تركتموها أي إن تركتم العبادة.

و بهذا يندفع الإشكال و عليه ففي الكلام حذفٌ و هو أن تركتموها و ما كان كذلك فعبادته لغوٌ و وجوده كعدمه.

و أمّا قوله تعالى: **أَفِ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.**
 ثمّ أبدى لهم الصّخر منهم و من معبوداتهم فإنّ هذه الكلمة ف الحقيقة صوت المتّصجر و معناه قبحاً، و اللام لبيان المتأّف له أي أف لكم و لآهتكم و بعبارة أخرى هذا المتأّف لكم و لآهتكم ثمّ قال أفلا تعقلون تنبيهٌ على إرشادهم الى العقل الذي يدرك الأشياء به أي قبح ما أنتم عليه من عبادة الأصنام و أنتم من ذوي العقول و عليه فالإستفهام في قوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** توبيخٌ وإنكار و ما أقيح لمن يدعي العقل و هو يعبد الجماد.

و قال بعض المفسّرين أفلا تعقلون، أفلا تتفكرون بعقولكم، في أنّ هذه الأصنام لا تستحقّ العبادة إذ لا تقدر على جلب النّفع و دفع الضّرّ فلمّا سمعوا من إبراهيم هذه المقالة قال بعضهم لبعض حرّقه كما قال تعالى عنهم:

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

أي قال بعضهم لبعض آخر حرِّقوه بالنار فإنَّ الإحراق ليس إلا بها وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ، أي عظموها وأدفعوا عنها و من عبادتها، إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ أي أن كنتم ناصرها ولم تريدوا ترك عبادتها، قيل أن الذي أشار بتحريق إبراهيم رجلٌ من أكراد فارس قيل الكلام حذفٌ و التَّقدير أوثقوا إبراهيم و أطرحوه في النَّار و قيل أشار بإحراقه نمرود.

روي أنهم حين هموا بإحراقه حبسوه ثم بنو ابتيا الحظيرة و اختلفوا في مدَّة حبسه و في عرض الحظيرة و طولها و مدَّة جمع الحطب و مدَّة الإيقاد و مدَّة سنَّة إذ ذاك و مدَّة إقامته في النَّار و كيفية ما صارت أماكن النَّار و نحن عرضنا عن نقل أقوالهم لعدم الفائدة فيه مضافاً الى أنه لا دليل على صحَّة للأقاويل و الذي صرَّح به القرآن و إتفق الكلُّ عليه هو الإلقاء في النَّار و كيف كان.

روي أنهم إِيَّخذوا منجنيقاً بتعليم إبليس إذ كان لم يصنع قبل فشَّد إبراهيم رباطاً و وضع في كفه المنجنيق و رمى به فرفع في النَّار، روى أن إبراهيم لما إحتجَّ عليهم في عبادتهم الأصنام فلم يتنهبوا حضر صيد لهم و خرج نمرود جمع أهل مملكته الى صيد لهم وكره أن يخرج إبراهيم معه فوكله بيت الأصنام فلما ذهبوا عمد إبراهيم الى طعام و أدخله بيت الأصنام فكان يدنوا من صنم الى صنم و يقول كل و تكلم فإذا لم يجبه أخذ القدوم فكسر يده و رجله حتَّى فعل ذلك بجميع الأصنام ثم علَّق القدوم في عنق الكبير منهم الذي كان في الصِّدر فلما رجع الملك و من معه من الصيد نظروا الى الأصنام مكسرة فقالوا من فعل هذا بألهتنا أنه لمن الظالمين فقالوا ها هنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم و هو ابن آزر فجاؤوا به الى نمرود فقال نمرود آزر خنتني كتمت هذا الولد عني فقال أيها الملك هذا عمل أمه و ذكرت أيها تقوم بحجته فدعا

نمرود أم إبراهيم فقال لها احملك على ان امر هذا الغلام حتى فعل بالهتنا ما فعل أيها الملك نظراً مني لرعيّتك قال وكيف ذلك فرأيتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النسل فقلت أن كان هذا الذي يطلبه دفعته اليه ليقته و يكف عن قتل أولاده و إن لم يكن ذلك فيبقى لنا ولدنا و قد ظفرت به فشأنك فكف عن أولاد الناس فصوّب رأيها ثم قال لإبراهيم من فعل هذا بالهتنا يا إبراهيم قال إبراهيم فعله كبيرهم هذا فأسألوهم إن كانوا ينطقون.

قال الصادق عليه السلام و الله ما فعل كبيرهم و ما كذب إبراهيم فقيل له كيف ذلك فقال عليه السلام أنما قال فعله كبيرهم هذا إن نطق و إن لم ينطق فهو أي كبيرهم لم يفعل شيئاً فاستشار نمرود و قومه في إبراهيم فقالوا حرّقه و أنصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قال الصادق عليه السلام كان فرعون ابراهيم لغير رشدة فأنهم قالوا لنمرود حرّقه و أنصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين و ان فرعون موسى و أصحابه و شدة فأنه لما إستشار أصحابه في موسى قالوا أرجه و أخاه و أرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكلّ سحارٍ عليم فحبس إبراهيم و جمع له الحطب حتى إذا كان اليوم الذي ألقى فيه نمرود إبراهيم في النار برز نمرود و جنوده و قد كان بنى لنمرود بناءً ينظر منه الى إبراهيم كيف تأخذه النار فجاء إبليس و إتخذ لهم المنجنيق لأنه لم يقدر أحد أن يتقارب من النار و كان الطائر إذا مرّ في الهواء يحترق فوضع إبراهيم في المنجنيق و جاء آزر و لطمه لطمه و قال له إرجع عمّا أنت عليه و لم يبق شيء إلا طلب الى ربّه و قالت الأرض يا ربّ ليس على ظهري أحد يعبدك غيره فيحرق و قالت الملائكة يا ربّ خليلك إبراهيم يحرق بالنار فقال أسكت أنما تقول أهذا عبدٌ مثلك يخاف الموت هو عبدي أخذه إذا شئت فأن دعاني أحبته فدعا إبراهيم ربّه بسورة الإخلاص يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد نجّني من النار برحمتك قال فألتقى معه جبرائيل في الهواء و قد وضع في المنجنيق فقال

يا إبراهيم هل لك إليّ من حاجةٍ فقال إبراهيم أمّا اليك فلا و أمّا الى ربّ العالمين فنعّم فدفع اليه خاتماً عليه مكتوبٌ لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله ألجأت ظهري الى الله و إستندت أمري الى الله و فوضت أمري الى الله فأوحى الله الى النّار كوني برداً فإضطربت أسنان إبراهيم من البرد حتّى قال و سلاماً على إبراهيم و إنحط جبرائيل و جلس معه يحدثه في النّار و هم في روضةٍ خضرة و نظر اليه نمرود فقال من إتخذ إلهاً فليتخذ مثل إله إبراهيم فقال عظيمٌ من عظماء أصحاب نمرود أتّي عزمت على النّار أن لا تحرقه فخرج عمودٌ من النّار نحو الرّجل فأحرقته و نظر نمرود الى إبراهيم في روضةٍ خضراء في النّار مع شيخٍ يحدثه فقال لأزرم ما أكرم إبنك على ربّه إنتهى موضع الحاجة من الخبر^(١).

أقول الى هذا أشار الله تعالى بقوله:

قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ

و عن ابن عباس لو لم يقل و سلاماً على إبراهيم لهلك إبراهيم من البرد ولو لم يقل على إبراهيم لما أحرقت نار بعدها و لا إنقادت. قال بعضهم لما كانت النّار تنفعل لما أراد الله منها كما ينفعل من يعقل عبّر عن ذلك بالقول لها و النّداء و الأمر.

قال الزّمخشري إن قلت كيف بردت النّار و هي نار.

قلت نزع الله عنها طبعها الذي طبعها الله عليه من الحرّ و الإحراق و أكفأها على الإضاءة و الإشراق و الإشتعال كما كانت و الله على كلّ شيء قدير و يجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم أدنى حرّها و يذيقه فيها عكس ذلك كما يفعل بخزنة جهنّم و يدلّ عليه قوله على إبراهيم إنتهى.

وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ

قيل هو العائد في النار فجعلناهم الأخسرين أي المبالغة في الخسران و هو ابطال ما رائوه و قيل سلط عليهم ما هو من أهون خلقه و أضعفه و هو البعوض يأكل من لحومهم و يشرب من دماءهم و سلط الله على نمرود بعوضة و اختلف في كيفية اذيتها له و في مدة إقامتها تؤذيه الى أن مات منها. و الحاصل أن نمرود و أشياعه أرادوا بإبراهيم كيداً و هي إحراقهم أياه فلم يقدروا عليه و هذا واضح.



وَنَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
 لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ
 نَافِلَةً وَ كَلَّمَا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْنَا هُمُ أُمَّةً
 يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ
 إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ آتَيْنَاهُ الزَّكَاةَ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ
 (٧٣) وَ لُوطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا وَ نَجَّيْنَاهُ مِنْ
 آلِ قَوْمِهِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا
 قَوْمَ سَوِيءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا
 إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَ نُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ
 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَئَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
 (٧٦) وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِيءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) وَ
 دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ
 نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ
 (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَ كَلَّمَا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا
 وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ
 كُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ
 لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)
 وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَاصِقَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى
 الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَالِمِينَ (٨١) وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ
 وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)

◀ اللُّغَةُ

وَلُوطًا: هو إسمٌ علمٌ وإستقامة من لاط الشَّيْءِ لوطاً لوطاً وليطاً وفي الحديث الولد أي العتق بالكبد.

نَافِلَةٌ: النَّفْلُ الزَّيَادَةُ أَي فَضْلاً وَزِيَادَةً.

الْخَبَائِثُ: جمع خبيثة وهي المنكرة من كل شيء.

سَوْءٌ: فتح السَّيْنِ الفساد.

وَنُوحًا: نوح إسم نبي وهو مصدر من نَاحَ يُنُوحُ أَي مُنَاحَ بِعَوِيلٍ.

الْكَرْبُ: بفتح الكاف وسكون الراء والباء الضَّم.

فِي الْحَرْثِ: الحَرْثُ الزَّرْعُ وَهُوَ مُصَدَّرٌ يُقَالُ حَرَّثَ حَرْثاً.

نَفَسَتْ: يُقَالُ نَفَسَتْ نَفْثًا أَيْ نَفَسَتْ لِيَأْبُلَ أَوْ الْغَنَمَ رَعَتْ لِيَأْبُلًا رَاعٍ.

لَبُوسٌ: بفتح اللام وضمّ الباء الدَّرْعُ وَقِيلَ هُوَ السَّلَاحُ كُلُّهُ دَرَعًا كَانَ أَوْ جَوْشِنًا

أَوْ سَيْفًا أَوْ رَمِيًّا.

لِتُحْصِنَكُمْ: الإحصان الإحراز والبأس شدة القتال.

◀ الإِعْرَابُ

نَافِلَةٌ حَالٌ عَنِ يَعْقُوبَ وَقِيلَ هُوَ مُصَدَّرٌ كَالْعَاقِبَةِ وَالْعَافِيَةِ وَالْعَامِلِ فِيهِ، يَعْنِي

وَهَبْنَا كَلِمًا الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ لِقَوْلِهِ، جَعَلْنَا إِقَامَ الصَّلَاةِ وَالْأَصْلَ فِيهِ إِقَامَةٌ عَوَاضٌ

مِنْ حَذْفِ إِحْدَى الْأَلْفِينَ وَجَعَلَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ بَدَلًا مِنَ الْهَاءِ وَ لُوطًا أَي وَأَتَيْنَاهُ

لُوطًا وَأَتَيْنَاهُ مَفْسَّرٌ لِلْحَذُوفِ وَمِثْلُهُ دَاوُودَ وَنُوحَ وَسَلِيمَانَ وَأَيُّوبَ بَعْدَهُ مِنْ

أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَقِيلَ التَّقْدِيرُ وَأَذَكَرَ لُوطًا الْخ.

وقيل التَّقْدِيرُ وَأَذَكَرَ خَبَرَ لُوطَ وَالْخَبَرَ مُحْذُوفٌ وَهُوَ الْعَامِلُ فِي، إِذَا، وَاللَّهُ

أَعْلَمُ.

إِذْ نَفَسَتْ ظَرْفٌ لِيُحْكِمَانَ مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالِ الْعَامِلُ فِي، مَعَ، يُسَبِّحُونَ وَ

هُوَ حَالٌ مِنَ الْجِبَالِ الْكُرَيْحِ نَصَبٌ عَلَى تَقْدِيرٍ وَسَخَرْنَا لِسَلِيمَانَ وَ دَلَّ عَلَيْهِ وَ

سَخَّرْنَا الْأُولَى عَاصِفَةً حَالٌ وَتَجَرَّى حَالٌ أُخْرَى أَمَا بَدَلًا مِنْ عَاصِفَةٍ أَوْ مِنْ الضَّمِيرِ فِيهَا مَنْ يَعْصُونَ لَهُ مِنْ، فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَطْفًا عَلَى الرِّيحِ أَوْ رَفَعٍ عَلَى الْإِسْتِنَافِ وَ هِيَ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ دُونَ ذَلِكَ صِفَةٌ لِعَمَلٍ.

◀ التفسير

وَ نَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ

يقول الله تعالى إنا نجينا إبراهيم و لوطاً من الكفار و حملناهما الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين إختلف المفسرون في المراد بالأرض فقال قوم هي أرض الشام أرض مكة، و قيل أرض بيت المقدس، و قيل من العراق الى أرض الشام و المراد بالبركة التي فيها للعالمين هي كثرة الأشجار و الخيرات التي ينتفع جميع الخلق بها إذا خلَّو بها و قيل في وجه كونها مباركة أن أكثر الأنبياء يعيشوا منها فلذلك كانت مباركة و على هذا فالمراد بالبركة و البركات المعنوية فيها.

روي أن إبراهيم خرج منها مهاجراً الى ربه و معه لوط و كان ابن أخيه فأمنت به سارة و هي ابنة عمه فأخرجها معه فأراً بدينه و في هذه الخرجة لقي الجبار الذي رام أخذ هامته فنزل حران و مكث زماناً بها، و قيل سارة ابنة ملك حران تزوجها إبراهيم و شرط عليه أبوها أن لا يغيرها و لقول الأول أصح و كيف كان ثم قدم مصر ثم خرج منها الى الشام فنزل السبع من أرض فلسطين و نزل لوط بالمؤتفة على مسيرة يوم و ليلة من السبع أو أقرب فبعثه الله نبياً هذا ما قاله المفسرون من العامة.

أقول: روى في البحار نقلاً عن الكافي بأسناده عن إبراهيم ابن أبي زياد الكرخي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول أن إبراهيم كان مولده بكوثاريا و كان أبوه من أهلها و كانت أم إبراهيم و أم لوط سارة و ورقة و في نسخة، رقبة أختين و هما بنتان للحج نبياً منذراً

ولم يكن رسولاً وكان إبراهيم ^{عليه السلام} في شببته على الفطرة التي فطر الله عز وجل الخلق عليها حتى هداه الله الى دينه و إجتباها و أنه تزوج سارة ابنة لاجج وهي ابنة خالته و كانت سارة صاحب ماشية كثيرة و أرض واسعة و حال حسنة و كانت قد ملكت إبراهيم جميع ما كانت تملكه فقام فيه و أصلحه و كثرت الماشية و الزرع حتى لم يكن بأرض كوثاريا رجلاً أحسن مالاً منه و أن إبراهيم لما كسر أصنام نمrod و أمر به و أمر به نمrod فأوثق و جمع له حيراً (أي حظيرة) و جمع له من الحطب و ألهب فيه النار ثم قذف إبراهيم في النار لتحرقه ثم اعتزلوها حتى خمدت النار ثم أشرفوا على الحيرة فإذا هم بإبراهيم سليماً مطلقاً من وثاقه فأخبروا نمrod و خبره فأمرهم أن ينفوا إبراهيم من بلاده و أن يمنعوه من الخروج بماشيته و ماله فجاءهم إبراهيم عن ذلك فقال إن أخذتم ماشيتي و مالي فإن حقي عليكم أن تردوا علي ما ذهب من عمري في بلادكم و إختصموا الى قاض نمrod فيقضى على إبراهيم أن يسلم اليهم جميع ما أصاب في بلادهم و قضى على أصحاب نمrod أن يردوا على إبراهيم ما ذهب من عمره في بلادهم و أخبر بذلك نمrod فأمرهم أن يخلو سبيله و سبيل ماشيته و ماله و أن يخرجوه و قال أنه أن بقي في بلادكم أفسد دينكم و أضرر بالهتكم فأخرجوا إبراهيم و لوطاً معه من بلادهم الى الشام فخرج إبراهيم و معه لوط لا يفارقه و سارة و قال لهم (أنّي ذاهب الى ربي سيهدين) يعني الى بيت المقدس فيحمل إبراهيم ماشيته و ماله و عمل تابوتاً و جعل فيه سارة و شدّ عليه الأغلاق غيرة منه عليها و مضى حتى خرج من سلطان نمrod و سار الى سلطان رجل من القبط يقال له غرارة فسّر بعاشر له عنه العاشر ليعشروا معه فلما

إنتهى الى العاشر و معه التَّابُوت فقال له العاشر إفتح هذا التَّابُوت
حَتَّى نبعثر ما فيه على ما فيه من ذهب أو فضةٍ حَتَّى نعطي عشره و
لا نفتحه فأبى العاشر إلا فتحه قال و غضب إبراهيم على فتحه فلما
بدت له سارة و كانت موصوفة بالجمال قال له العاشر ما هذه
المرأة منك قال له إبراهيم هذه حرمتي و ابنة خالتي فقال له العاشر
فما دعاك الى أن خبيتها في هذا التَّابُوت فقال إبراهيم الغيرة عليها
أن يراها أحد فقال له العاشر لست أدعك تبرح حَتَّى أعلم الملك
بحالها أو حالك فبعث رسولاً الى الملك فأعلمه فبعث الملك رسولاً
من قبله ليأتوه بالتَّابُوت قالوا ليذهبوا به فقال لهم إبراهيم إنِّي لست
أفارق التَّابُوت حَتَّى يفارق روعي جسدي فأخبروا الملك بذلك
فأرسل الملك أن أحملوه و التَّابُوت معه فحملوا إبراهيم و التَّابُوت
و جميع ما كان معه حَتَّى أدخل على الملك فقال له الملك إفتح
التَّابُوت فقال له إبراهيم أيُّها الملك أنَّ فيه حرمتي و بنت خالتي و أنا
معترف بجميع ما معي فغضب الملك علي فتحه فلما رأى سارة لم
يملك نفسه أن مدَّ يده إليها فأعرض إبراهيم وجهه عنها و عنه
غيرتاً منه و قال اللهم أحبس يده عن حرمتي و ابنة خالتي فلم تصل
يده إليها و لم ترجع إليه فقال له الملك أنَّ إلهك هو الَّذي فعل بي هذا
فقال له نعم أنَّ إلهي غيورٌ و يكره الحرام و هو الَّذي حال بينك و
بين ما أردت من الحرام فقال له الملك فأدع إلهك يرُد علي يدي فإن
أجابك فلم أعرض لها فقال إبراهيم إلهي رُد إليه يده و ليكف عن
حرمتي فردَّ الله عزَّ و جلَّ إليه يده فأقبل الملك نحوها ببصره ثم عاد
بيده نحوها فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرةً منه و قال اللهم
أحبس يده عنها فبيست يده و لم تصل إليها فقال الملك لإبراهيم أنَّ

إِهْكَ لَغِيورٌ وَأَنْكَ لَغِيورٌ فَأَدَعَ إِهْكَ يَرْدَ عَلَيَّ يَدِي فَأَنَّهُ أَنْ فَعَلَ لَمْ أَعُدْ
فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ وَسئَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْكَ أَنْ عَدْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي أَنْ أَسْأَلَهُ
فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ نَعَمْ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ صَادِقًا فَرَّدْ يَدَهُ عَلَيْهِ
فَرَجَعَتْ يَدُهُ إِلَيْهِ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْمَلِكُ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا رَأَى وَرَأَى الْآيَةَ
فِي يَدِهِ عَظُمَ إِبْرَاهِيمَ ذَهَابَهُ وَأَكْرَمَهُ وَأَتَقَاهُ وَقَالَ إِلَيْهِ قَدْ أَمَنْتَ مِنْ
أَنْ أَعْرَضَ لَهَا أَوْ بَشَيْتُ مَعَكَ فَأَنْطَلِقْ حَيْثُ شِئْتَ وَلَكِنْ لِي إِلَيْكَ
حَاجَةٌ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَمَا هِيَ فَقَالَ لَهُ الْعَيْنَاتُ تَأْذَنُ لِي أَنْ أَخْدَمَهَا
قَبْطِيَّةً عِنْدِي جَمِيلَةً عَاقِلَةً تَكُونُ لَهَا خَادِمًا فَأَذَنَ لَهُ إِبْرَاهِيمَ فَدَعَا بِهَا
فَوَهَبَهَا لِسَارَةَ وَهِيَ هَاجِرٌ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ فَسَارَ إِبْرَاهِيمَ بِجَمِيعِ مَا
مَعَهُ وَخَرَجَ الْمَلِكُ مَعَهُ يَمْشِي خَلْفَ إِبْرَاهِيمَ إِعْظَامًا لِإِبْرَاهِيمَ وَهَيْبَةً
لَهُ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ أَنْ قِفْ وَلا تَمْشِي قَدَامَ الْجَبَّارِ
الْمَتَسَلِّطِ وَ يَمْشِي وَهُوَ خَلْفَكَ وَ لَكِنْ إِجْعَلْهُ أَمَامَكَ وَ أَمْشِ خَلْفَهُ وَ
عَظْمَهُ فَأَنَّهُ مَسَلَّطٌ وَ لا بُدَّ مِنْ أَمْرَةٍ فِي الْأَرْضِ بَرَّةً أَوْ فَاجِرَةً فَوَقَفَ
إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لِلْمَلِكِ أَمْضِ فَأَنَّ إِلَهِي أَوْحَى إِلَيَّ السَّاعَةَ أَنْ أَعْظَمَكَ وَ
أَهَابَكَ وَ أَنْ أَقْدَمَكَ أَمَامِي وَ أَمْشِي خَلْفَكَ إِجْلَالًا لَكَ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ
أَوْحَى إِلَيْكَ بِهَذَا فَقَالَ إِبْرَاهِيمَ نَعَمْ فَقَالَ الْمَلِكُ أَشْهَدُ أَنَّ إِهْكَ لِرَفِيقٍ
حَلِيمٍ كَرِيمٍ وَ أَنْكَ تَرغِبْنِي فِي دِينِكَ وَ وَدَّعَى الْمَلِكُ فَسَارَ إِبْرَاهِيمَ
حَتَّى نَزَلَ بِأَعْلَى الشَّامَاتِ وَ خَلَّفَ لوطاً فِي أَدْنَى الشَّامَاتِ ثُمَّ أَنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ الْوَلَدُ قَالَ لِسَارَةَ لَوْ شِئْتُ لَبِعْتَنِي هَاجِرٌ لَعَلَّ
اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَنَا مِنْهَا وَلَدًا فَيَكُونُ لَنَا خَلْفًا فَاتَّبَعَ إِبْرَاهِيمَ هَاجِرَ مَنْ
سَارَةَ فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَوَلَدَتْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّتْهِ (١).

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ

الهبّة، بكسر الهاء وفتح الباء أن تجعل ملكك لغريك بغير عوض يقال وهبته و موهبةً و موهباً، قاله في المفردات فقوله: وَ وَهَبْنَا لَهُ، معناه جعلنا ملكنا لغيرنا بغير عوض وفيه إشارة الى أن الولد في الحقيقة مملوك لله تعالى فَأَنْ الْعَبْدَ و ما في يده كان لمولاه و هو مملوكٌ لأبيه أو لسَيِّده مجازاً لا حقيقةً فإذا قلنا أَنَّ الْأَبَ مَالِكٌ لَوْلَاهُ أو أَنَّ السَّيِّدَ مَالِكٌ لِعَبْدِهِ ليس معناه إنهما يملكونه واقِعاً بل المالك الحقيقي هو الله تعالى و محصلُ الكلام أَنَّ المالك الحقيقي لجميع ما سوى الله هو الله تعالى و السَّرُّ فيه أَنَّ مالكيّة الخالق لمخلوقه ذاتيَّةٌ و هي لغيره عرضيَّةٌ و كلُّ ما هو ذاتيٌّ للموجود فهو له حقيقة و كلُّ ما هو عرضيٌّ له بمعنى أَنَّهُ مَوْعُوبٌ من غيره فهو ليس له واقِعاً و أَنَّمَا عَرَضَ لَهُ فِي مَدَّةٍ مَعْيِنَةٍ محدودة و هذا هو السَّرُّ في قول الفلاسفة العَرَضُ ماهيَّةٌ إذا وجدت وُجِدَتْ في الموضوع و الجوهر بخلافه فَأَنَّهُ لا في الموضوع و حيث أَنَّ العطايا من الواهب المعطي أعني به الله فهي من الأعراض فلا بقاء لها و لا قوام لها بذاتها و هذا من المسلّم المقطوع الذي لا كلام فيه و لأجل ذلك جميع ما سوى الله محكومٌ بالفناء و الدثور كما هو شأن العَرَضِ فإفهم.

قال المفسرون أَنَّ إبراهيمَ لَمَّا سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى وَلِذَا و قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَأَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ وَ وَهَبَ لَهُ إِسْحَاقَ مِنْ سَارَةِ إِجَابَةً لِدَعَاءِهِ وَ وَهَبَ لِإِسْحَاقَ يَعْقُوبَ مِنْ غَيْرِ دَعَاءِهِ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى، نَافِلَةً، لِأَنَّ النَّافِلَةَ فِي اللُّغَةِ الزِّيَادَةُ كَالصَّلَاةِ النَّافِلَةِ الَّتِي هِيَ زِيَادَةٌ عَلَى الْفَرَضِ وَ عَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ بِالنَّافِلَةِ، يَعْقُوبَ خَاصَّةً وَ الْمَعْنَى وَ وَهَبْنَا لِإِبْرَاهِيمَ أَي أَعْطَيْنَاهُ وَلِذَا بِدَعَاءِهِ وَ هُوَ إِسْحَاقُ ثُمَّ زِدْنَا عَلَيْهِ وَ وَهَبْنَا لِإِسْحَاقَ يَعْقُوبَ زِيَادَةً عَلَى الطَّلَبِ فَضْلاً مَنّاً.

و قال بعض المفسرين أَنَّ النَّافِلَةَ تَتَعَلَّقُ بِهَمَا وَ ذَلِكَ لِعَدَمِ الْفَرْقِ بَيْنَ قَوْلِهِ: وَ وَهَبْنَا عَلَى سَبِيلِ الْعَطِيَّةِ وَ الْفَضْلِ مِنْ غَيْرِ إِسْتِحْقَاقٍ وَ أَنَّ شَيْئاً قَلَّتْ لَا فَرْقَ

بين قوله و وهبنا له هبةً عطيّةً و فضلاً أو إستحقاقاً و على هذا فمعنى الآية وَ وَهَبْنَا أَي أُعْطِينَاهُ إِسْحَاقَ و بعده يعقوب على سبيل العطيّة و الفضل قالوا هذا الوجه أقرب بسياق الكلام لأنّه تعالى جمع بينهما ثمّ ذكر قوله، نافله، فإذا صلح أن يكون وصفاً لهما فهو أولى ثمّ قال تعالى و كلاًّ جعلنا صالحين أي و كلاًّ من إبراهيم و إسحاق و يعقوب جعلنا أنبياء مرسلين، و قيل المراد أنّهم جميعاً من الصّالحين أي عاملين بطاعة الله محتسبين عن محارمه.

أقول: لفظ الصّلاح يتناول الكلّ و أعلى مراتبه النبوة و هي متفرقة على طاعة الله و الإجتناح عن محارمه و المراد بالجعل التّوفيق لا الخلق و الإيجاد و بعبارة أخرى جعلنا صالحين أي وفّقناهم كذلك كما زعمه بعض المجبّرة و من المعلوم أنّ الإنسان قادرٌ على الصّلاح كما أنّه قادرٌ على الفساد في حدّ نفسه و هو ظاهرٌ لا خفاء فيه و قد مرّ الكلام فيه.

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ

في هذه الآية أبحاث نشير إليها حسبما يقتضيه المقام:

البّحث الأوّل: في تفسير قوله: وَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً و أنّه ما المراد بهذا الجعل و الأئمة فنقول قد صرّح الله تعالى في هذه الآية أنّه جعل إبراهيم و إسحاق و يعقوب أئمة للنّاس أي كلّ واحدٍ منهم كان إماماً في زمانه للنّاس و الإمام هو الإنسان الذي يقتدى به في أمر الدّين و الدّنيا و يظهر من الآية الشّريفة أنّ هذا المنصب الإلهي بمعنى أنّه مجعولٌ من قبل الله تعالى و يدلّ عليه قوله: وَ جَعَلْنَاهُمْ، حيث نسب الجعل إلى نفسه ولم يقل، جعلوا أئمةً للنّاس و إذا كان كذلك فالإمام منصوبٌ من الله و من لم يجعله إماماً فليس بإمام قطعاً و ليس المراد بالإمام أوصياء الأنبياء فقط بل الإمام يطلق على النّبي و الوصي ففي الآية دلالة على أنّ المجعول من قبل النّاس للإمامة فليس بإمام و هو المطلوب.

الثاني: أَنَّ الإمام وظيفته هداية النَّاسِ إلى أمر الله تعالى و حكمه في عباده و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا** و الهداية هي إراءة الطَّرِيقِ إلى معرفة الله و معرفة أنبيائه و رسله و أحكامه الشرعيَّة التي يجب على المكلف الإتيان بها و يعبر عنها بالدين فمن لم يكن كذلك ليس بإمام.

الثالث: أَنَّ قلب الإمام موضع الوحي و الإلهام أي أَنَّ الله تعالى يوحى إليه أو يلهم في قلبه الخيرات من الأقوال و الأفعال فالإمام لا يقول إلا حقاً و لا يعمل إلا خيراً فهو مبرء عن الشرور و الأفات قولاً و فعلاً و السرف فيه أَنَّ الإمام مقتدى الخلق و يجب على الخلق التأسى به في جميع شئونه:

قال الله تعالى: **لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**^(١).

قال الله تعالى: **وَمَا آتَيْنَاكَ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا**^(٢).

قال الله تعالى: **أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ**^(٣).

أعني به وصي الرسول، و من كان كذلك فينبغي له أن لا يقول إلا حقاً و لا يفعل إلا خيراً أي عملاً صالحاً و إلا يلزم إغواء النَّاسِ و إضلالهم و هو خلاف المقصود و هذا ظاهر و إلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله **وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ** و أما قوله تعالى: **وَ أَقْبِمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ** فهما داخلان في فعل الخيرات لأنَّ الصَّلَاةَ وَ الزَّكَاةَ من الأفعال و أمَّا خصَّهما بالذكر لعظم شأنهما و أنهما من أركان الدين فهو في الحقيقة من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

الزابع: أَنَّ الإمام مَنزَّةٌ عن الشُّركِ جلياً كان أو خفياً فتكون عبادته خالصاً

لوجه الله فلا يشرك بعبادة ربه أحداً و إذا كانت العبادة لله تعالى على وجه الإخلاص فهو في جميع شئونه كذلك فلا يعمل إلا لله و لا يقول إلا له فيكون جميع أفعاله و أقواله و عبادته لخالقه و إلى هذا المعنى أشار الله بقوله: **وَ**

كَأَنَّا لَنَا عَابِدِينَ فَتَحَصَّلَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَإِسْتَبْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِالْأَوْصَافِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ مَدَارِ الْإِمَامَةِ قَانُونِ كُلِّيٍّ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَنَةِ إِذْ حُكِمَ الْأَمْثَالُ وَاحِدٌ فِيهِمْ وَإِغْتَنِمَ.

وَلَوْ طَّأَّتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ
الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينِ

قلنا عند شرح اللغات والإعراب لوطاً نصب بأتينا والتقدير وأتينا لوطاً أتينا، والمراد بالحكم الحكمة وبالعلم علم النبوة وفيه إشارة إلى أن علوم الأنبياء من الله تعالى ولذلك يقال أن العلم فيهم حضورّي، أعطاه الله من منبع الفيض وليس من العلوم الكسبيّة البشريّة ولذلك كانت الحقائق عندهم منكشفة.

ولم يكن في علومهم غطاء ولا سهو ولا نسيان وهذا بخلاف العلوم البشري فأنها ليست كذلك وقيل المراد بالحكم النبوة وقيل حسن الفصل بين الخصوم في القضاء وقيل حفظ صحف إبراهيم.

وأما القرية التي أشير إليها في الآية فقليل أنها سدوم، وكانت قراهم سبعاً وعبّر عنها بالواحدة لإتفاق أهلها على الفاحشة وكانت من كورة فلسطين إلى حدّ السّراة إلى حدّ نجد بالحجاز قلب منها تعالى ستاً وأبقى منها واحدة وهي، زعر، لأنها كانت محلّ لوط وأهله ومن أمن به وتقدير الكلام ونجيناها من أهل القرية أية خلّصناه منهم أو من العذاب الذي حلّ بهم ونسب عمل الخبائث إلى القرية مجازاً وهو لأهلها والمراد بالخبائث في الآية هو أنهم كانوا يأتون الذكران في أدبارهم وقد مرّ الكلام في قصّة لوط ونزول العذاب على قومه في سورة الأعراف وغيرها ولذلك ذمّهم الله تعالى في كثير من الآيات وعبّر عنهم في المقام بأنهم كانوا قوم سوءٍ فاسقين، وأي فسقٍ أشنع من اللواط.

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العاشر

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

أَيِ أَدْخَلْنَا لَوْطًا بَعْدَ أَنْ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ فِي رَحْمَتِنَا الْوَاسِعَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَيُظْهِرُ مِنَ التَّعْلِيلِ أَنَّ الصَّالِحَ يَدْخُلُ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ.

وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
 أَيِ أَذْكَرَ يَا مُحَمَّدَ، نُوحًا، إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِ أَيِ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَالتَّدَاءِ هُنَا الدُّعَاءُ وَالمَعْنَى إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَلَعَلَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: رَبَّهُ أَتَى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرُ^(١)
 مَفْصَلًا بِقَوْلِهِ: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا^(٢) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، أَيِ أَجَبْنَا دَعْوَتَهُ فَجَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وَالْكَرْبِ أَقْصَى الْعَمِّ وَالأَخْذِ بِالنَّفْسِ وَهُوَ هُنَا الْفِرْقَ عَبَّرَ عَنْهُ بِأَوَّلِ أَحْوَالِ مَا يَأْخُذُهُ الْغَرِيقُ وَكَيْفَ كَانَ فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى قِصَّةِ الطُّوفَانِ عَلَى مَا مَرَّ شَرْحَهُ تَفْصِيلًا فِيمَا مَضَى.

وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
 فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ

قِيلَ الْمَرَادُ مَنَعْنَاهُ مِنْهُمْ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ بِسَوْءٍ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ، مَنْ، بِمَعْنَى، عَلَى، أَيِ وَ نَصَرْنَاهُ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا، فَأَغْرَقْنَاهُمْ، أَيِ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْغَرَقِ وَ أَجْمَعِينَ تَأْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ.

وَ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَخُكِّمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ
 كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ

أَيِ وَ أَذْكَرَ يَا مُحَمَّدَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ، وَ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ مَعْطُوفِينَ عَلَى قَوْلِهِ: وَ نُوحًا، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: وَ لُوطًا فَيَكُونُ ذَلِكَ مُشْتَرَكًا فِي الْعَامِلِ الَّذِي هُوَ أَتَيْنَا، الْمَقْدَرَةُ النَّاصِبَةُ لِلُوطِ الْمَفْسَّرَةُ بِأَتَيْنَا، وَ عَلَيْهِ فَالتَّقْدِيرُ، وَ أَتَيْنَا لُوطًا وَ نُوحًا، وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ كَذَا وَ كَذَا وَ لَا يَبْعُدُ ذَلِكَ وَ تَقْدِيرُ، أَذْكَرَ قَالَهُ

جماعة الزرع و داوودَ و سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ و داود عليه السلام كان ملكاً نبياً يحكم بين الناس ف وقعت هذه الواقعة وكان ابنه سليمان إذ ذاك قد كبر و كان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم و كانوا يدخلون على داود من بابٍ آخر فتخاصم إليه رجلٌ له زرعٌ و قيل كرم، و الحرث يقال فيهما و هو في الزرع أكثر و أبعد عن الإستعارة دخلت حرثه غنم رجلٌ فأفسدت عليه فرياً داوود دفعها إلى صاحب الحرث فخرجها على سليمان فشكى صاحب الغنم فجاء سليمان فقال يا نبي الله أني أرى ما هو أرفق بالجميع أن يأخذ صاحب الغنم الحرث يقوم عليه و يصلحه حتى يعود كما كان و يأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدّة يستفح بمرافقتها من لبنٍ و صوفٍ و نسل و إذا أعاد الحرث إلى حاله صرف كل مال صاحبه إليه فرجعت الغنم إلى ربها فقال داود و فقت يابني و قضى بينهما بذلك.

قال بعض المفسرين من العامة الظاهر أنّ كلاً من داود و سليمان حكم بما ظهر له و هو متوجهٌ عنده فحكمها بإجتهاهِدٍ و هو قول الجمهور و أستدلّ بهذه الآية على جواز الإجتهاهِدِ و قيل حكم كل واحدٍ منهما بوحى من الله و نسخ حكم داود بحكم سليمان و أنّ معنى ففهمناها سليمان أي فهمناه القضاء الفاصل الناسخ الذي أراد الله أن يستقر في النازلة و قرأ، لحكمهما ابن عباس فالصمير لداود و سليمان إنتهى ما ذكره ملخصاً، أقول ما ذكره في تفسير الآية لا بأس به إلا أنّ قوله و أستدلّ بهذه الآية على جواز الإجتهاهِدِ و أنّ حكمهما كان بإجتهاهِدٍ منهما، ليس في موضعه و ذلك لأنّ أحكام الأنبياء كانت مستندة إلى الوحي و الإلهام لا إلى الإجتهاهِدِ و كأنّ هذا القائل لم يعرف معنى الإجتهاهِدِ و أنّه لا يفيد إلا الظنّ دون القطع فيقول هذا ما أدّى إليه ظنيّ و كل ما أدّى إليه ظنيّ فهو حكم الله في حقّي مقلدي فهذا حكم الله في حقّي مقلدي و لا يقول هذا ما أدّى إليه قطعي و يقيني و أين هذا من أحكام الأنبياء التي صدرت منهم على سبيل القطع و ذلك لأنّ النبي و هكذا الوصي معصوم عن الخطأ و

النسيان فقول النبي قول الله وحكمه حكمه ولذلك أمرنا بمتابعة الأنبياء ولا يجوز لنا مخالفتهم قطعاً وإذا كان كذلك فكيف يحمل حكمهم على الإجتهد الذي لا يفيد إلا الظن وللبحث فيه مقام آخر.

قال الله تعالى: **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ^(١) وإذا ثبت هذا في قول نبينا ﷺ ثبت في حق غيره من الأنبياء أيضاً لعدم القول بالفصل، وأعجب منه قوله أستدل بهذه الآية على جواز الإجتهد، ولم يعلم أن الآية لا دلالة لها عليه أصلاً وكأنه تخيل أن سليمان إجتهد بخلاف ما إجتهد به داود ولم يتفطن أن سليمان لم يجتهد كما أن داود لم يجتهد بل هما كانا نبيان وعلمهما من علم الله لا من عند أنفسهما أو إجتهدهما والله تعالى فھم وعلم سليمان في هذا الحكم ما لم يعلم داود وهذا ممّا لا إشكال فيه فأمر مراتب العلم متفاوتة حتى في حق الأنبياء فيمكن أن يعلم الله تعالى عبداً أو نبياً غير ما علم الآخر كما أن نبي الإسلام كان أعلم من جميع الأنبياء ولعله لأجل هذا قال الله تعالى: **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ^(٢) وحاصل الكلام لا إشكال في كون نبي أعلم من نبي آخر كلاً أو بعضاً وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله بعد حكمهما.

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ

فإن قوله: **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**، يدل على أن هذا الحكم من سليمان كان بتفهم الله إياه لا بإجتهاده وهو المطلوب.

قال صاحب الكشاف ما هذا لفظه:

فَأَنْ قُلْتَ: مَا وَجِهَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحُكُومَتَيْنِ.

قُلْتَ: أَمَّا وَجِهَ حُكُومَةَ دَاوُدَ فَلَأَنَّ الضَّرْرَ لَمَّا وَقَعَ بِالْغَنَمِ سَلِمْتَ بِجَنَائِهَا إِلَىٰ

المجنّي عليه كما قال أبو حنيفة في العبد إذا جنى على النَّفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه و عند الشّافعي يبيعه في ذلك أو يفديه و لعلّ قيمة الغنم كانت على قدر النّقصان في الحرث، و وجه حكومة سليمان أنّه جعل الإنتفاع بالغنم بأزاء ما فات من الإنتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم و أوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتّى يزول الضّرر و النّقصان مثاله ما قال أصحاب الشّافعي فيمن غصب عبداً فأبق من يده أنّه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بأزاء ما فوّته الغاصب من منافع العبد فإذا ظهر تراداً. فأن قلت فلو وقعت هذه الواقعة في شريعتنا ما حكمها.

قلت: أبو حنيفة و أصحابه لا يرون فيه ضماناً بالليل أو بالنّهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد و الشّافعي يوجب الضّمان بالليل و في قوله ففهمناها سليمان دليل على أنّ الأصوب كان مع سليمان عليه السلام و في قوله: وَ كَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا دليل على أنّهما جميعاً كانا على الصّواب إنتهى كلامه.

أقول: و قد أطال المفسّرون من العامّة الكلام بما لا فائدة فيه و نحن عرضنا عن نقل كلماتهم و من أراد الإطلاع عليها فعليه بالمراجعة إلى تفاسيرهم فأنهم قالوا فيها ما شاؤوا و أرادوا في بيان المراد من الآيات من عند أنفسهم و أمّا نحن فلا نقول في تفسير كلام الله إلا ما ورد من أهل البيت لأنهم أدري بما في البيت.

فنقول: في الكافي بأسناده عن أبي بصير قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ فَقَالَ عليه السلام: لَا يَكُونُ النَّفْسُ إِلَّا بِاللَّيْلِ أَنْ عَلَى صَاحِبِ الْحَرْثِ أَنْ يَحْفَظَ الْحَرْثَ بِالنَّهَارِ وَ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ الْمَاشِيَةِ حَفْظُهَا بِالنَّهَارِ أَنْمَا رَعَاهَا بِالنَّهَارِ وَ إِرْزَاقُهَا فَمَا أَفْسَدَتْ فَلَيْسَ عَلَيْهَا وَ عَلَى صَاحِبِ الْمَاشِيَةِ حَفْظُ الْمَاشِيَةِ بِاللَّيْلِ عَنْ حَرْثِ النَّاسِ فَمَا أَفْسَدَتْ بِاللَّيْلِ فَقَدْ ضَمِنُوا وَ هُوَ النَّفْسُ وَ أَنْ

داود حكم للذي أصاب زرعه رقاب الغنم وحكم سليمان الرّسل و
 الثلاثة و هو اللّبن و الصّوف في ذلك العام إنتهى.
 و عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له قول الله عزّ وجلّ
 وَ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ قُلْتَ حين حكما في
 الحرث كان قضيّة واحدة فقال عليه السلام أنه كان أوحى الله عزّ وجلّ إلى
 النّبيين قبل داود إلى أن بعث الله داود أيّ غنم نفشت في الحرث
 فلصاحب الحرث رقاب الغنم و لا يكون النّفش إلّا بالليل فإنّ على
 صاحب الزّرع أن يحفظ بالنّهار و على صاحب الغنم حفظ الغنم
 بالليل فحكم داود بما حكم به الأنبياء عليهم السّلام من قبله و
 أوحى الله عزّ وجلّ إلى سليمان عليه السلام و أيّ غنم نفشت في زرع فليس
 لصاحب الزّرع إلّا ما خرج من بطونها و كذلك جرت السّنة بعد
 سليمان و هو قول الله عزّ وجلّ و كلاً أتيناها حكماً و علماً فحكم كلّ
 واحدٍ منهما بحكم الله عزّ وجلّ إنتهى.

أقول: يظهر من هذا الحديث أنّ داود حكم بالصّواب على سيرة الأنبياء و لم
 يعلم أنّ الحكم صار منسوخاً و سليمان أيضاً حكم بالحقّ على ما فهمه الله
 تعالى و صار هذا الحكم ناسخاً لما كان قبل ذلك و بهذا يرتفع الإشكال و
 يصدق على كلّ واحدٍ منهما أنّه حكم بحكم الله فلا تناقض في المقام إجتهاد
 و هذا هو الحقّ الحقيقي بالإتباع في تفسير الآية هذا.

إن قلت: ما وجه تخصيص التّفهيم بأحدهما دون الآخر و بعبارة أخرى لم
 قال تعالى فهّمناها سليمان ولم يقل فهّمناها داود.

قلت: يظهر من الأخبار أنّ التّخصيص كان لمصلحة و هي.

مارواه في الكافي بأسناده عن معاوية ابن عمّار عن أبي عبد الله
 قال عليه السلام: أنّ الإمامة عهدٌ من الله عزّ وجلّ معهود لرجالٍ مسمّين
 ليس للإمام أن يزويها عن الذي يكون من بعده أنّ الله تبارك و

تعالى أوحى إلى داود أن إتخذوا وصياً من أهلك فإنه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبياً إلا وله وصي من أهله و كان لداود عليه السلام أولاد عدّة و فيهم غلامٌ كانت أمّه عند داود و كان لها محباً فدخل داود حين أتاه الوحي فقال لها أنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليّ يأمرني أن أتخذ وصياً من أهلي فقالت له إمراة فليكن إبني قال ذاك أريد و كان السّابق في علم الله المحتوم عنده أنّه سليمان فأوحى الله تعالى إلى داود أن لا تجعل دون أن يأتيك أمري فلم يلبث داود أن ورد عليه رجلا ن يختصمان في الغنم و الكرم فأوحى الله عزّ وجلّ إلى داود أن أجمع ولدك فمن قضى بهذه القضية فأصاب فهو وصيك من بعدك فجمع داود ولده قلماً أن قصّ الخصمان قال سليمان يا صاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرّجل كرمك قال دخلته ليلاً قال قد قضيت عليك يا صاحب الغنم بأولاد غنمك و أصوافها في عامك هذا ثمّ قال له داود فكيف لم تقض برقاب الغنم و قد قوم ذلك علماء بني إسرائيل فكان ثمن الكرم قيمة الغنم فقال سليمان أنّ الكرم لم تجتث من أصله و أنّما أكل حملة و هو عائد في قابل فأوحى الله عزّ وجلّ إلى داود أنّ القضاء في هذه القضية ما قضى سليمان به يا داود أردت أمراً و أردت أمراً غيره فدخل داود على إمراة فقال أردنا أمراً و أراد الله أمراً غيره ولم يكن إلا ما أراد الله عزّ وجلّ فقد رضيينا بأمر الله و سلّمنا و كذلك الأوصياء ليس لهم أن يتعدوا بهذا الأمر فيجاوزن صاحبه إلى غيره إنتهى.

و عن تفسير عليّ بن إبراهيم بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان في بني إسرائيل رجل و كان له كرم و نفشت فيه الغنم بالليل و قضّمته و أفسدته فجاء صاحب الكرم إلى داود

فإستعدى على صاحب الغنم فقال داود إذهباً إلى سليمان ليحكم بينكما فذهباً إليه فقال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: أن كان الغنم أكلت الأصل و الفرع فعلى صاحب الغنم أن يدفع إلى صاحب الكرم الغنم وما في بطنها و أن كانت ذهبت بالفرع و لم تذهب بالأصل فأنته يدفع ولدها إلى صاحب الكرم وكان هذا حكم داود و إنما أراد أن يعرف بني إسرائيل أن سليمان وصيته بعده و لم يختلفا في الحكم ولو اختلف حكمهما يقال كُتِّا لحكمهما شاهدين إنتهى^(١).

و أنت إذا تأملت في هذه الأخبار الواردة عن طريق أهل البيت لعلمت المراد من الآية الشريفة و أما قوله: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فَاعِلِينَ.

قال الشيخ في التبيان معناه سير الله تعالى الجبال مع داود حيث سار فعبر عن ذلك بالتسبيح لما فيها من الآية العظيمة التي تدعوه بتعظيم الله و تنزيهه عن كل ما لا يليق له و لا يجوز وصفه به و كذلك سخر له الطير و عبر عن ذلك التسخير بأنه تسبيح من الطير لدلالته على من سخرها قادر لا يجوز عليه العجز كما يجوز على العبادة وقوله: وَ كُنَّا فَاعِلِينَ أي وكنّا قادرين على ما نريده ثم نقل عن الجبائي أنه قال أكمل الله تعالى عقول الطير حتى فهمت ما كان سليمان يأمرها به و بينهاها عنه إنتهى.

و قال الزمخشري في الكتاب روي أنه كان يمر بالجبال مسبجاً وهي تجاوبه و قيل كانت معه حيث سار فأن قلت كيف تنطق الجبال و تسبح، قلت بأن يخلق الله فيها الكلام كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى إنتهى.

و أما غير هذين العلمين أعني بهما الشيخ عليه السلام في التبيان و الزمخشري في الكشاف فقد أخذوا ما أخذوا منهما ولم يأتوا بشئ جديد و أنت ترى أنه يظهر من كلامهما أن الجبال و الطير كتتا تحت تسخير داوود و الآية الشريفة تدل على أمر آخر غير ما ذكروه ضرورة وجود الفرق بين قوله تعالى: **وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ** و قولهم في الآية إذ لو كان الأمر كما ذكروه لقال و سَخَّرْنَا لداود الجبال ولم يقل ذلك بل قال مع داود اللهم إلا أن يقال بعدم الفرق بين قوله لداود، و قوله: **مَعَ دَاوُودَ** و هو كما ترى هذا كله مضافاً الى أن تسخير الجبال و غيرها من الجمادات و النباتات ثابت لغير داوود أيضاً في كثير من الآيات مع أن الآية في مقام الإمتنان، ولذي يقتضيه النظر بعد التمل في الآية هو أن الله تعالى بصدد إثبات شئ آخر غير ما ذكره المفسرون و هو أن التسبيح لا يختص بداوود من أفراد الإنسان بل هو ثابت عقلاً و شرعاً و نقلاً في حق جميع المخلوق.

قال الله تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** (١).

قال الله تعالى: **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ** (٢).

و من المعلوم أن تسبيح كل موجود بحسبه فالآيات تدل على ثبوت التسبيح في الكل حتى الجماد و النبات و هذا لا خلاف فيه إلا أن تسبيح الموجود من حيث مخلوق لخالقه شئ و تسبيحه بتسبيح الإنسان شئ آخر يدل على شرف الإنسان و فضله و الآية ناظرة الى هذا المعنى فالمراد بالتسخير في الآية ليس معناه اللغوي بل المراد به متابعة الجبال أو الطير أو غيرها لداوود و هذا له فضل عظيم و مع ذلك يدل على شرف بني آدم و أنه أفضل المخلوق و لا سيما الإنسان الكامل الذي له مظهرية الأتم لخالقه و

حيث أنّ داود عليه السّلام كان كذلك خص بالدّكر في الآية و هذا معنى قوله:
وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ هَذَا مَا فَهَمْنَا مِنْ الْآيَةِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ
قرأ بالثّون أبو بكر عن عاصم و قرأ ابن عامر و حفص عن عاصم بالتاء، و الباقون
بالياء، الضّمير في قوله: وَ عَلَّمْنَاهُ، راجع الى داوود أي علّمنا داوود النّبي
صنعة لبوس قيل اللّبوس الملبوس فعول بمعنى مفعول كالركوب بمعنى المركوب
و هو الدّرع هنا و قيل اللّبوس كلّ آلة السّلاح من سيفٍ و رمحٍ و درعٍ و بيضةٍ و
ما يجري مجرى ذلك و داود أوّل من صنع الدروع قيل نزل ملكان من السّماء
فمرا بداوود فقال أحدهما للآخر نعم الرّجل إلّا أنّه يأكل من بيت المال فسأل
اللّه أن يرزقه من كسبه فالأن له الحديد فصنع منه الدّروع و روي عن
الصّادق عليه السلام أنّه قال أمير المؤمنين عليه السلام أوحى الله عزّ و جلّ الى داوود أنّك
لنعم العبد لولا أنّك تأكل من بيت المال و لا تعمل بيدك شيئاً قال عليه السلام فبكى
داوود أربعين صباحاً فأوحى الله عزّ و جلّ الى الحديد أن، لن، لعبدي داود
فالأن له الحديد فكان يعمل في كلّ يوم درعاً فيبيعه بألف درهم فعمل ثلث
مئة و ستين درعاً فباعها بثلاث مائة و ستين ألف و أستغنى عن بيت المال إتهى.

و كيف كان فقد إمتن الله عليه بآياته حكماً و علماً و تسخير الجبال و الطّير
معه و تعليم صنعة اللّبوس و في ذلك فضل هذه الصّناعة إذا سند تعليمها إياه
إليه تعالى ثمّ إمتن علينا بقوله: لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ أي ليكون و قاية لكم
في حربكم و سبب نجاة من عدوكم و إلى هذا المعنى أشار بقوله: فَهَلْ أَنْتُمْ
شَاكِرُونَ.

وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ غَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ
كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ غَالِمِينَ

والتقدير وسخرنا لسليمان الرّيح لما ذكر الله تعالى ما خصّ به نبيه داود عليه السلام
 ذكر ما خصّ سليمان عليه السلام فقال لسليمان الرّيح قال بعض المفسرين ذكر تسخير
 الرّيح لسليمان بالأمّ فقال و لسليمان الرّيح و ذكر تسخير الجبال لداود بلفظ،
 مع، فقال و سخرنا مع داود الجبال في موضع آخر، يا جبال أوبي معه، و في
 سليمان فسخرنا له الرّيح تجري بأمره و ذلك أنّه لما اشتراكا في التّسبيح ناسب
 ذكر، مع، الدّالة على الإصطحاب و لما كانت الرّيح مستخدمة لسليمان
 أضيفت إليه بلام التّمليك لأنّها في طاعته و تحت أمره إنتهى.

أقول: ما ذكره لا يسمن و لا يغني ثمّ أنّ الله تعالى وصف الرّيح بالعصف و
 هو الشّدة و المراد بالأرض قيل أرض الشّام و قيل أرض فلسطين و قيل بيت
 المقدّس قيل و صفت الأرض بالبركة لأنّه إذا حلّ أرضاً أصلحها بقتل كفّارها و
 إثبات الإيمان فيها و بتّ العدل و لا بركة أعظم من هذا قيل في الآية تقديم و
 تأخير يعني أنّ أصل التّركيب و لسليمان الرّيح التي باركنا فيها عاصفة تجري
 بأمره إلى الأرض فعلى هذا تكون، عاصفة صفة الرّيح و قوله باركنا فيها صفة
 بعد صفة و أنت ترى أنّ الآية لا تحتاج إلى هذه التّكلفات التي لا يقبلها العقل
 السّليم.

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ
 حَافِظِينَ

أي و سخرنا لسليمان قوماً من الشّياطين يغوصون له في البحر و يعملون عملاً
 دون ذلك أي سوى ذلك، وكنّا لهم حافظين، من الإفساد لما عملوه.

أقول: و سيجي الكلام في قصّة داود و سليمان في سورة، سبأ إن شاء الله
 تعالى و نذكر هناك ما وصل إلينا من الأخبار في حقّهما.

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ
 أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ
 مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ
 عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَاسْمَاعِيلَ وَ
 إِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَ
 أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)
 وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ
 عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
 سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا
 لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّمْ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ
 (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا
 وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا
 لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا
 يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَ
 رَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ
 فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رَوْحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا
 آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

◀ اللُّغَةُ

الضُّرُّ: بالضم الضَّرر في النَّفس من مرضٍ و هزالٍ وبالفتح الضَّرر في كلِّ شيءٍ.
 وَذَا النُّونِ: النُّون الحوت و ذو بمعنى صاحب، أي صاحب الحوت يونس

النبي.

نَقْدَرُ: أي نضيق.

لَا تَذْرُنِي: أي لا تتركني أو لا تبقيني.

أَحْصَنْتُ: الإحصان إحراز الشئ من الفساد والباقي واضح.

◀ الإعراب

رَحْمَةً وَ ذِكْرَى مفعول له وقوله مُعَاضِبًا حال رَعَبًا وَ رَهَبًا مفعول له أو مصدر في موضع الحال أو على المعنى وَ الَّتِي أَحْصَنْتُ في موضع رفع وَ آيَةٌ مفعول ثانٍ.

◀ التفسير

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيْ مَسَّنِيَ الضَّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. قيل كان أيوب روميًا من ولد إسحاق بن يعقوب وكان من الأنبياء و قد بسط الله عليه الدنيا و كثر أهله و ماله وكان له سبع بنين و سبع بنات وله أصناف البهائم و خمس مائة فدان يتبعها خمس مائة عبيد لكل عبد امرأة و ولد و نخيل فابتلاه الله بذهاب ولده إنهدم عليهم البيت فهلكوا و بذهاب ماله و بالمرض في بدنه ثمان عشرة سنة و قيل دون ذلك فقالت له امرأته يوماً لو دعوت الله فقال لها كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال أنا أستحي من الله أن أدعوه بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف الله عنه أحيا ولده و رزقه مثلهم و نوافل منهم.

و روي أن امرأته ولدت بعد سنة و عشرين إنبأ و ذكروا كيفية ذهاب ماله و أهله و تسليط إبليس عليه و غير ذلك من الأباطيل و الخرافات و نحن نذكر قصته من الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام الذين عصمهم الله عن الخطأ و النسيان فنقول:

لا شك في أصل القضية و هو أن أيوب النبي مسه الضر و ابتلى بالمصائب

و التَّوَابِ وَ أَمَّا قَلْنَا لَا شُكَّ فِيهِ لِأَنَّ الْقُرْآنَ صَرَّحَ بِهِ وَ مِنْ أَصْدَقِ مِنَ اللَّهِ قِيْلًا وَ أَمَّا كَيْفِيَّةُ الْقَضِيَّةِ:

فقد روى المجلسي رحمته الله في البحار عن جعفر بن محمد عليه السلام عن أبيه قال: أَنَّ أَيُّوبَ إِبْتَلَى سَبْعَ سِنِينَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَذْنُبُونَ لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مَطْهُرُونَ لَا يَذْنُبُونَ وَ لَا يَزِيغُونَ وَ لَا يَرْتَكِبُونَ ذَنْبًا صَغِيرًا وَ لَا كَبِيرًا وَ أَنَّ أَيُّوبَ مِنْ جَمِيعِ مَا إِبْتَلَى بِهِ لَمْ تَنْتَنِ لَهُ رَائِحَةٌ قَبِحَتْ لَهُ صُورَةٌ وَ لَا خَرَجَتْ مِنْهُ مَدَّةٌ مِنَ الدَّمِّ وَ لَا قَيْحٌ وَ لَا اسْتَعْذَرَهُ أَحَدٌ رَأَاهُ وَ لَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ أَحَدٌ شَاهَدَهُ وَ لَا تَدَوَّدَ شَيْءٌ مِنْ جَسَدِهِ وَ هَكَذَا يَصْنَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِجَمِيعِ مَنْ يَبْتَلِيهِ مِنْ أَنْبِيَاءِهِ وَ أَوْلِيَاءِهِ الْمَكْرَمِينَ عَلَيْهِ وَ أَمَّا إِيْتِنَابُهُ النَّاسَ لِفَقْرِهِ وَ ضَعْفِهِ فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِ لِجَهْلِهِمْ بِمَا لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ تَعَالَى ذَكَرَهُ مِنَ التَّأْيِيدِ وَ الْفَرْجِ وَ قَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلوات الله وسلاماته عليه أَكْظَمَ النَّاسُ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ وَ أَمَّا إِبْتِلَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْبَلَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَهْوَنُ مَعَهُ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ يَدْعُو لَهُ الرَّبُّوبِيَّةَ إِذَا شَاهَدُوا مَا أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَيْهِ مِنْ عِظَائِمِ نِعْمَةٍ تَعَالَى مَتَى شَاهَدُوهُ وَ لَيْسَتْ دَلِيلًا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ التَّوَابَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى ضَرَبَيْنِ:

إِسْتِحْقَاقٌ، وَ إِيْتِنَابٌ، وَ لِيَتَلَا يَحْتَقِرُوا ضَعِيفًا لضعفه وَ لَا فَقِيرًا لفقره وَ لَا مَرِيضًا لمرضه وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى يَسْقَمُ مِنْ يَشَاءُ وَ يَشْفِي مِنْ يَشَاءُ مَتَى يَشَاءُ وَ كَيْفَ يَشَاءُ بِأَيِّ سَبَبٍ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُ ذَلِكَ عِبْرَةً لِمَنْ يَشَاءُ وَ شِقَاوَةً لِمَنْ يَشَاءُ وَ سَعَادَةً لِمَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ عَدْلٌ فِي قِضَائِهِ حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِ لَا يَفْعَلُ بَعْبَادَةً إِلَّا لِأَصْلَحِ لَهُمْ وَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ إِنْتَهَى.

قال المجلسي رحمته الله بعد نقل الحديث هذا الخبر أوفق بأصول متكلمي الإمامية من كونهم منزّهين عمّا يوجب تنفّر الطّباع عنهم فتكون الأخبار الأخر محمولة موافقة للعامة لكن إقامة الدليل على نفي ذلك عنهم مطلقاً ولو بعد ثبوت نبوتهم و حجّتهم لا يخلو عن الإشكال مع أنّ الأخبار الدالة على ثبوتها أكثر و أصحّ و بالجملة للتّوقف فيه مجال.

قال السيّد المرتضى رحمته الله في كتاب تنزيه الأنبياء فإن قيل أفصحون ماروي من أنّ الجذام أصابه حتّى تساقطت أعضائه.

قلنا أمّا العلل المستقدرة التي تنفّر من رآها و توحّشه كالبرص و الجذام فلا يجوز شيء فيها على الأنبياء و لما تقدّم ذكره لأنّ التّفور ليس بواقفٍ على الأمور القبيحة بل قد يكون من الحسن و القبح معاً و ليس ينكران أن يكون أمراض أيّوب و أوجاعه و محتته في جسمه ثمّ في أهله و ماله بلغت مبلغاً عظيماً تزيد في الغمّ و الألم على ما ينال المجذوم و ليس ينكر تزايد الألم فيه و أنّما ينكر ما اقتضى التّنفير إنتهى.

أقول: هذا هو الحقّ الحقيق بالإتباع في قصّة أيّوب و أمّا ما ذكرته العامة فلا دليل على صحّته أمّا أولاً فلأنّ العقل السليم لا يقبله لشناعته و قبحه

ثانياً: أنّهم نقلوا ما نقلوا عن وهب ابن منبه و كعب الأحبار و أمثالهما مثل ما ذكره الثعلبي في العرائس عنهما و حالهما معلومٌ في عدم الوثوق بنقلهما و كيف كان فمن أراد الإطلاع على ما ذكروه فعليه بمراجعة كتبهم و تفاسيرهم.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً
مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرُنَا لِلْعَابِدِينَ

دلّت الآية على أنّ الله أجاب دعوة أيّوب فرفع عنه المرض و غيره ممّا كان فيه و أعاد عليه أهله و ماله و كلّ ما فات منه فقد روى عليّ بن إبراهيم في تفسيره لهذه الآية:

بأسناده عن أبي عبد الله في قول الله عزَّ وجلَّ، وَ أَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مثلهم معهم، قال عليه السلام: أحيا الله له أهله الَّذِينَ كانوا قبل البَلِيَّةِ وَ أحيا له الَّذِينَ ماتوا وَ هو في البَلِيَّةِ إنتهى.

وَ عن روضة الكافي بأسناده عنه عليه السلام قال: أحيا الله له من ولده الَّذِينَ كانوا ماتنا قبل ذلك بأجلهم مثل الَّذِينَ هلكوا يومئذٍ إنتهى.

وَ قال الطَّبْرِي في تفسيره لهذه الآية أرسل مجاهد رجلاً يقال له قاسم إلى عكرمة يسأله عن قول الله لا يُؤْتِي وَ أَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مثلهم معهم، فقال قيل له أَنْ أَهْلَكَ لك في الآخرة فَان شئت عَجَّلْنَاهم لك في الدُّنْيَا وَ أَنْ شئت كانوا لك في الآخرة وَ أَتَيْنَاكَ مثلهم في الدُّنْيَا فقال يكونون لي في الآخرة وَ أوتي مثلهم في الدُّنْيَا قال فرجع إلى مجاهد فقال أصاب وَ قال آخرون بل رُدَّهم إليه بأعيانهم وَ أعطاه مثلهم معهم.

وَ نقل عن ابن عَبَّاسٍ أَنَّهُ قال لَمَّا دعا أَيُّوبُ إستجاب له وَ أبدله بكلِّ شَيْءٍ ذهب له ضعفين رَدَّ إليه أهله وَ مثلهم معهم إنتهى موضع الحاجة من كلامه.
وَ أَمَّا قوله تعالى: رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ، معناه لِيَتَذَكَّرُوا وَ يعلموا أَنَّ الله يبتلي أوليائه ثُمَّ يُؤْتِيهم أَجرهم وَ لا يضيع أَجر المحسنين، وَ قيل في معناه، أَي عظةٌ يَتَذَكَّرُ به العابدون لله تعالى مخلصين.
أقول: وَ سيجي الكلام في قِصَّةِ أَيُّوبَ في سورة، ص.

وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكُفْلِ كُلِّ مِنَ الصَّابِرِينَ

وَ المراد بإسماعيل على ما قيل هو إسماعيل بن إبراهيم وَ أَنمَّا جعله الله من الصَّابِرِينَ لأنَّه صبر ببلدٍ لا زرع به وَ لا ضرع وَ هو أرض مَكَّةَ وَ مع ذلك قام ببناء الكعبة مع أبيه إبراهيم وَ أَمَّا إدريس النَّبِيُّ فَأنَّه صبر على الدَّعاء الى الله وَ كان أول من بعث الى قومه فدعاهم الى الدِّين فأبوا فأهلكهم الله وَ رفعه الى السَّمَاءِ السَّادسةَ وَ أَمَّا ذُو الْكُفْلِ فَإختلف فيه فقيل أَنَّهُ كان رجلاً صالحاً وَ لم

يكن نبياً و لكَّته تكفَّل لِنَبِيِّ بِصَوْمِ النَّهَارِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ وَقِيلَ أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا وَإِسْمُهُ ذُو الْكِفْلِ وَقِيلَ هُوَ الْيَاسُ وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ وَكَيْفَ كَانَ فَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِالصَّبْرِ وَفِيهِ إِشَارَةٌ بِأَنَّ الصَّبْرَ مِنْ أَحْسَنِ الصِّفَاتِ وَلِذَلِكَ مَدَحَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ لِأَنَّهُ مِفْتَاحُ الْفَرْجِ.

و روي المجلسي رحمته الله في البحار عن ابن طاوس رحمته الله في سعد السُّعُود أَنَّهُ قَالَ فِي وَجْهِهِ تَسْمِيَتُهُ ذِي الْكِفْلِ بِهِ، أَنَّهُ تَكْفَّلَ لِلَّهِ تَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ لَا يَغْضِبَهُ قَوْمُهُ فَسَمَّى ذَا الْكِفْلِ قِيلَ تَكْفَّلَ لِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ لَا يَغْضِبَ فِاجْتِهَادِ إِبْلِيسَ أَنْ يَغْضِبَهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ فَلَمْ يَقْدِرْ فَسَمَّى ذَا الْكِفْلِ لَوْفَاءَهُ لِنَبِيِّ زَمَانِهِ أَنَّهُ لَا يَغْضِبُ إِنْتَهَى.

وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ

أَي أَدْخَلْنَا هَؤُلَاءَ وَهُمْ إِسْمَاعِيلُ وَإِدْرِيسُ وَذَلِكَ الْكِفْلُ، فِي رَحْمَتِنَا أَي فِي نِعْمَتِنَا وَقِيلَ الْمَعْنَى، غَمَرْنَا هُمْ بِالرَّحْمَةِ لِكَوْنِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

وَذَا التَّنُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ

ذُو التَّنُونِ هُوَ يُونُسُ صَاحِبُ الْحَوْتِ سَمِّيَ بِهِ لِذَلِكَ فَأَنَّ التَّنُونِ الْحَوْتُ قِيلَ أَنَّهُ غَضِبَ عَلَى قَوْمِهِ فَذَهَبَ وَخَرَجَ مِنْ قَوْمِهِ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيقُ عَلَيْهِ فَوْقَ فِيمَا وَقَعَ مِنْ بَطْنِ الْحَوْتِ فَنَادَى هُنَاكَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

كَيْفِيَّةُ الْقَضِيَّةِ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنَ الْأَخْبَارِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ يُونُسَ بْنِ مَتَّى رَسُولًا إِلَى أَهْلِ نَيْنَوَى فَكَانَ يُونُسُ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَيَأْبُوا ذَلِكَ فَهَمَّ أَنْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلَانِ عَابِدٌ وَعَالِمٌ وَكَانَ إِسْمُ أَحَدِهِمَا مَلِيخَا وَالأُخْرَى إِسْمُهُ رُوبِيلُ وَكَانَ الْعَابِدُ يُشِيرُ عَلَى يُونُسَ بِالِدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الْعَالِمُ يَنْهَاهُ وَ يَقُولُ لَا تَدْعُنْ عَلَيْهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُ لَكَ وَ لَا يَحِبُّ هَلَاكَ عِبَادِهِ فَتَقْبَلُ قَوْلَ

العابد ولم يقبل قول العالم فدعا عليهم فأوحى الله اليه يأتيهم العذاب في سنة
 كذا في شهر كذا في يوم كذا فلما قرب الوقت خرج يونس من بينهم مع العابد
 وبقى العالم فيها فلما كان اليوم الذي نزل العذاب قال العالم لهم يا قوم إفرعوا
 الى الله فلعله يرحمكم فيرد العذاب عنكم فقالوا كيف نصنع قال إجتمعوا و
 أخرجوا الى المفازة و فرقوا بين النساء والأولاد و بين الإبل و أولادها و بين
 البقر و أولادها و بين الغنم و أولادها ثم إبكوا و إدعوا فذهبوا و فعلوا ذلك و
 ضجّوا و بكوا فرحمهم الله و صرف عنهم العذاب و فرق العذاب على الجبال
 و قد كان نزل و قرب منهم فأقبل يونس كيف أهلکهم الله فرأى الزارعين
 يزرعون في أرضهم فقال لهم ما فعل قوم يونس قالوا و لم يعرفوه أن يونس دعا
 عليهم فاستجاب الله له و نزل العذاب عليهم فاجتمعوا و بكوا فرحمهم الله و
 صرف عنهم و فرق العذاب على الجبال فهم إذا يطلبون يونس ليؤمنوا به
 فغضب و مرّ على وجهه مغاضباً كما حكى الله عنه.

و أما قوله: **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَمَعْنَاهُ ظَنَّ أَنْ لَا نَضِيقَ عَلَيْهِ.**

و قيل، ظنّ، هنا بمعنى إستيقن أي أن الله لن يضيق عليه رزقه كما قال
 تعالى و أما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أي ضيق عليه رزقه ولو ظنّ أحد أن الله
 لا يقدر عليه لكان قد كفر بالله، و قوله: **فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ** فالمراد ظلمات
 بطن الحوت لَمَا وقع فيها فقال: **لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
 الظَّالِمِينَ** على نفسي حيث ذهبت مغاضباً فهذا الظلم منه، **عَلَيْهِ السَّلَامُ** كالظلم من
 أبيه آدم حيث قال ظلمنا أنفسنا، و يعبر عنه بترك الأولى فَأَنَّ النَّبِيَّ لَا يَذنب
 لمكان عصمته و قد فرغنا عن البحث في عصمة الأنبياء في قصة آدم و حواء
 بما لا مزيد عليه و قلنا هناك ما ينبغي أن يقال به **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ
 النَّعَمِ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ** أي فاستجبنا دعوته و نجيناه من الغم بطن
 الحوت و كذلك ننجي المؤمنين، أي كما نجينا يونس من الغم بعد دعائه
 ننجي كل مؤمن إذا دعانا مخلصاً:

قال الله تعالى: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ يُخَشِفُ السُّوءَ** (١).

والحاصل على العبد الدعاء و على الله الإجابة:

قال الله تعالى: **أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**.

و هذا ممَّا لا شكَّ نعم إجابة الدعاء مشروطة بوجود المصلحة وللبحث فيه مقام آخر.

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ قد مرَّ قصَّة زكريَّا في سورة آل عمران عند قوله تعالى: **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** (٢) إلى آخر الآيات فلانعيد الكلام بذكرها ثانيًا.

و أمَّا قوله في هذه الآية **رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا**، أي وحيداً بلا وارث سأل ربّه أن يرزقه ولداً يرثه ثم ردّ أمره إلى الله فقال و أنت خير الوارثين أي إن لم يرزقني من يرثني فأنت خير وارث.

أقول: في المقام سؤال و هو أن الآية صرّحت بأن زكريَّا دعا ربّه و طلب منه الولد لأن يكون وارثاً له بدليل قوله تعالى في موضع آخر **فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا** (٣) و لا شك أن زكريَّا كان من الأنبياء فيعلم منها أن الأنبياء يورثون كغيرهم من أحاد الناس و على هذا فما معنى ما نقله أبو بكر عن رسول الله ﷺ أنه قال نحن معاشر الأنبياء لا نورث، فإن كان أبو بكر صادقاً في قوله ونقله الحديث عنه ﷺ فهو مخالف لما صرّح به القرآن وكيف حكم الرسول بخلاف ما حكم به الله في كتابه مع أن الرسول مأمور بتبليغ أحكام الله بل لا معنى للرسالة إلا هذا و أن كان كاذباً في قوله كما هو كذلك قطعاً فعليه وزره مضافاً إلى أن نسبة الكذب إلى الرسول في

٢- آل عمران = ٣٨

١- النمل = ٦٢

٣- مريم = ٥/٦

الحقيقة نسبة الكذب إلى الله تعالى فيرجع المعنى إلى أن الله تعالى كذب قوله في الحكم لأنه تعالى حكم بثبوت الإِثْمِ في حق الأنبياء وكذبه ثانياً في حقهم وهذا كما ترى.

فَأَنْ قُلْتَ لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى نَسَخَ حُكْمَ التَّوَارِثِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ. قلت الحديث الذي رواه أبو بكر ينادي بعدم النَّسْخِ لأنه لم يقل أنا لا أورت بل قال نحن معاشر الأنبياء وعليه فكان حق واضع الحديث وجاعله أن يقول قال رسول الله ﷺ أنا لا أورت بصيغة المفرد ليصح النَّسْخُ بناءً على صحة نسخ الكتاب بالسنة بل بخبر واحد فاعتبروا يا أولي الأبصار والعجل من أشياع أبو بكر وأتباعه أنهم تلقوه بالقبول وأن كان مخالفاً لحكم الله وهذا معنى لهم قلوب لا يفقهون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ

اختلفوا في معنى المراد بقوله وأصلحنا له زوجه، على أقوال:

فقال قتادة أنها كانت عقيماً فجعلها الله ولوداً.

وقيل كانت سيئة الخلق فرزقها الله حسن الخلق.

وقيل إصلاحها رد شبابها إليها، والضمير في قوله، أنهم عائد على الأنبياء السابق ذكرهم أي إستجابتنا لهم في طلباتهم كان لمبادرتهم الخير ولدعائهم لنا رغبا ورهبا أي وقت الرغبة ووقت الرهبة وقيل الضمير يعود إلى زكريا وزوجته وإبنهما يحيى وقوله: لَنَا خَاشِعِينَ أي متواضعين خاضعين.

قال الزاغب في المفردات الخشوع الصراعة وأكثرها ما يستعمل الخشوع فيما يستعمل على الجوارح والصراعة أكثر ما يستعمل فيما يوجد في القلب ولذلك قيل إذا ضرع القلب خشعت الجوارح إنتهى.

أقول: الخشوع من شئون العبودية لأنها لا تتحقق إلا به فمن كان عبداً واقعاً يكون خاشعاً.

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ

الإحصان إحراز الشيء من الفساد و المراد بقوله: وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا، هو مريم بنت عمران، قيل أحصنت فرجها بمنعه عن الفساد و لما كانت كذلك أنشئ الله عليها و رزقها ولداً عظيم الشأن لا كالأولاد المخلوقين من حيث النطفة و جعله نبياً و هو عيسى بن مريم وقوله: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ، قيد أنما أفرد، آية، لأنه حالهما أي حال مريم و عيسى لمجموعهما آية واحدة و هي ولادتها إياه من غير فحلٍ و أن كان في مريم آيات و في عيسى آيات منه لكنه هنا لحظ أمر الولادة من غير ذكرٍ و ذلك هو آية واحدة و قوله: لِلْعَالَمِينَ، أي لمن إعتبر من عالمي زمانها فمن بعدهم.

قال صاحب الكشاف أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا إحصاناً كلياً من الحلال و الحرام جميعاً كما قال: وَ لَمْ يَفْسُسْنِي بَشْرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا^(١).

فأن قلت نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحياءه قال الله تعالى فإذا سويته و نفخت فيه من روحي، أي أحييته و إذا ثبت ذلك كان قوله: فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ظاهر الإشكال لأنه يدل على إحياء مريم.

قلت: معناه نفخنا الروح في عيسى فيها أي أحييناه في جوفها ونحو ذلك أن يقول الزنار نفخت في بيت فلان أي نفخت في المزارع في بيته و يجوز أن يراد و فعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا و هو جبرئيل عليه السلام لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها إنتهى ما ذكره.

وَأنا أقول: ليس في الآية إشكال كما زعمه حتى نحتاج إلى هذه التكاليف الباردة.

أما أولاً: فهو أن النَّفْخَ ليس معناه الإحياء فقله أن نفخ الرُّوح في الجسد عبارة عن إحياءه، أول الكلام و لا دلالة في الآية التي إستدلَّ بها على مدعاه على أن النَّفْخَ بمعنى الإحياء بل قوله تعالى و نفخت فيه من روحي، يدلُّ على أصل النُّفْخِ.

و أما أنه بمعنى الإحياء فلا يستفاد من الآية نعم لا يعد أن يكون للإحياء و السَّبب لا يكون بمعنى المسبب بل يكون وسيلةً و ألةً للوصول إلى المسبب فالقول بأن النَّفْخَ بمعنى الإحياء لا معنى له.

قال الزاغبي في المفردات نفخة الربيع حين أعشب و رجلٌ منفوخ أي سمينٌ إنتهى.

ثانياً: على فرض التسليم و أن النَّفْخَ بمعنى الإحياء و هو يدلُّ على إحياء مريم، نقول لا إشكال فيه لأنَّ الإحياء تارةً يقال و يراد به الإيجاد في الخارة و تارةً يقال و يراد به ترتب الأثار على الموجود بل الموجود الخارجي مع قطع النظر عن الأثار المترتبة عليه ليس متصفاً بالحياة و أن كان متصفاً بالوجود فكُلَّ حيٍّ موجود و لا عكس.

إذا عرفت هذا فنقول على فرض كون النَّفْخَ بمعنى الإحياء يلزم إحياء مريم بالنَّفْخِ و أما قبله فلا لأنَّ الأثر المترتب على الأنثى هو الولد فمن لا ولد له لا حياة له واقعاً و ان كان موجوداً فقله: **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا**، يعني أحييناها بالولد و هذا ممَّا لا إشكال فيه عقلاً و شرعاً فلا نحتاج الى القول بإنا أحييناه أي عيسى في جوفها، بل المعنى أحيينا مريم بالنَّفْخِ هذا أولاً.

و ثانياً كيف تعلَّقَ الإحياء بعيسى بسبب النَّفْخِ و الآية ظاهرة في أن النَّفْخَ كان في مريم و ما ذكره من المزمار في البيت، فهو من المجاز في الكلام و حمل

الآية على المجاز من غير دليلٍ خلاف الأصل فتَّحَصَّلَ ممَّا ذكرناه أنَّ الأصل يقتضي حمل الآية على معناها الحقيقي وهو إحياء مريم فتأمل جيداً.

و أمَّا قوله في وجه أفراد الآية حيث لم يقل، آيات بصيغة الجمع، فالظاهر أنَّ المراد بها في الكلام جنس الآية وهو يشمل المفرد و الجمع و لعلَّه لذلك نكَّرَها و الأمر واضح على المتأمل النَّفْخ في مريم فقد مرَّ الكلام فيها مفصلاً فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً.



إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
 (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ
 (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
 كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى
 قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا
 فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ
 يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَاذَا هِيَ
 شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي
 غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) إِنَّكُمْ وَمَا
 تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
 وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هُوَ لِآءِ إِلَهَةٍ مَا وَرَدُوهَا وَ
 كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا
 لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا
 الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا
 يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
 خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَ
 تَتَلَفَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ
 تُوعَدُونَ (١٠٣)

◀ اللُّغَةُ

أُمَّتُكُمْ: الأمة الجماعة التي على مقصد واحد و قيل معناه جماعة واحدة
 في إنها مخلوقة مملوكة لله.

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ: هما إسمان أعجميان و هم قبيلان ولو كانا عربيين لكانا من أجن النّار أو الماء الأجاج.

حَدَب: الحدب الأكم و قيل هو الإرتفاع من الأرض بين الإنخفاض.

يَسْئَلُونَ: السّؤل الخروج عن الشّيء الملابس يقال نسل ريش الطّائر إذا سقط.

حَصَبُ جَهَنَّمَ: أي وقودها و قيل حطبها و الباقي واضح.

◀ الإعراب

أُمَّتْكُمْ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَبْرٌ، إِنَّ، وَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ عَطْفٌ بَيَانٌ، وَ أُمَّةٌ، بِالنَّصْبِ حَالٌ وَ بِالرَّفْعِ بَدَلٌ مِنْ، أُمَّتِكُمْ، أَوْ خَيْرٌ مَبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ وَ تَقَطَّعُوا أَمْرُهُمْ قِيلَ عَدِي نَفْسُهُ لِأَنَّهُ بِمَعْنَى قَطَّعُوا وَ قِيلَ هُوَ تَمْيِيزٌ أَيْ تَقَطَّعَ أَمْرُهُمْ حَرَامٌ مَرْفُوعٌ بِالْإِبْتِدَاءِ وَ الْخَبْرُ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ وَ لَا زَائِدَةٌ أَيْ مَمْتَنٌّ رَجُوعُهُمْ وَ قِيلَ الْخَبْرُ مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ تَوْبَتُهُمْ فَإِذَا هِيَ إِذَا لِلْمَفْاجَأَةِ وَ هِيَ مَكَانٌ وَ الْعَامِلُ فِيهَا وَ هِيَ شَاخِصَةٌ ضَمِيرُ الْقِصَّةِ وَ أَبْصَارُ الَّذِينَ مَبْتَدَأٌ وَ شَاخِصَةٌ، خَبْرُهُ يَا وَثَلْنَا فِي مَوْضِعٍ نَصَبٌ بِقَالُوا الْمَقْدَرَةُ لَا يَسْمَعُونَ بَدَلٌ مِنْ مُبْعَدُونَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي، مَبْعَدُونَ، وَ أَنْ يَكُونَ خَبْرًا ثَانِيًا.

◀ التفسير

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتْكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبِّكُمْ فَاعْبُدُونَ.

قيل، هذه، إشارة إلى ملّة الإسلام أي أنّ ملّة الإسلام هي ملّتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها ملّةً واحدة غير مختلفة و على هذا فقوله: أُمَّتْكُمْ خطاب لمعاصري الرّسول ﷺ و قيل، إشارة إلى الطّريقة التي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد الله تعالى فالمعنى هي طريقتكم و ملّتكم طريقتةً واحدة لا إختلاف فيها في أصول العقائد بل ما جاء به الأنبياء من ذلك هو ما جاء به محمّد ﷺ.

و قيل معنى أمة واحدة مخلوقة له تعالى مملوكة له فالمراد بالأمة الناس كلهم.

وقيل أنّ الكلام متصل بقصة مريم وإبناها أي وجعلناها وإبناها أية للعالمين بأن بعث لهم بملة وكتاب وقيل لهم أنّ هذه أمتكم أي دعا الجميع إلى الإيمان بالله وعبادته وقوله: **وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونِ** بكسر التّوْنِ فَأَنَّ الْأَصْلَ فِيهِ فَأَعْبُدُونِي، حذف الياء لدلالة الكسرة على حذفها رعايةً للسّجع في الآيات والمقصود أنّ العبادة لا تكون إلا للربّ أداءً لحقّ الربوبية فالمربوب يعبد الربّ ولا يعبد مربوباً آخر لعدم الترجيح بين المربوبين من هذه الجهة.

وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ

أي أنّهم اختلفوا أمرهم بينهم والمراد بالأمر الدين أي اختلفوا في الدين بما لا يسوغ ولا يجوز والضّمير في **وَ تَقَطَّعُوا** عائد على ضمير الخطاب على سبيل الالتفات أي وتقطّعتم ولما كان هذا الفعل من أقبح القبائح عدل عن الخطاب إلى الغيبة كأنّ هذا الفعل ما صدر من المخاطب ثمّ قال **كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ** وفيه إشارة إلى قوله **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**، وقد ثبت أنّ كلّ شيء يرجع إلى أصله والمراد بذكر الرجوع في المقام ليس مجرد الأخبار عنه لوضوحه وأنما المقصود من ذكر الرجوع إليه تعالى هو الرجوع إليه للحساب والسؤال.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ

العمل الصالح يقال لكل عمل يؤيده العقل والشرع ويحكما بحسنه إلاّ أنّه تارة يصدر من فاعله لأجل التّقرب إلى الله وتارة يصدر منه رياء لغرض من الأغراض الدنيوية فإن كان العامل مؤمناً بالله حقيقةً فلا محالة يعمل لله وإلاّ فلا وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: **وَ هُوَ مُؤْمِنٌ**.

و الظاهر أنّ الواو و للحال أي حال كونه مؤمناً و إذا كان كذلك فلا كفران لسعيه في عمله و الكفران لحرمان الثواب كما أنّ الشكر مثل في إعطاءه إذا قيل لله شكور و المعنى أنّ المؤمن لا يحرم عن الثواب على عمله و قوله: وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ، أي إنّنا لعمله و سعيه كاتبون بواسطة الملك الموكّل عليه فقوله لا كفران لسعيه في الحقيقة كناية عن حسن عمله و أنّه مقبول عند الله و قوله: كَاتِبُونَ، معناه إثبات عمله الصّالح في صحيفة الأعمال ليثاب عليه يضيع، و الكفران مصدر الكفر قال الشاعر:

رأيت أناساً لا تنام جدودهم و جدي و لا كفران لله نائم

وَ حَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ

قوله: وَ حَرَامٌ بفتح الحاء و تنوين الميم قراءة الجمهور و عليها المصاحف و قرأ الكسائي و طلحة و الأعمش و غيرهم، حرّم، بكسر الحاء و سكون الراء و قرأ قتادة بفتح الحاء و سكون الراء و قرأ عكرمة، بكسر الراء و التنوين. و قرأ ابن عباس و قتادة أيضاً بكسر الراء و فتح الحاء و الميم على المضّي، و قرأ زيد بن عليّ و من تبعه بضمّ الراء و فتح الحاء و الميم على المضّي أيضاً و في قراءة أخرى لابن عباس فتح الحاء و الراء و الميم على المضّي أيضاً.

قيل أن الحرام في الآية أستعير للممتنع وجوده و منه قوله: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ^(١) و معنى، أهلكتناها، قدرنا إهلاكها على ما هي عليه من الكفر فالإهلاك هنا إهلاك عن كفر، و، لا، في لا يرجعون، صلةٌ كقولك ما منعك أن لا تسجد، أي يرجعون الى الإيمان و المعنى و ممتنع على أهل قرية قدرنا عليهم إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا الى الإيمان الى أن تقوم القيامة فحينئذٍ، يرجعون.

قال الزمخشري ومعنى أهلكتناها عزمنا على إهلاكها أو قدّرنا إهلاكها و
معنى الرجوع من الكفر الى الإسلام والإنابة و مجاز الآية أنّ قوماً عزم الله على
إهلاكهم غير متّصوّر أن يرجعوا و ينيبوا الى أن تقوم القيامة فحينئذٍ، يرجعون
إنتهى موضع الحاجة من كلامه و قال الرازي، في تفسير الكلام ما هذا لفظه.

أما قوله: **وَ حَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ.**
فأعلم أنّ قوله: **وَ حَرَامٌ** خبرٌ فلا بدّ له من مبتدأ و هو إمّا قوله: **أَنَّهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ** أو شيء آخر أمّا الأوّل فالتقدير أنّ عدم رجوعهم حرامٌ، أي ممتنع و
إذا كان عدم رجوعهم ممتنعاً كان رجوعهم واجباً فهذا الرجوع أمّا أن يكون
المراد منه الرجوع الى الآخرة أو الى الدنيا.

أما الأوّل: فيكون المعنى أنّ رجوعهم الى الحياة في الدار الآخرة واجباً و
يكون الغرض منه إبطال قول من ينكر البعث وتحقيق ما تقدّم أنّه لا كفران
لسعي أحد فأنّه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة و هو تأويل أبي
مسلم بن بحر.

أما الثاني: فيكون المعنى أنّ رجوعهم الى الدنيا واجب لكنّ المعلوم أنّهم
لم يرجعوا الى الدنيا فعند ذلك ذكر المفسّرون وجهين:

الأوّل: أنّ الحرام قد يجيئ بمعنى الواجب و الدليل عليه الآية و الإستعمال
و الشّعْر أمّا الآية فقوله تعالى: **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئاً^(١)** و ترك التّرك واجب و ليس بمحرّم.

و أمّا الشّعْر فقول الخنساء:

و أنّ حراماً لا أرى الدهر باكياً على شجوه إلا بكيت على عمرو
يعني و أنّ واجباً و أمّا الإستعمال فإنّ تسمية أحد الضدّين بإسم الآخر مجاز
مشهور كقوله: **وَ جَزَأُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا^(٢)** إذا ثبت هذا فالمعنى أنّه واجب

على أهل كل قرية أهلكتناها أنهم لا يرجعون، ثم ذكروا في تفسير الرجوع أمرين:

أحدهما: أنهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولّون عنه وهو قول مجاهد والحسن.

ثانيهما: لا يرجعون الى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل.

الوجه الثاني: أن يترك قوله وحرام على ظاهره ويجعل، لا في قوله: **لَا يَرْجِعُونَ** صلة زائدة كما أنه صلة في قوله: **مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ** والمعنى وحرام على قرية أهلكتناها رجوعهم الى الدنيا إنتهى.

ما أردنا نقله منه وأنما نقلناه بطوله لتعلم أنهم وقعوا في تفسير الآية من الحيرة ومع ذلك لم يأتوا بشئ يعتمد ولسنا بصدد بيان موارد النقص في كلام هذين العلمين عند أهل السنة فإذا كانا كذلك فما ظنك بمقلديهم ممن جاؤوا بعدهما فأنهم كل ما ذكروه في تفاسيرهم أخذوه من الطبري والكشاف وتفسير الكبير للرازي والطبري أيضاً لم يأت بشئ في.

وأن شئت فراجع تفسير الطبري حتى تعلم صدق ما قلناه، وأما وقعوا في الضلالة والحيرة وتثبتوا بكل حشيش في فهم المراد منها لأنهم لم يرجعوا الى تفاسير أهل البيت وما ورد عنهم في حل مشكلات الآيات فلا جرم ضلّوا وأضلوا كثيراً.

إذا عرفت هذا فنقول، الآية من أعظم الدلائل على إثبات الرجعة والعمامة ينكرون الرجعة أشد الإنكار ولذلك صاروا حيارى في قوله: **أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**، ولم يعلموا أن المراد أنه لا رجعة لهم أي لمن أهلكه الله ومعنى الآية كل قرية أهلك الله عز وجل أهلها بالعذاب لا يرجعون في الرجعة الى الدنيا.

وقد روى أبو بصير عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله وأبي جعفر **عليهما السلام** قالوا كل قرية أهلك الله أهلها بالعذاب لا يرجعون في

الرَّجْعَةَ فَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَالَةِ فِي الرَّجْعَةِ لِأَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ
الإِسْلَامِ لَا يَنْكَرُ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْقِيَامَةِ مِنْ هَلِكٍ وَ مِنْ
لَمْ يَهْلِكْ إِنْتَهَى.

حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ
قرأ ابن عامر، فتحت مشددة على التكثر والباقون بالتخفيف و عليه
المصاحف، يقول الله تعالى أنه حرام على القرية التي أهلكتها أي حرام على
أهلها رجوعهم إلى الدنيا حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج أي يفرج السدان
ويظهروا فعلى المشهور من أن، حتى، يدخل ما بعدها في ما قبلها نحو أكلت
السّمكة حتى رأسها، فالمعنى أن رجوعهم أي أهل القرية حرام عليهم حتى
إذا فتحت يأجوج ومأجوج أي بعد الفتح أيضاً لا رجوع لهم هكذا قيل و
اختلفوا في المراد بقوله تعالى يأجوج ومأجوج على.
أقوال كثيرة لا دليل عليها.

فقال الطّبري أنّهما أمتان من الأمم ثم روى في تفسيره عن ربي
بن حراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول قال رسول
الله ﷺ أول الآيات الدجال ونزل عيسى و نارٌ تخرج من قعر
عدن و ساق الكلام إلى أن قال ثم يخرج يأجوج ومأجوج قال
حذيفة قلت يا رسول الله و ما يأجوج ومأجوج قال ﷺ يأجوج و
مأجوج أمم كل أمة أربع مائة ألف لا يموت الرجل منهم حتى يرى
ألف عين تطرف بين صلبه و هم ولد آدم فيسيرون إلى خراب الدنيا
يكون مقدمتهم بالشّام و ساقتهم بالعراق فيمرون بأنهار الدنيا
فيشربون الفرات و الدجلة و بحيرة الطّبرية حتى يأتوا بيت
المقدس فيقولون قد قتلنا أهل الدنيا فقاتلوا من في السّماء فيرمون
بالشّاب إلى السّماء فترجع نسابهم مخضبة بالدم فيقولون قد قتلنا

من في السَّماءِ و عيسى و المسلمون بجبل طور سينين فيوحى الله عزَّ و جلَّ الى عيسى أن أحرز عبادي بالطَّور وما يلي إليه ثمَّ أنَّ عيسى يرفع رأسه الى السَّماءِ و يؤمن المسلمون فيبعث الله عليهم دابةً يقال لها النُّعْفَفُ تدخل من مناخرهم فيصبحون موتى من حاق الشَّام الى حاق العراق حتَّى تنتن الأرض من جفتهم و يأمر الله السَّماءَ فتمطر كأفواه القرب فتغسل الأرض من جيفتهم و تنتهم فعند ذلك طلوع الشَّمس من مغربها إنتهى.

أقول روي الطَّبْرِي في الباب روايات كثيرة من أراد الوقوف بها فعليه بكتابه و أمَّا نحن فلم نفهم شيئاً مما رواه و العلم عند الله.

و قال الرِّزِّي في تفسيره لهذه الآية قوله حتَّى فتحت، المبعنى فتح سدَّ يأجوج و مأجوج فحذف المضاف و أدخلت علامة التأنيث في، لأنَّ يأجوج و مأجوج مؤنثان بمنزلة القبليتين و قيل حتَّى، فتحت جهة يأجوج ثمَّ قال هما قبيلتان من جنس الإنس يقال النَّاسُ عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج و مأجوج يخرجون حين يفتح السدَّ ثمَّ قال، قيل السدَّ يفتحه الله تعالى ابتداءً و قيل بل إذا جعل الله تعالى الأرض دكاً زالت الصَّلابة عن أجزاء الأرض فحينئذٍ ينفتح السدَّ، و قال في قوله تعالى: وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فحشَوْ في أثناء الكلام و المعنى إذا فتحت يأجوج و إقرب الوعد الحقَّ شخصت أبصار الذين كفروا و الحدب النَّشر من الأرض و منه حدبة الأرض و منه حدبة الظَّهر الى أن قال، قال أكثر المفسرين أنه كناية عن يأجوج و مأجوج و قال مجاهد هو كناية عن جميع المكلفين أي يخرجون من قبورهم من كلِّ موضع إنتهى.

و قد صرَّح صاحب الكشَّاف قبله بأنَّهما قبيلتان من جنس الإنس يقال النَّاسُ عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج و مأجوج و قد أخذ الرِّزَّازي هذا الكلام منه و قد مرَّ النَّقل عن الطَّبْرِي أنه قال هما رجلا ن إسمهما يأجوج و مأجوج و قد تبعهم المفسرون على هذه الأقوال و نقلوا في تفاسيرهم ذلك.

وَأَنَا أَقُولُ: أَنَّ السَّدَّ أَشَارُوا فِي كَلِمَاتِهِمْ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي بَنَاهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ وَ قَدْ مَرَّ
الكلام فيه في سورة الكهف:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا^(١).

و هذا مما لا كلام فيه إلا أن البحث في ماهية القضية فما قيل أو يقال في تفسير
الآية لا يعتمد عليه و بعبارة أخرى القرآن حاكٍ عن وجود القرنين و السدَّ و
يأجوج و مأجوج و لم يفصل لنا كيفية القضية و أن من هو ذي القرنين و يأجوج
و مأجوج و أين السدَّ المعرَّج به القرآن و هل كان يأجوج و مأجوج من جنس
البشر أو من الجنَّ و هل هما إسمان لرجلان أو لقبيلتان موجودان أو معدومان
و غير ذلك مما نحتاج إليه في معرفتها و حيث أن القرآن سكت عن هذه
الخصوصيات لمصلحة لا يعلمها إلا الله و قد ورد في الأثر، أن إسكتوا عما
سكت الله عنه فالعقل السليم يحكم بعدم الخوض في أمثال هذه الأمور التي
لا تصل إليها أيدي الأفكار و حاصل الكلام أن هذه الآية و أمثالها من
متشابهات القرآن و مشكلاته و الذي يجب علينا عقلاً و شرعاً هو الإقرار بأن ما
بين الدقيقتين كلام الله المنزل على النبي و الاعتقاد به و نحن لا ننكر ذلك و
نعتمد به و أما العلم بما في الكتاب تفصيلاً علماً قطعياً من غير شك فيه فهو لم
يتيسر لأحدٍ إلا للزاسخين الذين أمرنا بمتابعتهم و الرجوع إليهم في فهم كتاب
الله و لم نجد في آثارهم المروية عنهم ما تكشف الإبهام عنها و قد ثبت أن من
فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار.

وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ
كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ

قيل المراد بالوعد الحقّ، القيامة و التّقدير حتّى إذا فتحت و إقترب الوعد الحقّ قالوا يا ويلنا قد كنّا في غفلةٍ بل كنّا ظالمين على أنفسنا و الضّمير في فإذا هيّ شاخصّةٌ قيل أنّه عائد إلى معلوم بيّنه عليه، أبصار الذين كفروا وقوله: يا ويلنا، أي يقول الكفّار الذين شخصت أبصارهم الويل لنا من غفلتنا عن هذا اليوم و هذا المقام بل كنّا ظالمين على نفوسنا بتركنا معاصي الله فيقول الله تعالى:

إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ
و المعنى أنتم أيها الكافرون و الأصنام و الأوثان التي عبدتموها في النار ترمون فيها كما ترمي بالحصباء.
و قرأ بعضهم، حطب جهنّم، و قرأ الحسن حضب بالضاد و المأل في المعنى واحد ثمّ.

لَوْ كَانَ هُوَ لِآءِ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَ كُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ
أي لو كان هذه الأصنام و الأوثان إلهة لم يردوا جهنّم ولم تخلد فيها و ذلك لأنّ الإله خالق جهنّم فكيف يدخلها و يخلد فيها فورودها فيها دليل على هجرها و ضعفها و ما كان كذلك ليس بمستحقّ للعبوديّة و بعبارةٍ أخرى من لا يقدر على دفع الصّرع عن نفسه لا يكون معبوداً ثمّ أخبر الله تعالى أنّ لهم في جهنّم زفيراً و هو شدّة التّنفس و قيل هو الشّهيق لهول ما يرد عليهم من النار و هم فيها لا يسمعون ما ينتفعون به و أن سمعوا ما يسؤهم و قيل أنّهم في توابيت من نارٍ فلا يسمعون لشدّة العذاب.

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ
إختلفوا في معنى المراد بالحسنى فقيل يعني الوعد بالجنة و قيل الحسنى الطاعة لله تعالى يجازون عليها في الآخرة بما وعدهم الله و قيل غير ذلك من الأقوال التي لا فائدة في نقلها.

قال بعض المفسرين أنّ سبب نزولها قول ابن الزبيري حين سمع قول الله تعالى، أنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال لرسول الله قد خصمتك و ربّ الكعبة أليس اليهود عبدوا وعزيراً والنصارى عبدوا والمسيح و بنو مليح عبدوا الملائكة فقال ﷺ عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك فأنزّل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُونَ قَالَ لَمَّا عَرَضَ ابْنُ الزَّبَيْرِيِّ قِيلَ لَهُمْ أَلَسْتُمْ قَوْمًا عَرَبًا أَوْ مَا تَعْلَمُونَ أَنْ، من، لمن، يعقل و، ما، لما لا يعقل فعلى القول الأول يكون ابن الزبيري قد فهم من قوله: مَا تَعْبُدُونَ ، العموم فلذلك نزل قوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ ، الآية تخصيصاً لذلك ، العموم و على هذا القول الثاني يكون ابن الزبيري رام مغالطة فأجيب بأن، من، لمن يعقل، و ما، لما لا يعقل فبطل اعتراضه، ثم أنّ الحسنى بضم الحاء الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الأحسن إمّا السعادة و إمّا البشرى بالثواب و إمّا التوفيق للطاعة، و الضمير في، عنها، يرجع إلى جهنم و المعنى أنّ الذين سبقت الآية مبعدون عن جهنم و الورود فيها.

قال بعض المفسرين من العامة، روي أنّ علياً كرم الله وجهه قرأ هذه الآية ثمّ قال أنا منهم و أبو بكر و عمر و عثمان و طلحة و الزبير و سعد و عبد الرحمن بن عوف ثمّ أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه و هو يقول لا يسمعون حسيها إنتهى.

ما ذكره أقول لا عجب منهم في نقل هذا الحديث المجعول عن عليّ عليه السلام فإنّ من ينسب الكذب على رسول الله في قولهم عنه عليه السلام نحن معاشر الأنبياء لا نورث لا يبال عن نسبه الكذب لغيره وليس هذا أوّل قارورة كسرت في الإسلام و ذلك لأنّ هؤلاء الأشخاص إن كانوا ممن سبقت لهم الحسنى و لذلك مبعدون عن جهنم فلا يدخل فيها إلاّ المشرك بالله و أمّا من قال بالشهادتين ظاهراً و أنّ كان منافقاً بل كافراً واقعاً فهو لا يدخل الجنة و لا يقول به إلاّ الملحد في دينه.

ثم نقول هلاً لم يدخل فيهم معاوية ويزيد وغيرهما مع أئمتها وأمثالهما من الخلفاء كانوا من سيئات المشار إليهم في الحديث و محصل الكلام أن كان أبو بكر وعمر وعثمان و طلحة إلى آخر ما ذكره ممن سبقت لهم الحسنى فعلى الإسلام السّلام.

وقال الطبري في تفسيره لهذه الآية أنّ قوله أولئك عنها مبعدون، يعين عيسى وعزير والملائكة نقله عن مجاهد ثم أطال الكلام في الباب ونقل أقوالاً كثيرة إلى أن قال وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال، عني بقوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ ما كان من معبودٍ كان المشركون يعبدونه والمعبود لله مطيع و عابدهو بعبادتهم إياه بالله كفار لأنّ قوله: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ، الآية ابتداء كلام محقق لأمرٍ كان ينكره قومٌ على نحو الذي ذكرناه في الخبر عن ابن عباس فكأنّ المشركين قالوا لئن بي الله، إذ قال لهم أنكم و ما تعبدون من دون الله حسب جهنم ما الأمر كما تقول لأننا نعبد الملائكة و يعبد آخرون المسيح وعزير فقال عز وجل ردّ عليهم قولهم ذلك كذلك وليس الذين سبقت لهم منّا الحسنى هم عنها مبعدون، لأنهم غير معنيين بقولنا أنكم و ما تعبدون من دون الله حسب جهنم فأما قول الذين قالوا ذلك إستثناء من قوله: ما تعبدون حسب جهنم، فقولٌ لا معنى له لأنّ الإستثناء أنما هو إخراج المستثنى من المستثنى منه و لا شك أنّ الذين سبقت، الآية أنما هم الملائكة أو إنس أو جانّ و كل هؤلاء إذا ذكرت العرّب فإنّ أكثر ما تذكرها، بمن، لا، بما، و ساق الكلام إلى أن قال أنما أريد به ما كانوا يعبدون من الأصنام والأهنة من الحجارة و الخشب لا من كان من الملائكة و الإنس إنتهى موضع الحاجة منه.

وقد أطال الرّازي أيضاً الكلام بما لا حاجة لنا في نقله فإنهم فسروا الكلام على نمطٍ واحدٍ أخذ عن بعضٍ مع تغيير في الألفاظ و العبارات و أنما نقلنا كلام الطبري بطوله لأنّ تفسيره أساس تفاسير العامة و الكل أخذوا منه إذا عرفت هذا فنقول:

أَمَا نَشَأُ الْإِشْكَالَ بِزَعْمِهِمْ فِي قَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أَلَيْسَ لِمَنْ رِيبٌ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَا قَبْلَهَا وَهُوَ قَوْلُهُ أَتُكْمَرُونَ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَبِظِيمٌ فَلْيَنْظُرُوا إِلَىٰ مَا لَهُمْ مِنْ نَفْسِهِمْ فَهُوَ لَهُمْ حَصْبٌ جَهَنَّمَ إِلَىٰ قَوْلِهِ لَا يَسْمَعُونَ وَكَذَلِكَ وَقَعُوا فِي الْحِصِّ وَالْبَيْصِ وَتَشَبَّهُوا بِكُلِّ حَشِيشٍ لِحُلِّ الْإِشْكَالِ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ مَا زَعَمُوهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ إِذْ لَوْ كَانَتِ الْآيَةُ مُرْتَبِطَةً بِمَا قَبْلَهَا فَحَقَّ الْكَلَامُ أَنْ يُقَالَ وَالَّذِينَ سَبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبِيلُ الْعُطْفِ، أَوْ يُقَالَ وَأَمَا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بَلْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ وَقَدْ أَطْبِقَ الْبُلْغَاءُ وَالنُّحَاةَ عَلَىٰ أَنْ لَهَا أَيُّ (إِنَّ) صَدَرَ الْكَلَامِ وَعَلَىٰ هَذَا فَالْآيَةُ لِبَيَانِ حُكْمِ آخِرِ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ، مَبْعُدُونَ عَنْ جَهَنَّمَ وَبِعِبَارَةِ قَسَمِ النَّاسِ عَلَىٰ قَسْمَيْنِ، مُشْرِكٌ، وَمُؤْمِنٌ ثُمَّ حُكْمٌ عَلَىٰ الْمُشْرِكِ يَكُونُهُ مَعَ مَبْعُودِهِ فِي النَّارِ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَسَنَ الْعَمَلِ وَالْإِعْتِقَادِ، وَحُكْمٌ عَلَىٰ الْقَسَمِ الْآخَرَ وَهُوَ الَّذِي سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ حَسَنَ الْعَمَلِ بِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ جَهَنَّمَ وَعَلَىٰ هَذَا فَمَعْنَىٰ الْآيَةِ.

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أَيُّ سَبِقَ فِي عِلْمِنَا الْأَزْلِيِّ حَسَنَ إِعْتِقَادِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ فَهَمَّ عَنْ الْعَذَابِ مَبْعُدُونَ، وَهَذَا مِمَّا لَا إِشْكَالَ فِيهِ بَلْ هُوَ الْحَقُّ الْحَقِيقَةُ بِالْإِتْبَاعِ لَا مَا لَفَّقُوهُ فِي تَفْسِيرِهِمْ مِنَ الْإِسْتِنَاءِ وَغَيْرِهِ هَذَا مَا ظَهَرَ لَنَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِبْسَهَا وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ

الْحَسِيسُ الصَّوْتِ أَيُّ لَا يَسْمَعُونَ صَوْتَهَا الَّذِي يَحْسُ مِنْ حَرَكَةِ الْأَجْرَامِ وَالْمُرَادُ بِهِ صَوْتُ جَهَنَّمَ لِأَنَّ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ أَوْ صَوْتُ النَّارِ فِيهَا وَقَوْلُهُ: فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ، فَالشَّهْوَةُ طَلَبُ النَّفْسِ لِلذَّوِّ وَنَقِيضُ الشَّهْوَةِ تَكْرَهُ النَّفْسِ فَالغذاء تشتهي والدواء تتكره والمقصود أنهم في الجنة وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وفي قوله: خَالِدُونَ، إشارة إلى دوام اللذة وبقائها.

لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

في هذه الآية نفى الله عنهم الحزن والخوف وأثبت لهم البشارة بواسطة الملائكة وبهذه الأمور الثلاثة فقد أكمل الله تعالى عليهم النعمة وأتمها لأن تمامية النعمة بحصولها أي وجودها أولاً، وهو أي وجود النعمة حصل لهم في الآية السابقة وبعدهم كونها مشوباً بالخوف والغم ثانياً وبالبشارة ببقائها لصاحب النعمة ثالثاً وهذا هو العيش الكامل واللذة الحقيقية التي لا يتصور فوقها لذة ولا عيش ولمثل هذا فليعمل العاملون.



يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِّلْكِتَابِ كَمَا
 بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ
 (١٠٤) وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ
 الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي
 هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ غَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
 إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ
 أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨)
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ
 أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ
 الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ
 أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لِّكُمْ وَمَنَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١)
 قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمَنُ
 الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

◀ اللُّغَةُ

نَطْوِي: طَيَّ مصدر مضاف إلى المفعول أي ليكتب فيه و قيل يكتب فيه من
 المعاني الكثيرة والأصل كَطَيَّ الطَّاوِي السَّجِلِّ فحذف الفاعل و قدره
 الزمخشري مبنياً للمفعول أي كما يطوي السَّجِلِّ و عن ابن عباس و جماعة أَنَّ
 السَّجِلِّ ملك يطوي كتب آدم إذا رفعت إليه.

السَّجِلِّ: قيل أَنَّهُ فاترسي معرَّب و قيل أصله من المساجلة و هي من
 السَّجَلِّ و هو الدُّلو ملامء و قال الزَّجَّاج هو رجل بلسان الحبش.

فِي الزَّبُورِ: الظَّاهِر أَنَّهُ زبور داود و هو مشتق من، زبر، بمعنى كتب يقال
 زبرت الكتاب كتبته كتابةً عظيمة و كلُّ كتابٍ غليظ الكتابة يقال له زبور و خصَّ

الرَّبُورَ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ تَعَالَى: **وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا** قَالَه الرَّاغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ.

الذُّكْرُ: قِيلَ الذُّكْرُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.
تَوَلَّوْا: التَّوَلَّى الْإِعْرَاضَ وَالْبَاقِي وَاضِحٌ.

◀ الإعراب

يَوْمَ نَطْوِي يجوز أن يكون بدلاً من العائد المحذوف من قوله، **يُوعَدُونَ**، أو على إضمار، أعني، أو ظرفاً للا يحزنهم، أو بإضمار أذكر، و نطوي بالثَّوْنِ عَلَى التَّعْظِيمِ وَبِالْيَاءِ عَلَى الْغَيْبَةِ وَبِالتَّاءِ وَتَرَكَ تَسْمِيَةَ الْفَاعِلِ **السَّمَاءَ** بِالرَّفْعِ وَالتَّقْدِيرِ طَيًّا كَطَيٍّ وَهُوَ مَصْدَرٌ مِضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ أَنْ قَلْنَا السَّجْلَ الْقِرطَاسِ وَأَنْ قَلْنَا أَنَّهُ إِسْمٌ مَلِكٌ أَوْ كَاتِبٌ فَيَكُونُ مِضَافًا إِلَى الْفَاعِلِ وَفِيهِ قِرَاءَاتٌ، كَسَرِ السَّيْنِ وَالجِيمِ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ وَيَقْرَأُ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ بِتَخْفِيفِ اللَّامِ، وَيَقْرَأُ بِفَتْحِ السَّيْنِ وَسُكُونِ الْجِيمِ وَتَخْفِيفِ اللَّامِ وَبُضْمِ السَّيْنِ وَالجِيمِ مُخَفَّفًا وَمَشْدَدًا كَمَا بَدَأْنَا الْكَافَ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَي نَعِيدُهُ عَوْدًا مِثْلَ بَدْءِهِ وَفِي نِصْبِ **أَوَّلٍ** وَجِهَانٌ:

أحدهما: أَنَّهُ مَنْصُوبٌ بِبَدَأْنَا.

الثَّانِي: هُوَ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي نَعِيدُهُ وَعَدَدًا مَصْدَرٌ أَي وَعَدْنَا ذَلِكَ وَعَدَدًا مِنْ بَعْدِ **الذُّكْرِ** ظَرْفٌ لِلزَّبُورِ بِمَعْنَى الْمَزْبُورِ أَي الْمَكْتُوبِ إِلَّا رَحْمَةً هُوَ مَفْعُولٌ لَهُ وَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا أَي ذَا رَحْمَةٍ يُوحَى إِلَيَّ **أَنَّمَا** أَنْ مَصْدَرِيَّةٌ وَمَا الْكَافَةُ لَا تَمْنَعُ مِنَ ذَلِكَ عَلَى سِوَاءِ حَالٍ مِنَ الْمَفْعُولِ وَالفَاعِلِ وَالبَاقِي لَا خِفاءَ فِي إِعْرَابِهِ.

◀ التفسير

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيٍّ السَّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا **أَوَّلَ خَلْقِ نَعِيدُهُ**
وَعَدَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا وَ تَفْسِيرُهَا مَا أَعَدَّ لِلْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ سَبَقَتْ مِنْهُمْ الْحَسَنَى الْخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ وَ الْبَعْدُ مِنَ النَّارِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَوْمَ الْوَعْدِ وَ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ، أَي مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ سَابِقًا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ هُوَ الْيَوْمَ الَّذِي نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ أَي كَطَيِّ الدَّرَجِ وَ مِنْهُ طَوَيْتِ الْفَلَاحَةَ وَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ وَ السَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ أَي مَهْلِكَاتٍ وَ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ فَنَائِهَا وَ إِضْمَحْلَالِهَا كَمَا سَيَأْتِي تَفْسِيرُهُ فِي مَوْضِعِهِ وَ قَوْلُهُ: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، إِشَارَةٌ إِلَى الْمَعَادِ وَ أَنَّ الْإِعَادَةَ لَيْسَتْ بِأَصْعَبَ مِنَ الْإِبْجَادِ فَمَنْ خَلَقَ الْمَخْلُوقَ أَوَّلًا قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ وَ قَوْلُهُ: وَ عَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْلِفُ الْمِعَادَ وَ لِذَلِكَ قَالَ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ، أَي فَاعِلِينَ مَا وَعَدْنَاهُ مِنَ الْبَعْثِ وَ قِيلَ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُ كَمَا إِخْتَرَعْنَا الْخَلْقَ أَوَّلًا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ كَذَلِكَ نَنْشَأُهُمْ تَارَةً أُخْرَى فَنَبْعَثُهُمْ مِنَ الْقُبُورِ.

وَ قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ الَّتِي خَرَجَ بِهَا إِلَى الدُّنْيَا وَ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْشُرُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِفَاةً عِرَاءً كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ بِإِنْتِهَى.

أَقُولُ: وَ يُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى الْأَخِيرَ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا^(١) غَشِيَ عَلَيْهِ وَ حَمَلَ إِلَى حِجْرَةِ أُمِّ سَلْمَةَ فَأَبْتَنَظَرَهُ أَصْحَابَهُ وَ قَتَّ الصَّلَاةَ فَلَمْ يَخْرُجْ فَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ فَقَالُوا مَا لِنَبِيِّ اللَّهِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلْمَةَ إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ عَنْكُمْ مَشْغُولٌ ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَقِيَ الْمَنْبِرَ فَقَالَ، أَيُّهَا النَّاسُ أَنْكُمْ تَحْشُرُونَ إِلَى اللَّهِ كَمَا خَلَقْتُمْ حِفَاةً عِرَاءً ثُمَّ قَرَأَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ثُمَّ قَرَأَ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَ عَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ بِإِنْتِهَى.

و في نهج البلاغة قال عليّ (عليه السلام): اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنَاءً، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً، فَجَاءَ وَهًا كَمَا فَارَقُوا هَا حُفَاءَ عِرَاءً، قَدْ طَعَنُوا عَنَهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ، وَالِدَارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ: (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) (١).

و عن مجمع البيان، و يروى عن النبي أنه قال تحشرون يوم القيامة حفاة عراة كما بدأنا أول خلقٍ نعيده وعدأ علينا أنا كنا فاعلين إنتهى.
أقول: هذا ممّا لا بأس به ولكن الظاهر من الآية هو إثبات أصل المعاد و أمّا أنهم حفاة عراة فهي من أوصافهم و الجمع مهما أمكن أولى من الطرح و سيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله.

و لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ

إنفق المفسرون على أنّ المراد بالزبور هو كتاب داود النبي أنزله الله عليه و قيل المراد به كتب الأنبياء و قوله: مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ، أي من بعد كتبه في أم الكتاب و هو اللوح المحفوظ و قيل المراد بالذكر توراة موسى معناه قبل الذكر الذي هو القرآن حكاه ابن خالويه، و المراد بالأرض قيل أرض الجنة التي يرثها الصالحون من عباد الله كما قال تعالى: وَ أَوْزَنَّا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ (٢).

و قيل هي الأرض في الدنيا التي تصير للمؤمنين في أمة محمد ﷺ من بعد إجلاء الكفار عنها، و قيل أرض الشام يرثها الصالحون من بني إسرائيل ذكره الكلبي.

بنيان التوراة في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر

أقول: ما ذكروه في الأرض لا دليل عليه و أنما قالوا ما قالوا من عند أنفسهم والله تعالى لم يقيد بها بشئ من الجنة والشام وغيرهما والتقييد يحتاج إلى الدليل وإذ ليس فليس فالحق أن المراد بالأرض هو أرض الدنيا كما هو مقضى الإطلاق في الآية هذا مضافاً إلى أن قوله تعالى يرثها لا يساعد أرض الجنة إذ لا إرث فيها وبعبارة أخرى أرض الجنة لا توارث فيها والأرض التي يرثها بعض الناس عن الآخرين هي أرض الدنيا لا أرض الجنة فقوله تعالى يرثها عبادي الصالحون بعد ظهور المهدي وتطهيره الأرض الأرجاس من الكفار والمنافقين وإذا كان ذلك فلا يبقى فيها غير الصالح.

و عن مجمع البيان في هذه الآية قال أبو جعفر عليه السلام: هم أصحاب المهدي في آخر الزمان ويدل على ذلك ما رواه الخاص والعام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: لو لم يبق من الدنيا إلا يومٌ واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملأت ظلماً وجوراً إنتهى.

وروى الشيخ في التبيان عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: إن ذلك وعد للمؤمنين بأنهم يرثون جميع الأرض إنتهى.

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ

أي أن في هذا المعنى الذي أخبرتكم به مما توعدنا به الكفار من النار والخلود فيها وما وعدنا به المؤمنين من الجنة والكون فيها، لبلاغاً، وقيل أن في هذا القرآن لبلاغاً، والبلوغ الوصول إلى الحق ففي البرهان بلاغ والقرآن دليل وبرهان، وقيل معناه أنه يبلغ رضوان الله ومحبتة وجزيل ثوابه، لقوم عابدين لله مخلصين له قاله في التبيان.

وقال صاحب الكشاف الإشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية وما تبلغ به البغية إنتهى.

أقول: و الذي ظهر لي من الآية هو أنّ المشار إليه بقوله: هَذَا هو الوعد الأخير في الآية السابقة أعني قوله أنّ الأرض يرثها عبادي الصّالحون فإن هذا الوعد يكفي لقوم عابدين و ذلك لأنّه كالبشارة لهم بالفرج و أنّ الغاية من خلق الأرض و من عليها هي الصّالحون لا غيرهم من حشرات الأرض و أنّ لكلّ عسرٍ يسرٍ و لكلّ ضيقٍ وسعةٍ قال رسول الله ﷺ أفضل أعمال أمتي إنتظار الفرج ولنعم ما قيل بالفارسيّة:

دور گردون گر دو روزي بر مراد مانگشت

دائماً يكسان نماند حال دوران غم مخور
و أنّما قلنا ذلك لأنّ هذا الكلام وقع بعد قوله: أنّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصّٰلِحُونَ، فحمّله على ما ذكرناه أولى و الله أعلم.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ

قيل في معناه أي ما أرسلناك إلا نعمة عليهم و لأنّ ترحمهم، و قيل خاصّ بمن آمن به و قيل عامٌّ لمن آمن و من لم يؤمن من الكفّار و معنى كونه ﷺ رحمة لهم أنّه أحرّ الله عقوبة الكفّار ولم يستأصلهم بالعذاب في الدُّنيا و قال عوفي ممّا أصاب غيرهم من الأمم من مسخٍ و خسفٍ و غرقٍ و قذفٍ و أحرّ أمره إلى الآخرة.

و قال الزّمخشري في الكشّاف كونه رحمة للفجّار من حيث أنّ عقوبتهم أحرّت بسببه و آمنوا من عذاب الإستئصال.

أقول: ما ذكروه لا بأس به إلا أنّ الآية يستفاد منها شيء آخر و هو أنّه ﷺ كان مظهرًا لرحمته التي وسعت كلّ شيءٍ لأنّه الغاية في الإيجاد و التّشريع إمّا الإيجاد فلقوله تعالى في حقّه لولاك لما خلقت الأفلاك و قال ﷺ أوّل ما خلق الله نوري و أمّا في التّشريع فلقوله ﷺ كنت نبيّاً و آدم بين الماء و الطّين و من المعلوم أنّ

العلّة الغائيّة مقدّمة في الوجود العلمي و مؤخّرة في الوجود الخارجي.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في رسول الله صلى الله عليه وآله فهو أمينك المأمون و شهيدك يوم الدين و بعيتك نعمَةً و رسولك بالحقّ رحمةً إلى آخر كلامه.

و الحاصل أنّ وجود الرسول من أعظم النعم لقوله تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا^(١) وحيث أنه صلى الله عليه وآله كان بنفسه رحمة من عند الله قال في حقّ من أذاه من الناس اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون، بعد ما قال له جبرئيل أدع عليهم.

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

قد مرّ الكلام في معنى الوحي و أنّه في الأصل الإشارة السريعة و ذكر أقسام الوحي و كلمة، إنّما، لقصر الحكم على شيء أو لقصر الشيء على حكم كقولك أنّما زيد قائم و أنّما يقوم زيد و قد اجتمع المثالان في هذه الآية لأنّ قوله: إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ، بمنزلة إنّما يقوم زيد و إنّما إله واحد، بمنزلة إنّما زيد قائم و فائدة اجتماعهما الدلالة على أنّ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مقصورٌ على إسنثار الله بالوحدانيّة و في قوله، فهل أنتم مسلمون، أنّ الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله و أن تخلصوا الأنداد و فيه أنّ صفة الوحدانيّة يصحّ أن تكون طريقها السَّمْع و يجوز أن يكون المعنى أنّ الذي يوحى إليّ فتكون ما موصولة إنتهى ما حقّقه صاحب الكشّاف.

أقول: ما ذكره صاحب الكشّاف من الحصر في، إنّما، لا يصحّ إلّا على مسلكه و أمّا على مسلك غيره من النّحاة فلا.

قال بعض المحققين أنها لا تكون للحصر و أن، ما، مع، إن، مثل، ما، مع كأن و لعل فكما أنها لا تفيد الحصر في التشبيه و لا الحصر في الترجي فكذلك لا تفيده مع، إن، و إما، جعله، إنما، المفتوحة مثل مسكورتها يدل على القصر فلا نعلم الخلاف إلا في، إنما، بالكسر و أما بالفتح فحرف مصدر ينسك منه مع ما بعدها مصدر فالجملة بعدها ليست جملة مستقلة و أنت ترى أنه أي صاحب الكشف لم يفرق بين مكسورها و مفتوحها في إفادة الحصر مع أن المفتوح لا يفيد قطعاً بلا خلاف و إنما الإختلاف في المكسور فقط و لو كانت، إنما، دالة على الحصر لزم أن يقال أنه لم يوح إلى النبي شيء إلا التوحيد مع أن الأمر ليس كذلك إذ قد أوحى إليه ﷺ أشياء كثيرة غير التوحيد ففي الآية دليل على تظافر المنقول للمعقول و أن النقل أحد طريقي التوحيد و طريقه الآخر العقل.

و أما قوله: **فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ** فالإستفهام يتضمن الأمر بإخلاص التوحيد و الإلتقياد إلى الله تعالى و كيف كان فالآية تدل على أن مسألة التوحيد أصل الدين و أساسه و أن الأنبياء إنما بعثوا لدعوة الناس إليه و أما غيره من الأحكام فمتفرع عليه قال رسول الله ﷺ **قُولُوا لِإِلَهِ الْإِلَهِ تَفْلِحُوا**.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ

آذنتكم أي أعلمتكم فأذن الإيذان بالإعلام و كلمة، إن، بالكسر مخففة نافية بمعنى بمعنى ليس أي لا أدري و قوله: **آذَنْتُكُمْ** يتضمن معنى التحذير و النذارة و التولي، الإعراض و معنى الآية قل يا محمد إنما يوحى إلي كذا فإن تولوا و أعرضوا عما قلت لهم فقل لهم آذنتكم أي أعلمتكم بالتوحيد على سواء و لم أخص أحداً به دون أحد و هذا الإيذان هو أحلام بما يحل بمن تولى و أعرض عنه من العقاب في الآخرة و غلبة الإسلام على الكفر و لكني لا أدري متى يكون ذلك أي ما توعدون، و الله أعلم به.

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ

أي أنه تعالى لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه والله هو العالم الذي لا يخفي عليه شيء فيعلم ما تعلنون وما تخفون في ضمائركم والدليل عليه من النقل فكثير من الآيات من أنه يعلم السرّ وما يخفي وأما العقل، فلاّته تعالى لو خفي عليه شيء من الأشياء يلزم جهله به والجهل نقص من شؤون الممكن وأما الواجب فهو كامل بالذات والصفات ومن صفاته العلم وكمال العلم بقول مطلق ينافي الجهل بقول مطلق وقد مرّ الكلام في علمه تعالى وأنه بكلّ شيء محيط وسيأتي الكلام فيه بوجه أبسط في موضعه.

وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ

أي لعل تأخير هذا الموعد إمتحان لكم، وقوله: **مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**، أي ليتمتعون الى الوقت الذي قدره الله لعقابكم في الآخرة أو هلاككم في الدنيا والمقصود لا تغتروا بما أنتم فيه من النعم إذ من المحتمل أن يكون ذلك إستدراجاً وإمهالاً

قَالَ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ

قيل الضمير في، قال، للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والآية حكاية قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن دعوتهم الى الحق و ردّهم دعوته وتولّيهم عنه وتقييد الحكم بالحق توضيحي لا إحترازي فإنّ حكمه تعالى لا يكون إلّا حقاً فكأنه قيل ربّ أحكم بحكمك الحق ومعنى الآية واضح فأنه تعالى هو الرحمن الذي يستعان به في جميع الأمور والحمد لله ربّ العالمين.

سُورَةُ الْحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ
 شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ
 عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَ
 تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ
 عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ
 فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣)
 كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ
 إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ
 فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ
 مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَ
 غَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا
 نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
 لِنَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن
 يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ
 شَيْئًا وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
 الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ

بِهَيْجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ
 الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ
 السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ
 فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
 بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِي
 عَطْفُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
 وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا
 قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)

◀ اللُّغَةُ

تَذَهَّلُ: ذهل ذهولاً، اِشْتَغَلَ عَنْهُ قَالَهُ قَطْرَبَ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ غَفَلَ وَ قِيلَ مَع
 دَهْشَةً.

مَرِيدٍ: المرید المتَّجِرِد للفساد یقال صخرَةٌ مرداءُ أي ملساء.

السَّعِيرِ: النَّارِ الَّذِي یسْتَعْرُو یلتهب.

مُضْغَعَةٌ: المضغعة اللحمة الصَّغِيرَة قدر ما یمضغ.

مُحَلَّفَةٌ: المَسْوَاة الملساء لا نقص و لا عیب فیها من قوله صخرَةٌ خلقاءُ أي

ملساء.

يُقَرُّ: أي نثبت.

هَامِدَةٌ: یقال همدت الأرض إذا بیست و درست.

بِهَيْجٍ: البهیج الحسن السَّارِ للنَّاظر یقال فلان ذو بهجة أي حسن.

عَطْفُهُ: العطف بكسر العين الجانب و عطفًا الرِّجْل یمینه و شماله و أصله

من العطف و هو اللین و یسمی الرِّداء العطف.

◀ الإعراب

زَلْزَلَةٌ السَّاعَةِ الزَّلْزَلَةُ مصدر يجوز أن يكون من الفعل اللازم أي تنزلزل السَّاعَةُ و أن يكون متعدياً أي أنَّ زلزال السَّاعَةِ النَّاسِ فيكون المصدر مضافاً الى الفاعل في الوجهين و يجوز أن يكون المصدر مضافاً الى الظرف يَوْمَ تَرَوْنَهَا هو منصوب بتذهل، و يجوز أن يكون بدلاً من السَّاعَةِ أو ظرفاً لعظيم، أو على إضمار، أذكر، فعلى هذه الوجوه يكون تَذْهَلُ حالاً من ضمير المفعول و العائد محذوف أي تذهل فيها مُرْضِعَةٌ جاء على الفعل من أَرْضَعِ والتاء علامة التأنيث مثل مكرمة ولو كان على النَّسَبِ لقال مرضع، و، ما، بمعنى، من، و يجوز أن تكون مصدرية بِسُكَّارِي بِضَمِّ السِّينِ حالٌ و الضَّمُّ و الفتح فيه لغتان مَنْ يُجَادِلُ هي نكرة موصوفة و بَعِيْرٌ عَلِمَ في موضع المفعول أو حال.

◀ التفسير

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ

قال في المفردات التزلزل الإضطراب و تكرير حروف لفظه تنبيه على تكرير معنى الزلزل فيه و هو من الزلَّة يقال زلت رجلٌ تزل و الزلَّة المكان الزلُّق و قيل للذنب من غير قصد زلة تشبيهاً بزلة الرجل و المراد بالسَّاعَةِ قيل القيامة و قيل عند النَّفْخَةِ الأولى و قيل عند الثَّانِيَةِ، قيل في وجه مناسبة أول هذه السُّورَةِ لما قبلها أنه ذكر الله تعالى فيما قبلها حال الأشقياء و السُّعْدَاءِ و ذكر الفرع الأكبر و كان مشركو مكَّة قد أنكروا المعاد و كذبوه بسبب تأخر العذاب عنهم نزلت هذه السُّورَةُ تحذيراً لهم و تخويفاً لما إنطوت عليه من ذكر زلزاله السَّاعَةِ و شدَّة هولها و ذكر ما أعد لمنكرها و تنبيههم على البعث بتطوِيرهم في خلقهم و وبهمود الأرض و إهتزازها بعد اللَّبْنَاتِ و الظَّاهِرُ أنَّ قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عامٌ يشمل جميع النَّاسِ و قيل المراد أهل مكَّة و نبه الله تعالى على سبب إتيائه و هو ما يؤل إليه من أهوال السَّاعَةِ و هو على حذف مضاف أي

إِتَّقُوا عَذَابَ رَبِّكُمْ وَ الزَّلْزَلَةَ الْحَرَكَةَ الْمَزْعَجَةَ وَ هِيَ عِنْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى وَ قِيلَ عِنْدَ الثَّانِيَةِ الْجُمْهُورُ فِي الدُّنْيَا آخِرَ الزَّمَانِ وَ يَتَّبِعُهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَ أُضِيفَتْ إِلَى السَّاعَةِ لِأَنَّهَا مِنْ أَشْرَاطِهَا وَ الْمَصْدَرُ مِضَافٌ لِلْفَاعِلِ فَالْمَفْعُولُ الْمَحْذُوفُ الْأَرْضُ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا^(١) وَ نِسْبَةُ الزَّلْزَلَةِ إِلَى السَّاعَةِ مَجَازٌ.

قال الحسن أشدُّ الزَّلْزَالِ مَا يَكُونُ مَعَ قِيَامِ السَّاعَةِ وَ قِيلَ الزَّلْزَلَةُ إِسْتِعَارَةٌ وَ الْمُرَادُ شِدَّةُ السَّاعَةِ وَ أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال بعضهم أَنَّ الشَّيْءَ هُنَا يَدُلُّ عَلَى إِطْلَاقِهِ عَلَى الْمَعْدُومِ لِأَنَّ الزَّلْزَلَةَ لَمْ تَقَعْ بَعْدَ وَ مِنْ مَنَعِ إِيقَاعِهِ عَلَى الْمَعْدُومِ جَعَلَ الزَّلْزَلَةَ شَيْئاً لَتَيَقِّنَ وَجُودَهَا وَ وَقُوعَهَا فِي وَقَعَةٍ وَ الْمَعْنَى إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ شَيْءٌ عَظِيمٌ وَ سَتَتَكَلَّمُ فِيهَا فِي سُورَةِ الزَّلْزَالِ.

يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

ذكر الله تعالى في هذه الآية أهول الصفات في قوله ترونها الآية لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم و يتصوروها بعقولهم ليكون ذلك حاملاً على تقواه تعالى إذ لا نجاة من تلك الشدائد إلا بهما.

و روي أَنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ نَلْنَا لِبِلَالٍ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمَصْطَلِقِ فَقَرَأَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَلَمْ يَرَى أَكْثَرَ بَاكِياً مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَ اخْتَلَفُوا فِي مَرْجِعِ الضَّمِيرِ الْمَنْصُوبِ فِي، تَرَوْنَهَا، فَقَالَ قَوْمٌ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الزَّلْزَلَةِ لِأَنَّهَا الْمَحْدُوثُ عَنْهَا وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَجُودُ الذَّهُولِ لِلْمَرْضِعَةِ وَ وَضْعُ الْحَمْلِ هَذَا إِذَا أُرِيدَ الْحَقِيقَةُ وَ هِيَ الْأَصْلُ فَيَكُونُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا.

وقال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام و تضع الحامل ما في بطنها لغير تمام.

وقالت فرقة الصمير يعود على السّاعة فيكون الذّهول و الوضع عبارة أو كناية عن شدة الهول في ذلك اليوم و لا ذهول و لا وضع هناك كقولهم يوم يشيب فيها الوليد و جاء لفظ مرضعة دون مرضع لأنه أريد به الفعل لا النسب بمعنى ذات رضاع، كما قال الشاعر:

كمرضعة أولاد أخرى وضّعت بني بطنها هذا الضلال عن القصد
و «ما» في قوله: **عَمَّا أَرْضَعْتُ**، قيل بمعنى، الذي، أي عن الذي أرضعت
و العائد محذوف أي أرضعته و يقوّه تعدّي، وضع، إلى المفعول به في قوله:
حَمَلُهَا، لا إلى المصدر، و قال بعضهم، ما، مصدرية أي عن إرضاعها.
و قال صاحب الكشاف فأن قلت، لم قيل مرضعة دون مرضع.

قلت: المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي و المرضع
التي شأنها أن ترضع و أن لم تباشر الإرضاع حال و صفها به فقيل مرضعة ليدل
على أنّ ذلك الهول إذا فوجئت به هذه و قد أقيمت الرضّيع ثديها نزعته عن
فيه لما يلحقها من الدهشة، **عَمَّا أَرْضَعْتُ**، عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته و
هو الطفل إنتهى.

ثم أنّ قوله: **تَذْهَلُ** بفتح التاء و الهاء و قرأ بعضهم بضمّ التاء و كسر الهاء من
أذهل إذهالاً، أي تذهل الزلزلة أو السّاعة و على هذه القراءة يكون، **كَلَّ**
منصوباً، أي تذهل السّاعة كلّ مرضعة **عَمَّا أَرْضَعْتُ** و الجمهور على فتح التاء و
الهاء و عليه المصاحف فعلاً و أن كانت القراءة الثانية أيضاً لا تخلو عن قوّة و
قوله: **وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلُهَا**، فالحمل بفتح الحاء ما كان في بطن أو
على رأس شجرة و قوله: **وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى**، بضمّ التاء و فتحها أثبت
أنهم سكارى على سبيل التشبيه ثم نفى عنهم الحقيقة و هي السكر من الخمر
فقال: **وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى** أي ليسوا بسكارى حقيقة **وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ**

شَدِيدٌ ذَلِكَ لَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْحَيْرَةِ وَتَخْلِيْطِ الْعَقْلِ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ وَإِخْتَلَفُوا فِي، سَكَرَى، أَوْ جَمَعَ أَوْ إِسْمَ جَمْعٍ، وَقَرَأَ أَبُو نَهَيْكٍ وَعَيْسَى بِفَتْحِ السِّينِ فِيهِمَا جَمْعَ تَكْسِيرٍ وَاحِدَهُ سَكَرَانٌ.

وَقَالَ أَبُو تَمِيمٍ هِيَ لُغَةٌ تَمِيمٌ وَقَالَ سَيَّبُوهُ قَوْمٌ يَقُولُونَ، سَكَرَى جَعَلُوهُ مِثْلَ، مَرْضَى، وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ هُوَ إِسْمٌ مَفْرَدٌ كَالْبَشْرَى وَبِهَذَا أَفْتَانِي أَبُو عَلِيٍّ. وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ وَهُوَ غَرِيبٌ، أَقُولُ الْأَمْرَ سَهْلًا وَالْمُسْتَفَادَ مِنَ الْآيَةِ هُوَ ذَهَابَ عَقُولِهِمْ مِنَ الْحُزْنِ وَالْفِرْعِ وَتَحْيِيرِهِمْ فِيهِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ مِنْ، لِلتَّبَعِضِ أَي بَعْضُ النَّاسِ كَذَلِكَ، وَ الْجِدَالِ، بِكَسْرِ الْجِيمِ الْمَفَاوِضَةَ عَلَى سَبِيلِ الْمَنَازَعَةِ وَالْمَغَالِبَةِ وَأَصْلُهُ مِنْ جَدَلْتَ الْحَبْلَ أَي أَحْكَمْتَ فَتَلَهُ الْجَدِيلَ وَجَدَلْتَ الْبِنَاءَ أَحْكَمْتَهُ وَقِيلَ الْأَصْلُ فِي الْجِدَالِ الصُّرَاعُ وَإِسْقَاطُ الْإِنْسَانِ صَاحِبَهُ عَلَى الْجِدَالَةِ وَهِيَ الْأَرْضُ الصُّلْبَةُ وَكَيْفَ كَانَ لَا شَكَّ أَنَّ الْجِدَالَ فِي حَدِّ نَفْسِهِ لَيْسَ بِمَذْمُومٍ بَلْ هُوَ مَمْدُوحٌ عَقْلًا وَنَقْلًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^(١).

وَأَمَّا الْمَذْمُومُ مِنْهُ هُوَ الْجِدَالُ الْبَاطِلُ كَمَا إِذَا كَانَ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا

كِتَابٍ مُنِيرٍ^(٣).

قِيلَ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ، وَقِيلَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بِنِ خَلْفٍ وَالتَّنْضُرِ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ يَقُولُ الْمَلَائِكَةُ بِنَاتِ اللَّهِ وَالْقُرْآنُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَلَا يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَى إِحْيَاءِ مَنْ بَلَى وَ صَارَ تَرَابًا.

أقول الحقّ أنّ الآية عامّة في كلّ من تعاطى الجدال ولا يرفع إلى علم برهان ولا نصفه وهذا ممّا لا يحتاج إلى الإستدلال لوضوحه وأمّا قوله: وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ أَي يَتَّبِعُهُ فِي جِدَالِهِ لَجْهَلِهِ قِيلَ الْمُرَادُ بِهِ هُوَ شَيْطَانُ الْجَنِّ وَقِيلَ الْمُرَادُ مَعْنَاهُ الْعَامُّ الشَّامِلُ لِشَيْطَانِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْمَرِيدُ بِفَتْحِ الْمِيمِ الْمُرْتَفِعُ الْأَمْلَسُ يُقَالُ صَخْرَةٌ مُرْدَاءٌ أَي مَلْسَاءٌ.

أقول: يظهر من قوله: كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ، معنى العامّ لدلالة لفظ الكلّ عليه وهو ظاهر على المتأمل.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ
قيل أي كتب في اللوح المحفوظ أنّ من تولى الشيطان وإتبعه وأطاعه فيما يدعوه إليه فإنه يضلّه و الظاهر أنّ الضمير في، عليه، عائدٌ على، من، لأنّه المحدث عنه و في، لأنّ، و تَوَلَّاهُ، و في، فإنّه، عائدٌ إليه أيضاً و قيل الضمير في، عليه، عائد على كلّ شيطانٍ مرید قاله قتادة وهذا هو الحقّ وذلك لأنّ معنى الآية أنّ من تولى الشيطان فإنّ الشيطان يضلّه و يهديه إلى عذاب السّعير مضافاً إلى أنّ عود الضمير على ما تأخر عنه لا يجوز إلا بضربٍ من التّأويل و في المقام لا مجوز له و أمّا عوده على ما تقدّم عليه فهو مطابق للأصل فالحقّ أنّه يرجع إلى قوله كلّ شيطانٍ مرید و المعنى كتب على الشيطان أنّه يضلّ من إتبعه و تَوَلَّاهُ و من كان كذلك ينبغي طرده و لعنه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنكُمْ مَّن يَتُوفَىٰ وَ مِنكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِّن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

في هذه الآية مسائل:

الأولى: أَنَّ الخطاب لجميع النَّاس من المؤمن والكافر والرجل والمرأة وذلك لأنَّ البعث لا يختص بقوم دون قوم:

قال الله تعالى: **وَ كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ** (١).

قال الله تعالى: **وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** (٢).

قال الله تعالى: **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا** (٣).

و غيرها من الآيات والعقل أيضاً يحكم به لوجود الملاك في الكل.

الثانية: قوله: **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ**، وهذا أيضاً مقطوع به وفيه إشارة إلى أَنَّ مَادَّةَ خلقته الأصليَّة هي التراب و من المعلوم أَنَّ هذا الحكم ثابت لجسده لا لروحه فإِنَّ الإنسان مركَّب من الرُّوح من عالم الملكوت والجسد من عالم الملك فقوله: **خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ** أي أجسادكم وقد مرَّ الكلام فيه في قصَّة آدم و حواء مفصلاً.

الثالثة: قوله: **مِنْ نُطْفَةٍ**، النطفة الماء الصافي و يعبر بها عن ماء الرجل و من المعلوم أَنَّ النطفة تحصل من الغذاء و الغذاء ينبت من التراب و الماء فكان أصلهم من التراب و إن شئت قلت المعنى خلقنا آدم من تراب الذي هو أصلكم و أنتم نسله فصحَّ أن يقال إِنَّا خلقناكم من تراب.

و قال قومٌ أراد بقوله: **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ** جميع الخلق من الإنسان و الحيوان و النَّبات و الجماد و هذا لا ينافي قوله يا أَيُّهَا النَّاس و ذلك لأنَّ ثبوت الشئ لشيء لا ينافي ثبوته لشيءٍ آخر و أنما خاطب النَّاس لأنَّ الشكَّ في البعث يحصل لهم لا لغيرهم و بعبارةٍ أخرى مورد البحث في البعث هو الإنسان و أمَّا قوله: **فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ** فلا يختص بهم بل هو ثابت لهم و لغيرهم و

كيف لا شك أن النطفة توجد من الغذاء وه من الماء و التراب فكان أصل جميع الخلق في الأرض من التراب و الماء أي من التراب و الماء الذي يعبر عنه بالنطفة.

الزابعة: قوله: **ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ** وهي القطعة من الدّم جامدة و أنما قال ذلك لأنّ النطفة تصير علقة فالخلق حصل من التراب أولاً و من النطفة ثانياً.

الخامسة: قوله: **ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ قِيلَ** وهي شبه قطعة من اللحم مضوغة و المضغة مقدار ما يمضغ من اللحم و فيه إشارة الى أنّ العلقة تصير مضغة و قوله: **مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** إشارة الى أنّ المضغة قد تكون تام الخلقة تكون ناقصاً و هذا مراد من فسّر المخلّقة و غيرها بتامة الخلق و غير تامة في معناه المصوّرة و غيرها أي أنّ المضغة قد تكون مستعدة لقبول الصوّرة و قد لا تكون و يعبر عنه بالسّقط هكذا قيل في تفسير الكلام و قيل المضغة اللّحمة الصّغيرة قدر ما يمضغ و المخلّقة المسوّاة الملساء السّالمة من النقصان و العيب وهي التي تمّت فيه أحوال الخلق و غير المخلّقة من لم تتمّ فكأنّه سبحانه قسمّ المضغة الى قسمين:

أحدهما: تامة الصّورة و الحّواس و التّخاطيط.

وثانيهما: الناقصة في هذه الأمور فيبين أنّ بعد أنّ صيره مضغة، منها خلقه إنساناً تاماً بلا نقص و منها ما ليس كذلك فكأنّ الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب و منها ما هو على العكس ذلك و لذلك نرى تفاوت الخلق في صورهم و طولهم و قصرهم و تمامهم و نقصانهم، و قيل المخلّقة الولد الذي يخرج حياً و غير حياً و غير المخلّقة السّقط.

و عن القفال أنّه قال التّخلّيق مأخوذٌ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار و توارد عليه الخلق لعد الخلق فذاك هو المخلّقت لتتابع الخلق عليه و الأقوال كثيرة جداً.

و عن الكافي بأسناده عن سلام بن المستنير قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ مخلَّقة و غير مخلَّقة، قال عليه السلام: المخلَّقة هم الذرَّ الذين خلقهم الله في صلب آدم عليه السلام أخذ عليهم الميثاق ثمَّ أجراهم في أصلاب الرِّجال و أرحام النِّساء و هم الذين يخرجون الى الدُّنيا حتَّى يسألوا عن الميثاق.

و أمَّا قوله: **غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ** فهم كلُّ نسمةٍ لم يخلقهم الله تعالى في صلب آدم حين خلق الذرَّ و أخذ عليهم الميثاق و هم النُّطف من العزل و السُّقط قبل أن ينفخ فيه الرُّوح و الحياة و البقاء إنتهى.

و عن قرب الأسناد للحميري بأسناده عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: سألته أن يدعوا الله عزَّ وجلَّ لأمرأةٍ من أهلنا لها حملٌ فقال عليه السلام قال أبو جعفر عليه السلام الدعاء ما لم تمض أربعة أشهر فقلت له أنما لها أقلُّ من هذا فدعا لها ثمَّ قال **أَنَّ النُّطفة** تكون في الرِّحم ثلاثين يوماً و يكون علقه ثلاثين يوماً و يكون مضغة ثلاثين يوماً و يكون مخلَّقة و غير مخلَّقة ثلاثين يوماً فإذا تمَّت الأربعة أشهر بعث الله تبارك و تعالى إليها ملكين خلَّاقين يصوِّرانه و يكتبان رزقه و أجله و شقيتاً أو سعيداً إنتهى^(١).

أقول: و الذي يظهر لنا من الأخبار و الأقوال الواردة في الباب مضافاً الى الأدلَّة العقلية هو أنَّ التَّخْلِيْق لا يصدق إلا بعد نفخ الرُّوح في المضغة ضرورة أنَّها قبله ليست إلا قطعة من اللحم و على هذا فالمخلَّقة هي الحيَّة المخلَّقة هي التي لم تلج الرُّوح فيه و بقي على كونه مضغة فهي تسقط لا محالة و أنما قلنا ذلك لأنَّ الخلق عبارة عن الإيجاد و إن شئت توضيح ذلك فنقول الخلق أصله التَّقْدِير المستقيم و هو على ضربين: إبداعيٌّ و غير إبداعيٍّ.

فالإبداعي عبارة عن إبداع الشيء من غير أصلٍ ولا إحتذاء كما قال تعالى:
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَي أَبْدَعَهُمَا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: **بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.**

والثاني: يقال لإيجاد الشيء من الشيء:

قال الله تعالى: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** (١).

قال الله تعالى: **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ** (٢).

قال الله تعالى: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ** (٣).

قال الله تعالى: **وَخَلَقَ أَلْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ** (٤) وغيرها منها.

ثم أنّ الخلق الإبداعي ليس إلا لله تعالى ولهذا قال في الفصل بينه تعالى و بين غيره: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** (٥) أي أفمن يخلق على سبيل الإبداع وهو الله تعالى كمن لا يخلق كذلك ولا يقدر عليه إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ الخلق معناه الإيجاد سواء كان على سبيل الإبداع أم غيره من إيجاد الشيء عن الشيء وإذا كان كذلك فالمخلقة عبارة عن الموجودة ولا تكون موجودة إلا بنفخ الروح فيها وغير المخلقة عبارة عما لم يوجد وبقي على ما كان عليه فتفسير المخلقة بتأم الخلقه وغيرها بناقص لا معنى له فأنّ الناقص أيضاً مخلقة أي موجودة وعلى هذا فيصير معنى الكلام أنّ المضغعة تارة تصير إنساناً موجوداً في عالم الرّحم وتارة لا تكون كذلك أي لا تصير موجوداً بل تسقط قبل ذلك.

السادسة: قوله: **لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَيْهِ أَجَلٍ**

مُسَمَّيَ قيل في معناه أي لنذلكم على مقدورنا بتصريفه في ضروب الخلق و نصره الى وقت تمامه، فعلى هذا قوله، لنبيّن لكم، متعلّق بخلقناكم أي خلقناكم كذلك لنذلكم على مقدورنا وهذا هو الذي اختاره الجمهور من المفسرين.

٢- النحل = ٤

٤- الرحمن = ١٥

١- النساء = ١

٣- المؤمنون = ١٢

٥- النحل = ١٧

و قيل أنه متعلق بالبعث أي لنبيين لكم أمر البعث، و رده ابن عطية بأنه اعتراض بين الكلامين و قال الكرابي معناه، لنبيين لكم رشدكم و ضلالكم، و قيل لنبيين لكم أن التخليق هو إختيار من الفاعل المختار و لولاه ما صار بعضه غير مخلوق و غير ذلك من الأقوال و المختار هو القول الأول.

و على هذا فقوله: **و تَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَيَّ أَجَلٌ مُّسَمًّى** مستأنف و لذلك رفع فمن قرأه بالنصب عطفاً على، لنبيين، لا معنى له كما لا يخفى على المتأمل فهو أي قوله، و تقر في الأرحام أول الكلام و معناه و نبت في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى أي مدة مضروبة.

قال صاحب الكشاف هو وقت الوضع و ما لم يشاء إقراره محبة الأرحام أو أسقطته و قال بعض المفسرين أن القراءة بالنصب تعليل معطوف على تعليل و المعنى خلقناكم مدرجين هذا التدرج لغرضين:

أحدهما: أن نبين قدرتنا.

الثاني: أن تقر في الأرحام من نقر حتى يولدوا و ينشؤوا و يبلغوا حد التكليف، فأكلهم و يعضده هذه القراءة قوله: **ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ** إنتهى. أقول: هذا أيضاً مردودٌ فإنه من قبيل الأكل من القفا، و الآية لا تحتاج إلى هذه التكلفات.

السابعة: قوله: **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ**، يعني نخرجكم من بطون أمهاتكم بعد طي المراحل المذكور من النطفة و العلقة و المضغة و أنتم أطفال، و الطفل بكسر الطاء الصغير من الناس و نصب طفلاً، على المصدر و هو في موضع جمع و قيل نصب على التمييز و تقديره نخرجكم أطفالاً و قيل الطفل قبل مقاربة البلوغ و قوله: **لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ**، يعني وقت كمال عقولكم و تمام خلقكم و قيل وقت الإحتلام و البلوغ.

قال الزمخشري، الأشد كمال القوة و العقل و التمييز و هو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد.

الثامنة: قوله: **وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** أي ومنكم من يتوفى قبل بلوغ الأشد قبل أن يبلغ أردل العمر ومنكم من يرد إلى أردل العمر، قيل معناه أهونه وأخسه عند أهله، وقيل أحقره وقيل هو حال الخرف، وأما قيل أردل العمر لأن الإنسان لا يرجو بعده صحة وقوة وأما يترب الموت والفناء بخلاف حال الطفولية والضعف الذي يرجوا معها الكما والتمام والقوة فلذلك كان أردل العمر قاله في التبيان.

قال الراغب في المفردات الرذل والرذال المرغوب عنه لردائته قال تعالى: **وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ** إنتهى.

فعلى هذا معنى الكلام وانكم من يرد الى حالة يرغب عنها كإحناء القامة وقبح المنظر وتقل السامعة وعدم القدرة في جميع الأعضاء، وقيل معناه أنه يصير كما كان أول الطفولية ضعيف البنية سخي العقل قليل الفهم لا يقدر على القيام والعود بسهولة ولا زمان لذلك محدود بل ذلك بحسب ما يقع في الناس وقد ترى من قارب المائة سنًا أو بلغها وهو مع ذلك في غاية جودة الذهن والإدراك مع قوة ونشاط ونرى من هو في سن الإكهال وقد ضعفت بنيته وقوله: **لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** لكيلا يتعلّق بقوله: **يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ** لكيلا يعقل من عقله الأول شيئًا. وقيل لكيلا يستفيد علماً وينسى ما علمه.

وقال الرازي المراد أنه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيئاً لأن مثل ذلك قد يذكر.

في النفي لأجل المبالغة إنتهى.

أقول: الذي يخطر بالبال في معنى الكلام هو أن السهو والنسيان والخطأ في الكلام، وأمثال ذلك من العوارض تغلب عليه وهذا معنى قوله: **لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** أي يعلم ثم ينسى كأنه لم يعلم فإذا قيل له مثلاً: أنك

قلت كذا وكذا يقول ما قلت ذلك و يحتمل أن يكون المراد أنه يصير جاهلاً بعد كونه و قد رأينا بعض العلماء في أواخر عمره أنه إعترف بأنه لا يعلم شيئاً أعادنا الله منه.

و لكن حمل الآية على هذا المعنى بعيدٌ إذ قلماً يتفق ذلك.

و أمّا المعنى الأول و هو غلبة النسيان فليس كذلك.

التاسعة: قوله: **وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** إعلم إن هذا أعني قوله: **وَ تَرَى الْأَرْضَ الْخ.**

هو الدليل الثاني الذي تضمنته الآية على صحة البعث فكأنه سبحانه و

تعالى أثبت البعث بدليلين:

أحدهما: من طريق الحيوان و تطوّراته في الخلق و قد مرّ الكلام فيه.

ثانيهما: من طريق الأرض و ما ينبت فيها، و لما كان الدليل الأول بعض مراتب الخلق فيه غير مرئيين قال تعالى: **إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ كَذَا** وكذا فلم يحل في جميع مراتبه على الرؤية.

و أمّا الدليل الثاني فلما كان مشاهداً للإبصار لأنّ الأرض و ما ينبت فيها من المحسوسات أحال ذلك على الرؤية، فقال في الأول، **خَلَقْنَاكُمْ**، و في الثاني و ترى الأرض أي أن لا تقدر على التّعقل في خلقه الحيوان من نشأته و تطوّراته فأنظر الى الأرض فأنها محسوسة و هي لا تقبل الإنكار إذا عرفت هذا فنقول قوله: **وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً**، أي دراسة دائرة يابسة يقال همد يهمد هموداً إذا درسه و دثّره و يعبر عنها بالأرض الميتة التي لا حياة لها، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت أي تحرّكت في الجهات بشدّة، و ربت، أي تزيد بما يخرج منها من التّبات، و أنبتت، يعني الأرض، من كلّ زوج بهيج، أي حسن الصّورة الذي يمتنع في الرؤية ولنعم ما قيل.

تَفَكَّر في نبات الأرض و أنظر
 ففي رأس الزَّبْرَجْد شاهداتُ
 الى آثار ما صنع الملك
 بأنَّ الله ليس له شريكُ

و لأجل ذلك قال تعالى و ترى الأرض أيها السَّامِع أو المجادل في البعث
 هامة أي ميتة لا نبات فيها فإذا أنزلنا عليها الماء أي ماء المطر و الأنهار و
 العيون، إهتزت أي تخلخلت و اضطربت لأجل خروج النِّبات و ربت أي
 زادت و إنتفخت و أنبتت من كلِّ زوج بهيج و حاصل الكلام أن الذي ذكرنا من
 خلق بني آدم و تطوَّروهم في تلك المراتب و من إحياء الأرض عبرة لمن إعتبر
 به و دليل على أنه تعالى هو القادر على إحياء الموتى و على كلِّ مقدورٍ و قد
 وعد بالبعث و هو قادرٌ عليه لأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير هذا تمام الكلام في الآية.
 إن قلت: كيف تكون الآية دالة على البعث و هو إحياء الموتى و ليس فيما
 ذكره في الآية دليلٌ عليه ظاهراً.

قلت: صيرورة الغذاء الحاصل من التُّراب نطفة و النُّطفة علقه و العلقه مضغة
 هي بعينها الإماتة و الإحياء لأنَّ النُّطفة مثلاً ما دام كونها نطفة لا تصير علقه و
 بعبارة أخرى صيرورة النُّطفة علقه معناها موت النُّطفة و إحياء العلقه فحياة
 العلقه تتوقف على فوت النُّطفة كما أن حياة المضغة بعد موت العلقه و هكذا
 و من المعلوم أن المحيي و المميت في جميع المراتب هو الله تعالى و هكذا
 الكلام في الأرض و محصل الكلام هو أن البعث عبارة عن الإحياء بعد الموت و
 هذا سارٍ في جميع مراتب الإنسان و الأرض فإذا كان كذلك فلامجال للعاقل إنكار
 البعث يعني الإحياء بعد الإماتة بعد التأمّل في الآية و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

از جمادی مردم و نامی شدم
 مردم از حیوانی و آدم شدم
 بار دیگر من بمیرم از بشر
 بار دیگر از ملک پران شوم
 پس عدم چون ارغنون
 از جمادی مردم و نامی شدم
 مردم از حیوانی و آدم شدم
 بار دیگر من در آرم بال و پر
 آنچه آندر وهم ناید آن شوم
 پس عدم چون ارغنون
 از جمادی مردم و نامی شدم
 مردم از حیوانی و آدم شدم
 بار دیگر من در آرم بال و پر
 آنچه آندر وهم ناید آن شوم
 پس عدم چون ارغنون

بل الإنسان في كل لحظة يموت ويحیی كما هو شأن الحارث فأَنَّ الحارث لا يبقى على حالة واحدة في زمانين وللبحث فيه مقام آخر وسيأتي تفصيل الكلام في البعث والمعاد في المستقبل إن شاء الله.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
أَيُّ أَنَّ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ تَطَوُّرَاتِ الْإِنْسَانِ فِي عَالَمِ الرَّحْمِ وَ
إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِسَبَبِ الْمَاءِ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْحَقِيقَ بِالْعِبَادَةِ وَ
أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَمَّا أَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْحَقُّ لِأَنَّ الْحَقَّ يُقَالُ لِلْمَوْجُودِ الَّذِي لَا
سَبِيلَ لِلْبَطْلَانِ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ الْحَقُّ يُقَالُ لِمَوْجِدِ الشَّيْءِ بِسَبَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ
تَعَالَىٰ حَقٌّ لِأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلْعِبَادَةِ وَحَقٌّ لِأَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْبَطْلَانِ إِلَيْهِ، وَحَقٌّ لِأَنَّهُ
الْمَوْجُودُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ، وَحَقٌّ لِأَنَّهُ مَوْجِدُ الْأَشْيَاءِ بِسَبَبِ مَا تَقْتَضِيهِ
الْحِكْمَةُ بَلِ الْحَقُّ الْمَطْلُوقُ لَيْسَ إِلَّا هُوَ وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ عَاطِلٌ.

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ
وَلِذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَذِكْرُكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: هُنَالِكَ أَوْلَايَةٌ لِلَّهِ الْحَقِّ^(٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ^(٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ
الْبَاطِلُ^(٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ^(٥) وَالْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

٢- الكهف = ٢٤

٤- الحج = ٤٢

١- يونس = ٣٢

٣- طه = ١١٤

٥- التور = ٢٥

فإذا كان الله تعالى هو الحقّ بقولٍ مطلقٍ فقولهُ و فعلهُ أيضاً حقٌّ لأنَّ الحقَّ لا يقول ولا يفعل إلا حقاً:

قال الله تعالى: **وَأَلَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** (١).

قال الله تعالى: **وَلِنَعْلَمَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا** (٢).

قال الله تعالى: **مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا**

بِالْحَقِّ (٣).

وأما أنه يحيي الموتى، فهو مورد البحث و يدلّ عليه عموم قدرته كما قال أنه على كلّ شيءٍ قدير، فكأنه تعالى أثبت إحياء الموتى بعموم قدرته و كيفية الإستدلال أنه أمّا يقدر على إحياء الموتى أو لا يقدر فإن كان قادراً على إحياء الموتى فهو المطلوب و إن لم يقدر فأما أن يكون عدم القدرة مسبباً عن ضعفه و عجزه فالضعيف و العاجز لا يكون موجداً و خالقاً و مع ذلك هو مخالف لعموم قدرته و قد ثبت عقلاً و نقلاً.

و أما أن يكون عدم القدرة مستنداً بوجود المانع و في هذه الصورة أمّا أن يقدر على دفع المانع و رفعه أو لا يقدر فإن لم يقدر فيعود الضعف و العجز خلاف الفرض فثبت أنه تعالى قادرٌ على إحياء الموتى كما أنه قادرٌ على إيجادهم فإنّ الإحياء ليس بأصعب من الإيجاد أوّلاً بل هو أسهل منه لأنّ الإيجاد على سبيل الإبداع أي أنه أوجد الأشياء لا من مادّة و الإحياء هو الإيجاد ثانياً من مادّة، و ذلك لأنّ المادّة الأصليّة باقية في الموتى و لأجل ذلك.

بِسْمِ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ
المراد بالساعة القيامة، بعد ما ثبت عموم القدرة بقوله: **وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** قال و أنّ الساعة آتية، كما هو مقتضى عموم قدرته و أمّا قوله: **لَا**

٢- سورة القصص = ١٣

١- الأحزاب = ٤

٣- الزّوم = ٨

رَيْبٍ فِيهَا فَالرَّيْبُ هُوَ أَقْبَحُ الشَّكِّ أَيْ أَنَّ الشَّكَّ فِي السَّاعَةِ لِلْعَاقِلِ قَبِيحٌ.
 أَنْ قَلَّتْ كَيْفَ نَفَى الرَّيْبَ عَنِ السَّاعَةِ وَ قَدْ أَنْكَرَهَا أَكْثَرُ النَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ.
 قَلَّتْ نَفَى الرَّيْبَ عَنْهَا فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسُ الْأَمْرِ أَيْ لَا رَيْبَ فِيهَا وَاقِعًا وَ أَنْ
 أَنْكَرَهُ ظَاهِرًا لِأَنَّ إِنْكَارَ الشَّيْءِ ظَاهِرًا لَا يَنَافِي ثُبُوتَهُ وَاقِعًا وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْكَارَ قَدْ
 يَكُونُ مُسْتَنْدَأً إِلَى عَدَمِ التَّأَمُّلِ وَ التَّقْدِيرِ وَ قَدْ يَكُونُ مُسْتَنْدَأً إِلَى الْجَهْلِ يَكُونُ
 مُسْتَنْدَأً إِلَى غَيْرِهِمَا مِنَ الدَّوَاعِي كَالْعِنَادِ وَ الْكُفْرِ وَ الْبَغْيِ وَ حُبِّ الدُّنْيَا وَ
 زَخَارِفِهَا أَلَا تَرَى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَ مَعَ ذَلِكَ يَنْكُرُونَهُ ظَاهِرًا،
 قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَا وَ اللَّهُ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا إِبْنُ أَبِي قَحَافَةَ وَ أَنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ
 مَحَلِّيَّ مِنْهَا مَحَلَّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَ لَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ الْخِ.
 وَ قَدْ أَشْبَعْنَا الْكَلَامَ فِيهِ فِي شَرْحِنَا عَلَى نَهْجِ الْبَلَاغَةِ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ وَ
 هَكَذَا كَانَ عَمْرٌ وَ عُثْمَانُ وَ مَعَاوِيَةُ وَ غَيْرُهُمْ مَمَّنْ خَالَفُوهُ وَ غَضِبُوا حَقَّهُ وَ هَذَا
 أَوَّلُ قَارُورَةٍ كَسَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ وَ نِظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَ زَمَانٍ وَ لَا يَحْتَاجُ
 ذَلِكَ الْإِتْبَاتَ لَوْضُوحِهِ عَلَى مَنْ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ وَ يَكْفِيكَ فِي هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى
 حَيْثُ قَالَ:

الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ
 لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ^(١).

قال الله تعالى: الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٢).

قال الله تعالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمْ
 الْكَافِرُونَ^(٣).

وَ أَمَا قَوْلُهُ: وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ وَ هُوَ مِنْ تَمَّةِ الْكَلَامِ وَ
 تَخْصِيسِ الْبَعْثِ بِمَنْ فِي الْقُبُورِ، يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْبَعْثَ مُخْتَصَّ

بالإنسان لأنه يجعل بعد الموت في القبر و يدفن فيه و أمّا غيره من الحيوانات فلا يدفن في القبر، و يحتمل أن يكون الوجه فيه هو أنّ البحث في بعث الإنسان في هذا المقام و من المعلوم أنّ إثبات الشئ لا ينافي إثباته فيما عداه و ستكلم في هذا الباب فيما يأتي عند قوله تعالى و إذا الوحوش حشرت.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ
 أعلم أنّ هذه الآية قد مرّت سابقاً في أوائل السّورة إلاّ أنّه تعالى قال هناك و يتّبع كلّ شيطانٍ مريد، و قال هاهنا و لا هدى و لا كتابٍ منير، و المقصود في كليهما هو الذّم للمجادل بغير علم و أمّا الجدل مع العلم فلا ذمّ فيه بدلالة المفهوم و أنّ الجدل بالعلم يدعو إلى اعتقاد الحقّ و إليه الإشارة بقوله تعالى:
 وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ^(١).

أنّ بعض المفسّرين فرّق بينهما بأنّ الآية الأولى واردة في إتباع المقلّدين و هذه الآية وردت في المتبوعين المقلّدين فإنّ كلا المجادلين جادل بغير علم و إن كان أحدهما تبعاً و الآخر متبوعاً و بيّن ذلك قوله: وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ فإنّ مثل ذلك لا يقال للمقلّد و أمّا يقال فيمن يخاصم بناءً على شبهةٍ إنتهى.

و قال بعضهم في الفرق أنّ الأولى نزلت في النّضر بن الحرث و هذه الآية في أبي جهل، و قيل فائدة التّكرير المبالغة في الذّم عن الجدل بغير علم، و قوله: وَ لَا هُدًى، أي و لا حجّة، و لا كتابٍ منير، أي و لا حجّة كتابٍ ظاهر هكذا قيل في تفسير الكلام و لا مشاحة فيه فإنّ المعنى واضح لا خفاء فيه.

ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ

ثاني عطفه نصب على الحال يعني أَنَّ المجدال بغير علمٍ يشني عطفه أي يلوي عنقه كبراً.

قيل إنَّها نزلت في النَّضر بن الحارث بن كلدة وقوله: لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ معناه أَنَّهُ يجادل لأجل الإضلال عن طريق الحقِّ المؤدِّي إلى توحيد الله ثمَّ أشار الله تعالى إلى عقابه فقال، له خزيٌّ في الدُّنيا قيل المراد بالخزي ما لحقه يوم بدر من الأسر و القتل و الهزيمة و قد أسر النَّضر فيه و قوله و نذيقه يوم القيامة عذاب الحريق أي العذاب الَّذي يحرق بالنار و قيل الحريق طبقة من طباق جهنَّم، و قد يكون من إضافة الموصوف إلى صفته أي العذاب الحريق أي المحرق كالسَّميع بمعنى المسموع و هو كما ترى.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ

أي يقول الله عند نزول العذاب به، ذلك، أي ذلك العذاب بسبب ما قدَّمت يداك و أَنَّ الله ليس بظلامٍ للعبيد، أي ما ظلمناك و لكنك ظلمت نفسك و عدوت طورك و حدك.



وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ
 خَيْرٌ أطمأنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى
 وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ
 الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ
 مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا
 لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَ لَيْسَ
 الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ
 اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ
 اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
 السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا
 يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ
 اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ
 الَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ
 وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ
 أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي
 الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ
 وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ
 عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ
 إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) هَذَا خِطْمَانِ اخْتَصَمُوا
 فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ

نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ
بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (٢٠) وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ
مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا
مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)

◀ اللُّغَةُ

أَلْعَشِيرُ: الصَّاحِبُ الْمَخَالِطُ وَ الْمَعَاشِرُ وَ قِيلَ الْمَرَادُ بِهِ ابْنُ الْعَمِّ.
يَغِيظُ: الْغَيْظُ الْغَضَبُ.

أَلصَّابِينَ: قَوْمٌ كَانُوا عَلَى دِينِ نُوْحٍ، وَ قِيلَ لِكُلِّ خَارِجٍ مِنَ الدِّينِ إِلَى دِينٍ
آخَرَ صَابِيٍّ مِنْ قَوْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ صَبَأَ نَابَ الْبَعِيرِ إِذَا طَلَعَ.
مَقَامِعٌ: جَمْعُ مَقْمَعَةٍ وَ هِيَ مَدَقَةُ الرَّأْسِ وَ بَاقِي اللَّغَاتُ وَاضِحٌ.

◀ الإِعْرَابُ

عَلَى حَرْفٍ هُوَ حَالٌ أَيْ مُضْطَرَباً مُتْرَلِزاً خَسِرَ الدُّنْيَا هُوَ أَيْضاً حَالٌ أَيْ
إِنْقَلَبَ قَدْ خَسِرَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفاً وَ يَقْرَأُ خَاسِرَ الدُّنْيَا مَنْ كَانَ هُوَ شَرْطٌ وَ
الْجَوَابُ فَلْيَمْدُدْ يُصَبُّ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ خَبِراً ثَانِياً وَ أَنْ تَكُونَ
حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي، لَهُمْ، وَ يُصْهِرُ بِالْتَّخْفِيفِ وَ قَرِيٍّ بِالتَّشْدِيدِ لِلتَّكْثِيرِ وَ الْجُمْلَةُ
حَالٌ مِنَ الْحَمِيمِ كُلَّمَا الْعَامِلُ فِيهَا، أُعِيدُوا مِنْ غَمٍّ بَدَلَ بَاعَادَةِ الْخَافِضِ بَدَلَ
الْإِشْتِمَالِ وَ ذُوقُوا أَيْ وَ قِيلَ لَهُمْ فَحَذَفَ الْقَوْلُ.

◀ التَّفْسِيرُ

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ
إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ

كلمة، من، للتَّبَعِضُ أي بعض النَّاسِ كذلك و قوله من يعبد الله على حرفٍ، اختلفوا في معناه فقيل هو المنافق يعبده بلسانه دون قلبه.
 و قال ابن عيسى على ضعف يقين، و قال أبو عبيد على شك و قال ابن عطية على حرفٍ، أي على إنحرافٍ منه عن العقيدة البيضاء.
 و قال الزَّمخشرى على حرفٍ، أي على طرفٍ من الدين لا في وسطه و قلبه و هذا مثل لكونهم على قَلْبٍ و اضطرابٍ في دينهم لا على سكونٍ و طمأنينةٍ كالذي يكون على طرفٍ من العسكر فأن أحسَّ بظفرٍ و غنيمة، قرَّ و اطمأن و إلا فرَّ و طار على وجهه إنتهى.

أقول: ما ذكروه لا بأس به لأنهم فهموا من الكلام بقدر إستعدادهم و الحق أنه أي كلمة الحرف كناية عن عدم المعرفة أي أنهم يعبدونه و لا يعرفونه، فأن أصابه خيرٌ اطمأن به، أي يصير مطمئناً و أن أصابته فتنة أي محنة بضيق المعيشة و تعذر المراد من أمور الدنيا إنقلب على وجهه خسر الدنيا و الآخرة و ذلك أي خسرانهما معاً هو الخسران المبين الذي لا خفاء فيه.
 إن قلت: كيف يدل هذا على أنه يعبد الله على حرفٍ.

قلت: لأنه لو كان عارفاً بالله كان راضياً بقضائه و قدره و إذ ليس فليس كان كذلك فهو يعبد الله على حرفٍ أي لا يدري من يعبد واقعاً و لذلك.

يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ
 قيل المراد بقوله من دون الله، الأصنام و الأوثان لأنها جماد لا تُصْر و لا تنفع.

إن قلت: كيف يقال لا يضره و لا ينفعه مع أن الضرر ثابت قطعاً.
 قلت: معناه لا يضره ترك عبادته و لا ينفعه فعل العبادة أي أن الأوثان الأصنام لا تقدر على الإضرار و النفع لأنها جماد و ما كان كذلك فهو لا يستحق العبادة.

يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْسِ الْمَوْلَى وَ لِبَيْسِ الْعَشِيرِ
قال الزمخشري فأن قلت، الضرر والنفع متفیان عن الأصنام مثبتان لها في
الآيتين وهذا تناقض.

قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك أن الله تعالى سَفَّهُ الكافر
بأنه يعبد الجماد وهو لا يملك نفعاً ولا ضرراً وهو يعتقد فيه بجهله و ضلاله أنه
يستنفع به حين يستشفع به ثم قال يو ما لقيامه هذا الكافر بدعاء و صراخ حين
يرى إستضراره بالأصنام و دخوله النار بعبادتها و لا يرى أثر الشفاعة التي
إدعاهلها، لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى و لبئس العشير، أو كرر يدعو
كأنه قال يدعو من دون الله ما لا يضره و ما لا ينفعه ثم قال لمن ضره، بكونه
معبوداً له أقرب من نفعه بكونه شفيعاً لبئس المولى و في حرف عبد الله من
ضره بغير لام، المولى الناصر و العشير الصاحب كقوله فبئس القرين إنتهى
كلامه بألفاظه و عباراته.

أقول: يظهر من كلامه أنه جعل المدعو في الآيتين الأصنام و أزال التعارض
بإختلاف القائلين بالجملة الأولى من قول الله تعالى إخباراً عن الأصنام و
الجملة الثانية من كلام عباد الأصنام يقولون ذلك في الآخرة و حكى الله عنهم
ذلك و أنهم أثبتوا ضرراً بكونهم عبده و أثبتوا نفعاً بكونهم إعتقدوه شفيعاً
فالتأني هناك غير المثبت فزال التعارض على زعمه، و الذي نقول أن الصنم
ليس له نفع أصلاً حتى يقال ضره أقرب من نفعه فما ذكره في الجواب لا يرجع
إلى محصل و الحق في الجواب.

أنه لا تعارض في الآيتين أصلاً حتى نحتاج إلى الجواب و ذلك لتغاير
الموضوعين في الآيتين ألم يعلم الزمخشري أن التناقض لا يتحقق إلا في
موضوع واحد و أما إذا كان التنافي في الحكم في موضوعين فلا يصدق
التناقض كما يقال زيد قائم و عمر و ليس بقائم فالحكمان أعني القيام و عدمه

متناقضان في الواقع إلا أن في الكلام لا يتحقق التناقض لإختلاف الموضوع فإنَّ الموضوع في الحكم بالقيام هو زيد و في عدم القيام هو عمر و فلا تناقض أصلاً نعم يتحقق التناقض إذا قلنا زيدٌ قائمٌ و ليس بقائمٌ و إلى هذا المعنى أشار علماء المنطق و الفلسفة في المتناقضين و إتفقوا عليه و لم يختلف فيه أحد و شروط التناقض ثمانية منها وحدة الموضوع و هي أصلها و أساسها و بعدها وحدة المحمول و بعدها وحدة المكان و هكذا فإذا قلنا زيدٌ قائمٌ و زيدٌ ليس بنائمٌ ليس من التناقض لإختلاف المحمول و إن قلنا زيدٌ قائمٌ في الدار و زيدٌ ليس بقائمٌ في السوق ليس من التناقض لإختلاف المكان و هكذا بقيّة الشروط و ينبغي للزّمخشري أن لا يذكر الإشكال حتّى يحتاج إلى الجواب و ذلك لأنّه من علماء الأدب و المعاني و البيان و قوله فيها حجّة و ليس من علماء المنطق و الفلسفة بل هو أجنبى عن علوم العقلية بالكلية و ما أوجب للمرء أن يدخل فيما لا علم له به إذا عرفت هذا فنقول:

لا تناقض أصلاً و ذلك لأنَّ الموضوع في إحداهما غيره في الأخرى فلا يصدق التناقض و توضيحه أن الحكم في الآية و هي قوله: **يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ** ثابت لغير ذوي العقول أعني به الأصنام و الأوثان فحكم الله تعالى في الآية بأنها لا تضرّ و لا تنفع بل وجودها كالعدم لأنها لا تقدر على إيصال النفع و الضر إلى من عبدها لكونها جماداً لا قدرة لها و هو واضحٌ و هذا بخلاف الآية الثانية و هي قوله، يدعو لمن ضرّه أقرب من نفعه فإنَّ الحكم ثابت لذوي العقول و من المعلوم أنّ المعبود إذا كان من ذوي العقول مثل فرعون و نمرود و غيرهما فقد يتّصور لعبادتهم و أخذهم من المعبودين نفعٌ ما في الدنيا من الدرهم و الدينار و المقام و أمثالها من الحطام الدنيوية إلا أنّ هذا النفع القليل الحقيق لا يعبأ به في جنب الضرر الكثير في الدارين لأنَّ متاع الدنيا قليل و مع ذلك في معرض الفناء بخلاف الضرر

المترتب على عبادتهم فأنه يوجب الخلود في نار جهنم والعاقلة لا يختار القليل الفاني على الدائم الباقي وهذا معنى ضره أقرب من نفعه وإنما قلنا ذلك، لأن كلمة (ما) تستعمل لغير ذوي العقول، وكلمة، (من) تستعمل لذوي العقول وملخص الكلام أن الذي إتخذوه معبوداً لا يخلو من قسمين: قسم من غير ذوي العقول كأصنام والأوثان.

وقسم من ذوي العقول كالإنسان، أما الأول فلا يضّر ولا ينفع أصلاً واضح، وأما الثاني وأن كان له نفع ما في الدنيا إلا هذا النفع في مقابل الضرر الكثير ليس بشيء لأن عبادة المخلوق لمخلوق آخر مثله توجب خسران الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ومعنى كونه أقرب أي أقرب إلى الإحطاط والسقوط من مقام الإنسانية هذا ما فهمناه من الآيتين والله أعلم ولعل الله تعالى أشار بذلك حيث قال في الآية **لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَ لَيْسَ الْعَشِيرُ** أي الصاحب أي ما أتخذوه معبوداً من الإنس وزعموا أنه مولاهم وصاحبهم ليس كذلك فإنه بئس المولى وبئس الصاحب لهم، ولم يذكر ذلك في الآية الأولى إذ لا يصدق على الصنم والوثن وغيرهما من الجمادات المولى والصاحب فتأمل في المقام لعلك تفهم من كلام الله غير ما ذكرناه وفهمناه.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ

أي أن الله تعالى يدخل الجنة من آمن به وعمل صالحاً وفيه إشارة إلى أن مجرد الاعتقاد لا يكفي بل لا بد معه من العمل بالإيمان لا يتحقق بدون العمل كما هو الحق عندنا تبعاً لأهل البيت عليهم السلام وخلافاً للعامة القائلين بأن الإيمان الذي يوجب الدخول إلى الجنة هو الاعتقاد فقط والدليل على صحة ما ذكرناه وإخترناه هو أن الآثار تترتب على الوجود الخارجي لا الذهني والإعتقاد بدون العمل لا وجود له في الخارج فلا أثر له أصلاً، هذا وأما قوله: **إِنَّ**

اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ معناه أنه تعالى فعّال لما يشاء ولا يقدر أحد على منعه عما أراد وهو كذلك ولا خلاف فيه.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ

اختلف المفسرون في مرجع الضمير من (ينصره الله) على أقوال: أحدها: أن مرجعه النبي ﷺ والمعنى من كان يظن أن الله لا ينصر نبيه يعينه على عدوه و يظهر دينه فليمت غيظاً. ثانيها: أنه يرجع الى (من) في قوله: مَنْ كَانَ يَظُنُّ، وعليه فالمعنى أن من ظن أن لا ينصره الله، أي لا يرزقه الله قاله ابن عباس.

الثالث: أنه عائد على الدين والإسلام، و، ما، في ما يغيب بمعنى الذي والعائد محذوف، أو مصدرية فهذه هي الأقوال في الآية وأحسن الأقوال أوسطها وهو أنه عائد على، من، وذلك لأن النبي والدين والإسلام لم يذكر فيما تقدم حتى يصح عود الضمير إليه والمذكور هو، من، فعود الضمير إليه أولى من عوده إلى غير المذكور وعلي هذا فالمعنى من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فيغتاز لإنتفاء نصره فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع الحبل فلينظر هل يذهب كيده، ما يغيب، قيل المراد بالسماء سقف البيت، والسبب الحب، وقيل السماء سماء الدنيا والسبب الوحي إلى النبي، ثم ليقطع الوحي عن النبي والمعنى من ظن أن لا يرزقه الله على وجه السخط لما أعطى فليمدد بحبل إلى سماء بيته واصفأ له في حلقه وعلى طريق كيد نفسه ليذهب غيظه به وهذا مثل ضربه الله لهذا الجاهل والمعنى مثله مثل من فعل بنفسه هذا فما كان إلا زائداً في بلاءه.

وقال الزمخشري والمعنى أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة فمن كان يظن من حاسديه وأعدائه أن الله يفعل خلاف ذلك ويطمع فيه ويغيبه أنه

يظفر بمطلوبه فليقتص وسعه و ليتفرع مجهوده في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدَّ حبلاً إلى سماء بيته فإخنتق فليظنوا و يَصُور في نفسه أنه أن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه و ساق الكلام إلى أن قال و قيل فليمدد بحبلٍ إلى السماء المظلة و ليصعد عليه فليقطع الوحي أن ينزل عليه إنتهى.

أقول: و قد أكثروا الكلام حول الآية في تفاسيرهم و الذي نفهم من الآية شيءٍ آخر و هو أن الله تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فقد ينصر و قد لا ينصر فإن إقتضت المصلحة ينصر و إلا فلا فليس فعل الله موافقاً لميل العبد في جميع الموارد و تابعاً له فمن يفتاظ في صورة عدم نصرة الله إياه أو يظن أن لن ينصره الله و يفتاظ لذلك فليمدد بسببٍ إلى السماء ثم ليقطع السبب أي يختنق فليظن هل يذهب كيده ما يغيظ أي فليظن أن هذا الفعل هل يذهب غيظه و المقصود أنه باقٍ على غيظه فعل ذلك أو لا يفعل هذا على المختار من أن مرجع الضمير هو المذكور أعني به، من، و أما على مسلك القوم من رجوعه إلى النبي فالمعنى ما ذكره كما إختاره صاحب الكشاف.

وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ أَنْ أَلَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ

الظاهر أن الضمير في أنزلناه، عائد على القرآن و هذا ممّا لا خلاف فيه فإن إنزال الآيات في القرآن و البيّنات الواضحات و قوله و أن الله يهدي من يريد، معناه واضح فإن الله تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً هياً له أسبابه لأنه على كل شيءٍ قدير.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسَ وَ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ

الفصل هو التمييز بين الحقّ والباطل وإظهار أحدهما من الآخر والمعنى أنّ الله يفصل بين الخصوم في الدين يوم القيامة والمراد بقوله، هادوا، اليهود، وبالصّابئين، عبدة الكواكب، وقيل المراد بهم من كان على دين نوح، و بالتصاري أتباع عيسى وبالمجوس قيل عبدة الشّمس أو النّار.

وأما الذين أشركوا فهم جميع المشركين وقوله: **إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** أي أنه تعالى عالم بما من شأنه أن يشهد فأثمه يعلمه قبل أن يكون لأنه علام الغيوب وأما يفصل بينهم يوم القيامة، لأنّ القيامة يوم الفصل:

قال الله تعالى: **هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** (١).

قال الله تعالى: **إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ** (٢).

قال الله تعالى: **إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا** (٣).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

السّجود أصله التّطامن والتّذلل وجعل ذلك عبارة عن التّذلل لله وعبادته وهو عامّ في الإنسان والحيوان والجماد قاله الرّاعب في المفردات ثمّ أنّ السّجود على ضربين، سجودًا بإختيار، وسجودًا بغير إختيار وقد يعبر عنه بالتّسخير.

أما الأول: وهو السّجود باختيار فهو ليس إلاّ للإنسان وبه يستحقّ الثّواب.
الثّاني: وهو السّجود بالتّسخير فلا يختصّ بالإنسان بل يكون للحيوان والنّبات أيضاً وعلى ذلك:

قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ^(١).

و هو سجود تسخيرٍ و هو الدلالة الثاقبة الناطقة المنبئة على كونها مخلوقة و أنها خلق فاعلٍ حكيم:

قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ** ^(٢).

ينطوي على النوعين من السجود بالإختيار و التسخير و أما قوله: **وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ** ^(٣) فذلك على سبيل التسخير، إذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ** يشمل كلا القسمين من التسخير و الإختيار و ذلك لأنَّ سجود الإنسان بالإختيار و سجود الشمس و القمر و الجبال و الدواب سجود تسخير، المعلوم أنَّ سجود كلِّ شيءٍ بحسبه و أن شئت قلت سجود الإنسان سجود تشريع و سجود الشمس و القمر و الجبال و غيرها سجود تكوين، فأنها تقول بلسان التكوين.

ما سميعيم و بصيريم و خوشيم با شما نامحرمان ما ناخوشيم و حاصل الكلام في الآية أنَّ المخلوق كائناً ما كان خاضعٌ متذللٌ لخالقه تكويناً و يدخل فيه الإنسان أيضاً علم به أو لا يعلم لأنه معلول و المعلوم رشحٌ من رشحات وجود العلة و لا قوام له بذاته و أنما قائمٌ بغيره فكيف يعقل أن لا يكون خاضعاً لمن يقوم به و هذا بلسان التكوين ممّا لا كلام و أنما الكلام في الإنسان الذي هو أشرف الموجودات و أنه كيف لا يتذلل لربّه و خالقه تشريعاً و حيث أنَّ الثواب متوقف على السجود التشريعي الذي يصدر عن فاعله

إختیاراً فقال تعالى ما قال في هذه الآية و غيرها مشعراً بأنَّ الله لا يحتاج إلى هذا السَّجود من الإنسان لأنَّه غَنِيٌّ بذاته عن كلِّ شيءٍ فلا تنفعه طاعة من أطاعه كما لا تُضِرُّه معصية من عصاه إلاَّ أنَّه تعالى أوجبه عليه لأجل أن يثاب عليه فهو لطفٌ منه تعالى في حقِّ عباده و من كفر فإنَّ الله غَنِيٌّ عن العالمين فقوله و كثيرٌ من النَّاسِ، معطوف على من في السَّموات و الأرض إلى قوله و الدُّواب أي أنَّ الله يسجد له من في السَّموات و من في الأرض و الشَّمس و القمر و كثيرٌ من النَّاس أية أنَّهم يسجدون معها، ثمَّ و كثيرٌ حقٌّ عليه العذاب، و هو الَّذي لا يسجد و لذلك حقٌّ عليه العذاب.

قال بعض المفسرين قوله: **مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ** و أن كان ظاهره العموم فالمراد به الخصوص إذا حملنا السَّجود على العبادة و الخضوع لأنَّا علمنا أنَّ كثيراً من الخلق كافرون به فلذلك قال و كثيرٌ من النَّاس حقٌّ عليه العذاب، إرتفع كثير بفعلٍ مقدر كأنَّه قال و كثيرٌ أبقى السَّجود فحقٌّ عليه العذاب إنتهى ما ذكره.

و أنا أقول: ما ذكرناه من حمل الآية على العموم أولى إذ لا دليل على حمل السَّجود على العبادة و الخضوع فإنَّ السَّجود و القمر و النُّجوم و الدُّواب ليس من هذا القبيل بل الحقُّ أن يحمل السَّجود على معناه العامِّ الشَّامِل للعبادة كما يشعر به صدر الآية و أمَّا قوله: **مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ** فقيل في معناه أي من يهينه الله بالشَّقوة بإدخاله جهنَّم فما له من مكرمٍ، بالسَّعادة بإدخاله الجنَّة لأنَّه الَّذي يملك العقوبة و المثوبة.

و قال الزَّمخشري و من أهانه الله كتب عليه الشَّقاوة لما سبق في علمه من كفره أو فسقه فقد بقى مهاناً لن يجد به مكرماً أنَّه يفعل ما يشاء من الإكرام و الإهانة و لا يشاء من ذلك إلاَّ ما يقتضيه عمل العاملين و إعتقاد المعتقدين إنتهى.

و قوله: **إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**، يعني يكرم من يشاء ويهين من يشاء إذا استحق ذلك فإنه تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فهو كناية عن عموم القدرة وتعليل لما تقدم من إثبات العذاب للمستكبرين عن السجود وإهانتهم إهانة لا إكرام بعده فالمعنى والله أعلم أن جميع الموجودات العلوية والسفلية يخضعون ويتذللون له تكويناً وأما تشريعاً فالناس على صنفين، صنف يسجدون و صنف لا يسجدون وهؤلاء أي من لا يسجد تشريعاً حقاً عليه العذاب وأهانه الله إهانة لا إكرام بعده والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

هَذَا خِصْمَانِ اٰخْتَصَمُوْا فِي رِبِّهِمْ فَاَلَّذِيْنَ كَفَرُوْا قَطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُّصْبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ اَلْحَمِيْمُ

اختلفوا في المشار إليه بقوله: **هَذَا** فقال قوم يعني الفريقين من المؤمنين والكفار يوم بدر وهم حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن أبي ربيعة وعلي بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب قتل شيبه بن ربيعة، وقيل هم أهل الكتاب وأهل القرآن، وقيل هم المؤمنون والكافرون اختلفوا في **رَبِّهِمْ** لأن المؤمنين قالوا بتوحيد الله وأنه لا يستحق العبادة والكفار أشركوا معه غيره وأما قال اختلفوا بصيغة الجمع لأن الخصم مصدر وأريد به هنا الفريق فلذلك جاء اختلفوا مراعاة للمعنى إذ تحت كل خصم أفراد، وقيل أراد بالخصمين القبيلتين وخصومهم ثم قال تعالى: **فَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا يٰعَنِي بِاللّٰهِ**.

قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ قيل معناه أن النار تحيط بهم كإحاطة الثياب التي يلبسونها وقرأ الزعفراني في إختياره قطعت بتخفيف الطاء كأنه تعالى يقدر لهم ميزاناً على مقادير جنتهم تشتمل عليهم كما تقطع الملابس، سعيد بن جبير ثياب من نحاس مذاب وليس شيء إذا حمى أشد حرارة منه فالتقدير من نحاس محمى بالنار.

يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ أَي الْمَاءُ الْمَغْلَى يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ الصَّهْرُ الْإِذَابَةُ وَالْمَعْنَى يَذَابُ بِالْحَمِيمِ الَّذِي يَصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ مَا فِي بُطُونِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فَقَطَّعْ أَمْعَانِهِمْ، وَقَوْلُهُ: أَلْجُلُودُ فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى، مَا، فِي قَوْلِهِ: يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَأَنَّ الْجُلُودَ تَذَابُ كَمَا تَذَابُ الْأَحْشَاءُ وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ فَالْمَقَامِعُ جَمْعُ مَقْمَعَةٍ مَدْقَةُ الرَّأْسِ يُقَالُ قَمَعَهُ قَمْعًا إِذَا رَدَعَهُ عَنِ الْأَمْرِ.

كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ

قِيلَ أُعِيدُوا فِيهَا بِضَرْبِ الزَّبَانِيَةِ إِتَاهُمْ بِالْمَقَامِعِ وَ ذُوقُوا أَي وَ يُقَالُ لَهُمْ وَ ذُوقُوا، وَ قِيلَ كُلُّ مَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ ضَرَبُوا بِالْمَقَامِعِ حَتَّى يَهْوُوا فِيهَا وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ وَ الذُّوقُ طَلَبُ إِدْرَاكِ الطَّعْمِ فَأَهْلُ النَّارِ يَجِدُونَ أَلْمَهَا وَجِدَانِ الطَّالِبِ لِإِدْرَاكِ الشَّيْءِ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ وَ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الْآيَةِ مِنَ الْعَذَابِ حَالُ أَحَدِ الْخَصْمِينَ فِي الْقِيَامَةِ وَ هُمُ الْكُفَّارُ، وَ أَمَّا الْآخَرُونَ وَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَكَمَا وَصَفَهُمْ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا.

وَ قَالَ بَعْضُهُمْ، الْحَرِيقُ فِي الْآيَةِ الْغَلِيظُ مِنَ النَّارِ الْمُنْتَشِرِ الْعَظِيمِ الْإِهْلَاكُ.



إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا
 مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسَهُمْ فِيهَا
 حَرِيرٌ (٢٣) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا
 إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ
 يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَ الْآبَادِ
 وَ مَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْإِخَادِ يَظْلَمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ
 (٢٥) وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا
 تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ
 الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَ آذِنْ فِي
 النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
 يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ
 لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى
 مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ
 أَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ
 لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)
 ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ
 رَبِّهِ وَ أَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ
 فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ
 الزُّورِ (٣٠) حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ
 يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ

الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ (٣١)
 ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى
 الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
 ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)

◀ اللغة

أَسَاوِرَ: بفتح الألف وكسر الواو واحدها سوار، مثل كراع وأكارع.
 وَ لَوْلُوًا: اللؤلؤ الكبار والمرجان الصغار ويجوز أن يكون اللؤلؤ مرصعاً
 بالذهب.

يَصُدُّونَ: الصّد المنع.

أَلْعَاكِفُ: المقيم.

الْبَادِ: الباد الطاري.

بِالْحَادِ: الإلحاد الميل عن الحق.

بَوًّا: أي وطأنا.

ضَامِرٍ: الضامر المهزول.

فَجَّ عَمِيقٍ: الفجّ الطريق والعميق، البعيد.

بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ: الهيمة كلّ ذات أربع في البرّ والبحر والأنعام هي الإبل و
 البقر والضأن والمعز.

أَبْنَائِسَ: الذي به ضرّ الجوع وأصل البؤس الشدة.

الْفَقِيرَ: الذي لا شيء له.

تَفَثَهُمْ: التفث مناسك الحجّ وقيل هو مشف الإحرام.

الْعَتِيقِ: لأنه أوّل بيت بني سميّ به لأنه أعتق من أن تملكه الجابرة.

حُنْفَاءَ: أصل الحنف الإستقامة وقيل أصله الميل والحنيف المائل إلى

العمل بما أمر الله وجمعه حنفاء.

سَحِقٍ: السَّحِيقُ البعيد.

◀ الإعراب

مِنَ الْقَوْلِ حال من الطَّيِّبِ أو من الصَّمِيرِ فيه يَصُدُّونَ حال من الفاعل في، كفروا جَعَلْنَاهُ يتعدى إلى مفعولين فالصَّمِيرُ هو الأوَّلُ و في الثاني ثلاثة أوجه: أحدها: للنَّاسِ.

الثاني: أن يكون للنَّاسِ حالاً و الجملة بعده في موضع المفعول الثاني الثالث: أن يكون المفعول الثاني، سواءً، على قراءة النَّصْبِ الْعَاكِفُ فاعل سواء و قرأ بالجرِّ على أن يكون بدلاً من النَّاسِ بِالْحَادِ حال أي متلبس بالحادٍ بِظَلْمٍ أيضاً حال أي إحداء ظالماً مَكَانَ آلَيْتِ ظرف لا تُشْرِكُ أن مفسرة للقول المقدَّر تقديره قائلين له لا تشرك و قيل هي مصدرية أي فعلنا ذلك لئلا تشرك و جعل النهي صلة لها رَجَالاً حال و هو جمع راجلٍ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ في موضع الحال أيضاً أي و ركبانا يَأْتِينَ صفة، لضاير حُنْفَاءَ حال.

◀ التفسير

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسْوَدٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَعَدَّ لِأَحَدِ الْخَصْمِينَ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي مَرَّتْ ذِكْرَهَا، ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا مَا أَعَدَّ مِنَ الثَّوَابِ لِلْخَصْمِ الْآخَرَ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، مِنَ الْأَعْمَالِ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا، أَي فِي الْجَنَّاتِ الْمَشْهُورِ فِي الْقُرْآنِ، ضَمَّ الْبِاءَ وَفَتَحَ الْحَاءَ وَتَشْدِيدَ اللَّامِ بِصِیْغَةِ الْمَجْهُولِ مِنْ حَلٍّ يُحَلُّ، مِنَ التَّحِيَّةِ بِالْحَلِيِّ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِفَتْحِ الْبِاءِ وَاللَّامِ وَسُكُونِ الْحَاءِ مِنْ قَوْلِهِمْ

حلى الرّجل و حليت المرأة إذا صارت حلى و كيف كان فالمعنى إنهم أي أهل الجنة يلبسون فيها الحلي، من أساور من ذهب، أي أنّ الحلي من أساور من ذهب، فقوله: مِنْ ذَهَبٍ، نعتٌ لأساور وقوله: لَوْ لَوْأ، معطوف على أساور لأنّ السّوار لا يكون من لؤلؤ، ثمّ قال و لباسهم فيها حرير، فحرّم الله على الرّجال لبس الحرير في الدُّنيا و شوقهم اليه في الآخرة.

و الظاهر أنّ، من، في مِنْ أَسَاوِرَ، للتبعض، و في مِنْ ذَهَبٍ لأبتداء الغاية أي أنشئت من ذهب و قيل، من، في أساور لبيان الجنس أي يحلون فيها من هذا الجنس.

هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ

قيل الطيب من القول أن كانت الهداية في الدُّنيا فهو قول لا إله إلا الله و غيره من الأقوال الطيبة من الأذكار و غيرها و يكون الصراط طريق الإسلام و أن كان إخباراً عما يقع منهم في الآخرة فهو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده و ما أشبه ذلك من محاوراة أهل الجنة و يكون الصراط الطريق الى الجنة، و قيل معنى الكلام هدوا الى البشارات من عند الله بالنعيم الدائم و قيل معناه القرآن و قيل الى الإيمان و قيل هو القول الذي لا مخش فيه، و صراط الحميد، قيل هو الإسلام، و قيل الى الجنة فالحميد هو الله المستحقّ للحمد و قيل غير ذلك من الأقوال، هذا ما قالوا في تفسير الآية.

أقول: الظاهر أنّ المراد بالهداية في قوله: هُدُوا ليس هو الهداية الى الإيمان و الإسلام و القرآن و غيرها و ذلك الآية تحكي عن الهداية في الآخرة لا في الدُّنيا و الآخرة ليست بدار التّكليف بل هي دار الثّواب و العقاب نعم ما ذكروه يصحّ لو كانت الآية ناظرة الى الدُّنيا و سياق الكلام يأباه و ذلك لأنّ الله تعالى في هذه الآية و قبلها بصدد بيان ما أعدّه للمؤمنين في الآخرة من النّعم ظاهرٌ و على هذا فالمراد بالهداية ليس معناها المصطلح في الدُّنيا بل معناها الدّلالة

الى ما هو أحسن في القول والعمل وذلك لأنَّ الْجَنَّةَ أعدت للصالحين من الأنبياء والمرسلين والتابعين لهم بإحسانٍ ومن كان كذلك لا يقول إلا طيباً فقلوه: هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ، هدوا الى مكانٍ ليس فيه إلا الطيبين من القول وقلوه: هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ، أي طريق الحق أو طريق المحمود والحاصل أن ما ذكره في الآية هو أوصاف الجنة والله تعالى يهدي المؤمن الى الجنة التي تكون كذلك.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمِ نَفْسَهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ

المضارع قد لا يلاحظ فيه زمانٌ معين من حالٍ أو إستقبالٍ فيدلُّ إذ ذاك على الإستمرار ومنه قوله تعالى: وَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وهذا مثل قوله تعالى: الَّذِينَ أَسْنَأُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وقيل هو مُضارع أريد به الماضي عطفاً على كفروا، وقيل هو على إضمار مبتدأ أي وهم يصدون وخبر إن، محذوف وهو، خسروا، أو هلكوا، وقدره الزمخشري بعد قوله الحرام، نذيقهم من عذاب أليم ومعنى الآية أن الذين كفروا، بالله و برسوله، أو بوحدانيته و إختصاصه بالعبادة، و يصدون، أي يمنعون غيرهم، عن سبيل الله، أي من إتباعه و المسجد الحرام، أي يمنعونهم منه أيضاً أن يجئوا اليه حججاً و عمّاراً، الذي، أي المسجد الذي، جعلناه للناس، كافة قبلةً لصلواتهم و منسكاً لحجهم، سواء العاكف، المقيم به، و الباد الطاري أعني به غير المقيم و من يرد فيه، أي في المسجد الحرام، بإلحادٍ بظلم، أي منعاً بإلحادٍ أي يميل بظلم و عن ابن عباس المعنى من يرد إستحلال ما حرّم الله و الإلحاد هو الميل عن الحق، نذقه من عذاب أليم، يعني مؤلمٍ موجه.

أقول: يستفاد من الآية أنه لا يجوز لأحدٍ منع النَّاسِ عن المسجد الحرام إذا أرادوا زيارة البيت بالحجِّ والعمرة وهو كذلك والظاهر من الشَّرْع أنَّ المراد بالنَّاسِ في الآية هو المسلمون لا جميع النَّاسِ حتَّى يشمل الكفَّار أيضاً فلا يجوز للكافر أن يدخل فيه حال الكفر لأنَّه رجسٌ ونجسٌ وهو ممَّا لا خلاف بإجماع المسلمين ويؤيِّده من قرأ، يرد، بفتح الياء أي من يرد في المسجد بالحادٍ بظلم نذقه من عذابِ أليم.

وأنما قلنا يؤيِّده ولم نقل يدلُّ عليه لأنَّ الورد في المسجد بظلم وإلحادٍ لا يختصُّ بالكافر بل قد يكون المسلم أيضاً من مصاديقه كما أنَّ الحجاج لعنه الله دخل فيه بالحادٍ وظلم و قتل فيه كثيراً من النَّاسِ في فتنة ابن الزبير.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ
لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

قال في المفردات أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النبوة الذي هو منافات الأجزاء يقال مكانٌ بواء إذا لم يكن نابياً بنازله، وبوأت له مكاناً سوَّيته فتبوأ، قال الشاعر:

لها أمرها حتَّى إذا ما تبوأت بأخفافها مأوىً تبوأ مضجعاً
وقال غيره أصل بوأنا من قوله تعالى: وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ^(١) أي رجعوا بغضبٍ منه و تقول بوأته منزلاً أي جعلت له منزلاً يرجع اليه و البيت مكان مهياً بالبناء للبيتوتة فهذا أصله و جعل البيت الحرام على هذه الصُّورة فقولوه تعالى: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ، معناه جعلنا له علاقة يرجع إليها.

أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا أي أمرناه أن لا تشرك بي شيئاً في العبادة والظاهر أنَّ هذا أي قوله: لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا خطاب لإبراهيم و قال بعضهم أنه خطاب

لرسول الله ﷺ وأن مخففة من الثَّيْبَةِ وهو بعيد وذلك لأن شرطها أن يتقدمها جملة في معنى القول، وبؤانا، ليس فيه معنى القول والأولى أنها ناصبة للمضارع (وطَّهر بيتي) عن عبادة الأوثان، وقيل من الأنداس وقيل من الدِّماء والفرث والأفذار التي كانت ترمى حول البيت ويطبخون به البيت إذا ذبحوا وقوله: لِلطَّائِفِينَ، يعني الطَّائِفِينَ حول البيت (والقائمين) أي للذين يقومون هناك للصلاة (والرُّكَّع السُّجُود) أي الذين يركعون ويسجدون للصلاة. قال في التَّبيان وفي الآية دلالة على جواز الصَّلَاة في الكعبة، قال الحسن أمر الله رسوله أن يفعل ذلك في حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وقلنا أنه بعيدٌ ومع ذلك خلاف المشهور والجمهور على أنه خطاب لإبراهيم عليه السَّلام وهو الحقُّ الموافق لسياق الآية.

قال بعض المفسرين قوله: أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، أن مفسروه بفعلٍ دَلَّ عليه، وبؤانا، لأنَّ التَّبَوُّعَ لأجل العبادة فكأنه قيل وأمرناه وتعبَّدناه وقلنا له لا تشرك بي شيئاً في العبادة وطَّهر بيتي من الشُّركِ وعبادة الأوثان

وقد روى علي بن إبراهيم في تفسيره عن الصادق يعني نح عنه المشركين وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: أَنْ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، فينبغي للعبد أن لا يدخل مكة، إلا، وهو طاهر وقد غسل عرقه والأذى وتطَّهر.

وروى الشيخ في الصحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام نحوه وأراد بالقائمين والرُّكَّع السُّجُود المصلين، وفي رواية معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام: أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَوَّلَ الْكَعْبَةَ عَشْرِينَ وَمِئَةً رَحْمَةً مِنْهَا سِتُونَ لِلطَّائِفِينَ وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَعَشْرُونَ لِلنَّاطِرِينَ وفيه دلالة على رجحان الطَّوافِ عَلَى الصَّلَاةِ

إنتهى....

وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ أَي مرهم بالحجّ رجالاً، و هو جمع راجل مثل صحاب جمع صاحب و المعنى مرهم أن يأتوك رجالاً أي مشاةً على أرجلهم وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ الضَّامِرُ مِنَ الْإِبِلِ الْمَهْزُولِ مِنَ السَّيْرِ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ فالعميق البعيد و الفجّ الطّريق و المعنى يأتين من كلّ طريقٍ بعيدٍ من حيث المسافة فقوله: يَأْتِينَ، في معنى الجمع و قيل لأنّ المعنى و على كلّ ناقية ضامرٍ.

و قد روى عمار بن موسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام: لَمَّا أُوْحِيَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ أَنْ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ أَخَذَ الْحَجَرَ الَّذِي فِيهِ أَثَرُ قَدَمِيهِ وَ هُوَ الْمَقَامُ فَوَضَعَهُ بِحِذَاءِ الْبَيْتِ لِاصْتِقَاءِ بِهِ بِحِيَالِ الْمَوْضِعِ الَّذِي هُوَ فِيهِ الْيَوْمَ ثُمَّ قَامَ عَلَيْهِ فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمَّا تَكَلَّمَ بِالْكَلامِ لَمْ يَحْتَمِلْهُ الْحَجَرُ فَفَرَّقَتْ رِجْلَاهُ فِيهِ فَقَلَعَ إِبْرَاهِيمُ رِجْلَهُ مِنَ الْحَجَرِ قَلْعاً حَدِيثاً.

و عن تفسير علي بن إبراهيم قال و لَمَّا فَرَّغَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُؤذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ فَقَالَ يَا رَبِّ مَا يَبْلُغُ صَوْتِي فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى، أَذِّنْ، عَلَيْكَ الْأَذَانَ وَ عَلَيَّ الْبَلَاغَ وَ إِرْتَفَعَ الْمَقَامُ وَ هُوَ يَوْمُنْذٍ مَلْصَقٌ بِالْبَيْتِ فِإِرْتَفَعُ بِهِ الْمَقَامُ حَتَّى كَانَ أَطْوَلَ مِنَ الْجِبَالِ فَنَادَى وَ أَدْخَلَ إِصْبَعَهُ فِي أُذُنِهِ وَ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ شَرْقاً وَ غَرْباً يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ فَاجْبُوا رَبَّكُمْ فَاجَابُوهُ مِنْ تَحْتِ الْبَحُورِ السَّبعِ وَ مِنْ بَيْنِ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ إِلَى مَنْقَطِعِ التُّرَابِ مِنْ أَطْرَافِ الْأَرْضِ كُلِّهَا وَ مِنْ أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَ مِنْ أَرْحَامِ النِّسَاءِ بِالتَّلْبِيَةِ لَبِيكَ اللَّهُمَّ لَبِيكَ أَوْ لَا تَرُونَهُمْ يَأْتُونَ يَلْبُونَ فَمَنْ حَجَّ مِنْ يَوْمُنْذٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهُمْ مَمَّنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ يَعْنِي نِدَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمَقَامِ إِنْتَهَى.

و روى في الموائق في العلل و فى الكافي و غيرهما عن عبد الله سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ و إِسْمَاعِيلَ بِنَاءَ الْبَيْتِ و تَمَّ بِنَاءُهُ أَمَرَهُ أَنْ يَصْعَدَ رَكْنًا ثُمَّ يَنَادِي فِي النَّاسِ هَلُمُّ الْحَجِّ مَلُوا نَادِي هَلُمُوا إِلَى الْحَجِّ لَمْ يَحْجِ إِلَّا مَنْ كَانَ يَوْمئِذٍ إِنْشِيًّا مَخْلُوقًا و لَكِنْ نَادَى هَلُمُّ الْحَجِّ فَلَبَّى النَّاسُ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ لِبَيْتِكَ دَاعِي اللَّهِ لِبَيْتِكَ دَاعِي اللَّهِ فَمَنْ لَبَّى عَشْرًا حَجَّ عَشْرًا و مَنْ لَبَّى خَمْسًا حَجَّ خَمْسًا و مَنْ لَبَّى أَكْثَرَ فَبَعْدَ ذَلِكَ و مَنْ لَبَّى وَاحِدَةً حَجَّ وَاحِدَةً و مَنْ لَمْ يَلْبَ لَمْ يَحْجِ إِنْتَهَى.

أقول: و وجه الفرق بين تعلم و هلموا أن الواو لمن يعقل، و فى تقديم الرجال على كل ضامر، إشارة، أو إشعار بأن الحج ماشياً أفضل منه راكباً و يدل عليه:

ما رواه عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما عبد الله بشيءٍ أشد من المشي و لا أفضل إِنْتَهَى.

و صحيحه الحلبي فلا سألت أبا عبد الله عليه السلام عن فضل المشي فقال عليه السلام الحسن بن علي عليه السلام: قاسم ربّه ثلاث مرّات نعلًا و نعلًا و ثوبًا و ثوبًا و دينارًا و دينارًا و حجّ عشرين حجّة ماشياً على قدميه إِنْتَهَى.

و الأخبار في فضل المشي على الركوب كثيرة.

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ و هي منافع الدنيا و الآخرة كما روي أن الحجّ يُكثّر المال و يحطّ الذنوب.

و في عيون الأخبار في باب ذكر ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان في جواب مسأله في العلل، و علّة الحجّ الوفادة إلى الله عزّ و جلّ و طلب الزيادة و الخروج من كلّ ما إقترف و ليكون تائباً ممّا مضى مستأنفاً لما يستقبل و ما فيه من إستخراج الأموال و تعب

الأبدان و حظرهما عن الشّهوات واللذات والتّقرب بالعبادة إلى الله عزّ وجلّ والخضوع والإستكانة والتذلل شاخصاً في الحرّ والبرد والأمن والخوف ذائباً في ذلك دائماً وما في ذلك من المنافع لجميع الخلق والرّغبة والرّهبة إلى الله ومنه ترك قساوة القلب و جبارة الأنفس و نسيان الذّكر وإنقطاع الرّجاء والأمل و تجديد الحقوق و حظر الأنفس من الفساد و منفعة من في شرق الأرض و غربها و من في البرّ والبحر ممّن يحجّ و من لا يحجّ من تاجرٍ و جالبٍ و بائعٍ و مشترٍ و كاسبٍ و مسكينٍ و قضاء حوائج أهل الأطراف و المواضع الممكن لهم الإجماع فيها كذلك ليشهد منافع لهم إنتهى.

وقوله تعالى: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ قال الحسن وقتادة الأيّام المعلومات عشرين ذي الحجّة و الأيّام المعدودات أيّام التّشريق و قال أبو جعفر عليه السلام الأيّام المعلومات أيّام التّشريق و المعدودات العشر لأنّ الذّكر الذي هو التّكبير من أيّام التّشريق إنتهى.

و أنّما قيل لهذه الأيّام معلومات للحرص على علمها بحسابها من أجل وقت الحجّ في آخرها.

أقول: روي في كتاب غوالي اللئالي عن الصادق عليه السلام أنّ الذّكر في قوله: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ هو التّكبير عقيب خمسة عشر صلوات أوّلها ظهر العيد و عن الباقر عليه السلام مثله إنتهى و قيل الذّكر هو الذّكر المطلق أو الذّكر حال الدّبح.

و في معاني الأخبار بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال عليّ في قوله عزّ وجلّ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ، قال أيّام العشر إنتهى.

و بهذا الإسناد عن أبي عبد الله أَنَّ الأَيَّامَ المَعْلُومَاتَ هِيَ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ إِنْتَهَى.

و فِي خَبَرٍ آخَرَ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: المَعْلُومَاتُ وَ المَعْدُودَاتُ وَاحِدَةٌ وَ قَالَ فِي الدُّرُوسِ الأَيَّامَ المَعْدُودَاتُ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ وَ آخِرُهَا غُرُوبُ الشَّمْسِ مِنَ الثَّلَاثِ وَ الأَيَّامَ المَعْلُومَاتُ عَشْرَ ذِي الحِجَّةِ وَ هُوَ المَرُورِيُّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ فِي النِّهَايَةِ بِالعَكْسِ قَوْلُهُ: عَلَيَّ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ أَلْتَنَعَمُ يَعْنِي مِمَّا يَذْبَحُ مِنَ الهَدْيِ وَ هُوَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ وَ البَهِيمِ هُوَ الَّذِي لَا يَفْصَحُ وَ المَرَادُ بِهَا فِي المَقَامِ الإِبِلُ وَ البَقَرُ وَ الغَنَمُ، وَ المَرَادُ بِالتَّسْمِيَةِ أَي يَذْكُرُوا إِسْمَ اللَّهِ حِينَ النُّحْرِ وَ الذَّبْحِ وَ قَوْلُهُ: فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ أَي فَكُلُوا مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ وَ أَطْعِمُوا البَائِسَ وَ هُوَ الَّذِي بِهِ ضَرُّ الجُوعِ وَ الفَقِيرُ هُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ وَ المَعْنَى أَمَرْنَا اللَّهَ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ نَطْعِمَ البَائِسَ الفَقِيرَ قَالُوا هَذَا الأَمْرُ لَيْسَ لِلوَجُوبِ بَلْ هُوَ لِلنَّدْبِ.

رَوَى فِي الكَافِي عَنِ السَّكُونِيِّ عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ الزَّمَنُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ لِمَازَنَةِ إِنْتَهَى.

وَ فِي رِوَايَةِ أَبِي بَصِيرٍ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الفَقِيرَ هُوَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ وَ المَسْكِينُ أَجْهَدُ مِنْهُ وَ البَائِسُ أَجْهَدُهُمْ إِنْتَهَى.

فَظَهَرَ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ البَائِسَ هُوَ الفَقِيرُ الشَّدِيدُ الحَاجَةُ وَ ظَاهِرُ الآيَةِ الدَّلَالَةُ عَلَى لُزُومِهِمُ الذَّبْحَ أَوْ النُّحْرَ عَلَى الحَاجِّ مَطْلَقاً وَ لَكِنِ النَّصُّ وَ الإِجْمَاعُ خِصَّهُ بِالمَتَمِّتِ وَ القَارَنِ.

وَ مِنَ الفُقَهَاءِ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ الأَمْرَ لِلوَجُوبِ فَيَجِبُ الأَكْلُ، وَ الإِطْعَامُ مِنْ دُونِ تَعْيِينِ مِقْدَارٍ مَا يُؤْكَلُ وَ مَا يَتَّصَدَّقُ بِهِ وَ بِذَلِكَ قَالَ ابْنُ إِدْرِيسَ وَ إِسْتَقَرَّ بِهِ فِي

المختلف و تفصيل الكلام فيه موكول إلى الفقه و ذهب بعضهم إلى وجوب قسمته أثلاثاً قوله تعالى:

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَ لِيُطَوُّوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ

قيل التَّفَثُ بفتح التاء و الفاء مناسك الحج من الوقوف و الطواف و السعي و رمي الجمار و الحلق بعد الإحرام من الميقات.

و قال ابن عباس و ابن عمر التَّفَثُ جمع المناسك و قيل التَّفَثُ كشف الإحرام و قضاءه بحلق الرأس و الإغتسال.

في الفقيه بأسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله أن التَّفَثُ هو الحلق و ما في جلد الإنسان إنتهى.

و في رواية البرزطي عن الرضا عليه السلام في تفسير التَّفَثُ أنه قصّ الشارب و الأظافر و طرح الوسخ و طرح الإحرام عنه إنتهى.

و قوله: وَ لِيُوفُوا نُدُورَهُمْ فالمراد به أنواع البرّ و ما نذروا من نحر الإبل و غيره و قوله: وَ لِيُطَوُّوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ أمر من الله تعالى بالطواف بالبيت، و أما علّة وجوب الطواف.

فقد روي في عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام أنه قال: في علّة الطواف أن الله عزّ و جلّ قال للملائكة: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فَرَدَدُوا عَلَى اللَّهِ هَذَا الْجَوَابُ فَندموا فلاذوا بالعرش و إستغفروا فأحبّ الله أن يتعبد بمثل ذلك العباد فوضع في السماء الرابعة بيتاً بحذاء العرش يسمّى الضّراع ثمّ وضع في السماء الدنيا بيتاً يسمّى المعمور بحذاء الضّراع ثمّ وضع هذا البيت بحذاء البيت المعمور ثمّ أمر آدم فطاف به فتاب الله عزّ و جلّ عليه فجرى ذلك في ولده الى يوم القيامة إنتهى.

في حديثٍ آخر رواه في قرب الأسناد بأسناده عن الرضا عليه السلام في تفسير قول الله تعالى: لِيُقْضُوا تَفْتَهُمْ وَ لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ قال يَقْلَم الأظافر و طرح الوسخ عنك و الخروج عن الإحرام و ليطوفوا بالبيت العتيق طواف الفريضة إنتهى.

و الظاهر أنّ المراد طواف الحجّ الذي هو ركنٌ فيه بلا خلاف و هو المعبر عنه في أكثر الأخبار بطواف الزيارة و يمكن أن يراد ما يشمل طواف النساء لأنّه واجب به يحصل تحليل النساء كما يشعر به صيغة المبالغة.

و روي الشيخ عن أحمد بن محمّد قال قال أبو الحسن في قوله تعالى: وَ لِيُطَوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، قال طواف الفريضة و طواف النساء إنتهى.

و في حديثٍ آخر عن الصادق عليه السلام في قوله: وَ لِيُطَوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، قال: هو طواف النساء.

و أمّا وجه التسمية بالعتيق فقد ذكروا فيه وجوهاً: أحدها: أنّ لا يملكه أحد من الناس و يدلّ عليه:

ما رواه في الكافي عن الشمالي قال قلت لأبي جعفر في المسجد الحرام لأيّ شيء سمي العتيق فقال عليه السلام: أنّه ليس من بيت وضعه الله في الأرض إلّا له ربٌّ و سكانٌ يسكنونه غيره هذا البيت فأنّه لا ربّ له إلّا الله تعالى و هو الحرم ثمّ قال عليه السلام أنّ الله خلقه قبل الأرض ثمّ خلق الأرض من بعده فدحاها من تحته و في روايةٍ أخرى أنّه سمي بذلك لأنّه بين حرّ عتيق من الناس لا يملكه أحد.

الثاني: أنّه أعتق من الغرق و يدلّ عليه:

ما رواه عليّ بن إبراهيم في تفسيره في الصحيح عن أبي بصير عن أبي عبد الله قال عليه السلام: لمّا أراد هلاك قوم نوح و ذكر حديثاً طويلاً

وقال فيه سمّي العتيق لأنه أعتق من الغرق و في رواية رواها في العلل عن أبي خديجة و زاد فيه فقلت له إصعد الى السماء فقال ^{عليه السلام} لا لم يصل اليه الماء و رفع عنه، و في رواية المحاسن عن سعيد الأعرج عتق الحرم معه كفّ عنه الماء إنتهى.

الثالث: لأنه أول بيت وضع للناس كما مرّ فسّمّي بذلك لقدّم عهده.

الرابع: أنه سمّي بذلك لأنه كريم بناه كريم كما يقال عتاق الخيل للكرام منها.

الخامس: أنه أعتق من الجابرة و حفظه الله منهم كإبرهة و غيره أو لأن من دخله كان عتيقاً من النار:

ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظِمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ
الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ

حرّمات الله ما حرّمه الله في الشرع، و قيل المراد بالحرّمات هنا البيت الحرام و البلد الحرام و الشّهر الحرام، و المراد بتعظيم الحرّمات مراعاتها على ما قرّر في الشرع و قد يستدلّ بهذه الآية على عدم جواز أن يرفع أحد بناءً فوق لكعبة لأن ذلك من الحرّمات و الشّعائر المأمور بتعظيمها و بذلك قال الشّيخ و جماعة و قال الأكثر بالكرهة للأصل و بظهور إرادة الكراهة من الخير في قوله: فَهُوَ خَيْرٌ، و من التّعظيم كذلك و للبحث فيه مقام آخر، و قوله: أُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ، يعني ما يتلى عليكم في كتاب الله من الميتة و الدّم و لحم الخنزير و الموقودة، و المترديّة، و النّطيحة، و ما أكل السّبع، و ما ذبح على النّصب، و أمّا أحلت لكم الأنعام قيل المراد بها، الإبل و البقر و الغنم في حال إحرامكم، إلا ما يتلى عليكم من الصّيد فأنّه يحرم على المحرم قاله الشّيخ في التّبيان، و هو واضح.

وقوله: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ، فقال المفسرون من العامة لأنَّ توحيد الله و نفي الشركاء عنه و صدق القول أعظم الحرمات لأنَّ الشريك من باب الزُّور لأنَّ المشرك يزعم أنَّ الوثن يستحقَّ العبادة فكأنَّه قال فأجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزُّور و أجتنبوا قول الزُّور كلَّه و، من، في من الأوثان لبيان الجنس و يقدر بالموصول عندهم أي الرِّجس الذي هو الأوثان و به قال صاحب الكشَّاف و تبعه الرَّازي و غيره من المفسرين.

و قال الشيخ رحمته في التبيان في تفسير الكلام معنى، من، لتبين الصفة و التقدير فأجتنبوا الرِّجس الذي هو الأوثان و روى أصحابنا أنَّ المراد به اللُّعب بالشطرنج و التُّرد و سائر القمار و أجتنبوا قول الزُّور يعني الكذب. و روى أصحابنا أنَّه يدخل فيه الغناء و سائر الأقوال الملهية بغير حقِّ انتهى.

حُنْفَاءٌ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ

أصل الحنف الإستقامة و قيل للمائل القدم، أحنف تفاؤلاً بالإستقامة و قيل أصله الميل.

قال الرَّاغب في المفردات الحنف هو الميل عن الضلال الى الإستقامة و جمعه حنفاء و تحنَّف فلان أي تحرَّى طريق الإستقامة و سمَّت العرب كلَّ من حجَّ أو ختنَّ حنيفاً تنبيهاً أنَّه على دين إبراهيم إنتهى.

أقول: لعلَّ هذا هو الوجه في ذكره في المقام أي أنَّ من حجَّ ولم يشرك بالله فهو حنيفٌ ثمَّ قال تعالى و من يشرك بالله الخ.

قال صاحب الكشَّاف في المقام و يجوز في هذا التَّشبيه أن يكون من المرَّكب و المفرَّق فأن كان تشبيهاً مركباً فكأنَّه قال من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية بأن صوَّر حاله بصورة حال من خرَّ من السَّماء

فإختطفته الطير ففترق فزعاً في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البيعة، وإن كان مفزقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسما و الذي ترك الإيمان و أشرك بالله بالساقط من السماء و الأهواء التي تنوزع أفكاره بالطير المختطفة و الشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاري المتلفة إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا بأس به إلا أن تفسير الكلام لا يحتاج إلى هذه التكلفات و ذلك لأن الله شبه المشرك بالله بمن خرَّ و سقط من السماء و إستلبه الطير و رمى به الريح في مكان بعيد و هو كناية عن هلاكه و شقاوته و أنه لا يملك لنفسه نفعاً و لا ضرراً يوم القيامة أو أنه تعالى شبه أعمال المشرك بأنها تذهب فلا يقدر على شيء منها و حاصل الكلام أن الشرك بالله لا ينتج إلا السقوط في الدنيا و الآخرة و الخروج عن مقام الإنسانية.

ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ

قيل ذلك إشارة، إلى الأمر المقدر و تقدير الكلام ذلك الأمر من يعظم شعائر الله و الشعائر علامات مناسك الحج كلها و هى رمي الجمار و السعي بين الصفا و المروة ذلك و قيل هي البدن و تعظيمها إستسمانها و إستحسانها. و قال زيد بن أسلم الشعائر ست، الصفا و المروة و البدن و الجمار المشعر الحرام و عرفة و الركن و تعظيمهما إتمام ما يفعل فيها و قيل غير ذلك. أقول: لا يبعد أن يكون المراد بالشعائر معناها العام الشامل شعائر الحج و غيرها من أنواع الشعائر المندرجة تحت قوانين الشريعة من الواجبات و المندرجات كالصلاة و الصوم و الجهاد و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و غير ذلك و لذلك قال بعضهم شعائر الله دين الله و قوله فأنها من تقوى القلوب، قيل أي من خشيتها.

أقول: و أنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التَّقوى الَّذِي إذا ثبتت فيها و تمكّنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء و من المعلوم أن قلب المتَّقِي يكون خاشعاً خاضعاً لله تعالى و أنما قال من تقوى القلوب ولم يقل من التَّقوى مثلاً لأنَّ المنافق قد يظهر التَّقوى و قلبه خالٍ عنها فلا يكن مجدداً في أداء الطّاعات و أما المخلص، فالتَّقوى بالله في قلبه فيبالغ في أدائها على سبيل الإخلاص و قدّر الزّمخشري في الكلام و قال تقديره من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات و لا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بدّ من راجع من الجزاء إلى، من، إنتهى و لقائل أن يقول أين الرّاجع في هذا التّقدير.

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ

الضّمير في، فيها، عائد على البدن على قول الجمهور و المنافع درّها و نسلها و صوفها و ركوب ظهرها إلى أجلٍ مسمّى قيل إلى أن تنحر و يتصدّق بلحومها و يؤكل منها و قيل الأجل المسمّى الخروج عن مكّة، و قيل معناه إلى الخروج و الإنتقال من هذه الشّعائر إلى غيرها و قيل لأجل يوم القيامة، و قوله، ثمّ محلّها إلى البيت العتيق، فثمّ للتراخي في الوقت ثمّ أستعيرت للتراخي في الأفعال و المعنى أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم و دينكم و أنما يعبد الله بالمنافع الدّينية و أعظم هذه المنافع و أبعدها في النّفع محلّها إلى البيت أي وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت كقوله تعالى هدياً بالغ الكعبة، و المراد نحرها في الحرم الَّذي هو في حكم البيت لأنّ الحرم هو حريم البيت و هذا أعني قوله و محلّها إلى البيت العتيق، يدلّ على أن المراد بالشّعائر ليس كلّها بل المراد بعضها كما هو أحد الأقوال في المسألة و الله أعلم.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
 عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ
 اللَّهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)
 الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ
 عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَ الْبُدْنَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ
 شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
 عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ
 أَطْعِمُوا الْبُقَاعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَ لَا
 دِمَآؤَهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ
 سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ
 الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أَذِنَ لِلَّذِينَ
 يُفَاتِلُونَ بَاتْنَهُمْ ظَلَمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ
 لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ
 إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ
 بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَ بَيْعُ وَ
 صَلَوَاتُ وَ مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ
 لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ

عَزِيزٌ (٤٠)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

◀ اللُّغَةُ

أُمَّةٌ: بَضْمُ الألفِ وفتح الميم المُشدَّدة الجماعة و المراد بهما في الآية أتباع النَّبِيِّ قال في المفردات الأُمَّة كُلُّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما، إمَّا دينٌ واحدٌ أو زمان واحدٌ أو مكانٌ واحدٌ سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخييراً أو إختياراً و جمعهما أمم إنتهى.

مَنْسُكًا: بفتح السين على قراءة الجمهور و بكسرهما على قراءة الكسائي و هما لغتان و هو المكان للعبادة المألوفة الَّذي يقصده النَّاسُ و قيل المنسك المنهاج و هو الشريعة جعل الله لكل أُمَّةٍ من الأمم السَّالفة مَنْسكًا أي شريعة، و قال مجاهد مَنْسكًا يعني عبادةً في الدَّبْحِ و النَّسْكَةِ الدَّبِيحَةِ.

الْمُخِيتٌ: من الخبت و هو المكان المطمئن و قيل المنخفض و معناها واحد.

وَجَلَّتْ: الوجل الخوف و الخشية.

الْبُدْنُ: بَضْمُ الباء و سكون الدال المهملة والثون جمع، بدنة، و هى الإبل المبدئة بالسمن يقال بدنت الناقة إذا سمنتها و قيل أصل البدن الضخم و كل ضخم بدن و بدن بدناً إذ أضخم، و قيل البدن البقرة و البعير.

صَوَّافٌ: بفتح الصاد جمع صافة و هى المستمرة في وقوفها على منهاج واحدٍ فالصَّفُّ إستمرار جسمٍ يلي جسمًا على منهاج واحدٍ و التسمية حال نحرها دون حال قيامها.

وَجَبَّتْ: الوجوب الوقوع يقال وجبت الشمس إذا وقعت في المغرب للغروب.

جُنُوبُهَا: أي نحرها و قيل وجوب الجنوب وقوعها على الأرض للدَّبْحِ من وجب الحائط وجبةً إذا سقط.

أَلْفَانِعٌ: الَّذي لا يسأل.

وَأَلْمُعْتَرِّ: الَّذِي يَعْتَرِكُ مِنَ النَّاسِ.

خَوَانٍ: هُوَ الَّذِي يَظْهَرُ النَّصِيحَةَ وَ يَضْمُرُ الْغُشَّ لِلتَّفَاقُ وَ قِيلَ هُوَ مَنْ ذَكَرَ
إِسْمَ غَيْرِ اللَّهِ عَلَى الذَّبِيحَةِ.

صَوَامِعُ: بِفَتْحِ الصَّادِ وَكَسْرِ المِيمِ جَمْعُ صَوْمِعَةٍ وَ هِيَ مَعْبَدُ الْيَهُودِ.
بَيْعٌ: بِكَسْرِ البَاءِ وَ فَتْحِ البَاءِ مَعَابِدُ النَّصَارَى وَ قِيلَ أَنَّ البَيْعَ كُنَائِسُ الْيَهُودِ وَ
سَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِمَا فِي التَّفْسِيرِ.

◀ الإعراب

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَصَبًا عَلَى الصِّفَةِ أَوْ البَدَلِ أَوْ عَلَى
إِضْمَارِ أَعْنِي وَ أَنْ يَكُونَ رَفْعًا عَلَى تَقْدِيرِ، هُمُ الْبُدْنَ الْجُمْهُورُ عَلَى النَّصْبِ
بِفِعْلِ مَحذُوفٍ أَيْ جَعَلْنَا البَدْنَ وَ يَقْرَأُ بِالرَّفْعِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ صَوَآفَّ حَالٍ مِنْ
الْهَاءِ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ الْجُمْهُورَ عَلَى البَاءِ لِأَنَّ اللَّحُومَ وَ الدَّمَاءَ جَمْعُ تَكْسِيرٍ فَتَأْنِيثُهُ
غَيْرُ حَقِيقِي، وَ يَقْرَأُ بِالتَّاءِ أَيْضًا الَّذِينَ أَخْرَجُوا هُوَ نَعْتٌ لِلَّذِينَ الْأَوَّلِ، أَوْ بَدَلٍ
مِنْهُ، أَوْ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ، بِأَعْنِي.

◀ التفسير

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ
بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْهُكْمُ إِلَهُ وَ أَحَدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ
أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مَنَسَكًا
قَرَأَ الْكِسَائِيُّ بِكَسْرِ السِّينِ وَ الْجُمْهُورُ بِفَتْحِهَا وَ هُوَ الْحَتْ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ قِيَاسَ،
مَفْعَلٍ، مِمَّا مَضَارِعُهُ، يَفْعَلُ بِضَمِّ العَيْنِ فَعْفَعَلَ بِفَتْحِهَا فِي المَصْدَرِ وَ الزَّمَانِ وَ
المَكَانِ نَحْنُ فِي هَكَذَاكَ وَ لِذَلِكَ قِيلَ أَنَّ الْكَبِيرَ مِنَ الشَّاذِلِ لِأَنَّهُ عَلَى خِلَافِ القِيَاسِ.
وَ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ الفَتْحَ وَ الْكَسْرَ فِي السِّينِ لِغَتَانِ، وَ قَالَ المَجَاهِدُ المَنَسَكَ
الذَّبْحَ وَ إِرَاقَةَ الدَّمَاءِ يَقَالُ نَسَكَ إِذَا ذَبَحَ وَ الذَّبِيحَةُ نَسِيكَةٌ وَ جَمَعَهَا نَسَكَ،
المَنَسَكَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ المَعْتَادِ فِي خَيْرٍ وَ بَرٍّ.

و قال بعضهم منسكاً أي مذهباً من طاعة الله يقال نسكاً نسك قومه إذا سلك مذهبهم.

و قال الفراء منسكاً أي عيداً.

و قال قتادة حجاً، و قال الحسن المنسك المنهاج و هو الشريعة و المعنى جعل الله لكل أمة من الأمم السالفة منسكاً أي شريعة كقوله تعالى: **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ** (١).

أقول: الظاهر أن المراد بالمنسك في الآية هو عبادة الذبح بدليل قوله تعالى: **لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** فهذا الكلام قرينة على أن المراد به ما ذكرناه في الآية و هذا لا ينافي إطلاقه على غير الذبح في موضع آخر و ذلك لأن المعنى جعلنا ذلك للأمم و تعبدنا هم به ليذكروا إسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام و من المعلوم أن ذكر إسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام لا يكون إلا عند الذبح و أن قيل أن المنسك مطلق العبادة الشاملة للذبح و غيره لا بأس به.

قالوا المراد بالأنعام في الآية الإبل و البقر و الغنم إذا أرادوا تذكيبتها و في ذلك دلالة على وجوب التسمية عند الذبح ثم قال تعالى: **فَالِهَكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ**، لا شريك له في العبادة و الملك، فله: **أَسْلِمُوا** و بشر المختبين، فقوله أسلموا معناه إستسلموا و إنقادوا له و بشر المختبين أي المتواضعين و قيل يعني المطمئنين إلى ذكر ربهم في جميع شئونهم.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

الظَّاهِرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ الْمُخْبِتِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَكَأَنَّهُ قِيلَ وَ مَا الْمُخْبِتِينَ اللَّاتِقِينَ بِالْبَشَارَةِ، فَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ، وَ الْأَوْصَافَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآيَةِ أَرْبَعَةٌ:

أحدها: قوله: الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَ هَذَا هُوَ الْأَصْلُ وَ سَائِرُ الْأَوْصَافِ مِنْ فُرُوعِهِ وَ الْوَجَلُ إِسْتِشْعَارُ الْخَوْفِ.

ثانيها: قوله: وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ، هَذَا هُوَ الْوَصْفُ الثَّانِي لَهُمْ وَ هُوَ الصَّبْرُ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ فَأَنَّ الدُّنْيَا دَارٌ بِالْبَلَاءِ مُحْفُوفَةٌ وَ الْغَدْرُ مَعْرُوفَةٌ،

وَ قَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الصَّابِرِينَ، عَلَى الْبَلَايَا وَ الْمَصَائِبِ قَالَ تَعَالَى: وَ لَنَجْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ إِلَى قَوْلِهِ: وَ بِشِيرِ الصَّابِرِينَ^(١) وَ الْآيَاتُ كَثِيرَةٌ.

ثالثها: قوله: وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ، أَيِ إِيْتَانِ الصَّلَاةِ بِشَرَايِطِهَا يُقَالُ فَلَانَ أَقَامَ الصَّلَاةَ إِذَا أَتَى بِهَا مَعَ جَمِيعِ شَرَايِطِهَا وَ لِأَجْلِ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ سَابِقًا فِي هَذَا الْبَابِ وَ قَلْنَا أَنَّ إِيْتَانِ الصَّلَاةِ غَيْرُ إِقَامَتِهَا وَ رَابِعُهَا: قَوْلُهُ: وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ أَيْضًا غَيْرَ مَرَّةٍ وَ لَا سِيَّمَا فِي أَوَائِلِ الْبَقْرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا نَعِيدُ الْكَلَامَ فِي الْمَقَامِ.

وَ الْبُذْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوًّا فَاذًا وَ جَبَّتْ جُنُوبُهَا فَكَلُوا مِنْهَا وَ أَطْعَمُوا الْقَنَاعَ وَ الْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

قرأ الجمهور، البدن بالنصب بفعلٍ مضمَرٍ يدلُّ عليه جعلناها أي و جعلنا البدن و ذلك كقوله تعالى: وَ الْقَمَرَ قَدْرُنَاهُ^(٢).

و من الفراء من قرأ بضم الدال و الجمهور على سكونها، و الضم هو الأصل فيها لأنها جمع بدنة و هي الإبل المبدنة بالسمن.

قال الزجاج يقولون بدنت الناقة إذا سمتها و يقال لها بدنة من هذه الجهة و قيل أصل البدن الضخم و كلّ ضخم بدن و البدنة الناقة و تجمع على بدن و تقع على الواحد و الجمع قال عطاء البدن البقرة و البعير و قوله: **جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ.**

قيل معناه جعلناها لكم فيها عبادة لله بما في سوقها إلى البيت و تقليدها بما ينيبونها هدي ثم نحرها للأكل منها و إطعام القانع و المعتر و قيل، من شعائر الله، معناه من معالم الله، و قيل معنى من شعائر الله، من أعلام الشريعة التي شرعها الله و أضافها إلى إسمه تعظيماً لها، و قوله: **لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ** قال ابن عباس نفع في الدنيا و أجر في الآخرة.

و قال النخعي من إحتاج إلى ظهرها ركب و إلى لبنها شرب و قوله: **فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا،** أي عند النحر و المراد بالذكر التسمية، (صواف) حال من الهاء أي بعضها إلى جنب بعض و قال الرمخشري أي قائمات قد صففن أيديهنّ و أرجلهنّ و قرئ، صوافن، من صفون الفرس و هو أن يقوم على ثلاث و ينصب الرابعة على طرف سممكه لأنّ البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، و قرئ صوافي، أي خوالص لوجه الله إنتهى.

و قوله: **فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا،** وجوب الجنوب و قوعها على الأرض من وجب الحائط و جبة إذا سقطت و وجبت الشمس و جبة غربت و المعنى فإذا وجبت جنوبها و سكنت نسائها حلّ لكم الأكل منها فكلوا منها و أطعموا القانع و المعتر، قيل القانع و المعتر المتعرض بغير سؤال، و قيل القانع الراضي بما عنده و بما يعطى من غير سؤال من قنعت قنعاً و قناعاً، و المعتر المتعرض بسؤال، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون، أي مثل ذلك ذلك ذلّلنا هذه

الأنعام لكم تصرفوها على حسب إختياركم لكي تشكروا على نعمه التي أنعم الله بها عليكم.

لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ

قال مجاهد أراد المسلمون أن يفعلوا فعل المشركين من الذبح و تشريح اللحم منصوباً حول الكعبة و نضح الكعبة حواليها بالدم تقرباً إلى الله فنزلت هذه الآية.

و عن ابن عباس قريب منه و المعنى لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها و لا الدماء المهراقة بالنحر و المراد أصحاب اللحوم و الدماء و المعنى لن يرضى المضحون و المقربون ربهم إلى بمراعاة النية و الاخلاص و الإحتياط بشروط التقوى في حل ما قرب به و غير ذلك من المحافظات الشرعية و أوامر الورع فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية و التقريب و إن كثر ذلك منهم.

و قال بعض المفسرين معنى الكلام لن يتقبل الله اللحوم و لا الدماء و لكن يتقب التَّقْوَى فيها و فى غيرها بأن يوجب فى مقابلتها الثواب، و قيل لن يبلغ رضا الله لحومها و لا دماؤها و لكن ينالها التقوى منكم هكذا فسروا الآية بأس به و الذي يخطر بالبال فى معنى المراد هو أن الله تعالى بصدد بيان نقطة أخرى و هي أن مجرد الذبح و الهدى لا يكفي فى الإمتثال إذا لم يكن بقصد القربة أن يكون العمل لله و بداعي أمره بل اللازم فيه هو مراعاة التقوى و ذلك لقوله تعالى: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** و إنما أتى بكلمة، لن، التي هي لنفس الأبد دون، ما و لا و ليس و غيرها من حروف النفي لدلالة على أن هذا الحكم أعني به عدم القبول يستمر الى الأبد و لا يختص بزمان و مكان خاص و السر فيه أن الله تعالى غني بالذات لا يحتاج الى غيره فكل نفعه فى الدنيا و الآخرة يرجع الى صاحبه و إذا كان العمل لغير الله فلا نفع فيه فالمعنى أن اللحم و

الدَّم لَنْ يَصِلَا إِلَى اللَّهِ وَالَّذِي يَصِلُ إِلَيْهِ وَيَتَرْتَبِ الثَّوَابُ عَلَيْهِ هُوَ الْخُلُوصُ فِي الْعَمَلِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** (١) ولذلك قال: **كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكْتَبِرُوا بِاللَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ أَي هَدَاكُمْ إِلَى الثَّوَابِ وَقَوْلُهُ: وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** معناه بَشِّرْهُمْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَقَبُولِ الْأَعْمَالِ مِنْهُمْ.

إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ
 قيل معنى، يدافع، ينصر، أي أَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُهُمْ وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ عَدُوَّهُمْ تَارَةً بِالتَّهَرُّ وَ أُخْرَى بِالْحِجَّةِ وَقَوْلُهُ: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** أَي أَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَوَّانَ وَ هُوَ الَّذِي يَظْهَرُ النَّصِيحَةَ وَ يَضْمُرُ الْعِشَّ لِلتَّفَاقُ أَوْ لِأَقْطَاعِ الْمَالِ أَنَّ مِنْ ذِكْرِ اسْمِ غَيْرِ اللَّهِ عَلَى الذَّبِيحَةِ فَهُوَ الْخَوَّانُ وَ الْكُفُورُ هُوَ الْجُحُودُ لِنِعْمِ اللَّهِ قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ.

أقول: روي أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا كَثُرُوا بِمَكَّةَ أَذَاهُمُ الْكُفَّارَ وَ هَاجَرُوا مِنْ هَاجِرِ الْبِلَادِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ أَرَادَ بَعْضُ مُؤْمِنِي مَكَّةَ أَنْ يَقْتُلَ مِنْ أَمْكَنِهِ مِنَ الْكُفَّارِ وَ يَحْتَالُ وَ يَغْدِرُ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ قِيلَ قَوْلُهُ: **كَفُورٍ** وَ وَعَدَ فِيهَا بِالْمُدَافَعَةِ وَ نَهَى عَنِ الْخِيَانَةِ وَ خَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالذَّفْعِ عَنْهُمْ وَ النَّصْرَةَ لَهُمْ وَ عُلِّلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَعْدَاءَهُمُ الْخَائِنِينَ.

أقول: لم يدل دليل على صحّة الرواية التي ذكروها في شأن النزول و على فرض صحّتها فالحكم عام و أن كان المورد خاصاً، فالمعنى أَنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ الْكَافِرِينَ بِنِعْمِهِ وَ هَذَا الْحُكْمُ عَامٌ يَشْمَلُ الْكُلَّ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَنَةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْخَائِنَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا الْخَائِنُ وَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَزَهٌّ عَنِ الْقَبَائِحِ وَ الظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ (يُدَافِعُ) أَي يُدَافِعُ عَنْهُمْ أَعْدَاءَهُمْ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَمْ يَذْكَرِ اللَّهُ مَا يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ لِيَكُونَ أَفْخَمَ وَ أَعْظَمَ.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ
 قيل أن هذه الآية نزلت في المهاجرين الذين أخرجهم أهل مكة من
 أوطانهم وهاجروا مع الرسول وبعده إلى المدينة فلما قروا فيها أمرهم الله
 بالجهاد وبيّن في الآية أنه أذن لهم في قتال من ظلمهم وأخرجهم من أوطانهم
 والمأذون فيه محذوف أي في القتال لدلالة، يقاتلون، عليه وعللّ للأذن بأنهم
 ظلموا قيل كانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروبٍ ومشجوج فيقول
 لهم إصبروا فأني لم أومر بالقتال قيل أنها أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى
 عنه في نيفٍ وسبعين آيةً وقال بعضهم نزلت في قوم خرجوا مهاجرين
 فأعرضهم مشركوا مكة فأذن لهم في مقاتلتهم وأن الله على نصرهم لقدير،
 وعد بالنصر والأخبار بكونه يدفع عنهم.

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَا دَفْعُ
 اللَّهِ لِلنَّاسِ بِبَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ
 يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ
 بعد الإذن في القتال في الآية السابقة بين حال المأذونين فقال: الَّذِينَ
 أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ بل ظلماً محضاً، إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ و
 المعنى إلا أن يقولوا الحق فكأنه قال الَّذِينَ أُخْرِجُوا بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا الْحَقَّ الَّذِي
 هو قولهم: رَبُّنَا اللَّهُ، وقيل، إلا، بمعنى، لكن، و تقديره لكنهم يقولون ربنا الله
 فهو إستثناء منقطع فهو كقولك ما غضبت عليّ إلا إنني منصف، وما تبغض
 فلاناً إلا أنه يقول الحق أي جعلت ذلك ذنبه، وقال القراء تقديره إلا بأن يقولوا
 وعلى هذا فتكون، أن، في موضع الجرّ وقال بعض المفسرين، الذين أخرجوا
 في موضع جرّ، نعتٌ، للذين، أو بدل أو في موضع نصب بأعني، أو في موضع
 رفع على إضمار، هم، والآ أن يقولوا، إستثناء منقطع، وأن يقولوا في موضع
 نصب لأنه منقطع لا يمكن توجه العامل عليه فهو مقدر بلكن، من حيث

المعنى لأنك لو قلت، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ لَمْ يَصَحَّ بخلاف قولك ما في الدَّارِ إِلَّا حِمَارٌ فَأَنَّ الإِسْتِنَاءَ، منقطع ويمكن أن يَتَّوَجَّه إليه العامل فيقول ما في الدَّارِ إِلَّا حِمَارٌ، فهذا يجوز فيه النَّصْبُ و الرَّفْعُ، النَّصْبُ للمجاز و الرَّفْعُ لِيَتِمَّ و أجاز أبو إسحاق فيه الجَّرُّ على البدل و تبعه الرَّمْخَشْرِي فقال: أَنْ يَقُولُوا، فِي مَحَلِّ الجَّرِّ عَلَى الأَبْدَالِ مِنْ حَقِّ أَي بغير موجب سوى التَّوْحِيدِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَوْجِبَ الإِقْرَارِ وَ التَّمَكِينِ لِأَنَّ مَوْجِبَ الإِخْرَاجِ وَ التَّبْشِيرِ وَ مِثْلَهُ، هَلْ تَنْقُضُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَّا^(١) إِنْ تَنْتَهَى.

أقول: و ما أجازاه من البدل لا يجوز لأن البدل لا يكون إلا إذا سبقه نفي أو نهى أو إستفهام في معنى النفي نحو ما قام أحد إلا زيد و لا يضرب أحد إلا زيد و هل يضرب أحد إلا زيد و أما إذا كان الكلام موجبا أو أمرا فلا يجوز البدل لا يقال قام القوم إلا زيد على البدل و لا يضرب القوم إلا زيد على البدل لأن البدل لا يكون إلا حيث يكون العامل يتسلط عليه، و قال البيضاوي، و الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، يعني مكة، بغير حق، أي بغير موجب إستحقوا به، إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ عَلَى طَرِيقِ قَوْلِ التَّابِعَةِ:

و لا عيب غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتاب
و قيل منقطع إنتهى.

أقول: هذا ما ذكرناه في تفسير الآية و لا بأس به و الَّذِي يَخْطُرُ بِالْبَالِ فِي حَلِّ الإِشْكَالِ هُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ الإِذْنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ وَ عِلَّةُ بَأْتِهِمْ ظَلَمُوا فَكَأَنَّهُ قِيلَ مِنْ هؤُلاءِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، فَقَالَ تَعَالَى: الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقِّ أَي أُخْرِجُوا ظَلَمًا لِأَنَّهُمْ لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُمْ ذَنْبٌ إِسْتَحَقُّوا بِهِ لِلإِخْرَاجِ مِنْ أوطانهم إِلَّا قولهم رَبَّنَا اللَّهُ أَي إِلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا بِالتَّوْحِيدِ وَ هَذَا لَيْسَ مِمَّا يَوْجِبُ الإِخْرَاجَ بَلِ الْمَوْجِبُ لَهُ هُوَ الْفَسَادُ فِي الأَرْضِ فِي الآيَةِ ذَمٌّ لِلْكَفَّارِ الَّذِينَ عَدَّوْا التَّوْحِيدَ مِنَ الْفَسَادِ الْمَوْجِبِ لِلإِخْرَاجِ وَ حَاصِلُ الْكَلَامِ أَنَّهُمْ

أخرجوا بسبب قولهم ربنا الله وهذا مثل قولك قتلوا زيداً بإيمانه، وقولك لا ذنب لزيد إلا أنه مؤمن وأما قوله: **وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ فُقَرَاءٍ**، نافع ولولا دفاع الله، ولهدمت بالتخفيف، والمعنى لخربت صوامع، أي صوامع الرهبانية وهي للنصارى، وبيع، بكسر الباء وفتح الياء لهم أيضاً، وصلوات، وهي كنائس اليهود سميت بها لأنها يصلي فيها، ومساجد، وهي للمسلمين، **يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**، صفة للأربع وقيل لمساجد خاصة خصت بها تفضيلاً، **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ الْبَيْتَ**، من ينصر دينه، أن الله لقوي عزيز، وفي الآيات أبحاث:

أحدها: ما أراد بهذا الدفع أو الدفاع الذي أضافه الى نفسه، قيل المراد به هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى: **وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ أَهْلَ الشِّرْكِ بِالْمُؤْمِنِينَ** من حيث أن يأذن لهم في جهادهم وينصرهم على أعدائهم لأستولى أهل الشرك على أهل الأديان و عطلوا ما بينونه من مواضع العبادة و لكنه دفع عن هؤلاء بأن أمرهم بقتال أعداء الذين ليتفرغ أهل الدين للعبادة و بناء البيوت لها و لهذا المعنى ذكر الصوامع و البيع و الصلوات و أن كانت لغير أهل الإسلام إنتهى ما ذكره الرّازي في تفسيره ثم نقل عن المفسرين وجوهاً آخر.

أحدها: قال الكلبي يدفع الله بالنبين عن المؤمنين و بالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد.

ثانيها: روي أبو الجوزاء عن ابن عباس أنه قال يدفع الله بالمحسن عن المسي و بالذي يصلي عن الذي لا يصلي و بالذي يتصدق عن الذي لا يتصدق و بالذي يحج عن الذي لا يحج و عن ابن عمر عن النبي ﷺ أن الله يدفع بالمسلم الصالح عن مئة من أهل بيته و من جيرانه ثم تلى هذه الآية.

ثالثها: قال الضحّاك عن ابن عباس يدفع بدين الإسلام و بأهله عن أهل الدّمة.

وابعها: قال مجاهد يدفع عن الحقوق بالشهود و عن النفوس بالقصاص إنتهى كلامه.

وقال بعض المفسرين من العامة ما هذا لفظه قال علي بن أبي طالب و لولا دفع الله بأصحاب محمد الكفار عن التابعين فمن بعدهم و أخذ الزمخشري قول علي و حسنه و ذيل عليه فقال دفع الله بعض الناس ببعض إظهاره و تسليط المؤمنين منهم على الكافرين بالمجاهدة و لولا ذلك لأستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمتهم و على متعبداتهم فهدموها و لم يتركوا للتصاري بيعاً و لا لرهبانهم صوامع و لا لليهود صلوات و لا للمسلمين مساجد و لغلب المشركون في أمة محمد ﷺ على المسلمين و على أهل الكتاب الذين في ذمتهم و هدموا متعبدات الفريقين إنتهى كلامه.

وقال قوم دفع ظلم الظلمة بعدل الولاة و قالت فرقة بدعاء الأخيار و الأقوال كثيرة و ما نقله عن علي عليه السلام و حسنه الزمخشري هو الحق ثم أن الصوامع و البيع معناهما واضح لا خفاء فيه و أنما الكلام في الصلاة فقال الجمهور صلوات جمع صلاة، و قرأ بعضهم، صلوات، بضم الصاد و قرأ بعضهم، صلوات، بكسر الصاد و سکون اللام، و حكى عن الجحدري بضم الصاد و فتح اللام و عن الكلبي بفتح الصاد و سکون اللام و قيل، صلوات، هي مسجد النصارى بضمين من غير ألف و بئاء منقوطة بثلاث، و قرأ عكرمة، بكسر الصاد و إسكان اللام و واو مكسورة بعدها ياء بعدها ثاء منقوطة بثلاث و قيل أنها عبرانية و ينبغي أن تكون قراءة الجمهور يراد بها الصلوات المعهودة في الملل و كيف كان فالصلوات لليهود و قيل غير ذلك و أما قوله: **وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** إلى آخر الآية فمعناه واضح لا خفاء فيه و من المعلوم أن الله ينصر من نصر دينه.

الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ
 آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ
 فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ ثَمُودُ (٤٢)
 وَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَ أَصْحَابُ
 مَدْيَنَ وَ كَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ
 أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
 أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا
 وَ بَيْتٌ مُعْتَلَّةٌ وَ قَصْرٌ مَشِيدٌ (٤٥) أَقَلَمَ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
 يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ
 تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَ
 يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ
 إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَ
 كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ
 أَخَذْتُهَا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
 إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ
 عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

اللغة

فَأَمَلَيْتُ: الإملاء التأخير أي أخرت عقابهم و حلمت عنهم.
 نَكِيرٍ: بفتح النون و كسر الكاف كالتذير المراد به المصدر أي إنكاره.

المجلد الحادي عشر

فَكَأَيِّنْ: للتكثير.

خَاوِيَةٌ: أي ساقطة.

عُرُوشُهَا: جمع عرش و هو السَّقْف.

مُعْطَلَةٌ: التَّعْطِيلُ إِبْطَالُ الْعَمَلِ بِالشَّيْءِ.

مَشِيدٌ: الشَّدِيدُ الْجِصُّ و قيل رفيع و هو المرفوع بالشَّيد.

الإعراب

فَكَأَيِّنْ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ، أَهْلَكْنَاهَا، أَوْ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَ بِئْرٌ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَرِيْبَةٍ آتَتْ فِي الصُّدُورِ صِفَةً مُؤَكَّدَةً مَعْجَزِينَ حَالٍ.

التفسير

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ غَايِبَةُ الْأُمُورِ
الظاهر أن قوله: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ، صفة من تقدّم ذكره من المهاجرين في سبيل الله قيل وتقديره، لِيُنْصِرَنَّ اللَّهُ مِنْ بِنَصْرِهِ.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ، أي أعطيناهم كل ما لا يَصِحُّ الفعل إلا معه لأنَّ التمكن إعطاء ما يَصِحُّ معه الفعل و المعنى لِيُنْصِرَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ وَ أعطيناهم القدرة على الفعل أَقَامُوا الصَّلَاةَ قِيلَ إِيْقَامَةُ الصَّلَاةِ الْإِيْتِيَانُ بِهَا بِشَرَايِطِهَا وَ آتَوْا الزَّكَاةَ إِذَا وَجِبَتْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ قِيلَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى وَجُوبِهَا إِلَّا أَنْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ نَفْلٌ لِأَنَّ الْإِحْتِيَاطَ يَقْتَضِي ذَلِكَ وَ إِسْتَدْلَوْا عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ مَا رَغِبَ اللَّهُ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَهُ وَ كُلُّ مَا أَرَادَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ فَهُوَ وَاجِبٌ فَالْفِعْلُ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

أقول: في هذا الإستدلال نظر و ذلك لأنَّ الكبرى في القضية ليست بصحيحة فإنَّ الإرادة تتعلّق بالنفل أيضاً و بعبارة أخرى ما أَرَادَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ أَعْمٌ مِنَ الْوَجُوبِ وَ النَّدْبِ فَانْ ثَبِتَ أَنَّ الْإِرَادَةَ تَعَلَّقَتْ بِالْفِعْلِ مَعَ الْمَنْعِ مِنَ النَّقِيضِ

فهو واجى وإلا فهو ليس بواجب ولا يمكن أن يقال أن الإرادة لا تتعلق بالنفل وتفصيل الكلام في الأصول.

وأما وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو ثابت كتاباً وسنةً وإجماعاً ومعقلاً وقد مرّ الكلام سابقاً بما لا مزيد عليه فلا نحتاج في إثباتهما بما ذكره المستدل في المقام وقوله ولله عاقبة الأمور، معناه تصير الأملاك لله تعالى لبطلان كل ملك سوى ملكة وقيل توعد للمخالف ما ترتب على التمكن.

وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ

في هذه الآية تسلية للرسول بتكذيب من سبق من الأمم المذكورة لأنبيائهم ووعيد لقريش إذ مثلهم بالأمم المكذبة المعذبة وأما أسند الفعل بعلامة التأنيث وقال، كذبت، من حيث أراد الأمة أو القبيلة أي كذبت الأمة قبلهم قوم نوح وقد تقدم الكلام في قصة نوح والطوفان وقصة عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وقد مرّ الكلام فيهما أيضاً.

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

المراد بأصحاب مدين، قوم شعيب النبي وقوله: كذّب موسى لم يقل و قوم موسى، لأنّ قومه بني إسرائيل وكانوا أمنوا به وأما كذبه قوم فرعون، فأملت للكافرين، أي أهملت لهم وأخرت عنهم العذاب مع علمي بفعلهم وإستحقاقهم له، ثم أخذتهم، أي هؤلاء الكفار الذين كذبوا الأنبياء فكيف كان إنكاري عليهم وتبديل حالهم الحسنة بالسّيئة وحياتهم بالهلاك ومعمورهم بالخراب وهذا إستفهام فيه معنى التّعجب كأنه قيل ما أشدّ ما كان إنكاري عليهم وفي الكلام إرهاب لقريش ومحصل الكلام في الآية هو نزول العذاب

على الكفار المكذبين بعد الإمهال والإملاء و أنما أمهلهم إتماماً للحجة ليهلك من هلك عن بينة و يحيا من حيٍّ عنها.

وإعلم أن قوم نوح فأهلكهم الله بالطوفان بعد تكذيبهم إياه:

كما قال الله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ^(١).

و أما قوم عاد و هم قوم هود النبي فأنهم أيضاً كذبوه و قالوا أنا لنظنك من الكافرين فأهلكهم الله:

كما قال الله تعالى: فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ^(٢).

و أما قوم ثمود فهم أصحاب صالح النبي و قد عقروا الناقة فوقعوا في العذاب:

كما قال الله تعالى: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ^(٣) إلى أن قال: فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ^(٤).

و قد ذكرنا قصصهم في تلك السورة و هكذا قوم إبراهيم و قوم موسى فلا نعيد الكلام بذكرها في المقام حذراً عن الإطناب و قد مرّ الكلام في تلك السورة في أصحاب مدين و هم قوم شعيب فأنهم كذبوا شعبياً فأهلكهم الله أيضاً:

قال الله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ^(٥).

وسياتي الكلام فيها في المستقبل أيضاً.

٢- الأعراف = ٧٢

١- الأعراف = ٦٤

٤- الأعراف = ٧٨

٣- الأعراف = ٧٧

٥- هُود = ٩٤

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ
مُعْطَلَةٌ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ

فَكَأَيِّنْ للتكثيرِ وهى ظالمة، جملة حالية و المعنى و كم من قرية أهلكتها
لَمَّا اسْتَحَقُوا الإِهْلَاكَ حال كونها ظالمة لنفسها، و المراد أهل القرية أي أنهم
اسْتَحَقُوا العذاب لكونهم ظالمين على أنفسهم بتكذيبهم الرُّسُلَ و ما رَبَّنَا
بظلامٍ للعبيد، و فى هذا الكلام إشارة بل تصريح بأن العذاب فى الدنيا و
الأخرة بسبب أعمال العبد و هو كذلك صرَّحَ بذلك كثيرٌ من الآيات و قوله
خاوية على عروشها أي تهدمت الحيطان على السَّقُوفِ و قيل على عروشها
أي سقوفها و ذلك لأنَّ العرش يطلق على السَّقْفِ، و بئرٍ معطلةٍ و قصرٍ مشيدٍ.

قال الزمخشري معنى المعطلة أنها عامرة منها الماء و معها آلات الإستثناء
إلا أنها عطلت أي تركت لا يستقي منها الهلاك أهلها و المشيد المحصص أو
المرفوع البنيان و المعنى قرية أهلكتها أي أهلها و كم بئر عطلناه عن سقاتها و
قصرٍ مشيدٍ أخليناه عن ساكنيه فترك ذلك لدلالة معطلة عليه إنتهى.

فقوله: وَ يَبْرُ وَ قَصْرٍ، معطوفان على من قرية و من قرية تمييزٌ، لكأين و كأين،
تقتضى التَّكْثِيرَ فدلَّ ذلك على أنه لا يراد بقرية و بئر و قصر، معيَّن و إن كان الإهلاك يقع
فى معيَّن لكن من حيث الوقوع لا من حيث دلالة اللَّفْظِ ثُمَّ أَنَّ بعض المفسرين قد عيَّن
هذه البئر و نقل عن ابن عباس أنها كانت لأهل عدن من اليمن و هو الرُّسُ.

و عن كعب الأحمري أنَّ القصر بناه عاد الثَّانِي و هو منذر بن عاد بن إرم بن
عاد و قال غيره أنَّ البئر بحضر موت و القصر مشرفٌ على قلة الجبل لا يرتقى
إليه و قالوا غير ذلك و الكلُّ لا دليل عليه فلا حاجة إلى نقله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فى تفسير القرآن

جزء ١٧

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الْصُّدُورِ

المجلد الحادى عشر

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِهْلَاكِ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ قَالَ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْهَمْزَةُ لِلِإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ أَيْ أَنَّهُمْ سَارُوا فِيهَا وَرَأَوْا أَثَارَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَعْتَبِرُوا بِهَا عِنَادًا وَكُفْرًا مِنْهُمْ وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْحَثِّ عَلَى السَّفَرِ لِيُشَاهِدُوا مِصَارِعَ الْكُفَّارِ فَيَعْتَبِرُوا ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا أَي إِذَا سَارُوا وَرَأَوْا مِصَارِعَهُمْ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَي بِالْقُلُوبِ أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا صَحَّةٌ مَا ذَكَرْنَاهُ عَمَّنْ أَخْبِرَهُمْ بِصَحَّتِهِ مِنَ الَّذِينَ عَرَفُوا أَخْبَارَ الْمَاضِينَ وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ أَي أَنَّ سَافِرًا وَعَلِمُوا وَعَقَلُوا مَا ذَكَرْنَاهُ هَكَذَا فَسَرُّوا الْكَلَامَ وَالَّذِي يَخْتَلِجُ بِالْبَالِ هُوَ أَنَّ الْفَاءَ لَيْسَتْ لِلتَّفْرِيعِ لِأَنَّ التَّعْقِلَ وَالْإِعْتِبَارَ لَا يَتَّفِرَعُ عَلَى الرَّؤْيِيَّةِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى رُؤْيِيَّةُ الشَّيْءِ لَا تَلْزَمُ الْإِعْتِبَارَ بِهِ فَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ يَرُونَ الْأَثَارَ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا أَكْثَرَ الْعَبْرَ وَأَقَلَّ الْإِعْتِبَارَ وَعَلَى هَذَا فَالْمَعْنَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ لِأَجْلِ التَّعْقِلِ وَالِإِسْتِمَاعِ عَنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ لِيَعْتَبِرُوا بِهَا فَالْمُرَادُ بِالسَّيْرِ هُوَ السَّيْرُ لِلتَّعْقِلِ لَا مُطْلَقَ السَّيْرِ وَلَوْ كَانَ بِقَصْدِ السِّيَاحَةِ مِثْلًا وَأَنَا بَعْدَ مَا إِحْتَمَلْنَا ذَلِكَ رَأَيْنَا فِي تَفْسِيرِ الْبِيضَاوِيِّ مَا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ فَاتَّهَ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ مَا هَذَا لَفْظُهُ، حَثُّ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَسَافِرُوا لِيَرَوْا مِصَارِعَ الْمُهْلَكِينَ فَيَعْتَبِرُوا وَهُمْ وَأَنْ كَانُوا قَدْ سَافَرُوا لَمْ يَسَافِرُوا لِذَلِكَ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا مَا يَجِبُ أَنْ يَعْقِلَ مِنَ التَّوْحِيدِ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْإِسْتِبْصَارِ وَالِإِسْتِدْلَالِ إِنْتَهَى.

فَقَوْلُهُ وَأَنْ كَانُوا قَدْ سَافَرُوا لَمْ يَسَافِرُوا لِذَلِكَ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا الْخِ دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ فَأَنَّ قَوْلَهُ لَمْ يَسَافِرُوا لِذَلِكَ أَي لِلتَّعْقِلِ وَالِإِعْتِبَارِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَاتَّهَ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ، فَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ، فَاتَّهَ الضَّمِيرُ ضَمِيرُ الشَّانِ وَالْقِصَّةُ يَجِيءُ مَذْكَرًا وَ

مؤثراً و في قراءة ابن مسعود فأنه، و يجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره الأبصار و في تعمي ضميرٍ راجعٍ إليه و المعنى أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها و أما العمى بقلوبهم أو لا يعتدّ بعمى الأبصار فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب إنتهى كلامه.

أقول في الآية إشارة إلى نقطةٍ خفيةٍ دقيقة و هي الحواس أعني بها الباصرة و السامعة و اللامسة و الذائقة و الشامة وظيفتهما الإدراك المجرد و أما حسن المدرك أو قبحه فهو من وظائف العقل الذي مدركٌ للكليات فالمدرك بأحدى القوى ينتقل إلى العقل و هو الحاكم فيه و محلّه القلب و بهذا يفترق الإنسان عن الحيوان ألا ترى أن هذه الحواس موجودة في الحيوان أيضاً بل هي فيه أشدّ و أقوى منها في الإنسان في أكثر الحيوانات إلا أنه ليس للحيوان فيها تعقل و تدبر فلو كان الإنسان أيضاً كذلك فما الفرق بينه و بين الحيوان و على هذا ينبغي أن يكون الإنسان متّعلاً متدبراً فيما يراه بعينه أو يسمع بأذنه و هكذا و هذا هو المترقب منه فمن رأى شيئاً ببصره و لا يعقله فكأنه لم يبصره إذا عرفت هذا.

فقوله تعالى: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** معناه أن كثيراً من الناس يرون الأثار و لكن لا يعقلوها فعبر عن عدم التّعقل بعمى القلوب مجازاً:

كما قال الله تعالى: **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا**
الى قال: **أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ^(١)** والله أعلم.

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ

أي يستعجلونك يا محمد بالعذاب قيل أنه ﷺ كان يحذر قریش نقمات الله و يوعدهم بذلك دنياً و آخرة و هم لا يصدّقون بذلك و يستبعدون وقوعه فكان إستعجالهم على سبيل الإستهزاء و أنّ ما توعّدنا به لا يقع و أنه لا بعث و لا نشور و فى قوله: وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، إشارة إلى أنّ ذلك واقع لا محالة لكن لوقوع العذاب أجل لا يتّعداه و أضاف الوعد إليه تعالى لأنّ رسوله هو المخبر عنه تعالى فوعده ﷺ وعده ثمّ أنّه تعالى أنكر عليه إستعجالهم بالمتّوعد به من العذاب العاجل و الأجل فكأنّه قال و لم يستعجلون به كأنهم يجوّزون الفوت و الخلف و لم يعلموا أنّه يجوّز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف و الله عزّ و جلّ لا يخلف الميعاد و ما وعده ليصيبهم و لو بعد حين و هو سبحانه حلیم لا يعجل ثمّ قال و أنّ يوماً عند ربّك كألف سنةٍ ممّا تعدّون.

إختلفوا فى هذا التّشبيه فقيل فى العدد أي اليوم عند الله ألف سنة من عددكم و فى الحديث يدخل فقراء المسلمين الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم و ذلك خمس مائة عامٍ و عليه فالمعنى، و أن طال الإمهال فأته فى بعض أيام الله.

و قيل التّشبيه وقع فى الطّول للعذاب فيه و الشّدّة أي و أنّ يوماً من أيام عذاب الله لشّدّة العذاب و طوله كألف سنة من عدّوكم فكان ذلك اليوم الواحد كألف سنة من سنّي العذاب و المعنى أنّهم لو عرفوا حال الآخرة ما أستعجلوه، و قيل التّشبيه بالنّسبة الى علمه تعالى و قدرته و إنفاق ما يريد كألف سنة و أقصر على ألف سنة و أن كان اليوم عنده كما لا نهاية له من العدد و لكون الألف منتهى العدد و دون تكرار.

و قال ابن عباس أراد باليوم من الأيام التي خلق الله فيها السّموات و الأرض.

وقال ابن عيسى يجمع لهم عذاب ألف سنة في يوم واحدٍ ولأهل الجَنَّةِ سرور ألف سنة في يوم واحدٍ، وقال الفراء تَضَمَّت الآية عذاب الدنيا والآخرة وأريد العذاب في الدنيا أي لن يخلف الله وعده في إنزال العذاب بكم في الدنيا وأن يوماً من أيام عذابكم في الآخرة كآلف سنة من سني الدنيا فكيف تستعجلون العذاب والأقوال في هذا التَّشْبِيهِ كثيرة.

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ
قلنا أن، كأيِّن، للتكثير أي وكم من قرية والمقصود أهلها فهو من قبيل قوله تعالى وأسئل قرية، أي وأسئل أهلها، أمليت، الإملاء والإملا والتأخير نظائر والمعنى أخرجت العذاب عنها وأن شئت قلت أمهلتها وهي ظالمة، الواو للحال أي حال كونها ظالمة ولا يبعد أن يكون الإمهال والتأخير لأجل التوبة والرجوع عما كانوا عليه من العصيان فقله: ثُمَّ أَخَذْتُهَا، أي بعد الإملاء والإمهال أخذتها بالعذاب وفي هذا الكلام إشارة إلى أن الله تعالى رؤوف بعباده وهو كذلك وقوله: وَإِلَى الْمَصِيرِ، إشارة إلى أن الأمور تصير إليه.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

أمر الله نبيه أن يقول للمشركون أيها الناس إنما أنا لكم نذير، أي مخوف من عذاب الله وموضح لكم ما يجب عليكم فعله وما يجب عليكم تركه قال الله تعالى: **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَبِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** (١) فذكر النذارة دون البشارة لأن الحديث مسوق للمشركون وقوله: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ نداء لهم وهم المقول فيهم (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) والمنجز عنهم باستعجال العذاب وحصر النذارة فيه لأن المعنى ليس لي بتعجيل العذاب ولا تأخير عذابي عنكم وإنما هو بيد الله وإرادته وإنما أنا منذركم به وما على الرسول إلا البلاغ:**

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

و المراد بالإيمان هو التصديق بوحديته ونبوة رسوله ثم العمل و لذلك أردف الإيمان بالعمل الصالح و قال: وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ و فيه إشارة بل دلالة على أن الإيمان لا يتحقق إلا بالعمل الصالح و مجرد الاعتقاد و الإقرار لا يكفي في تحقيقه فمن كان مؤمناً له مغفرة من الله لمعاصيه و رزق كريم أي مع إكرامهم بالثواب الذي لا يقاربه تعظيم و لا تبجيل ففي الآية السابقة أثبت للرسول الإنذار و في هذه الآية أثبت البشارة.



وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
 مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيِّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ
 فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
 يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ
 مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
 وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ
 بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ
 اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)
 وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى
 تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ
 (٥٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
 (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا
 حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)
 لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ
 (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ
 بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَتُصَّرَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠)

◀ اللِّغَةُ

مُعَاجِزِينَ: قيل عاجز أي سابق و عجز أي سبق.
 أُمْنِيَّتِهِ: بضم الألف و كسر التَّوْنِ و فتح الياء معناها الفكرة بلغة قريش.
 فَتَحْتُبَتَ: الإحبات الأطمئنان.
 بَعْتَهُ: أي فجأةً.
 لَعَفُوٌّ عَفُورٌ: مبالغة من العفو و الغفران.

◀ الإِعْرَابُ

مُعَاجِزِينَ حال و يقرأ، معجزين أيضاً إِلَّا إِذَا تَمَنَّى قيل هو إستثناء من غير
 الجنس قُلُوبِهِمْ مرفوع بإسم الفاعل و هو القاسية فَيُؤْمِنُوا هو معطوف على،
 ليعلم، و كذلك فتختب في مَرْيَةَ بالكسر و الضَّم و هما لغتان يَوْمَئِذٍ منصوب
 بقوله، لله، و لله الخبر.

◀ التَّفْسِيرُ

وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
 قيل في معناه أَنَّ الَّذِينَ يعجزون المؤمنين في قبول هذه الآيات أي
 يعجزونهم من إقامتها بجحدهم تدبير الله لها، و قيل معناه يعجزونهم عن
 تصحيحها و السَّعي الإسراع في المشى.
 و قال مجاهد معناه من إتباع آيات الله هذا كله على قراءة معجزين بغير
 ألف.

و أما على قراءة، معجزين، كما عليها المصاحف كلها و هي المشهور
 فالمعنى أَنَّهُمْ يجادلون عجز الغالب و منهم من قرأ، معجزين، بالتشديد و
 معناه طلب إظهار العجز و قال ابن عباس معنى، معجزين، ماقين، و قيل
 معنى، معجزين، مسابقين.

وقال بعض المفسرين السعي الطلب والاجتهاد في ذلك يقال سعى فلان في أمر فلان، فيكون بإصلاح وفسادٍ وقد يستعمل في الشر يقال فيه سعى بفلان سعاية أي تحيّل وكاد في إيصال الشر اليه وسعيهم بالفساد في آيات حيث طعنوا فيها فسموها سحراً وشعراً وأساطير الأولين وثبطوا الناس عن الإيمان بها.

قال الزمخشري، عاجزه، سابقه، فالمعنى سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أنّ كيدهم للإسلام يتم لهم إنتهى.
وقال أبو عليّ الفارسي، معجزين معناه ناسبين أصحاب النبي الى العجز كما تقول فسقت فلاناً إذا نسبته الى الفسق.

أقول: معنى الآية لا خفاء فيه ولا يحتاج الى هذه التخرجات والمعنى، الذين سعوا في آياتنا بالرّد والإبطال، معاجزين، أي مسابقين مشتاقين للساعين فيها بالقبول والتحقق من عاجزه فأعجزه وعجزه إذا سابقه فسبقه لأنّ كلاً من المتسابقين.

يطلب إعجاز الآخر عن اللحاق به:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

روي عن ابن عباس وابن جبير وغيرهما في سبب نزول الآية أنه لما تلى النبي: أَفَرَأَيْتُمْ أَتْلَاتٍ وَأَعْرَئِي وَمَنُوءَةَ ثَالِثِئَةَ الْأَحْرَى^(١).

ألقي الشيطان في تلاوته، تلك الغرائق العلى وأن شفاعتهن لترجى، ومعنى الآية التسلية للنبي ﷺ وأنه لم يبعث الله نبياً ولا رسولاً إلا إذا تمنى

يعني، تلا، ألقى الشيطان في تلاوته بما يحاول تعطيله فيرفع الله ما ألقاه بمحكم آياته و قيل، الأمانة الفكرة بلغة قریش.

و قال مجاهد كان النبي ﷺ إذا تأخر عنه الوحي تمنى أن ينزل عليه فيلقي الشيطان في أميته فينسخ الله ما يلقي الشيطان و يحكم آياته.

و قال الجبائي أنما كان يغلط في القراءة سهواً فيها و ذلك جائز على النبي لأنه سهواً لا يعري عنه بشر و لا يلبث أن ينهه الله تعالى عليه.

و قال غيره أنما قال ذلك في تلاوته بعض المنافقين عن إغواء الشياطين و أمرهم أنه من القرآن، و قال الحسن أنما قال هي عند الله كالغرائق العلى يعني الملائكة في قولكم و أن شفاعتهم لترجى في إعتقادكم و التمني في الآية معناه التلاوة.

قال الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلةٍ و آخره لاقى حمام المقادر

و قال الجبائي أنما سهى النبي في القراءة نفسها فأما الرواية بأنه قرأ تلك الغرائق العلى و إن شفاعتهم لترجى، فلا أصل لها لأن مثله لا يغلط على طريق السهو و أنما يغلط في المتشابه إنتهى ما ذكره في التبيان في تفسير الكلام.

و قال بعض المفسرين من العامة أن الأنبياء كانوا حريصين على إيمان قومهم و أنه ما منهم أحداً إلا و كان الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه و بث ذلك اليهم و إلقاء في نفوسهم كما أنه ﷺ كان أحرص الناس على هدى قومه و كان فيهم شياطين كالتضر بن الحرث يلقون لقومه و للوفادين عليه شياً يتبطون بها عن الإسلام و لذلك جاء قبل هذه الآية وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ و سعيهم بإلقاء الشبه في قلوب من إستحاله و نسب ذلك الى الشيطان لأنه المغوي و المحرك شياطين الإنس للإغواء كما قال لأغوينتهم، إنتهى.

وقيل أنّ المراد بالشيطان هنا هو جنس يراد به شيطان الإنس و الضمير في، أمنيته، عائد الى الشيطان أي في أمنيته نفسه أي بسبب أمنيته، نفسه و مفعول، ألقى، محذوف لفهم المعنى و هو الشر و الكفر و مخالفة ذلك الرسول أو النبي لأنّ الشيطان ليس يلقي الخير و معنى فينسخ الله ما يلقي الشيطان أي يزيل تلك الشبهة شيئاً فشيئاً حتى يسلم الناس كما قال، و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا إنتهى.

أقول نحن نذكر قصة الغرائق بتمامها ثم نتكلم فيها.

قال الرّازي في تفسيره ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أنّ الرسول ﷺ لما رأى إعراض قومه عنه و شقّ عليه ما رأى من مباعدهم عمّا جاءهم به تمنى أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه و بين قومه و ذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله و أحبّ يومئذٍ أن لا يأتيه من الله شيئاً ينفروا عنه و تمنى ذلك فأنزل الله سورة، والنجم إذا هوى فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله أفرايتم اللات و العزى و مائة الثالثة الأخرى، ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرائق العلى منها الشفاعة ترتجى، فلما سمعت ذلك قريش فرحوا و مضى رسول الله ﷺ في قرائته فقرأ السورة كلها فسجد المسلمون لسجوده و سجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمناً و لا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة و أبي أصيحة سعيد بن العاصي فأنهما أخذتا حفنة من التراب من البطحاء و رفعها الى جبهتهما و سجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود و تفرقت قريش و قد سرّهم ما سمعوا و قالوا قد ذكر محمد ألهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبرئيل فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم أتك به عن الله و قلت ما لم أقل لك فحزن رسول الله حزناً شديداً و خاف من الله خوفاً عظيماً حتى نزل قوله تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ

هذا رواية عامة المفسرين الظاهرين و أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطله موضوعة و احتجوا عليه بالقرآن و السنة، و المعقول إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

ثم شرع في الاستدلال على بطلان الرواية مفصلاً بما لا مزيد عليه و نقل عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سأل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة و صنّف فيه كتاباً و قال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم فقد روي البخاري في صحيحة أن النبي ﷺ قرأ سورة، و النجم، و سجد فيها المسلمون و المشركون و الإنس و الجنّ و ليس فيه حديث الغرائق و روي هذه الحديث من طرق كثيرة و ليس فيها ألبتة حديث الغرائق هذا ما ذكره الرّازي في ردّ الحديث من طرق السنّة ثم شرع في ردّه من طريق العقل فقال و أما المعقول فمن وجوه:

أحدها: أن من جوّز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن سعيه ﷺ كان في نفي الأوثان.

ثانيها: أنه كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي و يقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدّوا أيديهم اليه و أنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلاً أو في أوقات خلوة و ذلك يبطل قولهم.

ثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقرّوا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خرّوا سجداً مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم.

رابعهما: قوله: **فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** وذلك لأنَّ إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنًا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى.

خامسها: وهو أقوى الوجوه لو جَوَّزنا ذلك إرتفع الإمامان عن شرعه و جَوَّز في كلِّ واحدٍ من الأحكام و الشرائع أن يكون كذلك و يبطل:

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ^(١).

فأنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي و بين الزيادة فيه فهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أنَّ هذه القصَّة موضوعة أكثر ما في الباب أنَّ جمعاً من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حدَّ التواتر و خبر الواحد لا يعارض الدلائل العقلية و التقلية المتواترة إنتهى ما ذكره و حققه في المقام.

و قال الطبرسي رحمته الله في المجمع في قوله تعالى: **إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ** ما هذا لفظه قال المرتضى رحمته الله لا يخلو التمني في الآية من أن يكون معناه التلاوة كما قال حسان بن ثابت:

تمنى كتاب الله أول ليلةٍ و آخره لاقى الحمام المقادر

أو يكون التمني فأن كان المراد التلاوة فالمعنى أنَّ من أرسل قبلك من الرُّسل كان إذا تلى ما يؤديه الى قومه حرّفوا عليه و زادوا فيما يقوله و نقّصوا كما فعلت اليهود و أضاف ذلك الى الشيطان لأنه يقع بغروره فينسخ الله ما يلقي الشيطان أي يزيله و يدحضه بظهور حججه و خرج هذا على وجه التسلية للنبي لما كذب المشركون عليه و أضافوا الى تلاوته من مدح آلهتهم ما لم يكن فيها، و أن كان المراد تمنى القلب فالوجه أنَّ الرسول متى تمنى بقلبه

ما يَتَمَنَّا من الأمور ووسوس إليه الشَّيْطَانُ بالباطل يدعوه إليه و ينسخ الله ذلك و يبطله بما يرشده إليه من مخالفة الشَّيْطَانِ و ترك إستماع غروره قال و أمَّا الأحاديث المروية في هذا الباب فهي مطعونة مضغطة عند أصحاب الحديث، إلى أن قال و لا يجوز أن يقع مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السُّورَةِ و نظمها ثم لمعنى ما تقدما من الكلام و قد قال الله سبحانه: **كَذَلِكَ لِنُنشِئَ بِهِ قُودًاكَ** ^(١) و قال: **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى** ^(٢) إلى آخر كلامه.

أقول: إنَّما ذكرنا ما نقله الرّازي من العامّة و الطّبرسي من الخاصّة بطوله و تفصيله لتعلم أنّ حديث الغرانيق من الموضوعات بإجماع المحقّقين من العامّة و الخاصّة إذا عرفت هذا.

فتقول مضافاً إلى ما ذكره في وجه البطلان أنّه قد ثبت عقلاً و نقلاً عصمة النّبِيّ و هذا ممّا لا كلام فيه إلّا أنّ أكثر العامّة قالوا بها بعد البعثة و أمّا قبلها فلا و قال بعضهم بعدمها بعد البعث أيضاً إلّا في تبليغ الأحكام و أمّا الخاصّة فقالوا بعصمة الأنبياء قولاً واحداً قبل البعثة و بعده و على هذا فالعصمة ثابتة في حقّ الرّسول في تبليغ الأحكام الشرعيّة بإجماع المرّكب و لا شك أنّ تبليغ الآيات من الأحكام فإذا فرضنا صحّة إلقاء الشَّيْطَانِ على لسانه يلزم عدم الإعتقاد و هو كما ترى ينافي عصمته هذا أولاً.

ثانياً: قد ثبت أنّ الشَّيْطَانِ لا يقدر على إغواء المخلصين من عباد الله فضلاً عن الأنبياء و الرّسل و الأوصياء و قد دلّت الآيات عليه و من المعلوم أنّ إلقاء الشَّيْطَانِ في أمّيته لا يكون إلّا بعد تسلّط الشَّيْطَانِ على النّبِيّ و هو مناف لصريح الآيات كما حكى الله تعالى عنه بقوله: **فَبِعِزَّتِكَ لأَعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ^(٣) و لا يكون عبداً أخلص في عبادته من النّبِيّ و الرّسول.

ثالثاً: أن الله تعالى قال في الرسول و ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى^(١) فلو صح إلقاء الشيطان على لسانه لصح إلقائه في جميع الأحكام لأن حكم الأمثال واحد.

فأن قلت: لعل من جاوز ذلك حملة على السهو يجوز على النبي على مسلك العامة وبعض الخاصة.

قلت: أما أولاً لا يجوز عليه السهو على مذهب الحق لأنه ينافي العصمة كما ثبت في محله.

ثانياً: لا يمكن حملة على السهو لأن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة و نظمها ثم لمعنى ما تقدمها من الكلام و هو ظاهر على المتأمل هذا تمام الكلام في تفسير الآية و سيأتي البحث فيه في سورة النجم إنشاء الله.

و أما قوله: ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ معناه يُبْقِي آيَاتِهِ وَ دلائله و أوامره محكمة لا سهو فيها و لا غلط، و أما ما قاله بعض المفسرين من أن المراد بالشيطان هو جنسه يراد به شياطين الإنس و الضمير في أمنيته، عائد على الشيطان أي ما ألقى الشيطان في، أمنيته، نفسه أي بسبب أمنية نفسه و مفعول، ألقى محذوف لفهم المعنى و هو الشر و الكفر و مخالفة ذلك الرسول و النبي لأن الشيطان ليس يلقي الخير و معنى فينسخ الله ما يلقي الشيطان أي يزيل تلك الشبهة شيئاً فشيئاً إلى آخر كلامه فهو و أن كان بمحل من الإمكان إلا أنه مخالف لظاهر الآية مضافاً إلى أن جمهور المفسرين على خلافه و الله أعلم بحقيقة كلامه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ آتِيسِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

المجلد الحادي عشر

الفتنة الإبتلاء و الإختبار و الذين في قلوبهم مرض عامّة الكفّار و المنافقين و الشّاكين و القاسية قلوبهم حوّاص من الكفّار كأبي جهل و النّضر و عتبة و قيل المشركون المكذّبون، و أنّ الظالمين أي و أنّ هؤلاء المنافقين و المشركين و أصله و إنهم، فوضع الظّاهر موضع المضمّر قضاءً عليهم بالظلم، و الشّقاق المشاقفة أي، أي في غير شقّ الصّلاح و وصفه بالبعيد مبالغةً في إنتهائه و أنّهم غير مرّجو رجعتهم منه و معنى الآية أنّه تعالى يجعل ما يلقيه الشّيطان من الأمنيّة، فتنة أي إمتحاناً و إختباراً للذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم.

أن قلت: كيف يصح أن يجعل الله ما يلقيه الشّيطان فتنة.

قلت: ذكروا في معنى الجعل أمرين:

أحدهما: الحكم و التسمية كما تقول جعلت حسني قبيحاً و يكون المراد أنّه ينسخ ما يلقي الشّيطان طلباً للفتنة و الإغواء.

الثاني: أنّه أراد ليجعل نسخ ما يلقي الشّيطان فتنة لأنّ نفس فعل الشّيطان لا يجعله الله فتنة لأنّ ذلك قبيح و هو تعالى منزّه عنه و عليه فمعنى الفتنة في الآية المحنة و تغليظ التكليف للذين في قلوبهم مرض، أي شكّ و نفاق و قلة معرفة هكذا قيل في معنى الجعل و نحن نقول لا إشكال في حمل الكلام على ظاهره و أن يكون المراد بالفتنة و الإختبار و الإمتحان كما دلّت بل صرّحت به الآيات فلا نحتاج إلى هذه التّأويلات.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

الواو للعطف أي أنّ الله يحكم آياته ليجعل ما يلقي الشّيطان فتنةً و ليعلم الذين أوتوا العلم أنّه الحقّ، و المقصود أنّه فتنة أي إختبار لمن كان في قلبه مرض و سببّ للوصول إلى الحقّ للذين أوتوا العلم:

حزء ١٧

المجلد الحادي عشر

قال الله تعالى: **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ^(١).

و أما الذين أتوا العلم بالله و صفاته و أن أفعاله صواب فأنهم يعلمون أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، أي تطمئن إليه و تسكن و يعلمون أن الله لهاد الذين آمنوا، به و برسوله، إلى صراطٍ مستقيم و قد تكلمنا فيه عند قوله تعالى: **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ^(٢) في سورة الحمد و قلنا أن الصراط المستقيم صراط علي و أهل بيته.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ

الضمير في (منه) عائد على القرآن و قيل على الرسول و قيل على، ما ألقى الشيطان، و المرية بكسر الميم الشك و المعنى أن الكفار لا يزالون في شك من القرآن أو الرسول و يستمر الشك فيهم حتى تأتيهم الساعة أي القيامة بغتة أي فجأة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، أي يوم القيامة و قيل عذاب يوم بدر و الحق هو الأول و أما سمى عقيماً لأنه لا ليلة بعده يوم و قيل لأنه لا مثل له في عظم أمره، و حتى، غاية لإستمرار مريتهم فالمعنى حتى تأتيهم الساعة أو عذاب يوم عقيم فتزول، مريتهم و يشاهدون الأمر عياناً و جملة هذه الآية توعد و تهديد.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ

التنوين في، يومئذ، تنوين العوض و الجملة المعوض منها هذا التنوين هو الذي حُذف بعد الغاية و التقدير المُلْك يوم نزول مريتهم لله و الظاهر أن المراد

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

بهذا اليوم هو يوم القيامة من حيث أنه لا مُلْكَ لأَحَدٍ فيه من مَلُوكِ الدُّنْيَا كما قال تعالى: **لِمَنْ أَمْلَكُ أَيُّومٍ لِيْلَهُ أَلْوَابِدُ أَنْفَهَارٍ** ^(١) وِإِسْتَدَلُّ بَعْضُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ مَلَكَ فِي الدُّنْيَا أَقْوَامًا كَثِيرَةً أَشْيَاءَ كَثِيرَةً وَالْمَلِكُ عِبَارَةٌ عَنِ إِتْسَاعِ الْمَقْدُورِ لِمَنْ لَهُ تَدْبِيرُ الْأُمُورِ فَاللَّهُ تَعَالَى يَمْلِكُ الْأُمُورَ لِنَفْسِهِ وَلِكِ مَالِكٍ سِوَاهُ فَأَمَّا هُوَ مُمْلِكٌ لَهُ بِحُكْمِهِ إِمَّا بِدَلِيلِ السَّمْعِ أَوْ بِدَلِيلِ الْعَقْلِ إِنْ تَهَيَّئَ كَلَامَهُ.

أَقُولُ: الْحَقُّ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِذْ لَا مَالِكَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا هُوَ تَعَالَى وَالسَّرْفُ فِيهِ أَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَمَا سِوَاهُ كَانَتْ مَا كَانَ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ قَائِمٌ بِهِ بَلْ لَا وَجُودَ لَهُ مُسْتَقْلَالًا لِأَنَّهُ مَوْجُودٌ بِهِ وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مَمْلُوكٌ لَهُ تَعَالَى فَأَنَّ الْعَبْدَ وَمَا فِي يَدِهِ كَانَ لِمَوْلَاهُ وَإِذَا كَانَ مَمْلُوكًا فَهُوَ الْمَالِكُ لَا غَيْرَهُ فَلَهُ الْمَلِكُ قِطْعًا فِي جَمِيعِ الْمَرَاهِلِ وَأَمَّا تَخْصِيصُهُ بِلَا قِيَامَةَ حَيْثُ قَالَ يَوْمَئِذٍ أَيُّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَنَّهُ يَوْمَ الْحُكْمِ وَالْفَصْلِ كَمَا قَالَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ الْمَلِكُ بِضَمِّ الْمِيمِ الْحَقُّ الدَّائِمُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ لَهُ وَالْحَمْدُ.

وَقُلِّ أَللَّهُمَّ مَالِكِ أَلْمُلْكِ تَوْتِي أَلْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ أَلْمُلْكِ مِمَّنْ تَشَاءُ ^(٢) فَالْمَلِكُ ضَبُطَ الشَّيْءِ الْمَصْرُفِ بِالْحُكْمِ وَالْمَلِكُ بِكَسْرِ الْمِيمِ كَالْجِنْسِ لَهُ فَكُلُّ مَلِكٍ مَلِكٌ وَلَيْسَ كُلُّ مَلِكٍ مَلِكًا وَحَاصِلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِمَكَانٍ خَالِقِيَّتِهِ هُوَ مَالِكُ الْمَلِكِ وَالْحَاكِمُ فِيهَا سِوَاهُ فَالَّذِينَ أَمَّنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ جَزَاءٌ بِمَا عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ وَأَمَّا قَالَ، جَنَّاتٍ، بِلَفْظِ الْجَمْعِ لِكُونَ الْجَنَانِ سَبْعًا، جَنَّةُ الْفَرْدُوسِ، جَنَّةُ عَدْنٍ، وَجَنَّةُ النَّعِيمِ، وَدَارُ الْخُلْدِ، وَجَنَّةُ الْمَأْوَى وَدَارُ السَّلَامِ، وَعَلِيَيْنِ.

وَأَصْلُ الْجَنِّ سِتْرُ الشَّيْءِ عَنِ الْحَاسَةِ ثُمَّ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ هُوَ كُلُّ عَمَلٍ يَحْكُمُ بِحُسْنِهِ الْعَقْلُ وَالشَّرْعُ وَمَا لَيْسَ كَذَلِكَ فَهُوَ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا يَسْتَرِبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَفِي هَذِهِ آيَةٌ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالْعَمَلِ فَالْعَمَلُ شَرْطٌ فِي تَحَقُّقِهِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَشْرُوطَ يَتَنَفَّى بِإِنْتِفَاءِ شَرْطِهِ فَالْإِيمَانَ

ينتهي بانتفاء العمل وهذا هو الحقّ عندنا معشر الشيعة خلافاً لأكثر العامة حيث ذهبوا إلى أنّ الإيمان يحصل بمجرد الاعتقاد ولا يكون العمل شرطاً في حصوله ولم يعلموا أنّ الآثار مترتبة على الوجود الخارجي و أما الذّهني فلا يترتب عليه الأثر وعلى هذا فالإيمان الموجود في الخارج يترتب عليه الثواب وهو لا يوجد في الخارج إلا بالعمل ولذلك قال تعالى أمنوا وعملوا الصّالحات.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ

قيل نزلت الآية في قوم من المشركين أتوا جماعة من المسلمين فقاتلوهم في الأشهر الحرم بعد أن نهاهم المسلمون عن ذلك فأبوا فنصروا عليهم وقيل أنّ النبي عاقب بعض المشركين لما مثلوا بقوم من أصحابه يوم أحد والعذاب المهين هو العذاب الذي يهينهم ويذلهم في الآخرة وذلك لأنّ الهوان الإذلال بتصغير القدر والظاهر أنّ المراد بالآيات هو آيات الكتاب كما عليه جمهور المفسرين والحقّ عندنا هو أنّ المراد بها معناها العامّ الشامل للآيات التكوينية والتشريعية والمراد بالآيات التكوينية الموجودات الخارجية التي هي مخلوقة لله تعالى، وبالآيات التشريعية الآيات القرآنية والكفر بهما وتكذيبهما إنكارهما والقول بأنهما ليسا من الله تعالى فالكافر بالتكوينية منكر لوجود الخالق وفي التشريعية منكر لوجود التكلم وأنّ القرآن كلام الله وكلاهما كفر بالله هذا إن أردنا التكوينية بمعناها العامّ الشامل لجميع الموجودات الخارجية وأما أنّ قلنا بأنّ المراد بها مصاديقها الأتمّ الأكمل أعني بها الأنبياء والأوصياء فالأمر أوضح وأظهر وأي فرق بين إنكار النبي أو الوصي وبين إنكار القرآن وأنه كلام الله.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

قيل لَمَّا مات عثمان بن مظعون و أبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض النَّاس من قتل من المهاجرين أفضل ممَّن مات حتف أنفه فنزلت الآية و حكم الله فيها بالتسوية بينهما و عدم الفرق بين الموتين هكذا قيل و الحقُّ أنَّ الآية نزلت في الَّذِينَ خرجوا من ديارهم و أوطانهم بغضاً للمشركين الَّذِينَ كانوا يُؤذونهم بمكَّة ثم قتلوا في سبيل الله أو ماتوا حتف أنفهم فحكم الله تعالى بعدم الفرق بين القتل و الموت حتف الأنف و ذلك لأنَّ الملاك و هو الهجرة إلى الله خالصاً لوجهه الكريم موجود فيهما و قوله: **لِيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا**، قيل هو الجنة و ما فيها من النعم و قيل هو عبارة عن التَّقَرُّبِ إلى الله الَّذِي يعبر عنه بمقام العندية المشار إليه بقوله عند ربهم يرزقون، و قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** الرَّزْقُ بكسر الرَّاء يقال للعطاء الجاري تارةً دنوباً كان أم أخروباً و للتَّصِيبِ تارةً، و لما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارةً، يقال أعطى السُّلطان رزق الجند، كما يقال رزقت علماً و فهماً، و الرَّازِقُ يقال لخالق الرَّزْقِ و معطيه و المسبب له و هو الله تعالى و قد يقال ذلك للإنسان الَّذِي يصير سبباً في وصول الرَّزْقِ، و الرَّزاق لا يقال إلا لله تعالى شكَّ أنَّ الله تعالى خير الرازقين.

إمَّا لأنَّ أصل الرَّزْقِ بيده و إمَّا لأنه أي الرَّزْقُ منه تعالى على سبيل التَّفْضيل و لذلك يعطي المؤمن و الكافر و هو واضح فهو خير الرازقين.

لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ

أي ليدخلنهم الله المهاجرين في سبيل الله الَّذِينَ قتلوا أو ماتوا في طاعته، مدخلاً يرضونه الجنة و معنى، يرضونه، يختارونه إذ فيه رضاهم و قرأ نافع، مدخلاً يفتح الميم يريد المصدر أو إسم المكان و تقديره مكاناً يرضونه.

و أما قوله: **وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ** قيل في معناه، أنه تعالى علِيمٌ بأحوالهم حلِيمٌ عن ماجلة الكفَّار بالعقوبة و لا مشاعة فيه.

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَعَفُوفٌ غَفُورٌ

قيل نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم الكفار في الأشهر الحرم فأبى المؤمنون من قتالهم وأبى المشركون إلا القتال فلما إقتتلوا جدد المسلمون و نصرهم الله و مناسبة الآية لما قبلها واضحة و هو أنه تعالى لما ذكر ثواب من هاجر و قتل أو مات في سبيل الله أخبر أنه لا يدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم و قال ابن جريح الآية في المشركين بغوا على رسول الله و أخرجه و التقدير و الأمر ذلك إنتهى.

ثم وصف الله نفسه بأنه عفو غفور، و هما مبالغتان في العفو و المغفرة قال الزمخشري فإن قلت كيف طابق ذكر العفو الغفور هذا الموضع.

قلت: المعاقب مبعوث من جهة الله عز و جل على الإخلال بالعقاب و العفو عن الجاني على طريق التنزيه لا التَّحريم و مندوب إليه و متَّوجِب عند الله المدح أن أثر ما ندب إليه و سلك سبيل التنزيه فحين لم يؤثّر ذلك و أنتصر و عاقب و لم ينظر في قوله تعالى: **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** (١) و أن تعفو أقرب للتقوى، و لمن صبر و غفر أن ذلك لمن عزم الأمور فإنَّ الله لعفو غفور، أي لا يلومه على ترك ما بعثه عليه و هو ضامن لنصره في كرّته الثانية من إخلاله بالعفو و إنتقامه من الباغي عليه و يجوز أن يضمن له النصر على الباغي و يعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو و يلوح به بذكر هاتين الصفتين أو دلّ بذكر العفو و المغفرة على أنه قادر على العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده (ذلك) أي ذلك النصر بسبب أنه قادر إنتهى كلامه.

أقول: ما ذكره لا بأس به و الذي يختلج بالبال في وجه ذكر الوصفين في المقام هو أنه تعالى متَّصف بهما فإن كان المقام مقام العفو فهو عفو و أن كان

المقام مقام المغفرة فهو غفورٌ أي أنه غافر الذنب و توضيح الكلام إجمالاً هو أنّ العفو ضدّ الإنتقام و هو إسقاط ما يستحقّه من قصاصٍ أو غرامة و أمّا الغفور فهو الذي يغفر الذنوب و هو لا يكون إلاّ الله تعالى و لذلك لا يطلق هذا اللفظ و ما يشقّق منه من الغافر و المغفرة و الغفران و أمثال ذلك على غيره تعالى فالمخلوق لا يتّصف بالغفور و يتّصف بالعفو يقال فلان عفى عن فلان و لا يقال غفر له و الله يتّصف بهما.

و قال الرّاعب في المفردات المغفرة من اللّٰه هو أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب و كيف كان لا شكّ في مدح العفو و قد حثّت الآيات و الأخبار على حسنه و سيّاتي الكلام فيه إنشاء الله تعالى و كفى للعفو فضلاً و شرافةً أنّه من أجمل الصّفات الإلهيّة و قد يمدح الله تعالى في مقام الخضوع و التذلل.

قال سيّد السّاجدين عليه السّلام، أنت الذي سمّيت نفسك بالعفو فأعف عني، وقال عليه السلام: أنت الذي عفوه أعلى من عقابه، و العفو لا يكون إلاّ من القادر على الإنتقام و لذلك يقال العفو عند القدرة.



ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُولِجُ
 النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١)
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
 الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا
 فِي السَّمَوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
 الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا
 فِي الْأَرْضِ وَ أَلْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ
 يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ
 إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَ هُوَ الَّذِي
 أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ
 لَكَفُورٌ (٦٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ
 فَلَا يُنَازِعُنَكَ فِي الْأَمْرِ وَ أَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ
 لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَ إِنَّ جَادُوكَ فَقُلِ اللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ
 اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي
 كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَ يَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا لَيْسَ
 لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَ إِذَا
 تُلِيَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي

وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ كَادُونَ يَسْتَطُونَ
بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ
مِنَ ذِكْمِ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ (٧٢)

◀ اللغة

يُؤَلِّجُ: الولوج الدخول في مضيق.
مُخْضَرَةٌ: الخضرة أحد الألوان بين السواد والبياض و هو إلى السواد أقرب
ولهذا سَمِيَ الأسود أخضر وبالعكس.
كَكْفُورٌ: مبالغة في الكفران.
مَنْسُكًا: أي مذهباً وقيل المنسك الموضع المعتاد لعمل خير أو
شر المألوف لذلك.
يَسْتَطُونَ: السطوة إظهار الحال الهائلة للإحافة يقال سطا عليه سطوة.
أَفَأَنْتُمْ كُفْرًا: متكلم وحدة من فعل المضارع من نَبَى مثل صرف من
النَّبأ الخبر.

◀ الإعراب

فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ: أما رفع الفعل هنا و أن كان قبله لفظ الإستفهام لأمرين:
أحدهما: أنه إستفهام بمعنى الخبر أي قد رأيت فلا يكون له جواب.
الثاني: أن بعد الفاء ينتصب إذا كان المستفهم عنه سبباً له و يجوز أن يكون
فتصبح بمعنى، أصبحت و هو معطوف على، أنزل، فلا موضع له مُخْضَرَةٌ
حال و هو إسم فاعل و قرئ شاذاً بفتح الميم و تخفيف الضاد مثل مبقلة و
مجزرة أي ذات خضرة وَ أَلْفُلْكَ في نصبه و جهان:
أحدهما: أنه منصوب بسخر معطوف على، ما.

الثاني: أنه معطوف على إسم، إن، أن نَقَعَ مفعول له أي كراهة أن تقع و قيل هو في موضع جرّ أي من أن تقع، و قيل في موضع نصب على بدل الإشتمال يَكَاذُونَ الجملة حال من الذين أو من الوجوه النَّارُ مبتدأ، و وَعَدَهَا الخبر و قيل هو خبر مبتدأ محذوف أي هو النَّار و يقرأ بالنَّصْب على تقدير، أعني.

◀ التفسير

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ

المشار إليه في الكلام محذوف و تقدير الكلام ذلك الأمر.

و قال الزّمخشري ذلك أي ذلك النَّصْر سبب أنه قادر و من آيات قدرته البالغة أنه يولج الليل في النهار يولج النهار في الليل فعلى هذا يكون المشار إليه هو النَّصْر في الآية السابقة و هو قوله: لَيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ فَكأنه قيل كيف ينصره فقال تعالى أن الله قادرٌ على نصره كما هو قادر على إيلاج الليل في النهار و يمكن الجمع بين القولين بأن مراد القائل من الأمر، هو هذا المعنى، و أمّا إيلاج الليل في النهار فقد مرّ في شرح اللغات أن الولوج الدخول في مضيقي قال الله تعالى: حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ^(١).

قال بعض المحققين في قوله: يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ تنبيه على ما ركّب الله تعالى عليه العالم من زيادة الليل في النهار و زيادة النهار في الليل و ذلك بحسب مطالع الشمس و مغاربها و الوليجة كلّ ما يتّخذ الإنسان معتمداً عليه و ليس من أهله من قولهم فلان وليجة في القوم و ليس من أهله إذ لحق بهم إنساناً كان أو غيره إنتهى.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد الحادي عشر

و قال البيضاوي بسبب أن الله قادر على تغليب بعض الأمور على بعض و من ذلك إيلاج أحدهما في الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص منه أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغيب الشمس و عكس ذلك بإطالعها إنتهى .
و قال الرّازي في تفسيره لهذا الكلام السّؤال السّابع، ما معنى إيلاج اللّيل في النهار و إيلاج النهار في اللّيل .
الجواب فيه وجهان:

أحدهما: يحصل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك بغيوبة الشمس و ضياء ذلك في مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضيئ البيت بالسّراج و يظلم بفقده .
ثانيهما: أنه سبحانه يزيد في أحدهما ما ينتقص من الآخر من السّاعات إنتهى .

أقول: و إلى القول الأخير يعني الزيادة و النقصان فيهما بحسب السّاعات قال الطنطاوي في تفسيره المسمّى بالجواهر عند تفسيره لهذه الآية حيث قال ما هذا لفظه أي ذلك النّصر للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء و من عجائب قدرته أنه يدخل ساعات اللّيل في النهار فيأخذ اللّيل في القصر و النهار في الطول و ذلك في فصلي الشّتاء و الرّبيع و يدخل ساعات النهار في اللّيل فيجعلها في اللّيل و يأخذ النهار في النّقص و اللّيل في الزيادة و ذلك في فصلي الصّيف و الخريف و لا يأخذ أحدهما من الآخر إلا على مقدار ما أخذ الآخر منه و ذلك في بلاد مصر لا يعدوا أربع ساعات فأقصر نهار عندنا عشر ساعات و أطوله ١٤ و هكذا العكس فلا يأخذ النهار من اللّيل و لا يأخذ اللّيل من النهار إلا بحساب واحدٍ فلذلك جعلت الإنتقام من الباغي على مقدار جرمه لا يزيد و لا ينقص كما جعلت كلّ ليل لا يأخذ من كلّ نهار إلا ما أخذه الآخر منه إنتهى موضع الحاجة من كلامه و إن أردت الإطلاع على تفصيل ما ذكره فعليك بمراجعة كتابه^(١).

وقوله: **أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** معناه واضح فأتهما من صفاته الثبوتية إلا أنهما يرجعان إلى علمه بالمسموعات و المبصرات لا أنه يسمع و يبصر بألة السَّمع و ألة البصر كما هو في حقنا كذلك.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

أي ذلك الوصف بنخلق الليل و النهار و الإحاطة بما يجري فيهما و إدراك كل فعل و قولٍ بسبب أن الله تعالى هو الحق الثابت الذي لا تغتير في ذاته و أن كل ما يدعى إليها دونه باطل الدعوة و أنه لا شيء أعلى منه شأنًا و أكبر سلطاناً و أن الله هو العلي الكبير، فالعلي القادر الذي كل شيء سواه تحت معنى صفته أنه قادرٌ عليه و وصفه بأنه الكبير يفيد أن كل شيء سواه يصغر مقداره عن معنى صفته لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء و العالم الذي لا يخفى عليه شيء.

وإعلم أن الحق يطلق على معانٍ:

أحدها: يقال **لِمُوجِدِ الشَّيْءِ** بكسر الجيم بسبب ما يقتضيه الحكمة و لهذا قيل في الله تعالى هو الحق.

الثاني: يقال **للموجد** بفتح الجيم بحسب مقتضى الحكمة و لهذا يقال فعل الله حق.

الثالث: يقال **للإعتقاد المطابق للواقع** كقولنا **إعتقاد فلان في الثواب و العقاب حق و الجنة حق و النار حق** كل ذلك لكون الإعتقاد مطابقاً للواقع.

الرابع: يقال **للتأبث الذي لا يتغير و لا يتبدل.**

الخامس: يقال **للموجود الذي لا سبيل للبطلان الله و الله تعالى حق** بقولٍ مطلق بجميع هذه المعاني إذا عرفت معنى الحق فقد عرفت معنى الباطل أيضاً فإن الأشياء تعرف بأضدادها و على هذا فما سوى الحق هو الباطل كما قيل **إلا كل شيء ما خلا الله باطلٌ و كل نعيم لا محالة زائلٌ.**

وهذا معنى قوله: **وَ أَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**، والعاقل لا يدعو الباطل ولا يعتمد على ما هو باطلٌ عاطلٌ في ذاته.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

الإستفهام إنكاري أي ترى أن الله كذلك و المراد بالماء المنزل من السماء هو ماء المطر هو الذي يحيي الأرض بعد موتها والخطاب و أن كان للنبي ظاهراً إلا أن المراد به جميع المكلفين، والمعنى ألم تعلموا أن الله أنزل من السماء ماءً يعني غيثاً و مطراً فتصبح الأرض بذلك الماء أي بسببه مخضرةً بالنبات قلنا في شرح اللغات أن الخضرة أحد الألوان بين البياض و السواد و هو إلى السواد أقرب و لهذا سمي الأسود أخضر و بالعكس و فيه قال الشاعر:

قد أفسف التّازح المجهود عسفة في ظلّ أخضر يدعو هامه البوم
و لذلك قيل سواد العراق للموضع الذي يكثر فيه الخضرة و منه المخاضرة و هي المبايعة على الخضر و الثمار قبل بلوغها و الخضيرة نخلةٌ ينتشر بسرهما أخضر و كون الأرض مخضرة أمرٌ محسوسٌ يراه كلّ ناظرٍ حتّى الحيوان و لا شك أن ذلك بسبب الماء المنزل من السماء و إلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله حيث قال:

تفكّر في نبات الأرض و أنظر إلى آثار ما صنع المليك
ففي رأس الزبرجد شهادات بأنّ الله ليس له شريك
و قال السّعدي بالفارسيّة:

برگ درختان سبز در نظر هوشيار

هر ورقش دفتري است معرفت كردگار

و قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**، هما من صفاته تعالى، و أعلم أن اللطيف إذا وصف به الجسم فهو ضدّ الجتل و هو التثقيب يقال شعّر جتل أي كثير و قد يعبر

باللطفة و اللطف عن الحركة الخفيفة و عن تعاطي الأمور الدقيقة و قد يعبر
باللطفات عمّا لا تدركه الحاسة و يصحّ أن يكون وصف الله به على هذا الوجه
و أن يكون لمعرفته بدقائق الأمور و أن يكون لرفقة بالعباد في هدايتهم:

قال الله تعالى: **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ**^(١).

قال الله تعالى: **اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ**^(٢).

و قد يعبر عن التحف المتوصل بها إلى المودة باللطف و لهذا قيل، تهادوا و
تحابوا، و قد أطف فلان أخاه بكذا فالله تعالى لطيف بعباده بهذه المعاني و
هو واضح و أمّا الخبير، فقيل أنه العارف ببواطن الأمر و منه الخبرة بضم الغاء و
قيل الخبير العالم بالأخبار.

و قيل أنه بمعنى مخبر و الله تعالى خبير لأنه عارف ببواطن الأمور خبير
لأنه عالمٌ بأخبار أعمالنا، خبيرٌ بمعنى أنه مخبرٌ يوم القيامة لقوله تعالى:
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٣) أي يخبركم بما عملتم به في الدنيا فثبت أنه تعالى
لطيفٌ خبيرٌ بعباده و هو المطلوب.

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ
اللام في قوله: له للملك أو للإختصاص أي أن السموات و الأرض و ما
فيهما يتعلّق به و ملك له أو يختصّ به و الوجه فيه هو أنه تعالى خلق
السموات و الأرض و ما فيهما من الخلق و لا شك أن الخالق مالكٌ لمخلوقه
حقاً و إذا كان كذلك فله الحكم في خلقه بما يشاء و كيف يشاء و هذا ممّا لا
يحتاج إلى الدليل لوضوحه.

و قوله: **وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** الغني، بفتح الغين يقال على

ضروب:

٢- الشورى = ١٩

١- يوسف = ١٠٠

٣- المائدة = ١٠٥

أحدها: عدم الحاجات مطلقاً وليس ذلك إلا لله تعالى وهو المراد في هذه الآية وأمثالها والدليل على ذلك أنه تعالى لو لم يكن غنياً فلا محالة يكون فقيراً لعدم الوساطة بين الفقر والغنى إذا أخذ بقولٍ مطلقٍ و الفقر نقصٌ لأنه فقد كمالٍ وكلُّ ناقصٍ مخلوقٍ و المفروض أنه خالقٌ و بعبارةٍ أخرى الغنى كمالٌ و الفقر نقصٌ و قد ثبت أن الواجب تعالى جامعٌ لجميع الكمالات مبرئٌ عن التناقض و أما التعلُّ فلقوله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**^(١).

و تقديم المسند إليه يفيد الحصر فهو الغنى المطلق وهو المطلوب و سيأتي الكلام فيه تفصيلاً.
و أما الحميد بفتح الحاء فهو يصح أن يكون في معنى المحمود و أن يكون في معنى الحامد و هو أيضاً من أسمائه تعالى كما تقول في الدعاء، يا حميد بحق محمدٍ و يا عالي بحق عليٍّ و يا فاطر بحق فاطمة و يا محسن بحق الحسن و يا قديم الإحسان بحق الحسين.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَادِنَةً إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ

أي ألم تعلم يا محمد أن الله سخر لكم ما في الأرض، و الإستفهام أيضاً للإنكار كالأية السابقة و هكذا الكلام في الخطاب حيث أن المراد به جميع المكلفين و أن كان المخاطب هو النبي ظاهراً و قوله: **سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ** من الجماد و الحيوان و الثبات و المعنى أن الله قد ذلّل لكم ما في الأرض تتصرفون فيه كيف شئتم و ذلك ظاهرٌ محسوسٌ لنا فالحجر مع صلابته و الحديد مع حدته و النار مع هيبتها و سطوتها قد سخرها الله تعالى لنا هذا

في الجماد وأما في الحيوان فالإبل والبقر والفيل وغيرها من الحيوانات مع عظم جثتها وشدّة قوتها قد سخّرها الله تعالى للإنسان الضّعيف بل للصبّي المميّز وليس هذا إلا أنّ الله سخّرها للإنسان حتّى ينتفع بها من حيث الأكل والرّكوب وحمل المتاع وغير ذلك من المنافع المترتبة على وجودها بسبب تسخيرها لنا وهذا واضح لا خفاء فيه وفي هذا الكلام دلالة على قدرة الله أنّه خلق ما في الأرض للإنسان لينتفع بها ولولا ذلك لما كان الإنسان قادراً على التّعيش وإدامة الحياة على وجه الأرض فينبغي له أن يشكر ربّه على هذا النعم التي أن تعدّوها لا تحصوها، ثمّ أشار الله تعالى إلى الفلك التي تجري بأمره.

قال بعض المفسّرين الأقرب أنّ المراد وسخّر لكم الفلك أيضاً لتجري في البحر وكيفيّة تسخير الفلك هو من حيث سخّر الماء والريّاح لجريها فلولا صفتها على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص في الماء أو تقف تعطب فبّه على نعمه بذلك وإنّما قال بأمره لأنّه سبحانه لما كان هو المجري لها الرّيح نسب ذلك إلى أمره، وقوله وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ فالمراد بالسّماء جنس السّماء ليشمل جميع كرات السّماوية إشارة إلى أنّ الكرات معلقة في الفضاء والممسك لها هو الله تعالى وهو كذلك:

كما قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا** (١).

وفي قوله: **أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ** إشارة إلى إمكان وقوعها على الأرض لو أذن الله به وسيأتي الكلام في هذا الباب في موضعه ثمّ قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ** أي أنّ المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدّين والدّنيا قد بلغ الغاية في الإحسان والإنعام فهو أذن رؤوفٌ رحيمٌ، وفيه إشارة إلى أنّ رافة الله ورحمته صارت باعثة على إعطاء النعم وهو كذلك.

وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ
لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجَمَادِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ وَذَلَّلَهَا لَكُمْ وَكَذَلِكَ سَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ قَالَ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ بَعْدَ إِذْ كُنْتُمْ جَمَادًا وَتَرَابًا وَنُطْفَةً وَعَلَقَةً وَمِضْغَةً وَهِيَ الْمَوْتَةُ الْأُولَى الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَفْوَاجًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ بَعْدَ الْحَيَاةِ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ إِمَّا الْجَنَّةَ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ كَفُورٌ أَي جَحُودٌ لِنِعْمِ اللَّهِ الْمَتَّظِفِرَةِ الْمُتَوَالِيَةِ وَالْمَرَادُ بِالْإِنْسَانِ جِنْسُهُ وَالْحُكْمُ بِإِعْتِبَارِ الْأَغْلَبِ.

وَقِيلَ الْمَرَادُ بِهِ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ وَ أَبُو جَهْلٍ وَ أَبِي بِنِ خَلْفٍ وَ هَذَا عَلَى طَرِيقِ التَّمَثِيلِ إِنْتَهَى.

أَقُولُ وَ هَذَا مِمَّا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَ الْحَقُّ مَا ذَكَرْنَاهُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَافِرٌ (١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفَّارٌ (٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٤).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (٥) وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْآيَاتِ كَثِيرَةٌ.

وَ حَاصِلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ فِي الْآيَةِ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجْحَدُ النِّعْمَ وَ يَكْفُرُ بِهَا أَي كَثِيرًا مِنْ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ لَوْلَا أَكْثَرُهُمْ كَذَلِكَ وَ هَذَا أَمْرٌ مُحْسُوسٌ إِذَا ضَدَّ الْكَفْرَانَ الشُّكْرَ عَلَى النِّعْمِ وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ (٦) وَ إِذَا كَانَ الشُّكْرُ قَلِيلًا فَلَا مَحَالَةَ يَكُونُ الْكَفْرَانُ كَثِيرًا وَ بِكَذَا صَدَرَ الْحُكْمُ وَ هُوَ الْمَطْلُوبُ.

٢- إبراهيم = ٣٤

٤- الكهف = ٥٤

٦- سباء = ١٣

١- العلق = ٦

٣- الإسراء = ١١

٥- عبس = ١٧

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ

قيل أنها نزلت بسبب جدال الكفار بليل بن ورقاء و بشر بن سفيان الخزاعيين وغيرهما في الذبائح وقولهم للمؤمنين تأكلون ما ذبحتم وهو من قتلكم ولا تأكلون ما قتل الله فنزلت بسبب هذه المنازعة.

والظاهر أن الآية بصدد بيان حكم كلي وهو أن الله تعالى جعل لكل أمة من الأمم السابقة منسكاً ومذهباً هم ناسكوه أي يلزمهم العمل به هذا إذا قلنا أن المنسك هو المذهب وإن قلنا أن المنسك الموضوع المعتاد لعمل خير أو شر وهو المألوف لذلك ومناسك الحج من هذا لأنها مواضع العبادات فيه فهي متعبدات الحج قالوا وفيه لغتان فتح السين وكسرها.

وقال ابن عباس منسكاً أي عيداً وقال مجاهد وقادة متعبداً في إراقة الدم بمنى وغيرها وكيف كان فقد نهى الله تعالى في الآية عن منازعتهم النبي ﷺ في الأحكام وذلك لأن الأديان في الأحكام مختلفة بحسب مقتضيات الزمان كما أن الأنبياء والرسل أيضاً كذلك فلا تصح المنازعة في تفاوت الأحكام ثم أمر الله تعالى بنبيه بالدعوة فقال وادع إلى ربك إنك لعلی هدى مستقيم، أي ادع الناس إلى توحيد ربك وطاعته فإن هذا هو الغاية القصوى للنبوة وقوله: إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ، معناه واضح لأن من يدعو الناس إلى الطريق المستقيم وهو النبي أولى بأن يكون كذلك فإن معطي الشيء لا يكون فاقداً له.

بنيان القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العاشر عشر

وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ

أي إن جادلوك على وجه المراء والتعنن الذي يعمله السفهاء فلا تجادلهم على هذا الوجه وأدفعهم بهذا القول وقل لهم الله أعلم بما تعملون وهذا أدب من الله حسن وينبغي أن يأخذ به كل أحد هكذا فسره الشيخ في التبيان.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، سياق الآية السابقة يؤيد أن المراد بهذا الجدل المجادلة و المراء في أمر اختلاف منسكه ﷺ مع الشرائع السابقة بعد الإحتجاج عليهم بنسخ الشرائع و قد أمر بإرجاعهم إلى حكم الله من غير يشتغل بالمجادلة معهم بمثل ما يجادلون و قيل المراد بقوله: **وَ إِنْ جَادَلُوكَ مُطَلِّقِ الْجِدَالِ فِي أَمْرِ الدِّينِ** و قيل الجدل في أمر الذبيحة و السياق السابق لا يساعد عليه إنتهى.

أقول: أما قولهم أن المراد بالمجادلة الجدل على وجه التعت و المراء فهو حق لا مرية فيه لأن المجادلة بالتّي هي أحسن لا كلام في حسنها بل الأمر بها في الشريعة المقدسة قال الله تعالى: **أذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْخَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** (١).

بل نقول أساس الموعظة و التبليغ على المجادلة الحسنة و هو ظاهر و أما الجدل بغير حق فهو مذموم عقلاً و شرعاً فكلّ أية أمر الله فيها بالجدال لا يعنى بها إلا بالتّي هي أحسن و لك أية نهى الله عنها فالمراد المراء و التعت إذا عرفت هذا فنقول:

أنّ هذه الآية ليس فيها نهى عن الجدل بل نقول أنّها عن المجادلة بالتّي هي أحسن و ذلك لأنّ الله تبارك و تعالى قال لنبیه و إن جادلوك فقل الله أعلم كلام فيه رفق و لين و ليس فيه شيء من الغلظة و الخشونة حتّى يخرج الكلام من الحسن و الرفق و أية مجادلة أحسن منه.

اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

و ذلك لأنّ الله تعالى نعم الحكم يوم القيامة فهو يحكم بين المجادلين بأحسن وجه أصدق من الله قياً فهو أحكم الحاكمين.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

لَمَّا تَقَدَّمَ ذكر الفصل بين الكفّار والمؤمنين يوم القيامة أعقب تعالى ذلك بأنّه عالمٌ بجميع ما في السّماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالكم وأنّ ذلك في كتابٍ قيل هو أمّ الكتاب الذي كتبه الله قبل خلق السموات والأرض كتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة وقيل المراد به هو اللوح المحفوظ وقوله: إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ معناه أنّ العلم بذلك على الله سهلٌ يسيرٌ أي غير متعذّر عليه والوجه فيه واضح لأنّه خالق السموات والأرض وما فيهما من أنواع المخلوقات والخالق عالمٌ بخلقه إذ الخلق مسبوق بالعلم وكيف يعقل أن يخلق الخالق شيئاً ولا يعلم ما خلقه وقوله في كتابٍ، يحتمل أن يكون المراد به كتاب التكوين ويدلّ عليه تنكير الكتاب فأنّه لم يقل في الكتاب أو المراد به كتابٌ لا يعلمه إلا الله أو كتاب المحو والإثبات والله أعلم.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ
مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ

أخبر الله تعالى في الآية عن حال الكفّار الذين يعبدون مع الله الأوثان والأصنام فقال أنّهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، أي حجّة وبرهاناً وأنما قيل للبرهان سلطان لأنّه يتسلط على إنكار المنكر فكُلّ محقّ في مذهبه فله برهان يتسلط به على الإنكار لمذهب خصمه.

وقال بعض المفسرين في قوله: لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا أي حجّة وبرهاناً سماوياً من جهة الوحي والسّمع وفي قوله: وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ أي دليل عقليّ ضروري أو غيره.

أقول: ولعلّ القائل أخذ قوله من كلام الرّازي في تفسيره لهذه الآية حيث

قال ما هذا لفظه، فبيّن أنّ عبادتهم لغير الله ليست مأخوذة عن دليلٍ سمعيٍّ و هو المراد بقوله ما لم ينزل به سلطاناً و لا عن دليلٍ عقليٍّ و هو المراد من قوله: **وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ بِهِ** من علم و إذا لم يكن كذلك فهو عن تقليدٍ أو جهلٍ أو شبهةٍ فوجب في كلّ قولٍ هذا شأنه أن يكون باطلاً فمن هذا الوجه يدلُّ على أنّ الكافر قد يكون كافراً و أن لم يعلم بكونه كافراً و يدلُّ أيضاً على فساد التقليد إنتهى.

أقول: ما ذكره الرّازي و تبعه غير واحدٍ من مفسريّ العامة من أنّ قوله تعالى: **مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا**، أريد به الدليل السّميّ و قوله: **وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** الدليل العقليّ، لا دليل عليه و أنّما هو من إستخراجات ظنّه و وهمه لأنّ الآية تدلُّ على من عبد شيئاً من غير حجّةٍ و لا برهان يؤيّد العقل السّليم فهو ظالمٌ و من المعلوم أنّ ما لم ينزل له دليل من العقل لا سبيل للعلم إليه فقوله و ما ليس لهم به علم، في الحقيقة تفسير و توضيح لقوله: **مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا**.

و أمّا تخصيص قوله ما لم ينزل به سلطاناً، بدليل السّمع و قوله ما ليس لهم به علم، بدليل العقل، فلا نفهم معناه مع أنّ الثاني مترتبٌ على الأوّل وجوداً و عدماً و حاصل الكلام أنّ ما لم ينزل به سلطاناً هو بعينه ما ليس لهم به علم، فالواو في قوله: **وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ** ليس للعطف بل للتفسير و كيف كان في الآية إشارة بل دلالة على أنّ العاقل يتبع عقله و لا يتبع هواه و إذا كان كذلك فلا يأخذ بما لا دليل عليه من العقل و هذا حكمٌ كليّ في جميع الأمور من التّوحيد و النّبوة و الإمامة و غيرها إلّا أنّ التّوحيد هو الأصل في الباب و قوله: **وَ مَا لِلظّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**، معناه ليس للظّالم على نفسه بإرتكاب المعاصي و ترك المعرفة بالله من ينصره و يدفع عنه العذاب في الدّنيا و العقاب في الآخرة.

وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ
يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ
ذِكْرِكُمُ النَّارِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ الْمَصِيرُ

في هذه الآية إخبارٌ عنه تعالى بعناد هؤلاء الكفار وأنهم لا يقبلون الحق لشدة عنادهم فقال: وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا آياتنا، أي آيات الكتاب وغيره من حجج الله بواسطة أنبيائه كالمعجزات و خوارق العادات فأنها أيضاً من الآيات الظاهرات البينات، تعرف يا محمد في وجوه الذين كفروا و جحدوا ربوبيته، المنكر، من القول كقولهم هذا من أساطير الأولين، يكادون يسطون، أي قاربوا أن يوقعوا بمن يتلوها المكروه قولاً و فعلاً، و السطوة إظهار الحال الهائلة للإضافة و لذلك يقال أن الإنسان يخاف سطوات الله و نقامته، قيل السطوة و الإستطالة و البطشة نظائر في اللغة ثم قال لنبيه (قل يا محمد لهؤلاء الكفار) أفأنبكم أي فأخبركم، بشر من ذلكم، أي من إعتدائكم و ظلمكم على التالي لآيات الله و قيل بشر مما يلحق التالي منهم وكأن قائلًا قال ما ذلك الشر فقيل في جوابه النار أي هو النار التي وعدّها الذين كفروا بآيات الله و بسس المصير، و قيل، النار، مبتدأ و وعدّها الخبر، و الأمر سهل و قال بعضهم أن الكفار قالوا أن محمداً و أصحابه شر خلق الله فنزلت.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ
 الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ
 لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
 يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾
 مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ
 ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ
 النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
 أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
 ﴿٧٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَ
 اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
 ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ
 وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ
 إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي
 هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا
 شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا
 الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ
 الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

◀ اللغة

ذُبَابًا: الذباب كغراب معروف و جمعه في الكثر، ذَبَان، بالكسر و في القلَّة،
 أذْبَةٌ، بكسر الدَّال و الواحدة، ذبابة و أصله من الذَّب و هو الطرد.
 اجْتَبَاكُمْ: الإجتباء الإختيار.

حَرْجٍ: بفتح الحاء و الرّاء الصّيق و يعبر عنه بالتكليف بما لا يطاق.
مَلَّةٌ: بكسر الميم و فتح اللّام المشدّد الجماعة.

◀ الإعراب

يَسْلُبُهُمْ يتعدى الى مفعولين و شيئاً هو الثاني حَقَّ جهادِهِ هو منصوب
على المصدر مَلَّةً أَيْبِكُمْ أي مثل مَلَّة أَيْبِكُمْ محذوف المضاف و أقام
المضاف إليه مقامه هُوَ سَمِيكُمُ الضّمير لإبراهيم عليه السّلام.

◀ التفسير

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَأِ
يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ

لَمَّا ذكر الله تعالى أَنَّ الكفّار الذين يعبدون ما لا دليل عليه و يتركون عبادة
من خلقهم ذكر ما عليه معبوداتهم من إنتفاء القدرة على خلق أقلّ الأشياء و
أحقر الموجودات تجهيلٌ عظيمٌ لهم حيث عبدوا من هذه صفة فقال يا أيّها
النّاس الخطاب عامٌ لجميع المكلفين من النّاس، ضرب مثل فاستمعوا له، قيل
الخطاب للمؤمنين أراد الله يبيّن لهم خطأ الكافرين و الحَقُّ أَنَّ الخطاب عامٌ
يشمل من نظر في أمر عبادة الله فأثّه يظهر له قبح ذلك و إتفقوا على أنّ،
ضرب، مَبْنِيٌّ للمفعول و لم يذكر الضّارب في الآية هل هو الله أو غيره فيقتل
الضّارب للمثل هو الله تعالى ضرب مثلاً لما يعبدونه من دونه أي بيّن شبهاً لهم
و يعبدوهم و قيل ضارب المثل هم الكفّار جعلوا مثلاً لله تعالى أصنامهم و
أوثانهم فقال تعالى فإستمعوا أنتم أيّها النّاس لحال هذا المثل و نحوه ما قال
الأخفش قال ليس هاهنا مثلٌ و أنّما المعنى جعل الكفّار لله مثلاً.
و قيل هو مثل من حيث المعنى لأنّه ضرب مثل من يعبد الأصنام بمن يعبد
ما لا يخلق ذباباً.

قال الزمخشري فأن قلت الذي جاء به ليس بمثل فكيف سمّاه مثلاً. قلت: قد سميت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالإستحسان والإستغراب مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم إنتهى.

وقوله: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ قَرَأَ الْجُمُهور، تدعون، بالتاء و قرأ الحسن و يعقوب و من تبعهما بالياء وكلاهما مبني للفاعل و قرأ اليماني و موسى الأسواري بالياء مبنياً للمفعول فعلى الأول الخطاب للمكلفين و على الثاني فالمراد الكفار أي أنهم يدعون من دون الله الخ.

و على الثالث فالمراد الأصنام والأوثان و كيف كان أفاد الله في هذا الكلام أن كل ما يدعى للعبادة من دون الله فهو لا يقدر على أن يخلق ذبابة و لو اجتمعوا له، أي إتفقوا جميعاً على خلقه فهو من قبيل قوله تعالى في القرآن: قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا^(١).

و المقصود بيان عجزهم في المقامين و هو ظاهر لا خفاء فيه و أما أتى بكلمة لن، دون، لا، مع، أن، لن، أخت، لا، في نفي المستقبل لأن كلمة، لن، لنفي الأبد أي أنهم لا يقدرون عليه أبداً و لو اجتمعوا له ففيه مضافاً على ما ذكرناه من نفي الأبد تأكيداً على عدم قدرتهم عليه فكأن خلق الذباب منهم مستحيل و هو كذلك ثم قال تعالى: إِنْ يَسْلُبْنَهُمْ أَلْذُبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ أَي كيف يمكن لهم خلق الذباب و هم لا يقدرون على إستنقاذه ما يسلب الذباب منهم مع أنه أي الإستنقاذ من الذباب أسهل بمراتب من خلقه إذا كان كذلك فلا يكون معبوداً و هو المطلوب.

و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ الخالق المعبود لا بدّ له من أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد وإلا يكون ضعيفاً حقيراً و كلّ ضعيفٍ محتاج إلى من هو أقوى منه و بعبارةٍ أخرى كلّ عابِدٍ محتاج إلى معبوده فإن كان المعبود أحر يتسلسل و التسلسل باطل فالإحتياج في المعبود باطل و هذا أصلٌ لا خلاف فيه فينتج أنّ المعبود الذي يتّضرع العابد إليه و يستمد منه في حلّ مشكلاته ينبغي أن يكون غير محتاج إلى غيره في جميع الشئون و لا نعني بالقدرة إلاّ هذا إذا عرفت هذه المقدّمة العقلية فنقول كلّ موجودٍ في عالم الوجود متّصف بالضعف و الإحتياج سوى الله تعالى الذي خلق الخلق فكّل معبودٍ سواه مخلوق له و إعتقاد الضعيف لا معنى له و أنّما قلنا ما سوى الله ضعيفٌ لأنّه لا يقدر على إستقّاد ما يسلب الدّباب منه فضلاً عن خلقه و إيجاده و هذا دليل على ضعفه فيلزم من كونه معبوداً خضوع الضعيف للضعيف و أن شئت قلت إحتياج الضعيف إلى مثله في الضعف و الحقارة و هو ممّا لا يقبله العقل السليم و على هذا فمعنى الآية أنّ الذين تدعون من دون الله للرَبوبية و المعبودية لن يقدرُوا على خلق الدّباب الحقيق الصّغير بل و لا على إستقّاد الشّيء منه فكيف إتخذتموها للعبادة و هذا واضح.

و قوله: **ضَعَفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ** فقال ابن عبّاس يعني من الأوثان و الأصنام، و المطلوب، من الدّباب.

أقول: لا يبعد أن يكون المراد بالطّالِب العابد و بالمطلوب المعبود، يعني ضعف العابد و المعبود لأنّهما مخلوقان لغيرهما و كلّ مخلوقٍ ضعيف و إذا كانا في الضعف على حدّ سواء فلا معنى لترجيح أحدهما على الآخر بأن يكون معبوداً لغيره و المفروض هو مثله و هذا هو الظاهر في معنى الآية و أمّا تفسير ابن عبّاس و من تبعه لهذا الكلام فلا نفهم معناه و ذلك لأنّ الدّباب لا يكون مطلوباً بل المطلوب كناية عن المعبود و الله أعلم بما أراد من كلامه.

ثُمَّ أَنْ هَذَا كَلَّمَهُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الضَّارِبَ لِلْمَثَلِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا هُوَ رَأْيُ أَكْثَرِ الْمَفْسِّرِينَ وَ قَالَ قَوْمٌ، أَرَادَ اللَّهُ أَنَّ الْكَافِرِينَ ضَرَبُوا لِي الْأَمْثَالَ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا فِإِسْتَمَعُوا لِمَا ضَرَبَ لِي مِنَ الْأَمْثَالَ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهَا كَيْفَ هِيَ وَ كَيْفَ بَعْدَهَا مِمَّا جَعَلُوهُ مِثْلًا وَ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مَا قَدَرُوا أَلَّهَ حَقًّا قَدْرَةً وَ قِيلَ الْمَطْلُوبُ الْأَلْهَةُ وَ الطَّالِبُ الذَّبَابُ فَضَعَفَ الْأَلْهَةُ أَنْ لَا مَنَعَةَ لَهَا وَ ضَعَفَ الذَّبَابُ فِي إِسْتِلَابِهِ مَا عَلَى الْأَلْهَةِ.

وَ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ وَ قَوْلُهُ ضَعَفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ كَالْتَسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الذَّبَابِ فِي الضَّعْفِ وَ لَوْ حَقَّقْتَ وَ جَدْتَ الطَّالِبَ أضعفَ وَ أضعفَ لِأَنَّ الذَّبَابَ حَيْوَانٌ وَ هُوَ جِمَادٌ وَ هُوَ غَالِبٌ وَ ذَاكَ مَغْلُوبٌ وَ الظَّاهِرُ أَنَّهُ إِخْبَارٌ بِضَعْفِ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ التَّعْجَبُ أَيُّ مَا أضعفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ.

أقول: هذا ما قيل في تفسير الكلام فأقض ما أنت قاض و أظن أن ما احتملناه أظهر و حاصل الكلام في تفسير الآية و ما يستفاد منها هو أنه ما أقيح للرجل الذي يدعي العقل عبادة الأصنام و الأوثان التي هي من الجماد و لا تقدر على شيء أصلاً و هو ظاهر.

مَا قَدَرُوا أَلَّهَ حَقًّا قَدْرَةً إِنَّ أَلَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

إِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ فَقَالَ الْحَسَنُ مَعْنَاهُ مَا عَظَّمُوهُ حَقًّا تَعْظِيمُهُ إِذْ جَعَلُوا لَهُ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِ وَ هُوَ قَوْلُ الْمَبْرَدِ وَ الْقَرَاءِ وَ قَالَ قَوْمٌ مَعْنَاهُ مَا عَرَفُوهُ حَقًّا مَعْرِفَتَهُ.

وَ قَالَ آخَرُونَ مَا وَصَفُوهُ حَقًّا صِفَتَهُ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ أَيُّ مَا عَرَفُوهُ حَقًّا مَعْرِفَتَهُ حَيْثُ عَبَدُوا مِنْ هُوَ مَنْسَلَخٌ عَنْ صِفَاتِهِ وَ سَمَّوْهُ بِإِسْمِهِ وَ لَمْ يَأْهَلُوا خَالِقَهُمْ لِلْعِبَادَةِ ثُمَّ خْتَمَ بِصَفَتَيْنِ مَنَافِيَتَيْنِ لِصِفَاتِ أَلْهَتِهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَ الْعَلْبَةِ إِتْمَهَى.

أقول: الجامع بين الأقوال هو عدم معرفة الخالق فأن جميع الأقوال يرجع إليه و ذلك لأن عدم التعظيم و التوصيف و غير ذلك من النقائص متوقف على

عدم معرفته الله واقعاً و ذلك لأنّ من عرف الله يعلم أنّه قادر على كلّ شيء فلا يوصفه بالضعف و يعلم أنّه عالم بكلّ شيء فلا يوصف بالجهل و أنّه قائمّ بالقسط فلا يوصف بالظلم و أنّه واجب الوجود المستجمع لجميع الصفات الكمالية فلا نقص فيه ذاتاً و صفة بل هو جامع لجميع الكمالات من العلم و القدرة و الحياة و غيرها من الصفات و هذا ظاهر لا كلام فيه فمن وصفه بغير ما هو يليق به فلم يعرفه حقّ معرفته هذا كلّهُ بحسب ظاهر الآية و أنّها ناظرة إلى الكفّار الذين يدعون من دون الله كما يدلّ عليه سياق الآية و الذي يقتضيه النّظر عند التأمّل و التدبّر هو أنّ الله تعالى لم يعرف كما هو حقّه و لن يعرف أبداً و ذلك لأنّ المعرفة لا تحصل إلاّ بسبب العلم و العلم لا يحصل إلاّ بإحاطة المدرك على المدرك و حيث أنّ المخلوق كائناً ما كان متّصف بالتناهي ذاتاً و صفةً فكما أنّه محدودٌ في وجوده محدودٌ في صفاته فإنّ الصفات من توابع الوجود و من جملة الصفات العلم فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات لا يقدر على الإحاطة بكنه ذاته تعالى حتّى تحصل له المعرفة كاملاً فما ظنّك بغيره من المخلوق و الدليل على ذلك عقلاً هو أنّ إحاطة المخلوق بكنه ذاته تعالى مستلزمٌ لخروجه عن التناهي و قد فرضناه متناهيّاً و هذا خلفٌ و لأجل هذه الدّقيقة قال سيّد البشر صلوات الله عليه ما عرفناك حقّ معرفتك و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

آنجا که عقاب پر بریزد از پشه لاغری چه خیزد
 فقله تعالى: **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** من الأصول المسلّمة العقلية الكلية الشاملة لجميع الخلق إلاّ أنّ الميسور لا يترك بالمعسور و ما لا يدرك كلّهُ لا يترك كلّهُ فكلّ مخلوقٍ يعرفه بقدر إستعداده و فهمه و عقله و هذا ممّا لا كلام فيه.

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ
كلمة، من للتبويض والمعنى أن الله يصطفى أي يختار من الملائكة رسلاً
أي من بعض الملائكة ومن الناس أي وكذلك يصطفى من الناس رسلاً فالآية
تدل على أنه ليس جميع الملائكة رسلاً كما أن الناس ليس جميعهم أنبياء
كذلك وفي قوله: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، إشارة إلى أنه تعالى عالمٌ
بالمسموعات كما أنه عالمٌ بالمبصرات فلا يخفى عليه شيء لا في الأرض في
السماوات وقد مرَّ الكلام فيه سابقاً.

و قلنا أن الله تعالى لا يسمع ولا يبصر بالألّة لتنزّهه عن الجسميّة و التركيب

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ

إذا ثبت أن الله سميعٌ بصيرٌ بقولٍ مطلق فهو يعلم ما بين أيديهم و ما
خلفهم، قيل المراد بقوله: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، يعني ما بين أيدي الخلاق من
القيامة و أحوالها يكون في مستقبل أحوالهم، وَ مَا خَلْفَهُمْ، أي و ما يخلفونه
من دنياهم، المعنى يعلم ما بين أيديهم أي أول أعمالهم و ما خلفهم، آخر
أعمالهم و إليه ترجع الأمور، يعني يوم القيامة ترجع الأمور إلى الله فهو الذي
يحكم بين العباد يوم القيامة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آزَكُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

أما خاطب المؤمنين لأنهم الذين يركعون و يسجدون و يعبدون الله و
يفعلون الخيرات فهم المفلحون يوم القيامة قطعاً و أعلم أن الرّكوع لغة الخفض
و الإنحناء و ضده الرّفْع، قال الشّاعر:

لا تهين الفقير علك أن ترقع يوماً و الدهر قد رفعه

و شرعاً هو إنحناء المصلى حتى تصل كفاه ركبته، و السّجود، لغة الخضوع

و شرعاً وضع الجبهة على ما يصحّ السجود عليه و وضع بقية الأعضاء السبعة على الأرض أو غيرها إذا عرفت ذلك.

فالمراد هنا الرّكوع في الصّلاة و السجود فيها و خصّهما من بين بقية أفعال الصّلاة لأنّهما أعظم الأفعال و بهما يحصل الإرغام التام و مع ذلك هما من أركان الصّلاة تبطل الصّلاة بتركهما عمداً أو سهواً إجماعاً.

قال بعض المفسّرين أنّ المراد بالرّكوع و السجود هنا الصّلاة تسمية للشّيء باسم أعظم أجزائه و لم يقل، صلّوا، لدفع تهم إرادة الدّعاء قوله: وَ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ، أي و إعبدوه بفعل ما تعبّدكم من العبادت كالصّوم و الزّكاة و الحجّ و نحوها، و إفعلوا الخير، أي لا تقتصروا على فعل الصّلاة و الواجبات من العبادات بل إفعلوا غيرها من أنواع البرّ كصلة الرّحم و مكارم الأخلاق و نحو ذلك من أنواع القرب و قيل الخير النّفع الذي يحلّ موقعه و تعمّ السلامة به و نقيضه الشرّ إنتهى.

أقول: الخير لا يحتاج إلى التّفسير فكّل عملٍ أو قولٍ صدّقه العقل و الشرع فهو خير و ضدّه الشرّ و قوله: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، معناه لكي تفلحون فإنّ التّرجي لا معنى له بالنّسبة إليه تعالى لكونه علام الغيوب.

وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ

في الآية أبحاث:

الأول: في تفسير قوله تعالى: وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ

الجهاد بكسر الجيم مصدر قال في المنجد، جاهد مجاهدة و جهاداً إنتهى.

و في الشَّرْح هو إستفراغ الوسع في مدافعة العدو و هو من الواجبات بشرائطه المقررة في الفقه و قال بعضهم هو بذل النَّفْس و المال لإعلاء كلمة الإسلام و الإقرار بها و إقامة شعائر الإيمان و هو من أعظم أركان الإسلام و فضله عظيم حتَّى ورد في الخبر عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فَوْقَ كُلِّ بَرٍّ بَرٌّ حَتَّى يُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَيْسَ فَوْقَهُ بَرٌّ وَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ الْجِهَادُ بَابٌ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةٍ أَوْلِيَاءِهِ إِلَى أَنْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَ الْجِهَادُ لِبَاسِ التَّقْوَى وَ دَرَعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ وَ حَصْنُهُ الْوَثِيقَةُ مِنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذَّلَّةِ وَ شَمَلَهُ الْبَلَاءُ وَ فَارَقَ الرَّخَاءَ وَ ضَرَبَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ بِالْأَشْبَاهِ وَ رِيثَهُ بِالصَّغَارِ وَ الْقِمَامِ وَ سِيمَ الْحَنْفِ وَ مَنَعَ النَّصْفِ وَ أَدْبَلَ الْحَقَّ بِتَضْيِيعِهِ الْجِهَادَ وَ غَضِبَ اللَّهُ بِتَرَكَهُ نَصْرَتِهِ الْخ.

و للجهاد شرائط و أحكام فصله في الكتب الفقهية و أنما قال حقَّ جهاده أي جهاداً حقاً كما ينبغي بجذب النفس و خلوصها عن شوائب الرِّياء و السُّمعة مع الخشوع و الخضوع و الجهاد مع النفس الأمانة و اللوامة في نصرة النفس العاقلة المطمئنة و هو الجهاد الأكبر و لذلك ورد عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ بَعْضِ غَزَوَاتِهِ فَقَالَ رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ وَ قِيلَ الْجِهَادُ بِمَعْنَى رَتْبَةِ الْإِحْسَانِ هُوَ أَنْكَ تَعْبُدُ رَبَّكَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَأَنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَأَنَّهُ يَبْرَأُكَ وَ الْأَيَاتُ فِي فَضْلِهِ كَثِيرَةٌ جَدًّا قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ وَ الْجِهَادُ ثَلَاثَةٌ أَضْرَبُ: مُجَاهَدَةُ الْعَدُوِّ الظَّاهِرِ، وَ مُجَاهَدَةُ الشَّيْطَانِ، وَ مُجَاهَدَةُ النَّفْسِ وَ تَدْخُلُ ثَلَاثَتُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ إِنَّهَا

وَ أَعْلَمُ أَنَّ الْجِهَادَ تَارَةً يَكُونُ بِأَلَاتِ الْحَرْبِ لِدَفْعِ الْكُفَّارِ وَ تَارَةً يَكُونُ بِبَذْلِ الْمَالِ وَ تَارَةً بِبَذْلِ النَّفْسِ وَ تَارَةً بِالْقَلَمِ وَ تَارَةً بِالْيَدِ وَ تَارَةً بِاللِّسَانِ وَ هَكَذَا. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: حَقَّ جِهَادِهِ يَشْمَلُ الْكُلَّ وَ أَمَا قَوْلُهُ: هُوَ أَجْتَبَيْكُمْ مَعْنَاهُ هُوَ إِخْتَارَكُمْ لِلْجِهَادِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَ جِهَادِ أَعْدَاءِهِ فَيَكُونُ ذَلِكَ خُطَاباً مُتَوَجِّهاً إِلَى مَنْ إِخْتَارَهُ اللَّهُ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ.

الثاني: قوله: **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَحْرَكَةً الضِّيقِ وَالشَّدَّةِ وَالْعَسْرِ** وفيه دلالة على أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** (١).

قال بعض المفسرين معناه لم يجعل عليكم ضيقاً في دينكم ولا مالا مخرج منه وذلك أَنَّ منه ما يتخلص منه بالتوبة ومنه ما يتخلص منه برّد المظلمة وليس في دين الإسلام ما لا سبيل الى الخلاص من عقابه إنتهى.

أقول: ما ذكره في معنى الحرج في الآية لا بأس به إلا أَنَّ المراد من نفي الحرج في هذه الآية بقرينة السياق هو نفي الحرج في الجهاد كما إذا كان المتكلف مريضاً أو أعمى أو غير ذلك وأن كان نفي الحرج فيه أيضاً من مصاديق نفي الحرج في الدين وكيف كان فالأمر سهل قال رسول الله ﷺ بعثت الى الشريعة السمحة السهلة وفي رواية الى حنيفة سمحة والأصل في الحكم هو قوله تعالى: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** وهذا وقوله: **مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمِّيَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا قِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَرْجِعُ جَمِيعَهُمْ إِلَى وِلَادَةِ إِبْرَاهِيمَ وَ عَلَى هَذَا فَحَرَمَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَحَرَمَةِ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ وَ قِيلَ لَمَّا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وَلَدِهِ كَالرَّسُولِ وَ رَهْطِهِ وَ جَمِيعِ الْعَرَبِ طَلَبَ الْأَكْثَرَ فَأَضِيفَ إِلَيْهِمْ وَ جَاءَ قَوْلُهُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ بِإِعْتِبَارِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَرَكَ الْأَوْثَانَ وَ الْأَصْنَامَ وَ هُوَ الْمَسْئُوقُ لَهُ الْآيَاتُ الْمُتَقَدِّمَةُ فَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى الْإِتِّبَاعِ فِي تَفْصِيلِ الشَّرَائِعِ وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **هُوَ سَمِّيَكُمْ** عَائِدٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَ هُوَ أَقْرَبُ مَذْكَورٍ وَ لَكُلِّ نَبِيِّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ وَ دَعَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: **رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ ارْنَا مَنَاسِكَنَا وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** (٢) فاستجاب الله له فجعلها أمة محمد ﷺ و قيل الضمير يعود الى الله و به قال ابن عباس و مجاهد أي أَنَّ**

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ١٧

المجلد العادي عشر

اللَّهُ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ، وَ الْحَقُّ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ^(١) وَقَوْلِهِ: مِنْ قَبْلُ أَيَّ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ، وَ فِي هَذَا، يَعْنِي الْقُرْآنَ وَ قِيلَ مَعْنَاهُ فِي هَذَا الْأَوَانِ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ الْمَعْنَى لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ أَطَاعَ فِي تَبْلِيغِهِ وَ عَصِيَانِ مَنْ عَصَى وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ وَ أَنَّ الرَّسُلَ قَدْ بَلَّغْتَهُمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ وَ سَنَّةِ نَبِيِّهِمْ وَ إِذْ خَصَّكُمْ بِهَذِهِ الْكِرَامَةِ فَاعْبُدُوهُ وَ ثَقَّوْا بِهِ وَ لَا تَطْلُبُوا النَّصْرَةَ وَ الْوَلَايَةَ إِلَّا مِنْهُ فَهُوَ خَيْرٌ مَوْلَى وَ نَاصِرٌ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ فَقَالَ: فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ أَيَّ بَدِينِهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ أَيَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نِعْمَ الْمَوْلَى لَكُمْ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ، أَيَّ النَّاصِرِ وَ الدَّافِعِ عَنِ الْخَلْقِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَ لِنَشْرِ الْإِلَى بَعْضَ مَا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

مارواه الكليني رضي الله عنه في أصول الكافي بأسناده عن بريد العجلي قال قلت لأبي جعفر قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ أَسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ أَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَيْكُمْ قَالَ عليه السلام: إِيَّانَا عَنِي وَ نَحْنُ الْمَجْتَبِيُّونَ وَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ فَالْحَرْجُ أَشَدُّ مِنَ الضِّيْقِ، مِلَّةً أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ، إِيَّانَا عَنِي خَاصَّتْهُ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَمَّانَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي مَضَتْ، وَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، فَرَسُولُ اللَّهِ الشَّهِيدُ عَلَيْنَا بِمَا بَلَّغْنَا عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى وَ نَحْنُ الشُّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ صَدَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقْنَاهُ وَ مَنْ كَذَبَ كَذَبْنَاهُ إِنَّتَهَى.

و عن فضيل بن عياض عن أبي عبد الله قال سألته عن الجهاد أسنةً هو أم فريضة فقال الجهاد على أربعة أوجه فجهادان فرض، و جهادٌ سنّة لا يقام إلا مع فرضٍ، و جهاد سنّةٍ، فأما أحد الفرضين فمجاهدة الرّجل نفسه عن معاصي الله و هو من أعظم الجهاد، و مجاهدة الذين يلونكم من الكفّار فرضٌ.

و أمّا الجهاد الذي هو سنّة لا يقام إلا مع فرض فإنّ مجاهدة العدو فرضٌ على جميع الأمّة ولو تركوا الجهاد لأتاهم العذاب وهذا هو من عذاب الأمّة وهو سنّة على الأنام أن يأتي العدو مع الأمّة فيجاهدهم و أمّا الجهاد الذي هو سنّة فكلّ سنّةٍ أقامها الرّجل و جاهد في إقامتها و بلوغها و إحيائها فالعمل و السّعي فيها من أفضل الأعمال فإنّه أحيا سنّة قال النّبي من سنّ سنّةً حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء إنتهى.

و عن محاسن البرقي بأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا إِلَى قَوْلِهِ مَنْ خَرَجَ فِي الصَّلَاةِ وَ الرِّكَاعَةِ وَ الصَّوْمِ وَ الْخَيْرِ إِذَا تَوَلَّوْا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ أُولُوا الْأَمْرِ مِمَّا أَهْلَ الْبَيْتِ قَبْلَ اللَّهِ أَعْمَالُهُمْ إِنْتَهَى الْأَحَادِيثَ نَقَلْنَاهَا عَنْ تَفْسِيرِ نَوْرِ الثَّقَلَيْنِ ^(١).

ختامه مسك و في ذلك فليتنافس في المتنافسون، هذا آخر الكلام في تفسير الجزء السّابع عشر من هذا السّفر الجليل.

الفهرست

٩	سُورَةُ الْكَهْفِ
٩	الآيات ٧٥ إلى ٨٢
٢١	الآيات ٧٥ إلى ١١٠
٢٣	اللُّغَةُ
٢٣	الإِعْرَابُ
٢٤	التَّفْسِيرُ



٥٣	سُورَةُ مَرْيَمَ
٥٣	الآيات ١ إلى ١٥
٥٤	اللُّغَةُ
٥٤	الإِعْرَابُ
٥٥	التَّفْسِيرُ
٧٢	الآيات ١٦ إلى ٢٢
٧٨	الآيات ٢٣ إلى ٤٠
٧٨	اللُّغَةُ

٧٩	الإعراب.....
٧٩	التفسير.....
١٠٠	الآيات ٤١ إلى ٥٠.....
١٠٠	اللغة.....
١٠١	الإعراب.....
١٠١	التفسير.....
١١٠	الآيات ٥١ إلى ٦٥.....
١١١	اللغة.....
١١١	الإعراب.....
١١١	التفسير.....
١٢٨	الآيات ٦٦ إلى ٩٨.....
١٢٩	اللغة.....
١٣٠	الإعراب.....
١٣١	التفسير.....



١٦٥	سُورَة طه.....
١٦٥	الآيات ١ إلى ٣٥.....
١٦٦	اللغة.....
١٦٧	الإعراب.....
١٦٨	التفسير.....
٢١٠	الآيات ٣٦ إلى ٤٩.....
٢١١	اللغة.....

٢١١	الإعراب.....
٢١١	التفسير.....
٢٢٩	الآيات ٥٠ الى ٧٠.....
٢٣٠	اللغة.....
٢٣١	الإعراب.....
٢٣٢	التفسير.....
٢٥٤	الآيات ٧١ الى ٨٤.....
٢٥٥	اللغة.....
٢٥٥	الإعراب.....
٢٥٦	التفسير.....
٢٧٨	الآيات ٨٥ الى ١٠٣.....
٢٧٩	اللغة.....
٢٨٠	الإعراب.....
٢٨٠	التفسير.....
٣٠١	الآيات ١٠٤ الى ١٢٦.....
٣٠٢	اللغة.....
٣٠٣	الإعراب.....
٣٠٣	التفسير.....
٣٣٠	الآيات ١٢٧ الى ١٣٤.....
٣٣٠	اللغة.....
٣٣١	الإعراب.....
٣٣١	التفسير.....

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ ٣٤٥

الآيات ١ الى ٢٠ ٣٤٥

اللُّغَةُ ٣٤٦

الإعراب ٣٤٧

التفسير ٣٤٨

الآيات ٢١ الى ٣٥ ٣٦٦

اللُّغَةُ ٣٦٧

الإعراب ٣٦٧

التفسير ٣٦٨

الآيات ٣٦ الى ٤٧ ٤٠٥

اللُّغَةُ ٤٠٦

الإعراب ٤٠٦

التفسير ٤٠٦

الآيات ٤٨ الى ٧٠ ٤٢٥

اللُّغَةُ ٤٢٦

الإعراب ٤٢٦

التفسير ٤٢٨

الآيات ٧١ الى ٨٢ ٤٤٩

اللُّغَةُ ٤٥٠

الإعراب ٤٥٠

التفسير ٤٥١

الآيات ٨٣ الى ٩١ ٤٦٩

اللُّغَةُ ٤٦٩

٤٧٠	الإعراب.....
٤٧٠	التفسير.....
٤٨١	الآيات ٩٢ إلى ١٠٣.....
٤٨١	اللغة.....
٤٨٢	الإعراب.....
٤٨٢	التفسير.....
٤٩٥	الآيات ١٠٤ إلى ١١٢.....
٤٩٥	اللغة.....
٤٩٦	الإعراب.....
٤٩٦	التفسير.....



سُورَةُ الْحَجِّ..... ٥٠٤

٥٠٤	الآيات ١ إلى ١٠.....
٥٠٥	اللغة.....
٥٠٦	الإعراب.....
٥٠٦	التفسير.....
٥٢٤	الآيات ١١ إلى ٢٢.....
٥٢٥	اللغة.....
٥٢٥	الإعراب.....
٥٢٥	التفسير.....
٥٢٧	الآيات ٢٣ إلى ٣٣.....
٥٢٨	اللغة.....

٥٢٩	الإعراب.....
٥٢٩	التفسير.....
٥٥٤	الآيات ٣٤ إلى ٤٠.....
٥٥٥	اللغة.....
٥٥٦	الإعراب.....
٥٥٦	التفسير.....
٥٦٦	الآيات ٤١ إلى ٥٠.....
٥٦٦	اللغة.....
٥٦٧	الإعراب.....
٥٦٧	التفسير.....
٥٧٦	الآيات ٥١ إلى ٦٠.....
٥٧٧	اللغة.....
٥٧٧	الإعراب.....
٥٧٧	التفسير.....
٥٩٢	الآيات ٦١ إلى ٧٢.....
٥٩٣	اللغة.....
٥٩٣	الإعراب.....
٥٩٤	التفسير.....
٦٠٧	الآيات ٧٣ إلى ٧٨.....
٦٠٧	اللغة.....
٦٠٨	الإعراب.....
٦٠٨	التفسير.....